إِعْلَامُ البَرِيَّةِ

بِبَعْضِ البِدَعِ العَقَدِيَّةِ التِيْ ابْتَدَعَهَا مُدَّعُو السَّلَفِيَّةِ

إِعْلَامُ البَرِيَّةِ

بِبَعْضِ البِدَعِ العَقَدِيَّةِ التِيْ ابْتَدَعَهَا مُدَّعُو السَّلَفِيَّةِ

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر

عَلِيْ مِقْدَادِيْ الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

إِعْلَامُ البَرِيَّةِ بِبَعْضِ البِدَعِ العَقَدِيَّةِ التِيْ ابْتَدَعَهَا مُدَّعُو السَّلَفِيَّةِ

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر عَلِيْ عَايِدْ مِقْدَادِيْ الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

الطَّبعة : الأولى/ ٢٠٢٢م /

بِسْمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحِيْم

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية () إبراهيم، علي عايد

إِعْلَامُ البَرِيَّةِ بَعْضِ البِدَعِ العَقَدِيَّةِ التِيْ ابْتَدَعَهَا مُدَّعُو السَّلَفِيَّةِ، علي عايد إبراهيم / إربد ، المؤلِّف

() ص . ر.إ. :

الواصفات : الله / الصفات الإلهية / التنزيه/ الإيمان بالله/ أركان الإيمان/ العقيدة الإسلاميَّة

الرَّقم المعياري الدَّولي للكتاب :

ISBN () (ردمك)

المُقَدِّمَةُ

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا ، من يَهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران : ١٠٢] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب : ٧٠ – ٧١] .

أمَّا بعد :

فمن المعلوم أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بيَّن لنا أنَّ البدع واقعة في الدِّين ، فقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " . أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ١٦ برقم ٢٥) .

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أيضاً : " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ ". أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٧٠ برقم ٢٦٨٦٠) ، مسلم (٣/ ١٣٤٣) ، ابن ماجه (١/ ٧ برقم ١٤) ، ابن حبَّان في الصحيح (١/ ٢٠٨ برقم ٢٦) ، الدارقطني في السنن (٥/ ٤٠٢ برقم ٤٥٣٤) ، الشهاب القضاعي في المسند (١/ ٢٣١ برقم ٣٥٩) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ٢٥٢ برقم ٢٠٥٣٦) ، السنن الصغير (٤/ ١٣١ برقم ٣٢٥٣) .

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أيضاً : " : " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّة حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّة سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " . أخرجه مسلم (٢/ ٧٠٤ برقم ١٠١٧ ، واللفظ له) ، الطيالسي في المسند (٢/ ٥٥ برقم ٧٠٥) ، ابن الجعد في المسند (ص٨٩ برقم ٥١٦) ، ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١٠٩ برقم ٩٨٩٦) ، أحمد في المسند (٤/ ٣٥٧ برقم ١٩٣٦٩) ، النسائي في السنن الكبرىٰ (٣/ ٦٠ برقم ٢٣٤٦) ، الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٢٢٣ برقم ٢٤٣) ، ١٤٩٤م ، ابن حبَّان في الصحيح (٨/ ١٠١ برقم ٣٣٠٨)، الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٣٢٨ برقم ٢٣٧٢) ، المعجم الأوسط (٨/ ٣٨٤ برقم ٨٩٤٦) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ٥٥ برقم ٣) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٤/ ٢٩٣ برقم ٧٧٤١) ، السنن الصغير (٢/ ٦٨ برقم ١٢٤٧) ، الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد علىٰ مذهب السلف

وأصحاب الحديث (ص٢٣٠) ، شعب الإيمان (٥/ ٢٦ برقم ٣٠٤٨) ، البغوي في شرح السُّنَّة (٦/ ١٦٠ برقم ١٦٦١) ، أبو عوانة في المسند (١/ ١٤٢ برقم ٤٨٨) .

وبناء علىٰ ما جاء في الحديث السَّابق ، فإنَّ البدع علىٰ قسمين : بدعٌ حسنةٌ ، وهي التي لها أصل في الدِّين ... ، وبدعٌ سيِّئةٌ ، وهي التي لا أصل لها في الدِّين ، فما كان لها أصل في الدِّين فهي من الدِّين ، وخارجة عن الضَّلالة وكذا العمل بها ، والتي لا أصل لها في الدِّين ، فهي ليست من الدِّين ، وداخلة في الضَّلالة ، وكذا العمل بها ...

وعلىٰ ضوء ما أرشد إليه الحديث السَّابق ، فقد ذهب العديد من العلماء إلىٰ تقسيم البدعة إلىٰ : بدعة حسنة وأُخرىٰ سيِّئة ، كما قسَّموا البدعة الحسنة إلىٰ خمسة أقسام ، منها : ما يجبُ القيام به ، كصناعة آلات الحرب وعدَّته ، وكذا تعلُّم الأدلَّة والحُجج التي تقطع حُجج الخصوم في المناظرات الدِّينيَّة ، ومنها : ما هو مندوبٌ ، كتصنيف كُتُب العلم ، ومنها : ما هو مباح ، كالتَّبسُّط في ألوان الطَّعام والشَّراب ، ومنها : ما هو مكروه كزخرفة المساجد ، ومنها : ما هو حرام ، كمذهب المجسِّمة ، والمُشبِّهة ، والمرجئة ...

وسبيل معرفة ذلك لا يكون إلَّا بعَرْض المُحْدَث علىٰ قواعد الشَّريعة ، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة ، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة ، وإن دخلت في قواعد المُباح فهي مُباحة ، وإن دخلت في قواعد المكروه فهي مكروهة ، وإن دخلت في قواعد الحرام فهي محرَّمة ...

وقد دلَّت علىٰ البدع الحسنة أدلَّة عديدة من الكتاب والسُّنَّة ، منها قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد: ٢٧] ، فَهُم من ابتدعَها ، ولذلك عاتبهم اللهُ علىٰ تركها ، وذمَّهم علىٰ ترك رعاية ما ابتدعوا ... ولا شكَّ في أنَّ ما ابتدعوا كان حسناً ومرضيّاً عند الله تعالىٰ ... ولذلك عاتبهم علىٰ تركها وعدم رعايتها ...

وقد بيَّن الله سبحانه تعالى في الآية الكريمة أنَّه آتى الذين رَعوها حقَّ رعايتها الأجر على ما ابتدعوا ، فقال تعالى : ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧] . فمن ابتدع بدعة طيِّبة حسنة موافقة للدِّين فله أجره بنصِّ الكتاب العزيز ، والأجر لا يتحصَّل إلَّا إذا كان العمل مرضيّاً عنه عند الله تعالى ...

وهناك أدلَّة عديدة تضمَّنها هذا الكتاب ، دلَّت دلالة صريحة على البدع الحسنة ، التي هي من الدِّين ، ولم يُخالف في ذلك إلَّا فئة قليلة أشاحت بوجهها عن الحقِّ بعدما تبيَّن ، وتنكَّبت سبيل الأمَّة ، فكانت سبباً في اختلاف كلمتها ، ، وتشتُّت شملها ، وتنازع وتناحر أبنائها ، حتى كفَّر بعضهم بعضاً ، وقاتل بعضهم بعضاً ، واستحلَّ بعضهم دماء بعض ... انظر : "عنوان المجد في تاريخ نجد " لعثمان بن عبد الله بن عثمان بن البشر والمشهور باسم ابن بشر (١٨٧١م) الموافق (١١٩٤هـ - ١٢٩٠هـ) وهو كتاب أرَّخ للحركة الوهابية ، وذكر فيه من الفضائع التي ارتكبها الوهابية ما يشيب له الوليد ...

مع أنَّ الله تعالى أمرنا باتِّباع المؤمنين ، ونهانا عن ترك سبيلهم ، فقال : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ...

لقد ابتليت الأمَّة الإسلاميَّة في عدَّة فترات زمنيَّة بمن كانوا سبباً لشقاوتها ، وانتكاستها ، وتشرذُمِها ، وذهاب ريحها ، وبالتَّالي طمع الأعداء فيها ... أولئك النَّفر الذين قتلهم تقليد الرِّجال ، والدِّفاع بل والقتال من أجل نُصرة ما يعتقدون ، ولو أُريقت بسببه الدِّماء ، وتطايرت الأشلاء ، كما حدث في القرن الثَّاني عشر الهجري ، من قِبَلِ أُناس لم يقبلوا إلَّا بما قاله ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم ، بل جعلوا كلامهما ميزاناً وزنوا به كلَّ شيء حتَّى وصل إلى عقائد النَّاس ، مع أنَّ ابن تيمية سُجن عدَّة مرَّات بسبب مخالفاته الشَّرعيَّة المُختلفة لعموم الأمَّة الإسلاميَّة ... ومات في السِّجن بسبب العديد من أقواله التي ما سبقه إليها أحد ...

والغريب العجيب في الأمر أن تجعل هذه الفئة من السَّلف الصَّالح شمَّاعة علَّقت عليها الكثير من أقوالها ومعتقداتها التي لم يقل بها السَّلف الصَّالح أصلاً ، بل إنَّ بعضها هو ممَّا يضاد آيات الكتاب العزيز ، وصحيح سُنَّة الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

ولم ترعوي تلك الفئة القليلة القليلة لأدلَّة الشَّرع المُطالبة بنبذ الشِّقاق والنِّزاع كقوله تعالىٰ : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورىٰ: ١٣] .

وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَلاَ تَخْتَلِفُوا ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا " . أخرجه البخاري (٤/ ١٧٥ برقم ٣٤٧٦) ، الطيالسي (١/ ٣٠٤ برقم ٣٨٧) ، البغوي في شرح السُّنَّة (٤/ ٥٠٦ برقم ١٢٢٩) .

... بل أدارت هذه الفئة ظهرها وأشاحت بوجهها عن كلِّ توجيهات الكتاب والسُّنَّة الدَّاعية لنبذ الخلاف ، فقاموا يدعون لفكرهم بكلِّ رعونة وعنجهيَّة وهمجيَّة ، من خلال منطق عقيم ، وفهمٍ سقيم ، وجهلٍ عميم، وتطاول علىٰ الحقِّ وأهله عظيم ... غير آبهين ولا مكترثين بما أحدثه فكرهم للأمَّة من أزمات ومصائب ومعاطب ونكبات ...

يقول الإمام محمَّد بن علوي المالكي (١٤٢٥هـ) : " ... وإنَّ من الأدعياء أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلىٰ السَّلف الصَّالح ، فقاموا يدعون إلىٰ السَّلفيَّة في همجيَّة جهلاء ، وعصبيَّة عمياء ، وبعقول عقيمة ، وأفهام سقيمة ، وصدور ضيِّقة ، تُحارب كلَّ جديد ، وتنكر كلَّ مخترع مفيد ، بدعوىٰ أنَّه بدعة ، وأنَّ كلَّ بدعة ضلالة ، دون التَّفريق بين أنواع البدعة ، مع أنَّ روح الشَّريعة الإسلاميَّة توجب علينا أن نميِّز بين أنواع البدعة وأن نقول : إنَّ منها البدعة الحسنة ، ومنها البدعة السيِّئة ، وهذا ما يقتضيه العقل النيِّر والنَّظر الثَّاقب .

وهذا ما حقَّقه علماء الأصول من سلف هذه الأمَّة ، رضي الله عنهم ، كالإمام العزِّ ابن عبد السَّلام ، والنَّووي ، والسُّيوطي ، والمحلِّي ، وابن حجر .

والأحاديث النَّبويَّة يفسِّر بعضها بعضاً ، ويكمِّل بعضها بعضاً ، ولا بدَّ من النَّظر إليها نظرة واحدة متكاملة ، ولا بدَّ من تفسيرها بروح الشَّريعة ومفهومها ، المتَّفق عليه بين أهل النَّظر .

ولذا نجد كثيراً من الأحاديث الشَّريفة تحتاج في تفسيرها إلىٰ عقْل عاقِل ، وفكر ثاقب ، وفهم لائق ، وقلب ذائق ، يستمدُّ من بحر الشَّريعة الغرَّاء ، ويراعي أحوال الأمَّة وحاجتها ، ويسايرها في حدود القواعد الشَّرعيَّة ، والنُّصوص القرآنيَّة النَّبويَّة التي لا يجوز الخروج عنها .

ومن أمثلة ذلك هذا الحديث : " كلُّ بدعة ضلالة " ، فلا بدَّ من القول : أنَّ المراد بذلك البدعة السَّيِّئة التي لا تدخل تحت أصل شرعيٍّ .

وهذا التَّقييد واردٌ في غير هذا الحديث كحديث : " لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ " . أخرجه ابن أبي شيبة في المُصنف (١/ ٣٤٥ برقم ٣٤٨٨) ، محمَّد بن نصر المَرْوَزِي في تعظيم قدر الصَّلاة (٢/ ٥٧٥) ، الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٩٤) ، الدارقطني في السنن (٢/ ٢٩٢ برقم ١٥٥٢) ، الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين (١/ ٣٧٣ برقم ٨٩٨) ، البيهقي في معرفة السنن والآثار (٢/ ٣٣٨ برقم ١٤٢٨) ، السنن الكبرىٰ (٣/ ٨١ برقم ٤٩٤٢) ، عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (١/ ٤٩٧ برقم ١٩١٥) .

فهذا الحديث مع أنَّه يفيد الحصر في نفي صلاة جار المسجد ، إلَّا أنَّ عمومات الأحاديث تفيد تقييده بأن لا صلاة كاملة .

وكحديث : " لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ " . أخرجه مسلم (١/ ٣٩٣ برقم ٥٦٠) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ١٠٤ برقم ٥٠٣٧) .

قالوا : أي : صلاة كاملة .

وكحديث : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " . أخرجه البخاري (١/ ١٢ برقم ١٣) ، الطيالسي (٣/ ٤٩٧ برقم ٢١١٦) ، أحمد في المسند ، (٣/ ٢٧٨ برقم ١٤٠٠٨) ، الدارمي (٣/ ١٨٠١ برقم ٢٧٨٢) ، الترمذي (٤/ ٢٤٨ برقم ٢٥١٥ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ) ، ، محمَّد بن نصر المَرْوَزِي في تعظيم قدر الصَّلاة (١/ ٤٤٧ برقم ٤٦١) ، النسائي في السنن الكبرىٰ (٦/ ٥٣٤ برقم ١١٧٤٧) ، السنن الصغرىٰ (٨/ ١١٥ برقم ٥٠١٦) أبو عوانة في المستخرج (١/ ٤١ برقم ٩١) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٨/ ١٦٧ برقم ٨٢٩٢) ، ابن منده في الإيمان (١/ ٤٤٢ برقم ٢٩٦) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٥/ ٩٨٥ برقم ١٦٤٦) ، البيهقي في الآداب (١/ ٤٦ برقم ١١٠) ، شعب الإيمان (١٣/ ٤٥٦ برقم ١٠٦١٣) ، البغوي في شرح السُّنَّة (١٣/ ٦٠ برقم ٣٤٧٤) ، ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٣٦ برقم ٦٧٧) ، أبو يعلىٰ الموصلي في المسند (٥/ ٤٢٧ برقم ٢٩٥٠) .

قالوا : أي إيماناً كاملاً .

وكحديث : " وَاللهَّ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللهَّ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللهَّ لاَ يُؤْمِنُ قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : الْجَارُ ، جَارٌ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ : شَرُّهُ " . أخرجه أحمد في المسند ، (٢/ ٢٨٨ برقم ٧٨٦٥) ، البخاري (٨/ ١٠ برقم ٦٠١٦) ، البزار (١٥/ ١٦٤ برقم ٨٥١٣) ، محمَّد بن نصر المَرْوَزِي في تعظيم قدر الصَّلاة (٢/ ٥٩٠ برقم ٦٢٢) ، الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٧ برقم ٤٨٧) ، الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٥٣ برقم ٢١) ، البيهقي في الآداب (ص٢٨ برقم ٦٦) ، شعب الإيمان (١٢/ ٨٦ برقم ٩٠٨٧) .

وكحديث : " لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ " . أخرجه البخاري (٨/ ١٧ برقم ٦٠٥٦) ، الأدب المفرد ، (ص١١٩ برقم ٣٢٢) ، مسلم (١/ ١٠١ برقم ١٠٥) ، الطيالسي (١/ ٣٣٧ برقم ٤٢٢) ، الحميدي في المسند (١/ ٢١٠ برقم ٤٤٣) ، أحمد في المسند (٥/ ٣٨٢ برقم ٢٣٦٣٦) ، أبو داود (٤/ ٢٦٨ برقم ٤٨٧١) ، الترمذي (٣/ ٤٤٣ برقم ٢٠٢٦ ، وقال : وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) ، البزار ، (٧/ ٣٥٦ برقم ٢٩٥٤) ، محمَّد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصَّلاة ، (٢/ ٦٢٦) ، النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٣١٠ برقم ١١٥٥٠) ، الدولابي في الكنى والأسماء (١/ ٢٩٩ برقم ٥٢٠) ، ابن خزيمة في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلَّ (٢/ ٨٤٤) ، أبو عوانة في المستخرج (١/ ٣٩ برقم ٨٦) ، ابن حبان في الصحيح (١٣/ ٧٨ برقم ٥٧٦٥) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٢٧٨ برقم ٤١٩٢) ، المعجم الصغير (١/ ٣٣٨ برقم ٥٦١) ، المعجم الكبير (٣/ ١٦٨ برقم ٣٠٢١) ،ابن منده في الإيمان (٢/ ٦٤٦ برقم ٦٠٩) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ١٧٨) ، القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٥٨ برقم ٨٧٦) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٨٧ برقم ١٦٦٧٢) ، معرفة السنن والآثار (١٤/ ٣٨٣ برقم ٢٠٨٥٥) ، الآداب (ص٤٤ برقم ١٠٨) ، شعب الإيمان (١٣/ ٤٤١ برقم ١٠٥٩١) ، البغوي في شرح السُّنَّة (١٣/ ١٤٧ برقم ٣٥٦٩) ، الحميدي في المسند (١/ ٤٠٩ برقم ٤٤٨) ، ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٢٩ برقم ٢٦٥٨٥) .

وكحديث : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ " . أخرجه معمر بن راشد في الجامع (١١/ ١٧٤ برقم ٢٠٢٤١) ، البخاري في الأدب المفرد (ص٣٧ برقم ٦٤) ، مسلم (٤/ ١٩٨١ برقم ٢٥٥٦) ، أبو داود (٢/ ١٣٣ برقم ١٦٩٦) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣١ برقم ٣٥٣٧) ، مسند الشاميين (٣/ ٥٢ برقم ١٧٩١) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٠٨) .

وكحديث " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ لِوَالِدَيْهِ " . أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلّ (٢/ ٨٦٥) ، الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/ ٣٧٤ برقم ٩١٥) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ١٩ برقم ٢٣٣٥) ، مسند الشاميين (٣/ ٢٥٤ برقم ٢٢٠٠) ، البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٢٧٦ برقم ٧٤٨٩) ، عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (٧/ ٣٤٥ برقم ١٣٨٥٩) .

فالعلماء قالوا : إنَّه لا يدخل دخولاً أوَّليّاً أو لا يدخل إذا كان مستحلّاً لذلك الفعل .

الحاصل أنَّهم لم يجروه على ظاهره ، وإنَّما أوَّلوه بأنواع التَّأويل .

وحديث البدعة هذا من هذا الباب ، فعمومات الأحاديث وأحوال الصَّحابة تفيد أنَّ المقصود به البدعة السَّيئة التي لا تندرج تحت أصل كلِّي .

وفي الحديث : " " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّة حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّة سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " . وفي الحديث : " عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيِّن " ، ويقول عمر في صلاة التَّراويح : نِعْمَتِ البِدْعَة هَذِه " . انظر : مفاهيم يجب أن تُصحَّح (ص١٠٢-١٠٣) .

ومن أجل تجلية الكلام في مسألة البدع والابتداع ، وإثبات أنَّ من يزعمون السَّلفيَّة غارقون إلى أذقانهم في بدع وطامَّات عقديَّة لا أصل لها ولا فصل في الكتاب العزيز ولا في السُّنَّة المطهَّرة المحمَّديَّة ، ولا زمام ولا خطام في الملَّة الإسلاميَّة ...كان هذا الكتاب الذي اشتمل على مقدِّمة وأربعة وعشرين فصلاً ، هي :

الفَصْلُ الأَوَّلُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالقَوْلِ بِحَوَادِث لَا أَوَّلَ لَهَا .

الفَصْلُ الثَّانِي : بِدْعَةُ القَوْلِ بِأَنَّ لله تَعَالَى كَيْفَاً مَجْهُوْلاً .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالجِسْمِيَّةِ وَالجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ لله تَعَالَى .

الفَصْلُ الرَّابِعُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ لله تَعَالَى صُوْرَة وَأَنَّ صُوْرَتَهُ كَصُوْرَةِ الإِنْسَان .

الفَصْلُ الخَامِسُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالصَّوْتَ صِفَةً لله تَعَالَى .

الفَصْلُ السَّادِسُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ الله يَشْعُرُ بِالمَلَلِ .

الفَصْلُ السَّابِعُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِ بَعْضِهِم بِأَنَّ الله يَتَوَجَّع.

الفَصْلُ الثَّامِنُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ الله فِيْ مَكَان يُسَمُّوْنَهُ بِالمَكَانِ العَدَمِي .

الفَصْلُ التَّاسِعُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهِم بِأَنَّ بالعُلُوّ الحَقِيْقِي صِفَةً لله تَعَالَى .

الفَصْلُ العَاشِرُ : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالقُعُوْدَ وَالجُلُوْس صِفَةً لله تَعَالَى .

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالحَدِّ صِفَةً لله تَعَالَى .

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ الله يَلْمَسُ وَيُلْمَس .

الفَصْلُ الثَّالِثُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادُهُم بِالقُرْبِ المَادِّيِّ صِفَةً لله تَعَالَى .

الفَصْلُ الرَّابِعُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالنُّزُوْلِ وَالهَرْوَلَةِ بِمَعْنَىٰ النُّقْلَةَ وَالحَرَكَةَ صِفَةً لله تَعَالَىٰ .

الفَصْلُ الخَامِسُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ المَقَامَ المَحْمُوْدَ هُوَ أَنْ يُجْلِسَ اللهُ رَسُوْلَهُ مُحَمَّدَاً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ العَرْشِ مَعَه ؟

الفَصْلُ السَّادِسُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِتَعَدُّدِ التَّوْحِيْد .

الفَصْلُ السَّابِعُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِ بعضهم بفناء النَّار .

الفَصْلُ الثَّامِنُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ التَّفْوِيْضَ مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ وَالإِلْحَاد

الفَصْلُ التَّاسِعُ عَشَر : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ التأويل بدعة لم يقل به السَّلف .

الفَصْلُ العِشْرُوْن : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ خَبَرَ الوَاحِدِ مفيد لِلْعِلْم .

الفَصْلُ الحَادِيْ وَالعِشْرُوْن : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ وَالِدَيْهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّار .

الفَصْلُ الثَّانِي وَالعِشْرُوْن : بِدْعَةُ هَدَمِ الآثَارِ المُتَعَلِّقَة بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجَّةِ مَنْع التَّبَرُّكِ بِهَا .

الفَصْلُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُوْن : بِدْعَةُ اسْتِهَانَتِهِم بِالوُلُوْجِ بِبَابِ تَكْفِيْرِ المُخَالِفِيْنَ لَهُم .

الفَصْلُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُوْن : بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِتَحْرِيْمِ شَدَّ الرَّحْلِ لِزِيَارَةِ قَبْرِ الرَّسُوْلِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْتِبَارِهِ مَعْصِيَةً لَا تُقْصَرُ فِيْهَا الصَّلَاة .

والله تعالىٰ أسأل أن يرزقنا سُبُل الهُدىٰ ، وأن يُجنبنا موارد الهوىٰ والرَّدىٰ ، وسُبُل الغواية والعمىٰ ، ونسأله تعالىٰ أن يعلِّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يزيدنا علماً ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، في السرِّ والعلن ، إنَّه أهل ذلك والقادرُ عليه ...

وَسُبْحَانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ ، إِلَّا أَنْتَ نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوْبُ إِلَيْكَ ،وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْن ...

الفَصْلُ الأَوَّلُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالقَوْلِ بِحَوَادِث لَا أَوَّلَ لَهَا

جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] ، وورد في السُّنَّة المطهَّرة عند مسلم (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣) ، وغيره من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : " اللهُمَّ رَبَّ السَّموات وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كلّ شَيْءٍ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كلّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ، اقْضِ عَنَّا الدَّين ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ " .

والأوَّلُ – سبحانه – هو الذي لم يسبقه في الوجود شيء ، وأنَّ كلّ ما سواه حادث كائن بعد أنْ لم يكن ، قَال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كلّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّموات وَالأَرْض " . أخرجه البخاري (٤/ ١٠٥ برقم ٣١٩١) .

وأوليَّة الله تعالى ليست بالزَّمان ولا بأيِّ شيء يمكن تصوُّره في عقول البشر ، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] ... وبالمعنى السَّابق فسَّر جمهور العلماء اسم الله ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ الوارد في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٣] .

قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) :"يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ:﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قَبْلَ كلّ شَيْءٍ بِغَيْرِ حَدٍّ ،﴿وَٱلْآخِرُ﴾ ، يَقُولُ: وَالْآخِرُ بَعْدَ كلّ شَيْءٍ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لأَنَّه كَانَ وَلَا شَيْءَ مَوْجُودٌ سِوَاهُ، وَهُوَكَائِنٌ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] . انظر : تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨) .

وقال الإمام الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] ، تأويله : هو الأوَّل قبل كلّ شيء ، والآخر بعد كلّ شيء " . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٢٢) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] : الأوَّل قبل كلّ أحد ، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ ، بعد كلّ أحد ... ويقال : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ بلا ابتداء ،﴿وَٱلْآخِرُ﴾ بلا انتهاء " . انظر : بحر العلوم (٣/ ٣٨٠) .

وقال الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ، أي : الذي لم يزل قبل الأشياء كلّها ، لا عن انتهاء مدَّة ﴿وَٱلْآخِرُ﴾[الحديد: ٣] ، أي : الذي لا يزال بعد الأشياء كلّها ، لا إلىٰ انتهاء غاية " . انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٣٢٦) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ ، يعني : هُوَ ٱلْأَوَّلُ قبل كلّ شيء ، بلا حدٍّ ولا ابتداء ، كان هو ولا شيء موجود ... وقال الحسين بن الفضل : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ بلا ابتداء ، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ بلا انتهاء ". انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٢٧-٢٢٨) .

وقال الإمام مكّي بن أبي طالب (٤٣٧هـ) : " أي : هو الأوَّل قبل كلّ شيء بغير حدٍّ " . انظر : الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٣٠٤) .

وقال الإمام ابن عطيَّة في تفسيره (٥/ ٢٥٧) :﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة" .

وقال الإمام البغوي في "معالم التَّنزيل" (ص١٢٧٥) : ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : "السَّابق علىٰ كلّ الموجودات من حيث أنَّه مُوجدها ومُحدثها" .

وقال الإمام الزَّمخشري في " الكشَّاف" (٤/ ٦١) :﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : القديم الذي كان قبل كلّ شيء" .

وقال الإمام ابن الجوزي في "زاد المسير" (ص١٣٩٦) : "قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ، قال أبو سليمان الخطَّابي : هو السَّابق للأشياء" .

وقال الإمام الألوسي في "روح المعاني" (١٤/ ١٦٦) :﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : السَّابق علىٰ جميع الموجودات ، فهو سبحانه موجود قبل كلّ شيء حتَّىٰ الزَّمان ، لأنَّه جلَّ وعلا المُوجد والمُحدث للموجودات" .

وقال الإمام أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٢٠٣) :﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : السَّابق علىٰ سائر الموجودات لما أنَّه مبدئها ومبدعها"

وقال الإمام أبو حيَّان في "البحر المحيط" (٨/ ٢١٦) : ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة".

وقال الإمام البروسوي في "روح البيان"(٩/ ٤١١) : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السَّابق على سائر الموجودات بالذَّات والصِّفات لما أنَّه مبدئها ومبدعها ، فالمُراد بالسَّبق والأوَّلويَّة هو الذَّاتي لا الزَّماني ، فإنَّ الزَّمان من جملة الحوادث" .

وقال الإمام الأصفهاني في "معجم ألفاظ مفردات القرآن" (ص٢٧) : "وإذا قيل في صفة الله ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ، فمعناه : أنَّه الذي لم يسبقه في الوجود شيء" .

وقال الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) : " ... وَأَنَّه قديمٌ لَا أوَّل لَهُ ، أزليٌّ لَا بداية لَهُ ، مُسْتَمر الْوُجُود لَا آخر لَهُ ، أبديٌّ لَا نِهَايَة لَهُ ، قيومٌ لَا انْقِطَاع لَهُ ، دَائِم لَا انصرام لَهُ ، لم يزل وَلَا يزَال مَوْصُوفاً بنعوت الْجلَال ، لَا يُقْضى عَلَيْهِ بالانقضاء ، بِتَصَرُّمِ الآباد وانقراض الْآجَال ، بل هُوَ الأوَّل وَالْآخر وَالْبَاطِن وَالظَّاهِر " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٩) . وللاستزادة أيضاً انظر : تفسير الرَّازي (٢٩/ ١٨٢-١٨٥) .

وعليه ، فمعنى القديم هو ما ذهب إليه العلماء في تفسير اسمه ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ ، ومن المعلوم أنَّه لا مشاحة في الاصطلاح ، وقد أجمعت الأمَّة على أنَّ الله تعالى هو الأوَّل قبل كلّ شيء بلا بداية ، والآخر بعد كلّ شيء بلا نهاية ، وهو الموجود الواجب الوجود ، وأنَّه تعالى لم يزل وحده ، ولا شيء غيرُه معه ، قال ابن حزم رحمه الله ، فيما حكاه من " مراتب الإجماع " (ص١٦٧) : " اتَّفقُوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وَحده لَا شريك لَهُ ، خَالق كلّ شَيْء غَيره ، وَأَنَّه تَعَالَى لم يزل وَحده ، وَلَا شَيْء غَيره مَعَه ، ثمَّ خلق الأشياء كلّها كَمَا شَاءَ ، وَأَنَّ النَّفس مخلوقة ، وَالْعَرْش مَخْلُــوق والعالم كُلُّه مَخْلُوق " .

وقال الإمام الغزالي في " قواعد العقائد" (ص٥٠) : " وَأَنَّه وَاحِدٌ قديمٌ لَا أوَّل لَهُ ، أزليٌّ لَا بداية لَهُ ، مُسْتَمرُّ الْوُجُود لَا آخر لَهُ ، أبديٌّ لَا نِهَايَة لَهُ ، قيُّومٌ لَا انْقِطَاع لَهُ ، دَائِمٌ لَا انصرام لَهُ ، لم يزل مَوْصُوفاً بنعوت الْجلَال ، لَا يُقْضى عَلَيْهِ بالانقضاء والانفصال بتصرُّم الآباد وانقراض الْآجَال ، بل هُوَ الأوَّل وَالْآخر ، وَالظَّاهِر وَالْبَاطِن ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْء عليم " .

قُلْتُ : لم يرد لفظ القديم في القرآن صريحاً ، وإنَّما ورد ضمناً في قوله تعالى : ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾[الحديد : ٣] ، والأوَّل هو الذي لا ابتداء لوجوده ، وقد جاء في الحديث : " إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ... وذكر منها : الْقَدِيم " . أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٦٩ برقم ٣٨٦١) .

والقِدَم معنى عدمي لا وجودي ، وهي صفة سلبيَّة معناها : عدم افتتاح الوجود أو عدم أوَّليَّة الوجود ، فمعنى أنَّه تعالى قديم : أنَّه لا أوَّل لوجوده ، وضدّه الحدوث . وقد ساق المتكلِّمون العديد من الأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة على قِدَمِه تعالى ، منها :

أمَّا الأدلَّة النَّقليَّة على هذه الصِّفة ، فكثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾[الحديد : ٣] . والأوَّل – كما قلنا آنفاً – الذي لا ابتداء لوجوده .

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ " . أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣) .

وفي كتابه "إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين" (٢/ ٢١) ذكر الإمام الزَّبيدي أنَّ الأمَّة أجمعت على وصف الله تعالى بالقِدَم .

وأمَّا الأدلَّة العقليَّة على هذه الصِّفة على قِدَمِه تعالى فكثيرة ، منها :

(١) أنَّه لو لم يكن تعالى قديماً لكان حادثاً ، لكن التَّالي باطل ، فبطل ما أدَّى إليه ، وهو كونه تعالى غير قديم ، وثبت نقيضه ، وهو اتِّصافه تعالى بصفة القِدَم . ودليل بطلان التَّالي هو أنَّه لو كان تعالى حادثاً ، لاحتاج إلى مُحدث ، ومُحدثه إلى مُحدث ، فيدورُ الأمر أو يتسلسل وهما باطلان ...

(٢) أنَّه تعالى لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، ولو كان حادثاً لاحتاج مُحدثه إلى مُحدث ، فلا يكون واجب الوجود ، لكن قد ثبت اتِّصافه بوجوب الوجود ، فاستحال عليه تعالى الحدوث ، وثبت اتِّصافه بالقِدَم . انظر : الإنصاف ، (ص٣٣) ، لمع الأدلة ، (ص٩٧) ، التمهيد لقواعد التَّوحيد ، (ص٤٩) .

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص : ٣] قال الإمام السَّلفي ابن جرير الطَّبري : " وَلَكِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ، وَدَائِمٌ لَمْ يَبِدْ، وَلَا يَزُولُ وَلَا يَفْنَى " . انظر : تفسير الطبري (٣٠/ ٤٥٢) .

وقال أيضاً في "تاريخ الأمم والملوك"(١/ ١٢) : "... والدّلالة على أن لا قديم إلّا الله الواحد القّهار ، الذي له مُلك السّموات والأرض وما بينهما وما تحت الثّرى ...".

وقال فيه أيضاً (١/ ٢٥) : "القول في الدّلالة على أنّ الله عزّ وجلّ القديم الأوّل قبل شيء ...".

فأنت ترى أنّ الإمام السّلفي ابن جرير الطّبري وصف الله تعالى بالقِدَم ، ومع هذا سمعنا من يشنّع على من وصف الله بالقِدَم قائلاً بأنّ السّلف لم يقولوا بذلك!! . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين (٨/ ٤٢٨).

مع العلم أنّنا حين نطلقه على الله تعالى لا نريد إلّا معنى الأوّليّة التي تضمّنها قوله تعالى : ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾[الحديد : ٣].

ومع كون هذه المسألة من المسلّمات الضّروريّة في الدّين إلّا أنّ ابن تيمية – غفر الله له – قال بحوادث لا أوّل لها ... قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح قول رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ " أخرجه البخاري (٩/ ١٢٤ برقم ٧٤١٨) : " ... تَقَدَّمَ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ بِلَفْظِ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ : " كَانَ اللهُ قَبْلَ كلّ شَيْءٍ " ، وَهُوَ بِمَعْنَى : كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهِيَ أَصْرَحُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَثْبَتَ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا مِنْ رِوَايَةِ الْبَابِ ، وَهِيَ مِنْ مُسْتَشْنَعِ الْمَسَائِلِ الْمَنْسُوبَةِ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ !!! وَوَقَفْتُ فِي كَلَامٍ لَهُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُرَجِّحُ الرِّوَايَةَ الَّتِي فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى غَيْرِهَا مَعَ أَنَّ قَضِيَّةَ الْجَمْعِ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ تَقْتَضِي حَمْلَ هَذِهِ عَلَى الَّتِي فِي بَدْءِ الْخَلْقِ لَا الْعَكْسَ ، وَالْجَمْعُ يُقَدَّمُ عَلَى التَّرْجِيحِ بِالِاتِّفَاقِ .

قَالَ الطِّيبِيُّ : قَوْلُهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ " حَالٌ ، وَفِي الْمَذْهَبِ الْكُوفِيِّ خَبَرٌ وَالْمَعْنَى يُسَاعِدُهُ إِذِ التَّقْدِيرُ : كَانَ اللهُ مُنْفَرِدًا ، وَقَدْ جَوَّزَ الْأَخْفَشُ دُخُولَ الْوَاوِ فِي خَبَرِ كَانَ وَأَخَوَاتِهَا نَحْوَ : كَانَ زَيْدٌ وَأَبُوهُ قَائِمٌ عَلَى جَعْلِ الْجُمْلَةِ خَبَرًا مَعَ الْوَاوِ تَشْبِيهًا لِلْخَبَرِ بِالْحَالِ ، وَمَالَ التُّورِبِشْتِيُّ إِلَى أَنَّهُمَا جُمْلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ . وَقَالَ الطِّيبِيُّ : لَفْظَةُ كَانَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِحَسَبِ حَالِ مَدْخُولِهَا ، فَالْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ الْأَزَلِيَّةُ وَالْقِدَمُ وَبِالثَّانِي الْحُدُوثُ بَعْدَ الْعَدَمِ ، ثمَّ قَالَ : فَالْحَاصِلُ أَنَّ عَطْفَ قَوْله : " وَكَانَ عَرْشه على الْمَاء " عَلَى قَوْلِهِ : " كَانَ الله " مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ عَنْ حُصُولِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي

الْوُجُودِ وَتفْوِيضِ التَّرْتِيبِ إلىٰ الذِّهْنِ ، قَالُوا : وَفِيهِ بِمَنْزِلَةِ ثمَّ . وَقَالَ الْكرْمَانِي : قَوْله : " وَكَانَ عَرْشه علىٰ المَاء مَعْطُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ : " كَانَ الله " ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْمَعِيَّةُ إِذِ اللَّازِمُ مِنَ الْوَاوِ الْعَاطِفَةِ الِاجْتِمَاعُ فِي أَصْلِ الثُّبُوتِ وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ . قَالَ غَيْرُهُ وَمِنْ ثمَّ جاءَ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَمِنْ ثمَّ جاءَ قَوْلُهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " لِنَفْيِ تَوَهُّمِ الْمَعِيَّةِ . قَالَ الرَّاغِبُ : كَانَ عِبَارَةٌ عَمَّا مَضَىٰ مِنَ الزَّمان لَكِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ وَصْفِ اللهَّ تعَالَىٰ تُنْبِئُ عَنْ مَعْنَىٰ الْأَزَلِيَّةِ كَقَوْلِهِ تعَالَىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب:٤٠] ، قَالَ : وَمَا اسْتُعْمِلَ مِنْهُ فِي وَصْفِ شَيْءٍ مُتَعَلِّقًا بِوَصْفٍ لَهُ هُوَ مَوْجُودٌ فِيهِ فَلِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ لَازِمٌ لَهُ أَوْ قَلِيلُ الِانْفِكَاكِ عَنْهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٧] ، وَقَوله : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[الإسراء:٦٧] . وَإِذَا اسْتُعْمِلَ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي جَازَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَعْمَلُ عَلَىٰ حَالِهِ ، وَجَازَ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَغَيَّرَ نَحْوَ : كَانَ فُلَانٌ كَذَا ثمَّ صَارَ كَذَا ، وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَىٰ أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " ظَاهِرٌ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ كلّ شَيْءٍ سِوَىٰ اللهَّ وُجِدَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا ". انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٠) .

قلت : وكلام ابن تيمية الذي أشار إليه الحافظ ابن حجر موجود في نقد ابن تيمية لكتاب ابن حزم : "مراتب الإجماع " ، قال ابن حزم : " اتَّفقُوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وَحده لَا شريك لَهُ ، خَالق كلّ شَيْء غَيره ، وَأَنَّه تَعَالَىٰ لم يزل وَحده وَلَا شَيْء غَيره مَعَه ، ثمَّ خلق الأشياء كلّها كَما شَاءَ ، وَأَنَّ النَّفس مخلوقة ، وَالْعَرْش مَخْلُوق ، والعالم كُلّه مَخْلُوق " . انظر : مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات (ص١٦٧) .

فردَّ ابن تيمية عليه بقوله : " وليس في خبر الله – أنَّه خلق السَّموات والأرض وما بينهما في ستَّة أيَّام – ما ينفي وجودَ مخلوق قبلهما !!! ولا ينفي أنَّه خلقهما من مادَّةٍ كانت قبلهما !!! كما أنَّه أخبر أنَّه خلق الإنسان وخلق الجنَّ ، وإنَّما خلق الإنسان من مادَّة ، وهي الصَّلصال كالفخَّار ، وخلق الجانَّ من مارج من نار ... ، وهذا الموضع أخطأ فيه طائفتان : طائفة من أهل الكلام من اليهود والمسلمين وغيرهم ، ظنُّوا أنَّ إخبار الله بخلقه للسَّماوات والأرض وما بينهما يقتضي أنَّهما لم يُخلَقا من شيء ، بل لم يكن قبلهما موجود إلَّا الله ...

وطائفة أخرىٰ أبعد عن الشَّرع والعقل من هؤلاء : يتأوَّلون خلق السَّموات والأرض بمعنىٰ التَّولُّد والتَّعليل والإيجاب بالذَّات ، ويقولون : إنَّ الفلك قديم أزلي معلول للرَّب ، وأنَّه يوجب بذاته ، لم يزل ولا يزال ، وقولهم بالإيجاب هو معنىٰ القول بالتَّولُّد ، فإنَّما حصل عن غيره بغير اختيار منه ، فقد تولَّد عنه ، لا سيَّما إن كان حيَّاً ... وقد بُسِط الكلام علىٰ هذا في غير هذا الموضع ، وذكر منشئِ غلط الطَّائفتين ، حيث لم يفرِّقوا بين النَّوع والعين ... " . انظر : نقد مراتب الإجماع (٣٠٤-٣٠٦)

قُلْتُ : ومعنىٰ قِدَم العالم بالعين هو : أن لا يكون للعالم بداية في وجوده ، وهو ما عليه الفلاسفة ومن وافقهم ، حيث صرَّحوا بأنَّ مادَّة العالم قديمة ، وصورة بعضه حادثة صورة بعد صورة ، وبعض الصُّور قديمة ، وأنَّ نفس هذا العالم لا بداية له ...

أمَّا قِدَم العالم بالنَّوع ، فمعناه : أن يكون العالم حادثاً مسبوقاً بعالم حادث مسبوقاً بعالم حادث ... إلىٰ ما لا نهاية . فنوع العالم قديم ... والنَّوع ليس شيئاً مخلوقاً أو موجوداً ، بل هو من الأمور الذِّهنيَّة ... وقد وافق ابن تيمية في هذه المسألة : القائلون بوحدة الوجود ...

وملخَّص هذا القول يكمن في أنَّ عالمنا الذي نشاهد ، كان يوجد قبله عالم آخر ، وقبل هذا العالم الآخر كان يوجد عالم ، وهكذا إلىٰ ما لا بداية ، فالعالم قديم بالنَّوع حادث الأفراد .

وهذا القول من الخطورة بمكان ، لدرجة أنَّ العديد من العلماء حكوا الإجماع علىٰ تكفير من قال بقِدَم العالم . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٢٠٢) : " وَقَدْ حَكَىٰ عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ تَكْفِيرِ مَنْ يَقُول بقدم الْعَالم " ، نسأل الله السَّلامة .

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي في كتابه "الفَرق بين الفِرق" (ص٢٦) : "وقد زعم البصريُّون من القدريَّة أنَّ الجواهر والأعْرَاض كانت قبل حدوثها جواهر وأعراضاً ، وقول هؤلاء يؤدِّي إلىٰ القول بقِدَم العالم ، والقول الذي يؤدِّي إلىٰ الكفر ، كفرٌ في نفسه" .

وقال الإمام التَّفتازاني في شرح المقاصد (٥/ ٢٢٧) : "المبحث السَّابع : في حُكم مُخالف الحقّ من أهل القبلة : ليس بكافر ما لم يخالف ما هو من ضروريَّات الدِّين كحدوث العالم ..." .

وقال الإمام السُّبكي في تعليقه على النُّونيَّة (ص٣١) : "... مقصوده أنَّ الله ما زال يفعل ، وهذا يستوجب القول بقِدَم العالم ، وهو كُفر" .

وقال الإمام الغزالي في "الاقتصاد في الاعتقاد" (ص٢٦٨) : "الرُّتبة الثَّالثة : الذين يصدِّقون بالصَّانع ويصدِّقون النَّبي ، ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشَّرع ... وهؤلاء هم الفلاسفة ، ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل ... والثَّالثة قولهم : أنَّ العالم قديم ، وأنَّ الله تعالى متقدم على العالم بالرُّتبة مثل تقدُّم العلَّة على المعلول ، وإلَّا فلم ير في الوجود إلَّا متساويين ..." .

والقول بقِدَم العالم بالنَّوع مُخالفٌ لإجماع المسلمين ، قال الإمام ابن حزم في "مراتب الإجماع" (ص٢٦٧) : "باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع : اتَّفقوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وحده لا شريك له ، خالق كلّ شيء غيره ، وأنَّه تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه ، ثمَّ خلق الأشياء كلّها كما شاء ، وأنَّ النَّفس مخلوقة ، والعرش مخلوق ، والعالم كلُّه مخلوق ..." .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي في "الفتاوى الحديثيَّة" (ص١٥٩) ، ذاكراً الأمور التي خرق فيها ابن تيمية الإجماع : " ... وأنَّ العالم قديم بالنَّوع ، ولم يزل مع الله مخلوقاً دائماً ، فجعله موجباً بالذَّات لا فاعلاً بالاختيار ، تعالى الله عن ذلك ..." .

ففي هذا المزلق الخطير – وللأسف – زلَّت قدم الشَّيخ ابن تيمية –غفر الله تعالى له– ولأجله شنَّ عليه العلماء حرباً شعواء ... وقوله بالقِدَم النَّوعي مبثوث في غير ما كتاب من كتبه ، من ذلك :

(١) قوله في بيان تلبيس الجهميَّة (١/١٥٢) : "لم يقل أحد من سلف الأمَّة ولا أئمَّتها أنَّ هذه السَّموات والأرض خلقتا وحدثتا من غير أن يتقدَّمهما مخلوق" .

(٢) وقال أيضاً في نفس المصدر (١/٢٩١) : "وكذلك لم يقل أحد من سلف الأمَّة وأئمَّتها أنَّ السَّموات والأرض لم تُخلقا من مادَّة ، بل المتواتر عنهم !!! أنَّهما خلقتا من مادَّة وفي مدَّة" .

قلت : وهذه جرأة عجيبة من ابن تيمية ، فهلاَّ ذكر لنا واحداً من سلف الأمَّة وأئمَّتها قال بقوله ، سبحانك ربِّي هذا بهتان عظيم .

(٣) وقال في الموافقة المطبوع بهامش منهاج السُّنَّة له (٢/ ٧٥) : "وأمَّا أكثر أهل الحديث ومن وافقهم فإنَّهم لا يجعلون النَّوع حادثاً بل قديماً ، ويفرِّقون بين حدوث النَّوع وحدوث الفرد من أفراده ، كما يفرِّق جمهور العقلاء بين دوام النَّوع ودوام الواحد من أعيانه" .

(٤) وقال في الموافقة أيضاً (١/ ٢٤٥) : "قلت : هذا من نمط الذي قبله فإنَّ الأزلي اللازم هو نوع الحادث لا عين الحادث . قوله : لو كانت حادثة في الأزل لكان الحادث اليومي موقوفاً على انقضاء ما لا نهاية له ، قلنا لا نسلِّم بل يكون الحادث اليومي مسبوقاً بحوادث لا أوَّل لها ..." .

قلت : وعلى هذا الكلام فإنَّ النَّوع دائم أبداً لا يفنى ولا يزول . وقد علَّق الإمام الكوثري على هذا التَّخرُّص ، فقال في تعليقه على النّونيَّة (ص٨٤) : "وأين قِدَم النَّوع مع حدوث أفراده؟ وهذا لا يصدر إلَّا ممَّن به مسّ بخلاف المستقبل ، وقد سبق بيان ذلك ، وقال أبو يعلى الحنبلي في "المعتمد" : والحوادث لها أوَّل ابتدأت منه خلافاً للملاحدة . وهو من أئمَّة النَّاظم - يعني ابن القيم - فيكون هو وشيخه من الملاحدة على رأي أبي يعلى هذا ، فيكونان أسوأ منه في الزَّيغ ، نسأل الله السَّلامة" .

(٥) وقال في منهاج السُّنَّة (١/ ١٠٩) : " وَحِينَئِذٍ فَيُمْتَنَعُ كَوْنُ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ أَزَلِيًّا، وَإِنَّ جَازَ أَنَّ كُونُ نَوْعُ الْحَوَادِثِ دَائِمًا لَمْ يَزَلْ، فإِنَّ الْأَزَلَ لَيْسَ هُوَ عِبَارَةً عَنْ شَيْءٍ مُحَدَّدٍ، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَقَبْلَهُ وَقْتٌ آخَرُ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ دَوَامِ النَّوْعِ قِدَمُ شَيْءٍ بِعَيْنِهِ" .

(٦) وقال في منهاج السُّنَّة (١/ ٢٢٤) : " وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ يَقَعُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا لَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِهِ، فَهُوَ حَادِثُ الْآحَادِ قَدِيمُ النَّوْعِ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ يَقُولُهُ مِنْ أَئِمَّةِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِي وَأَحْمَدَ وَسَائِرِ الطَّوَائِفِ" .

(٧) وقال في بيان تلبيس الجهميَّة (١/ ٥٩٩) : " ويقول الخصم : قولك الحركة حادثة ، قلت : حادثة النَّوع أو الشَّخص ، الأوَّل ممنوع ، والثَّاني مسلَّم " .

وهذا تنصيص منه على أنَّ نوع الحركات قديم ...

(٨) وقال في شرح حديث النُّزول (ص١٥٨) : "وأمَّا المقدِّمة الثَّانية : وهو منع دوام نوع الحادث ، فهذه يمنعها أئمَّة السُّنَّة والحديث ..." .

(٩) وقال في "مجموعة الرَّسائل والمسائل" (٢/ ٣٥٤) : " ... وكلّ مخلوق محدث بعد أن لم يكن ، وإن كان قد خلق من مادَّة ..." .

(١٠) وقال في "مجموعة الرَّسائل والمسائل" (١/ ٣٧٤-٣٧٥) : "وأمَّا جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه النَّاس ، فقيل أنَّ ذلك ممتنع في الماضي والمستقبل كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم بفناء الجنَّة والنَّار . وقال أبو الهذيل بفناء حركات أهلها . وقيل : بل هو جائز في المستقبل دون الماضي ، لأنَّ الماضي دخل في الوجود دون المستقبل ، وهو قول كثير من طوائف النظَّار . وقيل : بل هو جائز في الماضي والمستقبل ، وهذا قول أئمَّة أهل الملل وأهل السُّنَّة ، كعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما ..." .

قلت : وأين قال ابن المبارك وابن حنبل هذا الهُراء ، نبِّئوني بعلم إن كنتم صادقين؟!

(١١) وقد اعترض ابن تيمية على ابن حزم في نقد مراتب الإجماع لنقله الإجماع على أنَّ الله تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه ، فقال : "وأعجب من ذلك حكايته الإجماع على كفر من نازع أنَّه سبحانه لم يزل وحده ولا شيء غيره معه ..." . انظر : نقد مراتب الإجماع المطبوع في ذيل مراتب الإجماع لابن حزم (ص٣٠٣) .

(١٢) كما أشار إلى هذا الاعتراض في "مجموع الفتاوى" (١٨/ ٢٢٢) ، فقال : " أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاس يَجْعَلُونَ هَذَا عُمْدَتَهُمْ مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ: أَنَّ الْحَوَادِثَ لَهَا ابْتِدَاءٌ وَأَنَّ جِنْسَ الْحَوَادِثِ مَسْبُوقٌ بِالْعَدَمِ إذْ لَمْ يَجِدُوا فِي الْكِتَابِ والسُّنَّة مَا يَنْطِقُ بِهِ؛ مَعَ أَنَّهم يَحْكُونَ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي كُتُبِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ؛ وَخَالَفُوا بِهِ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ. وبَعْضُهُمْ يَحْكِيهِ إجْمَاعًا لِلْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ مَعَهُمْ بِذَلِكَ نَقْلٌ لَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَلَا عَنْ الْكِتَابِ والسُّنَّة فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ قَوْلَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ"

(١٣) وقال في شرح حديث عمران بن حصين ، كما في مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٣٩) : " ... وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ نَوْعَهَا لَمْ يَزَلْ مَعَهُ فَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ لَمْ يَنْفِهَا شَرْعٌ وَلَا عَقْلٌ بَلْ هِيَ مِنْ كَمَالِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، وَالْخَلْقُ لَا يَزَالُونَ مَعَهُ" .

قلت : والقول بقدَم العالم بالنَّوع قولٌ لم يسبق ابن تيمية إليه إلَّا الفلاسفة . وهو قول مخالفٌ لمنطوق قول الله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] ، وقد أفضنا فيما سبق الكلام على هذه الآية الكريمة ...

وهو – كذلك– مخالف لقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠٥ برقم ٣١٩١) بسنده عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «اقْبَلُوا البُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ» ، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا البُشْرَىٰ يَا أَهْلَ اليَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ» ، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كلّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ» فَنَادَىٰ مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا" .

قال الإمام ابن حجر الهيتمي في "الفتاوىٰ الحديثيَّة" (ص١٩٢) أثناء كلامه على هذا الحديث : " مَعْنَاهُ : وَلم يكن مَعَه شَيْء ، أَي : فِي أزله ، وَأما بعد أَن أوجد بعض خلقه فَكَانَ الْعَرْش حِينَئِذٍ على المَاء ، فَقَوْل السَّائِل : وَالْحَال أَنَّ عَرْشه مَعَه إِن أَرَادَ أَنَّه كَانَ مَعَه فِي الْأَزَل فَبَاطِل ، وَإِن أَرَادَ أَنَّه كَانَ مَعَه فِيمَا لَا يزَال فَصَحِيح ، فَحِينَئِذٍ هُوَ لَا يُنَافِي الحَدِيث الَّذِي ذكره كَمَا لَا يخفىٰ ذَلِك على ذِي بَصِيرَة" .

ومن المعلوم أنَّ حديث عمران بن حصين جاء بلفظ آخر ، رواه البخاري في الصَّحيح (٩/ ١٢٤ برقم ٧٤١٨) بلفظ " «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» .

قال الإمام الطِّيبي في شرح المشكاة (١٠/ ٣١٠-٣١١) : قوله : "ولم يكن شيء قبله" حال ... وعلى مذهب الكوفي خبر ، والمعنىٰ يساعده إذ التَّقدير : كان في الأزل منفرداً متوحِّداً ، وهو مذهب الأخفش ، فإنَّه جوَّز دخول الواو في خبر كان وأخواتها نحو : "كان زيد وأبوه قائم" على جعل الجملة خبراً مع الواو تشبيهاً للخبر بالحال" ...

وقد ردَّ على ابن تيمية في هذه المسألة غير واحد من جهابذة العلماء ، ومن ذلك :

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١٠) : " تَقَدَّمَ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ بِلَفْظِ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ : " كَانَ اللهُ قَبْلَ كلّ شَيْءٍ" ، وَهُوَ بِمَعْنَى : كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهِيَ أَصْرَحُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَثْبَتَ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا مِنْ رِوَايَةِ الْبَابِ ، وَهِيَ مِنْ مُسْتَشْنَعِ الْمَسَائِلِ الْمَنْسُوبَةِ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ . وَوَقَفْتُ فِي كَلَامٍ لَهُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُرَجِّحُ الرِّوَايَةَ الَّتِي فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى غَيْرِهَا ، مَعَ أَنَّ قَضِيَّةَ الْجَمْعِ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ تَقْتَضِي حَمْلَ هَذِهِ عَلَى الَّتِي فِي بَدْءِ الْخَلْقِ لَا الْعَكْسَ ، وَالْجَمْعُ يُقَدَّمُ عَلَى التَّرْجِيحِ بِالِاتِّفَاقِ" .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٢٠٢) : " وَقَالَ بن دَقِيقِ الْعِيدِ : وَقَعَ هُنَا مَنْ يَدَّعِي الْحِذْقَ فِي الْمَعْقُولَاتِ ، وَيَمِيلُ إِلَى الْفَلْسَفَةِ ، فَظَنَّ أَنَّ الْمُخَالِفَ فِي حُدُوثِ الْعَالَمِ لَا يُكَفَّرُ ، لأَنَّه مِنْ قَبِيلِ مُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ ، وَتَمَسَّكَ بِقَوْلِنَا : إِنَّ مُنْكِرَ الْإِجْمَاعِ لَا يُكَفَّرُ عَلَى الْإِطْلَاقِ حَتَّى يَثْبُتَ النَّقْلُ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرًا عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ ، قَالَ : وَهُوَ تَمَسُّكٌ سَاقِطٌ إِمَّا عَنْ عَمًى فِي الْبَصِيرَةِ أَوْ تَعَامٍ ، لِأَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ قَبِيلِ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ الْإِجْمَاعُ وَالتَّوَاتُرُ بِالنَّقْلِ" .

وقال الإمام الكوثري في تعليقه على النُّونيَّة (ص٣٤) : "والنَّاظم المسكين قائل بحوادث لا أوَّل لها انخداعاً منه بشُبَه أوردها الفلاسفة في بحث الحدوث غير متصوّر اتِّصاف الله سبحانه بصفاته العليا قبل صدور الأفعال منه تعالى . واستنكار شيخه "كان الله ولم يكن معه شيء" ممَّا استبشعه ابن حجر في فتح الباري جدّ الاستبشاع . وحدوث الأفعال فيما لا يزال لا يلزم منه تعطيل الصِّفات أصلاً ، لا في زمن حدوث الأفعال ولا في غيره ، وهو تعالى سريع الحساب وشديد العقاب قبل خلق الكون وقبل النُّشور . وهل يتصوَّر عاقل أن يحاسب الله خلقه أو يعاقبهم قبل أن يخلقهم؟! وهذا يهدّ مزاعم النَّاظم الذي يُجري الصِّفات على مجرى واحد ، فالله القادر مختار يفعل ما يشاء متى شاء" .

وقد أنكر هذه العقيدة الفاسدة المُنكرة الشَّيخ الألباني –رحمه الله– في السِّلسلة الصَّحيحة (١/ ٢٠٨) عند تعليقه على حديث : " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ" . أخرجه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٧٨ برقم

٢٢٧٠٥) ، قال الأرنؤوط : " حديث صحيح، وهذا إسناد حسن. ليث: هو ابن سعد، ومعاوية: هو ابن صالح بن حدير الحضرمي، وأيوب بن زياد من رجال "التعجيل". وأخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٤، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٠٧) ، والآجري في "الشريعة" ص ٨٣-٨٤ و١٧٧-١٧٨ و١٨٧ من طريق زيد بن الحباب، والطبراني في "الشاميين" (١٩٤٩) من طريق عبد الله بن صالح، كلاهما عن معاوية بن صالح، بهذا الإسناد. واقتصر ابن أبي شيبة وابن أبي عاصم على المرفوع منه، وتحرف عند الآجري في الموضع الأول "الوليد بن عبادة" إلى: محمَّد بن عبادة. وأخرجه مطولاً ومختصراً الطيالسي (٥٧٧) ، والترمذي (٢١٥٥) و (٣٣١٩) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٠٤) و (١٠٥) ، والشاشي في "مسنده" (١١٩٢) ، وابن قانع في "معجم الصحابة" ٢/ ١٩١-١٩٢، والآجري في "الشريعة" ص ٢١١، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (٣٥٧) و (١٠٩٧) ، والمزي في ترجمة عبد الواحد بن سليم من "تهذيب الكمال" ١٨/ ٤٥٦-٤٥٧ و٤٥٧ من طريق عطاء بن أبي رباح، وابن أبي عاصم (١١١) ، والشاشي (١١٩٣) ، والطبراني في "الشاميين" (١٦٠٨) ، والآجري ص ١٨٦ و٢١٠-٢١١، واللالكائي (١٢٣٣) من طريق سليمان بن حبيب، كلاهما عن الوليد بن عبادة، به. وقال الترمذي عند الموضع الأول: غريب من هذا الوجه، وقال عند الموضع الثاني: حسن صحيح غريب. وجعل سليمان بن حبيب قوله: "من مات على غير هذا دخل النار" مرفوعاً، والإسناد إليه ضعيف. وسيأتي الحديث برقم (٢٢٧٠٧) من طريق ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن الوليد بن عبادة. وأخرجه مطولاً ومختصراً أبو داود (٤٧٠٠) ، والطبراني في "الشاميين" (٥٩) ، وأبو نعيم في "الحلية" ٥/ ٢٤٨، والبيهقي في "السنن" ١٠/ ٢٠٤، وفي "الاعتقاد" ص ١٣٦ من طريق يحيى بن حسان التِّنِّيسي، عن رباح بن الوليد، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة -وهو حبيش الحبشي- عن عبادة. وجعل قوله: "من مات على غير هذا، فليس مني" مرفوعاً، وأبو حفصة مجهول. وخالف يحيى بنَ حسان مروانُ بن محمَّد الطاطري عند الطبراني في "الشاميين" (٥٨) فرواه عن رباح بن الوليد، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي يزيد الأزدي، عن عبادة. وأبو يزيد مجهول. وبإسناد الطبراني هذا نفسه رواه ابن أبي عاصم في "السنة" (١٠٢) إلا أنَّه جعل مكان أبي يزيد الأزدي: أبا عبد العزيز الأُرْدُنِّي، ولم نجد له في هذه الطبقة ترجمة. وقوله: "ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك" سلف مرفوعاً من حديث زيد بن ثابت برقم (٢١٥٨٩) . وعن ابن عباس عند الترمذي (٢١٤٤) ، والطبراني (١١٢٤٣) ، والحاكم ٢/ ٥٤٢، ورواية الأخيرين جاءت ضمن حديث طويل. وعن ابن عمر عند الطبراني في "الأوسط" (١٩٧٦) . وفي باب "أول ما خلق الله القلم" عن ابن عباس عند أبي يعلى (٢٣٢٩) ، وابن جرير ٢٩/ ١١، والطبراني (١٢٢٢٧) ، والبيهقي ٩/ ٣. وعن ابن عمر عند ابن أبي عاصم في "السنة" (١٠٦) ، والآجري ص ١٧٥، والطبراني في "الشاميين" (٦٧٣) و (١٥٧٢) . وعن أبي هريرة عند الآجري ص ١٧٧، وابن عدي ٦/ ٢٢٧٢-٢٢٧٣. وانظر الكلام على هذا الحديث في "شرح الطحاوية" ٢/ ٣٤٥) .

قال الألباني : "وفيه ردٌّ أيضاً على من يقول بحوادث لا أوَّل لها ، وأنَّه ما من مخلوق إلَّا ومسبوق بمخلوق قبله ، وهكذا إلى ما لا بداية له ، بحيث لا يمكن أن يقال : هذا أوَّل مخلوق . فالحديث يبطل هذا القول ويعيِّن أنَّ القلم هو أوَّل مخلوق ، ولقد أطال ابن تيمية ... الكلام في ردِّه على الفلاسفة محاولاً إثبات حوادث لا أوَّل لها ، وجاء في أثناء ذلك بما تحار فيه العقول ، ولا تقبله أكثر القلوب ... فذلك القول منه غير مقبول ، بل هو مرفوض بهذا الحديث ، وكم كنَّا نودّ أن لا يلج ابن تيمية هذا المولج ، لأنَّ الكلام فيه شبيه بالفلسفة وعلم الكلام ..." .

وقال الألباني في شرحه المختصر للعقيدة الطحَّاويَّة (ص٣٥) ما نصّه : "فإنِّي أقول الآن : سواء كان الرَّاجح هذا أم ذاك ، فالاختلاف المذكور يدلُّ بمفهومه على أنَّ العلماء اتَّفقوا على أنَّ هناك أوَّل مخلوق ، والقائلون بحوادث لا أوَّل لها مخالفون لهذا الاتِّفاق ، لأنَّهم يصرِّحون بأنَّ ما من مخلوق إلَّا وقبله مخلوق ، وهكذا إلى ما لا أوَّل له ، كما صرّح بذلك ابن تيمية في بعض كُتبه ، فإنَّ قالوا : العرش أوَّل مخلوق ، كما هو ظاهر كلام الشَّارح ، نقضوا قولهم بحوادث لا أوَّل لها . وإن لم يقولوا بذلك خالفوا الاتِّفاق . فتأمَّل هذا فإنَّه مهم ، والله الموفِّق" .

وقال الإمام سلامة القضاعي العزامي الشَّافعي في " البراهين السَّاطعة في رد بعض البدع الشَّائعة" (ص٢٠٢ فما بعدها) " فصل في إبطال القول بعدم أوَّليَّة الحوادث بالكتاب والسُّنَّة" :

قال ابن تيمية في منهاجه وغيره : إنَّ الحوادث أزليَّة ، ما من حادث إلَّا وقبله حادث إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي ، فكما أنَّه تعالى لا ابتداء وجوده ، فكذلك لا أوَّل لوجود الحوادث ، فعدم النِّهاية مشترك بين وجوده تعالى ووجود خلقه ، وَّادعى أنَّ ذلك هو ما عليه الصَّحابة والتَّابعون وأئمَّة السَّلف الصَّالح ، وكابر العقلاء ومعقولهم حيث أقاموا البرهان بل البراهين على استحالة اشتمال الموجود على ما لا نهاية له بالفعل من الحوادث ، وحكم بأنَّ ما حكموا باستحالته مساو لما أجازوه من وجود ما لا نهاية له من نعيم الجنَّة ، وأنَّ الفرق بين التَّسلسل في جانب الماضي الذي أجازوه وبين التَّسلسل في نعيم الجنَّة الذي أجازوه تحكُّم محض وجهل صرف ، وصال وأطال بما يشعر بغباوة ظاهرة لا تخفى على من تأمَّل قليلاً فضلاً عمَّن نصب نفسه ناقداً للأوَّلين وإماماً للآخرين ، لظهور أنَّ معنى عدم تناهي نعيم الجنَّة أنَّه لا ينتهي عند حدٍّ ، أمَّا الموجود منه فليس إلَّا متناهيًا دائماً ، وكلَّما فرغت نعمة جدَّد الله مكانها أخرى دائمًا أبداً ، لأنَّ مقدوراته تعالى لا تقف عند حدٍّ ، ولكن كلّ ما وجد بالفعل فهو متناه ، وأين هذا من القول بالتَّسلسل في جانب الماضي ، فإنَّ معناه أنَّ الوجود بالفعل قد ضبط ما لا نهاية له ولا ابتداء فقامت فيه البراهين التي ذكروها .

وهب أنَّ براهينهم لم تتم على الاستحالة ، وهو ما لا يقول به المحقِّقون ، فغاية ذلك أن يكون هذا التَّسلسل جائزاً في معقول أمثال ابن تيمية. أمَّا أنَّه واقع فليس يعرف ذلك إلَّا بالنَّقل الصَّحيح عن

المعصوم في كتاب أو سُنَّة حتَّىٰ يكون عليه الصَّحابة والتَّابعون ، فانظر معي إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمنقول عن أصحاب رسول الله والعلماء عليه وعليهم الصَّلاة والسَّلام ، هل فيها أو في شيء منها ما يدلُّ أو يُشير إلىٰ أنَّه لا نهاية في جانب الماضي لما خلقه الله عزَّ وجلَّ ، وليس للمخلوقات ابتداء ، كما أنَّه ليس لوجود خالقها ابتداء ، هذا ربُّك تعالىٰ يقول في كتابه العزيز : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ، ومعناه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن : أنَّ الأوَّل هو لا سواه فلا شيء قبله ولا شيء معه ، وأنَّه هو الحقّ الموجود بلا ابتداء قبل أن يكون شيء من الأشياء .

وقد صحَّ من حديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هو صريح في هذا وهذا ، فمن دعائه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اللهمَّ أنت الأوَّل فلا شيء قبلك) ، وصحَّ قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كان الله ولا شيء معه) ، وقوله الشَّريف (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه علىٰ الماء) . قال البخاري في صحيحه ــ كتاب بدء الخلق ثمَّ ساق ثلاثة أحاديث ــ الأوَّل : عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا بَنِي تَمِيمٍ أَبْشِرُوا» قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَجَاءَهُ أَهْلُ اليَمَنِ، فَقَالَ: «يَا أَهْلَ اليَمَنِ، اقْبَلُوا البُشْرَىٰ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ» ، قَالُوا: قَبِلْنَا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ بَدْءَ الخَلْقِ وَالعَرْشِ " الحديث، وكأنَّه ضمن يحدث معنىٰ يذكر: ولذلك عداه بنفسه .

والثَّاني هو كالشرح للحديث الذي قبله ــ عن عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أيضا وفيه : أن أهل اليمن قالوا : جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ ". الحديث . ورواه في كتاب التَّوحيد في باب : وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ " . عن عمران أيضاً ، وذكر سؤال أهل اليمن له صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا : جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ، قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ» . الحديث . قال الحافظ في الفتح عند كلامه علىٰ هذا الحديث باللفظ المذكور في كتاب التوحيد ــ : تَقَدَّمَ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ بِلَفْظِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَفِي رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ بِمَعْنَىٰ كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ وَهِيَ أَصْرَحُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ أَثْبَتَ حَوَادِثَ لَا

أَوَّلَ لَهَا مِنْ رِوَايَةِ الْبَابِ ، وَهِيَ مِنْ مُسْتَشْنَعِ الْمَسَائِلِ الْمَنْسُوبَةِ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ . وَوَقَفْتُ فِي كَلَامٍ لَهُ عَلَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ يُرَجِّحُ الرِّوَايَةَ الَّتِي فِي هَذَا الْبَابِ عَلَىٰ غَيْرِهَا مَعَ أَنَّ قَضِيَّةَ الْجَمْعِ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ تَقْتَضِي حَمْلَ هَذِهِ عَلَىٰ الَّتِي فِي بَدْءِ الْخَلْقِ لَا الْعَكْسَ ، وَالْجَمْعُ يُقَدَّمُ عَلَىٰ التَّرْجِيحِ بِالِاتِّفَاقِ " .

وقال الحافظ في كتابته على هذا الحديث في بدء الخلق بعد ما ذكر رواية: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ، وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ الْبُخَارِيِّ : وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ . وَالْقِصَّةُ مُتَّحِدَةٌ ، فَاقْتَضَىٰ ذَلِكَ أَنَّ الرِّوَايَةَ وَقَعَتْ بِالْمَعْنَىٰ وَلَعَلَّ رَاوِيهَا أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ كما تقدم من حديث بن عَبَّاسٍ : " أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ" ، ثمَّ قال : وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ لَا الْمَاءُ وَلَا الْعَرْشُ وَلَا غَيْرُهُمَا ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ غير الله تَعَالَىٰ .

وأمَّا الحديث الثَّالث فهو ما روى بسنده عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ، حتَّىٰ دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ ".

قال الحافظ في شرح هذا الحديث: " وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ أَخْبَرَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ بِجَمِيعِ أَحْوَالِ الْمَخْلُوقَاتِ مُنْذُ ابْتُدِئَتْ إِلَىٰ أَنْ تَفْنَىٰ إِلَىٰ أَنْ تُبْعَثَ فَشَمِلَ ذَلِكَ الْإِخْبَارَ عَنِ الْمَبْدَإِ وَالْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ " .

ثمَّ ذكر شاهداً لحديث الباب مِنْ حَدِيثِ أَبِي زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ قَالَ صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتَّىٰ حَضَرَتِ الظُّهْرُ ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّىٰ بِنَا الظُّهْرَ ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا ثُمَّ صَلَّىٰ الْعَصْرَ كَذَلِكَ حتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ فَحَدَّثَنَا بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا " الخ. قال الحافظ: : وَرَوَىٰ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِأَسَانِيدَ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا مِمَّا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعًا أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ ثُمَّ قَالَ اكْتُبْ فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ" .

وجمع الحافظ بين هذا وبين ما قبله بأنَّ أَوَّليَّة القلم بالنِّسبة لما عدا الماء والعرش، أقول ويرجح ما روى السدّي بأسانيده ما أخرجه رَوَىٰ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ

مَرْفُوعًا أَنَّ الْمَاءَ خُلِقَ قَبْلَ الْعَرْشِ" . قال الحافظ: وَحَكَىٰ أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمَدَانِيُّ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ قَوْلَيْنِ فِي أَيِّهِمَا خُلِقَ أَوَّلًا الْعَرْشُ أَوِ الْقَلَمُ " .

وهناك قول ثالث حكاه البدر العيني في عمدة القارئ في شرح هذا الحديث: أنَّ أوَّل مخلوق على الإطلاق هو النُّور المحمَّدي، قلت : وذلك لما روىٰ عبد الرزَّاق بسنده وغيره أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن أوَّل ما خلقه الله فقال للسَّائل (أوَّل مَا خلقَ اللهُ نورَ نبيِّك) ، ولفظ غير عبد الرزَّاق بعد هذه الجملة الشَّريفة: (ثمَّ خلق منه كلَّ خير) ، فإن ثبت هذا الحديث كان وجه الجمع بين هذه الأخبار أنَّ أوَّل مخلوق على الإطلاق هو النُّور المحمَّدي ثمَّ الماء ثمَّ العرش ثمَّ القلم واللوح، فأمر القلم حين خلق أن يجري بمقادير العباد قبل أن تخلق السَّموات والأرض بمقدار خمسين ألف سنة، فقد أخرج مسلم في صحيحه عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إنَّ الله كتب مقادير العباد قبل أن يخلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة) . فأنت ترىٰ أنَّه لا رائحة لهذا المذهب القائل بعدم أوَّليَّة الحوادث لا في الكتاب ولا في السُّنَّة ولا في أقوال السَّلف ولا الخلف رضي الله عنهم، فكيف يدعىٰ فيه أنَّه مذهب الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصَّالحين، ولكن شيخ الابتداع لَمَّا قرأ كتب الفلاسفة وليته ما قرأها ، ورآهم يقولون بقِدَم العالم عزَّ عليه أن يدع قولهم من غير أن يقتبس منه شيئاً، فاختار هذا القول الذي قاله وحوَّره إلىٰ ما حكيناه لك عنه. وليظهر لمن يروج عليه تلبيسه أنَّه علىٰ السُّنَّة ألصق هذا الرَّأي الباطل بالصَّحابة والتَّابعين بل بسيِّد المرسلين، حيث رجَّح رواية: " ولم يكن شيء قبله" علىٰ ما عداها، وردَّ ابنُ حجر ترجيحه عليه، وبيَّن أنَّ هذا التَّرجيح مخالفٌ للاتِّفاق، كما أسلفنا لك قريباً، ومن البيِّن جدَّاً أنه إنَّما اختارها ليوقع في النُّفوس أنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ما نفىٰ إلَّا تقدُّم الحوادث عليه تعالىٰ ، ولم ينف مقارنتها له تعالىٰ.

ولولا ما فيه من هوىٰ صرفه عن الهدىٰ لفهم كما فهم أهل العلم أنَّ المعنىٰ المقصود من لفظ هذه الرِّواية هو عين المعنىٰ المستفاد من الرِّوايات الأخرىٰ ، وهي: كان الله قبل كلِّ شيء، كان الله ولم يكن شيء غيره، كان الله ولا شيء معه، وهذا هو الذي يدلُّ عليه الكتاب العزيز من قصر الأوَّليَّة عليه عزَّ وجلَّ وحده، فإنَّه يفيد أنَّه سبحانه الموجود بلا ابتداء حين لا شيء من الأشياء، ولا حادث

من الحوادث أصلاً ، ثمَّ أوجدها كما شاء علىٰ ما شاء، فإنَّه الواحد المختار في فعله، وهكذا فهم أهل العلم كلّهم ، فإنَّهم مَتفقون علىٰ أنَّ الأوَّل بلا ابتداء إنَّما هو الله وحده، وأنَّ للحوادث أوَّلاً لا خلاف في ذلك، وإنَّما اختلفوا في تعيين أوَّل الحوادث أي شيء هو، أهو الماء أو غيره. ألا ترىٰ إلىٰ قول عمران رضي الله عنه فأخذ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحدِّثنا عن بدء الخلق، وإلىٰ قول عمر رضي الله عنه قام فينا النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق، وما روىٰ السدّي الكبير الثِّقة وهو إسماعيل بن عبد الرَّحمن أنَّ الله لم يخلق شيئاً ممَّا خلق قبل الماء، وقول عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه : أوَّل ما خلق الله الخ، أليس ذلك كلّه دالًّا علىٰ أنَّهم متَّفقون علىٰ أنَّ للحوادث أوَّلا ومبدأ ابتدأ الله خلقه به، وأنَّ الله تبارك وتعالىٰ متحقِّق الوجود قبل ذلك الحادث الأوَّل بلا ابتداء لوجوده الأعلىٰ ، ولا شيء من الحوادث إذ ذاك معه.

وربما استروح هذا المفتون بقول العلماء بأنَّه سبحانه لم يحدث له بخلق الأشياء اسم الخالق، بل له هذا الاسم الشَّريف في الأزل قبل خلق الأشياء فيكون قولاً منهم بأزليَّة الحوادث. وحاشاهم من هذا القول. إذ ليس معناه عندهم إلَّا أنَّه القادر المختار أزلاً وأبداً ، فلم يؤخِّر ابتداء الأشياء عن الأزل عجزاً ، جلَّ وتقدَّس عن العجز أزلاً وأبداً ، ولكنَّه الفعَّال لما يريد، والفلاسفة لمَّا لم يقدروا الله حقَّ قدره قالوا ــ وتعالىٰ الله عمَّا قالوا: إنَّه فاعل بالإيجاب ، فساقهم ذلك إلىٰ القول بقِدَم العالم، وليس من قصدنا شرح مذهبهم، وإنَّما الذي نريد أن تعلمه ويرسخ في قلبك اعتقاده، أنَّ الذي دلَّ عليه كتاب الله وأوضحه رسول الله عليه وعلىٰ آله الصَّلاة والسَّلام والذي عليه العلماء بالكتاب والسُّنَّة، أنَّ للحوادث أوَّلاً ليس قبله حادث، وما قبل هذا الحادث موجود إلَّا الله وحده واجب الوجود الذي ليس لوجوده ابتداء ولا انتهاء، وأَّن القول بأنَّ الحوادث لا أوَّل لها باعتبار الشَّخص في بعضها والنَّوع في البعض الآخر كما قال اليونان أو باعتبار النَّوع فقط كما قال هذا الرَّجل مقتبساً منهم ليس من دين الإسلام في شيء ، وأنَّ الله ورسوله وأتباعه براء منه.

واعلم أنَّ دعوىٰ كون الكمال الواجب لله سبحانه هو أن يكون فاعلاً أزلاً علىٰ الدَّوام في جانب الماضي علىٰ وجه الوجوب واللزوم، إنَّما هي وهمٌ يونانيٌّ لا سبيل له إلىٰ التَّحقيق ، ولا نصيب له من

الصحَّة، وإنَّما الكمال الواجب له عزَّ وجلَّ هو أنَّه مختار ، إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، وليس أحد الأمرين بممتنع على جنابه العزيز.

تَنْبِيه :

لفظة كان في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام (كان الله) تامَّة لا تحتاج إلى خبر وهي للأزليَّة، والواو في قوله: ولم يكن شيء غيره للحال، والمعنى أنَّه تعالى متحقِّق الوجود أزلاً بلا ابتداء حين لا شيء من الأشياء، وأمَّا كان في قوله (وكان عرشه على الماء) فهي للحديث، ومعناها أنَّ الله بعد أن لم يكن شيء غيره خلق الماء وخلق العرش ، وكان العرش على الماء قبل أن تخلق السَّموات والأرض وما فيهن ، ثمَّ خلق السَّموات والأرض، وليس المعنى أنَّ كينونة العرش على الماء مقارنة لوجوده الذي ليس له ابتداء، تعالى سبحانه عن أن يكون شيء من الأشياء مقارناً لوجوده عزَّ وجلَّ عرش أو ماء، أو أرض أو سماء، أو ملك أو فلك.

وإيضاح المسألة: أنَّ السَّائلين رضي الله عنهم سألوه عليه الصَّلاة والسَّلام عن أوَّل موجود فأفادهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله : (كان الله ولم يكن شيء غيره) ، أنَّ الموجود الأوَّل هو الله، لا افتتاح وجوده، ولا شيء معه، وبقي الأمر كذلك ما شاء الله، حتَّى إذا جاء الموعد الذي اختاره الله لابتداء الخلق بإرادته العليَّة، ومشيئته المقدَّسة التي لا حجر عليها، خلق الماء والعرش، وكان العرش على الماء ولم يكن بينهما أرض ولا سماء، ودَّلت الأحاديث الصِّحاح على أنَّه بعد ذلك خلق القلم واللوح، وعلى أنَّه حين خلق القلم أجراه سبحانه على اللوح ممَّا سبق في علمه من الأقدار، ثمَّ خلق السَّموات والأرض وما فيهن بعد مقدار خمسين ألف سنة ــ كما سبق في حديث مسلم ــ ويصحّ أن تكون الواو في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام (ولم يكن شيء غيره) عاطفة على الجملة التي قبلها وهو قوله (كان الله) ، وهما متناسبتان، فإنَّ كون الله ووجوده وتحقّقه المستفاد من (كان الله) أزلي ليس له ابتداء، وكذلك عدم كون شيء من الأشياء معه المستفاد من الجملة الثَّانية أزلي أيضاً ليس له افتتاح، وأمَّا كون العرش على الماء المستفاد من الجملة الثَّالثة فهو أمر حادث انتهى به ذلك العدم الأزلي للأشياء وبدأ دخولها فيما لا يزال.

والحاصل أنَّ الوجود الأزلي الذي لا افتتاح له إنَّما هو لله وحده، فهو سبحانه الأوَّل الحقيقي، الذي لا موجود قبله، ولا موجود معه، وأمَّا ما سواه من الأشياء فله العدم الأزلي إذ لا وجود لها ولا لشيء منها لا فرداً ولا نوعاً في الأزل، وإن كان الإمكان ثابتاً لها أزلاً وأبداً، فإمكانها إذاً أزلي ، أمَّا وجودها فليس له في الأزل نصيب، وإنَّما الأزل لله وحده. والذي عليه العقلاء من حذَّاق النظَّار أنَّ الأزليَّة للعالم غير ممكنة ، وإنَّما هي في حيِّز المستحيلات، ولذلك يقولون: فرق بين أزليَّة الإمكان، وإمكان الأزليَّة؛ فلو تنزَّل متنزِّل إلى رأي الحرَّاني ومن وافقه فقال بأنَّ أزليَّة العالم ممكنة لم يجد ذلك شيئاً، فإنَّ صرائح الكتاب والسُّنَّة، على أنَّها غير واقعة، فإنَّها أثبتت أنَّ للحوادث أوَّلاً ليس قبله حادث، وإنَّما قبله الله الذي لا أوَّل لوجوده. ومن عجيب أمر هذا الحرَّاني وطائفته نسبتهم هذا الرَّأي إلى البخاري ، وهو الذي وضع في كتابه هذه التَّرجمة (كتاب بدء الخلق)، واستدلَّ عليها بهذه الصِّحاح التي رواها، وذكرنا لك شيئاً مَّما يتعلَّق بها، وهي صريحة فيما ترجم له، وإذا نظرت في نونيَّة ابن القيِّم رأيته جارياً وراء شيخه في هذا الرَّأي وفي نسبته إلى البخاري وغيره ، فإنَّهم يريدون أن يجعلوا باطلهم حَقّاً بتزوير نسبته إلى الرِّجال الموثوق بهم بين الأمَّة، والحقّ ــ بحمد الله ــ واضح من الكتاب والسُّنَّة قد عرف به الرِّجال وهم ــ بحمد الله الأشاعرة والماتريديَّة وسلفهم الآخذون لعقيدتهم في العالم ، وربّ العالم جلَّ جلاله وسائر ما يجب الإيمان به عن كتاب الله وسُنَّة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، وأرجو أن يكون هذا القدر من البيان كافياً إن شاء الله لطالب الحقّ في إدحاض هذه البدعة القائلة بأنَّ الحوادث لا أوَّل لها ، وأنَّ ذلك هو ما عليه الصَّحابة والتَّابعون ...".

ومن العلماء الذين ردُّوا على ابن تيمية في هذه المسألة في مؤلَّف مستقل : الإمام بهاء الدِّين عبد الوهَّاب بن عبد الرَّحمن الإخميمي (٧٦٤هـ) ، في رسالة سمَّاها : " رِسَالةٌ فِي الرَّدِّ عَلى ابن تَيْمِيَة فِي مَسْألة حَوَادث لَا أوَّلَ لَهَا " ، وهي من تحقيق أخينا الفاضل الأستاذ الدُّكتور سعيد فوده – حفظه الله – ، ونشرتها دار الذَّخائر ، بيروت . وهذه المسألة سنناقش ابن تيمية فيها في كتاب آخر ... بإذن الله تعالى ...

الفَصْلُ الثَّانِي

بِدْعَةُ القَوْلِ بِأَنَّ للهِ تَعَالَى كِيْفَاً مَجْهُوْلَاً

الكيْف – كما يقول صاحب "التَّعريفات" (ص١٨٨) : " هيئة قارَّة في الشَّيء لا يقتضي قسمة ولا نسبة لذاته ، فقوله : "هيئة " يشمل الأعراض كلّها . وقوله : " قارَّة في الشَّيء " احتراز عن الهيئة الغير القارَّة ، كالحركة والزَّمان والفعل والانفعال " .

قَالَ يَحْيَىٰ بن عمار: لَا نحتاج فِي هَذَا الْبَاب إِلَىٰ قَول أَكثر من هَذَا : أَن نؤمن بِهِ، وننفي الْكَيْفِيَّة عَنهُ، ونتَّقي الشَّك فِيهِ، ونُوقن بِأَنَّ مَا قَالَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَرَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [حقّ] ، وَلَا نتفكَّر فِي ذَلِكَ وَلَا نسلِّط عَلَيْهِ الْوَهم، والخاطر، والوسواس، وَتعلم حَقًّا يَقِيناً أَنَّ كلّ مَا تصوَّر فِي همِّك ووهمك من كَيْفيَّة أَو تَشْبِيه. فَالله سُبْحَانَهُ بِخِلَافِهِ وَغَيره . انظر : الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة (٢/ ١٠٩) .

ومن الغريب في هذا الباب أنَّ الكثيرين ممَّن يثبتون الكيفيَّة المجهوله لله تعالىٰ ، والعياذُ بالله تعالىٰ ، يتشبَّثون بالمقولة المنسوبة للإمام مالك وغيره : " والكيْف مجهول " وهي لا تصحُّ عنه ، ولا عن غيره البتَّة ...

فقد نُسب هذا الكلام للإمام مالك ، وربيعة بن عبيد الرَّحمن ، وأمِّ سلمة رضي الله عنها ... والحقُّ أنَّ ذلك لم يثبت عنهم . قال الأستاذ العلَّامة المُحقِّق المدقِّق حسَّان عبد المنَّان – حفظه الله – : " ليس لهذا إسناد يثبتُ وإليك تفصيله :

رواه اللالكائي في " شرح أصول الاعتقاد " (٦٦٤) ، وإسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابوني في " عقيدة السَّلف " (١/ ١١٠-١١١) (من الرَّسائل المنيريَّة) ، وأبو نعيم في " الحلية " (٦/ ٣٢٥- ٣٢٦) من طريق سلمة بن شبيب ، عن مهدي بن جعفر عن جعفر بن عبد الله ، عن مالك بن أنس . وتابعه الدَّارمي في " الردّ علىٰ الجهميَّة " (ص٢٨٠) ، فقال : عن مهدي بن جعفر ، عن جعفر بن عبد الله ، عن رجلٍ قد سمّاه لي ، قال : جاء رجل إلىٰ مالك بن أنس ... وفي هذا الإسناد ثلاث عِلَلٍ :

رواية الدَّارمي المخالفة لرواية سلمة بن شبيب ، فزاد فيها رجلاً مجهولاً ، وجهالة جعفر بن عبد الله فإني لم أتبيَّنه ، وما عند الدَّارمي في روايته من توثيقه لا يُحسِّنُ أمرَه وحالَه ، وأمَّا مهدي بن جعفر – وهو الرَّملي – ففيه نظر ، إذ نقلوا أنَّ ابن عدي ، قال : يروي عن الثِّقات أشياء لا يُتابعُه عليها أحدٌ ، وهذا يُشعر بنكارة حديثه ، وهو ما حكم به البخاري ، فقال : حديثُه منكر " التَّهذيب " . ورواه ابن عبد البر في " التَّمهيد " (٧/ ١٥١) ، من طريق بقي بن مخلد ، حدَّثنا بكار بن عبد الله القرشي ، حدَّثنا مهدي بن جعفر ، عن مالك بن أنس ، به . وفي هذه الرِّواية وهمٌ وتدليسٌ كأنَّه من بكَّار بن عبد الله ، فقد أسقطَ مَنْ بينَ مهدي بن جعفر ومالك ، وقد بيَّنا ذلك في الرِّواية السَّابقة .

ورواه إسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابوني (١/ ١١٠) ، عن أبي الحسن بن إسحاق المدني ، حدَّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشَّافِعِي ، حدَّثنا شاذان ، حدَّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني ، حدَّثنا جعفر بن ميمون ، قال : سُئل مالك بن أنس ... وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فجعفر بن ميمون هو الأنماطي ، وهو ضعيف ، وشاذان وشيخُه لم أعثر لهما على ترجمة !! ورواه البيهقي في " الأسماء والصِّفات " (ص٤٠٨) ، عن أبي عبد الله ، أخبرني أحمد بن محمَّد بن إسماعيل بن مهران ، حدَّثنا أبي ، حدثنا أبو الرَّبيع ابن أخي رشدين بن سعد ، قال : سمعتُ عبد الله بن وهب يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس .. فذكره . وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، وإن جوَّد إسناده ابن حجر في " الفتح " (١٣/ ٤٠٧) ، فأبو الرَّبيع لم أعرفه ، وأحمد : لم أعثر له على ترجمة ، وأبوه مترجم في " اللسان " (٥/ ٨١-٨٢) ، وفيه نظرٌ وضعف في آخر ستّ سنوات من عمره .

ورواه البيهقي (ص٤٠٨) ، عن أبي بكر أحمد بن محمَّد بن الحارث الفقيه الأصفهاني ، أخبرنا أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن جعفر بن حيَّان المعروف بأبي الشَّيخ ، حدَّثنا أبو جعفر بن زيرك البزي ، سمعتُ محمَّد بن عمرو بن النَّضر النَّيسابوري يقول : سمعتُ يحيى بن يحيى يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس فجاء رجل ... فذكره .

وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فابنُ زيرك لم أجد له ترجمة ، ومحمد بن عمرو بن النَّضر ذكره ابن حجر في " نزهة الألباب " (٢/ ٩٢) ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . وانظر " سير أعلام النُّبلاء " (

٨/ ١٠٠-١٠١) . ورواه ابن عبد البرّ في " التَّمهيد " (٧/ ١٥١) ، عن محمَّد بن مالك ، قال : حدَّثنا عبد الله بن يونس ، قال : حدَّثنا بقي بن مخلد ، قال : حدَّثنا أيوب بن صلاح المخزومي بالرَّملة ، قال : كُنَّا عند مالك إذ جاءَه عراقي ، فقال له ... فذكره . كذا في المطبوع : " أيُّوب بن صلاح " ، وهو تحريف ، إنَّما هو أيُّوب بن صالح بن سلمة الحرَّاني المخزومي ، وهو ضعيف ، ضعَّفه ابن معين وغيرُه . انظر ترجمته في " اللسان " (١/ ٤٨٣-٤٨٤) . وبهذا يتبيَّن لك خطأ الحافظ الذَّهبي في قوله في " العلو " (ص١٤١مختصره) : " هذا ثابت عن مالك " !! ومن ثمَّ خطأ كلّ مَن سَلَّمَ بما نُسِبَ إلى الإمام مالك رحمه الله ، لأنَّ أسانيده لا تَقُم لذلك .

وقد يَرِدُ علينا أنَّ ذلك بمجموع هذه الطُّرق والأسانيد يصحُّ .

فنقولُ : إنَّ مثلَ هذه الأسانيد لا تتقوَّىٰ وليس عجيباً أن تتكثَّرَ ، لأنَّ الفتنة في هذه المسألة قد انتشرت في ذاك الحين ، ونُسِبَ زوراً هذا القول إلى مالك وغيره ، فتناقلَه مجاهيلُ من النَّاس لا يُعرفون بصحيح علمٍ ، ولا توثيق ، فانتشرت لشائعاتها ، وإلاَّ فقُل لي - بربِّكَ - : أين الثِّقات من تلامذة الإمام مالك ، وتلامذتهم عن مثل هذه الحادثة ، وهذا القول ؟! .

وفي الباب ممَّا رُوِيَ بنحوِه :

١-قول أمّ سلمة : رواه اللالكائي (٦٦٣) ، والصَّابوني في " عقيدة السَّلف " (١/ ١١٠) ، وابن قدامة في " العلو " (٨٢) ، وفي إسنادِه محمَّد بن أشرس ، وهو متَّهم في الحديث ، وقد تركه غير واحد .

وقال شيخ الإسلام في " الفتاوىٰ " (٥/ ٣٦٥) : وقد رُوِيَ هذا الجواب عن أمِّ سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه .

٢- قول ربيعة شيخ الإمام مالك : رواه اللالكائي (٦٦٥) ، والبيهقي (ص٤٠٨-٤٠٩) ، وابن قدامة في " العلو " (٩٠) ... بأسانيد لا تصحُّ ، والله أعلم " . انظر : مجموعة رسائل محمَّد نسيب الرفاعي ، حسَّان عبد المنَّان ، (ص٢٨-٢٩) .

فالله تعالىٰ لا كيْفَ له ، لأنَّ الكيْفَ كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي شأنها أن تُدرك بالحواس ، والله تعالىٰ يتنزَّه عن ذلك...

فعلىٰ الذين استمرأوا الاستشهاد بمقولة " والكيْف مجهول " أن يعلموا أنَّه يستحيل قولهم في حقِّ الله تعالىٰ ، لأنَّ ظاهر هذه العبارة مُوهمٌ للتَّشبيه ، ولا يجوز لهم التَّمسُّك بعبارة مرويَّة لا تصحُّ ، فالله تعالىٰ لا يُعقل له كيْفٌ ، لأنَّ في الكيْفِ مشابهةٌ ...

والقولُ بالتَّكييف المجهول مدخلٌ واسعٌ للتَّشبيه والتَّجسيم ، ولذلك وجدنا السَّلف الصَّالح يُجري الألفاظ الموهمة للتَّشبيه علىٰ ظاهر لفظها - لا علىٰ ظاهر معناها كما يزعم مدَّعو السَّلفيَّة - والإيمان بها علىٰ طريق الإجمال ، مع تنزيه الله تعالىٰ عن الكيفيَّة والتَّشبيه ، وقد نقله الإمام البيهقي وغيره عن الأئمَّة الأربعة ، والسُّفيانين (سفيان الثَّوري (١٦١هـ ، سفيان بن عيينة ١٩٨هـ) ، والحمَّادين (حمَّاد بن سلمة (١٦٧هـ ، وحمَّاد بن زيد ١٧٩هـ) ، والأوزاعي (١٥٧هـ) ، والليث (١٧٥هـ) ، وغيرهم كثير ...

فَكيْفَ ، ومن أين عَلمَ من يدَّعون السَّلفيَّة بأنَّ لله تعالىٰ كيْفَاً ؟!! ...

ومن المعلوم بداهة أنَّ التَّفكير والنَّظر والتَّدبُّر ... أمورٌ موكولة للعقول التي من شأنها أن تحلِّل المعلومات الواردة إليها من خلال الحواس الخمس التي تُعتبر مصدراً مهمّاً للإدراك ومعرفة الأشياء ، لكن يجب علينا أن نفهم أنَّ عمل هذه الحواس وكذا العقول مقصورٌ فقط علىٰ عالم الحسِّ والشَّهادة دون عالم الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ ...

وفي ذلك يقول الإمام محمَّد عبده (١٩٠٥م) : " إذا قَدَّرنا عقل البشر قدره ، وجدناه غايه ما ينتهي إلىٰ كماله إنَّما هو الوصول إلىٰ معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني ، حسَّاً كان أو وجداناً ، أو تعقُّلاً ، ثمَّ التَّوصُّل بذلك إلىٰ معرفة مناشئها ، وتحصيل كليَّات لأنواعها ، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها ، أمَّا الوصول إلىٰ كُنْه حقيقتها ، فممَّا لا تبلغه قوَّته ، لأنَّ اكتناه المركَّبات إنَّما هو باكتناه ما تركَّبت منه ، وذلك ينتهي إلىٰ البسيط الصّرف ، وهو لا سبيل إلىٰ اكتناهه بالضّرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ...

خذ أظهر الأشياء وأجلاها ، كالضّوء : قرّر النَّاظرون فيه له أحكاماً كثيرة ، فصَّلوها في علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ، ولا أن يكتنه معنىٰ الإضاءة نفسه ، وإنَّما يعرف من ذلك ما يعرفه كلّ بصير له عينان ، وعلىٰ هذا القياس .

ثمَّ أنَّ الله لم يجعل للإنسان حاجه تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنَّما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ولذّة عقله إن كان سليماً ، إنَّما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصَّت به ، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النّسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت ، وصرف للقوَّة إلى غير ما سيقت إليه ...

ويضيف قائلاً : بأنَّ الفِكر في ذات الخالق هو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النِّسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التَّركيب في ذاته ، وتطاولٌ إلى ما لا تبلغه القوَّة البشريَّة ، من جهة أخرى ، فهو عبثٌ ومهلكةٌ ، عبثٌ لأنَّه سعيٌ إلى ما لا يُدرك ، ومهلكةٌ ، لأنَّه يؤدِّي الى الخبط في الاعتقاد ، لأنَّه تحديدٌ لما لا يجوز تحديده ، وحصرٌ لما لا يصحُّ حصره ...

ويخلص إلى القول : بأنَّ التَّفكُّر في الذَّات عبثٌ ومهلكةٌ ، وطلبٌ للاكتناه ، وهو مستحيلٌ على العقل البشرى . فكلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] . انظر : رسالة التوحيد (ص٥٠-٦١باختصار) .

فللعقل البشري جهود إذا جاوزها عجز وضلَّ ، وخبَط خبْط عشواء في غير فَهْم ولا إدراك ... وهناك ظواهر كثيرة تقع تحت حسِّ الإنسان ، وتتداخل في مدركاته ، وهو مع ذلك يعجز عن الوصول إلى كُنهها ، فالنَّفس ، والرُّوح ، والعقل ، والضّوء ، والكهرباء ، والأثير ، قريبةٌ منه كلّ القُرب ، ولكنَّه لا يستطيع معرفة حقيقتها ، وهو لذلك يكتفي بالبحث في آثارها وأعراضها ، وما يمكن أن يفيده منها ، ويَدَعُ – مضطرّاً – محاولة اكتناهها ، وما ذاك إلَّا لأنَّ إدراكه ينتهي عند غايةٍ محدودة ، فالتَّفكير فيما وراء هذه الغاية إضاعةٌ للوقت ، وصرفٌ للقوى فيما خلقت غير مستعدَّة له . وإذا كان هذا حالُ العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحطّ عنه ، بل كذلك شأنه فيما يظنّ من الأفعال أنَّه صادر عنه كالفكر ، فما يكون من أمره بالنِّسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟! . انظر كتاب : الله تبارك وتعالى (ص١٥١) .

وعلىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الكَيْف دَرَجَ وسار علماءُ الأُمَّة في القديم والحديث ... فقد نقَل الإمامُ أبو نعيم الأصبهاني في " الحِلْيَةِ " (١/ ٧٢-٧٣) بسنده عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : كُنْتُ بِالْكُوفَةِ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ ، دَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا نَوْفُ بْنُ عَبْدِ الله ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَابِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : عَلَيَّ بِهِمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالُوا لَهُ : يَا عَلِيُّ صِفْ لَنَا رَبَّكَ هَذَا الَّذِي فِي السَّماء ، كَيْفَ هُوَ ، وَكَيْفَ كَانَ ، وَمَتَىٰ كَانَ ، وَعَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ فَاسْتَوَىٰ عَلِيٌّ جَالِساً ، وَقَالَ : مَعْشَرَ الْيَهُودِ اسْمَعُوا مِنِّي ، وَلَا تُبَالُوا أَنْ لَا تَسْأَلُوا أَحَداً غَيْرِي ، إِنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَبْدُ مِمَّا ، وَلَا مُمَازَجُ مَعِمَّا ، وَلَا حَالٌّ وَهُمَّا ، وَلَا شَبَحٌ يُتَقَصَّىٰ ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَىٰ ، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَيُقَالُ : حَادِثٌ ، بَلْ جَلَّ أَنْ يُكَيِّفَ الْمُكَيِّفَ لِلْأَشْيَاءِ كَيْفَ كَانَ ، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ ، وَلَا لِتَقَلُّبِ شَانٍ بَعْدَ شَانٍ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ ، وَكَيْفَ يُنْعَتُ بِالْأَلْسُنِ الْفِصَاحِ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ : بَائِنٌ ، وَلَمْ يَبِنْ عَنْهَا فَيُقَالُ : كَائِنٌ ، بَلْ هُوَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبَلِ الْوَرِيدِ ، وَأَبْعَدُ فِي الشَّبَهِ مِنْ كلّ بَعِيدٍ ... وَالْحَدُّ إِلىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ...

سُبْحَانَهُ كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا شَفَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ تَكْيِيفِ الصِّفَاتِ ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ، وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمَاكِنَ بِهِ تُحِيطُ، لَزِمَتْهُ الْحِيرَةُ وَالتَّخْلِيطُ، بَلْ هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ مَكَانٍ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ الرَّحْمَنِ، بِخِلَافِ التَّنْزِيلِ وَالْبُرْهَانِ، فَصِفْ لِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ هَيْهَاتَ أَتَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ، وَتَصِفُ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ، وَأَنْتَ تُدْرِكُ صِفَةَ رَبِّ الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ، فَكَيْفَ مَنْ لَمْ تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي الْأَرَضِينَ وَالسَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " .

قلتُ : وعن معنىٰ " بائن من خلقه " ، قال الإمام ابن فورك في "مشكل الحديث وبيانه" (ص٤٥٤) :
" ... وأنَّه بائن ممَّا خلق ، بينونة الصِّفة والنَّعت ، لا بالتَّحيُّز والمكان والجهة" .

وقال الإمام الكوثري في تعليقه علىٰ "الأسماء والصفات" للبيهقي (ص٥٠٢) : "والمعنىٰ أنَّه غير ممازج للخلق لا بمعنىٰ أنَّه متباعد عن الخلق بالمسافة ، تعالىٰ الله عن القُرب والبُعد الحسيَّين والبينونة الحسِّيَّة ، فليس في ذلك ما يطمع المجسِّمة في كلامه ، وسيأتي من المصنِّف عند الكلام في

آية الاستواء : لا قاعد ولا قائم ولا مماسّ ولا مباين عن العرش . ثمَّ قال : لأنَّ المماسَّة والمباينة بالمسافة التي هي ضدّها ، كلاهما من صفات الأجسام " .

ولما كان الحدُّ من مقتضيات الكيْف ، فقد اجتمعت كلمة العلماء على نفي الحدِّ عنه تعالى ، قال التَّابعي الشَّهير زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم : " ... أنت الله الذي لا تُحدُّ فتكون محدوداً " . انظر : إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤١٣) .

وقال الإمام أبو حنيفة : " وَهُوَ شَيْء لَا كالأشياء وَمعنى الشَّيء : الثَّابِت بِلَا جسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عَرَض ، وَلَا حدَّ لَهُ ، وَلَا ضدَّ لَهُ ، وَلَا ندَّ لَهُ ، وَلَا مِثْل لَهُ " . انظر : شرح الفقه الأكبر (ص٨٩-٩٠) .

ونقل الإمام السُّيوطي في "الأشباه والنَّظائر" (ص٤٨٨) عن الإمام الشَّافِعِي أَنَّه لَا يُكَفر أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَاسْتثنى مِنْ ذَلِكَ : الْمُجَسِّم ، وَمُنْكِر عِلْمِ الْجُزْئِيَّاتِ . " وحَكَوْا عن الشَّافِعِي رضي الله عنه أنَّه قال : من انتهض لطلب مدبِّره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فِكْرهُ فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلى العدم الصِّرف فهو معطِّل ، وإن اطمأنَّ إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو مُوحِّد " .

انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السُّبكي (٤/ ٦٤٣) .

فالشَّافعي حَكَمَ على من انتهى فِكرُه في طلب الحقِّ إلى شيء من المخلوقات بأنَّه مُشبِّه ، وحكم على من انتهى فِكرُه إلى العدم بأنَّه معطِّل ... أمَّا من اعتقد بوجود الحقّ المتَّصف بالجلال والكمال ، واعترف بالعجز عن إدراك حقيقة الحقّ تعالى بأنَّه موحِّد .. وهذا كلام نفيس من الإمام الشَّافِعِي ، يدلُّ دلالة واضحة بيِّنة على أنَّ السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم كانوا على قلب رجل واحد في تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ولوازمها من التَّحيُّز ، والجلوس على العرش ، والنُّزول ، والمجيء ، والإتيان بمعنى النُّقلة والحركة ...وأنَّ ما خطر بالبال فالله بخلافه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ...

وأكَّد الإمام الشَّافِعِي رضي الله عنه – أيضاً – على الحقائق السَّابقة ، فقال كما جاء في " البُرهان المؤيَّد" (ص١٨) : " آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتَّهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخـــوض فيه كلّ الإمساك " .

وقال الإمام السُّيوطي : " وَقَالَ المظهري : اعْلَم أنَّ الله تَعَالَىٰ منزَّه عَن الْحَدث وَصفَة الْأَجْسَام ، وكلّ مَا ورد فِي الْقُرْآن وَالْأَحَادِيث فِي صِفَاته مِمَّا يُنبِئ عَن الْجِهَة والفوقيَّة والاستقرار وَالنُّزُول وَنَحْوهَا ، فَلَا نَخُوض فِي تَأْوِيله ، بل نؤمن بِمَا هُوَ مَدْلُول تِلْكَ الْأَلْفَاظ علىٰ الْمَعْنىٰ الَّذِي أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، مَعَ التَّنْزِيه عَمَّا يُوهم الجسميَّة والجهة " . انظر : شرح سنن ابن ماجه (١/١٨) ، مضمن ثلاثة شروح : (مصباح الزجاجة للسُّيوطي) ، (إنجاح الحاجة لمحمَّد عبد الغني المجدِّدي الحنفي) ، (ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات لفخر الحسن بن عبد الرَّحمن الحنفي الكنكوهي) .

فعلىٰ الإنسان أن يعلم " أَنَّ كلّ مَا تصوَّر فِي الْوَهم من طولٍ وَعرْض وعمْق وألوان وهيئات مُخْتَلفَة يَنْبَغِي أَن تعتقد أَنَّ صانع الْعَالم بخلافة ، وَأَنَّه قَادر علىٰ خلق مثله ، وَإِلَىٰ هَذَا الْمَعْنىٰ أَشَارَ الصّديق رَضِي الله عَنهُ بقوله : الْعَجز عَن دَرك الْإِدْرَاك إِدْرَاك ، وَمَعْنَاهُ : إِذا صَحَّ عنْدك أَنَّ الصَّانِع لَا يُمكن مَعْرفَته بالتَّصوير والتَّركيب وَالْقِيَاس علىٰ الْخلق صَحَّ عنْدك أَنَّه خلاف الْمَخْلُوقَات وتحقيقه أَنَّك إِذا عجزت عَن مَعْرفَته بِالْقِيَاسِ علىٰ أفعاله صَحَّ معرفتك لَهُ بِدلَالَة الْأَفْعَال علىٰ ذَاته وَصِفَاته ، وَقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفسه بقوله : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤] ، وَمَا كَانَ مصوِّراً لم يكن مصوَّراً ، كَمَا أَنَّ من كَانَ مخلوقاً لم يكن خَالِقًا " . انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦٠) .

فـتكييفُ الأشياء لا يتحصَّل إلَّا من خلال عمل الحواس التي تعمل وفقاً لمعلومات وردت إليها ، فإذا فُقدت المعلومات أو لم تتوفَّر فلا يتبقَّىٰ للعقل إلَّا التَّخيُّلات المبنيَّة لديه علىٰ مثال سابق موجود ومتشكّل في الذَّاكرة ، بناء علىٰ معلومات سابقة وردت إليه ... فإذا لم تتوفَّر أصلاً معلومات عن شيء ما ، فلا سبيل للعقل إلىٰ تكييفه ... وعليه فلا يتبقَّىٰ لمن يدَّعون ويزعمون السَّلفيَّة من سبيل للقول بالكيْف المجهول إلَّا الفهم السَّقيم للنُّصوص المتشابهة ، ذلكم الفهم الذي أقيم علىٰ إلغائهم وإنكارهم لجمال اللغة العربيَّة المتمثِّل بالمجاز الذي أنكروه وسمُّوه بالطَّاغوت ، كما تجد ذلك في كتاب : " الصَّواعق المُرسلة في الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة والمعطلة " للإمام ابن القيِّم ، وهو الكتاب الذي هجم فيه علىٰ المجاز وعلىٰ القائلين به ، ونسي أو تناسىٰ أنَّ اسم الكتاب الذي حارب فيه المجاز ... مجاز ، فيا لـ ...

ولذلك وجدناهم يسارعون إلى إثبات كلّ ما من شأنه أن يصف الله تعالى بالجوارح والأعضاء ، ويُجْرُونه على ظاهر معناه ، ثمَّ يقولون : " بلا كيْف " ، أو " والكيْف مجهول " ، وهي عبارة لا مكان لها من الإعراب في هذا المقام ، والعياذ بالله تعالى ...

ومن المعلوم أنَّ جمهور السَّلف الصَّالح وقفوا أمام المتشابهات من غير أن ينبسُّوا ببنت شَفَه ، وقالوا : نؤمن بها ، وُنَصَدِّقُ بِهَا ، وَلَا تُتوَهَّم ، وَلَا كَيْف ، وَلَا مَعْنَى ، ولا نَرُدُّ منها شيئاً ، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقٌّ إذا ثبت وصحَّ الحديث عنه ، ولا نردُّ على الله تعالى قوله ، ولا نصف الله بأكثر ممَّا وصف به نفسه ، بلا حدٍّ ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى : ١١] . فأجروها على ظاهر اللفظ لا على ظاهر المعنى ، لأنَّ المعنى لا سبيل إلى درْكه ، ولذلك وَكَلُوا علمه إلى الله تعالى ، وكان لسان حالهم يقول كما قال الإمام ابن الجوزي : " نُقرُّ ونُمِرُّ ، وَأَرْبَابُ الْبَحْثِ فِي خَسَارٍ ، هَذَا سَيْفُ السُّنَّة فَتَنَاوَلْهُ بِالْيَمِينِ لا بِالْيَسَارِ ، وَاضْرِبْ بِهِ كَفَّ " كَيْفَ " وَرَأْسَ " لِمَ " وَعُنُقَ " ثمَّ " وَخُذْ لِلتَّنْزِيهِ من التَّشبيه بالثَّار ، قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[التوبة:١٠٩] . انظر : التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٨٧) .

وقال الإمام السُّيوطي : " ... وَاعْلَمْ أنَّه لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى مَعْرِفَةِ إِيَّاكَ كَمَا إِيَّاكَ، فَكَيْفَ لَكَ سَبِيلٌ إِلَى مَعْرِفَةِ إِيَّاه كَمَا إِيَّاهُ؟ فكَأَنَّهُ فِي قَوْلِهِ: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ، عَلَّقَ الْمُسْتَحِيلَ؛ لأنَّه مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ وَكَيْفِيَّتَهَا وكَمِّيَّتَهَا، فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ لَا تُطِيقُ بِأَنْ تَصِفَ نَفْسَكَ الَّتِي هِيَ بَيْنَ جَنْبَيْكَ بِكَيْفِيَّةٍ وَأَيْنِيَّةٍ وَلَا بِسَجِيَّةٍ وَلَا هَيْكَلِيَّةٍ وَلَا هِيَ بِمَرْئِيَّةٍ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِعُبُودِيَّتِكَ أَنْ تَصِفَ الرُّبُوبِيَّةَ بِكَيْفَ وَأَيْنَ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنِ الْكَيْفِ وَالْأَيْنِ؟ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

قُلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِّي مَا أَقُولُ ... قَصرَ الْقَوْلُ فَذَا شَرْحٌ يَطُولُ

هُوَ سِرٌّ غَامِضٌ مِنْ دُونِهِ ... ضُرِبَتْ وَاللهَّ أَعْنَاقُ الْفُحُولْ

أَنْتَ لَا تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلَا ... تَدْرِ مَنْ أَنْتَ وَلَا كَيْفَ الْوُصُولْ

لَا وَلَا تَدْرِ صِفَاتٍ رُكِّبَتْ ... فِيكَ حَارَتْ فِي خَفَايَاهَا الْعُقُولْ

أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا ... هَلْ تَرَاهَا فَتَرَىٰ كَيْفَ تَجُولْ

هَذِهِ الْأَنْفَاسُ هَلْ تَحْصُرُهَا ... لَا وَلَا تَدْرِي مَتَىٰ مِنْكَ تَزُولْ

أَيْنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ إِذَا ... غَلَبَ النَّوْمُ فَقُلْ لِي يَا جَهُولْ

أَنْتَ أَكْلُ الْخُبْزِ لَا تَعْرِفُهُ ... كَيْفَ يَجْرِي مِنْكَ أَمْ كَيْفَ تَبُولْ

فَإِذَا كَانَتْ طَوَايَاكَ الَّتِي ... بَيْنَ جَنْبَيْكَ كَذَا فِيهَا خُلُولْ

كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ... لَا تَقُلْ كَيْفَ اسْتَوَىٰ كَيْفَ النُّزُولْ

كَيْفَ تَجَلَّىٰ اللهُ أَمْ كَيْفَ يُرَىٰ ... فَلَعَمْرِي لَيْسَ ذَا إِلَّا فُضُولْ

هُوَ لَا كَيْفَ وَلَا أَيْنَ لَهُ ... وَهُوَ رَبُّ الْكَيْفِ وَالْكَيْفُ يَحُولْ

وَهُوَ فَوْقَ الْفَوْقِ لَا فَوْقَ لَهُ ... وَهُوَ فِي كلّ النَّوَاحِي لَا يَزُولْ

جَلَّ ذَاتًا وَصِفَاتًا وَسَمَا ... وَتَعَالَىٰ قَدْرُهُ عَمَّا أَقُولْ

انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٩٠-٢٩١) .

فالكيْفُ عليه سبحانه وتعالىٰ مستحيل ، وتنزيه الله تعالىٰ عن الكيْف أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من أهل الحقِّ ... فلا يقال لمن كيَّف الكيْف : كيف !!! ولا لمن أيَّن الأيْن أين ، لأنَّ الكيفيَّة من لوازم الجسميَّة ، والله تعالىٰ ليس بجسم ... وصفاته سبحـــانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ وتعالىٰ ربُّنا عن النَّظير ، والمثيل ، والشَّبيه ، والنِّدِّ ، ، والضِّدِّ ، والكفء ، والحدِّ ، والمكان ، والحركة ...

الفَصْلُ الثَّالِثُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهِم بِالجِسْمِيَّةِ وَالجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ للهِ تَعَالَى

قال الإمام الأصفهاني في "معجم مفردات ألفاظ القرآن" (ص٩١) : "الجسم ما له طولٌ وعرْضٌ وعمقٌ ، ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجساماً ، وإن قُطع ما قُطع ، وجزّئ ما جزِّئ ، قال الله تعالى : ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[البقرة : ٢٤٧] ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون : ٤] . تنبيهاً أن لا وراء الأشباح معنىً معتدّ به" .

وقال الإمام الجرجاني في "التَّعريفات" (ص٤١) : "الجسم : جوهر قابل للأبعاد الثَّلاثة ، وقيل : الجسم هو المركَّب المؤلَّف من الجواهر" .

وقال الإمام الغزالي في "قواعد العقائد" (ص١٥٩) : " ... الجسم عبارة عن المؤلَّف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيِّز بطل كونه جسماً ، لأنَّ كلّ جسم مختصّ بحيّز ومركَّب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلوّه من الافتراق والاجتماع ، والحركة والسُّكون ، والهيئة والمقدار" .

وقال الإمام الشِّيرازي في كتابه"الإشارة إلى مذهب أهل الحق" (ص١٩١) : "... ثمَّ يعتقدون أنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بجسم ، لأنَّ الجسم هو المؤلَّف ، وكلّ مؤلَّف لا بدَّ له من مؤلِّف" .

ومع كلّ ما سبق بيانه ... فقد تغاضى مجسِّمة الحنابلة – الذين يزعمون كذباً متابعة السَّلف الصَّالح – عن القواطع العقديَّة التي تنفي كون الله تعالى جسماً ، ومالوا إلى التَّجسيم ، ودافعوا ونافحوا عنه بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة ...

ومن المعلوم – كذلك – أنَّ المتسلِّفة اعتادوا على إلصاق ما يرونه من عقائد بالسَّلف الصَّالح لتأكيدها وتمريرها ... وهذه عادة نعرفها من أخزم ... قال الإمام العز بن عبد السَّلام فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبكي في طبقاته : " والحشويَّة المشبِّهة الَّذين يشبِّهون الله بخلقه ضَرْبَان : أَحدهمَا لَا يتحاشى من إِظْهَار الحشو ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[المجادلة: ١٨] ، وَالْآخر يتستَّر بِمذهب السَّلف ، لسُحتٍ يَأْكُلهُ أَو حطام يَأْخُذهُ :

أَظهَروا لِلنّاسِ نُسكاً   وَعَلى المَنقوشِ داروا

﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾[النساء: ٩١] ، وَمذهب السَّلف إنَّما هُوَ التَّوحيد والتَّنزيه دون التَّجسيم والتَّشبيه ، وَلذَلِك جَمِيع المبتدعة يَزْعمُون أنَّهم علىٰ مَذْهَب السَّلف ، فهم كَمَا قَالَ الْقَائِل :

وكلٌّ يدَّعونَ وصال ليلىٰ وليلىٰ لَا تقرُّ لَهُم بذاكا

وَكَيف يُدَّعىٰ علىٰ السَّلف أنَّهم يَعْتَقِدُونَ التَّجسيم والتَّشبيه أَو يسكتون عِنْد ظُهُور الْبدع ، ويخالفون قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٤٢] ، وَقَوله : ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران: ١٨٧] ، وَقَوله : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[النحل: ٤٤] . انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٢٢٢-٢٢٣) .

فالنَّاظر في أقوال المتنسبين للإمام السَّلفي أحمد بن حنبل يجد أنَّهم حادوا كثيراً عن المنهج التَّنزيهي لأهل الحقّ – ومنهم الإمام أحمد – وغرقوا في بحار التَّشبيه ، ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما قاله القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " وَذَكَرَ أَبُو عبد اللهَّ بْن بطَّة (٣٨٧هـ) فِي كتاب الإبانة ، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان النّجاد (٣٤٨هـ) : لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً : أنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ يُقعد محمَّداً صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ : صدقت فِي قولك ، وبررت فِي يمينك ، وامرأتك عَلَىٰ حالها ، فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا !!! وعليه نشأنا !!! ونحن عَلَيْهِ إِلىٰ أن نموت إن شاء اللهَّ !!! فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة !!! الَّتِي قالتها العلماء وتلقُّوها بالقبول ، فمن ردَّها فهو من الفِرَق الهالكة !!! " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٨٥) .

قلتُ : وابن بطَّة هو عُبَيد الله بن محمَّد بن بطَّة العكبري الفقيه . قال الإمام ابن حجر : " إمام لكنَّه ذو أوهام ... روىٰ ابن بطَّة ، عن النّجاد ، عن العطاردي فأنكر عليه علي بن ينال وأساء القول فيه حتَّىٰ همَّت العامَّة بابن ينال فاختفىٰ ...

وقال أبو القاسم الأزهري: ابن بطَّة ضعيف ضعيف ...

وقد وقفتُ لابن بطَّة علىٰ أمر استعظمته واقشعرَّ جلدي منه.

قال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٩٢) : أَنبأَنَا علي بن عبيد الله الزَّاغُونِيُّ قَالَ أَنبأَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْبُسْرِيِّ قَالَ أَنبأَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ بْنِ بَطَّةَ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ محمَّد الصَّفَّارُ قَالَ حَدَّثنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ قَالَ حَدَّثنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيَّةَ عَنْ حُمَيْدٍ الأَعْرَجِ عَنْ عبد الله بن الْحَرْث عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ: قَالَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " كَلَّمَ اللهُّ تَعَالَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ وَعَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ وَكِسَاءُ صُوفٍ وَنَعْلانِ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذَكِيٍّ، فَقَالَ: مَنْ ذَا الْعَبْرَانِيُّ الَّذِي يُكَلِّمُنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَة؟ قَالَ أَنا الله ".

قال ابن الجوزي: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ، فَإِنَّ كَلامَ اللهَّ لَا يُشْبِهُ كَلامَ الْمَخْلُوقِينَ، وَالْمُتَّهَمُ بِهِ حُمَيْدٌ وَاخْتُلِفَ فِي اسْمِ أَبِيهِ فَقِيلَ عَلِيٌّ وَقِيلَ عَطَاءٌ وَقِيلَ عَمَّارٌ، وَلَيْسَ بِحُمَيْدِ بْنِ قَيْسٍ الأَعْرَجِ صَاحِبِ الزُّهْرِيِّ فإِنَّه مُخْرَجٌ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.
قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: حُمَيْدٌ هَذَا مَتْرُوكٌ.

قلتُ – ابن حجر العسقلاني -: كلَّا والله ، بل حميد بريء من هذه الزِّيادة المنكرة ، فقد أخبرنا به الحافظ أبو الفضل بن الحسين بقراءتي عليه ، أخبرنا أبو الفتح الميدومي ، أخبرنا أبو الفرج بن الصَّيقل ، أخبرنا أبو الفرج بن كليب ، أخبرنا أبو القاسم بن بيان ، أخبرنا أبو الحسن بن مخلد ، أخبرنا إسماعيل بن محمَّد الصفَّار ، حدَّثنا الحسن بن عرفة ، حدَّثنا خلف بن خليفة، عَن حُميد الأعرج، عَن عَبد الله بن الحارث، عَن عَبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يوم كلَّم الله تعالى موسى كانت عليه جبَّة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه صوف ونعلاه من جلد حمار غير ذكي.

وكذلك رواه التِّرمذي، عَن عَلِيّ بن حجر عن خلف بن خليفة بدون هذه الزِّيادة.

وكذا رواه سعيد بن منصور ، عن خلف دون هذه الزِّيادة.

وكذا رواه أبو يَعلَى في مسنده ، عن أحمد بن حاتم ، عن خلف بن خليفة بدون هذه الزِّيادة.

ورواه الحاكم في "المُستَدرَك" ظنّاً منه أنَّ حميد الأعرج هو حميد بن قيس المكِّي الثِّقة وهو وهم منه.

وقد رواه من طريق عمر بن حفص بن غياث، عَن أبيه وخلف بن خليفة جميعاً، عَن حُمَيد بدون هذه الزِّيادة.

وقد روِّيناه من طرق ليس فيها هذه الزِّيادة ، وما أدري ما أقول في ابن بَّطة بعد هذا ، فما أشكُّ أنَّ إسماعيل بن محمَّد الصفَّار لم يحدِّث بهذا قطّ ، والله أعلم بغيبه ...

قال أبو ذرّ الهروي: سمعت نصر الأندلسي - وكان يحفظ ويفهم ورحل إلى خراسان - قال: خرجت إلى عكبرا فكتبت عن شيخ بها، عَن أبي خليفة وعن ابن بطَّة ورجعت إلى بغداد ، فقال الدَّارقطني: أيش كتبت، عَنِ ابن بطَّة؟ قلت: كتاب السُّنن لرَجَاء بن مُرَجَّا ، حدَّثني به عن حفص بن عمر الأردبيلي ، عن رَجَاء بن مُرَجَّا ، فقال الدَّارقطني: هذا مُحال ، دخل رَجَاء بن مُرَجَّا بغداد سنة أربعين ، ودخل حفص بن عمر سنة سبعين ، فكيف سمع منه.

وحكى الحسن بن شهاب نحو هذه الحكاية عن الدَّارقطني ، وزاد: أنَّهم أبردوا بريدا إلى أردبيل ، وكان ولد حفص بن عمر حيَّاً هناك فعاد جوابه أنَّ أباه لم يروه عن رَجَاء بن مُرَجَّا ، ولم يره قطّ ، وأنَّ مولده كان بعد موته بسنتين.

قال: فتتبَّع ابنُ بطَّة النُّسخ التي كُتبت عنه وغيَّر الرِّواية وجعل مكانها: عن ابن الَّراجيان عن فتح بن شخرف عن رجاء.

وقال أبو القاسم التّنوخي: أراد أبي أن يخرجني إلى عكبرا لأسمع من ابن بطَّة معجم الصَّحابة للبغوي فجاءه أبو عبد الله بن بكير ،وقال له: لا تفعل فإنَّ ابن بطَّة لم يسمعه من البغوي.

وقال الأزهري: عندي، عَنِ ابن بطَّة معجم البغوي ، فلا أخرج عنه في الصَّحيح شيئاً ، لأنَّا لم نرَ له به أصلاً ، وإنَّما دفع إلينا نسخة طريَّة بخطِّ ابن شهاب فقرأناها عليه.

وقال الخطيب: حدَّثني أحمد بن الحسن بن خيرون ، قال: رأيت كتاب ابن بطَّة بمعجم البغوي في نسخة كانت لغيره ، وقد حكَّ اسم صاحبها وكتب عليها اسمه !!!

قال ابن عساكر: وقد أراني شيخنا أبو القاسم السَّمرقندي بعض نسخة ابن بطَّة بمعجم البغوي ، فوجدت سماعه فيه مصلَّحاً بعد الحكِّ ، كما حكاه الخطيب، عَنِ ابن خيرون.

وقال أبو ذرّ الهروي: أجهدت على أن يخرج لي شيئاً من الأصول فلم يفعل ، فزهدت فيه. انظر : لسان الميزان (٥/ ٣٤٢)

فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، ونعوذ بالله من الخذلان ...

ومن المعلوم أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة مُتابعون لابن تيمية في جميع أقواله ، لا يحيدون عنها قيْد أُنملة ... مع أنَّه استمات في الدِّفاع عن التَّجسيم والمجسِّمة ... وممَّا قاله ابن تيمية في ذلك : " ولم يذمّ أحدٌ من السَّلف أحداً بأنَّه مجسِّمٌ ، ولا ذمّ المجسِّمة ، وإنَّما ذمُّوا الجهميَّة النُّفاة لذلك !!! وغيره ... " .

وصرَّح ابن تيمية بالجسميَّة ، فقال : "... والموصوف بهذه الصِّفات لا يكون إلَّا جسماً ، فالله تعالى جسمٌ لا كالأجسام !!! قالوا : وهذا ممَّا لا يمكن النِّزاع فيه !! إذا فهم المعنى المراد بذلك ، لكن أي محذور في ذلك ؟!! وليس في كتاب الله ولا سنَّة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمَّة وأئمَّتها ، أنَّه ليس بجسم !!! وأنَّ صفاته ليست أجساماً وأعراضاً ؟!! فنفي المعاني الثَّابتة بالشَّرع والعقل ؛ بنفي ألفاظ لم ينف معناها شرع ولا عقل ، جهلٌ وضلال " .

قلت : وهذا كلام جدُّ خطير من ابن تيمية ، فَمَن من الصَّحابة أو التَّابعين أو تابعيهم قال بأنَّ الله تعالى : جسم لا كالأجسام ؟؟؟!!! بل إنَّ عقلاء الحنابلة وغيرهم شنَّعوا على من قال بذلك ... اللهمَّ إلَّا إذا قصد بالسَّلف : سلفه من المشبِّهة والمجسِّمة الذين كان يحضُّ ويحثُّ على قراءة كتبهم ، كعثمان بن سعيد الدَّارمي ...

وتمادى ابن تيمية في ذلك ، فقال : " وإذا كان كذلك ، فاسم المشبِّهة ليس له ذكرٌ بذمٍّ في الكتاب والسُّنَّة ، ولا كلام أحد من الصَّحابة والتَّابعين !!! ولكن تكلَّم طائفةٌ من السَّلف مثل عبد الرَّحمن بن مهدي (١٩٨هـ) ، ويزيد بن هارون (٢٠٦هـ) ، وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ، وإسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ) ، ونعيم بن حمَّاد ، وغيرهم بذمِّ المشبِّهة ، وبيَّنوا المشبِّهة الذين ذمُّوهم ... " .

وهذا كلام غريب وفذلكة من الإمام ابن تيمية وممَّن يدَّعي السَّلفيَّة ، وإلَّا فبالله عليكم ماذا تُسمُّون من يصحِّح حديث الشَّابِّ الأمرد في كتابه : " بيان تلبيس الجهميَّة " ، وماذا تسمُّون من يقول : إنَّ لله تعالى صورة كصورة الإنسان ؟!! وهذا عنوان كتاب لواحد من مدَّعي السَّلفيَّة اسمه

: حمود بن عبد الله بن حمود التّويجري ، واسم كتابه : " عقيدةُ أهلِ الإيمان في خلقِ آدم علىٰ صُورة الإنسان " ، وقد قرَّظ الكتاب شيخهم ابن باز ...أليس هذا تشبيهاً لله تعالىٰ بخلقه ... أم ماذا تسمُّونه يا أهل النُّهىٰ والحِجىٰ ؟! ذاب الثَّلج وبان المرج ، ولم يعُد شيء خافياً علىٰ ذي لبٍّ ...

وقال ابن تيمية أيضاً : " والبارئ سبحانه وتعالىٰ فوق العالم فوقيَّة حقيقيَّة !!! ليست فوقيَّة الرُّتبة " . فماذا تسمُّون هذا ...

وقال أيضاً : " ... أنَّا قد قدَّمنا أنَّ جميع ما يذكر من هذه الأدلَّة التي تنفي الجسم علىٰ اصطلاحهم ، فإنَّها أدلَّة باطلة ، لا تصلح لمعارضة دليل ظنِّي ولا قطعي " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، ابن تيمية الحراني الحنبلي (١/ ٣٧٢) ، (١/ ٣٧٣) ، (١/ ٣٨٧) ، (٧/ ٢٩٠) ، (١/ ٣٩٠) ، (٧/ ٤٠٧) بالترتيب

والكلام في مثل هذه المعاني التَّشبيهية يطول ... ومعلوم أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة يعتقدون ما يعتقده ابن تيمية ، لا يحيدون عمَّا قاله ، بل يعتقدون ما يعتقد من غير نكير ولا تغيير ، وهو عندهم المرجع الذي لا يُجارىٰ ولا يُبارىٰ ، ... ومن الأمثلة علىٰ متابعة من يدَّعون السَّلفيَّة لإمامهم ابن تيميَّة : أنَّ المدعو : عبد الكريم صالح الحميد ، ألَّف كتاباً سمَّاه : " القول المختار لبيان فناء النَّار " ردَّ فيه علىٰ الشَّيخ الألباني الذي عارض الإمامين : ابن تيميَّة وتلميذه ابن قيِّم الجوزية القائلين بفناء النَّار ، مع أنَّ بقاء النَّار من الضَّروريات في دين الله تعالىٰ . وكتاب " عبد الكريم الحميد " هو من (منشورات مطبعة السفير ، الرياض ، ١٤١٢هـ) .

مع العلم أنَّ العلماء قديماً ردُّوا علىٰ ابن تيمية قوله الذي خالف فيه إجماع الأمَّة . انظر مثلاً : " الاعتبار ببقاء الجنة والنَّار " ، لتقيِّ الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي ، عني بنشره : القدسي ، مطبعة التَّرقي ، دمشق ، " رفع الأستار لإبطال أدلَّة القائلين بفناء النَّار " ، لمحمد بن إسماعيل الأمير الصَّنعاني ، بتحقيق : محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، (المكتب الإسلامي ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م) ...

وقد خالف ابن تيمية في ذلك الجميع ، انظر مثلاً : " لوامع الأنوار البهيَّة " ، لمحمَّد بن أحمد السَّفاريني (٢/ ٢٣٥) ، " جلاء العينين في محاكمة الأحمدين " ، لنعمان بن محمَّد الألوسي (ص٤٢١) ، محمَّد رشيد رضا في مجلَّته المنار : الجزء الأوَّل والثَّاني ، (المجلَّد الثَّاني والعشرون) .

والعجيب أنَّ الشَّيخ الألباني مع كونه أثبت هذا القول الفاسد علىٰ الشَّيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة ، جعل لهما ثواباً علىٰ اجتهادهما !!! في القول بفناء النَّار ، كما تجد ذلك في تعليقه علىٰ " رفع الاستار " (ص٣٢) ، فيا للعجب ...

فالقوم لا يعنيهم الدَّليل بقدر ما يعنيهم متابعة مشايخهم الذين قلَّدوهم حذو القذَّة بالقذَّة ، حتَّىٰ ولو اضطرُّوا للتَّأويل الذي لا يقولون به !!!

ويستشهدون علىٰ مقالاتهم الباطلة بكلام ينسبونه ظلماً وزوراً للإمام أحمد بن حنبل ، مع أنَّ سادة الحنابلة نفوا ما ألصقه الآثمون به ، فقد نقل الإمام أبو الفضل ، عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث ، التَّميمي البغدادي ، رئيس الحنابلة ببغداد (٤١٠هـ) عن الإمام أحمد بن حنبل أنَّه : " أنكر علىٰ من يقول بالجسم ، وقال : إنَّ الأسماء مأخوذة من الشَّريعة واللغة ، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم علىٰ ذي طولٍ وعرضٍ وسمكٍ وتركيبٍ وصورةٍ وتأليف ، والله تعالىٰ خارج عن ذلك كلِّه ، فلم يجز أن يُسمَّىٰ جسماً لخروجه عن معنىٰ الجسميَّة ، ولم يجيء في الشَّريعة ذلك ، فبطل " .

فهذا رئيس الحنابلة ببغداد يصوِّر العقيدة الحقَّة للإمام أحمد ، وأنَّه أنكر علىٰ المجسِّمة ، وأنَّ الجسم هو كلّ ما كان له طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف ... والله تعالىٰ خارج عن ذلك كلِّه ، ثمَّ حكم ببطلان ذلك كلّه ...

ونقل الإمام أبو الفضل التَّميمي الحنبلي عن الإمام أحمد أنَّه قال : " والله تعالىٰ لا يلحقه تغيُّر ولا تبدُّل ، ولا تلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش " . انظر : اعتقاد الإمام أحمد (ص٤٥) ، (ص ٣٨ -٣٩) بالترتيب .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ) ، حين سئل : " فِي عقائد الْحَنَابِلَة مَا لَا يخفىٰ علىٰ شريف علمكُم ، فَهَل عقيدة الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ كعقائدهم ؟ ، قال : عقيدة إِمَام السُّنَّة أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وأرضاه ، وَجعل جنان المعارف متقلَّبه ومأواه ، وأفاض علينا وَعَلِيهِ من سوابغ امتنانه ، وبوَّأه الفردوس الْأَعْلَىٰ من جنانه ، مُوَافقَة لعقيدة أهل السّنَّة وَالْجَمَاعَة من الْمُبَالغَة التَّامَّة فِي تَنْزِيه الله تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علوّاً كَبِيراً من الْجِهَة والجسميَّة ، وَغَيرهمَا من

سَائِر سمات النَّقْص ، بل وَعَن كلّ وَصْف لَيْسَ فِيهِ كَمَال مُطلق ، وَمَا اشْتهر بَين جهلة المنسوبين إِلَى هَذَا الإِمَام الْأَعْظَم الْمُجْتَهد من أَنَّه قَائِل بِشَيْء من الْجِهَة أَو نَحْوهَا فكذب وبُهتان وافتراء عَلَيْهِ ، فلعن الله من نسب ذَلِك إِلَيْهِ ، أَو رَمَاه بِشَيْء من هَذِه المثالب الَّتِي برَّأه الله مِنْهَا ، وَقد بَيَّن الْحَافِظ الْحجَّة الْقدْوَة الإِمَام أَبُو الْفرج بن الْجَوْزِيّ (٥٩٧هـ) من أَئِمَّة مذْهبه المبرِّئين من هَذِه الوصمة القبيحة الشَّنيعة ، أَنَّ كلّ مَا نسب إِلَيْهِ من ذَلِك كذب عَلَيْهِ وافتراء وبهتان ، وَأَنَّ نصوصه صَرِيحَة فِي بطلَان ذَلِك وتنزيه الله تَعَالَى عَنهُ ، فَاعْلَم ذَلِك فإِنَّه مُهِمّ . وَإِيَّاك أَنْ تصغي إِلَى مَا فِي كتب ابْن تَيْمِية وتلميذه ابْن قيِّم الجوزيَّة وَغَيرهمَا مِمَّن اتَّخذ إلهه هَوَاهُ ، وأضلَّه الله على علم ، وَختم على سَمعه وَقَلبه ... " .

انظر : الفتاوى الحديثية (ص٢٧٠-٢٧١) .

فالله تعالى ليس جسماً ، لأنَّ الجسم يتشكَّل من أجزاء ، ولا يقوم بغير أجزائه ، كما أنَّه لا ينفكُّ عن لوازمه من الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ... وهذه اللوازم كلّها حادثة لتغيُّرها وتبدُّلها وعدم قيامها بنفسها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، ويلزم من القول بالجسميَّة حدوث الله ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، ولو كان جسماً لكان له شبيه ومثيل ، ونحن نعلم أنَّ العديد من آيات القرآن الكريم نفت عن اللهّ تعالى الشَّبيه والمثيل ، فلا يجوز أن يكون جسماً ، والجسم مركَّب وهو مفتقرٌ إلى ما رُكِّب منه ، وكذا مفتقر إلى من يُركِّبه ، وبالتَّالي فإنَّ واجب الوجود يكون ممكناً ، وهذا يتعارض مع ما ثبت بالضَّرورة أنَّه واجب الوجود ...

وقد دفعت العديدُ من الرِّوايات الحنابلة إلى الغلو والتَّعصُّب حتَّى وقعوا في التَّجسيم البحت ، قال الإمام أبو محمَّد عفيف الدِّين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (٧٦٨هـ) في كتابه الطيِّب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبَه والرَّدِّ على المعتزلة : " ومتأخِّرو الحنابلة غلوا في دينهم غلوَّاً فاحشاً ، وتسفَّهوا سفهاً عظيماً ، وجسَّموا تجسيماً قبيحاً ، وشبَّهوا الله بخلقه تشبيهاً شنيعاً ، وجعلوا له من عباده أمثالاً كثيرة ؛ حتَّى قال أبوبكر ابن العربي في (العواصم) : " أخبرني من أثق به من مشيختي ، أنَّ القاضي أبا يعلى الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظَّواهر في صفاته تعالى : ألزموني ما شئتم فإنِّي ألتزمه إلَّا اللحية والعورة !!!

قال أئمَّة بعض أهـل الحقّ : وهـذا كفرٌ قبيحٌ ، واستهزاء بالله تعالىٰ شنيع ، وقائله جاهل به تعالىٰ ، لا يُقتدىٰ به ولا يُلتفت إليه ، ولا هو متَّبع لإمامه الذي ينتسب إليـه ويتستَّر به ؛ بل هـو شريك للمشركين في عبادة الأصنام ؛ فإنَّه ما عبَدَ الله ولا عَرَفه ، وإنَّما صوَّر صنماً في نفسه ، فتعالىٰ الله عمَّا يقول الملحدون والجاحدون علواً كبيراً " .

قلتُ : ومثل ما نقله ابن العربي عن أبي يعلىٰ هذا ، منقول في كتب الملل والنِّحل عن داود الجواربي ، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً ...

ثمَّ قال اليافعي : " ولقد أحسن ابن الجوزي من الحنابلة حيث صنَّف كتاباً في الرَّدِّ عليهم ، ونقل عنهم أنَّهم أثبتوا لله صورة كصورة الآدمي في أبعاضها ، وقال في كتابه : " دفع شُبه التَّشبيه " : هؤلاء قد كَسَوا هذا المذهب شيناً قبيحاً حتَّىٰ صار لا يُقال عن حنبلي إلَّا مجسِّم ، قال : وهؤلاء متلاعبون !!! وما عرفوا الله ولا عندهم من الإسلام خبر ولا يحدَّثون ، فإنَّهم يكابرون العقول ، وكأنَّهم يحدِّثون الصِّبيان والأطفال ، قال : وكلامهم صريحٌ في التَّشبيه ، وقد تبعهم خلقٌ من العوام ، وفضحوا التَّابع والمتبوع " . انظر : السيف الصقيل في الردّ علىٰ ابن زفيل (ص١٣٠-١٣١) .

قلتُ : ومن المؤسف حقَّاً أن يقوم القائمون علىٰ المكتبة الشَّاملة / الإصدار السَّادس ، بشطب هذه الفقرة من كتاب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبه والرَّدِّ علىٰ المعتزلة " ، وهذه خيانة من خياناتهم ، حتَّىٰ أنَّني أجزم أنَّ من أهمِّ الأسباب التي دعتهم لإصدار المكتبة الشَّاملة : العبث بكتب أهل العلم ، كي توافق هواهم وعقائدهم ، ولكن هيهات ، فإنَّ للحقِّ رجال ، يأبىٰ الله تعالىٰ إلَّا أن يسخِّرهم ويستخدمهم لكشف مخازي القوم وسقطهم وخياناتهم وعبثهم بكتب أهل العلم علىٰ مدىٰ الزَّمان ... وقد تسنَّىٰ للعبد الفقير أن يكتب كتاباً بيَّن فيه الكثير من عبثيَّاتهم بكتب أهل العلم في القديم والحديث ، وهو بعنوان : كَشْفُ الخَفَا عَنْ عَبَثِ الوَهَّابيَّةِ بِكُتُبِ العُلَمَا ...

ومن أشهر الحنابلة الذين غلوا في دينهم غلوّاً فاحشاً : ابن حامد ، الحسن بن حامد بن علي بن حامد الورَّاق (٤٠٣هـ) ... قال الإمام التَّقي الحِصني : " وقال ابن حامد الرَّاسم نفسه بالحنبلي : هو

فوق العرش بذاته ، وينزل من مكانه الذي هو فيه !!! فينزل وينتقل . ولمَّا سمع تلميذه القاضي منه هذا استبشعه ، فقال : النُّزول صفة ذاتيَّة ، ولا نقول نزوله انتقال ، أراد أن يغالط الأغبياء بذلك .

وقال غيره : يتحرَّك إذا نزل ، وحكوا هذه المقالة عن الإمام أحمد فُجوراً منه ، بل هو كذب محض على هذا السيِّد الجليل السَّلفي المنزِّه ، فإنَّ النُّزول إذا كان صفة لذاته لزم تجدُّدها كلّ ليلة وتعدُّدها ، والإجماع منعقد على أنَّ صفاته قديمة ، فلا تجدُّد ولا تعدُّد ، تعالى الله عمَّا يصفون .

وقد بالغ في الكفر من ألحق صفة الحقِّ بالخلق ، وأدرج نفسه في جريدة السَّامرة واليهود الذين هم أشدُّ عداوة للذين آمنوا ... " . انظر : دفع شبه من شبَّه وتمرَّد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد (ص١٣-١٤) .

ومن المعلوم أنَّ ابن حامد الذي أشار إليه الإمام التَّقي الحصني صاحب طامَّات وأوابد ، وقد ردَّ عليه الإمام ابن الجوزي في كتابه الطيِّب : " دفع شُبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه " ، وممَّا قاله ابن الجوزي نقلاً عن ابن حامد : " وقال ابن حامد : أثبتنا لله وجهاً ، ولا نجوِّز إثبات رأس . قلت – ابن الجوزي – : ولقد اقشعرَّ بدني من جراءته على ذكر هذا ، فما أعوزه في التَّشبيه غير الرَّأس " .

وقال أيضاً : " ... وحكى ابن حامد أعظم من هذا ، فقال : ذهبت طائفة في قوله تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[الحجر: ٢٩] ، إلى أنَّ تلك الرُّوح صفة من ذاته ، وأنَّها إذا خرجت رجعت إلى الله تعالى .

قلت – ابن الجوزي – : وهذا أقبح من كلام النَّصارى ، فما أبقى هذا من التَّشبيه بقيَّة " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : يجب الإيمان بأنَّ لله تعالى ساقاً صفة لذاته ، فمن جحد ذلك كفر . قلت – ابن الجوزي – : ولو تكلَّم بهذا عامِّيٌّ جلف كان قبيحاً ، فكيف بمن يُنسب إلى العلم ؟!! فإنَّ المتأوِّلين أعذر منهم ، لأنَّهم ردُّوا الأمر إلى اللغة ، وهؤلاء أثبتوا ساقاً للذَّات وَقَدَمَاً ، حتَّى يتحقَّق التَّجسيم والصُّورة " .

وقال أيضاً : " وقال ابن حامد : الحقُّ يختصُّ بمكان دون مكان ، ومكانه الذي هو فيه وجود ذاته على عرشه . وقال : وذهبت طائفة إلى أنَّ الله تعالى على عرشه قد ملأه ، والأشبه أنَّه مماسّ للعرش ، والكرسي موضع قدميه " .

وقال أيضاً : " وقال ابن حامد : نؤمن بأنَّ لله تعالىٰ جنباً بهذه الآية – يعني بالآية قوله تعالىٰ : ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٥٦] .

قلت – ابن الجوزي – : وآعجباً من عدم العقول ، إذا لم يتهيَّأ التَّفريط في جنب مخلوق ، كيف يتهيَّأ في صفة الخالق " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : هذا خطأ ، إنَّما ينزل بذاته بانتقال " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : هو علىٰ العرش بذاته ، مماسّ له ، وينزل من مكانه الذي هو فيه فيزول وينتقل . قلت – ابن الجوزي – : وهذا رجلٌ لا يعرف ما يجوز علىٰ الله تعالىٰ " .

" وروىٰ ابن حامد : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾[الأعراف: ١٤٣] ، قال : خرج منه أوَّل مفصل من خنصره " .

قال ابن حامد : يجب التَّصديق بأنَّ لله تعالىٰ حقواً – خصْراً – فتأخذ الرَّحم بحقوه . قال : وكذلك نؤمن بأنَّ لله جنْباً ، لقوله تعالىٰ :﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] . قلت – ابن الجوزي – : وهذا لا فهم له أصلاً ، كيف يقع التَّفريط في جنب الذَّات " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : والمراد بالتَّعلُّق : القُرب والمماسَّة بالحقو ، كما روي أنَّ الله تعالىٰ يُدني إليه داود حتَّىٰ يمسَّ بعضَه " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : يجب الإيمانُ بما ورد من المماسَّة والقُرب من الحقِّ لنبيِّه في إقعاده علىٰ العرش ، قال : وقال ابن عمر : ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾[ص: ٤٠] ، قال : ذكر الله الدُّنو منه حتَّىٰ يمسَّ بعضه .

قلت – ابن الجوزي – : وهذا كذب علىٰ ابن عمر ، ومن ذكر تبعيض الذَّات كفر بالإجماع " .

وقال ابن حامد : رأيت بعض أصحابنا يثبتون لله وصفاً في ذاته ، بأنَّه يتنفَّس ، قال : وقالوا : الرِّياح الهابَّة مثل الرِّياح العاصفة ، والعقيم ، والجنوب ، والشِّمال ، والصّبا ، والدبُّور ، مخلوقة إلَّا ريحاً من صفاته ، هي : ذات نسيم حياتي ، وهي من نفس الرَّحمن . قلت – ابن الجوزي – : علىٰ من يعتقد هذا اللعنة ، لأنَّه يثبت جسداً مخلوقاً ، وما هؤلاء بمسلمين " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه

(ص١١٣) ، (ص١١٧) ، (ص١٢٠-١٢١) ، (ص١٣٥) ، (ص١٤٠) ، (ص١٤١) ، (ص١٩٧) ، (ص٢١٤) ، (ص٢٣١) ، (ص٢٣٢) ، (ص٢٤٥) ، (ص٢٧٤) بالترتيب ...

وما قاله ابن حامد وغيره من المتسببين للحنابلة ما جاء إلَّا من روايات باطلة وشاذَّة ومنكرة رواها بعض علمائهم ... كتلك التي رواها أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني ، وغيره من علمائهم ...

ومن الرِّوايات المُنكَرة التي رواها عثمان بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني : " حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَجَاءٍ أبنا إِسْرَائِيلُ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَلِيفَةَ قَالَ : " أَتَتِ امْرَأَةٌ إِلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ ، فَعَظَّمَ الرَّبَ . فَقَالَ : إِنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّموات وَالْأَرْضَ ، وَإِنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ ، فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرُ أَرْبَعِ أَصَابعَ ، وَمَدَّ أَصَابِعَهُ الْأَرْبَعَ ، وَإِن لَهُ أطيطاً الرحل الْجَدِيد إِذْ رَكبه من يثقله " .

وأيضاً : " حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ الدِّمَشْقِيُّ ، ثَنَا محمَّد بْنُ شُعَيْبِ بْنِ شَابُور أبنا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ مَوْلَى غفرة ، قَالَ : سعمت أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عيله وَسَلَّمَ : أَتَانِي جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِياً أَفْيَح مِنْ مِسْكٍ أَبْيَض ، فَإِذَا كَانَ يَوم الْجُمُعَة من أَيَّام الْآخِرَةِ هَبَطَ الرَّبُّ مِنْ عَرْشِهِ إِلى كُرْسِيِّهِ ... "

وقال أيضاً : "وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّهم حِينَ حَمَلُوا الْعَرْشَ وَفَوْقَهُ الْجَبَّارُ فِي عِزَّتِهِ ، وَبَهَائِهِ ضَعُفُوا عَنْ حَمْلِهِ وَاسْتَكَانُوا ، وَجَثَوْا عَلَى رُكَبِهِمْ ، حتَّى لُقِّنُوا "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ" ، فَاسْتَقَلُّوا بِهِ بِقُدْرَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ . لَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَقَلَّ بِهِ الْعَرْشُ ، وَلَا الْحَمَلَةُ ، وَلَا السَّموات وَالْأَرْضُ ، وَلَا مَنْ فِيهِنَّ . وَلَوْ قَدْ شَاءَ لَاسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِ بَعُوضَةٍ ، فَاسْتَقَلَّتْ بِهِ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِ رُبُوبِيَّتِهِ ، فَكَيْفَ عَلَى عَرْشٍ عَظِيمٍ أَكْبَرَ مِنَ السَّموات السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ؟ وَكَيْفَ يُنْكِرُ أَيُّهَا النفاج أَن عَرْشه يقلهُ ... " .

انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٢٥-٤٢٦) ، (١/ ٤٢٠-٤٢١) ، (١/ ٤٥٨) بالترتيب ، وانظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٢٤٣) .

ومن المعلوم أنَّ ابن تيمية كان يوصي بقراءة كُتُب عثمان بن سعيد الدَّارمي (٢٨٠هـ) ، ويقول بأنَّ فيها مِنْ تَقْرِيرِ التَّوحيد ما ليسَ في غيرها ، قال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (٧٥١هـ) ، تلميذ ابن تيمية : "

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ يُوصِي بِهَذَيْنَ الْكِتَابَيْنِ – أي : كتابَيّ عثمان بن سعيد الدَّارمي : الرَّدّ على الجهميَّة ، وكتاب الرَّدّ على بشر المريسي – أَشَدَّ الْوَصِيَّةِ وَيُعَظِّمُهُمَا جَدّاً !!! وَفِيهِمَا مِنْ تَقْرِيرِ التَّوحيد وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِمَا !!! " . انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٣١) .

وعثمان الدَّارمي هذا هو القائل : " ... لِأَنَّ الْحَيَّ الْقَيُّومَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَتَحَرَّكُ إِذَا شَاءَ ، ويهبطُ ويرتفعُ إِذا شَاءَ ، وينقبض ، وَيَبْسُطُ ، وَيَقُومُ ، وَيَجْلِسُ إِذَا شَاءَ ؛ لِأَنَّ أَمَارَةُ مَا بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ التَّحَرُّكَ ، كلّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٌ لَا مَحَالَةَ ، وكلّ مَيِّتٍ غَيْرُ مُتَحَرِّكٍ لَا مَحَالَةَ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢١٥) .

وهذا كلامُ صريحٌ في التَّجسيم الذي اشتهر به عثمان الدَّارمي ، فالنُّزول والمجيء والإتيان صفات منفيَّة عن الله تعالىٰ من طريق الحركة والانتقال التي هي انتقال من مكان إلىٰ مكان ، لأنَّ الحركة لا تتمّ إلَّا من خلال جسم ينتقل من مكان إلىٰ آخر ، والله تعالىٰ ليس جسماً ، وغير حالٍّ في مكان ...

وأبو سعيد عثمان بن سعيد بن الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) ، هو غير الدَّارمي صاحب السُّنن المشهور الذي هو أبو محمَّد عبد الله بن عبد الرَّحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصَّمد الدَّارمي التَّميمي (٢٥٥هـ) ...

جاء في "اللمع" (ص٢٤) قول الأشعري : "فإن قال قائل : لِمَ أنكرتم أن يكون الله تعالىٰ جسماً ؟ قيل له : أنكرنا ذلك لأنَّه لا يخلو أن يكون القائل لذلك أراد : ما أنكرتم أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً ، أو أن يكون أراد تسميته جسماً وإن لم يكن طويلاً عريضاً مجتمعاً عميقاً ، فإن كان أراد أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً ، كما يقال ذلك للأجسام فيما بيننا ، فهذا لا يجوز ، لأنَّ المجتمع لا يكون شيئاً واحداً ، لأنَّ أقل قليل الاجتماع لا يكون إلَّا من شيئين ، لأنَّ الشَّيء الواحد لا يكون لنفسه مجامعاً ، وقد بيَّنَّا أنَّ الله عزَّ وجلَّ شيء واحد ، فبطل أن يكون مجتمعاً" . وانظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٧٢-٧٣) ، التَّوحيد للماتريدي (ص٣٨-٣٩) .

وقد دلَّت النُّصوص القطعيَّة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا يوصف إلَّا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تأويل ولا تعطيل ، وأنَّه تعالىٰ لا يُشْبِهُهُ

شيءٌ بأيِّ وجهٍ منَ الوجوهِ ، فلا يوصف بالحدِّ واللونِ والأعضاءِ والشَّكلِ والصُّورةِ والهيئةِ والتَّركيبِ ، والحركة والسُّكون ، ولا بكونه متمكِّناً بمكان ، ولا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ولا في صفاته ... فهو سبحانه ليسَ جِسمًا ولا يُشبِهُ الأجسامَ ، لأنَّ الجسم محتاجٌ إلى من يركِّبه ، ولا بدَّ له من حيِّز ... وبالجملة ، فهو سبحانه وتعالى – كما قال الإمام الطَّحاوي في عقيدته – : " وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ " ، لأنَّ كلّ ذلك من صفات المحدَثات ، والله تعالى هوالغنيُّ بنفسه عمَّا سواه ...

فتشبيه الله تعالى بخلقه بدعةٌ من البدع القبيحة الخبيثة المُنكرة في دين الله تعالى ، ومآل معتقدها إلى الخروج من حياض وربقة الإيمان بعد إقامة الحجَّة عليه ... فالله تعالى لا شبيه له ولا مثيل ، ولا مساو له ولا كفؤ له سبحانه وتعالى ، ولا ضدَّ ولا ندَّ له ولا نظير ، ولا ولد ولا والد ولا صاحبة سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] ...

ومن المعلوم أنَّ جمهور العلماء ذهبوا إلى أنَّ الألفاظ الموهمة للتَّشبيه لا يجوز أن تُحمل على ظاهر معناها المتبادر إلى الأذهان البتَّة ، لأنَّ الحمل على الظَّاهر يتعارض مع العديد من المسلَّمات العقديَّة ، وكذا اللغويَّة ، بالإضافة إلى الاصطدام المباشر مع آيات التَّنزيه ، التي منها :

١ . قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل : ٦٠] ، فلا يوصف سبحانه بأيِّ وصفٍ يُشبه وصف غيره من صفات المخلوقين ، من التَّغيُّر والتَّبدُّل والحلول في الأماكن والتَّحيُّز فيها ، فهو تعالى واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، وتجبُ له جَمِيعُ صِفَاتِ الْجَلَالِ والجَمَالِ وَالْكَمَالِ ، ولذلك لا يجوز أن تُضرب لله الأمثال التي توجب الاشتباه ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[النحل : ٧٤] .

٢. وقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم : ٦٥] ، أي : هل تعلم من الآلهة التي عُبدت من دونه من اسمه الله ؟!! فلا يوجد أبداً من تسمَّى من المعبودات الباطلة باسم " الله " ، فالله تعالى لا مِثْل له ، ولا عدل ، ولا شبيه ، ولا مثيل في كلّ شيء حتَّى في اسمه تعالى ، فمن وصفه بمعنى من معاني

المحدثات ، كالنُّزول الحقيقي ، والقيام ، والقعود ، والجلوس على العرش والاستقرار فيه ، فقد شبَّه الله تعالىٰ بخلقه ، والعياذ بالله ...

٣. وقوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ : ١١] ، فالله تعالىٰ لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، والآية نصٌّ محكمٌ صريحٌ في نفي المشابهة والمماثلة بين الله تعالىٰ وبين سائر المحدثات ، فلا هو يشبهها في أيِّ شكل من الأشكال ، ولا هو في حاجةٍ إلىٰ شيءٍ ممَّا خَلَق ...

وقد يردُ إشكالٌ مَفادُه : أنَّ نفي المثل في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] ، يُوهمُ وجود المثل ، لأنَّ الكاف بمعنىٰ مثل ، فيصير المعنىٰ : ليس مثل مثله شيء ، فالنَّفي يكون لمثل المثل ...

والجواب علىٰ هذا الإشكال بعدَّة أجوبة :

(أ) أنَّ الكاف صلة ، أي زائدة لتأكيد نفي المثل ، فالمعنىٰ : انتفىٰ المثل انتفاء مؤكَّداً .

(ب) أنَّ المثل بمعنىٰ الصِّفة ، فالمعنىٰ : ليس كصفة الله تعالىٰ شيء .

(ج) أنَّ الآية من باب الكناية ، علىٰ حدِّ قولك : (مِثلُكَ لا يجبُن) ، أي : أنت لا تَجْبُن . ووجه كونها من باب الكناية أنَّه يلزم من نفي مثل المثل نفي المثل ، وهذا هو المراد . فالقصد نفي مثله تعالىٰ علىٰ أبلغ وجه ، إذ الكناية أبلغ من التَّصريح لتضمُّنها إثبات الشَّيء بدليله .

وعليه ، فالآية الكريمة تنفي عن الله تعالىٰ المماثلة لشيء من الحوادث ، ونفي المماثلة يفيد أُموراً عديدة ، من أهمِّها : نفي الجسميَّة ، والعَرَضيَّة ، والجوهريَّة : لأنَّ الجسم مؤلَّف من جواهر وأعراض ، وهما حادثان . قال السُّبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب : " اعلم أنَّ حكم الجواهر والأعراض كلّها الحدوث فإذاً العالم كلّه حادث ، وعلىٰ هذا إجماع المسلمين !!! بل كلّ الملل ، ومن خالف في ذلك فهو كافر ، لمخالفة الإجماع القطعيّ ". انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٩٣) .

٤. وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص : ٤] ، أي : لا نظير له ، ولا قسيم له ، ولا شبيه له ، ولا صاحبة ، ولا شريك ... فينازعه في ربوبيَّته ومُلكه بوجه من الوجوه ، وقد فسَّرَتْها آية الشُّورىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ : ١١] .

وبناءً علىٰ ما يجب لله تعالىٰ من التَّنزيه ، يجب الاعتقاد بأنَّ الله تعالىٰ لا يحتاج لمكان يتمكَّن فيه ، لأنَّه سبحانه ليس جسماً ، إذ الجسم هو الذي يتمكَّن بمعنىٰ يتحيَّز في المكان ، وهو الذي لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، إذ هي أعراضٌ ملازمةٌ للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثةٌ لتغيُّرها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسْماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسْماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلّ ، وافتقر إليه ، وبحاجة المتمكِّن في المكان للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكِناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز علىٰ المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال وسائر الأعراض الملازمة للمحدثات ، وبالتَّالي فالله تعالىٰ ليس محلَّاً للحوادث ، فلا هو يحُلُّ بها ، ولا هي تحُلُّ فيه سبحانه وتعالىٰ ...

فالله تعالىٰ لا كيْف له ، وصفاته سبحـــانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ وتعالىٰ ربُّنا عن النَّظير ، والمثيل ، والشَّبيه ، والنِّد ، والكفء ...

ولذلك وقف جمهور السَّلف الصَّالح أمام المتشابهات من غير أن ينبسُّوا ببنت شَفَه ، وقالوا : نؤمن بها ، وُنَصَدِّقُ بِهَا ، وَلَا تُتوَهَّم ، **وَلَا كَيْف** ، **وَلَا مَعْنَى** ، ولا نَرُدُّ منها شيئاً ، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقٌّ إذا ثبت وصحَّ الحديث عنه ، ولا نردُّ علىٰ الله تعالىٰ قوله ، ولا نصف الله بأكثر ممَّا وصف به نفسه ، بلا حدٍّ ولا غاية ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ : ١١] . فأجروها علىٰ ظاهر اللفظ لا علىٰ ظاهر المعنىٰ ، لأنَّ المعنىٰ لا سبيل إلىٰ درْكه ، ولذلك وَكَلُوا علمه إلىٰ الله تعالىٰ ، وكان لسان حالهم يقول كما قال الإمام ابن الجوزي : " نُقِرُّ ونُمِرُّ ، وَأَرْبَابُ الْبَحْثِ فِي خَسَارٍ ، هَذَا سَيْفُ السُّنَّة فَتَنَاوَلْهُ بِالْيَمِينِ لا بِالْيَسَارِ ، وَاضْرِبْ بِهِ كَفَّ " كَيْفَ

" وَرأْسَ " لَمْ " وَعُنُقَ " ثمَّ " وَخُذْ لِلتَّنْزِيهِ من التَّشبيه بالثَّار ، قال تعالىٰ : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] . انظر : التبصرة (٢/ ٢٨٧) .

فالله تعالىٰ لا كيْف له ، إذ الكيْف من لوازم الأجسام ، والله يتنزَّه عن ذلك كلِّه ... فهوسبحانه منزَّه عن الحدِّ ، والضدِّ ، والندِّ ، والمثل ، والمكان ، والحركة ...

نقَلَ الإمامُ أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) في " الحِلْيَةِ " بسنده عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : كُنْتُ بِالْكُوفَةِ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ ، دَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا نَوْفُ بْنُ عَبْدِ الله ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَابِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : عَلَيَّ بِهِمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالُوا لَهُ : يَا عَلِيُّ صِفْ لَنَا رَبَّكَ هَذَا الَّذِي فِي السَّماء ، كَيْفَ هُوَ ، وَكَيْفَ كَانَ ، وَمَتَىٰ كَانَ ، وَعَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ فَاسْتَوَىٰ عَلِيٌّ جَالِساً ، وَقَالَ : مَعْشَرَ الْيَهُودِ اسْمَعُوا مِنِّي ، وَلَا تُبَالُوا أَنْ لَا تَسْأَلُوا أَحداً غَيْرِي ، إِنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَبْدُ مِمَّا ، وَلَا مُمَازِجٌ مَعِمَّا ، وَلَا حَالٌّ وَهْمًا ، وَلَا شَبَحٌ يُتَقَصَّىٰ ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَىٰ ، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَيُقَالُ : حَادِثٌ ، بَلْ جَلَّ أَنْ يُكَيِّفَ الْمُكَيِّفَ لِلْأَشْيَاءِ كَيْفَ كَانَ ، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ ، وَلَا لِتَقَلُّبِ شَانٍ بَعْدَ شَانٍ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ ، وَكَيْفَ يُنْعَتُ بِالْأَلْسُنِ الْفِصَاحِ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ : بَائِنٌ ، وَلَمْ يَبِنْ عَنْهَا فَيُقَالُ : كَائِنٌ ، بَلْ هُوَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبَلِ الْوَرِيدِ ، وَأَبْعَدُ فِي الشَّبَهِ مِنْ كُلِّ بَعِيدٍ ... وَالْحَدُّ إِلىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ... سُبْحَانَهُ كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا شَفَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ تَكْيِيفِ الصِّفَاتِ ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ " . انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٧٢-٧٣) .

قلت : وفي تفسير قوله " بَائِنٌ " ، قال الإمام ابن فورك في "مشكل الحديث وبيانه" (ص٤٥٤) : " ... وأنَّه بائن ممَّا خلق ، بينونة الصِّفة والنَّعت ، لا بالتَّحيُّز والمكان والجهة" .

وقال الإمام الكوثري في تعليقه علىٰ " الأسماء والصِّفات " للبيهقي (ص٥٠٢) : "... والمعنىٰ أنَّه غير ممازج للخلق لا بمعنىٰ أنَّه متباعد عن الخلق بالمسافة ، تعالىٰ الله عن القُرب والبُعد الحسيين

والبينونة الحسيَّة ، فليس في ذلك ما يطمع المجسِّمة في كلامه ، وسيأتي من المصنِّف عند الكلام في آية الاستواء : لا قاعد ولا قائم ولا مماسّ ولا مباين عن العرش . ثمَّ قال : لأنَّ المماسَّة والمباينة بالمسافة التي هي ضدّها ، كلاهما من صفات الأجسام " .

وقال التَّابعي الشَّهير زين العابدين علي بن الحسين بن علي (٩٥هـ) رضي الله عنهم : " أنت الله الذي لا تُحدُّ فتكون محدوداً " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤١٣) .

وقال الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ) : " وَهُوَ شَيْء لَا كالأشياء وَمعنى الشَّيء : الثَّابِت بِلَا جسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عَرَض ، وَلَا حدَّ لَهُ ، وَلَا ضدَّ لَهُ ، وَلَا ندَّ لَهُ ، وَلَا مِثل لَهُ " . انظر : شرح الفقه الأكبر (ص٨٩-٩٠) .

ونقل الإمام السُّيوطي عن الإمام الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) أَنَّه لَا يُكَفر أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَاسْتَثنى مِنْ ذَلِكَ : الْمُجَسِّمُ ، وَمُنْكِرُ عِلْمِ الْجُزْئِيَّاتِ . انظر : الأشباه والنظائر (ص٤٨٨) .

" وحَكَوْا عن الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رضي الله عنه أنَّه قال : من انتهض لطلب مدبِّره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكرهُ فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلى العدم الصّرف فهو معطِّل ، وإن اطمأنَّ إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد " . انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السُّبكي (٤/ ٦٤٣) .

فالشَّافعي حكم على من انتهى فكره في طلب الحقِّ إلى شيء من المخلوقات بأنَّه مُشبِّه ، وحكم على من انتهى فكره إلى العدم بأنَّه معطِّل ... أمَّا من اعتقد بوجود الحقّ المتَّصف بالجلال والكمال ، واعترف بالعجز عن إدراك حقيقة الحقّ تعالى بأنَّه موحِّد ..

وهذا كلام نفيس من الإمام الشَّافِعِي ، يدلُّ دلالة واضحة بيِّنة على أنَّ السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم كانوا على قلب رجل واحد في تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ولوازمها من التَّحيُّز ، والجلوس على العرش ، والحركة ، والنُّزول ، والمجيء ، والإتيان ...وأنَّ ما خطر بالبال فالله بخلافه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ...

وأكَّد الإمام الشَّافِعِي رضي الله عنه – أيضاً – علىٰ الحقائق السَّابقة ، فقال : " آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتَّهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كلّ الإمساك " . انظر : البرهان المؤيد (ص١٨) .

ومن المعلوم أنَّ علماء الأمَّة أجمعوا علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة وسائر المحدثات ، وأكَّدوا علىٰ أنَّه لم يأت في الشَّريعة ذلك ، فبطل ... ولذا لا يجوز أن يُسمَّىٰ الله تعالىٰ بالجسم ...

فقد جاء في عقيدة الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ، رواية أبي بكر الخلَّال (٣١١هـ) : " وَأنكر – يعني أحمد بن حنبل – علىٰ من يَقُول بالجسم ، وَقَالَ : إِنَّ الْأَسْمَاء مَأْخُوذَة بالشَّريعة واللغة ، وَأهل اللُّغَة وضعُوا هَذَا الاسم علىٰ كلّ ذِي طول ، وَعَرْض ، وسمك ، وتركيب ، وَصُورَة ، وتأليف ، وَالله تَعَالَىٰ خَارج عَن ذَلِك كُله ، فَلم يجز أَن يُسمَّىٰ جسماً ، لِخُرُوجِهِ عَن معنىٰ الجسميَّة ، وَلم يجِئ فِي الشَّرِيعَة ذَلِك ، فَبَطل ". انظر : العقيدة رواية أبي بكر الخلال (ص١١١) ، وانظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٨) .

ونقل الإمام عبد الواحد التَّميمي (٤١٠هـ) عن الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) أنَّه كان يعتقد عقيدة التَّفويض التي كان عليها جمهور السَّلف الذين فوَّضوا معنىٰ الألفاظ المُضافة إلىٰ الله تعالىٰ ، وأنَّه : " كان يقول : إنَّ لله تعالىٰ يدين ، وهما صفة له في ذاته ، ليستا بجارحتين ، وليستا بمركَّبتين ، ولا جسم ، ولا من جنس الأجسام ، ولا من جنس المحدود ، والتَّركيب ، ولا الأبعاض والجوارح ، ولا يُقاس علىٰ ذلك ، ولا له مرفق ، ولا عضد ، ولا فيما يقتضي ذلك من إطلاق قولهم : يد ، إلَّا ما نطق القرآن به أو صحَّت عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السُّنَّة فيه ... " . انظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٤) .

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) في ترجمته لأبي الفيض ذُو النُّونِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيُّ (٢٤٥هـ) من نظمه :

شُكْراً لِمَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِ نِعْمَتِهِ	مِنَ الْهُدَىٰ وَلَطِيفِ الصُّنْعِ وَالرَّفَدِ
رَبٌّ تَعَالَىٰ فَلَا شَيْءَ يُحِيطُ بِهِ	وَهُوَ الْمُحِيطُ بِنَا فِي كلّ مُرْتَصَدِ
لَا الْأَيْنَ وَالْحَيْثُ وَالْكَيْفُ يُدْرِكُهُ	وَلَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ وَلَا أَمَدِ

وَكَيْفَ يُدْرِكُهُ حَدٌّ وَلَمْ تَرَهُ عَيْنٌ   وَلَيْسَ لَــــــــهُ فِي الْمِثْلِ مِنْ أَحَدِ
أَمْ كَيْفَ يَبْلُغُـــــهُ وَهْمٌ بِلَا شَبَهٍ   وَقَدْ تَعَالَىٰ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْوَلَــــــدِ

انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٣٨٨) .

وقال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " القول في الدّلالة علىٰ أنَّ الله عزَّ وجلَّ القديم الأوَّل قبل شيء ، وأنَّه هو المُحدِث كلّ شيء بقدرته تعالىٰ ذكره .

فمن الدِّلالة علىٰ ذلك : أنَّه لا شيء في العالم مشاهد إلَّا جسم أو قائم بجسم ، وأنَّه لا جسم إلَّا مفترق أو مجتمع ، وأنَّه لا مفترق منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الائتلاف إلىٰ غيره من أشكاله ، ولا مجتمع منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الافتراق ، وأنَّه متىٰ عدم أحدهما عدم الآخر معه ، وأنَّه إذا اجتمع الجزءان منه بعد الافتراق ، فمعلوم أنَّ اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن ، وأنَّ الافتراق إذا حدث فيهما بعد الاجتماع فمعلوم أنَّ الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن .

وإذا كان الأمر فيما في العالم من شيء كذلك ، وكان حكم ما لم يشاهد وما هو من جنس ما شاهدنا في معنىٰ جسم أو قائم بجسم ، وكان ما لم يخل من الحدث لا شكَّ أنَّه محدث بتأليف مؤلِّف له إن كان مجتمعاً ، وتفريق مفرق له إن كان مفترقاً ، وكان معلوماً بذلك أنَّ جامع ذلك إن كان مجتمعاً ، ومفرقه إن كان مفترقاً ، من لا يشبهه ومن لا يجوز عليه الاجتماع والافتراق ، وهو الواحد القادر الجامع بين المختلفات الذي لا يشبهه شيء ، وهو علىٰ كلّ شيء قدير .

فتبيَّن بما وصفنا أنَّ بارئ الأشياء ومحدثها كان قبل كلّ شيء ، وأنَّ الليل والنَّهار والزَّمان والسَّاعات محدثات ، وأنَّ محدثها الذي يدبِّرها ويصرِّفها قبلها إذ كان من المحال أن يكون شيء يحدث شيئاً إلَّا ومحدثه قبله ، وأنَّ في قوله تعالىٰ ذكره : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ *وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية: ١٧ – ٢٠] ، لأبلغ الحُجج ، وأدلّ الدَّلائل لمن فكَّر بعقلٍ ، واعتبر بفهمٍ علىٰ قِدم بارئها ، وحدوث كلّ ما جانسها ، وأنَّ لها خالقاً لا يشبهها .

وذلك أنَّ كلّ ما ذكر ربُّنا تبارك وتعالىٰ في هذه الآية من الجبال والأرض والإبل ، فإنَّ ابن آدم يعالجه ويدبِّره بتحويل وتصريف ، وحفر ونحت وهدم ، غير ممتنع عليه شيء من ذلك ، ثمَّ إنَّ ابن آدم مع ذلك غير قادر علىٰ إيجاد شيء من ذلك من غير أصل ، فمعلوم أنَّ العاجز عن إيجاد ذلك لم يُحْدِث نفسه ، وأنَّ الذي هو غير ممتنع ممَّن أراد تصريفه وتقليبه لم يوجدْه من هو مثله ، ولا هو أوجد نفسه ، وأنَّ الذي أنشأه وأوجد عينه هو الذي لا يعجزه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه إحداث شيء شاء إحداثه ، وهو الله الواحد القهَّار .

فإن قال قائل : فما تنكر أن تكون الأشياء التي ذكرت من فعل قديمين ؟

قيل : أنكرنا ذلك لوجودنا اتِّصال التَّدبير وتمام الخلق ، فقلنا : لو كان المدبِّر اثنين لم يخْلُوَا من اتِّفاق أو اختلاف ، فإن كانا متَّفقين فمعناهما واحد ، وإنَّما جعل الواحد اثنين من قال بالاثنين ، وإن كانا مختلفين كان محالاً وجود الخلق علىٰ التَّمام والتَّدبير علىٰ الاتِّصال ، لأنَّ المختلفين ، فعلُ كلّ واحد منهما خلاف فعل صاحبه ، بأنَّ أحدهما إذا أحيا أمات الآخر ، وإذا أوجد أحدهما أفنىٰ الآخر ، فكان محالاً وجود شيء من الخلق علىٰ ما وجد عليه من التَّمام والاتصال ، وفي قول الله عزَّ وجلَّ ذكره : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون: ٩١ – ٩٢] ، أبلغ حجَّة ، وأوجز بيان ، وأدلُّ دليل علىٰ بُطول ما قاله المُبطلون من أهل الشِّرك بالله ، وذلك أنَّ السَّموات والأرض لو كان فيهما إله غير الله ، لم يخْلُ أمرهما ممَّا وصفت من اتِّفاق واختلاف . وفي القول باتِّفاقهما فساد القول بالتَّثنية ، وإقرار بالتَّوحيد ، وإحالة في الكلام بأنَّ قائله سمَّىٰ الواحد اثنين . وفي القول باختلافهما القول بفساد السَّموات والأرض ، كما قال ربُّنا جلَّ وعزَّ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢] ، لأنَّ أحدهما كان إذا أحدث شيئاً وخلقه كان من شأن الآخر إعدامه وإبطاله ، وذلك أنَّ كلّ مختلفين فأفعالُهما مختلفة ، كالنَّار التي تسخِّن ، والثَّلج الذي يبرِّد ما أسخنته النَّار .

وأخرىٰ ، أنَّ ذلك لو كان كما قاله المشركون بالله ، لم يخلُ كلّ واحد من الاثنين اللذين أثبتوهما قديمين من أن يكونا قويَّين أو عاجزين ، فإن كانا عاجزين ، فالعاجزُ مقهور وغير كائن إلهاً . وإن كانا قويين فإنَّ كلّ واحد منهما بعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون إلهاً . وإن كان كلّ واحد منهما قويّاً علىٰ صاحبه ، فهو بقوَّة صاحبه عليه عاجز ، تعالىٰ ذكره عمَّا يشرك المشركون !!

فتبيَّن إذاً أنَّ القديم بارئ الأشياء وصانعها هو الواحد الذي كان قبل كلّ شيء ، وهو الكائن بعد كلّ شيء ، والأوَّل قبل كلّ شيء ، والآخر بعد كلّ شيء ، وأنَّه كان ولا وقت ولا زمان ، ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا نور ، إلَّا نور وجهه الكريم . ولا سماء ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وأنَّ كلّ شيء سواه مُحدَث مدبَّر مصنوع ، انفرد بخلق جميعه بغير شريك ولا مُعين ولا ظهير ، سبحانه من قادر قاهر " . انظر : تاريخ الأمم والملوك (١/ ٢٥-٢٦) .

فالإمام الطَّبري شرح في كلامه السَّابق دليل " التَّمانع " ، فجلَّاه بأوضح عبارة ، ووضَّح أنَّ صانع العالم واحد ، وأنَّ العالم لو كان له صانعان لثبت بينهما تمانع ، وهو دليل حدوثهما أو حدوث أحدهما ؛ فلو أراد أحدهما أن يخلق حياة في شخص ، وأراد الآخرُ أن يخلق فيه موتاً ، فإذا تمَّ مرادهما معاً فهو محال؛ لاجتماع الضدَّين في محلٍّ واحد، وإذا لم يحصل مرادهما فهو دليلُ عجزهما معاً ، ولو تمَّ مراد أحدهما دون الآخر فهو دليل علىٰ عجز من لم يُنْفِذ إرادته، وبالتَّالي فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً ... وهذا هو دليل التَّمانع المأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ...

ولخطورة نسبة الجسميَّة إلىٰ الله تعالىٰ ، فقد شدَّد العلماء في ذلك حتَّىٰ حكم بعضهم بكفر مُعتقِده ... فقد حكم الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه (٣٢٤هـ) بكفر من اعتقد بأنَّ الله جسم ، وأنَّه غير عارف بربِّه ، فقال : " من اعتقد أنَّ الله جسم ، فهو غير عارف بربِّه ، وإنَّه كافر به " . انظر : إشارات المرام من عبارات الإمام (ص١٦٨) .

وأضاف بأنَّ أهل السُّنَّة يعتقدون بأنَّ الله تعالىٰ لا يُشبه شيئاً من المخلوقات ، فقال : " وقال أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء " . انظر : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (ص٢١١) .

وفي كلامه علىٰ مجيء الله تعالىٰ يوم القيامة ، أكَّد الإمام الأشعري علىٰ أنَّ مجيء الله ليس بنُقلة ولا بحركة من مكان إلىٰ آخر ، لأنَّ الله تعالىٰ ليس بجسم ولا جوهر ، وصرَّح بأنَّ الأمَّة مُجمعة علىٰ ذلك ، فقال : " وأجمعوا علىٰ أنَّه عزَّ وجلَّ يجيء يوم القيامة والملك صفَّاً صفَّاً لعرض الأُمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذِّب منهم من يشاء ، كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نُقلة أو حركة ، ألا ترىٰ أنَّهم لا يريدون بقولهم : جاءت زيداً الحُمَّىٰ ، أنَّها تنقَّلت إليه أو تحرَّكت من مكان كانت فيه ، إذ لم تكن جسماً ولا جوهراً ، وإنَّما مجيئها إليه وجودها به ، وأنَّه عزَّ وجلَّ ينزل إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، كما روي عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس نزوله نُقلة ، لأنَّه ليس بجسم ولا جوهر " . انظر : أصول أهل السنَّة المسمَّاة برسالة أهل الثغر (ص٧٠) .

وقال إمام المدرسة الماتريديَّة التي يتبعها غالبيَّة أتباع المذهب الحنفي في العقيدة الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " مَسْأَلَة : لَا يجوز إِطْلَاق لفظ الْجِسْم علىٰ الله تَعَالَىٰ " . انظر : التَّوحيد (ص٣٨) .

وقال أيضاً : " ... وَأَمَّا الْجِسْم فَهُوَ اسْم لكلِّ مَحْدُود ، والشَّيء إِثْبَات لَا غير ، وَفِي وجود الْعَالم علىٰ مَا عَلَيْهِ دَلِيل الْإِثْبَات ، لذَلِك قيل بالشَّيْء ، وَفِيه – إِذْ هُوَ متناه لَا من حَيْثُ الشَّيئيَّة بل من حَيْثُ الْحَدّ – دَلِيل نفي الْحَدِّ عَن الله جلّ ثَنَاؤُهُ . إِلَّا أَن يُرَاد بِالْحَدِّ الوحدانيَّة والرُّبوبيَّة ، فَهُوَ كَذَلِك ، وحرف الْحَدِّ سَاقِط لأنَّه يغلب فِي الدّلَالَة علىٰ نِهَايَة الشَّيء من طَرِيق الْعرض وَنَحْو ذَلِك مِمَّا يتعالىٰ عَن ذَلِك ، وَذَلِكَ معنىٰ الْجِسْم فِي الشَّاهد . وَفِيه أَيْضاً إِيجَاب الْجِهَات الْمُحْتَمل كلّ جِهَة أَن يكون أطول مِنْهَا وَأَعْرض وأقصر ، فَلذَلِك بَطل القَوْل بذلك ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

ثمَّ الهويَّة فِي الشَّاهد كِنَايَة عَن الْوُجُود ، وتأويله نفي الْعَدَم عَنهُ ، وَالله تَعَالَى لم يزل وَلَا يزَال بِلَا تغيُّر وَلَا زَوَال وَلَا انْتِقَال من حَال إِلَى حَال ، وَلَا تحرّك وَلَا قَرَار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهُنَّ أَحْدَاث ، فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث ، وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ، ثمَّ الْقِدَم ، ثمَّ جَرْي لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ ، إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيّرها مَا دَامَت ذَاته ، فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغيُّر الْأَحْوَال عَلَيْهِ ، وبنقله من حَال إِلَى حَال ، وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان ، وَلَيْسَ فِي الْإِضَافَة إِلَى أَنَّه على الْعَرْش اسْتَوَى تثبيت مَكَان ، كَمَا لم يكن فِي قَوْله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ، وَقَوله :﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[المجادلة: ٧] ، وَقَوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة: ٨٥] . ذَلِك على أَنَّ الْقَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتَّبجيل ، بل الْأَمْكِنَة إِنَّمَا شرُفت بِهِ وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَاناً على مَكَان يَجعله مَخْصُوصاً لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيهِ .

فَأَمَّا أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار ، فَلَيْسَ بِهِ ، فَكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدر مَكَان ، وَلَا جلَّ خطره إِلَّا بِهِ ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي الْإِضَافَة تَعْظِيمه ، ثمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك للْحَاجة ، وَهُوَ يتعالى عَنْهَا فلذَلِك لم يجب بقوله : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ، معنى الْكَوْن فِي الْمَكَان ، إِذْ ذَلِك الْحَرْف يعبَّر بِهِ عَن الْعُلُوّ والجلال ، ومحال مثله لَهُ بخلقه ، فَثَبت أَنَّ ذَلِك من الْوَجْه الَّذِي يسْتَحقّهُ بِذَاتِهِ من الْعُلُوّ والرفعة وَمَا هُوَ بِذَاتِهِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَانَ كَذَلِك وَلَا خلق ، لم يجز الْوَصْف لَهُ بالخلق ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

مَعَ مَا يكون ذَلِك الإعتقاد عَن علم تقدم بِحَال من يُضَاف إِلَيْهِ ذَلِك فِي الشَّاهد قبل الْإِضَافَة من الإحتمال ، ثمَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وعَلى ذَلِك اعْتِقَاد الْأَنَام لم يجز أَن يتغَيَّر الْفَهم عَن الْإِضَافَة عَمَّا كَانَ من قبل ، وَإِلَيْهِ ينْصَرف الْفَهم عَن الْإِضَافَة إِلَى خلقه ، على أَنَّ تَخْصِيص إضافات

الْأَشْيَاء إِلَىٰ الله فِي الشَّاهد يخرج مخرج التَّعْظِيم لَهَا بِمَا جعل فِيهَا من الْأُمُور المرضيَّة وَالْأَحْوَال المحمـودة ، فَمَا بَال الْعَرْش من بَين ذَلِك ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

وعَلىٰ ذَلِك يفْسد قَول من يصفه بِكُلِّ مَكَان ، إِذْ لَا فرق بَين مَكَان وَاحِد مَخْصُوص يُضَاف إِلَيْهِ وَبَين الْجُمْلَة ، بل الْفَرد فِي بَيَان تَعْظِيمه أولى ، إِذْ فِي ذَلِك تَخْصِيص ذَلِك الشَّيْء بِالذِّكر ، وَفِي الذّكر تشريف وتكريم ، فَيرجع إِلىٰ ذكر علوّ ذَلِك الشَّيْء ، وَفِي الْإِرْسَال وَجمع الْكلّ إِلىٰ تَخْصِيصه وَحَقِيقَته صفة الله كَمَا يُقَال : ربّ كلّ شَيْء ، وإله كلّ شَيْء ، علىٰ تَعْظِيم الرَّبِّ وتبجيله ، وَإِذا قيل : ربّ محمَّد ، وإله إِبْرَاهِيم ، فَإِنَّمَا يقْصد قصد تشريفهما وتعظيمهما ، فَقِيَاس ذَلِك أَن تكون الْإِضَافَة إِلىٰ الْعَرْش توجب تَعْظِيم الْعَرْش وتكريمه وَإِلَىٰ كلّ الْأَمْكِنَة توجب وصف الله بهَا ، وَذَلِكَ قَبِيح ، إِذْ لم يكن يُوصف بِهِ فِي الْأَزَل ، وَلَا يُوصف شَيْء بِالْقربِ إِلىٰ الله من طَرِيق الْمسَافَة والمساحة ، وَلَا هُوَ بِالْقربِ إِلىٰ شَيْء من ذَلِك الْوَجْه ، إِذْ ذَلِك جِهَة الْحُدُود وَالتَّقْدِير بالأمكنة ، وَقد كَانَ وَلَا مَكَان فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ يتعالىٰ عَن الزَّمان وَالْمَكَان ، إِذْ إِلَيْهِمَا ترجع حُدُود الْأَشْيَـاء ونهايتها ، وَلَا قُـــوَّة إِلَّا بِاللهَّ " .

انظر : التَّوحيد (ص١٠٤-١٠٦) .

فالإمام الماتريدي في كلامه السّابق نزّه الله عن الجسميَّة ، كما نزَّهه سبحانه عن الكون في المكان ، وأنَّه تعالىٰ كان ولا مكان ، وأنَّ الكون في المكان لا يمنح المتمكِّن فيه التَّعْظِيم والتَّبجيل ، وأنَّ الْأَمْكِنَة إنَّما تشرُفُ بتفضيل الله تعالىٰ لمَكَان علىٰ مَكَان ، وأنَّ حرَّاس ملوك الدُّنيا قد يكونون في مكان أعلىٰ من مكان الملوك ، ومع ذلك لا ترتفع مكانتهم بالمكان الذي يكونون فيه ... وختم كلامه بالقول بأنَّ الله تعالىٰ لَا يُوصف بِالْقربِ بطَرِيق الْمسَافَة والمساحة ، لأنَّ ذلك كلّه من أمارات الحدث ...

وقال الإمام ابن حبَّان (٣٥٤هـ) : " الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حدٌّ مَحْدُود فيحوىٰ ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنىٰ ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشَّواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدْره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة النَّاطقين " . انظر : الثقات (١/١) .

وبمناسبة الكلام عن ابن حبَّان نُذكِّر هنا بما قاله الإمام السُّبكي في ترجمة ابن حبَّان (٣٥٤هـ) ، قال :
" ... فَاعْلَم أَنَّ أَبَا إِسْمَاعِيل عبد الله بن محمَّد الهروي (٤٨١هـ) الذي تسمِّيه المجسِّمة : شيخ الْإِسْلَام ، قَالَ : سَأَلت يحيى بن عمَّار عَن ابْن حبَّان ، قلت : رَأَيْته ؟ قَالَ : وَكَيف لم أره ، وَنحن أخرجناه من سجستان ، كَانَ لَهُ علم كثير ، وَلم يكن لَهُ كَبِير دين ، قدم علينا ، فَأنْكر الْحَدَّ لله !!! فأخرجناه من سجستان ، انْتهى .

قلت : - السُّبكي - انْظُر مَا أَجْهَل هَذَا الْجَارِح ، وليت شعرى من الْمَجْرُوح : مُثبت الْحَدِّ لله أَو نافيه ؟ " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٣٢) .

ومن المعروف أنَّ الهرويُّ سابق الذِّكر ، حنبليٌّ متعصِّب للحنابلة ، عدوٌّ لدودٌ للإمام الأشعري والأشاعرة ، ، وهو القائل عن الأشاعرة : " وقد شاع في المسلمين أنَّ رأسهم علي بن إسماعيل الأشعري كان لا يستنجي ولا يتوضَّأ ولا يصلِّي" . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ٤١٥) .

وعلى كلّ حال فقد علَّق الإمام الذَّهبي على كلام الهروي المتعلِّق بالحدِّ لله تعالى ، فقال : " إنكاره الحدّ وإثباتكم للحدِّ نوع من فضول الكلام ، والسُّكوت عن الطَّرفين أولى ، إذ لم يأت نصٌّ بنفي ذلك ولا إثباته ، والله تعالى ليس كمثله شيء ، فمن أثبته قال له خصمه : جعلت لله حدَّاً برأيك ، ولا نصَّ معك بالحدِّ ، والمحدود مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وقال هو للنَّافي : ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم ، إذ المعدوم لا حدَّ له ، فمن نزَّه الله وسكت سلم وتابع السَّلف " . انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٥٠٧) .

قلت : كلام الذَّهبي في التَّعقُّب على الهروي فيه دَخَنٌ ... ولذلك تعقَّبه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، فقال : " وقوله : قال له النَّافي : ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم إذ المعدوم لا حدَّ له نازل ، فإنَّا لا نسلم أنَّ القول بعدم الحدِّ يُفضي إلى مساواته بالمعدوم بعد تحقُّق وجوده ، وقوله : بدت من بن حبَّان هفوة طعنوا فيه لها إن أراد القصَّة الأولى التي صدَّر بها كلامه فليست هذه بهفوة ، والحقُّ أنَّ الحقَّ مع بن حبَّان فيها ، وإن أراد الثَّانية فقد اعتذر هو عنها أوَّلاً ، فكيف يحكم عليه

بأنَّه هفا ، ماذا إلَّا تعصُّب زائد علىٰ المتأوِّلين ، وابن حبَّان قد كان صاحب فنون وذكاء مفرط ، وحفظ واسع إلىٰ الغاية ، رحمه الله " . انظر : لسان الميزان (٥/ ١١٤) .

نعم ، فالحقُّ أنَّ الحقَّ مع بن حبَّان في المسألة ... فالله تعالىٰ منزَّه عن الحدِّ ، لأنَّه تعالىٰ لو كان جَوْهَراً فَرداً لكانَ الجوْهرُ الفردُ مِثْلاً له ، ولو كانَ زائداً علىٰ ذلك للزم كونه مؤلَّفاً مُركَّباً ، والمُركَّب مُحتاجٌ إلىٰ من يُركِّبه ، والاحتياج إلىٰ الغير دليل الحدوث ... ومع هذا كلِّه ، فقد وصل الأمر بابن تيمية إلىٰ تكفير من لم يؤمن بالحدِّ لله تعالىٰ ، والعياذ بالله ... قال ابن تيمية : " ... فهذا كلُّه وما أشبهه شواهد ودلائل علىٰ الحدِّ ، ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله ، وجحد آيات الله " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥٨) ...

فَهَذِهِ هي عقيدتهم ، التي أوصلتهم إلىٰ تكفير من سواهم ممَّن هو علىٰ غير منهجهم وطريقتهم وعقيدتهم ، فهم لا يرون علىٰ الإسلام إلَّا هم ، ويرون – أنفسهم كما قال السُّبكي – : " أنَّهم أهل السُّنَّة ، وَلَو عُدُّوا عدداً لما بلغ علماؤهم وَلَا عَالم فيهم عَلَىٰ الْحَقِيقَة مبلغاً يعْتَبر ، ويكفِّرون غَالب عُلَمَاء الْأمَّة !!! ثمَّ يعتزون إلىٰ الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وَهُوَ مِنْهُم برِيء !!! وَلكنَّه كَمَا قَالَ بعض العارفين ورأيته بِخَط الشَّيخ تقي الدِّين ابْن الصَّلاح : إمامان ابتلاهما الله بأصحابهما ، وهما بريَّان مِنْهُم : أَحْمد ابْن حَنْبَل ابْتُلِيَ بالْمُجَسِّمَة ، وجعفر الصَّادِق ابْتُلِيَ بالرَّافضة " . انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٢/ ١٧) .

واستغلُّوا في تمرير عقائدهم جهلَ الكثيرين ... لأنَّهم لا ينبُتون إلَّا حيث يكون الجهل ، فقد " أوهموا النَّاس أنَّهم يمثِّلون السَّلف الصَّالح من الصَّحابة ومن بعدهم من التَّابعين لهم بإحسان ، والتَّاريخ يشهد ، والعلم بكتاب الله ينادي أنَّهم ما مثَّلوا إلَّا سلف سوء من أشياخ المشبِّهة وأئمَّة المجسِّمة ، الذين يفسِّرون الكتاب بأهوائهم ، ويحملون السُّنَّة علىٰ آرائهم ، ويتقوَّلون علىٰ معاني كتاب الله ، ويضعون علىٰ رسول الله ، ويأخذون بالضَّعيف إذا وافق منهم هوىٰ ، ويردُّون الصَّحيح أو يشكِّكون في صحَّته إذا كان حجَّة عليهم " . انظر : فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص١١) ...

وقال الإمام أبو بكر الجصَّاص (٣٧٠هـ) : " ... وَأَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا مُشْبِهٍ الْأَجْسَامَ ، إِذْ الْأَجْسَامُ لَا يُمْكِنُهَا فِعْلُ ذَلِكَ ، وَلَا تَرُومُهُ ، وَلَا تَطْمَعُ فِيهِ " .

وقال أيضاً : " ... لِأَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ وَلَا الْمَجِيءُ وَلَا الِانْتِقَالُ وَلَا الزَّوَالُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَدَلَالَاتِ الْحَدَثِ ، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي آيَةٍ مُحْكَمَةٍ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ، وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا شَهِدَهُ مِنْ حركات النُّجوم وانتقالها دليلاً علىٰ حدثها ، وَاحْتَجَّ بِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ اللهُّ عزَّ وجلَّ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[الأنعام: ٨٣] ، يَعْنِي فِي حَدَثِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَىٰ اللهُّ عَنْ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ عُلُوّاً كَبِيراً " .

وقال أيضاً :" ... لِأَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ بِالْمَسَافَةِ إِذْ هُوَ مِنْ صِفَةِ الْأَجْسَامِ ".

وقال أيضاً : " وَيَدُلُّ وُقُوفُ السَّموات وَالْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ أَنَّ مُمْسِكَهَا لَا يُشْبِهُهَا ، لِاسْتِحَالَةِ وُقُوفِهَا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ مِنْ جِسْمٍ مِثْلِهَا إِلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الدَّلائل الْمُضَمَّنَةِ بِهَا ، ودلالة الليل والنَّهار علىٰ اللهّ تعالىٰ : أنَّ الليل والنَّهار محدثان لوجود كلّ واحد منهما بعد أن لم يكن موجوداً ، ومعلوم أنَّ الأجسام لا تقدر علىٰ إيجادها ، ولا علىٰ الزِّيادة والنُّقصان فيها ، وقد اقتضيا محدثاً من حيث كانا محدثين ، لاستحالة وجود حادث لا محدث له ، فوجب أنَّ محدثهما ليس بجسم ، ولا مشبه للأجسام ، لوجهين : أحدهما : أنَّ الأجسام لا تقدر علىٰ إحداث مثلها ، والثَّاني : المشبه للجسم يجري عليه ما يجري عليه من حكم الحدوث ، فلو كان فاعلها حادثاً لاحتاج إلىٰ محدث ، ثمَّ كذلك يحتاج الثَّاني إلىٰ الثَّالث إلىٰ ما لا نهاية له ، وذلك محال ، فلا بدَّ من إثبات صانع قديم لا يشبه الأجسام ، واللهّ أعلم " . انظر : أحكام القرآن (١/ ١٢٨) ، (١/ ٣٩٧) ، (٢/ ٣٣٣) ، (٢/ ٣٣٥) .

ففي كلامه السَّابق أكَّد الإمام الجصَّاص علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، وأنَّه تعالىٰ منزَّه عن صفات الأجسام ودلالات الحدث من الحركة والانتقال والزَّوال والبُعد والقُرب بالمسافة ...

وجاء في الرِّسالة القشيريَّة : " وسمعت الإِمَام أبا بَكْر بْن فورك (٤٤٩هـ) رحمه اللهَّ تعالىٰ يَقُول : سمعت أبا عُثْمَان المغربي (٣٧٣هـ) يَقُول : كنتُ أعتقد شَيْئاً من حَدِيث الجهة ، فلمَّا قدمت بغداد زال

ذَلِكَ عَن قلبي ، فكتبت إِلىٰ أَصْحَابنا بمكَّة : إنِّي أسلمت الآن إسلاماً جديداً " . انظر : الرسالة القشيرية (١/ ٢٥).

وقال الإمام أبو بكر الكلاباذي البخاري الحنفي (٣٨٠هـ) : " اجْتمعت الصُّوفِيَّة علىٰ : أَنَّ الله وَاحِد أحد ، فَرد صَمد ، قديم عَالم ، قَادر حَيّ ، سميع بَصِير ، عَزِيز عَظِيم ، جليل كَبِير ، جواد رؤوف ، متكبِّر جَبَّار ، بَاقٍ أَوَّل ، إِلَه سيِّد ، مَالك ربٌّ ، رَحْمَن رَحِيم ، مُرِيد حَكِيم ، مُتَكَلِّم خَالق زراق ، مَوْصُوف بِكُل مَا وصف بِهِ نَفسه من صِفَاته ، مُسَمًّىٰ بِكُل مَا سمَّىٰ بِهِ نَفسه ، لم يزل قَدِيماً بأسمائه وَصِفَاته ، غير مشبه لِلْخلقِ بِوَجْه من الْوُجُوه ، لَا تشبه ذَاته الذَّوات ، وَلَا صفته الصِّفَات ، لَا يجْرِي عَلَيْهِ شيء من سمات المخلوقين الدَّالَّة علىٰ حَدثهمْ ، لم يزل سَابِقاً مُتَقَدماً للمحدثات ، مَوْجُوداً قبل كلّ شيء ، لَا قديم غَيره ، وَلَا إِلَه سواهُ ، لَيْسَ بجسم ، وَلَا شبح ، وَلَا صُورَة ، وَلَا شخص ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عرض ، لَا اجْتِمَاع لَهُ وَلَا افْتِرَاق ، لَا يَتَحَرَّك وَلَا يسكن ، وَلَا ينقص وَلَا يزْدَاد ، لَيْسَ بِذِي أبعاض وَلَا أَجزَاء ، وَلَا جوارح وَلَا أَعْضَاء ، وَلَا بِذِي جِهَات وَلَا أَمَاكِن ، لَا تجْرِي عَلَيْهِ الْآفَات ، وَلَا تأخذه السِّنات ، وَلَا تداوله الْأَوْقَات ، وَلَا تعينه الإشارات ، لَا يحويه مَكَان ، وَلَا يجْرِي عليه زمَان ، لَا تجوز عَلَيْهِ المماسَّة ، وَلَا الْعُزْلَة ، وَلَا الْحُلُول فِي الْأَمَاكِن ، لَا تحيط بِهِ الأفكار ، وَلَا تحجبه الأستار ، وَلَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار " . انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف (ص٣٤).

وقال الإمام الخطَّابي (٣٨٨هـ) : " ... وهذه صفة الأجسام والأشباح ، فأمَّا نزول من لا تستولي عليه صفات الأجسام ، فإنَّ هذه المعاني غير متوهَّمة فيه ، وإنَّما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، وعطفه عليهم ، واستجابته دعاءهم ، ومغفرته لهم ، يفعل ما يشاء ، لا يتوجَّه علىٰ صفاته كيفيَّة ، ولا علىٰ أفعاله لميَّة ، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] . انظر : أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٦٣٩).

فالحافظ اللغوي الخطَّابي أوَّل النُّزول المُضاف إلىٰ الله تعالىٰ بأنَّه خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، لأنَّ الانتقال من مكان إلىٰ مكان من صفات الأجسام ، والله تعالىٰ لا تستولي عليه صفات الأجسام.

وقال الإمام الحَلِيمي (٤٠٣هـ) : " ... أنَّ الله جلَّ ثناؤه الذي ليس بجسم ، ولا يجوز عليه أن تحلّه الأعراض والحوادث ... " . انظر : المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٢٣٣) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " وَاعْلَم أَنَّه لَا فرق بَين الْإِتْيَان والمجيء وَالنُّزُول إِذا أضيف جَمِيع ذَلِك إِلَى الْأَجْسَام الَّتِي تتحرَّك وتنتقل وتحازي مَكَاناً ، إِنَّ جَمِيع ذَلِك يعقل من ظَاهرهَا ، وَالْمعْنَى الَّذِي هُوَ الْحَرَكَة والنُّقلة الَّتِي هِيَ تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان . وَإِذا أضيف إِلَى مَا لَا يَلِيق بِهِ الإنتقال من مَكَان إِلَى مَكَان لإستحالة وَصفه كَانَ معنى مَا يُضَاف إِلَيْهِ من الْإِتْيَان والمجيء على حسب مَا يَلِيق بنعمته وَصفته ... " .

وقال أيضاً : " ... اعْلَم أَنَّ كلّ مَا ذكر فِيهِ الْحجاب ، من أَمْثَال هَذَا الْخَبَر ، فَإِنَّمَا يرجع مَعْنَاهُ إِلَى الْخلق ، لأَنَّهم هم المحجوبون عَنهُ بحجاب يخلقه فيهم ، لَا يجوز أَن يكون الله عزَّ وجلَّ محتجباً وَلَا محجوباً ، لاستحالة كَونه جوهراً أَو جسماً محدوداً ، لِأَنَّ مَا يستره الْحجاب أكبر مِنْهُ ، وَيكون متناهياً محاذياً جَائِزاً عَلَيْهِ المماسَّة والمفارقة ، وَمَا كَانَ كَذَلِك كَانَت عَلَامَات الْحَدث فِيهِ قَائِمَة ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُوَحّدين إِنَّمَا توصَّلوا إِلَى الْعلم بِحَدَث الْأَجْسَام من حَيْثُ وجدوها متناهية محدودة محلاً للحوادث ، فَكَانَ تعاقبها عَلَيْهَا دَلِيلاً على حدثها " .

وقال أيضاً : " ... اعلم أَنَّ الْوَطْأَة الَّتِي هِيَ بِمَعْنى مماسَّة بجارحة أَو بِبَعْض الْأَجْسَام لَا يَصحُّ فِي وصف الله تَعَالَى لاستحالة كَونه جسماً ، واستحالة المماسَّة عَلَيْهِ ، واستحالة تَغْيِيره بِمَا يحدث فِيهِ من الْحَوَادِث " .

وقال أيضاً : " إِنَّ خُرُوج من الشَّيء على وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : كخروج الْجِسْم من الْجِسْم ، وَذَلِكَ بمفارقة مَكَانَهُ واستبداله مَكَاناً آخر ، وَلَيْسَ الله تَعَالَى جسماً ، وَلَا كَلَامه جسم ، لأَنَّه لَو كَانَ جسماً لاقتضى محلاً وَاحِداً ، وَذَلِكَ فَاسد .

وَالْوَجْه الثَّانِي من معنى الْخُرُوج : كَقَوْلِك : خرج لنا من كلامك خير كثير ، وأتانا مِنْهُ نفع مُبين ، إِذا أَرَادَ أَنَّه ظهر لَهُم مِنْهُ مَنَافِع ، فَأَمَّا الْخُرُوج الَّذِي بِمَعْنى الإنتقال ، فَلَا يَصحُّ على كَلَام الله سُبْحَانَهُ

، وَلَا علىٰ شَيْء من الْكَلَام ، لأجل أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وَلَا جَوْهَر ، وإنَّما يجوز الإنتقال علىٰ الْجَوَاهِر والأجسام ... " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٠١) ، (ص٢١٣) ، (ص٢٧٩) ، (ص٢٨٦-٢٨٧) بالترتيب .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : " واعلم أنَّ الآيات والأخبار الصِّحاح في هذا الباب كثيرة ، وكلّها إلىٰ العلوِّ مشيرة ، ولا يدفعها إلَّا مُلحدٌ جاحدٌ أو جاهلٌ معاندٌ ، والمراد بها- والله أعلم- توقيره ، وتعظيمه ، وتنزيهه عن السُّفل والتَّحت ، ووصفه بالعلوِّ والعظمة دون أن يكون موصوفاً بالأماكن والجهات ، والحدود والحالات ، لأنَّها صفات الأجسام وأمارات الحدث ، والله سبحانه وتعالىٰ كان ولا مكان ، فخلق الأمكنة غير محتاج إليها ... " . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣٦٠)

وذكر الإمام ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ) في ترجمة الإمام أبي علي الهاشمي الحنبلي ، محمَّد بن أحمد بن أبي موسىٰ البغدادي (٤٢٨هـ) موضِّحاً عقيدته ، قال : " أنَّ الله عزَّ وجلَّ واحدٌ أحدٌ ، فردٌ صمدٌ ، لا يغيِّره الأبد ، ليس له والدٌ ولا ولد ، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ ، بديعٌ قديرٌ ، حكيمٌ خبيرٌ ، عليٌّ كبيرٌ ، وليٌّ نصيرٌ ، قويٌّ مُجيرٌ ، ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ ، ولا عونٌ ولا ظهيرٌ ، ولا شريكٌ ولا وزيرٌ ، ولا ندٌّ ولا مُشيرٌ ، سبق الأشياء، فهو قديم لا كقِدمها ، وعلم كون وجودها في نهاية عدمها ، لم تملكه الخواطر فتكيِّفه ، ولم تدركه الأبصار فتصفُه ، ولم يخل من علمه مكان فيقع به التَّأيين ، ولم يعدمه زمان فينطلق عليه التَّأوين . ولم يتقدَّمه دهرٌ ولا حينٌ ، ولا كان قبله كونٌ ولا تكوينٌ ، ولا تجري ماهيَّته في مقال ، ولا تخطرُ كيفيَّته ببال ، ولا يدخل في الأمثال والأشكال ، صفاته كذاته ، ليس بجسمٍ في صفاته ، جلَّ أن يشبَّه بمبتدعاته أو يضاف إلىٰ مصنوعاته ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] . انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥/ ١٣٩) .

وقال الإمام أبو منصور عبد القاهر الإسفراييني (٤٢٩هـ) : " لو كان الإله مقدَّراً بحدٍّ ونهاية لم يخل من أن يكون مقداره مثل أقل المقادير ، فيكون كالجزء الذي لا يتجزَّأ ، أو يختصُّ ببعض المقادير ، فيتعارض فيه المقادير ، فلا يكون بعضها أولىٰ من بعض إلَّا بمخصِّص خصَّه ببعضها ، وإذا بطل هذان الوجهان صحَّ أنَّه بلا حدٍّ ولا نهاية " . انظر : كتاب أُصول الدِّين (ص٧٣) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " ... ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلى الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلى من لا يليق به الانتقال والحركة ، كان تأويل ذلك على حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ " .

وقال أيضاً : " ... لأنَّ الموصوف بالسّعة يصحُّ وصفه بالضِّيق بدلاً منه ، والوصفان جميعاً من صفات الأجسام ، وإذا استحال وصفه بما يؤدِّي إلى القول بكونه جسماً ، وجب صرف قولها عن ظاهره إلى ما اقتضى صحَّته الدَّليل ... ولم يرد بوصفه بالقُرب قُرب المسافة ؛ لأنَّ الله تعالى لا يصحُّ وصفه بالحلول في الأماكن ؛ لأنَّ ذلك من صفات الأجسام " .

وقال أيضاً : " ... غرضه في هذا الباب ردّ شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله : ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٣ – ٤] ، وقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠] ، وما تضمَّنته أحاديث الباب من هذا المعنى ، وقد تقدَّم الكلام في الرَّدِّ عليهم ، وهو أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت على أنَّ الباري تعالى ليس بجسم ، ولا محتاجاً إلى مكان يحلّه ويستقر فيه ؛ لأنَّه تعالى قد كان ولا مكان ، وهو على ما كان ، ثمَّ خلق المكان ، فمحالٌ كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ، ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له ، هذا مستحيل " .

وقال أيضاً : " ... فلا تعلُّق فيه للمجسِّمة في إثبات الجسم والمكان ، لما تقدَّم من استحالة كونه جسماً أو حالَّاً في مكان " . انظر : شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ١٣٧) ، (١٠/ ٤١٧) ، (١٠/ ٤٥٣) ، (١٠/ ٤٦٦) بالترتيب .

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " ذهب طَائِفَة إِلَى الْقَوْل بِأَنَّ الله تَعَالَى جسم ، وحجَّتهم فِي ذَلِك : أَنَّه لَا يقوم فِي الْمَعْقُول إِلَّا جسم أَو عَرَض ، فَلَمَّا بَطل أَن يكون تَعَالَى عرضاً ، ثَبت أَنَّه جسم ، وَقَالُوا : إِنَّ الْفِعْل لَا يَصحُّ إِلَّا من جسم ، والباري تَعَالَى فَاعلٌ ، فَوَجَبَ أَنَّه جسم ، وَاحْتَجُّوا بآيَات من الْقُرْآن فِيهَا ذكر الْيَد ، وَالْيَدَيْنِ ، وَالْأَيْدِي ، وَالْعين ، وَالْوَجْه ، وَالْجنب ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢] ، و ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[البقرة: ٢١٠] ، وتجلِّيه تَعَالَى للجبل ، وبأحاديث فِيهَا ذكر الْقدَم ، وَالْيَمِين ، وَالرِّجل ، والأصابع ، والتَّنَزُّل .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَلِجَمِيعِ هَذِه النُّصُوص وُجُوه ظَاهِرَة بَيِّنَة خَارِجَة علىٰ خلاف مَا ظنُّوه وتأوَّلوه .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَانِ الاستدلالان فاسدان . أمَّا قَوْلهم : أنَّه لَا يقوم فِي الْمَعْقُول إِلَّا جسم أَو عرَض ، فَإِنَّهَا قسْمَة نَاقِصَة ، وإنَّما الصَّوَاب أنَّه لَا يُوجد فِي الْعَالم إِلَّا جسم أَو عَرَض ، وَكِلَاهُمَا يَقْتَضِي بطبيعته وجود مُحدث لَهُ فبالضَّرورة نعلم أنَّه لَو كَانَ محدثهما جسماً أَو عرضاً لكَانَ يَقْتَضِي فَاعِلاً فعله وَلَا بُدَّ . فَوَجَبَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فَاعل الْجِسْم وَالْعرَض لَيْسَ جسْماً ، وَلَا عَرَضاً ، وَهَذَا برهَان يضْطَر إِلَيْهِ كلّ ذِي حسٍّ بضرورة الْعقل ، وَلَا بُدَّ .

وَأَيْضاً فَلَو كَانَ الْبَارِي - تَعَالَىٰ عَن إلحادهم - جسماً لاقتضىٰ ذَلِك ضَرُورَة أَن يكون لَهُ زمَان وَمَكَان هما غَيره ، وَهَذَا إِبْطَال التَّوحيد وَإِيجَاب الشِّرك مَعَه تَعَالَىٰ لشيئين سواهُ ، وَإِيجَاب أَشْيَاء مَعَه غير مخلوقة ، وَهَذَا كفر ، وَقد تقدَّم إفسادنا لهَذَا القَوْل .

وَأَيْضاً ، فإنَّه لَا يعقل الْبَتَّةَ جسْم إِلَّا مؤلَّف طَوِيل عريض عميق ، ونظَّارهم لَا يَقُولُونَ بِهَذَا ، فَإِن قَالُوهُ لَزِمَهُم أَنَّ لَهُ مؤلِّفاً جَامعاً مخترعاً فَاعِلاً ، فَإِن منعُوا من ذَلِك لَزِمَهُم أَن لَا يوجبوا لما فِي الْعَالم من التَّأْلِيف لَا مؤلِّف وَلَا جَامعاً ، إِذْ الْمُؤلَّف كُلّه كَيْفَمَا وجد يَقْتَضِي مؤلِّفاً ضَرُورَة ، فَإِن قَالُوا : هُوَ جسم غير مؤلَّف ، قيل لَهُم : هَذَا هُوَ الَّذِي لَا يعقل حَسّاً ، وَلَا يتشكَّل فِي النَّفس الْبَتَّةَ ، فَإِن قَالُوا : لَا فرق بَين قولنا شَيْء وَبَين قَوْلنَا جسم ، قيل لَهُم : هَذِه دَعْوَىٰ كَاذِبَة علىٰ اللُّغَة الَّتِي بهَا يَتَكَلَّمُونَ .

وَأَيْضاً فَهُوَ بَاطِل لِأَنَّ الْحَقِيقَة أنَّه لَو كَانَ الشَّيء والجسْم بِمَعْنىٰ وَاحِد لَكَانَ الْعرَض جسْماً ، لأَنَّه شَيْء ، وَهَذَا بَاطِل بيقين . والحقيقة هِيَ أنَّه لَا فرق بَين قَوْلنَا : شَيْء ، وَقَوْلنَا : مَوْجُود وَحق وَحَقِيقَة ومثبت ، فَهَذِهِ كلّها أَسمَاء مترادفة علىٰ معنىٰ وَاحِد لَا يخْتَلف ، وَلَيْسَ مِنْهَا اسْم يَقْتَضِي صفة أَكثر من أَنَّ الْمُسَمَّىٰ بذلك حقّ وَلَا مزِيد ، وَأمَّا لَفْظَة جسم فَإِنَّهَا فِي اللُّغَة عبارَة عَن الطَّوِيل العريض العميق ، الْمُحْتَمل للْقِسْمَة ذِي الْجِهَات السِّت ، الَّتِي هِيَ فَوق وَتَحْت ، ووراء وأمام ، وَيَمِين وشمال ، وَرُبَّمَا عدم وَاحِدَ مِنْهَا ، وَهِي الفوق ، هذا حكم هَذِه الْأَسْمَاء فِي اللُّغَة الَّتِي هَذِه الْأَسْمَاء مِنْهَا ، فَمن أَرَادَ أَن يُوقع شَيْئاً مِنْهَا علىٰ غير موضوعها فِي اللُّغَة فَهُوَ مَجْنُون وقاح ، وَهُوَ كمن أَرَادَ أَن يُسَمِّي الْحق بَاطِلاً وَالْبَاطِل حَقّاً ، وَأَرَادَ أَن يُسَمِّي الذَّهَب خشباً ، وَهَذَا غَايَة الْجَهْل والسّخف ، إِلَّا أَن يَأْتِي

نَصٌّ بِنَقْل اسْم مِنْهَا عَن مَوْضُوعه إِلىٰ معنىٰ آخر فَيُوقف عِنْده ، وَإِلَّا فَلَا ، وإِنَّما يلْزم كلّ مناظر يُرِيد معرفَة الْحَقَائِق أَو التَّعْرِيف بهَا أَن يُحقّق الْمَعَانِي الَّتِي يَقع عَلَيْهَا الِاسْم ثمَّ يخبر بعد بهَا أو عنها بِالْوَاجِبِ ، وَأَمَّا مزج الْأَشْيَاء وقلبها عَن موضوعاتها فِي اللُّغَة ، فَهَذَا فعل السّوفسطائيَّة الوقحاء الْجُهَّال ، العابثون بعقولهم وأنفسهم .

فَإِن قَالُوا لنا : إِنَّكُم تَقولُونَ إِنَّ الله عزَّ وجلَّ حَيّ لَا كالأحياء ، وَعَلِيم لَا كالعلماء ، وقادر لَا كالقادرين ، وَشَيْء لَا كالأشياء ، فَلمَ منعتم القَوْل بِأَنَّهُ جسم لَا كالأجسام ؟!!

قيل لَهُم وَبِاللَّهِ تَعَالَىٰ التَّوْفِيق : لَوْلَا النَّص الْوَارِد بتسميته حَيًّا وقديراً وَعَلِيماً مَا سمَّيناه بِشَيْء من ذَلِك ، لَكِن الْوُقُوف عِنْد النَّص فرضٌ ، وَلم يَأْتِ نَصٌّ بتسميته تَعَالَىٰ جسماً ، وَلَا قَامَ الْبُرْهَان بتسميته جسماً ، بل الْبُرْهَان مَانعٌ من تَسْمِيَته تعالىٰ بذلك . وَلَو أَتَانَا نَصٌّ بتسميته تَعَالَىٰ جسماً لوَجَبَ علينا القَوْل بذلك ، وَكُنَّا حِينَئِذٍ نقُول : أَنَّه جسمٌ لَا كالأجسام ، كَمَا قُلْنَا فِي عليم ، وقدير ، وَحيّ ، وَلَا فرق ، وَأَمَّا لَفْظَة شَيْء ، فالنَّصّ أَيْضاً جَاءَ بهَا ، والبرهان أوجبهَا علىٰ مَا نذْكر بعد هَذَا ، إِن شَاءَ الله تَعَالَىٰ " . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٢-٩٣) .

وقال أيضاً : " قَالَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٧] ، فَذَهَبت المجسِّمة إِلىٰ الِاحْتِجَاج بِهَذَا فِي مَذْهَبهم ، وَقَالَ الْآخرُونَ : وَجه الله تَعَالَىٰ إِنَّما يُرَاد بِهِ : الله عزَّ وجلَّ.
قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَا هُوَ الْحق الَّذِي قَامَ الْبُرْهَان بِصِحَّتِهِ ، لما قدَّمنَا من إِبْطَال القَوْل بالتَّجسيم ، وَقَالَ أَبُو الْهُذَيْل : وَجه الله هُوَ الله .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَن يُطلق ، لأَنَّه تَسْمِيَة ، وَتَسْمِيَة الله تَعَالَىٰ لَا يجوز إِلَّا بِنَصٍّ ، وَلَكنَّا نقُول : وَجه الله لَيْسَ هُوَ غير الله تَعَالَىٰ ، وَلَا نرْجع مِنْهُ إِلىٰ شَيْء سوىٰ الله تَعَالَىٰ ، برهَان ذَلِك : قَول الله تَعَالَىٰ حاكياً عَمَّن رَضِي قَوْله : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[الإنسان: ٩] ، فصحَّ يَقِيناً : أَنَّهم لم يقصدوا غير الله تَعَالَىٰ ، وَقَوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ﴾[البقرة: ١١٥] ، إِنَّما مَعْنَاهُ : فثمَّ الله تَعَالَىٰ بعِلْمِهِ ، وقبوله لمن توجه إِلَيْهِ ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لِمَا

﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص: ٧٥] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[يس: ٧١] ، وَقَالَ : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة: ٦٤] . وقَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " المقسطون عَن يمين الرَّحمن " .

أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٢ برقم ٦٤٩٢) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للحديث : " إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. سفيان: هو ابن عُيينة. وأخرجه الحميدي (٥٨٨) ، وحسين المروزي في زوائده علىٰ "الزهد" لابن المبارك (١٤٨٤) ، وابنُ أبي شيبة ١٣/ ١٢٧، ومسلم (١٨٢٧) ، والنسائي في "المجتبىٰ" ٨/ ٢٢١، وابنُ حبان (٤٤٨٤) و (٤٤٨٥) ، والأجري في "الشريعة" ص ٣٢٢، والبيهقي في "السنن" ١/ ٨٧٠، وفي "الأسماء والصفات" ص ٣٢٤، والخطيب في "تاريخه" ٥/ ٣٦٧، والبغوي (٢٤٧٠) من طرق، عن سفيان، بهذا الإسناد.

، " وكلتا يَدَيْهِ يَمِين " ، فَذَهَبت المجسِّمة إِلىٰ مَا ذكرنَا مِمَّا قد سلف من بطلَان قَوْلهم فِيهِ . وَذَهَبت الْمُعْتَزلَة : إِلىٰ أَنَّ " الْيَد " النِّعْمَة ، وَهُوَ أَيْضاً لَا معنىٰ لَهُ ، لِأَنَّهَا دَعْوَىٰ بِلَا برهَان . وَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ : إِنَّ الْمُرَاد بقول الله تَعَالَىٰ : أَيْدِينَا ، إِنَّما مَعْنَاهُ : اليدان ، وَإِنَّ ذكر الْأَعْين إِنَّما مَعْنَاهُ : عينان . وَهَذَا بَاطِل مدْخل فِي قَول المجسِّمة ، بل نقُول : إِنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَن الله عزَّ وجلَّ ، لَا يرجع من ذكر الْيَد إِلىٰ شَيْء سواهُ تَعَالَىٰ ، ونقرُّ أنَّ لله تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ : يداً ، ويدين ، وأيدي ، وَعيناً ، وَأَعْيُناً ، كَما قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[طه: ٣٩] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨] ، وَلَا يجوز لأحد أَن يصف الله عزَّ وجلَّ بأنَّ له عينين ، لأنَّ النَّصَّ لم يأت بذلك ، ونقول : إِنَّ المراد بها ذكرنا الله عزَّ وجلَّ لا شيء غيره .

وقال تعالىٰ حاكياً عن قول قائل : ﴿يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٥٦] ، وهذا مَعْنَاهُ فِيمَا يقْصد بِهِ الله عزَّ وجلَّ وفي جانب عبادته . وَصَحَّ عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وكلتا يَدَيْهِ يَمِين " ، " وَعَن يَمِين الرَّحمن " ، فَهُوَ مثل قَوْله : ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[النساء: ٣٦] ، يُرِيد : وَمَا ملكتم . وَلَمَّا كَانَت الْيَمين فِي لُغَة الْعَرَب : يُرَاد بهَا الْحَظ للأفضل كَمَا قَالَ الشّماخ :

إذا مَا رايَة رفعت لمجدٍ تلقَّاها عرابة بِالْيَمِينِ

يُرِيد أنَّه يتلقَّاها بالسَّعي الأعلىٰ ، كَانَ قَوْله : " وكلتا يَدَيْهِ يَمِين " ، أَي : كلّ مَا يكون مِنْهُ تَعَالَىٰ من الْفَضل فَهُوَ الأعلىٰ .

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : " إِنَّ جَهَنَّم لَا تمتلئ حتَّىٰ يضع فِيهَا قَدَمَه " . أخرجه البخاري (٩/ ١٣٤ برقم ٧٤٤٩) .

وَصَحَّ أَيْضاً فِي الحَدِيث : " حتَّىٰ يضع فِيهَا رِجْلَه " . أخرجه أبو عوانة في المستخرج (١/ ١٦٠ برقم ٤٦٤)، مسلم (٤/ ٢١٨٧ برقم ٢٨٤٦) .

وَمعنىٰ هَذَا مَا قد بَيَّنه رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيث آخر صَحِيح أخبر فِيهِ أَنَّ الله تَعَالَىٰ بعد يَوْم الْقِيَامَة يخلق خلقاً يدخلهم الْجنَّة ، وَأَنَّه تعالىٰ يَقُول للجنَّة وَالنَّار : " لكلِّ وَاحِدَة مِنْكُمَا ملؤُهَا " ، فَمَعْنَىٰ الْقدَم فِي الحَدِيث الْمَذْكُور إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ تعَالَىٰ : ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] ، يُرِيد سالف صِدق ، فمَعْنَاهُ الْأمة الَّتِي تقدَّم فِي علمه تَعَالَىٰ أَنَّه يمْلَأ بهَا جَهَنَّم ، وَمعنىٰ رِجْله مثل ذَلِك ، لِأَنَّ الرِّجل : الْجَمَاعَة فِي اللُّغَة ، أَي : يضع فِيهَا الْجَمَاعَة الَّتِي قد سبق فِي علمه أَنَّه يمْلأ جَهَنَّم بهَا .وَكَذَلِكَ الحَدِيث الصَّحِيح : أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّ قلب الْمُؤمن بَين اصبعين من أَصَابِع الله عزَّ وجلَّ " ، أَي : بَين تدبيرين ونعمتين من تَدْبِير الله عزَّ وجلَّ ونعمه ، إِمَّا كِفَايَة تسرُّهُ ، وَإِمَّا بلَاء يأجره عَلَيْهِ ، والإصبع فِي اللُّغَة : النِّعْمَة . وقلب كلّ أحد بَين توفيق الله وجلاله ، وَكِلَاهُمَا حكمة . وَأخْبر عَلَيْهِ السَّلَام : أَنَّ الله يَبْدُو للمؤمنين يَوْم الْقِيَامَة فِي غير الصُّورَة الَّتِي عرفوه عليها .

وَهَذَا ظَاهر بَيِّنٌ ، وَهُوَ أَنَّهم يرَوْنَ صُورَة الْحَال من الهول والمخافة غير الذي كانوا يظنُّون فِي الدُّنيا . وبرهان صِحَّة هَذَا القَوْل : قَوْله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيث الْمَذْكُور : " غير الَّذِي عرفتموه بهَا " ، وبالضَّرورة نعلم أَنَّنا لا نعلم لله عزَّ وجلَّ فِي الدُّنيا صُورَة أصلاً ، فصحَّ ما ذَكَرْنَاهُ يَقِيناً . وَكَذَلِكَ القَوْل فِي الحَدِيث الثَّابِت : " خلق الله آدم علىٰ صورته " . أخرجه البخاري (٨/ ٥٠ برقم ٦٢٢٧)، ونص الحديث هو : " " خَلَقَ اللهُّ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أُولَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهَّ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِّ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّىٰ الآنَ " .

فالكلام برمَّته كلام عن سيدنا آدم عليه السلام ، ولا علاقة له بالله تعالىٰ .

فَهَذِهِ إِضَافَة ملكٍ ، يُرِيد الصُّورَة الَّتِي تخيَّرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليَكُون آدم مصوَّراً عَلَيْهَا . وكلّ فَاضل فِي طبقته ، فإِنَّه ينْسب إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، ويُضاف إليه ، كَمَا يَقُول : بَيت الله عزَّ وجلَّ ، عَن الْكَعْبَة ، والبيوت كلّها بيُوت الله تَعَالَىٰ ، وَلَكِن لَا يُطلق علىٰ شَيْء مِنْهَا هَذَا الِاسْم ، كَمَا يطلق علىٰ

الْمَسْجِد الْحَرَام ، وكما نقُول فِي جِبْرِيل وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام : روح الله ، والأرواح كلّها لله تعالىٰ ، ملك لَهُ ، وكما نقول فِي نَاقَة صَالح عَلَيْهِ السَّلَام : ناقة الله ، والنُّوق كلّها لله تعالىٰ . فعلىٰ هَذَا الْمَعْنىٰ قيل : علىٰ صُورَة الرَّحمن . والصُّور كلّها لله ، وهِيَ ملك لَهُ ، وَخلق لَهُ ...

وَكَذَلِكَ مَا صَحَّ عَن النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن يَوْم الْقِيَامَة : أَنَّ الله عزَّ جلَّ يكْشف عَن سَاق ، فَيَخِرُّونَ سجَّداً ، فَهو كَمَا قَالَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[القلم: ٤٢] ، وإنَّما هذا إِخْبَارٌ عَن شدَّة الْأَمر ، وَهُول الْمَوْقف ، كَمَا يُقال : قد شمَّرت الْحَرْب عَن سَاقهَا ، قَالَ جرير :

ألا رُبَّ سامي الطّرف من آل مَازِن إِذا شمَّرت عَن سَاقهَا الْحَرْب شمَّرا

وَالْعجب مِمَّن يُنكر هَذِه الْأَخْبَار الصِّحاح ، وإنَّما جاءت بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآن نصَّاً ، وَلَكِن من ضَاق علمه أنكر مَا لَا علم لَهُ بِهِ ، وَقد عَابَ الله هَذَا فَقَالَ : ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس: ٣٩] . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٢٧-١٢٩) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) : " قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ : وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِإِثْبَاتِ أَنَّه لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ، فَلِأَنَّ قَوْماً زَاغُوا عَنِ الْحَقِّ فَوَصَفُوا الْبَارِئَ – جَلَّ وَعَزَّ – بِبَعْضِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جَوْهَرٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جِسْمٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ الْعَرْشِ قَاعِداً ، كَمَا يَكُونُ الْمَلِكُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ، وكلّ ذَلِكَ فِي وُجُوبِ اسْمِ الْكُفْرِ لِقَائِلِهِ ، كَالتَّعْطِيلِ ، وَالتَّشْرِيكِ ، فَإِذَا أَثْبَتَ الْمُثْبِتُ أَنَّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّه لَيْسَ بِجَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، فَقَدِ انْتَفَىٰ التَّشْبِيهُ ، لأَنَّه لَوْ كَانَ جَوْهَراً أَوْ عَرَضاً لَجَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ سَائِرِ الْجَوَاهِرِ ، وَالْأَعْرَاضِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جَوْهَراً ، وَلَا عَرَضاً لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْجَوَاهِرِ مِنْ حَيْثُ أَنَّها جَوَاهِرُ ، كَالتَّأْلِيفِ ، وَالتَّجْسِيمِ أو شَغْلِ الْأَمْكِنَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَلَا مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْأَعْرَاضِ مِنْ حَيْثُ أَنَّها أَعْرَاضٌ ، كَالْحُدُوثِ ، وَعَدَمِ الْبَقَاءِ " .

فالإمام الحليمي يؤكِّد ويبرهن على تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ، وعن لوازمها من الحركة والسُّكون ، إذ كلّ جسم لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهي أعراض ملازمة للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثة لتغيرُّها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسْماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسْماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلِّ ، وافتقر إليه، وبالحاجة للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال من مكان إلى آخر ، فهو تعالى ليس محلاًّ للحوادث ، فلا يحُلُّ بها ولا تحُلُّ فيه سبحانه وتعالى ...

وقال أيضاً : " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَمَا الدَّليل عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا جَوْهَرٍ ، لَا عَرَضٍ قِيلَ : لأَنَّه لَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مُؤَلَّفاً . وَالْمُؤَلَّفُ شَيْئَانِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ولَا يَحْتَمِلُ التَّأْلِيفِ ، وَلَيْسَ بِجَوْهَرٍ لِأَنَّ الْجَوْهَرَ هُوَ الْحَامِلُ لِلْأَعْرَاضِ ، الْمُقَابِلُ لِلْمُتَضَادَّاتِ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَىٰ حُدُوثِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ تَعَالَىٰ قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ ، وَلَيْسَ بِعَرَضٍ لِأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ ، وَلَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ ، - وَهُوَ - سُبْحَانَهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَمْ يَزَلْ مَوْجُوداً ، فَلَا يَصِحُّ عَدَمُهُ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَإِذَا كَانَ الْقَدِيمُ سُبْحَانَهُ شَيْئاً لَا كَالْأَشْيَاءِ ، مَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً لَا كَالْأَجْسَامِ ؟ قِيلَ لَهُ : لَوْ لَزِمَ ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ ، وَجَسَداً لَا كَالْأَجْسَادِ ، وَجَوْهَراً لَا كَالْجَوَاهِرِ ، فَلَمَّا لَمْ يَلْزَمْ ذَلِكَ ، لَمْ يَلْزَمْ هَذَا " . انظر : شعب الإيمان (١/ ١٩٠) ، (٢/ ٢٦٣) .

وقال أيضاً : " وفي الجُملة يجب أن يعلم : أنَّ استواء الله سبحانه وتعالى ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ، ولا استقرار في مكان ، ولا مماسَّة لشيء من خلقه ، لكنَّه مستو على عرشه كما أخبر ، بلا كيف بلا أين ، بائن من جميع خلقه ، وأنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلى مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحَرَكة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجِسْم ، وأنَّ وجهه ليس بصُورة ، وأنَّ يدَه ليست بجارحة ، وأنَّ عيْنه ليست بحدَقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ، وقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

﴿كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ٤] ، وقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥] . انظر : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث (ص١١٧) .

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيَّ يَقُولُ : " حَدِيثُ النُّزُولِ قَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ ، وَوَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢] ، وَالنُّزُولُ وَالْمَجِيءُ صِفَتَانِ مَنْفِيَّتَانِ عَنِ اللهِ تَعَالَى مِنْ طَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، بَلْ هُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى بِلَا تَشْبِيهٍ ، جَلَّ اللهُ تَعَالَى عَمَّا تَقُولُ الْمُعَطِّلَةُ لِصِفَاتِهِ ، وَالْمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوّاً كَبِيراً " .

قُلْتُ : وَكَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزُولِ الَّذِي هُوَ تَدَلٍّ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلَى تَحْتٍ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَهُمْ ، وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَى صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ وَلَا عَلَى أَفْعَالِهِ كَمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] . انظر : السنن الكبرى (٣/ ٤) .

وقال الإمام الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) : " وَيَتَجَنَّبُ الْمُحَدِّثُ فِي أَمَالِيهِ رِوَايَةَ مَا لَا تَحْتَمِلُهُ عُقُولُ الْعَوَامِّ ، لِمَا لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنْ دُخُولِ الْخَطَأِ وَالْأَوْهَامِ ، وَأَنْ يُشَبِّهُوا اللهَ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، وَيُلْحِقُوا بِهِ مَا يَسْتَحِيلُ فِي وَصْفِهِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ ، وَإِثْبَاتَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ لِلْأَزَلِيِّ الْقَدِيمِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَحَادِيثُ صِحَاحاً ، وَلَهَا فِي التَّأْوِيلِ طُرُقٌ وَوُجُوهٌ ،إِلَّا أَنَّ مِنَ حَقِّهَا أَنْ لَا تُرْوَى إِلَّا لِأَهْلِهَا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُضَلَّ بِهَا مَنْ جَهِلَ مَعَانِيَهَا ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا أَوْ يَسْتَنْكِرُهَا ، فَيَرُدَّهَا وَيُكَذِّبُ رِوَاتِهَا وَنَقَلَتَهَا " . انظر : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٠٧) .

وقال الإمام ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ) : " وَقَدْ قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: ٢٢] ، وَلَيْسَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً ، وَلَا زَوَالاً ، وَلَا انْتِقَالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهراً ، فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّه

لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً وَلَا نَقْلَةً ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ : جَاءَتْ فُلَاناً قِيَامَتُهُ ، وَجَاءَهُ الْمَوْتُ ، وَجَاءَهُ الْمَرَضُ ، وَشِبْهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ نَازِلٌ بِهِ وَلَا مَجِيءَ لَبَانَ لَكَ ، وَبِاللهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ ". انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٣٧) .

وقال الإمام القُشيري (٤٦٥هـ) عند ذكره لعقيدة الصُّوفيَّة : " وَهَذِهِ فصول تشتمل عَلَىٰ بيان عقائدهم فِي مسائل التَّوحيد ، ذكرناها عَلَىٰ وجه التَّرتيب . قَالَ شيوخ هذه الطَّريقة عَلَىٰ مَا يدلُّ عَلَيْهِ متفرّقاتُ كلامهم ومجموعاتها ومصنَّفاتهم فِي التَّوحيد : أَنَّ الحقَّ سبحانه وتعالىٰ موجودٌ ، قديمٌ ، واحدٌ ، حَكِيمٌ ، قادرٌ ، عليمٌ ، قاهرٌ ، رحيمٌ ، مُريدٌ ، سميعٌ ، مجيدٌ ، رفيعٌ ، متكلِّمٌ ، بصيرٌ ، متكبِّرٌ ، قديرٌ ، حيٌّ ، أحدٌ ، باقٍ ، صمد، وأنَّه عالم بعلم ، قادر بقدرة، مريد بإرادة ، سميع بسمع، بصيرٌ ببصر ، متكلِّمٌ بكلام، حيٌّ بحياة ،باقٍ ببقاء ، وَلَهُ يدان ، هما صفتان يخلق بهما مَا يشاء سبحانه عَلَىٰ التَّخصيص ، وَلَهُ الوجه الجميل وصفات ذاته مختصَّة بذاته ، لا يقال هِيَ وَهُوَ ، ولا هِيَ أغيار لَهُ ، بَل هِيَ صفات لَهُ أزليَّة ونعوت سرمديَّة ، وأنَّه أحديُّ الذَّات لَيْسَ يشبه شيئاً من المصنوعات ، ولا يشبهه شَيْء من المخلوقات ، لَيْسَ بجسْم ، ولا جوهر ، ولا عَرَض ، ولا صفاته أعراض ، ولا يتصوَّر فِي الأوهام ولا يتقدَّر فِي العقول ، ولا لَهُ جهة ولا مكان ، ولا يجري عَلَيْهِ وقت وزمان ، ولا يَجُوز فِي وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصّه هيئة وَقَدّ ، ولا يقطعه نهاية وحدٌّ ، ولا يحلُّه حادث ، ولا يحمله عَلَىٰ الفعل باعثٌ ، ولا يَجُوز عَلَيْهِ لون ، ولا كون ، ولا ينصره مددٌ ولا عون ، ولا يخرج عَن قدرته مقدورٌ ، ولا ينفكُّ عَن حكمه مفطور ، ولا يعزب عَن علمه معلوم ، ولا هُوَ عَلَىٰ فعله كَيْفَ وَمَا يصنع ملوم ، لا يقال لَهُ أين ، ولا حيث ، ولا كَيْفَ ، ولا يستفتح لَهُ وجود ، فيقال : مَتَىٰ كَانَ ، ولا ينتهي لَهُ بقاء ، فيقال : استوفىٰ الأجل والزَّمان ، ولا يقال : لِمَ فعل مَا فعل ، إذ لا علَّة لأفعاله ، ولا يقال : مَا هُوَ إذ لا جنس لَهُ فيتميَّز بأمارة عَن أشكاله ، يرىٰ لا عَن مقابلة ويرىٰ غيره لا عَن مماقلة ، ويصنع لا عَن مباشرة ومزاولة ، لَهُ الأسماء الحسنىٰ والصِّفات العلا ، يفعل مَا يريد ، ويذلّ لحكمه العبيد ، لا يجري فِي سلطانه إلَّا مَا يشاء ، ولا يحصل فِي ملكه غَيْر مَا سبق بِهِ الْقَضَاء ،

مَا علم أَنَّه يَكُون من الحادثات أراد أَن يَكُون وَمَا علم أَنَّه لا يَكُون مِمَّا جاز أَن يَكُون أراد أَن لا يَكُون " . انظر : الرسالة القشيرية (ص١١-١٢) .

وقال الإمام الاسفراييني (٤٧١هـ) : " ... وَأَن تعلم أَنَّ الْقَدِيم سُبْحَانَهُ لَيْسَ بجِسْم ، وَلَا جَوْهَر ، لِأَنَّ الْجِسْم يكون فِيهِ التَّأْلِيف ، والجوهر يجوز فِيهِ التَّأْلِيف والاتِّصال ، وكلّ مَا كَانَ لَهُ الاتِّصال أَو جَازَ عَلَيْهِ الاتِّصال يكون لَهُ حدٌّ وَنِهَايَة . وَقد دلَّلنا علىٰ اسْتِحَالَة الْحَدِّ وَالنِّهَايَة علىٰ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ . وَقد ذكر الله تَعَالَىٰ فِي صفة الْجِسْم : الزِّيَادَة ، فَقَالَ : وزاده بسطة فِي الْعلم والجسم ، فَبيَّن أَنَّ مَا كَانَ جسْماً جَازَت عَلَيْهِ الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان ، وَلَا تجوز الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان علىٰ الْبَارِي سُبْحَانَهُ " .

وقال أيضاً : " ... وأن تعلم أنَّ الحركة ، والسُّكون ، والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، والحيِّز ، والمقدار ، والنَّواحي ، والأقطار ، والجوانب ، والجهات كلّها لا تجوز عليه تعالىٰ ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنهاية . وقد دلَّلنا علىٰ استحالة ذلك علىٰ الباري سبحانه وتعالىٰ . وأصل هذا في كتاب الله تعالىٰ ، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لَمَّا رأىٰ هذه العلامات علىٰ الكواكب والشَّمس والقمر ، قال : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ، فبيَّن أنَّ ما جاز عليه تلك الصِّفات لا يكون خالقاً ". انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٥٩) ، (ص١٦٠) بالترتيب .

وقال الإمام المتولِّي النَّيسابوري الشَّافِعِي (٤٧٨هـ) : " الباري تعالىٰ ليس بجِسْم ، وذهبت الكرَّاميَّة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ جسم ، والدَّليل علىٰ فساد قولهم : أنَّ الجسم في اللغة بمعنىٰ التَّأليف واجتماع الأجزاء ، والدَّليل عليه : أنَّه نقول عند زيادة الأجزاء وكثرة التَّأليف : جسم وأجْسَمُ ، كما يقال عند زيادة العلم : عليمٌ وأعلم ، وقال تعالىٰ : وزاده بسطه في العلم والجسم ، فلمَّا كان وصف المبالغة كزيادة التَّأليف ، دلَّ علىٰ أنَّ أصل الاسم للتَّأليف ، فإذا ثبت ما ذكرنا بطل مذهبهم ، لأنَّ الله تعالىٰ لا يجوز عليه التَّأليف " . انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص٨٠-٨١) .

وقال الإمام الجويني (٤٧٨هـ) : " من انتهض لطلب مدبِّره ، فإن اطمأنَّ إلىٰ موجود انتهىٰ إليه فكره فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلىٰ النَّفي المحض فهو معطِّل ، وإن قطع بموجود ، واعترف بالعجز عن دَرْك حقيقتـــه فهو موحِّد " . انظر : العقيدة النظاميَّة في الأركان الإسلاميَّة (ص٢٣) .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) : " الأصل الرَّابع : العلم بأنَّه تعالىٰ ليس بجوهر يتحيَّز ، بل يتعالىٰ ويتقدَّس عن مناسبة الحيِّز .

وبرهانه : أنَّ كلّ جوهر متحيِّز فهو مختصٌّ بحيِّزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرِّكاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السُّكون ، وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ولو تصوّر جوهر متحيِّز قديم ، لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فإن سمَّاه مسم جوهراً ولم يرد به المتحيِّز ، كان مخطئاً من حيث اللفظ لا من حيث المعنىٰ .

الأصل الخامس : العلم بأنَّه تعالىٰ ليس بجسم مؤلَّف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلَّف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيِّز ، بطل كونه جسماً ، لأنَّ كلّ جسم مختصٌّ بحيِّز ومركَّب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلُّوه عن الافتراق ، والاجتماع ، والحركة ، والسُّكون ، والهيئة ، والمقدار ، وهذه سمات الحدوث . ولو جاز أن يعتقد أنَّ صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهيَّة للشَّمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ١٠٦-١٠٧) .

وقال أيضاً : " الدَّعوىٰ الثَّامنة : ندَّعي أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن أن يوصف بالاستقرار علىٰ العرش ، فإنّ كلّ متمكِّن علىٰ جسم ومستقر عليه مقدَّر لا محالة ، فإنَّه إمَّا أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً ، وكلّ ذلك لا يخلو عن التَّقدير ، وأنَّه لو جاز أن يماسّه جسم من هذه الجهة ، لجاز أن يماسّه من سائر الجهات فيصير محاطاً به ، والخصم لا يعتقد ذلك بحال ، وهو لازم علىٰ مذهبه بالضَّرورة ، وعلىٰ الجملة : لا يستقرُّ علىٰ الجسم إلَّا جسم ، ولا يحلُّ فيه إلا عرضٌ ، وقد بان أنَّه تعالىٰ ليس بجسم ولا عَرَض ، فلا يحتاج إلىٰ إقران هذه الدَّعوىٰ بإقامة البرهان " . انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٨)

وقال أيضاً : " ... وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَور ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرَض ، وَلَا تحلُّه

الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، لَيْسَ كمثله شَيْء ، وَلَا هُوَ مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَلَا السَّموات ، وَأَنَّه مستوي علىٰ الْعَرْش ، علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحمله الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته ، محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش والسَّماء ، وَفَوق كلّ شَيْء إِلىٰ تُخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لَا تزيده قرباً إِلىٰ الْعَرْش والسَّماء ، كَمَا لَا تزيده بُعداً عَن الأَرْض وَالثَّرىٰ ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش والسَّماء ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الأَرْض وَالثَّرىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريب من كلّ مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إِلىٰ العَبْد من حَبل الوريد ، وَهُوَ علىٰ كلّ شَيْء شَهِيد ، إِذا لَا يماثل قُربه قُرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء " .

وقال أيضاً : " الْعِلْمُ بِأَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم مؤلَّف من جَوَاهِر ، إِذْ الْجِسْم عبارَة عَن الْمُؤلَّف من الْجَوَاهِر ، وَإِذ بَطل كَونه جوهراً مَخْصُوصاً بحيِّز ، بَطل كَونه جسماً ، لِأَنَّ كلّ جسم مُخْتَصّ بحيِّز ومركَّب من جَوْهَر ، فالجوهر يَسْتَحِيل خلوُّه عَن الِافْتِرَاق والاجتماع ، وَالْحَرَكَة والسُّكون ، والهيئة والمقدار ، وَهَذِه سمات الْحُدُوث ، وَلَو جَازَ أَن يعْتَقد أَنَّ صانع الْعَالم جسم ، لجَاز أَن يعْتَقد الإلهيَّة للشَّمس وَالْقَمَر أَو لشَيْء آخر من أَقسَام الْأَجْسَام ، فَإِن تجاسر متجاسرٌ علىٰ تَسْمِيَته تَعَالَىٰ جسماً من غير إِرَادَة التَّأْلِيف من الْجَوَاهِر ، كَانَ ذَلِك غَلطاً فِي الِاسْم مَعَ الْإِصَابَة فِي نفي معنىٰ الْجِسْم " .

وقال أيضاً : " الأَصْل السَّادِس التَّنزُّه عَن كَونه عرَضاً : الْعلم بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ بِعرَض قَائِم بجسم أَو حَال فِي مَحلٍّ ، لِأَنَّ الْعرَض مَا يحلُّ فِي الْجِسْم ، فَكلُّ جسم فَهُوَ حَادث لَا محَالة ، وَيكون محدِثُه مَوْجُوداً قبله ، فَكيف يكون حَالاً فِي الْجِسْم ، وَقد كَانَ مَوْجُوداً فِي الْأَزَل وَحده ؟!!! وَمَا مَعَه غَيره ثمَّ أحدث الْأَجْسَام والأعراض بعده .

وَلِأَنَّهُ عَالم قَادر مُرِيد خَالق ، وَهَذِه الْأَوْصَاف تستحيل علىٰ الْأَعْرَاض ، بل لَا تعقل إِلَّا لموجود قَائِم بِنَفسِهِ ، مُسْتَقل بِذَاتِهِ ، وَقد تحصَّل من هَذِه الْأُصُول أَنّه مَوْجُود قَائِم بِنَفسِهِ ، لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عرَض ، وَأَنَّ الْعَالم كُلّه جَوَاهِر وأعراض وأجسام ، فَإِذاً لَا يشبه شَيْئاً ، ولَا يُشبههُ

شَيْء ، بل الْحَيّ القيوم الَّذِي لَيْسَ كمثله شَيْء ، وأنىٰ يشبه الْمَخْلُوق خالقه ، والمقدور مقدِّره ، والمصوَّر مصوِّره ، والأجسام والأعراض كلّها من خلقه وصنعه ، فاستحال الْقَضَاء عَلَيْهَا بمماثلته ومشابهته .

الأَصْل السَّابع : الْعلم بِأَنَّ الله تَعَالَىٰ منزَّه الذَّات عَن الِاخْتِصَاص بالجهات :

فَإِنَّ الْجِهَة : إِمَّا فوق وَإِمَّا أَسْفَل وَإِمَّا يَمِين وَإِمَّا شمال أَو قُدَّام أَو خلف ، وَهَذِه الْجِهَات هُوَ الَّذِي خلقهَا وأحدثها بِوَاسِطَة خلق الْإِنْسَان ، إِذْ خلق لَهُ طرفين ، أَحدهمَا : يعْتَمد علىٰ الأَرْض ، وَيُسَمَّىٰ رِجلاً ، وَالْآخر يُقَابله وَيُسَمَّىٰ رَأْساً ، فَحدث اسْم الفوق لما يَلِي جِهَة الرَّأْس ، وَاسم السّفل لما يَلِي جِهَة الرِّجل ، حتَّىٰ إِنَّ النَّملة الَّتِي تدبُّ منكَّسة تَحت السّقف ، تنْقَلب جِهَة الفوق فِي حَقّهَا تحتاً ، وَإِن كَانَ فِي حَقِّنا فوقاً ، وَخلق للْإِنْسَان الْيَدَيْنِ وإحداهما أقوىٰ من الْأُخْرَىٰ فِي الْغَالِب ، فَحدث اسْم الْيَمين للأقوىٰ ، وَاسم الشِّمَال لما يُقَابله ، وَتسَمَّىٰ الْجِهَة الَّتِي تلِي الْيَمين يَمِيناً ، وَالْأُخْرَىٰ شمالاً ، وَخلق لَهُ جانبين يبصر من أَحدهمَا ويتحرَّك إِلَيْهِ ، فَحدث اسْم القدام للجهة الَّتِي يتَقَدَّم إِلَيْهَا بالحركة ، وَاسم الْخلف لما يقابلها ، فالجهات حَادِثَة بحدوث الْإِنْسَان ، وَلَو لم يخلق الْإِنْسَان بِهَذِهِ الْخلقَة ، بل خلق مستديراً كالكرة ، لم يكن لهَذِهِ الْجِهَات وجود ألبته ، فَكيف كَانَ فِي الْأَزَل مُخْتَصّاً بِجِهَة ، والجهة حَادِثَة أَو كَيفَ صَار مُخْتَصّاً بِجِهَة بعد أَن لم يكن لَهُ ؟ أبأن خلق الْعَالم فَوْقه ، وَتَعَالَىٰ عَن أَن يكون لَهُ فَوق ، إِذْ تَعَالَىٰ أَن يكون لَهُ رَأس ، والفوق عبارَة عَمَّا يكون جِهَة الرَّأْس ، أَو خلق الْعَالم تَحْتَهُ ، فتعالىٰ عَن أَن يكون لَهُ تَحت ، إِذْ تَعَالَىٰ عَن أَن يكون لَهُ رِجل ، والتَّحت عبارَة عَمَّا يَلِي الرِّجل ، وكلّ ذَلِك مِمَّا يَسْتَحِيل فِي الْعقل ، وَلِأَنَّ الْمَعْقُول من كَونه مُخْتَصّاً بِجِهَة أَن مُخْتَصّ بحيِّز اخْتِصَاص الْجَوَاهِر ، أَو مُخْتَصّ بالجواهر اخْتِصَاص الْعرَض ، وَقد ظهر اسْتِحَالَة كَونه جوهراً أَو عرَضاً ، فاستحال كَونه مُخْتَصّاً بالجهة ، وَإِن أُرِيد بالجهة غير هذَيْن الْمَعْنيين كَانَ غَلطاً فِي الِاسْم مَعَ المساعدة علىٰ الْمَعْنىٰ ، ولأنَّه لَو كَانَ فَوق الْعَالم لَكَانَ محاذياً لَهُ ، وكلّ محاذ لجسم ،فإمَّا أَن يكون مثله أَو أَصْغَر أَو أكبر ، وكلّ ذَلِك تَقْدِير محوج بِالضَّرُورَةِ إِلىٰ مُقَدّر ، ويتعالىٰ عَنهُ الْخَالِق الْوَاحِد الْمُدبر .

فَأَمَّا رفع الْأَيْدِي عِنْد السُّؤَال إِلىٰ جِهَة السَّماء ، فَهُوَ لِأَنَّهَا قبْلَة الدُّعَاء ، وَفِيه أَيْضاً إِشَارَة إِلىٰ مَا هُوَ وصف للمدعو من الْجَلَال والكبرياء وتنبيهاً بِقصد جِهَة الْعُلُوّ علىٰ صفة الْمجد والْعَلَاء ، فإِنَّه تَعَالَىٰ فَوق كلّ مَوْجُود بالقهر والاستيلاء " . انظر : قواعد العقائد (ص١٦٠-١٦٥) ، (ص٥١-٥٣) ، (ص١٥٩) بالترتيب .

وقال أيضاً : " الدَّعوىٰ الخامسة : ندَّعي أنَّ صانع العالم ليس بجسم ، لأنَّ كلّ جسم فهو متألِّف من جوهرين متحيِّزين ، وإذا استحال أن يكون جوهراً استحال أن يكون جسماً ، ونحن لا نعني بالجسم إلَّا هذا .

فإن سمَّاه جسْماً ولم يرد هذا المعنىٰ كانت المضايقة معه بحقِّ اللغة أو بحقِّ الشَّرع لا بحقِّ العقل ، فإنَّ العقل لا يحكم في إطلاق الألفاظ ونظم الحروف والأصوات التي هي اصطلاحات ، ولأنَّه لو كان جسماً لكان مقدَّراً بمقدار مخصوص ، ويجوز أن يكون أصغر منه أو أكبر ، ولا يترجَّح أحد الجائزين عن الآخر إلَّا بمخصِّص ومرجِّح ، كما سبق ، فيفتقر إلىٰ مخصِّص يتصرَّف فيه فيقدِّره بمقدار مخصوص ، فيكون مصنوعاً لا صانعاً ومخلوقاً لا خالقاً " . انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٢) .

وقال أيضاً : " اعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ الصَّحِيحَ الَّذِي لَا مِرَاءَ فِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ، هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ أَعْنِي مذهب الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ ... حَقِيقَةُ مَذْهَبِ السَّلَفِ ، وَهُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا : أَنَّ كلّ مَنْ بَلَغَهُ حَدِيثٌ مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنْ عَوَامِّ الْخَلْقِ يَجِبُ عَلَيْهِ فيه سَبْعَةُ أُمُورٍ : التَّقْدِيسُ ثمَّ التَّصْدِيقُ ثمَّ الاِعْتِرَافُ بِالْعَجْزِ ثمَّ السُّكُوتُ ثمَّ الْكَفُّ ثمَّ الْإِمْسَاكُ ثمَّ التَّسْلِيمُ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ .

أَمَّا التَّقْدِيسُ ، فأعني به تَنْزِيهُ الرَّبِّ تعالىٰ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَتَوَابِعِهَا ... " . انظر : إلجام العوام عن علم الكلام (ص٤) .

وقال أيضاً : " ... أمَّا إذا كفر ببدعته ، فعند ذلك لا يُعتبر خلافه إن كان يصلِّي إلىٰ القبلة ويعتقد نفسه مسلماً ، لأنَّ الأُمَّة ليست عبارة عن المصلِّين إلىٰ القبلة ، بل عن المؤمنين ، وهو كافر ، وإن كان لا يدري أنَّه كافر ، نعم لو قال بالتَّشبيه والتَّجسيم وكفَّرناه ، فلا يستدلُّ علىٰ بطلان مذهبه بإجماع مخالفيه علىٰ بطلان التَّجسيم مصيراً إلىٰ أنَّهم كلّ الأُمَّة ؛ لأنَّ كونهم كلّ الأُمَّة موقوف علىٰ إخراج

هذا من الأُمَّة ، والإخراج من الأُمَّة موقوف علىٰ دليل التَّكفير ، فلا يجوز أن يكون دليل تكفيره ما هو موقوف علىٰ تكفيره ، فيؤدِّي إلىٰ إثبات الشَّيء بنفسه ... " . انظر : المستصفىٰ (ص١٤٥) .

وقال الإمام أبو الحسين ابن أبي يعلىٰ (٥٢٦هـ) : " وقد قَالَ الوالد السَّعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أخبار الصِّفات : المذهب فِي ذَلِكَ : قبول هَذِهِ الأحاديث عَلَىٰ ما جاءت به من غير عدول عَنْهُ إلىٰ تأويل يخالف ظاهرها ، مَعَ الاعتقاد بأنَّ اللهَ سبحانه بخلاف كلّ شيء سواه ، وكلّ ما يقع في الخواطر من حدٍّ أو تشبيه أو تكييف : فالله سبحانه وتعالىٰ عن ذَلِكَ ، وَاللهُ ليس كمثله شيء ، ولا يوصف بصفات المخلوقين الدالَّة عَلَىٰ حدَثهم ، ولا يجوز عَلَيْهِ ما يجوز عليهم من التغيُّر من حال إلىٰ حال ، ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرَض ، وأنَّه لم يزل ، ولا يزال ، وأنَّه الَّذِي لا يتصوَّر فِي الأوهام ، وصفاته لا تشبه صفات المخلوقين ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١]...

قَالَ أَحْمَد : لا يوصف اللهُ تعالىٰ بأكثر ممَّا وصف به نفسه .

قَالَ الوالد السَّعيد : فمن اعتقد أنَّ اللهَ سبحانه جسمٌ من الأجسام ، وأعطاه حقيقة الجسم من التَّأليف والانتقال : فهو كافر ، لأنَّه غير عارف بالله عزَّ وجلَّ ، لأنَّ اللهَ سبحانه يستحيل وصفه بهذه الصِّفات ، وَإِذَا لم يعرف اللهَ سبحانه : وجب أن يكون كافراً " . انظر : طبقات الحنابلة (٢/ ٢١٠-٢١٢) .

وقال الإمام أبو عبد الله المازري المالكي (٥٣٦هـ) : " ... واعلم أنَّ هذا الحديث غلِط فيه ابن قتيبة وأجراه علىٰ ظاهره ، وقال : " فإنَّ الله سبحانه له صورة لا كالصُّور ، وأجرىٰ الحديث علىٰ ظاهره " ، والذي قاله لا يخفىٰ فساده ، لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب ، وكلّ مركَّبٍ مُحدَث ، والباري سبحانه وتعالىٰ ليس بمحْدَث ، فليس بمركَّب ، وما ليس بمركَّب فليس بمصوَّر . وهذا من جنس قول المبتدعة : إنَّ الباري عزَّ وجلَّ جسم لا كالأجسام ، لَمَّا رأوا أهل السُّنَّة ، يقولون : الباريء سبحانه شيء لا كالأشياء ، طرَّدوا هذا ، فقالوا : جسم لا كالأجسام ، وقال ابن قتيبة : صورة لا كَالصُّوَر . والفَرق بَين مَا قلنَاه وَمَا قَالوه : أنَّ لفظة شيء لا تُفيد الحدوث ، ولا تتضمَّن ما يقتضيه . وقولنا : جسم وصورَة يتضمَّنَان التَّأليف والتَّركيب ، وذلك دليل الحدوث " . انظر : المُعلم بفوائد مسلم (٣/ ٢٩٩) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : " ... علىٰ أنَّ الجزء إنَّما يصح في الأجسام ، وهو متعالٍ عن صفات الأجسام والأعراض " .

وقال أيضاً : " ... والله تعالىٰ منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام " . انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (١/ ٦٢٧) ، (٤/ ٣٣٧) بالترتيب .

وقال الإمام القاضي عياض (٥٤٤هـ) : " والله – سبحانه – ليس بجسم ، ولا يجوز عليه تنقُّل ولا حركة ولا سكون " . انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٢٤٦) .

وقال أيضاً : " والله تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة وصفات المخلوقات " . انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٢٤٦)

وقال الإمام الشَّهرستاني (٥٤٨هـ) : " القاعدة الرَّابعة : في إبطال التَّشبيه :

وفيها الرَّدُّ علىٰ أصحاب الصُّور ، وأصحاب الجهة والكراميَّة في قولهم : إنَّ الربَّ تعالىٰ محلٌّ للحوادث . فمذهب أهل الحقِّ أنَّ الله سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء منها بوجه من وجوه المشابهة والمماثلة ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] ، فليس الباري سبحانه بجوهر ، ولا جسم ، ولا عَرَض ، ولا في مكان ، ولا في زمان ، ولا قابل للأعراض ، ولا محلٍّ للحوادث ... " . انظر : نهاية الإقدام في علم الكلام (ص٦٣) .

وقال الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) : " الْفَصل الأوَّل : فِي تَرْجَمَة عقيدة أهل السُّنَّة ... وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَوَّر ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعَرَض وَلَا تحلُّه الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً وَلَا يماثله مَوْجُود ، وَلَيْسَ كمثله شَيْء ، وَلَا هُوَ مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّمَوَات ، وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش وَفَوق كلّ شَيْء إِلَىٰ تخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لَا تزيده قرباً إِلَىٰ الْعَرْش والسَّما ، بل هُوَ رفيع

الدَّرَجَات عَن الْعَرْش ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الثَّرىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريبٌ من كلّ مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إِلىٰ العبيد من حَبل الوريد ، وَهُوَ علىٰ كلّ شَيْء شَهِيد ، إِذ لَا يماثل قُربه قرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء ، تَعَالَىٰ عَن أَن يحويه مَكَان ، كَمَا تقدَّس عَن أَن يحدُّه زمَان ، كَان قبل أَن خلق الزَّمان وَالْمَكَان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ ، وَأَنَّه بَائِن من خلقه بصفاته ، وَلَيْسَ فِي ذَاته سواهُ ، وَلَا فِي سواهُ ذَاته ، وَأَنَّه مقدَّس عَن التَّغَيُّر والانتقال ، لَا تحلُّه الْحَوَادِث ، وَلَا تعتريه الْعَوَارِض ، بل لَا يزَال فِي نعوت جَلَاله منزَّهاً عَن الزَّوَال ، وَفِي صِفَات كَمَاله مستغنياً عَن زِيَادَة الاستكمال ... " .

وقال أيضاً في كلامه عن الأشاعرة : " فيا ليت شعري ، مَاذَا الَّذِي تنفر مِنْهُ الْقُلُوب عَنْهُم ؟ أم مَاذَا ينقم أَرْبَاب الْبدع مِنْهُم ؟ أغزارة الْعلم ، أم رجاحة الْفَهم ؟ أم اعْتِقَاد التَّوحيد والتَّنزيه ؟ أم اجتنَاب القَوْل بالتَّجسيم والتَّشبيه ؟ أم القَوْل بِإِثْبَات الصِّفَات ؟ أم تقديس الرَّبِّ عَن الْأَعْضَاء والأدوات ؟ أم تثبيت الْمَشِيئَة للهِ وَالْقدر ؟ أم وَصفه عزَّ وجلَّ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَر ؟ أم القَوْل بقدم الْعلم وَالْكَلَام ؟ أم تنزيههم الْقَدِيم عَن صِفَات الْأَجْسَام " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٩-٣٠٠) ، (ص٣٦٧) بالترتيب .

وقال الإمام جمال الدِّين الغزنوي الحنفي (٥٩٣هـ) : " صانع الْعَالم لَيْسَ بجسم ، لِأَنَّ الْجِسْم مؤلَّف من الْجَوْهَر ، وَإِذا بَطل كَونه جوهراً ، بَطل كَونه جسماً ضَرُورَة " . انظر : كتاب أصول الدِّين (ص٦٧-٦٨) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قال ابن عقيل (٥١٣هـ) : تعالىٰ الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة . هذا عين التَّجسيم ، وليس الحقُّ بذي أجزاء وأبعاض يعالج بها . ثمَّ أليس يعملُ في النَّار أمرُه وتكوينه ؟!!! فكيف يستعينُ بشيء من ذاته ويعالجها بصفة من صفاته ، وهو القائل : ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾[الأنبياء:٦٩] ، فما أسخف هذا الاعتقاد وأبعده عن مكوِّن الأملاك والأفلاك ، فقد كذَّبهم الله ، فكيف يُظن بالخالق أنَّه يَردُها ؟ !! تعالىٰ الله عن تجاهل المجسِّمة " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٧٤) .

وقال أيضاً : " ... والواجب علىٰ الخلق اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلىٰ مكان يفتقر إلىٰ ثلاثة أجسام : جسمٌ عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسمٌ سافل ، وجسمٌ ينتقل من علوٍّ إلىٰ أسفل ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ قطعاً .

فإن قال العاميُّ : فما الذي أراد بالنُّزول ؟ قيل : أراد به معنىٰ يليق بجلاله ، لا يلزمك التَّفتيش عنه . فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ قلنا : قد علمت أنَّ النَّازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقرب ولا تظنُّه كقُرب الأجسام " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكفِّ التنزيه (ص١٩٤-١٩٦) .

وقال أيضاً : " وقد وقف أقوام مَعَ الظَّواهر ، فحملوها عَلَىٰ مقتضىٰ الحسِّ ، فَقَالَ بعضهم : إنَّ اللهَّ جسم ، تعالىٰ اللهَّ عَنْ ذلك ، وهذا مذهب هشام بْن الحكم (١٩٩هـ) ، وعلي بْن منصور ومحمد بْن الخليل ويونس بْن عَبْدِ الرَّحمن ، ثمَّ اختلفوا فَقَالَ بعضهم : جسم كالأجسام ، ومنهم من قَالَ : لا كالأجسام ثمَّ اختلفوا ...

ومن الواقفين مَعَ الحسّ أقوام ، قالوا : هو عَلَىٰ العرش بذاته عَلَىٰ وجه المماسَّة ، فَإِذَا نزل انتقل وتحرَّك ، وجعلوا لذاته نهاية ، وهؤلاء قد أوجبوا عَلَيْهِ المساحة والمقدار ، واستدلُّوا عَلَىٰ أنَّه عَلَىٰ العرش بذاته بقول النبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل اللهَّ إلىٰ سماء الدُّنيا " ، قالوا : ولا ينزل إلَّا من هو فوق ، وهؤلاء حملوا نزوله عَلَىٰ الأمر الحسِّي الذي يوصف به الأجسام ، وهؤلاء المشبِّهة الذين حملوا الصِّفات عَلَىٰ مقتضىٰ الحسّ . وَقَدْ ذكرنا جمهور كلامهم فِي كتابنا المسمَّىٰ : بـ" منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول " ... وإنَّما الصَّواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها ... والذي أراه : السُّكوت عَلَىٰ هَذَا التَّفسير أيضاً ، إلَّا أنَّه يجوز أن يكون مراداً ، ولا يجوز أن يكون ثمَّ ذات تقبل التَّجزِّي ... " . انظر : تلبيس إبليس (ص٧٨-٨٠ باختصار) .

وقال أيضاً : " ... لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بجسم ... " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٧١) .

وقال أيضاً : " ... وَكَانَ ابْن عقيل يَقُول: الصُّورَة علىٰ الْحَقِيقَة تقع علىٰ التَّخاطيط والأشكال ، وَذَلِكَ من صِفَات الْأَجْسَام ، وَالَّذِي صرفنَا عَن كَونه جسماً من الْأَدِلَّة النُّطقيَّة قَوْله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ

شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] ، وَمن أَدِلَّة الْعُقُول : أَنَّه لَو كَانَ جسماً لكَانَتْ صورته عَرَضاً ، وَلَو كَانَ جسماً حَامِلاً للأعراض لجَاز عَلَيْهِ مَا يجوز علىٰ الْأَجْسَام ، وَاحْتَاجَ إِلىٰ مَا احْتَاجَت إِلَيْهِ من الصَّانِع ، وَلَو جَازَ قِدمه مَعَ كَونه جسماً لما امْتنع قِدَم أَحدنَا " . انظر : كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ١٣٤) .

وقال أيضاً : " ... وفي المشار إليه بقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا﴾[النجم:٨] ثلاثة أقوال ... وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب الْمُغْني ، وبيَّنتُ أنَّه ليس كما يخطُر بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة ، لأنَّ ذلك يختصُّ بالأجسام ، والله منزَّه عن ذلك " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) .

فقد وضَّح وبرهن الإمام ابن الجوزي علىٰ أنَّ الواجب علىٰ الخلق : اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلىٰ مكان يفتقر إلىٰ ثلاثة أجسام : جسم عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسم سافل ، وجسم ينتقل من علو إلىٰ أسفل ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ قطعاً ...

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَمِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُشْعِرَة بِالْجِسْمِيَّةِ وَالْجِهَةِ : الْأَلْفَاظُ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ " الْعُلُوِّ " ، فمنها : قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وَمِنْهَا : قَوْلُهُ : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١] ، وَمِنْهَا : الْمُتَعَالِي ، وَمِنْهَا : اللَّفْظُ الْمَذْكُورُ عِنْدَ الْكُلِّ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِطْبَاقِ وَهُوَ أَنَّهم كُلَّما ذَكَرُوهُ أَرْدَفُوا ذَلِكَ الذِّكْرَ بِقَوْلِهِمْ : " تَعَالَىٰ " ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّحْلِ : ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١] . إِذَا عَرَفْتَ هَذَا ، فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ فِي الْجِهَةِ وَالْمَكَانِ قَالُوا : مَعْنَىٰ عُلُوِّهِ وَتَعَالِيهِ كَوْنُهُ مَوْجُوداً فِي جِهَةِ فَوْقُ ، ثمَّ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جَالِسٌ فَوْقَ الْعَرْشِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه مُبَايِنٌ لِلْعَرْشِ بِبُعْدٍ مُتَنَاهٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه مُبَايِنٌ لِلْعَرْشِ بِبُعْدٍ غَيْرِ مُتَنَاهٍ ، وَكَيْفَ كَانَ فَإِنَّ الْمُشَبِّهَةَ حَمَلُوا لَفْظَ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ عَلَىٰ الْجِسْمِيَّةِ وَالْمِقْدَارِ، وَحَمَلُوا لَفْظَ الْعَلِيِّ عَلَىٰ الْعُلُوِّ فِي الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ التَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ فَإِنَّهُمْ حَمَلُوا الْعَظِيمَ وَالْكَبِيرَ عَلَىٰ وُجُوهٍ لَا تُفِيدُ الْجِسْمِيَّةَ وَالْمِقْدَارَ :

فَأَحَدُهَا : أَنَّه عَظِيمٌ بِحَسَبِ مُدَّةِ الْوُجُودِ ، وَذَلِكَ لأَنَّه أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ ، وَذَلِكَ هُوَ نِهَايَةُ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ فِي الْوُجُودِ وَالْبَقَاءِ وَالدَّوَامِ .

وَثَانِيهَا : أَنَّه عَظِيمٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّه عَظِيمٌ فِي الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ .

وَرَابِعُهَا: أَنَّه عَظِيمٌ فِي كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، وَأَمَّا الْعُلُوُّ فَأَهْلُ التَّنْزِيهِ يَحْمِلُونَ هَذَا اللَّفْظَ عَلَىٰ كَوْنِهِ مُنَزَّهاً عَنْ صِفَاتِ النَّقَائِصِ وَالْحَاجَاتِ .

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلَفْظُ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ عِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ مِنْ أَسْمَاءِ الذَّات ، وَعِنْدَ أَهْلِ التَّوحيد مِنْ أَسْمَاءِ الصِّفَاتِ ، وَأَمَّا لَفْظُ الْعَلِيِّ فَعِنْدَ الْكُلِّ مِنْ أَسْمَاءِ الصِّفَاتِ ، إِلَّا أَنَّه عِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ يُفِيدُ الْحُصُولَ فِي الْحَيِّزِ الَّذِي هُوَ الْعُلُوُّ الْأَعْلَىٰ ، وَعِنْدَ أَهْلِ التَّوحيد يُفِيدُ كَوْنَهُ مُنَزَّهاً عَنْ كلّ مَا لَا يَلِيقُ بِالْإِلَهِيَّةِ " .

وقال أيضاً : " ... وَالْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ : أَنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الْمَعْلُومَةِ عِنْدَ الْخَلْقِ : إِمَّا صِفَاتُ الْجَلَال ، وَإِمَّا صِفَاتُ الْإِكْرَام ، أَمَّا صِفَاتُ الْجَلَالِ فَهِيَ قَوْلُنَا : لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِجَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، وَلَا فِي الْمَكَانِ ، وَلَا فِي الْمَحَلِّ ... " .

وقال أيضاً : " وَأَمَّا التَّنْزِيهُ ، فَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا فِي مَكَانٍ قَوْلُهُ : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، فَإِنَّ الْمُرَكَّبَ مُفْتَقِرٌ إِلىٰ أَجْزَائِهِ ، وَالْمُحْتَاجَ مُحْدَثٌ ، وَإِذَا كَانَ أَحداً وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونُ جِسْماً ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جِسْماً لَمْ يَكُنْ فِي الْمَكَانِ " .

وقال في تفسيره لقول الله تعالىٰ : ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[البقرة: ١١٥] : " الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْآيَةُ مِنْ أَقْوَىٰ الدَّلائل عَلَىٰ نَفْيِ التَّجْسِيمِ وَإِثْبَاتِ التَّنْزِيهِ ، وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ**﴾ ، فَبَيَّنَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ مَمْلُوكَتَانِ لَهُ ، وإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَةَ أَمْرٌ مُمْتَدٌّ فِي الْوَهْمِ طُولاً وَعَرْضاً وَعُمْقاً ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ ، وكلّ مُنْقَسِمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مُرَكَّبٌ ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ وَمُوجِدٍ ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ عَامَّةٌ فِي الْجِهَاتِ كلّها ، أَعْنِي الْفَوْقَ وَالتَّحْتَ ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّه تَعَالَىٰ خَالِقُ الْجِهَاتِ كلّها ، وَالْخَالِقُ مُتَقَدِّمٌ عَلَىٰ

الْمَخْلُوقِ لَا مَحَالَةَ ، فَقَدْ كَانَ الْبَارِي تَعَالَىٰ قَبْلَ خَلْقِ الْعَالَمِ مُنَزَّهاً عَنِ الْجِهَاتِ وَالْأَحْيَازِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَبْقَىٰ بَعْدَ خَلْقِ الْعَالَمِ كَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ لِاسْتِحَالَةِ انْقِلَابِ الْحَقَائِقِ وَالْمَاهِيَّاتِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ، وَلَوْ كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ جِسْماً وَلَهُ وَجْهٌ جُسْمَانِيٌّ ، لَكَانَ وَجْهُهُ مُخْتَصّاً بِجَانِبٍ مُعَيَّنٍ ، وَجِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فَمَا كَانَ يَصْدُقُ قَوْلُهُ : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ، فَلَمَّا نَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ ، عَلِمْنَا أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ " .

وقال أيضاً : " ... أَجْمَعَ الْمُعْتَبَرُونَ مِنَ الْعُقَلَاءِ عَلَىٰ أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ :

أَحَدُهَا : مَا ثَبَتَ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ أَنَّ كلّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَهُمَا مُحْدَثَانِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَيَلْزَمُ أَنَّ كلّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْدَثاً مَخْلُوقاً وَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَثَانِيهَا : أَنَّ كلّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَالْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ بَلْ يَكُونُ شَيْئاً كَبِيراً ، فَيَكُونُ أَحَدُ جَانِبَيْهِ مُغَايِراً لِلْآخَرِ ، فَيَكُونُ مُرَكَّباً مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ ، وكلّ مَا كَانَ مُرَكَّباً ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمُرَكَّبَ يَكُونُ مُفْتَقِراً فِي تَحَقُّقُهُ إِلَىٰ تَحَقُّقِ كلّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ ، وكلّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ غَيْرُهُ ، فَكُلُّ مُرَكَّبٍ هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وكلّ مُفْتَقِرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ ، وكلّ مُمْكِنٍ لِذَاتِهِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ فِي وُجُودِهِ إِلَىٰ الْمُرَجِّحِ وَالْمُوجِدِ ، فَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ مَسْبُوقٌ بِالْعَدَمِ ، وَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ كلّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ فَهُوَ مَحْدُودٌ وَمُتَنَاهٍ ، فَيَكُونُ مُخْتَصّاً بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ ، مَعَ أَنَّه كَانَ يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ وُقُوعُهُ عَلَىٰ مِقْدَارٍ أَزْيَدَ مِنْهُ أَوْ أَنْقَصَ ، فَاخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ الْقَدْرِ الْمُعَيَّنِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لِتَرْجِيحِ مُرَجِّحٍ ، وَتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ فِعْلاً لِفَاعِلٍ مُخْتَارٍ ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ ، فَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَرَابِعُهَا : أَنَّا مَتَىٰ جَوَّزْنَا فِي الشَّيْءِ الَّذِي يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً قَدِيماً أَزَلِيّاً ، فَحِينَئِذٍ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَحْكُمَ بِنَفْيِ الْإِلَهِيَّةِ عَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَكَانَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَصْحَابِنَا يَقُولُ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا عَيْبَ فِيهِمَا يَمْنَعُ مِنَ القول بإلهيتهما سوىٰ أنَّهم جِسْمٌ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ ، فَمَنْ جَوَّزَ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَلِمَ لَا يَحْكُمُ بِإِلَهِيَّةِ الشَّمْسِ ، وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ بِإِثْبَاتِ مَوْجُودٍ آخَرَ يَزْعُمُ أَنَّه إِلَهٌ .

وَخَامِسُهَا : أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَكَىٰ عَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّه طَعَنَ فِي إِلَهِيَّةِ الْكَوَاكِبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بِقَوْلِهِ : ﴿**لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٦] ، وَلَا مَعْنَىٰ لِلْأُفُول إِلَّا الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ ، فَمَنْ جَوَّزَ الْغَيْبَةَ وَالْحُضُورَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَقَدْ طَعَنَ فِي دَلِيلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَذَّبَ اللهَ فِي تَصْدِيقِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ .

سَادِسُهَا : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعْنَةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ لَمَّا سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : ﴿**وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٣] ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَاهِيَّةَ وَالْجِنْسَ وَالْجَوْهَرَ ، فَلَوْ كَانَ تَعَالَىٰ جِسْماً مَوْصُوفاً بِالْأَشْكَالِ وَالْمَقَادِيرِ لَكَانَ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ لَيْسَ إِلَّا بِذِكْرِ الصُّورَةِ وَالشَّكْلِ وَالْقَدْرِ : فَكَان جَوَابُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : ﴿**رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾[مريم:٦٥] ، ﴿**رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾[الدخان: ٨] ، ﴿**قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ**﴾[المزمل: ٩] خَطَأً وَبَاطِلاً ، وَهَذَا يَقْتَضِي تَخْطِئَةَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ مِنَ الْجَوَابِ ، وَتَصْوِيبَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ : ﴿**إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**﴾[الشعراء: ٢٧] ، وَلَمَّا كَانَ كلّ ذَلِكَ بَاطِلاً ، عَلِمْنَا أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ ، وَمُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَصِحَّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ .

وَسَابِعُهَا : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١] ، وَالْأَحَدُ هُوَ الْكَامِلُ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ ، وكلّ جِسْمٍ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ بِحَسَبِ الْغَرَضِ وَالْإِشَارَةِ إِلىٰ جُزْأَيْنِ ، فَلَمَّا كَانَ تَعَالَىٰ أَحَداً امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ مُتَحَيِّزاً ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ جِسْماً وَلَا مُتَحَيِّزاً امْتَنَعَ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ، وَأَيْضًا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا**﴾[مريم: ٦٥] ، أَيْ : شَبِيهاً ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً لَكَانَ مُشَابِهاً لِلْأَجْسَامِ فِي

الْجِسْمِيَّةِ ، إِنَّمَا الِاخْتِلَافُ يَحْصُلُ فِيمَا وَرَاءَ الْجِسْمِيَّةِ ، وَذَلِكَ إِمَّا بِالْعِظَمِ أَوْ بِالصِّفَاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ ، وَذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي حُصُولِ الْمُشَابَهَةِ فِي الذَّات ، وَأَيْضاً قَالَ تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مَثَلاً لِلْأَجْسَامِ .

وَثَامِنُهَا: لَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً لَكَانَ مُشَارِكاً لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ فِي عُمُومِ الْجِسْمِيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُخَالِفاً فِي خُصُوصِ ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، وَإِمَّا أن لَا يَكُونُ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَمَا بِهِ الْمُشَارَكَةُ غَيْرُ مَا بِهِ الْمُمَايَزَةُ ، فَعُمُومُ كَوْنِهِ جِسْماً مُغَايِرٌ لِخُصُوصِ ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، وَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّا إِذَا وَصَفْنَا تِلْكَ الذَّات الْمَخْصُوصَةَ بِالْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا الْجِسْمَ صِفَةً وَهَذَا مُحَالٌ ، لِأَنَّ الْجِسْمَ ذَاتُ الصِّفَةِ ، وَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّ تِلْكَ الذَّات الْمَخْصُوصَةَ الَّتِي هِيَ مُغَايِرَةٌ لِلْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِكَوْنِهِ جِسْماً ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ ذَاتُ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئاً مُغَايِراً لِلْمَفْهُومِ مِنَ الْجِسْمِ ، وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِهِ ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَوْنَهُ تَعَالَى جِسْماً ، وَأَمَّا إِنْ قِيلَ : إِنَّ ذَاتَهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جِسْماً لَا يُخَالِفُ سَائِرَ الْأَجْسَامِ فِي خُصُوصِيَّةٍ ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَثَلاً لَهَا مُطْلَقاً ، وكلّ مَا صَحَّ عَلَيْهَا فَقَدْ صَحَّ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجْسَامُ مُحْدَثَةً وَجَبَ فِي ذَاتِهِ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ ، وكلّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِمُتَحَيِّزٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ عَلَيْهِ " .

وقال أيضاً : " أَمَّا الْإِيمَانُ بِوُجُودِهِ ، فَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ وَرَاءَ الْمُتَحَيِّزَاتِ مَوْجُوداً خَالِقاً لَهَا ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْمُجَسِّمُ لَا يَكُونُ مُقِرّاً بِوُجُودِ الْإِلَهِ تَعَالَى ، لأَنَّه لَا يُثْبِتُ مَا وَرَاءَ الْمُتَحَيِّزَاتِ شَيْئاً آخَرَ ، فَيَكُونُ اخْتِلَافُهُ مَعَنَا فِي إِثْبَاتِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ".

وقال أيضاً : " وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ النَّظَرِ تَقْلِيبَ الْحَدَقَةِ إِلَى جَانِبِ الْمَرْئِيِّ الْتِمَاساً لِرُؤْيَتِهِ ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَتَعَالَى إِلَهُنَا عَنْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً " .

وقال أيضاً : " اخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ فِي تَفْسِيرِ يَدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَتِ الْمُجَسِّمَةُ : أَنَّهَا عُضْوٌ جُسْمَانِيٌّ ، كَمَا فِي حَقِّ كلّ أَحَدٍ ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٩٥] ، وَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ : أَنَّه تَعَالَى قَدَحَ فِي

إِلٰهِيَّةِ الْأَصْنَامِ لِأَجْلِ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، فَلَوْ لَمْ تَحْصُلْ للهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ لَزِمَ الْقَدْحُ فِي كَوْنِهِ إِلٰهاً ، وَلَمَّا بَطَلَ ذَلِكَ وَجَبَ إِثْبَاتُ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ لَهُ . قَالُوا وَأَيْضاً اسْمُ الْيَدِ مَوْضُوعٌ لِهَذَا الْعُضْوِ ، فَحَمْلُهُ عَلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ تَرْكٌ لِلُّغَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي إِبْطَالِ هَذَا الْقَوْلِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، والدَّليل عَلَيْهِ أَنَّ الْجِسْمَ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَهُمَا مُحْدَثَانِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَلِأَنَّ كلّ جِسْمٍ فَهُوَ مُتَنَاهٍ فِي الْمِقْدَارِ ، وكلّ مَا كَانَ مُتَنَاهِياً فِي الْمِقْدَارِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَلِأَنَّ كلّ جِسْمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ قَابِلاً لِلتَّرْكِيبِ وَالِانْحِلَالِ ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ افْتَقَرَ إِلَىٰ مَا يُرَكِّبُهُ وَيُؤَلِّفُهُ ، وكلّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ أَنَّه يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ تَعَالَىٰ جِسْماً ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ يَدُهُ عضواً جسمانياً " .

وقال أيضاً : " وَحَشْوِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ مَنْ قَرَأَ كَلَامَ اللهِ ، فَالَّذِي يَقْرَؤُهُ هُوَ عَيْنُ كَلَامِ تَعَالَىٰ ، وَكَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ مَعَ أَنَّه صِفَةُ اللهِ يَدْخُلُ فِي لِسَانِ هَذَا الْقَارِئِ ، وَفِي لِسَانِ جَمِيعِ الْقُرَّاءِ ، وَإِذَا كُتِبَ كَلَامُ اللهِ فِي جِسْمٍ ، فَقَدْ حَلَّ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ الْجِسْمِ ، فَالنَّصَارَىٰ إِنَّمَا أَثْبَتُوا الْحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ فِي حَقِّ عِيسَىٰ . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْحَمْقَىٰ فَأَثْبَتُوا كَلِمَةَ اللهِ فِي كلّ إِنْسَانٍ قَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَفِي كلّ جِسْمٍ كُتِبَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، فَإِنْ صَحَّ فِي حَقِّ النَّصَارَىٰ أَنَّهم لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ بِهَذَا السَّبَبِ ، وَجَبَ أَنْ يَصِحَّ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الْحُرُوفِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ أَنَّهم لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ ، فَهَذَا تَقْرِيرُ هَذَا السُّؤَالِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ الدَّلِيل دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْإِلَهَ جِسْمٌ فَهُوَ مُنْكِرٌ لِلْإِلَهِ تَعَالَىٰ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا حَالٍّ فِي الْجِسْمِ ، فَإِذَا أَنْكَرَ الْمُجَسِّمُ هَذَا الْمَوْجُود ، فَقَدْ أَنْكَرَ ذَاتَ الْإِلَهِ تَعَالَىٰ ، فَالْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجَسِّمِ وَالْمُوَحِّدِ لَيْسَ فِي الصِّفَةِ ، بَلْ فِي الذَّات ، فَصَحَّ فِي الْمُجَسِّمِ أَنَّه لَا يُؤْمِنُ باللهِ " .

وقال أيضاً : " فَقَوْلُهُ : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[سبأ: ٢٣] ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّه فَوْقَ الْكَامِلِينَ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَهَذَا يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِكَوْنِهِ جِسْماً وَفِي حَيِّزٍ ، لِأَنَّ كلّ مَنْ كَانَ فِي حَيِّزٍ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ بِأَنَّهُ مُشَارٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مَقْطَعُ الْإِشَارَةِ ، لِأَنَّ الْإِشَارَةَ لَوْ لَمْ تَقَعْ إِلَيْهِ لَمَا كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ هو ، وإذا وقعت الإشارة إليه ،

فقد تناهب الْإِشَارَةُ عِنْدَهُ ، وَفِي كلّ مَوْقِعٍ تَقِفُ الْإِشَارَةُ بِقَدْرِ الْعَقْلِ عَلَى أَنْ يَفْرِضَ الْبُعْدَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُ : لَوْ كَانَ بَيْنَ مَأْخَذِ الْإِشَارَةِ وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْبُعْدِ لَكَانَ هَذَا الْمُشَارُ إِلَيْهِ أَعْلَى فَيَصِيرُ عَلِيّاً بِالْإِضَافَةِ لَا مُطْلَقاً ، وَهُوَ عَلِيٌّ مُطْلَقاً ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ لَهُ مِقْدَارٌ ، وكلّ مِقْدَارٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَضَ أَكْبَرُ مِنْهُ فَيَكُونَ كَبِيراً بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ لَا مُطْلَقاً وَهُوَ كَبِيرٌ مطلقاً " .

وقال أيضاً : " الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : تَمَسَّكَتِ الْمُجَسِّمَةُ فِي إِثْبَاتِ الْعُلُوِّ بِالْمَكَانِ بِقَوْلِهِ : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى: ١] ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْعُلُوَّ بِالْجِهَةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى مُحَالٌ ، لأنّه تَعَالَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِياً أَوْ غَيْرَ مُتَنَاهٍ ، فَإِنْ كَانَ مُتَنَاهِياً كَانَ طَرَفُهُ الْفَوْقَانِيُّ مُتَنَاهِياً ، فَكَانَ فَوْقَهُ جِهَةً فَلَا يَكُونُ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَى مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ فَالْقَوْلُ : بِوُجُودِ أَبْعَادٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ مُحَالٌ ، وَأَيْضاً فَلِأَنَّهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ تَعَالَى مُخْتَلِطَةً بِالْقَاذُورَاتِ تَعَالَى اللهُ عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ وَمُتَنَاهِياً مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ كَانَ الْجَانِبُ الْمُتَنَاهِي مُغَايِراً لِلْجَانِبِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِي ، فَيَكُونُ مُرَكَّباً مِنْ جُزْأَيْنِ ، وكلّ مُرَكَّبٍ مُمْكِنٌ ، فَوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ مُمْكِنُ الْوُجُودِ ، هذا مُحَالٌ . فَثَبَتَ أَنَّ الْعُلُوَّ هَاهُنَا لَيْسَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ فِي الْجِهَةِ ، مِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هُوَ الْعُلُوُّ بِالْجِهَةِ ، أَمَّا مَا قَبْلَ الْآيَةِ فَلِأَنَّ الْعُلُوَّ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنِ الْعَالَمِ ، وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ اسْتِحْقَاقَ التَّسْبِيحِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ ، أَمَّا الْعُلُوُّ بِمَعْنَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالتَّفَرُّدِ بِالتَّخْلِيقِ وَالْإِبْدَاعِ ، فَيُنَاسِبُ ذَلِكَ ، وَالسُّورَةُ هَاهُنَا مَذْكُورَةٌ لِبَيَانِ وَصْفِهِ تَعَالَى بِمَا لِأَجْلِهِ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ وَالتَّعْظِيمَ ... " . انظر : تفسير الرازي (١/ ١٣٤) ، (١/ ١٣٧) ، (٢/ ٣٢٥) ، (٤/ ٢١) ،(٥/ ٣٥٦-٣٥٨) ، (٧/ ١٠٧) ، (٨/ ٢٦٧) ، (١٢/ ٣٩٥) ، (١٦/ ٢٤) ، (١٦/ ١٢٧) بالترتيب .

وقال أيضاً : " الْفَصْلُ الثَّانِي فِي تَقْدِيرِ الدَّلائل السَّمعيَّة على أنّه تَعَالَى منزّه عَن الجسميَّة ، والحيِّز ، والجهة :

الْحجَّة الأُولى : قَوْله تَعَالَى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ١ - ٤] ، وَاعْلَم أنَّه قد اشْتهر فِي التَّفْسِير : أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَن مَاهِيَّة ربِّه ، وَعَن نَعته ، وَصفته ، فانتظر الْجَوَاب من الله تَعَالَى ، فَأنْزل هَذِه السُّورَة . إِذا

عرفت ذَلِك فَنَقُول : هَذِه السُّورَة يجب أَن تكون من المحكمات لَا من المتشابهات ، لأَنَّه تَعَالَىٰ جعلهَا جَوَاباً عَن سُؤال الْمُتَشَابه ، بل وأنزلها عِنْد الْحَاجة . وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَونهَا من المحكمات لَا من المتشابهات .

وَإِذا ثَبت هَذَا وَجب الْجَزْم بِأَنَّ كلّ مَذْهَب يُخَالف هَذِه السُّورَة يكون بَاطِلاً ، فَنَقُول : إِنَّ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿أَحَدٌ﴾ ، يدلُّ علىٰ نفي الجسميَّة ، وَنفي الحيِّز والجهة . أمَّا دلَالَته علىٰ أنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم ، فَذَلِك لِأَنَّ الْجِسْم أَقَله أَن يكون مركَّباً من جوهرين ، وَذَلِكَ يُنَافِي الْوحدَة . ولَمَّا كانَ قَوله : ﴿أَحَدٌ﴾ مُبَالغَة فِي الواحديَّة ، كان قوله : ﴿أَحَدٌ﴾ منافياً للجسميَّة .

وَأمَّا دلَالَته علىٰ أنَّه لَيْسَ بجوهر ، فَنَقُول : أمَّا الَّذين يُنكرُونَ الْجَوْهَر الْفَرد ، فَإِنَّهُم يَقُولُونَ : إِنَّ كلّ متحيِّز فَلَا بُدَّ وَأَن يتَمَيَّز أحد جانبيه عَن الثَّانِي ، وَذَلِكَ لأَنَّه لَا بُدَّ من أَن يتَمَيَّز يَمِينه عَن يسَاره ، وقدَّامه عَن خَلفه ، وفوقه عَن تَحْتَهُ ، وكلّ مَا تميَّز فِيهِ شَيْء عَن شَيْء ، فَهُوَ منقسمٌ ، لِأَنَّ يَمِينه مَوْصُوف بِأَنَّهُ يَمِين لَا يسَار ، ويساره مَوْصُوف بِأَنَّهُ يسَار لَا يَمِين ، فَلَو كَانَ يَمِينه عين يسَاره ، لاجتمع فِي الشَّيء الْوَاحِد ، أنَّه يَمِين ، وَلَيْسَ بِيَمِين ، ويسار وَلَيْسَ بيسار ، فَيلْزم اجْتِمَاع النَّفْي وَالْإِثْبَات فِي الشَّيء الْوَاحِد ، وَهُوَ محَال .

قَالُوا : فَثَبت أَنَّ كلّ متحيِّز فَهُوَ منقسمٌ ، وَثَبت أَنَّ كلّ منقسم فَهُوَ لَيْسَ بِأحد ، فَلَمَّا كَانَ الله تَعَالَىٰ مَوْصُوفاً بِأَنَّهُ أحد ، وَجب أَن لَا يكون متحيِّزاً أصلاً ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَونه جوهراً .

وَأمَّا الَّذين يثبتون الْجَوْهَر الْفَرد ، فإنَّه لَا يُمكنهُم الاستدلال علىٰ نفي كَونه تَعَالَىٰ جوهراً من هَذَا الاعتبار ، ويمكنهم أَن يحتجُّوا بِهَذِهِ الْآيَة علىٰ نفي كَونه جوهراً من وَجه آخر ، وَبَيَانه : هُوَ أَنَّ الْأَحَد كَمَا يُرَاد بِهِ نفي التَّرْكِيب والتآليف فِي الذَّات ، فقد يُرَاد بِهِ الضِّدّ والندّ ، فلَو كَانَ تَعَالَىٰ جوهراً فرداً ، لَكَانَ كلّ جَوْهَر فَرد مثلاً لَهُ ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَونه أحداً . ثمَّ أكدوا هَذَا الْوَجْه بقوله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، وَلَو كَانَ جوهراً لَكَانَ كلّ جَوْهَر فَرد كفواً لَهُ ، فدلَّت هَذِه السُّورَة من الْوَجْه الَّذِي قَرَّرْنَاهُ علىٰ أنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم وَلَا بجوهر ، وَإِذا ثَبت أنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم وَلَا

بجوهر ، وَجب أَن لَا يكون فِي شَيْء من الأحياز والجهات ، لِأَنَّ كلّ مَا كَانَ مُخْتَصّاً بحيِّز وجهة ، فَإِن كَانَ منقسماً كَانَ جسماً ، وَقد بَيَّنَّا إِبطَال ذَلِك ، وَإِن لم يكن منقسماً كَانَ جوهراً فرداً ، وَقد بَيَّنَّا أَنَّه بَاطِل ، وَلما بَطل القسمان ، ثَبت أَنَّه يمْتَنع أَن يكون فِي جِهَة أصلاً ، فَثَبت أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿أَحَدٌ﴾ ، يدلُّ دلَالَة قَطْعِيَّة على أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم ، وَلَا بجوهر ، وَلَا فِي حيِّز وجهة أصلاً .

وَاعْلَم أَنَّه تَعَالَى كَمَا نَصَّ على أَنَّه تَعَالَى وَاحِد ، فقد نَصَّ على الْبُرْهَان الَّذِي لأَجله يجب الحكم بِأَنَّهُ أحد ، وَذَلِكَ أَنَّه قَالَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ : وَكَونه إِلَهاً يَقْتَضِي كَونه غَنِياً عَمَّا سواهُ ، وكلّ مركَّب ، فإِنَّه مفتقر إِلى كلّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ ، وكلّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ غَيره ، فَكلُّ مركَّب فَهُوَ مفتقرٌ إِلى غَيره ، وَكَونه إِلَهاً يمْنَع من كَونه مفتقراً إِلى غَيره ، وَذَلِكَ يُوجب الْقطع بِكَوْنِهِ أحداً ، وَكَونه أحداً يُوجب الْقطع بِأَنَّهُ لَيْسَ بجسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا فِي حيّز وجهة . فَثَبت : أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، برهَان قَاطع على ثُبُوت هَذِه المطالب .

وَأَمَّا قَوْله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، فالصمد هُوَ السَّيِّد المصمود إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِج ، وَذَلِكَ يدلُّ على أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وعَلى أَنَّه غير مُخْتَصٍّ بالحيِّز والجهة . .

أَمَّا بَيَان دلَالَته على نفي الجسميَّة ، فَمن وُجُوه :

الأوَّلُ : أَنَّ كلّ جسم فَهُوَ مركَّب ، وكلّ مركَّب فَهُوَ مُحْتَاج إِلى كلّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ ، وكلّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ غَيره ، فَكلُّ مركَّب فَهُوَ مُحْتَاج إِلى غَيره ، والمحتاج إِلى الْغَيْر لَا يكون غَنِياً مُحْتَاجاً إِلَيه ، فَلم يكن صمداً مُطلقاً .

الثَّانِي : لَو كَانَ مركَّباً من الْجَوَارِح والأعضاء لاحتاج فِي الإبصار إِلى الْعين ، وَفِي الْفِعْل إِلى الْيَد ، وَفِي الْمَشْي إِلى الرِّجل ، وَذَلِكَ يُنَافِي كَونه صمداً مُطلقاً .

الثَّالِثُ : أَنَّا نُقِيم الدّلَالَة على أَنَّ الْأَجْسَام متماثلة ، والأشياء المتماثلة يجب اشتراكها فِي اللوازم ، فَلَو احْتَاجَ بعض الْأَجْسَام إِلى بعض ، لزم كَون الْكلِّ مُحْتَاجاً إِلى ذَلِك الْجِسْم ، وَلزِمَ أَيْضاً كَونه مُحْتَاجاً إِلى نَفسه ، وكلّ ذَلِك محَال . وَلَمَّا كَانَ ذَلِك محَالاً ، وَجب أَن لَا يحْتَاج إِلَيْهِ شَيْء من الْأَجْسَام ، وَلَو كَانَ كَذَلِك لم يكن صمداً على الْإِطْلَاق .

وَأمَّا بَيَان دلالَته علىٰ أنَّه تَعَالَىٰ منزَّه عَن الحيِّز والجهة ، فَهُوَ أنَّه تَعَالَىٰ لَو كَانَ مُخْتَصّاً بالحيِّز والجهة ، لَكَانَ إمَّا أَن يكون حُصُوله فِي الحيِّز الْمعيَّن وَاجِباً أَو جَائِزاً ، فَإِن كَانَ وَاجِباً فَحِينَئِذٍ يكون ذَاته تَعَالَىٰ مفتقراً فِي الْوُجُود والتحقق إِلىٰ ذَلِك الحيِّز الْمعيَّن ، وذَلِك الحيِّز الْمعيَّن فإنَّه يكون غَنِياً عَن ذَاته الْمَخْصُوص ، لأنَّا لَو فرضنَا عدم حُصُول ذَات الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الحيِّز الْمعيَّن لم يبطل ذَلِك الحيِّز أصلاً ، وعَلىٰ هَذَا التَّقْدِير يكون تَعَالَىٰ مُحْتَاجاً إِلىٰ ذَلِك الحيِّز ، فَلم يكن صمداً علىٰ الْإِطْلَاق . وأما إِن كَانَ حُصُوله فِي الحيِّز الْمعيَّن جَائِزاً لَا وَاجِباً ، فَحِينَئِذٍ يفْتَقر إِلىٰ مُخَصِّص يخصِّصه بالحيِّز الْمعيَّن ، وَذَلِكَ يُوجِب كَونه مُحْتَاجاً ، وينافي كَونه صَمَداً .

وَأمَّا قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، فَهَذَا أَيْضاً يدلُّ علىٰ أنَّه لَيْسَ بجِسْم ، وَلَا جَوْهَر ، لأنَّا سنقيم الدّلَالَة علىٰ أَنَّ الْجَوَاهِر متماثلة ، فَلَو كَانَ تَعَالَىٰ جوهراً ، لَكَانَ مثلاً لجَمِيع الْجَوَاهِر فَكَانَ كلّ وَاحِد من الْجَوَاهِر : كفؤا لَهُ . وَلَو كَانَ جسماً لَكَانَ مؤلَّفاً من الْجَوَاهِر ، لِأَنَّ الْجِسْم يكون كَذَلِك ، وَحِينَئِذٍ يعود الْإِلْزَام الْمَذْكُور . فَثَبت أَنَّ هَذِه السُّورَة من أظهر الدَّلائل علىٰ أنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم وَلَا بجَوْهر ، وَلَا حَاصِل فِي مَكَان وحيِّز .

وَاعْلَم أنَّه كَمَا أَنَّ الْكفَّار لما سَأَلُوا الرَّسُول عَن صفة ربِّه ، وأَجَاب الله بِهَذِهِ السُّورَة الدَّالَّة علىٰ كَونه تَعَالَىٰ منزَّهاً عَن أَن يكون جسماً أَو جوهراً أَو مُخْتَصّاً بِالْمَكَانِ ، فَكَذَلِك فِرْعَوْن سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام عَن صفة الله تَعَالَىٰ ، فَقَالَ : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣] ، ثمَّ إِنَّ مُوسَىٰ لم يذكر الْجَوَاب عَن هَذَا السُّؤَال ، إِلَّا بِكَوْنِهِ تَعَالَىٰ خَالِقاً للنَّاس ومدبراً لَهُم ، وخالقاً للسَّمَوَات وَالْأَرْض ومدبراً لَهما " .

انظر : أساس التقديس (ص٨٧ فما بعدها) .

وقال الإمام الرَّازي أيضاً : " ... بل الْأَقْرَب أَنَّ المجسِّمة كفَّار ، لأَنَّهم اعتقدوا أَنَّ كلّ مَا لَا يكون متحيِّزاً ، وَلَا فِي جِهَة ، فَلَيْسَ بموجود ، وَنحن نعتقد أَنَّ كلّ متحيِّز فَهُوَ مُحدث ، وخالقه مَوْجُود ، لَيْسَ بمتحيِّز ، وَلَا فِي جِهَة ، فالمجسِّمة نفوا ذَات الشَّيْء الَّذِي هُوَ الْإِلَه ، فيلزمهم الْكفْر " . انظر : معالم أصول الدِّين (ص١٣٨) .

وقال الإمام الآمدي (٦٣١هـ) : " ... أنَّه لَا حدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَة ، وَلَيْسَ بجسم وَلَا عَرَض " .

وقال أيضاً : " الْقَاعِدَة الثَّانِيَة : فِي إبطال التَّشْبِيه ، وَبَيَان مَا لَا يجوز علىٰ الله تَعَالَىٰ :

مُعْتَقد أهل الْحق أنَّ الباري لَا يُشبه شَيْئاً من الحادثات ، وَلَا يماثله شيء من الكائنات ، بل هُوَ بِذَاتِهِ مُنْفَرد عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عَرَض ، وَلَا تحلُّه الكائنات ، وَلَا تمازجه الحادثات ، وَلَا لَهُ مَكَان يحويه ، وَلَا زمَان هُوَ فِيهِ ، أوّل لَا قبْل لَهُ ، وَآخر لَا بَعْد لَهُ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] .

وقال أيضاً : " فَإِن قيل : مَا نشاهده من الموجودات لَيْسَ إِلَّا أجساماً وأعراضاً ، وَإِثْبَات قسم ثَالِث مِمَّا لَا نعقله ، وَإِذا كَانَت الموجودات منحصرة فِيمَا ذَكَرْنَاهُ ، فَلَا جَائِز أَن يكون الباري عَرَضاً ، لِأَنَّ الْعَرَض مفتقرٌ إلىٰ الْجِسْم ، والباري لَا يفْتَقر إلىٰ شيء ، وإلا كَانَ المفتقر إِلَيْهِ أشرف مِنْهُ ، وَهُوَ محَال ، وَإِذا بَطل أَن يكون عَرَضاً بقي أَن يكون جسماً .

قُلْنَا : منشأ الْخبط هَهُنَا إِنَّمَا هُوَ من الْوَهم بإعطاء الْغَائِب حكم الشَّاهد ، وَالْحكم علىٰ غير المحسوس بِمَا حُكم بِهِ علىٰ المحسوس ، وَهُوَ كَاذِب غير صَادِق ، فَإِنَّ الْوَهم قد يرتمي إلىٰ أَنَّه لَا جسم إِلَّا فِي مَكَان ، بِنَاء علىٰ الشَّاهد ، وَإِن شهد الْعقل بِأَنَّ الْعَالم لَا فِي مَكَان ، لكَون الْبُرْهَان قد دلَّ علىٰ نهايته ، بل وَقد يشْتَد وهمُ بعض النَّاس بِحَيْثُ يقْضِي بِهِ علىٰ الْعقل ، وَذَلِكَ كمن ينفر عَن الْمبيت فِي بَيت فِيهِ ميِّت لتوهُّمه أنَّه يَتَحَرَّك أَو يقوم ، وإن كَانَ عقله يقْضِي بانتفاء ذَلِك ، فَإِذاً اللبيب من ترك الْوَهم جانباً ، وَلم يتَّخذ غير الْبُرْهَان والدَّلِيل صاحباً . وَإِذا عرف أَن مُسْتَند ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مُجَرّد الْوَهم ، فطريق كشف الخيال إِنَّمَا هُوَ بِالنَّظرِ فِي الْبُرْهَان ، فَإِنَّا قد بَينَّا أَنَّه لَا بُدَّ من مَوْجُود هُوَ مبدأ الكائنات ، وَبينَّا أَنَّه لَا جَائِز أَن يكون لَهُ مثل من الموجودات شَاهداً وَلَا غَائِباً ، وَمَعَ تَسْلِيم هَاتين القاعدتين يتبَيَّن أَنَّ مَا يقْضِي بِهِ الْوَهمُ لَا حَاصِل لَهُ ، ثمَّ وَلَو لزم أَن يكون جسماً كَمَا فِي الشَّاهد ، للَزِمَ أَن يكون حَادِثاً وَهُوَ مُمْتَنع لما سبق . وَلَيْسَ هُوَ أَيْضاً عَرَضاً ، وَإِلَّا لافتقر إلىٰ مقوم يقومه فِي وجوده ، إِذْ الْعَرَض لَا معنىٰ لَهُ إِلَّا مَا وجوده فِي مَوْضُوع ، وَذَلِكَ أَيْضاً مُحَال ... فَإِذاً قد ثَبت أَنَّ الباريٰ تَعَالَىٰ لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عَرَض ، وَلَا مُحدث ... " . انظر : غاية المرام في علم الكلام ، الآمدي (ص٣٤) ، (ص١٧٩) ، (ص١٨٥-١٨٦) بالترتيب .

وقال الإمام أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦هـ) : " ... وأَنَّهُ تعالىٰ منزَّهٌ عن صفاتِ النَّقصِ التي هي أضدادُ تلك الصِّفات ، وعن صفاتِ الأجسامِ والمتحيِّزات ، وأَنَّهُ واحدٌ حقٌّ ، صمدٌ فَرْدٌ ، خالقُ جميعِ المخلوقات ، متصرِّفٌ فيها بما يشاء من التَّصرُّفات " .

وقال أيضاً : " ... فإنَّه منزَّه عن الجسميَّة ولوازمها " .

وقال أيضاً في كلامه عن العرش : " ... وإضافته إلىٰ الله علىٰ جهة الملك أو التَّشريف ، لا لأنَّ الله استقرَّ عليه أو استظلَّ به ، كما قد توهَّمه بعض الجُهَّال في الاستقرار ، وذلك علىٰ الله مُحال ؛ إذ تستحيل عليه الجسميَّة ولواحقها " .

وقال أيضاً : " ونسبة الفوقيَّة المكانيَّة إلىٰ الله تعالىٰ مُحال ؛ لأنَّه منزَّه عن الفوقيَّة ، كما هو منزَّه عن التّحتيَّة ؛ إذ كلّ ذلك من لوازم الأجرام ، وخصائص الأجسام ، ويتقدَّس عنها الذي ليس كمثله شيء من جميع الأنام " .

وقال أيضاً : " وقد شهد العقل والنَّقل : أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن مماثلة الأجسام ، وعن الجوارح المركَّبة من الأعصاب والعظام ، وما جاء في الشَّريعة مِمَّا يوهم شيئاً من ذلك فهو توسُّعٌ ، واستعارة حسب عادات مخاطباتهم الجارية علىٰ ذلك " .

وقال أيضاً : " وممَّا يعلم استحالته : كون العرش حاملاً لله تعالىٰ ، وأنَّ الله تعالىٰ مستقرٌّ عليه كاستقرار الأجسام ؟ إذ لو كان محمولاً لكان محتاجاً فقيراً لما يحمله ، وذلك ينافي وصف الإلهيَّة " .

وقال أيضاً : " وقد ضلَّ بظاهر هذا اللفظ من أذهبَ اللهُ عقلَه ، وأعدَم فهمَه ، وهم المجسِّمة المشبِّهة ، فاعتقدوا : أنَّ لله تعالىٰ رِجلاً من لحم وعصب تُشبه رِجْلنا ، كما اعتقدوا في الله تعالىٰ أنَّه جسم يشبه أجسامنا ذو وجه ، وعينين ، وجنب ، ويد ، ورِجل ، وهكذا ... وهذا ارتكاب جهالة خالفوا بها العقول وأدلَّة الشَّرع المنقول ، وما كان سلف هذه الأُمَّة عليه من التَّنزيه عن المماثلة والتَّشبيه ، وكيف يستقرُّ هذا المذهب الفاسد في قلب من له أدنىٰ فكرة ، ومن العقل أقلّ مسكة ، فإنَّ الأجسام من حيث هي كذلك متساوية في الأحكام العقليَّة ، وما ثبت للشيء ثبت لمثله ، وقد

ثبت لهذه الأجسام الحدوث ، فيلزم عليه أن يكون الله تعالىٰ حادثاً " . انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٦٠) ، (٣/ ٥٩) ، (٣/ ٦٠) ، (١١/ ١١٠) ، (١٢/ ٧٨) (٢٢/ ٣٤) ، (٢٣/ ٥٣) بالترتيب .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) نقلاً عن شيخه أَبُو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦هـ) : " مُتَّبِعُو الْمُتَشَابِهِ لَا يَخْلُو أَنْ يَتَّبِعُوهُ ويجمعوه طلباً للتَّشكيك فِي الْقُرْآنِ وَإِضْلَالِ الْعَوَامِّ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الزَّنَادِقَةُ وَالْقَرَامِطَةُ الطَّاعِنُونَ فِي الْقُرْآنِ ، أَوْ طَلَباً لِاعْتِقَادِ ظَوَاهِرِ الْمُتَشَابِهِ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الْمُجَسِّمَةُ الَّذِينَ جَمَعُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الْجِسْمِيَّةُ حتَّىٰ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَىٰ جِسْمٌ مُجَسَّمٌ ، وصورة مصوَّرة ، ذات وجه ، وعين ، ويد ، وَجَنْبٍ ، وَرِجْلٍ ، وَأُصْبُعٍ ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ ، أَوْ يَتَّبِعُوهُ عَلَىٰ جِهَةِ إِبْدَاءِ تَأْوِيلَاتِهَا وَإِيضَاحِ مَعَانِيهَا ، أَوْ كَمَا فَعَلَ صَبِيغٌ حِينَ أَكْثَرَ عَلَىٰ عُمَرَ فِيهِ السُّؤَالَ ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ :

الْأَوَّلُ: لَا شَكَّ فِي كُفْرِهِمْ ، وَأَنَّ حُكْمَ اللهَّ فِيهِمُ الْقَتْلُ مِنْ غَيْرِ اسْتِتَابَةٍ .

الثَّانِي: الصَّحِيحُ الْقَوْلُ بِتَكْفِيرِهِمْ ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالصُّوَرِ ، وَيُسْتَتَابُونَ فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا كَمَا يُفْعَلُ بِمَنِ ارْتَدَّ .

الثَّالِثُ: اختلفوا في جواز ذلك بناء عَلَىٰ الْخِلَافِ فِي جَوَازِ تَأْوِيلِهَا . وَقَدْ عُرِفَ ، أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ تَرْكُ التَّعَرُّضِ لِتَأْوِيلِهَا مَعَ قَطْعِهِمْ بِاسْتِحَالَةِ ظَوَاهِرِهَا ، فَيَقُولُونَ أَمِرُوهَا كَمَا جَاءَتْ . وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ إِبْدَاءِ تَأْوِيلَاتِهَا وَحَمْلِهَا عَلَىٰ مَا يَصِحُّ حَمْلُهُ فِي اللِّسَانِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ بِتَعْيِينِ مُجْمَلٍ مِنْهَا.

الرَّابِعُ: الْحُكْمُ فِيهِ الْأَدَبُ الْبَلِيغُ ، كَمَا فَعَلَهُ عُمَرُ بِصَبِيغٍ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ مِنَ السَّلَفِ يُعَاقِبُونَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ الْحُرُوفِ الْمُشْكِلَاتِ فِي الْقُرْآنِ ، لِأَنَّ السَّائِلَ إِنْ كَانَ يَبْغِي بِسُؤَالِهِ تَخْلِيدَ الْبِدْعَةِ وَإِثَارَةَ الْفِتْنَةِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِالنَّكِيرِ وَأَعْظَمِ التَّعْزِيرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَقْصِدَهُ فَقَدِ اسْتَحَقَّ الْعَتْبَ بِمَا اجْتَرَمَ مِنَ الذَّنْبِ ، إِذْ أَوْجَدَ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَبِيلاً إِلىٰ أَنْ يَقْصِدُوا ضَعَفَةَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّشْكِيكِ وَالتَّضْلِيلِ فِي تَحْرِيفِ الْقُرْآنِ عَنْ مَنَاهِجِ التَّنْزِيلِ وَحَقَائِقِ التَّأْوِيلِ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٤/ ١٣-١٤) .

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) ، فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) : " وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَوَّر ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدَّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرْض وَلَا تحله الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، ولَيْسَ كمثله شَيْء ، ولا هو مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّمَوَات ، وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ... " . انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٢٣١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد القرطبي (٦٧١هـ) : " وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ عَلَىٰ وَجْهِ الِانْتِقَالِ وَالْحَرَكَةِ وَالزَّوَالِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْرَامِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَىٰ اللهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْأَجْسَامِ عُلُوّاً كَبِيراً " .

وقال أيضاً : " وَلَيْسَ مَجِيئُهُ تَعَالَىٰ حَرَكَةً وَلَا انْتِقَالاً وَلَا زَوَالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّما يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهَراً . وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَئِمَّةِ أَهْلِ السنة أَنَّهم يقولون : يجيء وَيَنْزِلُ وَيَأْتِي ، وَلَا يُكَيِّفُونَ ، لأنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] .

وقال أيضاً : " وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ مُنْتَشِرَةٌ ، مُشِيرَةٌ إِلىٰ الْعُلُوِّ ، لَا يَدْفَعُهَا إِلَّا مُلْحِدٌ أَوْ جَاهِلٌ مُعَانِدٌ . وَالْمُرَادُ بِهَا تَوْقِيرُهُ وَتَنْزِيهُهُ عَنِ السُّفْلِ وَالتَّحْتِ . وَوَصْفُهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ لَا بِالْأَمَاكِنِ وَالْجِهَاتِ وَالْحُدُودِ ، لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْأَجْسَامِ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٣/ ٢٦) ، (٧/ ١٤٥) ، (١٨/ ٢١٦) بالترتيب .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَّجَسُّمُ ، وَلَا اخْتِلَافُ الْأَحْوَالِ " .
انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ٢٥) .

وقال أيضاً : " قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَنْ يَكْفُرُ بِبِدْعَتِهِ لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ وَرَاءَهُ ، وَمَنْ لَا يَكْفُرُ تَصِحُّ ، فَمِمَّنْ يَكْفُرُ مَنْ يُجَسِّمُ تَجْسِيماً صَرِيحاً " . انظر : المجموع شرح المهذب (مع تكملة السُّبكي والمطيعي) (٤/ ٢٥٣) .

وقال الإمام كمال الدِّين السِّيواسي (٦٨١هـ) : " وإن قال : جسمٌ لا كالأجسام ، فهو مبتدع ، لأنَّه ليس فيه إلَّا إطلاق لفظ الجسم عليه ، وهو موهمٌ للنَّقص ، فرفعه بقوله لا كالأجسام ، فلم يبق إلَّا مجرَّد الإطلاق ، وذلك معصية تنتهض سبباً للعقاب ، لما قلنا من الإيهام ، بخلاف ما لو قاله على التَّشبيه ، فإنَّه كافر ، وقيل : يكفر بمجرد الإطلاق أيضاً ، وهو حسن ، بل هو أولى بالتَّكفير " . انظر : شرح فتح القدير (١/ ٣٥٠) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : " لمَّا ثبت بالقواطع العقليَّة والنقليَّة أنَّه تبارك وتعالى منزَّه عن الجسميَّة ، والتحيُّز ، والحلول ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه " . انظر : تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/ ٣٦٤) .

قال الإمام أحمد بن حمدان الحنبلي (٦٩٥هـ) : " ... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ومن شبَّهه بخلقه فقد كفر ، نصَّ عليه أحمد . وكذا من جسَّم ، أو قال : أنَّه جسم لا كالأجسام ، ذكره القاضي " . انظر : نهاية المبتدئين في أصول الدِّين (ص٣١) .

وقد استوعبنا الكثير من أقوال العلماء في تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة في كتابنا : " العُلُوُّ لِلْعَلِيِّ الرَّحْمَن عُلُو مَكَانَةٍ لَا عُلُو مَكَان " ، وكذا في كتابنا : " كَشْفُ الغِطَاءِ عَنْ مَسْأَلَةِ الاسْتِوَاء" ، وكذا في غيرهما من كتبنا ... فلله الحمد والشُّكر والمنَّة ...

وللاستزادة في نفي الجسميَّة عن الله تعالى انظر : تمهيد الأوائل في تلخيص الدَّلائل للباقلاني (ص٢٢٠فما بعدها) ، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٣٣٦) ، شرح مختصر الروضة للإمام سليمان الطُّوفي الصّرصري (٣/ ٦٦١) ، المفاتيح في شرح المصابيح للإمام الحسين بن محمود الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري (٥/ ٥١٤) ، (٥/ ٥١٦) ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩/ ٤٣-٤٤) ، إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل للإمام ابن جماعة (ص٦٤-٦٥) ، (ص١٣٢) ، (ص١٤١) ، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) (٤/ ١٢٠٤) ، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ للإمام الزَّيلعي (١/ ١٣٥) ، البحر المحيط في التفسير للإمام أبي حيَّان الأندلسي (١/ ٥٧٨) ، (٩/ ٤٨٧) ، كتاب المواقف للإمام عضد الدِّين الإيجي (٣/ ٣٨-٣٩) ، (٣/ ١٥٣ ، ١٧٤) ، إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة للإمام صلاح كيكلدي الدِّمشقي (١/ ٢١٩) ، معيد النعم ومبيد النقم للإمام تاج الدِّين السُّبكي (ص٢٥) ، (ص٦٢) ، انظر : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للإمام الكرماني (٢٥/ ١٢٠) ، شرح المقاصد في علم الكلام للإمام سعد الدِّين التَّفتازاني (٣/ ٦٧) ، البرهان في علوم القرآن للإمام الزّركشي (٢/ ٨٣) ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر للإمام ابن خلدون الإشبيلي (١/ ٦٠٥-٦-٦) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام نظام الدِّين الحسن القمِّي النَّيسابوري (١/ ٢١٠) ، (٢/ ١٩٣) ،

(٥/ ٢٣٣) ، (٦/ ٣٤٠) ، فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني (١٣/ ٤٣٢) ، (١٣/ ٣٩٨) ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدِّين العيني (٢٥/ ١٠٢) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن للإمام أبو زيد عبد الرَّحمن الثَّعالبي (٢/ ١٣٤) ، (٢/ ٣٩٩) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام إبراهيم البقاعي (٨/ ٥٨٥) ، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن محمَّد القسطلاني (١٠/ ٢٦٩) ، (١٠/ ٣٨٣) ، (١٠/ ٣٩١) ، البحر الرائق شرح كنز الدقائق للإمام ابن نُجيم المصري (٨/ ٢٠٥) ، ومعه تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري ، وبالحاشية : منحة الخالق لابن عابدين ، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للإمام الشَّربيني الشَّافِعِي (٤/ ٩٧) ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، للإمام علي بن سلطان القارّي (٨/ ٣٥٠٦) ، (٨/ ٣٥٢٨) ، فيض القدير شرح الجامع الصغير للإمام زين الدِّين المناوي (١/ ٧٢) ، (١/ ٥١٤) ، (٣/ ٢٦٤) ، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات للإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (ص١٣٢-١٣٤) ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر للإمام محي الدِّين عبد القادر العَيْدَرُوس (١/ ١٧٥) ، الفتوحات الربّانية على الأذكار النووية للإمام محمَّد بن علاَّن الصِّدِّيقي الشَّافِعِي الأشعري (٣/ ١٩٦) ، حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسِيرِ البَيضَاوِي للإمام أحمد بن محمَّد بن عمر الخفَّاجي (٦/ ٣٧٨) ، (٧/ ٤٣٥) ، (٨/ ٥٧) ، العين والأثر في عقائد أهل الأثر للإمام عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر البعلي الأزهريابن فَقِيه فُصَّة (ص٣٤-٣٥) ، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني للإمام أحمد بن غانم النفراوي الأزهري المالكي (٢/ ٢٨٢) ، روح البيان للإمام إسماعيل حقي الخلوتي (٥/ ٤٦٤) ، (٦/ ٥٥) ، حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع مع السنن) للإمام محمَّد بن عبد الهادي السِّندي ، (٨/ ٢٢٢) ، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية للإمام شمس الدِّين السَّفاريني الحنبلي (١/ ٢٦٣) ، (٢/ ٢٥٥) ، اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين للإمام الزَّبيدي (٢/ ٢٤) ، (٢/ ٩٩) ، (٩/ ٤٧) ، (٩/ ١٢٨) ، التفسير المظهري للإمام محمَّد ثناء الله النَّقشبندي المظهري (١/ ٢٤٩) ، (٥/ ٦) ، رد المحتار على الدر المختار للإمام ابن عابدين الحنفي (١/ ٥٦١) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي(٧/ ٣٤٠) ، (٤/ ١٩٧) ، (٩/ ٣٥٦) ، منح الجليل شرح مختصر خليل للإمام محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش ، أبو عبد الله المالكي (٩/ ٢٠٥-٢٠٦) ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام أبو العلا المباركفوري (٩/ ٢١١) ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) للإمام محمَّد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (٣/ ١٧٥-١٧٦) ، (٣/ ١٨١-١٨٢) ، الفقه على المذاهب الأربعة للإمام عبد الرَّحمن الجزيري (٤/ ٢٠٥) ، (٥/ ٣٧٢) ، مناهل العرفان في علوم القرآن للإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (٢/ ٢٩١-٢٩٣) ، (٢/ ٢٩٧) ، فرقان القرءان بين صفات الخالق وصفات الأكوان للإمام سلامة القضاعي العزامي الشَّافِعِي (ص٧٠-٧١) ، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين للإمام محمَّد العربي بن التبَّاني السمالكي (ص٧٩) ، التحرير والتنوير للإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (٢/ ٢٨٤) ، (٢٣/ ٣٠٣) . تفسير آيات الأحكام للإمام محمَّد علي السَّايس (ص٤٤٩) ، منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق للإمام محمَّد بن السيِّد علوي المالكي الحسني (ص١٧-١٨) ، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبة بن مصطفى الزُّحيلي (٣/ ١٥٧) ، (٢٩/ ٦٩) .

ومن الصِّفات التي يعتقدها المتسلِّفة في الله تعالى :

أَوَّلاً : اعْتِقَادُهُم بِالوَجْهَ الحَقِيْقِي صِفَة لله تَعَالَى :

من الصِّفات التي يعتقدها المتسلِّفة في الله تعالىٰ : الوجه الحقيقي !!!... وإن كانوا راوغوا في ذلك وتمحَّلوا ... ومن أقوال أئمَّتهم في ذلك :

قال الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني : " وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨] نَفْسُهُ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ، وَأَجْمَلُ الْوُجُوهِ وَأَنْوَرُ الْوُجُوهِ، الْمَوْصُوفُ بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الصِّفَةَ غَيْرُ وَجْهِهِ، وَأَنَّ الْوَجْهَ مِنْهُ غَيْرُ الْيَدَيْنِ !!! وَالْيَدَيْنِ مِنْهُ غَيْرِ الْوَجْهِ عَلَى رَغْمِ الزَّنَادِقَةِ والجهميَّة !!! " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (٢/ ٧٠٩)

وقال أيضاً : " ... أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ. نُورُ السَّموات مِنْ نُورِ وَجْهِهِ " ... انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ على الله عز وجل من التوحيد (١/ ٤٧٥) .

وقال أيضاً : " حتَّىٰ يحيا بِهِنَّ وَجْهُ الرَّحمن " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ على الله عز وجل من التوحيد (٢/ ٧١٨) .

وقال الإمام ابن تيمية : " بَلْ إِثْبَاتُ جِنْسِ هَذِهِ الصِّفَاتِ قَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ وَأَئِمَّةُ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْكُلَّابِيَة والكرَّامِيَة وَالْأَشْعَرِيَّةِ كلّ هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ للهِ صِفَةَ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْأَشْعَرِيُّ فِي كِتَابِ الْمَقَالَاتِ أَنَّ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَالَ: أنَّه بِهِ يَقُولُ. فَقَالَ فِي جُمْلَةِ مَقَالَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: " جُمْلَةُ مَقَالَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: الْإِقْرَارُ بِكَذَا وَكَذَا ، وَأَنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَىٰ ، وَأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ بِلَا كَيْفٍ ، كَمَا قَالَ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[ص:٧٥] ، وَكَمَا قَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤] ، وَأَنَّ لَهُ عَيْنَيْنِ بِلَا كَيْفٍ ، كَمَا قَالَ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر:١٤] ، وَأَنَّ لَهُ وَجْهًا كَمَا قَالَ : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧] . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٧٤) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين : " والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيَّته مجهولة !!! لا نعلم كيف وجه الله عزَّ وجلَّ ، كسائر صفاته، لكنَّنا نؤمن بأنَّ له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بالبهاء والعظمة والنُّور العظيم " . انظر : شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٨٣) .

وقال أيضاً : " وأجمع السَّلف على إثبات الوجه لله تعالى فيجب إثباته له بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وهو وجه حقيقي يليق بالله " . انظر : تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص٤٨) .

وقال أيضاً : " فالأصل أنَّ المراد بالوجه المضاف إلى الله وجه الله عزَّ وجلَّ الذي هو صفة من صفاته، لكن هناك كلمة اختلف المفسِّرون فيها، وهي قوله: تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ ، يعني: إلى أيِّ مكان تولُّوا وجوهكم عند الصَّلاة. ﴿فَثَمَّ﴾ ، أي: فهناك وجه الله .

فمنهم من قال: إنَّ الوجه بمعنى الجهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة: ١٤٨] ، فالمراد بالوجه الجهة، أي: فثمَّ جهة الله، أي: فثمَّ الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها.

قالوا: لأنَّها نزلت في حال السَّفر، إذا صلَّى الإنسان النَّافلة، فإنَّه يصلِّي حيث كان وجهه، أو إذا اشتبهت القبلة، فإنَّه يتحرَّى ويصلِّي حيث كان وجهه.

ولكن الصَّحيح !!! أنَّ المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي !!! أي: إلى أي جهة تتوجَّهون فثمَّ وجه الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الله محيط بكلِّ شيء، ولأنَّه ثبت عن النَّبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– «أنَّ المصلي إذا قام يصلِّي فإنَّ الله قِبَل وجهه» ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه؛ لأنَّ الله قِبَل وجهه.

فإذا صلَّيت في مكان لا تدري أين القبلة، واجتهدت وتحرَّيت، وصلَّيت، وصارت القبلة في الواقع خلفك، فالله يكون قِبَل وجهك، حتَّى في هذه الحال. وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية... " .

انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٨/ ٢٤١-٢٤٢) .

وتناقضوا مع بعضهم في هذه المسألة ...

فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة " : " وأمَّا قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فسياق الآية الكريمة يدلُّ على أنَّها في شأن القِبلة، قال ابن عبَّاس: "خرج نفرٌ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، قبل تحويل القِبلة، فأصابهم الضَّباب، وحضرت الصَّلاة، وصلُّوا، وتحرَّوا القِبلة، فلمَّا ذهب الضَّباب، استبان لهم أنَّهم لم يصيبوا، فلمَّا قدِموا سألوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فنَزلت هذه الآية". وقال ابن عمر: "نزلت في المسافر، يصلِّي التَّطوُّع، حيثما توجَّهت به راحلته".

وقال عكرمة: نزلت في تحويل القِبلة. وقال أبوالعالية: عيَّرت اليهود المؤمنين، لما صرفت القبلة، فنَزلت هذه الآية. وقال مجاهد والحسن: نزلت في الدَّاعي، يستقبل أيَّ جهة كان، لأنَّهم قالوا : لَّما نزلت ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] : أين ندعوه؟ قال الكلبي: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] فثمَّ الله يعلم ويرى، والوجه صلة، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] ، أي: إلَّا هو، وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيَّان: فثمَّ قبلة الله، والوجه، والوجهة، والجهة: القبلة... " . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/ ٣٠٥-٣٠٦) .

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهَّاب نقلاً عن وهب بن منبِّه : " فيقول – تبارك وتعالى – عند ذلك: " أنا السَّلام ومنِّي السَّلام وعليكم حقَّت رحمتي ومحبَّتي ، مرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب، وأطاعوا أمري" قال: فيقولون ربَّنا إنا لم نعبدك حقَّ عبادتك، ولم نقدرك حقَّ قدرك فأذن لنا بالسُّجود قدَّامك " . انظر : قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (ص٣٤٨)

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي : " ... قال فيأتون إلى الرَّحمن الرَّحيم فيُسفر لهم عن وجهه الكريم حتَّى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : اللهمَّ أنت السَّلام ومنك السَّلام وحقَّ لك الجلال والإكرام " ... انظر : كتاب التَّوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (ص١٨٧) .

وقد استوعبنا الحديث عن الوجه المضاف إلى الله تعالى من جميع جوانبه في كتابنا : " إِعْلَامُ العَبْدِ الأَوَّاه بِحَقِيْقَةِ الوَجْهِ المُضَافِ إِلَى الله" ، فلله الفضل والحمد والشُّكر ...

ثَانِياً : اعْتِقَادُهُم بِالفَمَ الحَقِقِي صِفَةً لله تَعَالَى :

يُعتبر الفَمُ أحد أجزاء الوجه ، ومن خلاله يَدْخُلُ الطَّعام والشَّراب إلى جسم الإنسان ، وفيه الأسنان واللسان والشَّفتين واللثَّة ... وَالتي تُعتبر جميعها سبيلاً للكلام الذي يتواصل به الإنسان مع الآخرين ...

ومن المعلوم أنَّ المُتسلِّفة يعتقدون بالفم كصفة من صفات الله تعالى ... وبذلك نطقت كتبهم ... فقد جاء في كتاب : " الرَّد على الجهميَّة والزَّنادقة " المنسوب ظلماً وزوراً وبهتاناً للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل بن هلال بن أسد الشَّيباني (٢٤١هـ) : " وحديث الزُّهري قال: لَّما سمع موسى كلام ربِّه قال: يا ربِّ هذا الذي سمعته هو كلامك؟ قال: نعم يا موسى هو كلامي، إنَّما كلَّمتك على قدر ما يُطيق بدنك، ولو كلَّمتك بأكثر من ذلك لِمتَّ.

قال: فلمَّا رجع موسى إلى قومه قالوا له: صف لنا كلام ربِّك، قال: سبحان الله، وهل أستطيع أن أصفه لكم؟! قالوا: فشبِّهه !!! قال: هل سمعتم أصوات الصَّواعق التي تُقبل في أحلى حلاوة سمعتموها، فكأنَّه مثله" . انظر : الرد على الجهمية والزنادقة (ص١٣٧) .

والغريب في الأمر أنَّ الإمام ابن تيمية ارتضى هذا الكلام القبيح المستنكر ، وعلَّق عليه قائلاً : " فقد ذكر أحمد في هذا الكلام: أنَّ الله تعالى يتكلَّم كيف شاء، وذكر فيها استشهد به من الأثر : " أنَّ الله كلَّم موسى عليه السَّلام بقوَّة عشرة آلاف لسان " ، وأنَّ له قوَّة الألسن كلها، وهو أقوى من ذلك، وأنَّه إنَّما كلَّم موسى على قدر ما يطيق، ولو كلَّمه بأكثر من ذلك لمات " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٩٤) .

وقال أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني : " وَأُخْرَىٰ أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ شَيْئاً يُرَىٰ ويحس إِلَّا بِلِسَانِ مُتَكَّلِمٍ بِهِ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٥٤٦) .

وقال أيضاً : " وَهُوَ يَعْلَمُ الْأَلْسِنَةَ كلّها وَيَتكَلَّمُ بِمَا شَاءَ مِنْهَا: إِنْ شَاءَ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَإِنْ شَاءَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَإِن شَاءَ بالسُّرْيَانيَّة " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٥٦٦) .

وقال أيضاً : " قَرَأْتُ عَلَىٰ أَبِي الْيَمَانِ، قُلْتُ: أُخْبِرُكُمْ شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، أَنَّه أَخْبَرَهُ جَزْءُ بْنُ جَابِرٍ الْخَثْعَمِيُّ، أَنَّه سَمِعَ كَعْبَ الْأَحْبَارِ، يَقُولُ: " لَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ بِالْأَلْسِنَةِ كلّها قَبْلَ لِسَانِهِ، طَفِقَ مُوسَىٰ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، مَا أَفْقَهُ هَذَا، حتَّىٰ كَلَّمَهُ آخِرَ الْأَلْسِنَةِ بِلِسَانِهِ بِمِثْلِ صَوْتِهِ، يَعْنِي بِمِثْلِ لِسَانِ مُوسَىٰ، وَبِمِثْلِ صَوْتِ مُوسَىٰ ...

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رَحِمَهُ اللهُ: فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ قَدْ رُوِيَتْ، وَأَكْثَرُ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُهَا، كلّها مُوَافِقَةٌ لِكِتَابِ اللهَّ فِي الْإِيمَانِ بِكَلَامِ اللهَّ، وَلَوْلَا مَا اخْتَرَعَ هَؤُلَاءِ الزَّائِغَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُغْلُوطَاتِ وَالْمَعَانِي يَرُدُّونَ بِهَا صِفَاتِ اللهَّ، وَيُبَدِّلُونَ بِهَا كَلَامَهُ، لَكَانَ مَا ذَكَرَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ كَافِيًا لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، مَعَ أَنَّه كَمَيْلٍ شَافٍ إِلَّا لِمُتَأَوِّلٍ ضَلَالٍ، أَوْ مُتَّبِعِ رِيبَةٍ، فَحِينَ رَأَيْنَا ذَلِكَ أَلَّفْنَا هَذِهِ الْآثَارِ عَنْ رَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لِيَعْلَمَ مَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاس أَنَّ مَنْ مَضَىٰ مِنَ الْأُمَّةِ لَمْ يَزَالُوا يَقُولُونَ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَعْرِفُونَ لَهُ تَأْوِيلًا غَيْرَ مَا يُتْلَىٰ مِنْ ظَاهِرِهِ أَنَّه كَلَامُ الرَّحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حتَّىٰ نَبَغَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اقْتَرَبُوا لَرَدِّ كِتَابِ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَعْطِيلِ كَلَامِهِ وَصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِهَذِهِ الْأُغْلُوطَاتِ " . انظر : الرد علىٰ الجهمية (١/ ٥٤٦) ، (ص١٧٨-١٧٩) بالترتيب .

وفي كتاب " السُّنَّة " المنسوب للإمام عبد الله بن أحمد : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ، قَالَ: «مُشَافَهَةً مِرَارًا» . انظر : السنة (١/ ٢٨٥) .

وقال الإمام ابن أبي يعلىٰ الفرَّاء (٥٢٦هـ) : ﴿عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤] ، من فِيْه ، وناوله التَّوراة من يده إلىٰ يده " . انظر : طبقات الحنابلة (١/ ٢٩) .

وقال أيضاً : " حديث آخر : رَوَاهُ أَبُو بكر أحمد بْن سليمان النجاد فِي السنَّة، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْن أحمد قَالَ: نا معمر، قَالَ: نا وكيع، عَن مُوسَىٰ بْن عبيد، عَن محمَّد بْن كعب، قَالَ: كأنَّ النَّاس إِذَا سمعوا القرآن من فِيِّ الرَّحمن عزَّ وجلَّ يوم القيامة، فكأنَّهم لَمْ يسمعوه قبل ذلك .

وناه أَبُو محمَّد الحسن بْن محمد، قَالَ: نا عمر بْن أحمد بْن عثمان، قَالَ: نا محمَّد بْن هارون بْن حميد، قَالَ: نا عثمان بْن أَبِي شيبة، قَالَ: نا وكيع، قَالَ: نا مُوسَىٰ بْن عبيدة، قَالَ: سمعت محمَّد بْن كعب القرظي يقول: إِذَا سمع القرآن من فِيِّ الرَّحمن فِي القيامة فكأنَّهم لَمْ يسمعوه قبل ذلك .

ونا أَبُو القسم عبد العزيز بِإِسْنَادِهِ، عَن أَبِي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كأنَّ الخلق لَمْ يسمعوا القرآن حين سمعوه من فِيْهِ يوم القيامة " . اعلم أنَّه غير ممتنع إطلاق الفيِّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا لَمْ يمتنع إطلاق اليد والوجه والعين . وقد نصَّ أحمد عَلَىٰ ذلك فِي رسالة أَبِي العبَّاس أحمد بْن جعفر الفارسي ، فَقَالَ: كلَّم اللهَّ مُوسَىٰ تكليماً من فِيْهِ ، فإن قِيلَ: هَذَا الحديث ضعيف يرويه مُوسَىٰ بْن عبيدة، وَقَالَ يَحْيَىٰ بْن سعيد القطان: مُوسَىٰ بْن عبيدة ضعيف ، قيل: هَذَا غلط، لأَنَّ مُوسَىٰ بْن عبيدة رجل من أهل الرّبذة لا بأس به، وقد روي عَنْهُ وكيع وَهُوَ من أئمَّة أصحاب الحديث وأمَّا محمَّد بْن كعب: فهو من علماء التَّابعين بالتَّفسير والفتيا، وأبوه كعب بْن سليمان من الصَّحابة .

فإن قِيلَ: فنتأوَّل قوله: " من فِيِّ الرَّحمن " معناه من الرَّحمن ، قيل: هَذَا غلط، لأَنَّه يتضمَّن حذف صفة قد ورد الخبر بها، وعلىٰ أنَّه إن جاز هَذَا التَّأويل وجب مثله فِي قوله : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾[ص:٧٥] معناه بذاتي ويكون ذكر اليد زائد . وكذلك قوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[الرحمن:٢٧] ، وقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص:٨٨] المراد به: ذاته، وليس المراد به الوجه الَّذِي هُوَ صفة، ولَمَّا لَمْ يجز هَذَا هناك كذلك ها هنا، ولأنَّ هَذَا يؤدِّي إلىٰ جواز القول بأنَّ لله فِيٍّ ، وأنَّه يجوز أن يدعىٰ فيقال: يَا فِيِّ اغفر لنا، وَهَذَا لا يجوز، فامتنع أَنْ يَكُونَ المراد بالفِيِّ الذَّات، لأنَّه لا يجوز وصفه ودعاءه بذلك " ... انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٨٧-٣٨٩) .

ثَالِثَاً : اعْتِقَادُهُم بِالعَيْنَيْن الحَقِيْقِيَّتَيْنِ صِفَةً لله تَعَالَى :

من يقرأ في كُتُب المتسلِّفة يعلم أنَّهم يُثبتون لله تعالىٰ عينين اثنتين حقيقيَّتين ...

قال الشَّيخ ابن باز : " وأنَّ له عينين بلا كيف ، كما قال سبحانه: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ . انظر : مجموع فتاوىٰ العلامة عبد العزيز بن باز (٤/ ٢٧٨) .

وجاء في فتاوىٰ ابن باز أيضاً : " صفة العينين لله تعالىٰ .

س: قال السَّلف: إنَّ الله تعالىٰ له عينان، ولكن في النَّص أحياناً يذكر الجمع وأحياناً يذكر المفرد، ولكنَّنا نعرف أنَّ الله تعالىٰ له عينان فأين الدليل؟

ج: الله سبحانه موصوف بأنَّ له عينين، وأنَّه ليس بأعور خلافاً للدجَّال فإنَّه أعور العين اليمنىٰ. والمثنَّىٰ قد يُطلق عليه الجمع باللغة العربيَّة، كما قال سبحانه في سورة التَّحريم: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم:٤]، والمراد: قلبكما.

فعبَّر عن المثنَّىٰ بالجمع، وهكذا قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] ، والمراد يداهما، وبذلك يزول الإشكال في قول الله سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[الطور:٤٨] ، وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾[القمر:١٤] ، والله وليُّ التَّوفيق " . انظر : مجموع فتاوىٰ العلامة عبد العزيز بن باز (٢٨/ ٣٩٥-٣٩٦) ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، أشرف علىٰ جمعه وطبعه: محمَّد بن سعد الشويعر .

والحقّ أن كلام الشَّيخ ابن باز ليس في مكانه ... فقوله تعالىٰ : ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ بالجمع دون التَّثنية سببه في العربيَّة كراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد ، فراراً من اجتماع المتجانسين ، وهذا لا يجوز إلَّا في الشِّعر ، قال الإمام أبو حيَّان : " وَأَتَىٰ بِالْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ وَحَسَّنَ ذَلِكَ إِضَافَتُهُ إِلَىٰ مُثَنَّىٰ، وَهُوَ ضَمِيرَاهُمَا، وَالْجَمْعُ فِي مِثْلِ هَذَا أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا مِنَ الْمُثَنَّىٰ، وَالتَّثْنِيَةُ دُونَ الْجَمْعِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذَ كَنَوَافِذِ الْعُبُطِ الَّتِي لَا تُرْقَعُ

وَهَذَا كَانَ الْقِيَاسَ، وَذَلِكَ أَنْ يُعَبَّرَ بِالْمُثَنَّىٰ عَنِ الْمُثَنَّىٰ، لَكِنْ كَرِهُوا اجْتِمَاعَ تَثْنِيَتَيْنِ فَعَدَلُوا إِلَى الْجَمْعِ، لِأَنَّ التَّثْنِيَةَ جَمْعٌ فِي الْمَعْنَىٰ، وَالْإِفْرَادُ لَا يَجُوزُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا إِلَّا فِي الشِّعْرِ!!! كَقَوْلِهِ: حَمَامَةَ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرَنَّمِي يُرِيدُ: بَطْنَي " . انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢١٠-٢١١) .

وقال الإمام الفرَّاء : " وإنَّما اختير الجمع عَلَىٰ التَّثنية لأنَّ أكثر ما تكون عَلَيْهِ الجوارح اثنين فِي الأنْسَان: اليدين والرِّجلين والعينين. فلمّا جرىٰ أكثره عَلَىٰ هَذَا ذهب بالواحد منه إِذَا أضيفَ إِلىٰ اثنين مذهب التَّثنية " . انظر : معاني القرآن (١/ ٣٠٧) .

وقال الإمام القرطبي : " وَلَمْ يَقُلْ: فَقَدْ صَغَىٰ قلبا كما، وَمِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ إِذَا ذَكَرُوا الشَّيْئَيْنِ، مِنَ اثْنَيْنِ جَمَعُوهُمَا، لأَنَّه لَا يُشْكِلُ " . انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ١٨٨).

وقال أيضاً : " قال الخليل بن أحمد والفراء: كلّ شي يُوجَدُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ اثْنَيْنِ جُمِعَ تَقُولُ: هُشِّمَتْ رُءُوسُهُمَا وَأُشْبِعَتْ بُطُونُهُمَا، ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[التحريم: ٤] ، ولهذا قال:" فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا" وَلَمْ يَقُلْ يَدَيْهِمَا. وَالْمُرَادُ فَاقْطَعُوا يَمِينًا مِنْ هَذَا وَيَمِينًا مِنْ هَذَا. وَيَجُوزُ فِي اللُّغَةِ، فَاقْطَعُوا يَدَيْهِمَا وَهُوَ الْأَصْلُ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ فَجَمَعَ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ:

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ

وَقِيلَ: فُعِلَ هَذَا لأَنَّه لَا يُشْكِلُ " . انظر : تفسير القرطبي (٦/ ١٧٣-١٧٤).

وجاء في مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين : " ونؤمن بأن لله تعالىٰ عينين اثنتين حقيقيتين لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[هود:٣٧] .

وجاء فيها أيضاً : " الباب السَّادس عشر: في عيني الله تعالىٰ . مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ لله عينين، اثنتين، ينظر بهما حقيقة علىٰ الوجه اللائق به. وهما من الصِّفات الذَّاتيَّة الثَّابتة بالكتاب، والسُّنَّة " .

وجاء فيها أيضاً : " وقد دلَّ الحديث الصَّحيح عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ لله عينين اثنتين فقط، حين وصف الدجَّال وقال: «إنَّه أعور، وإنَّ ربَّكم ليس بأعور» ، وفي لفظ: «أعور العين اليمنىٰ» .

وقد قال بعض النَّاس: معنىٰ (أعور) ، أي: معيب، وليس من عور العين!!

وهذا لا شكَّ أنَّه تحريف وتجاهل للفظ الصَّحيح الذي في البخاري وغيره: «أعور العين اليمنىٰ، كأنَّ عينه عنبة طافية» وهذا واضح.

ولا يقال أيضًا: (أعور) باللغة العربيَّة، إلَّا لعور العين، أمَّا إذا قيل: (عور) أو (عوار) ، فربما يراد به مطلق العيب.

وهذا الحديث يدلُّ علىٰ أنَّ لله تعالىٰ عينين اثنتين فقط.

ووجه الدّلالة أنَّه لو كان لله أكثر من اثنتين، لكان البيان به أوضح من البيان بالعور؛ لأنَّه لو كان لله أكثر من عينين لقال: إنَّ ربكم له أعين؛ لأنَّه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين صار وضوح أنَّ الدجَّال ليس بربّ أبين.

وأيضًا: لو كان لله – عزَّ وجلَّ – أكثر من عينين لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويتًا للثَّناء على الله؛ لأنَّ الكثرة تدلُّ على القوَّة والكمال والتَّمام، فلو كان لله أكثر من عينين لبيَّنها الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لئلَّا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال وهو الزَّائد على العينين الثِّنتين .

وذكر ابن القيِّم –رحمه الله –في كتابه "الصَّواعق المرسلة" حديثًا، لكنَّه ضعيف؛ لانقطاعه، وهو: «إنَّ العبد إذا قام في الصَّلاة قام بين عيني الرَّحمن ... » . "عيني" هذه تثنية، لكن الحديث ضعيف، واعتمادنا في عقيدتنا هذه على الحديث الصَّحيح، حديث الدجَّال؛ لأنَّه واضح لمن تأمَّله.

ولقد ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدَّارمي –رحمه الله –في "ردِّه على بشر المريسي "، وكذلك أيضًا ذكره ابن خزيمة في "كتاب التَّوحيد"، وذكر أيضًا إجماع السَّلف على ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله، وأبو بكر الباقلَّاني، والأمر في هذا واضح. فعقيدتنا التي ندين لله بها: أنَّ لله تعالى عينين اثنتين، لا زيادة " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٣/ ٢٣٤) ، (٤/ ٥٨) ، (٨/ ٢٦٣-٢٦٤) بالترتيب .

وككلامه السَّابق ... فإنَّ كلامه هنا مُغاير للحقيقة ... فاستشهاده بحديث الدجَّال لإثبات عينين للحقّ جلَّ وعلا استشهاد ليس في مكانه لأنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أراد وصف الله تعالى بأنَّه لا يجوز عليه النَّقص ، ولم يُرد إثبات جارحة ... قال الإمام ابن الجوزي : " قال العلماء : إنَّما أراد تحقيق وصفه بأنَّه لا يجوز عليه النَّقص ، والعور نقصٌ ، ولم يُرد إثبات جارحة ، لأنَّه لا مدح في إثبات جارحة . قال ابن عقيل يحسب بعض الجهلة أنَّه لمَّا نفى العور عن الله عزَّ وجلَّ أثبت من دليل الخطاب أنَّه ذو عينين ، وهذا بعيدٌ من الفهم إنَّما نفى عنه العور من حيث نفي النَّقائص ، كأنَّه قال : ربُّكم ليس بذي جوارح تتسلَّط عليه النَّقائص ، وهذا مثل نفي الولد عنه لأنَّه يستحيل عليه التَّجزئ ، ولو كانت الإشارة إلى صورة كاملة لم يكن في ذلك دليل على الألوهيَّة ولا القِدَم ، فإنَّ

الكامل في الصُّورة كثير ، قال : ومن قال بدليل الخطاب فأثبت عينين ، قيل له : دليل الخطاب مختلفٌ في كونه دليلاً في أحكام الفقه وفروع الدِّين فكيف بأصوله ، ثمَّ هو عند من اعتقده حجَّة يقضي عليه معنىٰ النُّطق وهو القياس المظنون ، فكيف يكون له حكم الدَّليل وقد قضىٰ عليه دليل العقل بالرَّد " . انظر : دفع شُبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٦٣-٢٦٤) .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني : " قَالَ بن بَطَّالٍ احْتَجَّتِ الْمُجَسِّمَةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ عَيْنِهِ دَلَالَةً عَلَىٰ أَنَّ عَيْنَهُ كَسَائِرِ الْأَعْيُنِ وَتُعُقِّبَ بِاسْتِحَالَةِ الْجِسْمِيَّةِ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْجِسْمَ حَادِثٌ وَهُوَ قَدِيمٌ فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ نَفْيُ النَّقْصِ عَنْهُ ... وَلَمْ أَرَ فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنَ الشُّرَّاحِ فِي حَمْلِ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَىٰ مَعْنًىٰ خَطَرَ لِي فِيهِ إِثْبَاتُ التَّنْزِيهِ وَحَسْمُ مَادَّةِ التَّشْبِيهِ عَنْهُ وَهُوَ أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَىٰ عَيْنِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عَيْنِ الدَّجَّالِ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَحِيحَةً مِثْلَ هَذِهِ ثمَّ طَرَأَ عَلَيْهَا الْعَوَرُ لِزِيَادَةِ كَذِبِهِ فِي دَعْوَىٰ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ أنَّه كَانَ صَحِيحَ الْعَيْنِ مِثْلَ هَذِهِ فَطَرَأَ عَلَيْهَا النَّقْصُ وَلم يسْتَطع دفع ذَلِك عَن نَفسه " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٣٩٠) .

رَابِعاً : اعْتِقَادُهُم بِاليَدَ وَالقَبْضَةَ وَاليَمِيْنَ وَالكَفَّيْن وَالأَصَابِعَ الحَقِيْقِيَّةِ صِفَات لله تَعَالَىٰ :

قال إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : " وَيَدَ اللهِ غَيْرُ آدَمَ فَأَكَّدَ اللهُ لِآدَمَ الْفَضِيلَةَ الَّتِي كَرَّمَهُ وَشَرَّفَهُ بِهَا، وَآثَرَهُ عَلَىٰ جَمِيـــعِ عِبَادِهِ إِذْ كلّ عِبَادِهِ، خَلَقَهُمْ بِغَيْرِ مَسِيسٍ بِيَدٍ، وَخَلَقَ آدَمَ بِمَسِيسٍ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عز وجل من التوحيد (١/ ٢٣٢) .

وقال أيضاً : " عَن أبي بكر الصديق رَضِي الله عَنهُ قَالَ: "خلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فكَانُوا فِي قَبْضَتِهِ، فَقَالَ لِمَنْ فِي يَمِينِهِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ ، وَقَالَ لِمَنْ فِي الْأُخْرَىٰ: ادخلوا النَّار وَلَا أُبَالِي " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عز وجل من التوحيد (١/ ٢٦٩) .

وقال أيضاً : " وَقَدْ قُلْنَا: يَكْفِينَا فِي مَسِّ اللهِ آدَمَ بِيَدِهِ " .

وقال أيضاً : " يَعْنِي أَنَّ اللهَ بِخِلَافِهِمْ، لَهُ يَد يبطش بهَا، وَعين يبصر بِهَا، وَسَمْعٌ يَسْمَعُ بِهِ " .

وقال أيضاً : " فيُقال لِهَذَا الثَّلْجِيِّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ عَن الله بِهَذِهِ الضَّلالات يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ خَلَقَ بِهِمَا آدَمَ وَيْلَكَ أَيُّهَا الثَّلْجِيُّ! إِنَّ تَفْسِيرَهُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ بِيَدِ اللهِ نَفْسِهِ، وَأَنَّ يَمِينَ اللهِ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ غَيْرُ بَائِنٍ مِنْهُ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢٣٢) ، (١/ ٢٩١) ، (١/ ٣٠٦) ، (٢/ ٦٩٥) بالترتيب .

وجاء في مجموع فتاوى ابن تيمية منسوباً للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فَيَأْخُذُ رَبُّك بِيَدِهِ غَرْفَةً مِنْ الْمَاءِ فَيَنْضَحُ قِبَلَكُمْ فَلَعَمْرُ إلَهِك مَا يُخْطِئُ وَجْهَ أَحَدِكُمْ مِنْهَا قَطْرَةٌ " . انظر : مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٤) .

وقال الإمام عثمان الدَّارمي : " حتَّى يأذن الله لي برفع رأسي فأرفع ثمَّ أقوم وجبريل عن يمين الرَّحمن " . انظر : الرد على الجهمية (ص١١١) .

وقال أيضاً : " فَكَيْفَ تُشَبِّهُ اللهَ فِي يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ خَلَقَ بِهِمَا آدَمَ بِأَقْطَعَ مَجْذُومِ الْيَدَيْنِ مِنَ الْمَنْكِبَيْنِ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد (١/ ٢٣٥) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين : " وعلى كلّ فإنَّ يديه سبحانه اثنتان بلا شكٍّ، وكلّ واحدة غير الأخرى ، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشِّمال فليس المراد أنَّها أنقص من اليد اليمنى بل كلتا يديه يمين. والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نؤمن بها، وإن لم تثبت فنقول: كلتا يديه يمين " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٦٥) .

وقال المدعو محمَّد خليل هرَّاس في تعليقه على كتاب التَّوحيد لابن خزيمة : " فإنَّ القبض إنَّما يكون باليد الحقيقيَّة !!! لا بالنِّعمة ، فإن قالوا : إنَّ الباء هنا للسَّببيَّة أي بسبب إرادته الإنعام ، قلنا لهم: بماذا قبض؟!!! فإنَّ القبض محتاج إلى آلة !!! فلا مناص لهم لو أنصفوا من أنفسهم إلَّا أن يعترفوا بثبوت ما صرَّح به الكتاب والسُّنَّة " . انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص٦٤) .

وقال أيضاً " وهذه الآية صريحة في إثبات اليد ، فإنَّ الله يُخبر فيها أنَّ يده تكون فوق أيدي المبايعين لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا شكَّ أنَّ المبايعة إنَّما تكون بالأيدي لا بالنِّعم ولا بالقدر" . انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (١/ ١٦٥) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين : " وعلىٰ كلّ فإنَّ يديه سبحانه اثنتان بلا شكٍّ ، وكلّ واحدة غير الأخرىٰ ، وإذا وصفنا اليد الأخرىٰ بالشِّمال فليس المراد أنَّها أنقص من اليد اليمنىٰ بل كلتا يديه يمين " . انظر : مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٦٥) ....

وقال القاضي أبو يعلىٰ : " إثبات صفة الأصابع للرَّحمن سُبْحَانَهُ ... اعلم أنَّه غير ممتنع حمل الخبر عَلَىٰ ظاهره فِي إثبات الأصابع والسبَّابة والتي تليها عَلَىٰ مَا روي فِي حديث جابر، إذ ليس فِي حمله عَلَىٰ ظاهره مَا يحيل صفاته ، وَلا يخرجها عمَّا تستحقُّه، لما بينا فِي الخبر الَّذِي قبله، لأنَّا لا نثبت أصابعاً هِيَ جارحة وَلا أبعاضاً ... اعلم أنَّه غير ممتنع حمل الخبر عَلَىٰ ظاهره، وأنَّ الإصبع صفة ترجع إلىٰ الذَّات، وأنَّه تجوز الإشارة فيها بيده ..." . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣١١-٣٢٢ باختصار) .

وقد ردَّ الإمام ابن الجوزي علىٰ القاضي في هذه المسألة ، فقال : " وقال القاضي أبو يعلىٰ غير ممتنع حمل الخبر علىٰ ظاهره في الإثبات ، والإصبع صفة راجعة إلىٰ الذَّات لأنَّا لا نثبت أصابعاً هي جارحة ولا أبعاضاً .

قلت : وهذا كلام مخبط لأنَّه إمَّا أن يثبت جوارحاً وإمَّا أن يتأوَّلها ، فأمَّا حملها علىٰ ظواهرها فظواهرها الجوارح ، ثمَّ يقول : ليست أبعاضاً ، فهذا كلام قائم قاعد ويضيع الخطاب لمن يقول هذا " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٠٧) .

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ..

خَامِسَاً : اعْتِقَادُهُم بِالسَّاعِدِ الحَقِيْقِي صِفَةً لله تَعَالَىٰ :

قال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " اعلم أنَّه غير ممتنع حمل الخبر عَلَىٰ ظاهره فِي إثبات " السَّاعد " صفة لذاته، كَمَا حملنا قوله تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥] عَلَىٰ ظاهره، وأنَّها صفة ذات إذ ليس فِي ذلك مَا يحيل صفاته، لأنَّا لا نحمله عَلَىٰ ساعد هُوَ جارحة، بل صفة ذات لا نعقلها، كَمَا أثبتنا ذاتاً لا كالذَّوات فإن قِيلَ: المراد بالسَّاعد ها هنا: القوَّة، فعبر عنها بالسَّاعد لأنَّه محل للقوَّة، وقد يعبر عَن الشَّيء بمحله كَمَا سمت العرب

البصر: عينا، والسَّمع: أذنا، كذلك تسمَّىٰ القدرة ساعداً، وَمِنْهُ يقال: جمعت هَذَا المال بقوَّة ساعدي، ويراد به بالتَّدبير والقوَّة دون المباشرة بالسَّاعد قيل: هَذَا غلط، لأَنَّه يوجب حمل قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥] معناه بالقدرة ... وإنما لَمْ يجب حمل الموسىٰ عَلَىٰ أَنَّه صفة للذَّات كالسَّاعد لأَنَّ الموسىٰ آلة، والآلات لا تكون صفاتاً للذَّات، وليس كذلك السَّاعد، لأَنَّه قد يكون من صفات الذَّات بدليل كونه صفة للذَّات فِي الشَّاهد، فإذا ورد الشَّرع بإضافته، لَمْ يمتنع حمله عَلَىٰ ظاهره، كَمَا لَمْ يمتنع حمل اليد والوجه عَلَىٰ ظاهره " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٤٤-٣٤٦ باختصار) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليه : " قال القاضي أبو يعلىٰ : لا يمتنع حمل الخبر علىٰ ظاهرة في إثبات السَّاعد صفة لذاته .

قلت : وهذا منه غفلة عامية وخروج عن مقتضىٰ الفهم، وكان ينبغي أن يثبت الموسىٰ .

قلت : إثبات صفة الله بهذا الخبر الذي لا يكاد يثبت مع الإعراض عن فهم خطاب العرب وأنَّها تريد بمثل هذا التَّجوُّز والإستعارة قبيح جداً .

والمراد بالسَّاعد : القوَّة لأنَّ قوَّة الإنسان في ساعده " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢١٦) .

سَادِسَاً : اعْتِقَادُهُم بِالخِنْصَرُ الحَقِيْقِي صِفَةً لله تَعَالَىٰ :

قال القاضي أبو يعلىٰ ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " ... فِي الخنصر: وَهُوَ عَلَىٰ ظاهره، إذ ليس فِي حمله عَلَىٰ ذلك مَا يحيل صفاته، وأنَّ الخنصر كالإصبع، والإصبع كاليد، وقد جاز إطلاق اليدين، كذلك ها هنا يجب أن يجوز لا عَلَىٰ وجه التَّبعيض والعضو ... " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٣٥) .

وروىٰ أحمد بسنده من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[الأعراف: ١٤٣] قَالَ: " قَالَ: هَكَذَا، يَعْنِي أَنَّه أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصَرِ " قَالَ: أَبِي: " أَرَانَاهُ مُعَاذٌ " قَالَ: فَقَالَ لَهُ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ: مَا تُرِيدُ إِلىٰ هَذَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْدُ؟ وَمَا أَنْتَ يَا حُمَيْدُ، يُحَدِّثُنِي بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَقُولُ أَنْتَ مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ " . أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٢٨١ برقم ١٢٢٦٠) .

قال الإمام ابن الجوزي : " قلت هذا الحديث تكلَّم فيه علماء الحديث وقالوا لم يروه عن ثابت غير حمَّاد بن سلمة ، وكان ابن أبي العوجاء الزِّنديق قد أدخل على حمَّاد أشياء فرواها في آخر عمره ، ولذلك تجافى أصحاب الصَّحيح الإخراج عنه ، ومخرج الحديث سهل وذلك أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرِّب إلى الإفهام بذكر الحسيَّات فوضع يده على خنصره إشارة إلى أنَّ الله تعالى أظهر اليسير من آياته .

قال ابن عقيل : كشف من أنواره التي يملكها بقدر طرف الخنصر ، وهذا تقدير لنا بحسب ما نفهم من القلَّة لا نحكم أنَّه يتقدَّر فإن قيل كيف أنكر حميد على ثابت ، قلنا : يحتمل أن يكون توهَّم أنَّ هذا يرجع إلى الصِّفات . وقد أثبت القاضي أبو يعلى لله سبحانه خنصراً بهذا الحديث المعلول " .

انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢١٥) ...

سَابِعَاً : اعْتِقَادُهُم بِالقَدَمَ الحَقِيْقِيَّةِ صِفَةً لله تَعَالَى :

قال الإمام أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمَّد بن محمَّد (٥٢٦هـ) : " والله عزَّ وجلَّ على العرش والكرسي موضع قدميه ، وهو يعلم ما في السَّموات والأرضين السَّبع وما بينهما وما تحت الثَّرى " . انظر : طبقات الحنابلة (١/ ٢٨) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) : " والسَّماوات والأرض كلّها بالنِّسبة للكرسي موضع القدمين كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٦٦) .

وقال أيضاً : " الكرسي موضع قدمي الرَّحمن سبحانه وتعالى وعظمته ، كما جاء في الحديث : «ما السَّموات السَّبع والأرضون السَّبع بالنِّسبة إلى الكرسي إلَّا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإنَّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» . وهذا يدلُّ على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، والكرسي غير العرش؛ لأنَّ الكرسي موضع القدمين " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٤/ ٢٦٧) .

وقال ابن عثيمين أيضاً : " و «الكرسي» هو موضع قدميّ الله عزَّ وجلَّ؛ وهو بين يدي العرش كالمقدِّمة له؛ وقد صحَّ ذلك عن ابن عبَّاس موقوفاً ، ومثل هذا له حكم الرَّفع !!! لأنَّه لا مجال

للاجتهاد فيه؛ وما قيل من أنَّ ابن عبَّاس رضي الله عنهما يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحَّة له؛ بل الذي صحَّ عنه في البخاري أنَّه كان ينهىٰ عن الأخذ عن بني إسرائيل؛ فأهل السُّنَّة والجماعة عامَّتهم علىٰ أنَّ الكرسي موضع قدميّ الله عزَّ وجلَّ؛ وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيِّم، وغيرهما من أهل العلم، وأئمَّة التَّحقيق؛ وقد قيل: إنَّ «الكرسي» هو العرش؛ ولكن ليس بصحيح؛ فإنَّ «العرش» أعظم، وأوسع، وأبلغ إحاطة من الكرسي؛ وروي عن ابن عبَّاس أنَّ كرسيّه: علمه؛ ولكن هذه الرِّواية أظنها !!! لا تصحُّ عن ابن عبَّاس ؛ لأنَّه لا يعرف هذا المعنىٰ لهذه الكلمة في اللغة العربيَّة، ولا في الحقيقة الشَّرعيَّة؛ فهو بعيد جداً من أن يصحّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ فالكرسي موضع القدمين" . انظر : تفسير الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٥٥) .

قلت : وفي تحقيقه وتخريجه لمقولة : " الكرسي موضع القدمين " أغنانا الأستاذ حسن السَّقَّاف عناء البحث في المسألة وحكم عليها بالشُّذوذ والبطلان وانقطاع الإسناد... قال : " ... ولنشرع الآن في بيان الرِّواية عن أبي موسىٰ الأشعري وابن عبَّاس في أنَّ الكرسي موضع القدمين ، فنقول وبالله تعالىٰ التَّوفيق:

أمَّا الرِّواية عن أبي موسىٰ الأشعري في ذلك: فروىٰ ابن جرير في " تفسيره" (٣/٩-١٠) ، والبيهقي في "الأسماء والصِّفات" (ص٤٠٤) من طريق سلمة بن كهيل، عن عمارة بن عمير، عن أبي موسىٰ الأشعري قال: الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرَّحل. وعمارة بن عمير لم يُدرك أبا موسىٰ الأشعري، وإنَّما روىٰ عن ولده إبراهيم بن أبي موسىٰ كما في ترجمته في "تهذيب الكمال" (٢١/ ٢٥٦) ، و"تهذيب التهذيب" (٧/ ٣٦٩) ، فالإسناد منقطع. وورد في ترجمة بعض أولاد أبي موسىٰ الأشعري وهو أبو بردة أنَّه روىٰ عن عبدالله بن سلام كما في "تهذيب الكمال" (٣٣/ ٦٦) ، وروايته عنه في البخاري (٣٨١٤ و٧٣٤٢) ، فعندي أنَّ هذا ممَّا وصل إلىٰ ابن عمير من الإسرائيليَّات المنقولة عن عبدالله بن سلام ثمَّ صير قولاً لأبي موسىٰ!! ...

ومن تطاول الألباني أنَّه زعم في "مختصر العلو" (ص١٢٤) بأنَّ إسناد أثر أبي موسىٰ هذا (الكرسي موضع القدمين) صحيح فقال هنالك: " قلت: وإسناده موقوف صحيح " !! وهذا خطأ فاحش

وخلط لا مثيل له لأنَّ السَّند منقطع! وقد خالفه محقِّق " كتاب السُّنَّة" لابن أحمد ، فإنَّه قال هناك (١/ ٣٠٢) : "في إسناده انقطاع لأنَّ عمارة لم يدرك أبا موسىٰ" . ثمَّ إنَّ الألباني وقع في ورطة ومزلق سحيق ، فقد تناقض مع نفسه في تخريج هذا الأثر في "ضعيفته" (٢/ ٣٠٧) في تخريج الحديث رقم (٩٠٦) !! وكنت قد بينت ذلك في كتاب "تناقضات الألباني الواضحات" (٢/ ٢٨٩-٢٩١) فارجع إليه!! فخلاصة المقال : أنَّ هذا الأثر لا يثبت عن أبي موسىٰ وهو مُنكر ومنقطع الإسناد !

وأمَّا الرِّواية عن ابن عبَّاس في ذلك: فمن المعروف عند أهل العلم أنَّه روي في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما روايتان:

الأولىٰ: رواية تدلُّ علىٰ التَّنزيه وهي قوله: "كرسيّه : علمه" ، يعني : وسع علمه السَّموات والأرض، أي : يعلم ما في السَّموات والأرض.

والثَّانية: وهي رواية تدلُّ علىٰ التَّشبيه والتَّجسيم المحض وهي: " الكرسي موضع القدمين "!!

أمَّا الرِّواية الأولىٰ : " كرسيّه علمه " ، فهي صحيحة ثابتة: قال ابن جرير في " تفسيره" (٣/ ٩) : حدَّثنا أبو كريب وسلم بن جنادة قالا: حدَّثنا ابن إدريس، عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس : " وسع كرسيّه " ، قال: كرسيّه علمه. والقرينة في الآية تدلُّ عليه: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، لأنَّ الكلام في موضوع واحد. وفي كتب اللغة كـ : القاموس المحيط: "والكرسي بالضَّم وبالكسر: السَّرير والعلم" . وذكر البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير: أنَّ كرسيه علمه. انظر فتح الباري (٨/ ١٩٩) قبل الحديث رقم (٤٥٣٥) مباشرة!

وقال الحافظ ابن جرير الطَّبري في "تفسيره" (٣/ ١١) : " وأمَّا الذي يدلُّ علىٰ صحَّته ظاهر القرآن: فقول ابن عبَّاس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه أنَّه قال: هو علمه. وذلك لدلالة قوله تعالىٰ ذكره : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ علىٰ أنَّ ذلك كذلك، فأخبر أنَّه لا يؤده حفظ ما علم وأحاط به ممَّا في السَّموات والأرض، وكما أخبر عن ملائكته أنَّهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا

﴿وَسِعَتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[غافر:٧] ، فأخبر تعالى ذكره أنَّ علمه وسع كلّ شيء، فكذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ، وأصل الكرسي: العلم، ومنه قيل للصَّحيفة يكون فيها علم مكتوب : كرَّاسة.

ومن الغريب العجيب أن يقول ابن منده الحنبلي كما نقل الذَّهبي في " الميزان" (١/ ٤١٧) أنَّ جعفر بن أبي المغيرة لم يتابع عليه، وقال أيضاً: ليس بالقويِّ في سعيد بن جبير!! وابن منده لا يعرف ابن أبي المغيرة ولم يدركه وبينهما مفاوز شاسعة من الزَّمن! وليس وراء كلامه هذا إلَّا تضعيف هذه الرِّواية الدالَّة على التَّنزيه ، ونسي ابن منده أنَّ رواية "الكرسي موضع القدمين " لم يتابع الدّهني وشيخه مسلم البطين في روايتها عن ابن عبَّاس أحد!! ولكن التَّعصُّب والبعد عن التَّنزيه وعن لغة العرب يعمي ويصم!!

وقد صحَّح حديث جعفر بن أبي المغيرة عن ابن جبير: ابن حبَّان في " الصَّحيح " (٩/ ٥١٦) ، والحاكم في " المستدرك " ، والضِّياء في " المختارة" (١٠/ ٩٩) ، وصحَّح الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١٠/ ٢٥٣) رواية جعفر ابن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير.

قال أبو داود في السُّنن (١٣٠١) : " سمعت محمَّد بن حميد يقول: سمعت يعقوب يقول: كلّ شيء حدَّثتكم عن جعفر بن مغيرة عن سعيد بن جبير عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مسند عن ابن عبَّاس عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال القرطبي في "التَّفسير" (٣/ ٢٧٦) : " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُرْسِيُّهُ عِلْمُهُ. وَرَجَّحَهُ الطَّبَرِيُّ، قَالَ: وَمِنْهُ الْكُرَّاسَةُ الَّتِي تَضُمُّ الْعِلْمَ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْعُلَمَاءِ: الْكَرَاسِيُّ، لِأَنَّهُمُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِمْ، كَمَا يُقَالُ: أَوْتَادُ الْأَرْضِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

يَحُفُّ بِهِمْ بِيضُ الْوُجُوهِ وَعُصْبَةٌ ... كَرَاسِيُّ بِالْأَحْدَاثِ حِينَ تَنُوبُ

أَيْ عُلَمَاءُ بِحَوَادِثِ الْأُمُورِ" . انتهى كلام القرطبي.

وأمَّا الرِّواية الثَّانية عن ابن عبَّاس التي هي: " الكرسي موضع القدمين " ، فإنَّها لا تصحُّ ، وهي مردودة باطلة!! وإليك بيان ذلك: هذه الرِّواية رواها الطَّبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٣٩) من طريق سفيان الثَّوري: عن عمَّار الدّهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ، قال: "موضع القدمين، ولا يقدر قدر عرشه".

أقول: والعرب لا تعرف أنَّ من معاني الكرسي أنَّه موضع القدمين ، بل تعرف أنَّه السَّرير أو العلم.

وأخرجه بهذا الإسناد الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٢٨٢) ، وزاد: عن الدّهني عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، وكذا رواه بإثبات مسلم البطين: عبدالله ابن أحمد في كتاب "السُّنَّة" (١/ ٣٠١/ ٥٨٦) ، والخطيب البغدادي في "تاريخه" (٩/ ٢٥١) ، وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (١/ ٢٢) . ومسلم البطين مُقْحم ههنا في السَّند قد أدخلوه فيه ، زاده حسب ما نرىٰ بعض الرُّواة ليعضد تلك الرِّواية المنكرة! والدَّليل علىٰ ذلك أنَّ الحافظ المفسِّر ابن جرير لم يعز هذا القول في "تفسيره" (٣/ ١٠) لابن عبَّاس إنَّما عزاه ونسبه ورواه علىٰ أنَّه من قول مسلم البطين!

فقال ابن جرير هناك: حدَّثنا أحمد بن إسحاق قال: ثنا أبو أحمد الزّبيري، عن سفيان، عن عمَّار الدّهني، عن مسلم البطين قال: الكرسي موضع القدمين. وهذا يعكِّر علىٰ الرِّواية التي فيها : أنَّ البطين يرويه عن ابن جبير عن ابن عبَّاس! ويثبت لنا أنَّ بعض الرُّواة نسبه لابن جبير ولابن عبَّاس وهو قول لمسلم البطين، ولو كان معروفاً عن ابن عبَّاس لنقله الطَّبري عن ابن عبَّاس!!

ومن تعصُّب الذَّهبي قوله أيضاً في "الميزان" (١/ ٤١٨) في آخر ترجمة جعفر ابن أبي المغيرة: " وروىٰ أبو بكر الهذلي وغيره عن سعيد بن جبير من قوله: قال : الكرسي موضع القدمين " . وكتاب الميزان من أوائل مصنَّفاته ، وقد رجع عن أمور عنه ! وكان قد صنَّفه إذ كان مفتوناً بفكر وعقائد الشَّيخ ابن تيمية ...

والذي ذكره البخاري في "صحيحه" عن سعيد بن جبير: " كرسيّه علمه " ، فهذا هو المعروف المقبول عن هؤلاء لا تلك الرِّواية المنكرة ! التي إن وردت عنهم فإنَّها حكوها علىٰ سبيل الإنكار

والتَّهكُّم بقائلها ومعتقدها! وتفرّد عمَّار الدُّهني أو مسلم البطين بهذه الرِّواية المنكرة عن ابن عبَّاس التي لم يتابعه عليها أحد! تجعلها من الغرائب والوحدان!

ورواية الطَّبراني في "معجمه الكبير" ، كما تقدَّم هي من رواية عمَّار الدّهني عن سعيد بن جبير مباشرة ، دون أن يكون بينهما البطين!! وعمَّار الدّهني لم يرو عن سعيد بن جبير كما اعترف هو نفسه بذلك، كما في "تهذيب الكمال" (٢١/ ٢١٠)، وفي "جامع التَّحصيل"ترجمة (٥٥٠) : قال أحمد بن حنبل: لم يسمع – الدّهني – من سعيد بن جبير شيئاً.

وهذا كلُّه يوجب اضطراب هذه الرِّواية وضعفها عن ابن عبَّاس وعدم ثبوتها عنه! لا سيَّما وقد أعرض أصحاب الكتب التِّسعة (البخاري، ومسلم، والسُّنن الأربعة، وأحمد، ومالك، والدَّارمي) عن رواية : " والكرسي موضع القدمين" !! لكن ذكر البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير: أنَّ كرسيّه علمه. انظر فتح الباري (٨/ ١٩٩) قبل الحديث رقم (٤٥٣٥) مباشرة!

وعلى فرض ثبوت هذه الرِّواية عن ابن عبَّاس فهي من الموقوفات ، والموقوفات ليست من الحُجج والأدلَّة! وعندنا أنَّ ابن عبَّاس إذا روى مثل هذه الخرافات التَّجسيمية فإنَّما يرويها على سبيل التَّهكُّم عن كعب الأحبار فيظنُّها الرُّواة من بعده أنَّها من قوله الذي يعتقده !! بدليل أنَّه روي عنه بسند صحيح كما تقدَّم بأنَّ الكرسي هو العلم!! ثمَّ ما معنى أنَّ الكرسي موضع القدمين وإيراد هذا في الصِّفات؟!

ليس لذلك معنى إلَّا أنَّ لله – تعالى عمَّا يقولون – قدمين يضعهما على الكرسي الذي هو بين يدي العرش ، لأنَّه جالس عندهم على العرش وواضع قدميه على الكرسي!! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً! وهذا انحراف صريح عن عقيدة الإسلام النَّاصَّة بأنَّ الله تعالى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[الشورى:١١] ، وأنَّه ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[الإخلاص:٤] .

وبالتَّالي فإن كان له تعالى قدمين وكان واضعهما على الكرسي كما يضع ويمدّ البشر أرجلهم وأقدامهم على الكراسي فهو على صورة إنسان لا من حيث الصِّفات كالسَّمع والبصر بل من ناحية

الجسم والصُّورة والشَّكل والهيئة! فإذا كان له قدمان ووجه وعينان وساق وأصابع وكف وغير ذلك ممَّا يذكرونه من الأعضاء كان جسماً لا محالة! مهما حاولوا التَّظاهر بنفي الجسميَّة والجوارح والأعضاء! تعالى الله عن إفكهم وهذيانهم وتقوُّلاتهم وتصوُّراتهم علوَّاً كبيراً و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الصافات:١٨٠] !!

ومن العجيب الغريب أنَّ بعض متسلِّفي العصر يقولون بذلك ، وينقلونه عن بعض أصحاب الكُتب التي يسمُّونها بـ : السُّنَّة ونحوها! وقد رواه بهذا اللفظ المنكر: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني في " الرَّد على بشر المريسي " (ص ٧١ و ٧٣ و ٧٤) ، وعبد الله بن أحمد في كتاب السُّنَّة، وابن أبي شيبة في كتاب العرش، وابن خزيمة في التَّوحيد، وابن أبي حاتم في تفسيره، والهروي في الأربعين وأمثالهم!! ...

وهناك قول ثالث يفسِّر الكرسي بـ : القدرة ، نقله القرطبي ، وإليه جنح ابن تيمية الحرَّاني!! وهذا هو:

قال القرطبي في "تفسيره" (٣/ ٢٧٧) : " وَقِيلَ: كُرْسِيُّهُ قُدْرَتُهُ الَّتِي يُمْسِكُ بِهَا السَّموات وَالْأَرْضَ، كَمَا تَقُولُ: اجْعَلْ لِهَذَا الْحَائِطِ كُرْسِيًّا، أَيْ مَا يَعْمِدُهُ. وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ ابن عباس في قول" وَسِعَ كُرْسِيُّهُ" قاله الْبَيْهَقِيُّ: وَرُوِّينَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ" وَسِعَ كُرْسِيُّهُ" قَالَ: عِلْمُهُ " .

وقد مال إلى هذا المعنى ابن تيمية الحرَّاني في "مجموع الفتاوى" (١/ ٥٨٤) واعتمده حيث قال هناك: " وَقَدْ نُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّ " كُرْسِيَّهُ " عِلْمُهُ. وَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ؛ فَإِنَّ عِلْمَ اللَّهِ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ . وَاَللَّهُ يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا لَمْ يَكُنْ فَلَوْ قِيلَ وَسِعَ عِلْمُهُ السَّموات وَالْأَرْضَ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَعْنَى مُنَاسِبًا؛ لَا سِيَّمَا وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ ، أَيْ لَا يُثْقِلُهُ وَلَا يَكْرُثُهُ ، وَهَذَا يُنَاسِبُ الْقُدْرَةَ لَا الْعِلْمُ " .

يعني أنَّ المعنى المناسب في معنى الكرسي هنا هو القدرة وليس العلم.

وبهذا تبيَّن لنا أنَّ رواية الكرسي موضع القدمين رواية ليست صحيحة ، وأنَّ الثَّابت عن ابن عبَّاس وسعيد ابن جبير هو تفسير الكرسي بالعلم " . انظر : إعلام الثقلين بخرافة الكرسي موضع القدمين (مطبوع بذيل القول الأسَد في بيان حال حديث : " رأيت ربي في صورة شاب أمرد"(ص٨٤ ببعض الاختصار) .

ثَامِناً : اعْتِقَادُهُم بِالحَقْو الحَقِيْقِي صِفَةً لله تَعَالَى :

قال القاضي أبو يعلى ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " ... اعلم أنَّه غير ممتنع حمل هَذَا الخبر عَلَىٰ ظاهره، وأنَّ الحقو والحجزة صفة ذات لا عَلَىٰ وجه الجارحة والبعض، وأنَّ الرَّحم آخذة بها عَلَىٰ وجه الاتِّصال والمماسَّة بل نطلق ذلك تسمية كَمَا أطلقها الشَّرع ، ونظير هَذَا مَا حملناه عَلَىٰ ظاهره فِي وضع القدم فِي النَّار، وَفِي أخذ داود بقدمه لا عَلَىٰ وجه الجارحة وَلا عَلَىٰ وجه المماسَّة، كَمَا أثبتنا خلق آدم بيديه، فاليدان صفة ذات، والخلق بها لا عَلَىٰ وجه المماسَّة والملاقاة، كذلك ها هنا، وَكَمَا أثبتنا الاستواء لا عَلَىٰ وجه الجهة والمماسَّة .

وَذَكَرَ شيخنا أَبُو عبد اللهَّ رحمه اللهَّ فِي كتابه هَذَا الحديث وأخذ بظاهره وهو ظاهر كلام أحمد .

قَالَ المروذي: جاءني كتاب من دمشق فعرضته عَلَىٰ أَبِي عبد اللهَّ فنظر فِيهِ، وكان فِيهِ: أنَّ رجلاً ذكر حديث أَبِي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ خلق الخلق حتَّىٰ إِذَا فرغ منها قامت الرَّحم فأخذت بحقو الرَّحمن " وكان الرَّجل تلقيه يَعْنِي حديث أَبِي هريرة فرفع المحدِّث رأسه وَقَالَ: أخاف أن تكون كفرت، فَقَالَ أَبُو عبد اللهَّ: هَذَا جهمي " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٢٠-٤٢١) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليه : " قلت وهذه الأمثال كلّها ترجع إلى ما بينَّا ، ومعنى تعلّقها بحقو الرَّحمن : الاستجارة والاعتصام .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : الرَّحم معلَّقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله .

قال أبو بكر البيهقي : الحقو الإزار والمعنى يتعلَّق بعزِّه .

قال ابن حامد : يجب التَّصديق بأنَّ لله تعالىٰ حقواً فتأخذ الرَّحم بحقوه ...

قال ابن حامد : والمراد بالتَّعلُّق : القُربُ والمماسَّة بالحقو كما روي : أنَّ الله تعالىٰ يُدني إليه داود حتَّىٰ يمسّ بعضه !!!

قلت – ابن الجوزي – : قد طمَّ القاضي أبو يعلىٰ علىٰ هذا فقال : لا علىٰ وجه الجارحة والتَّبعيض ، والرَّحم آخذة بها لا علىٰ وجه الجارحة والتَّبعيض ، والرَّحم آخذة بها لا علىٰ وجه الاتِّصال والمماسَّة ، ثمَّ نقض هذا التَّخليط وقال : في الخبر إضمار تقديره : ذو الرَّحم يأخذ بحقو الرَّحمن فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، قال : لأنَّ الرَّحم لا يصحُّ عليها التَّعلُّق ، فالمراد ذو الرَّحم يتعلَّق بالحقو .

قلت : فقد زاد علىٰ التَّشبيه التَّجسيم ، والكلام مع هؤلاء ضائع ، كما يقال : لا عقل ولا قرآن ، وإذا تعلَّق ذو الرَّحم وهو جسم فبماذا يتعلَّق ، نعوذ بالله من سوء الفهم " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٣١-٢٣٢) .

تَاسِعَاً : اعْتِقَادُهُم بِالجَنْبِ الحَقِيْقِي صِفَةً لله تَعَالَى :

قال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " ... قَالَ : وأخبرني يزيد بْن هارون، عَن الحجَّاج بْن أرطأة قَالَ: الشّجنة كالغصن تكون من الشَّجر أو كلمه نحوها وأمَّا قوله تَعَالَىَ: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٥٦] فحكىٰ شيخنا أَبُو عبد اللهَّ رحمه فِي كتابه عَن جماعة من أصحابنا الأخذ بظاهر الآية فِي إثبات الجنب صفة لَهُ سُبْحَانَهُ " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٢٧) .

وقال ابن قيِّم الجوزيَّة : " هَبْ أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ جَنْبٍ هُوَ صِفَةٌ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ ظَاهِرُهُ أَوْ بَاطِنُهُ عَلَىٰ أَنَّه جَنْبٌ وَاحِدٌ وَشِقٌّ وَاحِدٌ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِطْلَاقَ مِثَال هَذَا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه شِقٌّ وَاحِدٌ كَمَا «قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىَ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: " صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ» "، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا جَنْبٌ وَاحِدٌ. فَإِنْ قِيلَ: الْمُرَادُ عَلَىٰ جَنْبٍ مِنْ جَنْبِكَ، قُلْنَا: فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ ذِكْرَ الْجَنْبِ مُفْرَدًا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ نَفْيِ أَنْ يَكُونَ لَهُ جَنْبٌ آخَرُ " . انظر : مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (ص٣٦-٣٧) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليهم : " ... أي في طاعته وأمره ، أي : لأنَّ التَّفريط لا يقع إلَّا في ذلك ، وأمَّا الجنب المعهود من ذي الجوارح فلا يقع فيه تفريط . وقال ابن حامد : نؤمن بأنَّ لله تعالى جنباً بهذه الآية . قلت : وآعجباً من عدم العقول إذا لم يتهيَّأ التَّفريط في جنب مخلوق كيف يتهيَّأ في صفة الخالق ؟!!

وأنشد ثعلب وفسَّره : خليليَّ كفَّا فاذكرا الله في جنبي ، أي : في أمري " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (١/ ١٤٠) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهِم بِأَنَّ الله تَعَالَى صُوْرَة وَأَنَّ صُوْرَتَهُ كَصُوْرَةِ الإِنْسَان

قامت عقيدة أهل الحقِّ على أنَّ الله تعالى منزَّه عن الهيئة والصُّورة والحلول ، والاتِّحاد والاتِّصال والانفصال ، وأنَّه منزَّهٌ عن الانتقال والحركة والحدِّ والـمكان والجسميَّة ، فلا يقال : له يمينٌ ولا شمالٌ ولا خلفٌ ولا أمامٌ ، ولا فوقَ العرش ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، ولا هو داخلٌ في العالـم ولا خارجٌ عنه ، ولا يقال : لا يَعْلَـمُ مكانه إلَّا هو ، لأنَّه تعالى ليس في مكان ...

فالله سبحانه منزَّه عن الصُّور والتَّخطيط والتَّركيب ، لأنَّ الله تعالى هو المصوِّر ، وجلَّ المصوِّرُ أن يكون مُصَوَّرَاً ، وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ، لأنَّ الهيئة والصُّورة والتَّركيب والتَّأليف ... كلّ ذلك إنَّما يصحُّ على الأجسام المحدودة والجواهر المخلوقة.

والصُّور لا تنتج إلَّا عن تأليف وتركيب ، والتَّركيب يستحيل على الله تعالى ، وصاحب الصُّورة لا يختُّص بصورة إلَّا بمخصِّص ، والمخصِّص هو الله تعالى المصوِّر ، وهو تعالى يُصوِّر مخلوقاته كيف شاء ... والصُّورة علامة واضحة على كون المصوَّر مخلوقاً مصوَّراً صوَّره خالقه، والله تعالى هو (المصوِّر) خالق الصُّور ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . كما أنَّ الصُّورة تقتضي الكيفيَّة ، وهي عن الله تعالى وعن صفاته منفيَّة ، لذلك فإنَّ الذي يجب علينا وعلى كلِّ مسلم أن يعلمه أنَّ ربَّنا ليس بذي صورة ولا هيئة.

ومن جهة أخرى فإنَّ الله جلَّ جلاله لا تسري عليه قوانين المادَّة والأجسام ، لأنَّ الذي خلق المادَّة والجسم هو الله تعالى ... وكلّ ما خطر بالبال فالله خلافه ...

ومن المعلوم يقيناً أنَّ العديد من العقائد التَّجسيميَّة التي يعتنقها أو بعضها البعض مأخوذة عن عقائد اليهود الذين ينسبون لله الجلوس على العرش ، والجسم ، والجوارح ، والأعضاء ، وغير ذلك -كما وضَّحت ذلك في كتابي : التَّوافق العقدي بين العقائد التَّجسيميَّة والعقائد اليهوديَّة - ... ومع ذلك نسب هؤلاء أنفسهم زوراً وبُهتاناً للسَّلف الصَّالح ، والعياذ بالله تعالى ...ومن تلك العقائد

التَّجسيميَّة : نِسْبَتُهُم الصُّوَرَة لله تعالىٰ ، بمعنىٰ أنَّ لله تعالىٰ صورة ... مع أنَّ الصُّورة هي تعبير عن هيئة، أو شَكْل المُصوَّر ، والله تعالىٰ هو مُصوِّر الصُّور وخالقها لا علىٰ مثال سبق ...

قال الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) : " ... فقوله : " فإذا أنا بربِّي في أحسن صورة " ، صريحٌ في أنَّ الذي كان في أحسن صورة هو ربُّه " . فماذا تقولون في هذا التَّشبيه ؟؟

وقال أيضاً : " ... أنَّ حديث أُم الطُّفيل نصٌّ في أنَّ الصُّوَرَة كانت للمرئي ، حيث قال : سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر أنَّه رأىٰ ربَّه في صورة شاب موفّر ، رِجْلاه في خضر ، عليه نعلان من ذهب ، علىٰ وجهه فراش من ذهب " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٣٥٨) ، (٧/ ٣٦٥) بالترتيب .

وهذا أيضاً ... ألا يُعتبر ما تضمَّنه الحديث تشبيهاً لله تعالىٰ بخلقه ؟!! أم ماذا هو ؟!! وألا يعتبر الحديث تحديداً لله تعالىٰ ؟ وألا يشتمل الحديث علىٰ كونه تعالىٰ متحيِّزاً ؟!! لأنَّ الشابَّ الأمرد لا يعيش إلَّا ضمن حيِّزٍ، ثمَّ أليس الحديث لوناً من ألوان التَّجسيم بأبعاده الثَّلاثة من الطُّول والعَرْض والارتفاع ؟!! . مع العلم أنَّ حديث أُم الطُّفيل هذا حديث باطل منكر ، حكم بضعفه الإمام أحمد ، قال القاضي أبو يعلىٰ (٤٥٨هـ) : " ورأيت فِي مسائل مهنا بن يحيىٰ الشَّامي (٢٦٠هـ) ، قَالَ : سألته يعني أَحْمَد عن حديث رواه ابن وهب ، عن عمرو بن الحرث ، عن سعيد بن أَبِي هلال ، أن مروان بن عثمان حدثه ، عن أُم الطُّفيل امرأة أَبِي بن كعب ، أنَّها قالت : سمعت النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يذكر أنَّه رأىٰ ربَّه فِي المنام فِي صورة شابٍّ موفر ، رجلاه فِي خضر ، عليه نعلان من ذهب ، عَلَىٰ وجهه فراش من ذهب " فحوَّل وجهه عنِّي ، وَقَالَ : هَذَا حديث منكر، وَقَالَ : لا نعرف هَذَا رجل مجهول يعني مروان بن عثمان ، فظاهر هَذَا التَّضعيف من أَحْمَد لحديث أُم الطُّفيل " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ١٤٠-١٤١) .

فالحديث موضوعٌ تالفٌ كما سبق بيانه ...

ومن العجائب والغرائب والمصائب أن يقوم ابن تيمية بتصحيح رواية الشَّاب الأمرد ، فقد قال في كتابه : " بيان تلبيس الجهميَّة : " كما في الحديث الصَّحيح !!! المرفوع !!! عن قتادة عن عكرمة عن

ابن عبَّاس قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " رأيت ربِّي في صورة شابٍّ أمرد له وفرة جعد قطط في روضة خضراء " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٧/ ٢٩٠) .

وقام المدعو حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرَّحمن التُّويجري (١٤١٣هـ) ، بتصنيف كتاب سمَّاه : " عقيدة أهل الإيمان في خلق ءادم علىٰ صورة الرَّحمن " ، جاء فيه : " أنَّ الله جلَّ وعزَّ لما خلق السَّماء والأرض ، قال : نخلقُ بشراً بصورتنا ، فخلق آدم ... " .

وفي كتابه سالف الذِّكر نقل التُّويجري عن التَّوراة المحرَّفة ، فقال : " وأيضاً فهذا المعنىٰ عند أهل الكتاب من الكتب المأثورة عن الأنبياء كالتَّوراة فإنَّ في السِّفر الأوَّل منها : سنخلق بشراً علىٰ صورتنا يشبهها " .

وقال أيضاً : " ... وكذلك حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ موسىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب الحجر لبني إسرائيل فتفجَّر ، وقال : " اشربوا يا حمير " ، فأوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إليه : " عمدت إلىٰ خلقٍ من خلقي ، خلقتُهم علىٰ صُورتي ، فشبَّهتهم بالحمير " ، فما برح حتَّىٰ عُوتب " .

وقال أيضاً : " ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " من قاتل فليجتنب الوجه ، فإنَّ صورة وجه الإنسان علىٰ صورة وجه الرَّحمن " .

وقال أيضاً : " ... وثانيها : حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال : " لا تقبِّحوا الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن " . أخرجه ابن خزيمه في كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرَّب عزَّ وجلَّ (١/ ٨٥) ، وقال : " وقد افتتن بهذه اللفظة التي في خبر عطاء عالم ممَّن لم يتحر العلم ، وتوهَّموا أنَّ إضافة الصُّورة إلىٰ الرَّحمن في هذا الخبر من إضافة صفات الذَّات ، فغلطوا في هذا غلطاً بيِّناً ، وقالوا مقالة شنيعة مضاهية لقول المشبِّهة ، أعاذنا الله وكلّ المسلمين من قولهم .

والذي عندي في تأويل هذا الخبر إن صحَّ من جهه النَّقل موصولاً ، فإنَّ في الخبر عِللاً ثلاثاً :

إحداهنَّ : أنَّ الثَّوري قد خالف الأعمش في إسناده فأرسل الثَّوري ولم يقل عن ابن عمر .

والثَّانية : أنَّ الأعمش مدلِّس ، لم يذكر أنَّه سمعه من حبيب بن أبي ثابت .

والثَّالثة : أنَّ حبيب بن أبي ثابت أيضاً مدلِّس ، لم يعلم أنَّه سمعه من عطاء سمعت إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشَّهيد يقول : ثنا أبو بكر بن عيَّاش عن الأعمش ، قال : قال حبيب بن أبي ثابت : لو حدَّثني رجل عنك بحديث لم أبال أن أرويه عنك ، يريد : لم أبال أن أدلِّسه . قال أبو بكر : ومثل هذا الخبر لا يكاد يحتجُّ به علماؤنا من أهل الأثر ، لا سيَّما إذا كان الخبر في مثل هذا الجنس فيما يوجب العلم لو ثبت لا فيما يوجب العمل بما قد يستدلّ على صحَّته وثبوته بدلائل من نظر وتشبيه وتمثيل بغيره من سنن النَّبي من طريق الأحكام والفقه . فإن صحَّ هذا الخبر مسنداً بأن يكون الأعمش قد سمعه من حبيب بن أبي ثابت ، وحبيب قد سمعه من عطاء بن أبي رباح ، وصحَّ أنَّه عن ابن عمر على ما رواه الأعمش ، فمعنى هذا الخبر عندنا : أنَّ إضافة الصُّورة إلى الرَّحمن في هذا الخبر إنَّما هو من إضافة الخلق إليه " .

وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الله تعالى خلق الإنسان على صورة وجهه الذي هو صفة من صفات ذاته . وهذا النَّصُّ لا يحتمل التَّأويل ، وفيه أبلغُ ردٍّ على ابن خزيمة ، وعلى كلّ من تأوَّل الحديث بتأويلات الجهميَّة المعطِّلة " . انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحمن (ص١٦) ، (ص٣١) ، (ص٧٦) ، (ص٢٧) ، (ص١٢٩) ، (ص٤٠) بالترتيب .

وقال أيضاً : " وفي حديث ابن عبَّاس: إنَّ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب الحجر لبني إسرائيل فتفجَّر ، وقال: اشربوا يا حمير ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: عمدت إلى خلقٍ من خلقي خلقتهم على صورتي فشبَّهتهم بالحمير ، فما برح حتَّى عوتب" . انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحمن (ص١٧) .

والكتاب المذكور قام بتقريظه الشَّيخ ابن باز – غفر الله له – ، حيث قال في تقريظه له :

بِسْمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحِيمِ

المملكة العربيَّة السعوديَّة ... الرَّقم ٣٨٠/ خ

رئاسة إدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد ... التَّاريخ (٣٠/ ٣/ ١٤٠٨هـ)

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ من لا نبي بعده ، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهداه ، أمَّا بعد :

فقد اطَّلعتُ علىٰ ما كتبه صاحب الفضيلة الشَّيخ حمود بن عبد الله التُّويجري وفَّقه الله وبارك في أعماله ، فيما ورد من الأحاديث في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن ، وسمَّىٰ مؤلَّفه في ذلك : " عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن " ، فألفيته كتاباً قيِّماً !!! كثير الفائدة !!! قد ذكر فيه الأحاديث الصَّحيحة الواردة في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن ، وفيما يتعلَّق بمجيء الرَّحمن يوم القيامة علىٰ صورته !!! وقد أجاد وأفاد !!! وأوضح ما هو الحقّ في هذه المسألة !!! وهو أَنَّ الضَّمير في الحديث الصَّحيح في خلق آدم علىٰ صورته يعود إلىٰ الله عزَّ وجلَّ !!! وهو موافق لما جاء في حديث ابن عمر : أَنَّ الله خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن . وقد صحَّحه الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، والآجري ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وآخرون من الأئمَّة رحمة الله عليهم جميعاً . وقد بيَّن كثيرٌ من الأئمَّة خطأ الإمام ابن خزيمة رحمه الله في إنكار عود الضَّمير إلىٰ الله سبحانه في حديث ابن عمر ، والصَّواب ما قاله الأئمَّة المذكورون وغيرهم في عود الضَّمير إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، بلا كيف ، ولا تمثيل ، بل صورة الله سبحانه تليق به وتناسبه كسائر صفاته ، ولا يشابهه فيها شيء من خلقه سبحانه وتعالىٰ ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ١ - ٤] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وقال سبحانه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[النحل: ٧٤] . والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة ، والواجب علىٰ أهل العلم والإيمان إمرار آيات الصِّفات وأحاديثها الصَّحيحة كما جاءت ، وعدم التَّأويل لها بما يخالف ظاهرها ، كما درج علىٰ ذلك سلف الأمَّة وأئمَّتها ، مع الإيمان بأَنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيء ، في صورته ، ولا وجهه ، ولا يده ، ولا سائر صفاته ، بل هو سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه في جميع صفاته ، لا شبيه له ، ولا مثْل له ، ولا تكيَّف صفاته بصفات خلقه ، كما نصَّ علىٰ ذلك سلف الأمَّة وأئمَّتها من

أصحاب النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم بإحسان رحمهم الله جميعاً وجعلنا من أتباعهم بإحسان . ومن تأمَّل ما كتبه أخونا العلَّامة الشَّيخ حمود التُّويجري في هذا الكتاب وما نقله عن الأئمَّة اتَّضح له ما ذكرنا ، فجزاه الله خيراً ، وزاده من العلم والإيمان ، وجعلنا وإيَّاه وسائر إخواننا من أنصار السُّنَّة والقرآن ، أنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وأصحابه ومن استقام علىٰ نهجه إلىٰ يوم الدِّين .

عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرَّئيس العام لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد .

انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن (ص٧-٨) .

وأكَّد إمامهم المدعو صالح الشَّيخ علىٰ عقيدة المشابهة بين الله وبين خلقه ، فقال : " وأمَّا المشابهة في مطلق المعنىٰ وهو أصله الذي حصل به الاشتراك ، فإنَّ هذا ليس منفيَّاً ؛ لأنَّ هذا أثبته الرَّبُّ عزَّ وجلَّ " . انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٥٣) ، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ .

وقال محمَّد خليل هرَّاس: " فالصُّورةُ لا تُضاف إلىٰ الله كإضافة خلقه إليه ، لأنَّها وصفٌ قائمٌ به " .

انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص٣٩) ، ط١٩٧٨م .

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم ...

وقال الإمام أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التَّميمي البغدادي الحنبلي (٤١٠هـ) في " اعتقاد الإمام ابن حنبل " (ص٢٩٤) : " وَمذهب أبي عبد الله أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ أَنَّ لله عزَّ وَجلَّ وَجهاً لَا كالصُّور المصوَّرة والأعيان المخطَّطة بل وجهه وَصفه بقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ، وَمن غيَّر مَعْنَاهُ فقد ألحد عَنهُ ، وَذَلِكَ عِنْده وَجه فِي الْحَقِيقَة دون الْمجَاز ، وَوجه الله بَاقٍ لَا يبْلىٰ وَصفَة لَهُ لَا تفنىٰ ، وَمن ادَّعىٰ أَنَّ وَجهه نَفسه فقد ألحد ، وَمن غيَّر مَعْنَاهُ فقد كفر. وَلَيْسَ معنىٰ وَجْه معنىٰ جَسَد عِنْده وَلَا صُورَة وَلَا تخطيط ، وَمن قَالَ ذَلِك فقد ابتدع" .

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) في " التَّوحيد " (ص٨٥) : " فَإِن قيل : كَيفَ يُرىٰ ؟ قيل : بِلَا كَيفَ ، إِذْ الْكَيْفِيَّة تكون لذي صُورَة ، بل يُرىٰ بِلَا وصف قيام وقعود ، واتِّكاء وَتعلُّق ، واتِّصال وانفصال ،

ومقابلة ومدابرة ، وقصير وطويل ، وَنور وظُلمة ، وَسَاكن ومتحرِّك ، ومماس ومباين ، وخارج وداخل ، وَلَا معنىٰ يَأْخُذهُ الْوَهم أَو يقدِّره الْعقل ، لتعاليه عَن ذَلِك" .

وقال الإمام الباقلاني (٤٠٣هـ) في " تمهيد الأوائل في تلخيص الدَّلائل" (ص٣٠٠) : " بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل : فخبِّرونا عَن الله سُبْحَانَهُ مَا هُوَ ؟ قيل لَهُ : إِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ مَا جنسه ؟ فَلَيْسَ هُوَ بِذِي جنس ، لما وصفناه قبل هَذَا ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ مَا اسْمه ؟ فاسمه الله الرَّحمن الرَّحيم الْحَيّ القيوم ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ مَا صنعه ؟ فصنعه الْعدْل وَالْإِحْسَان والإنعام وَالسَّمَوَات وَالْأَرْض وَجَمِيع مَا بَينهمَا ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ مَا الدّلَالَة علىٰ وجوده ؟ فالدّلالة علىٰ وجوده جَمِيع مَا نرَاهُ ونشاهده من مُحكم فعله وَعَجِيب تَدْبيره ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ أَي أَشِيرُوا إِلَيْهِ حتَّىٰ أرَاهُ ، فَلَيْسَ هُوَ الْيَوْم مرئيّاً لخلقه ومدركاً لَهُم فنريكه .

بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل : وَكَيف هُوَ ؟ قيل لَهُ : إِن أردْت بالكيفيَّة التَّرْكِيب وَالصُّورَة والجنسيَّة فَلَا صُورَة لَهُ وَلَا جنس فنخبرك عَنهُ ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : كَيفَ هُوَ ؟ أَي : علىٰ أَي صفة هُوَ ؟ فَهُوَ حَيّ عَالم قَادر سميع بَصِير ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : كَيفَ هُوَ ؟ أَي : كَيفَ صنعه إِلَىٰ خلقه ؟ فصنعه إِلَيْهِم الْعدْل وَالْإِحْسَان .

بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل أَيْن هُوَ ؟ قيل لَهُ : الأين سُؤال عَن الْمَكَان ، وَلَيْسَ هُوَ مِمَّن يجوز أَن يحويه مَكَان وَلَا تحيط بِهِ أقطار ، غير أَنَّا نقُول : أَنَّه علىٰ عَرْشه لَا علىٰ معنىٰ كَون الْجِسْم بالملاصقة والمجاورة ، تَعَالَىٰ عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل : فَمَتَىٰ كَانَ ؟ قيل لَهُ : سؤالك عَن هَذَا يَقْتَضِي كَونه فِي زمَان لم يكن قبله ، لِأَن مَتىٰ سُؤال عَن الزَّمان ، وَقد عرفناك أَنَّه قديم كَائِن قبل الزَّمان ، وَأَنَّه الْخَالِق للمكان والزَّمان ، وموجود قبلهمَا ، وتوقيت وجود الشَّيْء بعام أَو مائَة ألف عَام يُفِيد أَنَّ الموقت وجوده مَعْدُوم قبل الزَّمان الَّذِي وَقت بِهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَسْتَحِيل عَلَيْهِ تَعَالَىٰ" .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٦٧-٦٨) : " اعْلَم أَنَّ بعض أَصْحَابنَا الْمُتَكَلِّمين فِي تَأْوِيل هَذَا الْخَبَر حاد علىٰ وَجه الصَّوَاب ، وسلك طَرِيق الْخَطَأ والمحال فِيهِ ،

وَهُوَ ابْن قُتَيْبَة توهم أَنَّه مستمسك بِظَاهِرِهِ غير تَارِك لَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ لله عزَّ وَجلَّ صُورَة لَا كالصُّور كَمَا أَنَّه شَيْء لَا كالأشياء ، فَأَثْبت لله تَعَالَىٰ صُورَة قديمَة ، زعم أَنَّهَا لَا كالصُّور ، وَأَنَّ الله خلق آدم علىٰ تِلْكَ الصُّورَة ، وَهَذَا جهل من قَائِله ، وتوغُّل فِي تَشْبِيه الله تَعَالَىٰ بخلقه .

وَالْعجب مِنْهُ أَنَّه تَأَول الْخَبَر ثمَّ زعم أَنَّ الله صُورَة لَا كالصور ثمَّ قَالَ : إِنَّ آدم مَخْلُوق علىٰ تِلْكَ الصُّورَة ، وَهَذَا كَلَام متناقض متهافت يدْفع أَوَّله آخِره ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْله : لَا كالصُّور ينْقض قَوْله : إِنَّ الله خلق آدم عَلَيْهَا ، لِأَن الْمَفْهُوم من قَول الْقَائِل : فعلت هَذَا علىٰ صُورَة هَذَا ، أَي : ماثلته بِهِ واحتذيت فِي فعله بِهِ ، وَهَذَا يُوجب أَنَّ صُورَة آدم عَلَيْهِ السَّلَام كصورته جلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَيمْنَع تَأْوِيله أَنَّ لَهُ صُورَة لَا كالصُّور ، وليت شعري إِلَىٰ أَيّ وَجه ذهب فِي إِضَافَة الصُّورَة إِلَىٰ الله عزَّ وَجلَّ أَرَادَ بِهِ إِثْبَات الرَّب تَعَالَىٰ مصوَّراً بِصُورَة لَا تشبه الصُّور ، أم إِثْبَاته مصوَّراً بأمثال هَذِه الصُّور ، أم أَرَادَ بِهِ أَنَّ لَهُ هَيْئَة مَخْصُوصَة وَصُورَة مُعينَة مَعْلُومَة ، أم رَجَعَ بذلك إِلَىٰ إِثْبَات صفة لَهُ سَمَّاهَا صُورَة لَا علىٰ معنىٰ وَجه الْهَيْئَة والتَّأليف ، وَلَيْسَ يَخْلُو مَا ذهب إِلَيْهِ من هَذِه الْأَقْسَام ، وكلّ ذَلِك فَاسد لَا يَلِيق بِاللهَّ عزَّ وَجَّل لاقتضائه أَن يكون مؤلَّفاً مركَّباً ، ذَا حدٍّ وَنِهَايَة وَبَعض وَغَايَة ، وكلّ ذَلِك يُؤَدِّي إِلَىٰ القَوْل بنفيه تَعَالَىٰ" .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) في " مشكل الحديث وبيانه " (ص٩٠-٩٤) : " أَمَّا قَوْله : " غير الصُّورَة الَّتِي يعرفونها" ، فَيحْتَمل أَن يكون الْمَعْنىٰ فِي ذَلِك أَنَّه يَأْتِيهم يَوْم الْقِيَامَة بِصُورَة علىٰ خلاف ذَلِك الشَّكل وَتلك الْهَيْئَة الَّتِي كَانَت الصُّورَة عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا مَا لم يعرفوه وَلم يعهدوه ، لَيْسَ ذَلِك مُنْكراً لِأَنَّ عادات أهل الْقِيَامَة وَمَا يظْهر لَهُم من الْأَهْوَال وعجائب الْخلق من صُورَة الْمَلَائِكَة وزبانية الْعَذَاب وخزنة الْجنان مِمَّا لم يعهدوا علىٰ شكلها وهيئتها فِي الدُّنْيَا .

وَأمَّا قَوْله : " فَيَقُول أَنا ربُّكُم" ، فقد قَالَ بعض أهل الْعلم : إِنَّ هَذَا آخر محنة الْمُؤمن ، وَأَنَّه يظْهر هَذَا القَوْل فعلاً من الله عزَّ وَجلَّ فِي بعض هَذِه الصُّور محنة للمكلَّفين فِي الدُّنْيَا من أهل الْإِيمَان ، فَيظْهر مِنْهُم عَن صدق توحيدهم وَصِحَّة إِيمَانهم مَا يكون إنكاراً لذَلِك ، وَتَكون الْفَائِدَة فِيهِ يعرفنا تأييد الله تَعَالَىٰ لأهل الْإِيمَان بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وتثبيته لَهُم ، كَمَا قَالَ عز وَجل : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ، أَي : يثبتهم فِي الدُّنْيَا علىٰ الْحَقِّ عِنْد ظُهُور الْقَوْل والمحن ، ويثبتهم فِي العقبىٰ أَيْضاً فِي مَوَاضِع المحن وَإِنَّمَا قيل للدنيا دَار محنة وتكليف مُطلقًا وَإِن كَانَ من نوعها قد يَقع مِنْهَا فِي العقبىٰ فَلَا يُطلق عَلَيْهَا أَنَّهَا دَار تكْلِيف ومحنة بل يُقَال إِنَّهَا دَار جَزَاء ، لِأَنَّ الْغَالِب ذَلِك عَلَيْهَا ، وَهَذَا كَمَال يقعل فِي الدُّنْيَا جَزَاء وَلَا يُضَاف إِلَيْهَا لأَنَّه لَا يغلب عَلَيْهَا إِذا لم يكن بِهِ .

وَأَمَّا قَوْله : " أَنَّهم يَقُولُونَ إِذا جَاءَ رَبنَا عَرَفْنَاهُ" ، فَيحْتَمل أَن يكون مَعْنَاهُ مجيئاً بِإِظْهَار فعل يبديه فِي قُلُوبهم من زَوَائِد يَقِين وَعلم وبصر عِنْدَمَا يحدث لَهُم من إِدْرَاكه ومعانيه ، لِأَنَّ سَائِر مَا أضيف إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ من إِتْيَان ومجيء فَهُوَ لظُهُور نوع من تَدْبيره فِي فضل أَو عدل .

وَأَمَّا قَوْله " فيأتيهم فِي الصُّورَة الَّتِي يعرفونها" ، فَإِنَّ معنىٰ الْإِتْيَان متأَوَّل علىٰ الْوَجْه الَّذِي مضىٰ بَيَانه ، وَيكون تَقْدِير تَأْوِيله أَنَّه إِذا ظهر لَهُم نوع الصُّور الْمَعْهُودَة لَهُم شكلاً وهيئه وَخلق إدراكهم بِهِ وخاطبهم بِأَن أسمعهم كَلَامه وأفهمهم مُرَاده ، تثبَّتوا وأيقنوا أَنَّ المكلِّم لَهُم هُوَ رَبُّهم عَّز ذكره ، وَتَكون الْفَائِدَة فِي ذَلِك تعريفنا مَا يَفْعَله الله عزَّ وَجلَّ فِي العقبىٰ من أَلطافه بأوليائه فِي عصمتهم وحراستهم وتثبيتهم وتأييدهم حتَّىٰ لَا يستفزّهم مُشَاهدَة تِلْكَ الْأَهْوَال الْعَظِيمَة ، وَلَا يستخفّهم أَمر تِلْكَ الصُّور الْمُنكرَة الَّتِي لم يعهدوا مثلهَا .

وَأَمَّا قَوْله : " أَنَّه يَقُول لَهُم إِذا رَأَيْتُمُوهُ عرفتموه ، فَيَقُولُونَ : نعم ، بَيْننَا وَبَينه عَلامَة " الْخَبَر ، فَإِنَّ معنىٰ ذَلِك أنباؤنا بِحسن ثباتهم أَولاً وآخراً ، وَذَلِكَ بِمَا وجده من فَضله عزَّ وَجلَّ فِي إدامة معرفتهم وبصيرتهم وَإِزَالَة قبُول الْخَطَأ والزَّيغ عَنْهُم .

وَأَمَّا تَفْسِير الْعَلامَة وَذكر مَا بَينهَا ، فَمن أهل الْعلم من قَالَ : إِنَّ تِلْكَ الْعَلامَة الَّتِي أشاروا إِلَيْهَا إِنَّا نعرفه بهَا هُوَ مَا بَينه وَبَين خلقه فِي الصُّور والأجسام من الْمُخَالفَة والمباينة ، وَأَنَّه لَا يشبه شَيْئًا مِنْهَا ، وَلَا يُشبههُ شَيْء مِنْهَا .

وَمِنْهُم من قَالَ : إِنَّ تِلْكَ الْعَلامَة مَا مَعَهم من الْمعرفَة بِهِ ، وَأَنَّهُمْ عبدوه فِي الدُّنْيَا من معرفَة بمعبود لَا يشبه شَيْئا مِمَّا عرفوه وَلَا يجوز أَن يشبه شَيْئا وَلَا أَن يُشبههُ شَيْء فَإِذا رَأَوْا مَا عرفوه بِمثل هَذِه

الْمعرفَة علمُوا أَن الَّذِي رَأَوْهُ هُوَ الَّذِي عرفوه ، فكون علامتهم عَن الرُّؤْيَة معرفتهم ، فَإِذا كَانَ مرئيّهم فِي العقبىٰ معروفهم فِي الدُّنْيَا أيقنوا أَنَّه معبودهم .

وَحكي عَن ابْن أبي عَاصِم النَّبِيل أَنَّه كَانَ يَقُول فِي تَأْوِيل الحَدِيث : إِنَّ ذَلِك تَغْيِير يَقع فِي عُيُون الرَّائين كنحو مَا يتخيَّل للْإِنْسَان الشَّيء بِخِلَاف مَا هُوَ بِهِ ، فيتوهَّمه الشَّيء علىٰ الْحَقِيقَة .

وَاعْلَم أَنَّه لَا بُدَّ أَن يحمل هَذَا الحَدِيث علىٰ نوع مِمَّا قُلْنَا لاستحالة أَن يكون الله تَعَالَىٰ ذكره علىٰ صور كَثِيرَة يجهلونه مرَّة ويعرفونه مرَّة أَو يكون مِمَّن يحل الصُّور فتنتقل الصُّورَة لاستحالة أَن يكون الله عزَّ وَجلَّ حَالا ومحلا صُورَة أَو مصوَّراً ، وَإِنَّمَا إِتْيَانه بالصُّورة بعد الصُّورَة من طَرِيق الْفِعْل ، كَمَا يحدث الشَّيء بعد الشَّيء ويغير الْجِسْم من حَال إِلَىٰ حَال بإحداث تَغْيِير .

وَإِضَافَة الصُّورَة إِلَيْهِ فِي هَذِه الْأَحَادِيث فَهِيَ بِمَعْنىٰ الْملك وَالْفِعْل لَا بِمَعْنىٰ التَّصَوُّر بالشَّيْء من الصُّور ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً ، لِأَنَّ الْهَيْئَة وَالصُّورَة والتَّركيب والتَّأليف ، كلّ ذَلِك إِنَّمَا يَصحُّ علىٰ الْأَجْسَام المحدودة والجواهر المخلوقة وتعاقب الْحَوَادِث وَتغير مَا تقوم بِهِ فِيهَا عَلامَة حدث مَا تقوم بِهِ

، وَيحْتَمل أَيْضاً وَجهاً آخر ، وَهُوَ أَنَّ الصُّورَة هَا هُنَا بِمَعْنىٰ الصِّفة ، فَيكون تَقْدِير الْمَعْنىٰ فِيهِ مَا يظْهر لَهُم من بطشه وَشدَّة بأسه يَوْم الْقِيَامَة وَإِظْهَار معايب الْخلق ومساويهم وفضائحهم ، وَإِنَّمَا عرفوه ساتراً حَلِيمًا غفارًا كَرِيمًا ، فَيظْهر لَهُم مِنْهَا أَن ذَلِك مِنْهُ ، وَهُوَ معنىٰ قَوْله : " فَيَقُول أَنا ربُّكُم" ، علىٰ معنىٰ قَول الْقَائِل : قَالَت رجْلي فخذك وأذني فطنت علىٰ معنىٰ ظُهُور ذَلِك فيهمَا ، فَيَقُولُونَ عِنْد ظُهُور ذَلِك مِنْهُ مستعيذين بِاللهِ : " هَذَا مَكَاننَا " ، أَي : نَلْبَث وَنَصْبِر حتَّىٰ تظهر رَحمته وَكَرمه ، وَهُوَ إِتْيَان الرَّب لَهُم بِإِظْهَار جوده لَهُم وَعطفه عَلَيْهِم ، فيأتيهم بعد ذَلِك عِنْد ثباتهم ، وَفِي الصُّورَة الَّتِي يعرفونها علىٰ معنىٰ إبداء عَفوه ومغفرته وحلمه علىٰ الصّفة الَّتِي يعرفونه فِي الدُّنْيَا من ستره ومغفرته وحلمه .

وَإِذا كَانَ لفظ الصُّورَة مُسْتَعْملاً فِي معنىٰ الصّفة كَمَا ذكرنَا فِي قَول الْقَائِل :عرفني صُورَة من هَذَا الْأَمر ، أَي : صفته ، لم يُنكر أَن تكون الْفَائِدَة فِي هَذَا الْخَبَر مَا قُلْنَا ، وَأَن يكون هَذِه الْأَلْفَاظ من

متشابه أَلْفَاظ الْأَحَادِيث جَارِيَة مجْرىٰ متشابه أَلْفَاظ آي الْكتاب امتحاناً بهَا أهل الْعلم لاستنباط الصَّحِيح من مَعَانِيهَا ، وَالْوُقُوف علىٰ الْحَدِّ الْوَاجِب فِيهَا ، وافتتان أهل الْبَاطِن بهَا ، وخروجهم عَن الْهدىٰ والرُّشد وَالْحق فِيهَا علىٰ النَّحْو الَّذِي جرىٰ عَلَيْهِ حكم متشابه آي الْكتاب ومحكمها" .

وقال الإمام أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التَّميمي البغدادي الحنبلي (٤١٠هـ) في " اعتقاد الإمام ابن حنبل " (ص٢٩٨) : " وَأنكر –أي الإمام أحمد– علىٰ من يَقُول بالجسم ، وَقَالَ : إِنَّ الْأَسْمَاء مَأْخُوذَة بالشَّريعة واللغة، وَأهل اللُّغَة وضعُوا هَذَا الاسم علىٰ كلّ ذِي طول وَعرض وسمك وتركيب وَصُورَة وتأليف ، وَالله تَعَالَىٰ خَارج عَن ذَلِك كُلِّه فَلم يجز أَن يُسمَّىٰ جسماً لِخُرُوجِهِ عَن معنىٰ الجسميَّة ، وَلم يجِئ فِي الشَّرِيعَة ذَلِك فَبَطل" .

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) في "كتاب أصول الدِّين" (ص٣٣٧) : " كلّ من شبَّه ربَّه بِصُورَة الْإِنْسَان من البيانيَّة والمغيريَّة والجواربيَّة المنسوبة إلىٰ داود الجواربي ، والهشاميَّة المنسوبة إِلَىٰ هِشَام بن سَالم الجواليقي ، فَإِنَّمَا يعبد إنْسَاناً مثله ، وَيكون حكمه فِي الذَّبِيحَة وَالنِّكَاح كَحكم عَبدة الْأَوْثَان فِيهَا ، وَكَذَلِكَ من زعم أَنَّ بعض النَّاس إِلَه وادَّعىٰ حُلُول روح الْإِلَه فِيهِ علىٰ مَذْهَب الحلوليَّة كَمَا قالته الخطَّابيَّة فِي جَعْفَر الصَّادِق ، وكما قالته الرزاميَّة فِي أبي مُسلم صَاحب دَعْوَة بني الْعَبَّاس ، وكما قالته المبيضة فِي الْمقنع ، فَهُوَ عَابِد وثن ، وَأمَّا جسميَّة خُرَاسَان من الكرَّاميَّة فتكفيرهم وَاجِب لقَولهم : بأَنَّ الله تَعَالَىٰ لَهُ حدٌّ وَنِهَايَة من جِهَة السّفل" .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) في " الأسماء والصِّفات " (٢/٦٦) : " وَأَمَّا ذِكْرُ الصُّورَةِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَإِنَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ كلّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَهُ: أَنَّ رَبَّنَا لَيْسَ بِذِي صُورَةٍ وَلَا هَيْئَةٍ، فَإِنَّ الصُّورَةَ تَقْتَضِي الْكَيْفِيَّةَ وَهِيَ عَنِ اللهِ وَعَنْ صِفَاتِهِ مَنْفِيَّةٌ، وَقَدْ يُتَأَوَّلُ مَعْنَاهَا عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ الصُّورَةُ بِمَعْنَىٰ الصِّفَةِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: صُورَةُ هَذَا الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا، يُرِيدُ صِفَتَهُ فَتُوضَعُ الصُّورَةُ مَوْضِعَ الصِّفَةِ.

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنَّ الْمَذْكُورَ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ صُوَرٌ وَأَجْسَامٌ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالطَّوَاغِيتِ وَنَحْوِهِمَا، ثُمَّ لَمَّا عَطَفَ عَلَيْهَا ذِكْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ خَرَجَ الْكَلَامُ فِيهِ عَلَىٰ نَوْعٍ مِنَ الْمُطَابَقَةِ

فَقِيلَ: يَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَةِ كَذَا إِذْ كَانَتِ الْمَذْكُورَاتُ قَبْلَهُ صُوَرًا وَأَجْسَامًا، وَقَدْ يُحْمَلُ آخِرُ الْكَلَامِ عَلَىٰ أَوَّلِهِ فِي اللَّفْظِ وَيُعْطَفُ بِأَحَدِ الاِسْمَيْنِ عَلَى الْآخَرِ. وَالْمَعْنَيَانِ مُتَبَايِنَانِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ، كَالْعُمَرَيْنِ وَالْأَسْوَدَيْنِ وَالْعَصْرَيْنِ، وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرٌ. وَمِمَّا يُؤَكِّدُ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ هُوَ أَنَّ مَعْنَى الصُّورَةِ الصِّفَةُ، قَوْلُهُ مِنْ رِوَايَةِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: «فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا» . وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا رَأَوْهُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَعْنَىٰ فِي ذَلِكَ الصِّفَةُ الَّتِي عَرَفُوهُ بِهَا، وَقَدْ تَكُونُ الرُّؤْيَةُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[البقرة: ١٢٨] أَيْ: عَلِّمْنَا. قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: «وَمِنَ الْوَاجِبِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَسْتَشْنِعُهَا النُّفُوسُ إِنَّمَا خَرَجَتْ عَلَىٰ سَعَةِ مَجَالِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَصَارِفِ لُغَاتِهَا، وَأَنَّ مَذْهَبَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَكْثَرِ الرُّوَاةِ مِنْ أَهْلِ النَّقْلِ الاِجْتِهَادُ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَىٰ دُونَ مُرَاعَاةِ أَعْيَانِ الْأَلْفَاظِ، وكلّ مِنْهُمْ يَرْوِيهِ عَلَىٰ حَسْبِ مَعْرِفَتِهِ وَمِقْدَارِ فَهْمِهِ وَعَادَةِ الْبَيَانِ مِنْ لُغَتِهِ، وَعَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَلْزَمُوا أَحْسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ، وَأَنْ يُحْسِنُوا التَّأَنِّي لِمَعْرِفَةِ مَعَانِي مَا رَوَوْهُ، وَأَنْ يُنْزِلُوا كلّ شَيْءٍ مِنْهُ مَنْزِلَةَ مِثْلِهِ، فِيمَا تَقْتَضِيهِ أَحْكَامُ الدِّين وَمَعَانِيهَا، عَلَىٰ أَنَّكَ لَا تَجِدُ بِحَمْدِ اللهِ وَمَنِّهِ شَيْئًا صَحَّتْ بِهِ الرِّوَايَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَلَهُ تَأْوِيلٌ يَحْتَمِلُهُ وَجْهُ الْكَلَامِ وَمَعْنًىٰ لا يَسْتَحِيلُ فِي عَقْلٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ» .

وقال الإمام البيهقي في " الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف وأصحاب الحديث " (ص٧١) : " وَأَمَّا السَّمْعِيُّ: فهُوَ مَا كَانَ طَرِيقُ إِثْبَاتِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَقَطْ، كَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنِ، وَهَذِهِ أَيْضًا صِفَاتٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ لَا يُقَالُ فيهَا: إِنَّهَا هِيَ الْمُسَمَّىٰ، وَلَا غَيْرُ الْمُسَمَّىٰ، وَلَا يَجُوزُ تكْيِيفُهَا، فَالْوَجْهُ لَهُ صِفَةٌ وَلَيْسَتْ بِصُورَةٍ، وَالْيَدَانِ لَهُ صِفَتَانِ وَلَيْسَتَا الْجَارِحَتَيْنِ، وَالْعَيْنُ لَهُ صِفَةٌ وَلَيْسَتْ بِحَدَقَةٍ، وَطَرِيقُ إِثْبَاتِهَا لَهُ صِفَاتُ ذَاتٍ وَرَدَ خَبَرُ الصَّادِقِ بِهِ" .

وقال الإمام طاهر بن محمَّد الأسفراييني (٤٧١هـ) في " التّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النّاجية عن الفرق الهالكين " (ص١٦٠) : " وَأَن تعلم أَنَّ الْحَرَكَة والسُّكون والذّهاب والمجيء والكون فِي الْمَكَان والاجتماع والافتراق والقُرب والبُعد من طَرِيق الْمسَافَة والاتِّصال والانفصال والحجم والجرم والجثَّة وَالصُّورَة والحيِّز والمقدار والنَّواحي والأقطار والجوانب والجهات ، كلّها لَا تجوز عَلَيْهِ تَعَالَى

، لِأَنَّ جَمِيعهَا يُوجب الْحَدَّ وَالنِّهَايَة ، وَقد دللنا علىٰ اسْتِحَالَة ذَلِك علىٰ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ ، وأصل هَذَا فِي كتاب الله تَعَالَىٰ ، وَذَلِكَ أَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا رأىٰ هَذِه العلامات علىٰ الْكَوَاكِب وَالشَّمْس وَالْقَمَر : ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾[الأنعام:٧٦] ، فَبيَّن أَنَّ مَا جَازَ عَلَيْهِ تِلْكَ الصِّفَات لَا يكون خَالِقًا .

وَأَن تعلم أَنَّ كلّ مَا تصوَّر فِي الْوَهم من طُول وَعرْض وعُمق وألوان وهيئات مُخْتَلفَة ، يَنْبَغِي أَن تعتقد أَن صانع الْعَالم بخلافة ، وَأَنَّه قَادر علىٰ خلق مثله ، وَإِلَىٰ هَذَا الْمَعْنىٰ أَشَارَ الصّديق رَضِي الله عَنهُ بقوله :الْعَجز عَن دَرْك الْإِدْرَاك إِدْرَاك ، وَمَعْنَاهُ : إِذا صَحَّ عنْدك أَنَّ الصَّانِع لَا يُمكن مَعْرفَته بالتَّصوير والتَّركيب وَالْقِيَاس علىٰ الْخلق صَحَّ عنْدك أَنَّه خلاف الْمَخْلُوقَات ، وتحقيقه : أَنَّك إِذا عجزت عَن مَعْرفَته بِالْقِيَاسِ علىٰ أَفعاله صَحَّ معرفتك لَهُ بِدلَالَة الْأَفْعَال علىٰ ذَاته وَصِفَاته ، وَقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفسه بقوله : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤] ، وَمَا كَانَ مُصَوِّراً لم يكن مُصوَّراً ، كَمَا أَنَّ من كَانَ مخلوقاً لم يكن خَالِقًا" .

وقال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) في " إحياء علوم الدِّين " (١/ ٩٠) : " وأنَّه ليس بجسم مصوَّر ، ولا جوهر محدود مقدَّر ، وأنَّه لا يماثل الأجسام لا في التَّقدير ولا في قبول الانقسام ، وأنَّه ليس بجوهر ولا تحلُّه الجواهر ، ولا بعَرَض ولا تحلُّه الأعراض ، بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ، ولا هو مثل شيء .

وأنَّه لا يحدُّه المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْجِهَاتُ ، وَلَا تَكْتَنِفُهُ الْأَرَضُونَ ولا السَّموات ، وَأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَىٰ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي قاله ، وبالمعنىٰ الذي أراده ، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ والسَّماء ، وَفَوْقَ كلّ شَيْءٍ إِلَىٰ تُخُومِ الثَّرَىٰ ، فَوْقِيَّةً لَا تَزِيدُهُ قُرْبًا إِلَىٰ الْعَرْشِ والسَّماء ، كَمَا لَا تَزِيدُهُ بُعْدًا عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَىٰ ، بَلْ هُوَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْعَرْشِ والسَّماء ، كَمَا أنَّه رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ كلّ مَوْجُودٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْعَبْدِ من حبل الوريد ، (وهو علىٰ كلّ شيء شهيد) ، إِذْ لَا يُماثِل

قُرْبُهُ قُرْبَ الْأَجْسَامِ ، كَمَا لَا تُمَاثِلُ ذَاتُهُ ذَاتَ الْأَجْسَامِ ، وَأَنَّهُ لَا يَحُلُّ فِي شَيْءٍ ، وَلَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ ، تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ ، كَمَا تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحُدَّهُ زَمَانٌ ، بَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ خَلَقَ الزَّمانَ وَالْمَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَىٰ ما عليه كان .

وأنَّه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته ، وأنَّه مقدَّس عن التَّغيُّر والانتقال ، لا تحلُّه الحوادث ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزَّهاً عن الزَّوال ، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال ، وَأَنَّهُ فِي ذَاتِهِ مَعْلُومُ الْوُجُودِ بِالْعُقُولِ ، مَرْئِيُّ الذَّات بالأبصار ، نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار ، وَإِتْمَامًا مِنْهُ لِلنَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ" .

وأضاف الإمام الغزالي في " إحياء علوم الدِّين " (١٠٨/١) : " الأصل التَّاسع : العلم بأنَّه تعالىٰ مع كونه منزَّهاً عن الصُّورة والمقدار ، مقدَّساً عن الجهات والأقطار ، مرئي بالأعين والأبصار في الدَّار الآخرة دار القرار ، لقوله تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣] ، ولا يُرىٰ في الدُّنيا تصديقاً ، لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[الأنعام:١٠٣] ، ولقوله تعالىٰ في خطاب موسىٰ عليه السَّلام : ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] ، وليت شعري كيف عرف المعتزل من صفات ربِّ الأرباب ما جهله موسىٰ عليه السَّلام ؟ وكيف سأل موسىٰ عليه السَّلام الرُّؤية مع كونها محالاً ؟ ولعلَّ الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولىٰ من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم . وأمَّا وجه إجراء آية الرُّؤية علىٰ الظَّاهر فهو أنَّه غير مؤد إلىٰ المحال ، فإنَّ الرُّؤية نوع كشف وعلم إلَّا أنَّه أتم وأوضح من العلم ، فإذا جاز تعلُّق العلم به وليس في جهة جاز تعلُّق الرُّؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرىٰ الله تعالىٰ الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفيَّة وصورة جاز أن يُرىٰ كذلك" .

وقال الإمام عياض بن موسىٰ اليحصبي (٥٤٤هـ) في " إِكمَالُ الْمُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم " (٨٧/٨-٩١) : " واعلم أنَّ هذا الحديث غلط فيه ابن قتيبة وأجراه علىٰ ظاهره، وقال: فإنَّ الله سبحانه له صور لا كالصُّور، وأجرىٰ الحديث علىٰ ظاهره، والذىٰ قال لا يخفىٰ فساده؛ لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب، وكلّ مركَّب محدَث، والباري – سبحانه وتعالىٰ – ليس بمحدَث فليس بمركَّب، وما ليس بمركَّب

فليس بمصوَّر، وهذا من جنس قول المبتدعة: إنَّ الباري - جلَّ وعزَّ - جسم لا كالأجسام، لَّما رأوا أهل السُّنَّة قالوا: شيء لا كالأشياء طرد واحد، فقالوا: جسم لا كالأجسام. وقال ابن قتيبة: صورة لا كالصُّور.

والفرق بين ما قلناه وما قالوه: أنَّ لفظة " شيء " لا تفيد الحدوث ولا تتضمَّن ما يقتضيه، وقولنا: جسم وصورة يتضمَّن التَّأليف والتَّركيب، وذلك دليل الحدوث. وعجباً لابن قتيبة في قوله: صورة لا كالصُّور، مع كون هذا الحديث يقتضى ظاهره عنده خلق آدم على صورته، فقد صارت صورة الباري - سبحانه - على صورة آدم - عليه السَّلام - على ظاهر هذا على أصله، فكيف يكون على صورة آدم، ويقول: إنَّها لا كالصَّور. وهذا تناقض.

ويقال له أيضاً: إن أردت بقولك: صورة لا كالصُّور أنَّه ليس بمؤلَّف ولا مركَّب، فليس بصورة على الحقيقة، وأنت مثبت تسمية تفيد في اللغة معنى مستحيلاً عليه تعالى، مع نفى ذلك، فلم يعطِ اللفظ حقَّه ولم يجره على ظاهره.

فإذا سلَّمت أنَّه ليس على ظاهره ، فقد وافقت على افتقاره إلى التَّأويل ، وهذا الذي نقول به، فإذا ثبت افتقاره إلى التَّأويل قلنا: اختلف النَّاس في تأويله، فمنهم من أعاد الضَّمير إلى المضروب، وذكر أنَّ في بعض طرق الحديث أنَّه سمعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: " قبَّح الله وجهك ووجه من أشبهك " أو نحو هذا، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال، أمَّا على هذه الرِّواية - وهى شتم من أشبهه - فبيَّن وجه هذا التَّعليل؛ لأنَّه إذا شتم مَن أشبهه وآدم يشبهه فكأنَّه شتم آدم وغيره من الأنبياء عليهم السَّلام وإنَّما ذكر الأوَّل تنبيهًا عليه وعلى نبيّه .

وأمَّا على هذا الذي وقع في كتاب مسلم فيحتمل أن يكون تعبُّدًا لله - سبحانه - بتخصيص الوجه لهذه الكرامة لشبهه بآدم هنا ، إجلالاً لآدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا يبقى على هذا إلَّا أن يقال: فيجب أن يجتنب ما سواه من الأعضاء المشبهة لآدم، وجواب هذا: أنَّه لا يبعد أن يكون الله سبحانه يتعبَّد بما شاء الله، ولا تجعل هذه العلَّة جارية مطردة.

وقد اختصَّ الوجه بأمور جليلة ليست في غيره من الأعضاء؛ لأنَّ منه السَّمع والبصر، وبالبصر يدرك العالم ويرىٰ ما فيه من العجائب الدالَّة علىٰ عِظَم الله سبحانه ، وبالسَّمع يدرك الأقوال ، ويسمع أوامر النَّبيِّ عليه السَّلام ونواهيه، ويتعلَّم به سائر العلوم التي منها معرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة رسله عليهم السَّلام ، وفيه النُّطق الذي يميز به عن البهائم، وشرف به الإنسان عن سائر الحيوان، ومثل هذا التَّمييز لا يبعد أن يجعل سبباً في تمييزه بهذا الحكم.

وقال آخرون: إنَّ الضَّمير عائد علىٰ آدم نفسه. وعورض هؤلاء بأنَّ هذا يجعل الكلام عياً لا فائدة تحته، وأي فائدة في قولك: خلق زيد علىٰ صورة نفسه، والشَّجرة علىٰ صورتها نفسها؟ وهذا معلوم بالعقول ولا يقتصر إلىٰ خبر منقول. وأجاب أصحاب هذا التَّأويل عن هذا الاعتراض بأنَّ الفائدة فيه: التَّنبيه علىٰ من خالف الحقَّ من أصحاب المذاهب كالطَّبائعيِّين القائلين بأنَّ تصوير آدم كان عن بعض تأثيرات النُّجوم أو العناصر أو غير ذلك بما يهزؤون به، فأكذبهم النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. واحتراز الله سبحانه خلق آدم علىٰ صورته، أو أكذب الدَّهريَّة في قولهم: ليس ثمَّ إنسان أوَّل، وإنَّما إنسان من نطفة ونطفة من إنسان هكذا أبداً إلىٰ غير أوَّل، فأخبر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله – سبحانه اخترع صورة آدم ولم يكن مصوَّراً عن أب ولا كائناً عن تناسل، أو يكون أكذب القدريَّة في قولهم: إنَّ كثيراً من أعراض آدم وصفاته خلق لآدم، وأخبر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه مخلوق بجملة صورته.

وهذا التَّأويل الذي ذهب إليه هؤلاء – من إعادة الضمير إلىٰ آدم بنفسه – إنَّما يحسن إذا روىٰ لفظ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجرَّداً من السَّبب، مقتصراً منه علىٰ قوله: " إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته "، وأمَّا ذكر السَّبب، أو ذكر جميع ما حكاه مسلم عنه عليه السَّلام : " إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " ، فإنَّه لا يحسن صرف الضَّمير لآدم؛ لأنَّه ينفىٰ أن يكون بين السَّبب أو صدر الكلام وآخره ارتباط وتميز الكلام. وما وقع في كتاب مسلم في معنىٰ المسافر، وقد ذكر أنَّه روىٰ مختصراً مقتصراً فيه علىٰ ما قلناه. وقال بعض أئمَّتنا. هو من اختصار بعض الرُّواة.

وقال آخرون: إنَّ الضَّمير يعود إلى الله سبحانه ويكون له وجهان. أحدهما: أن يراد بالصُّورة الصِّفة، كما يقال: صورة فلان عند السُّلطان كذا، بمعنى صفته كذا. ولما كان آدم عليه السلام امتاز بصفات من الكمال تميز بالعقل والنُّطق عن البهائم، والنُّبوَّة على سائر بنيه سوى النَّبيِّين منهم، وله فضائل اختصّ بها، فكأنَّه شبهه من هذه الجهة باختصاص الله سبحانه بالرِّفعة والجلال، لا سيَّما وقد أمر الملائكة بالسُّجود له طاعة لله عزَّ وجلَّ. هذا المعنى ذكره بعض أصحابنا في التَّشبيه بعد.

والوجه الثَّاني: عند أصحاب هذا التَّأويل: أن تكون إضافة الصُّورة إضافة تشريف واختصاص، كما قيل في الكعبة: بيت الله، وإن كانت البيوت كلّها له عزَّ وجل وكما قال تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾[الأعراف:٧٣] إلى غير ذلك ممَّا وقع في الشَّريعة من أمثال هذا. وقد تميَّز آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن خلقه الله - جلَّت قدرته - بيده، ولم يقلبه في الأصلاب، ولا درجه من حال إلى حال، فتكون الإضافة إضافة اختصاص لهذا المعنى ولغيره.

وأمَّا من صرح بهذا الضَّمير وخرجه للوجود، فإنَّه يرد من جهة النّيل، وأنَّه ضعيف عند المحدِّثين.

واختلف أصحابنا في ردِّه من جهة اللسان، فقال بعضهم: ما يحسن مثل هذا في الكلام؛ لأنَّ اللفظ الظَّاهر إذا افتتح به، وأُعيد ذكره فإنَّما يعاد بالضَّمير، ولهذا يقال: زيد ضرب عبده، ولا يقال: ضرب زيد عبد زيد، ومرادهم بزيد الثَّاني زيد الأوَّل، قالوا: فلو كان ما قالوه صحيحاً لكانت العبارة عنه: " خلق آدم على صورته " كما وقع في الطُّرق الثَّابتة. وقال بعض أصحابنا: لا يستبعد هذا في اللسان، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[مريم:٨٥] ، ولم يقل: يوم يحشر المتَّقين إلينا. وقال بعضِ النُّحاة: من هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا﴾[البقرة:٩٥] ، وأنشد في ذلك قول عدي بن زيد:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء   يعض الموت ذا الغنى والفقير

وفي هذا كفاية.

قال القاضي: قد جاء في هذا الحديث نفسه ما أغنىٰ عمّا ذكر في بعض الأحاديث، بأنَّ مسلماً قد ذكر في هذا: " إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته "، فالهاء هاهنا عائدة علىٰ الأخ المنهىٰ أن يضرب وجهه ويستقيم الكلام، وتظهر فائدة الحديث ويزول الإشكال".

وقال الإمام ابن الجوزي في " : دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنزيه " (ص١١٨-١٢١) : " ... ومنها قوله تعالىٰ : ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾[القلم: ٤٢] ، قال ابن عبَّاس ومجاهد وإبراهيم النَّخعي وقتادة وجمهور العلماء : يكشف عن شدَّة ، وأنشدوا : وقامت الحرب بنا علىٰ ساق

وقال آخرون : إذا شمَّرت عن ساقها الحرب شمَّرا

قال ابن قتيبة : وأصل هذا أنَّ الرَّجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلىٰ معاناة الجدّ فيه ، شمَّر عن ساقه ، فاستعيرت السَّاق في موضع الشدَّة ، وبهذا قال الفرَّاء وأبو عبيد وثعلب واللغويُّون .

وروىٰ البخاري ومسلم في الصَّحيحين عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله عزَّ وجلَّ يكشف عن ساقه " ، هذه إضافة إليه ، معناها : يكشف عن شدَّته وأفعاله المضافة إليه ومعنىٰ يكشف عنها يزيلها .

وقال عاصم بن كليب رأيت سعيد بن جبير غضب ، وقال : يقولون يكشف عن ساقه ، وإنَّما ذلك عن أمر شديد . وقد ذكر أبو عمر الزَّاهد أنَّ السَّاق بمعنىٰ النَّفس ، وقال : ومنه قول علي رضي الله عنه لما قالت : البُغاة لا حكم إلَّا لله ، فقال : لا بدَّ من محاربتهم ولو تلفت ساقي ، فعلىٰ هذا يكون المعنىٰ : يتجلىٰ لهم ، وفي حديث أبي موسىٰ عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : يكشف لهم الحجاب فينظرون إلىٰ الله تعالىٰ ، فيخرُّون لله سجَّداً ، ويبقىٰ أقوام في ظهورهم مثل صياصي البقر يريدون السُّجود فلا يستطيعون ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[القلم: ٤٢] ، وقد ذهب القاضي أبو يعلىٰ إلىٰ أنَّ السَّاق صفة ذاتيَّة ، وقال مثله في : " يضع قدمه في النَّار" ، وحكي عن ابن مسعود : " ويكشف عن ساقه اليمنىٰ فتضيء من نور ساقه الأرض" .

قلت : وذكر السَّاق مع القدم تشبيه محض ، وما ذكر عن ابن مسعود محال ، ولا تثبت لله صفة بمثل هذه الخرافات ، ولا توصف ذاته سبحانه بنور شعاع تضيء به الأرض ، واحتجاجه بالإضافة ليس بشيء ، لأنَّه إذا كشف عن شدَّته فقد كشف عن ساقه ، وهؤلاء وقع لهم أنَّ معنىٰ : " يكشف " يظهر ، وإنَّما المعنىٰ : يزيل ويرفع .

قال ابن حامد : يجب الإيمان بأنَّ لله تعالىٰ ساقاً صفة لذاته ، فمن جحد ذلك كفر

قلت : ولو تكلَّم بهذا عاميٌّ جلف كان قبيحاً فكيف بمن يُنسب إلىٰ العلم ، فإنَّ المتأوِّلين أعذر منهم ، لأنَّهم ردُّوا الأمر إلىٰ اللغة ، وهؤلاء أثبتوا ساقاً للذَّات وقدماً حتَّىٰ يتحقَّق التَّجسيم والصُّورة" .

وقال الإمام ابن الجوزي في " : دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنزيه " (ص١٥٩-١٦٠) : " اعلم أنَّه يجب علىٰ كلّ مسلم أن يعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لا تجوز عليه الصُّورة التي هي هيئة وتأليف .

قال أبو سليمان الخطَّابي : معنىٰ فيأتيهم الله ، أي : يكشف الحجاب لهم حتَّىٰ يرونه عياناً كما كانوا عرفوه في الدُّنيا استدلالاً فرؤيته بعد أن لم يكونوا رأوه بمنزلة إتيان الآتي ولم يكن شوهد من قبل ، وأمَّا الصُّورة فتتأوَّل علىٰ وجهين :

أحدهما : أنَّها بمعنىٰ الصِّفة ، يقال : صورة الأمر كذا .

وَالثَّانِي: أنَّ المذكورات من المعبودات في أوَّل الحديث صور يخرج الكلام علىٰ نوعين من المطابقة ، وقوله في غير الصُّورة التي رأوه فيها دليل علىٰ أنَّ المراد بالصُّورة الصِّفة لأنَّهم ما رأوه قبلها ، فعلم أنَّ المراد الصِّفة التي عرفوه فيها .

وقال غيره من العلماء : يأتيهم بأهوال القيامة وصور الملائكة ممَّا لم يعهدوا مثله في الدُّنيا ، فيستعيذون من تلك الحال ، ويقولون : إذا جاء ربُّنا عرفناه ، أي : أتىٰ بما يعرفونه من لطفه وهي الصُّورة التي يعرفون ، فيكشف عن ساق ، أي : عن شدَّة ، كأنَّه يرفع تلك الشَّدائد المهولة فيسجدون شكراً ، وقال بعضهم : صورة يمتحن إيمانهم بها كما يبعث الدَّجَّال ، فيقولون : نعوذ بالله منك .

وفي حديث أبي موسىٰ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنَّ النَّاس يقولون : إنَّ لنا ربَّاً كنَّا نعبده في الدُّنيا ، فيقال : أوتعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون نعم ، فيقال : كيف تعرفونه ولم تروه ، فيقولون : أنَّه لا شبيه له فيكشف الحجاب فينظرون إلىٰ الله عز وجل فيخرون سجدا " .

قال ابن عقيل : الصُّورة علىٰ الحقيقة تقع علىٰ الأشكال والتَّخاطيط ، وذلك من صفات الأجسام ، والذي صرفنا عن كونه جسماً الأدلَّة القطعيَّة ، كقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورىٰ: ١١] .

ومن الأدلَّة العقليَّة : أنَّه لو كان جسماً لكان صورة وعَرَضَاً ، ولو كان حاملاً الأعراض ، جاز عليه ما يجوز علىٰ الأجسام ، وافتقر إلىٰ صانع ولو كان جسماً مع قِدَمِه ، جاز قِدَمُ أحدنا فأحوجتنا الأدلَّة إلىٰ تأويل صورة تليق أضافتها إليه ، وما ذاك إلَّا الحال الذي يوقع عليه أهل اللغة اسم صورة فيقولون : كيف صورتك مع فلان وفلان ؟ علىٰ صورة من الفقر . والحال التي أنكروها الغضب ، والتي يعرفونها اللطف ، فيكشف عن الشدَّة والتَّغيُّرات أليق بفعله، فأمَّا ذاته فتعالىٰ عن التَّغيُّر ، نعوذ بالله أن يُحمل الحديث علىٰ ما قالته المجسِّمة أنَّ الصُّورة ترجع إلىٰ ذاته ، فإنَّ في ذلك تجويز التَّغيُّر علىٰ صفاته ، فخرَّجوه في صورة إن كانت حقيقيَّة ، فذلك استحالة ، وإن كانت تخيُّلاً فليس ذلك هو إنَّما يريهم غيره ".

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) في " دفع شبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه" (ص١٤٣-١٤٧) : " ذكر الأحاديث التي سمُّوها أخبار الصِّفات :

اعلم أنَّ للأحاديث دقائق وآفات لا يعرفها إلَّا العلماء الفقها ،ء تارة في نظمها وتارة في كشف معناها ، وسنوضح بعض ذلك إن شاء الله تعالىٰ :

الحَدِيْثُ الأوَّلُ :

روىٰ البخاري (فتح ١١ / ٣) ومسلم (٤ / ٢٠١٧ برقم ١١٥) في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خلق الله آدم علىٰ صورته " .

قلت : للنَّاس في هذا مذهبان : أحدهما : السُّكوت عن تفسيره ، والثَّاني : الكلام في معناه ، واختلف أرباب هذا المذهب في " الهاء " علىٰ من تعود علىٰ ثلاثة أقوال :

أَحَدُهَا : تعود على بعض بني آدم ، وذلك أنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ برجل يضرب رجلاً ، وهو يقول : قبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فقال : " إذا ضرب أحدكم فليتَّق الوجه ، فإنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته" ، قالوا : وإنَّما اقتصر بعض الرُّواة على بعض الحديث ، فيحمل المقتصر على المفسّر ، قالوا : فوجه من أشبه وجهك يتضمَّن سبَّ الأنبياء والمؤمنين ، وإنَّما خصَّ آدم بالذِّكر لأنَّه هو الذي ابتدأت خلقة وجهه على هذه الصُّورة التي احتذي عليها من بعده ، وكأنَّه نبَّه على أنَّك سببت آدم وأنت من أولاده ، وذلك مبالغة في زجره ، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب ، ومن الخطأ الفاحش أن ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ بقوله : "ووجه من أشبه وجهك" ، فإنَّه إذا نسب إليه شبه سبحانه وتعالى كان تشبيهاً صريحاً .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٧ برقم ٢٦١٢) من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» .

القَوْلُ الثَّانِي : أنَّ الهاء كناية عن اسمين ظاهرين ، فلا يصحُّ أن يُضاف إلى الله عزَّ وجلَّ لقيام الدَّليل على أنَّه ليس بذي صورة ، فعادت إلى آدم ، ومعنى الحديث : أنَّ الله خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تامَّاً لم ينقله من نطفة إلى علقة كبنيه ، هذا مذهب أبي سليمان الخطَّابي ، وقد ذكره ثعلب في أماليه .

القَوْلُ الثَّالِثُ : أنَّها تعود إلى الله تعالى ، وفي معنى ذلك قولان :

أَحَدُهُمَا : أن تكون صورة مَلَك ، لأنَّها فعله فتكون إضافتها إليه من وجهين :

أَحدهمَا : التَّشريف بالإضافة ، كقوله تعالى : ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[البقرة:١٢٥] .

وَالثَّانِي : لأنَّه ابتدعها على غير مثال سابق ، وقد روي هذا الحديث من طريق ابن عمر عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : لا تقبِّح الوجه ، فإنَّ آدم خلق على صورة الرَّحمن .

قلت : هذا الحديث فيه ثلاثة علل :

أَحَدُهَا : أنَّ الثَّوري والأعمش اختلفا فيه فأرسله الثَّوري ورفعه الأعمش .

وَالثَّانِي : أنَّ الأعمش كان يدلِّس ، فلم يذكر أنَّه سمعه من حبيب بن أبي ثابت .

وَالثَّالِثَةُ : أنَّ حبيباً كان يدلِّس ، فلم يعلم أنَّه سمعه من عطاء .

قلت : وهذه أدلَّة تُوجب وَهْناً في الحديث ، ثمَّ هو محمول علىٰ إضافة الصُّورة إليه ملكاً .

وَالقَوْلُ الثَّانِي : أن تكون صورة بمعنىٰ الصِّفة تقول : هذا صُورة هذا الأمر ، أي : صفته ، ويكون المعنىٰ : خلق آدم علىٰ صفته من الحياة والعلم والقدرة والسَّمع والبصر والإرادة والكلام ، فميَّزه بذلك علىٰ جميع الحيوانات ، ثمَّ ميَّزه علىٰ الملائكة بصفة التَّعالي حين أسجدهم له ، وقال ابن عقيل : إنَّما خصَّ آدم بإضافة صورته إليه لتخصيصه وهي السَّلطنة التي تشاكلها الرُّبوبيَّة استعباداً وسجوداً وأمراً نافذاً وسياسات تعمر بها البلاد ويصلح به العباد ، وليس في الملائكة والجنّ من تجمع علىٰ طاعة نوعه وقبيلته سوىٰ الآدمي ، وإنَّ الصُّورة ها هنا معنويَّة لا صورة تخاطيط ، وقد ذهب أبو محمَّد بن قتيبة في هذا الحديث إلىٰ مذهب قبيح ، فقال : لله صورة لا كالصُّور ، فخلق آدم عليها ، وهذا تخليط وتهافت ، لأنَّ معنىٰ كلامه أنَّ صورة آدم كصورة الحقّ .

وقال القاضي أبو يعلىٰ : يطلق علىٰ الحقِّ تسمية الصُّورة لا كالصُّور ، كما أطلقنا اسم ذاته .

قلت : وهذا تخليط لأنَّ الذَّات بمعنىٰ الشَّيء ، وأمَّا الصُّورة فهي هيئة وتخاطيط وتأليف وتفتقر إلىٰ مصوِّر ومؤلِّف ، وقول القائل لا كالصُّور نقض لما قاله ، وصار بمثابة من يقول : جسم لا كالأجسام ، فإنَّ الجسم ما كان مؤلَّفاً ، فإذا قال : لا كالأجسام نقض ما قال" .

وقال الإمام ابن الجوزي في " دفع شبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه" (ص١٤٨ فما بعدها) : " **الحَدِيْثُ الثَّانِي**: روىٰ عبد الرَّحمن بن عائش رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : رأيت ربِّي في أحسن صورة، فقال لي : فيم يختصم الملأ الأعلىٰ يا محمَّد ؟ قلت : أنت أعلم يا ربّ ، فوضع كفَّه بين كتفي حتَّىٰ وجدت برْدها بين ثديي فعلمت ما في السَّموات والأرض .

قال أحمد رضي الله عنه : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة ، يرويه معاذ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكلّ أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح ، ورواه قتادة عن أنس ، واختلف علىٰ قتادة فرواه يوسف بن عطيَّة عن قتادة ، ووهم فيه ورواه هشام عن قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عبَّاس ، ووهم في قوله عن ابن عبَّاس ، وإنَّما رواه خالد عن عبد الرَّحمن بن عائش

، وعبد الرَّحمن لم يسمعه من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإنَّما رواه عن مالك بن يخامر عن معاذ .

قلت : قد ذكرنا أنَّه لا يصحُّ . وقال أبو بكر البيهقي : فقد روي من أوجه كلّها ضعيفة ، وأحسن طرقه تدلُّ علىٰ أنَّ ذلك كان في النَّوم .

وقد روي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أتاني آت في أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ فقلت : لا أدري ، فوضع كفه بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعرفت كلّ شيء يسألني عنه .

وروي من حديث ثوبان قال : خرج علينا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلاة الصُّبح ، فقال : إنَّ ربي أتاني الليلة في أحسن صورة ، فقال لي : يا محمَّد فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ قلت : لا أدري يا رب ، فوضع كفَّه بين كتفي حتَّىٰ وجدت برد أنامله في صدري ، فتجلَّىٰ لي ما بين السَّماء والأرض ".

وروي عن أبي عبيدة بن الجرَّاح عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : لَمَّا كنت ليلة أُسري بي رأيت ربِّي في أحسن صورة .

قلت : وهذه أحاديث مختلفة وليس فيها ما يثبت ، وفي بعضها : " أتاني آت" ، وذلك يرفع الأشكال ، وأحسن طرقها يدلُّ علىٰ أنَّ ذلك كان في النَّوم ، ورؤيا المنام وهْمٌ ، والأوهام لا تكون حقائق ، وأنَّ الإنسان يرىٰ كأنَّه يطير أو كأنَّه قد صار بهيمة ، وقد رأىٰ أقوام في منامهم الحقَّ سبحانه علىٰ ما ذكرنا ، وإن قلنا أنَّه رآه في اليقظة ، فالصُّورة إن قلنا ترجع إلىٰ الله تعالىٰ فالمعنىٰ : رأيته علىٰ أحسن صفاته من الإقبال عليَّ والرِّضى عنِّي ، وإن قلنا ترجع إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالمعنىٰ : رأيته وأنا علىٰ أحسن صورة .

قلت : والعجب مع اضطراب هذه الأحاديث وكون مثلها لا يثبت به حكم في الوضوء ، كيف يحتجُّون بها في أصول الدِّين والعقائد ؟ وروىٰ ابن حامد من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : ولَمَّا أسرىٰ بي رأيت الرَّحمن تعالىٰ في صورة شاب أمرد ، له نور

يتلألأ ، وقد نهيت عن وصفه لكم ، فسألت ربِّي أن يكرمني برؤيته ، وإذا هو كأنَّه عروس حين كشف عن حجابه مستو على عرشه " .

قلت : هذا الحديث كذب قبيح ، ما روي قطُّ لا في صحيح ولا في كذب ، فأبعد الله من عمله ، فقد كنَّا نقول ذلك في المنام ، فذكر الوضَّاع هذا في ليلة الإسراء ، كافأهم الله ، وجزاهم النَّار ، يشبِّهون الله سبحانه بعروس ، لا يقول هذا مسلم .

وأمَّا ذكر البرد في الحديث الماضي ، فإنَّ البرد عَرَضٌ ، لا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى ، وقد ذكر القاضي أبو يعلى في كتاب " الكفاية" عن أحمد : رأيت ربِّي في أحسن صورة ، أي : في أحسن موضع.

الحَدِيْثُ الثَّالِثُ :

روت أمُّ طفيل امرأة أُبي بن كعب رضي الله عنهما أنَّها سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر أنَّه رأى ربَّه عزَّ وجلَّ في المنام في أحسن صورة ، شابَّاً موفراً ، رِجْلاه في خضرة ، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب .

قلت : هذا الحديث يرويه نعيم بن حمَّاد بن معاوية المروزي ، قال ابن عدي : كان يضع الحديث ، وقال يحيى بن معين : ليس نعيم بشيء في الحديث . وفي إسناده مروان بن عثمان عن عمارة بن عامر قال أبو عبد الرَّحمن النَّسائي : ومن مروان حتَّى يصدق على الله عزَّ وجلَّ ؟!! وقال مهنى بن يحيى : سألت أحمد عن هذا الحديث فأعرض بوجهه ، وقال : هذا حديث منكر مجهول يعني مروان بن عثمان ، قال : ولا يعرف أيضاً عمارة ، وقد روى عبيد الله بن أبي سلمة ، قال : بعث ابن عمر إلى عبد الله بن عبَّاس يسأله : هل رأى محمَّد ربَّه ، فأرسل إليه : أن نعم ، قد رآه ، فرد الرَّسول إليه كيف رآه ؟ قال : رآه على كرسي من ذهب يحمله أربعة من الملائكة في صورة رجُل .

قلت : وهذا الحديث تفرَّد به ابن إسحاق وكذَّبه جماعة من العلماء ، وفي رواية عن ابن عبَّاس رآه ، كأنَّ قدميه على خضرة دونه ستر من لؤلؤ .

قلت : وهذا يرويه إبراهيم بن الحكم بن أبان ، وقد ضعَّفه يحيىٰ بن معين وغيره ، وفي رواية ابن عبَّاس رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال : رأيت ربي أجعد أمرد ، عليه حلَّة خضراء " . قلت : وهذا يُرویٰ من طريق حمَّاد بن سلمة ، وكان ابن أبي العوجاء الزَّنديق ربيب حمَّاد يدسُّ في كتبه هذه الأحاديث ، علىٰ أنَّ هذا كان مناماً والمنام خيال .

ومثل هذه الأحاديث لا ثبوت لها ، ولا يحسن أن يحتجّ بمثلها في الوضوء !!! وقد أثبت بها القاضي أبو يعلىٰ لله تعالىٰ صفات ، فقال : قوله : شاب ، وأمرد ، وجعد ، وقطط ، والفراش ، والنَّعلان ، والتَّاج ، قال : ثبت ذلك تسمية لا يعقل معناها ، وليس في إثباتها أكثر من تقريب المحدث من القديم ، وذلك جائز ، كما روي يدني عبده إليه يعني يقرِّبه إلىٰ ذاته .

قلت : ومن يثبت بالمنام وبما لا يصحُّ نقله صفات ، وقد عرفنا معنىٰ الشَّاب والأمرد ما هو ؟ ثمَّ يقول ما هو كما نعلم كمن يقول : قام فلان وما هو قائم ، وقعد وليس بقاعد ، قال ابن عقيل : هذا الحديث مقطوع بأنَّه كذب ، ثمَّ لا تنفع ثقة الرُّواة إذا كان المتن مستحيلاً ، وصار هذا كما لو أخبرنا جماعة من المعدّلين بأنَّ جمل البزَّاز دخل في خرم إبرة الخيَّاط ، فإنَّه لا حكم لصدق الرُّواة مع استحالة خبرهم .

الحَدِيْثُ الرَّابِعُ :

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ،قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انتهيت ليلة أسري بي إلىٰ السَّماء ، فرأيت ربِّي ، فرأيت كلّ شيء من ربِّي ، حتَّىٰ لقد رأيت تاجاً مخوَّصا من لؤلؤ".

قلت : هذا يرويه أبو القاسم عبد الله بن محمَّد بن اليسع عن القاسم بن إبراهيم ، قال الأزهري : كنت أقعد مع ابن اليسع ساعة فيقول : قد ختمت الختمة منذ قعدت !!! وقاسم ليس بشيء ، قال الدَّارقطني : هو كذَّاب .

قلت : كافأ الله من عمل مثل هذا الحديث .

الحَدِيْثُ الخَامِسُ :

رویٰ البخاري ومسلم في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " يَجْمَعُ اللهُ النَّاس يَوْمَ القِيَامَةِ، فيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا – شَكَّ إِبْرَاهِيمُ –، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حتَّىٰ يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ" .

وفي الصَّحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ : " ... فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلّ مُؤْمِنٍ ...

قال الإمام الرَّازي في " أساس التَّقديس " (ص١٦٣ فما بعدها) : " ... اعلم أنَّ هذه اللفظة ما وردت في القرآن ، لكنَّها واردة في الأخبار :

الخَبَرُ الأَوَّلُ : ما روي عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : أنَّ الله تعالىٰ خلق آدم علىٰ صورته" ، ورویٰ ابن خزيمة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال ، لا يقولنَّ أحدكما لعبده : قبَّح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " .

والجواب : اعلم : أنَّ الهاء في قوله : "علىٰ صورته" يحتمل أن يكون عائداً إلىٰ شيء غير صورة آدم عليه السَّلام ، وغير الله تعالىٰ ، ويحتمل أن يكون عائداً إلىٰ آدم ، ويحتمل أن يكون عائداً إلىٰ الله تعالىٰ ، فهذه طرق ثلاث :

الطَّريق الأوَّل : أن يكون هذا الضَّمير عائداً إلىٰ غير آدم ، وإلىٰ غير الله تعالىٰ ، وعلىٰ هذا التَّقدير ففي تأويل الخبر وجهان :

الأَوَّلُ : هو أنَّ من قال لإنسان : قبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فهذا يكون شتماً لآدم عليه السَّلام ، فإنَّه لَّما كانت صورة هذا الإنسان مشابهة لصورة آدم كان قوله : قبَّح الله وجهك ،

ووجه من أشبه وجهك : شتماً لآدم عليه السَّلام ، ولجميع الأنبياء عليهم السَّلام ، وذلك غير جائز ، فلا جرم نهىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك ، وإنَّما خصَّ آدم بالذِّكر ، لأنَّه عليه السَّلام هو الذي ابتدئت خلقة وجهه علىٰ هذه الصُّورة .

الثَّانِي : أنَّ المراد منه : إبطال قول من يقول : أنَّ آدم كان علىٰ صورة أخرىٰ ، مثل ما يقال أنَّه كان عظيم الجثَّة ، طويل القامة ، بحيث يكون رأسه قريباً من السَّماء ، فالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إلىٰ إنسان معيَّن ، وقال : " إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته" ، أي : كان شكل آدم ، مثل شكل هذا الإنسان ، من غير تفاوت البتَّة ، فأبطل هذا البيانُ : وَهْمَ من توهَّم أنَّ آدم عليه السَّلام كان علىٰ صورة أخرىٰ غير هذه الصُّورة .

الطَّرِيْقُ الثَّانِي : أن يكون الضَّمير عائداً إلىٰ آدم عليه السَّلام ، وهذا أولىٰ الوجوه الثَّلاثة ، لأنَّ عود الضَّمير إلىٰ أقرب المذكورات واجب ، وفي هذا الحديث : أقرب الأشياء المذكورة هو آدم عليه السَّلام ، فكان عود الضَّمير إليه أولىٰ ، ثمَّ علىٰ هذا الطَّريق ففي تأويل الخبر وجوه :

الأَوَّلُ : أنَّه تعالىٰ لما عظَّم أمر آدم ، بجعله مسجود الملائكة ، ثمَّ أنَّه أتىٰ بتلك الزلَّة ، فالله تعالىٰ لم يعاقبه بمثل ما عاقب به غيره ... بل تركه علىٰ الخِلقة الأولىٰ إكراماً له وصوناً له علىٰ عذاب المسخ ، فقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله تعالىٰ علىٰ صورته " ، معناه : خلق آدم علىٰ (هذه الصُّورة) التي هي الآن باقية من غير وقوع التَّبديل فيها ، والفرق بين هذا الجواب ، والذي قبله : أنَّ المقصود من هذا : بيان أنَّه عليه السَّلام كان مصوناً عن المسخ ، والجواب الأوَّل : ليس فيه إلَّا بياناً أن هذه الُّصورة الموجودة ، ليست إلَّا هي التي كانت موجودة من قبل ، من غير تعرُّض لبيان أنَّه جعل مصوناً عن المسخ ، بسبب زلَّته مع أنَّ غيره صار ممسوخاً .

الثَّاني : المراد منه : إبطال قول الدَّهريَّة ، الذين يقولون : أنَّ الأنسان لا يتولَّد إلا بواسطة النُّطفة ، ودم الطَّمث ، فقال عليه السَّلام : إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته ابتداء من غير تقدم نطفة وعلقة ومضغة .

الثَّالِثُ : إنَّ الإنسان لا يتكوَّن إلَّا في مدَّة طويلة وزمان مديد ، بواسطة الأفلاك والعناصر ، فقال عليه السَّلام :"إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته" ، أي : من غير هذه الوسائط ، والمقصود منه : الرَّد علىٰ الفلاسفة .

الرَّابِعُ : المقصود منه بيان أنَّ هذه الصُّورة الإنسانيَّة إنَّما حصلت لتخليق الله تعالىٰ وإيجاده ، لا بتأثير القوَّة المصوّرة والمولودة ، علىٰ ما تذكره الأطبَّاء والفلاسفة ، ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ**﴾[الحشر:٢٤] ، فهو الخالق ، أي : فهو العالم بأحوال الممكنات والمحدثات ، و "البارئ" ، أي : هو المحدث للأجسام والذَّوات بعد عدمها ، و"المصوِّر" ، أي : هو الذي يركِّب تلك الذَّوات علىٰ صورها المخصوصة وتركيباتها المخصوصة .

الخَامِسُ : قد تذكر الصُّورة ويُراد بها الصِّفة ، يقال بها : شرحتُ له صورةَ هذه الواقعة ، وذكرت له صورة هذه المسألة ، والمراد من الصُّورة في كلّ هذه المواضع : الصِّفة ، فقوله عليه السَّلام : " إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " ، أي : علىٰ جملة صفاته ، وأحواله ، وذلك لأنَّ الإنسان حين يحدث ، يكون في غاية الجهل والعجز ، ثمَّ لا يزال يزداد علمه وقدرته ، إلىٰ أن يصل إلىٰ حدِّ الكمال ، فبيَّن النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ آدم خلق من أوَّل الأمر كاملاً تماماً في علمه وقدرته ، وقوله : "خلق آدم علىٰ صورته" ، معناه : أنَّه خلقه في أوَّل الأمر علىٰ صفته التي كانت حاصلة له في آخر الأمر .

وأيضاً : لا يبعد أن يدخل في لفظة الصُّورة كونه سعيداً أو شقيّاً ، كما قال عليه السَّلام : "السَّعيد من سعد في بطن أمِّه ، والشَّقيُّ من شقىٰ في بطن أمِّه " ، فقوله عليه السَّلام : " إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " ، أي : علىٰ جميع صفاته من كونه سعيداً أو عارفاً أو تائباً أو مقبولاً من عند الله تعالىٰ.

الطَّريق الثَّالث : أن يكون ذلك الضَّمير عائداً إلىٰ الله تعالىٰ ، وفيه وجوه :

الأَوَّلُ : المراد من الصُّورة : الصِّفة – كما بينَّاه – فيكون المعنىٰ : أنَّ آدم امتاز علىٰ سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالماً بالمعقولات ، قادراً علىٰ استنباط الحرف والصِّناعات ، وهذه صفات شريفة مناسبة لصفات الله تعالىٰ من بعض الوجوه ، فصحَّ قوله عليه السَّلام : " أنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته" ، بناء علىٰ هذا التَّأويل ، فإن قيل : المشاركة في صفات الكمال تقتضىٰ المشاركة في الإلهيَّة ،

قلنا : المشاركة في بعض اللوازم البعيدة مع حصول المخالفة في الأمور الكثيرة ، لا تقتضي المساواة في الإلهيَّة ، ولهذا المعنى ، قال تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الروم:٢٧] ، وقال عليه السَّلام : " تخلَّقوا بأخلاق الله " .

الثَّانِي : أنَّه كان يصحُّ إضافة الصِّفة إلى الموصوف ، فقد يصحُّ إضافتها إلى الخالق والموجد ، فيكون الغرض من هذه الإضافة : الدّلالة على أنَّ هذه الصُّورة ممتازة عن سائر الصُّور بمزيد الكرامة والجلالة .

الثَّالِثُ : قال الشَّيخ الغزالي رحمه الله : ليس الإنسان عبارة عن هذه البنية ، بل هو موجود ، ليس في جسم ولا بجسماني ، ولا تعلُّق له بهذا البدن ، إلَّا على سبيل التَّدبير أو التَّصرُّف فقوله عليه السَّلام : " أنَّ الله خلق آدم على صورته" ، أي : أنَّ نسبة ذات آدم عليه السَّلام إلى هذا البدن كنسبة البارئ تعالى إلى العالم ، من حيث أنَّ كلّ واحد منهما غير حالٍّ في هذا الجسم ، وإن كان مؤثِّراً فيه بالتَّصرُّف والتَّدبير ، والله أعلم .

الخَبَرُ الثَّاني : ما رواه بن خزيمة في كتابه الذي سمّاه بـ "التَّوحيد" بإسناده عن بن عمر ـ رضى الله عنه ـ عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تقبِّحوا الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحمن".

وعلم : أنَّ ابن خزيمة ضعَّف هذه الرِّواية ، ويقول : إن صحَّت هذه الرِّواية فلها تأويلان :

الأَوَّلُ : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة على ما بيَّناه .

الثَّانِي : أن يكون المراد من هذه الإضافة : بيان شرف هذه الصُّورة كما في قوله : بيت الله ، وناقة الله.

الخَبرُ الثَّالِثُ : ما روى صاحب شرح السُّنَّة رحمه الله في كتابه ، في باب آخر من يخرج من النَّار عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل ، عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أنَّه قال : فيأتيهم الله في غير الصُّورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربُّكم ، فيقولون : نعوذ بالله هذا مكاننا ، حتَّى يأتينا ربُّنا ، فإنَّ بيننا وبينه علامة ، فإذا أتانا ربُّنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصُّورة التي يعرفون ، فيقولون أنت ربُّنا ، فيتبعونه .

واعلم : أنَّ الكلام على هذا الحديث من وجهين :

الأَوَّلُ : أن تكون في بمعنىٰ الباء ، والتَّقدير فيأتيهم الله بصورة غير الصُّورة التي عرفوه بها في الدُّنيا وذلك بأن يريهم مَلَكاً من الملائكة ، ونظيره : قول بن عبَّاس رضي الله عنه في قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[البقرة:٢١٠] ، أي : بظلل من الغمام ثمَّ أنَّ تلك الصُّورة تقول أنا ربُّكم ، وكأنَّ ذلك آخر محنة تقع للمكلَّفين في دار الآخرة وتكون الفائدة فيه تثبيت المؤمنين علىٰ القول الصَّالح ، وإنَّما يقال : الدُّنيا دار محنة ، والآخرة دار الجزاء : علىٰ الأعم والأغلب ، وإن كان يقع في كلّ واحدة منهما ما يقع في الأخرىٰ نادراً .

أمَّا قوله عليه السَّلام : " أنَّهم يقولون : إذا جاء ربُّنا عرفناه" ، فيحمل علىٰ أن يكون المراد : فإذا جاء إحسان ربُّنا عرفناه، وقوله : فيأتيهم الله في الصُّورة التي يعرفونها فمعناه : يأتيهم بالصُّورة التي يعرفون أنَّها من إمارات الإحسان .

وأمَّا قوله عليه السَّلام : "فيقولون : بيننا وبينه علامة " ، فيحتمل أن تكون تلك العلامة : كونه تعالىٰ في حقيقته مخالفاً للجواهر والأعراض ، فإذا رأوا تلك الحقيقة عرفوا أنَّه هو الله .

التَّأويل الثَّاني : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة ، والمعنىٰ : أن يظهر لهم من بطش الله وشدَّة بأسه ، ما لم يلقوه ولم يعتادوه من معامله الله تعالىٰ معهم ، ثمَّ تأتيهم بعد ذلك أنواع الرَّحمة والكرامة ، علىٰ الوجه الذي اعتادوه وألفوه .

الخَبَرُ الرَّابعُ : ما روي عنه عليه السَّلام أنَّه قال : " رأيت ربِّي في أحسن صوة " . واعلم : أنَّ قوله عليه السَّلام في أحسن صورة يحتمل أن يكون من صفة الرَّائي ، كما يقال : دخلت علىٰ الأمير علىٰ أحسن هيئة ، أي : وأنا كنت علىٰ أحسن هيئة ، ويحتمل أن يكون ذلك من صفات المرئي .

فإن كان ذلك من صفات الرَّائي ، كان قوله : "علىٰ أحسن صوة" عائداً إلىٰ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وفيه وجهان :

الأَوَّلُ : أن يكون المراد من الصُّورة : نفس الصُّورة ، فيكون المعنىٰ : أنَّ الله تعالىٰ زيَّن خلقه وجمَّل صورته عندما رأىٰ ربَّه ، وذلك يكون سبباً لمزيد الإكرام في حقِّ الرَّسول عليه السَّلام .

الثَّانِي : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة ، ويكون المعنىٰ : الأخبار عن حسن حاله عند الله ، وأنَّه أنعم عليه بوجوه عظيمة من الأنعام كما كان ، وذلك لأنَّ الرَّائي قد يكون بحيث يتلقَّاه المرئي بالإكرام والتَّعظيم ، وقد يكون بخلافه : فعرَّفنا الرَّسول عليه السَّلام أنَّ حالته كانت من القسم الأول .

وأمَّا إن كان عائداً إلىٰ المرئي ففيه وجوه :

الأَوَّلُ : أن يكون عليه السَّلام رأىٰ ربَّه في المنام ، في صورة مخصوصة وذلك جائز ، لأنَّ الرُّؤيا من تصرُّفات الخيال ، ولا ينفكَّ ذلك عن صورة متخيَّلة .

الثَّانِي : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة ، وذلك لأنَّه تعالىٰ لَمَّا خصَّه بمزيد الإكرام والإنعام في الوقت الذي رآه ، صحَّ أن يقال في العرف المعتاد : إنِّي رأيته علىٰ أحسن صورة وأجمل هيئة .

الثَّالِثُ : لعلَّه عليه السَّلام لَمَّا رآه اطلع علىٰ نوع من صفات الجلال والعزَّة والعظمة ، ما كان مطلعاً عليه قبل ذلك .

الخَبَرُ الخَامِسُ : ما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : رأيت ربِّي في أحسن صورة ، قال : فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما بين السَّماء والأرض ، ثمَّ قال : يا محمَّد ، قلت : لبَّيك وسعديك ، قال : فيما يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ فقلت : يا ربّ لا أدري ، فقال : في أداء الكفَّارات ، والمشي علىٰ الأقدام إلىٰ الجماعات وإسباغ الوضوء علىٰ الكراهات ، وانتظار الصَّلاة بعد الصلاة .

واعلم : أنَّ قوله : "رأيت ربِّي في أحسن صورة "، قد تقدم تأويله .

وأمَّا قوله : "وضع يده بين كتفي " ، ففيه وجهين :

الأَوَّلُ : المراد منه : المبالغة في الاهتمام بحالة ، والاعتناء بشأنه ، يقال : لفلان يد في هذه الصَّنعة ، أي هو كامل فيها .

الثَّانِي : أن يكون المراد من اليد : النِّعمة : يقال ، لفلان يد بيضاء ، ويقال : إنَّ أيادي فلان كثيرة ، وأمَّا قوله : " بين كتفي " ، فإن صحَّ ، فالمراد منه أنَّه أوصل إلىٰ قلبه من أنواع اللطف والرَّحمة ، وقد روي " بين كنفي" ، والمراد منه : مثل ما يقال : أنا في كنف فلان ، وفي ظلِّ انعامه .

وأمَّا قوله : " فوجدت بردها" ، فيحتمل أنَّ المعنىٰ : برد النعمة وروحها وراحتها ، من قولهم : عيش بارد ، إذا كان رغداً ، ويحتمل كمال المعارف ، والذي يدلُّ علىٰ أنَّ المراد منه : كمال المعارف : قوله عليه السَّلام في آخر الحديث : " فعلمت ما بين المشرق والمغرب "، وما ذلك إلَّا لأنَّ الله تعالىٰ أنار قلبه وشرح صدره بالمعارف ، وفي بعض الرِّوايات : " فوجدت برِّد أنامله " ، وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالىٰ " .

وقال الإمام الرَّازي في " شرح الأسماء الحسنىٰ" (ص٢١٧-٢١٩) : " وأمَّا المصوِّر فهو مأخوذ من الصُّورة ، وفي اشتقاق لفظ الصُّورة قولان :

الأَوَّلُ : من الصوَر وهو الإمالة ، قال تعالىٰ : ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾[البقرة:٢٦٠] ، أي : أملهن ، وفي حديث عكرمة ، "وحملة العرش كلُّهم صور " ، يريد جمع الصُّور ، وهو مائل العين ، فالصُّورة هي الشَّكل المائل إلىٰ الأحوال المطابقة للمصلحة والمنفعة .

وَالثَّانِي : أَّن الصُّورة مأخوذة من صار يصير ، ومنه قولهم : إلىٰ ماذا صار أمرك ، ومادَّة الشَّيء هي الجزء الذي باعتباره يكون الشَّيء ممكن الحصول ، وصورته هي الجزء الذي باعتباره يكون الشَّيء حاصلاً كائناً لا محالة ، فلا جرم كانت الصُّورة منتهىٰ الأمر ومصيره .

إذا عرفت هذا فنقول : لا شكَّ أنَّ الأجسام متساوية في ذاتها ، ويرىٰ كلّ جسم مختصَّاً بصورة خاصَّة ، وشكل خاص ، والذَّوات المتماثلة إذا اختلفت في الصِّفات كانت تلك الصِّفات جائزة العدم والوجود ، والجائز لا بدَّ له من مرجع ومخصّص ، فافتقرت الأجسام بأسرها في صورها المخصوصة ، وأشكالها المخصوصة إلىٰ مخصص قادر ، وهو الله سبحانه فثبت أنَّ سبحانه وتعالىٰ هو المصوِّر ، ثمَّ أنَّه سبحانه خصَّ صورة الإنسان بمزيد العناية ، كما قال : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

صُوَرَكُمْ﴾[غافر:٦٤] ، وقال بعد أن شرح خلق الإنسان : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٤] ، هذا هو الكلام في تفسير هذه الأسماء الثلاثة .

المسألة الرَّابعة : في كلام المشايخ في اسمه الخالق والبارئ والمصوِّر : في هذه الأسماء قالوا : الخالق هو الذي بدأ الخلق بلا مشير وأوجدها بلا وزير ، وقيل : الخالق الذي ليس لذاته تأليف ، ولا عليه في قوله تكليف ، وقيل : الخالق الذي ليس لذاته تأليف ، ولا عليه في قوله تكليف ، وقيل : الخالق الذي أظهر الموجودات بقدرته ، وقدر كلّ واحد منها بمقدار معين بإرادته ، وقيل : الخالق الذي خلق الخلق بلا سبب وعلَّة ، وأنشأها من غير جلب نفع ولا دفع مضرَّة .

حكي عن جعفر بن سليمان أنَّه قال : مررت بعجوز مكفوفة تنوح على نفسها ، فقلت لها : ما معاشك ؟ فقالت : دع هذه الفضول ، بلغت هذا المبلغ فما أحوجني إليك ولا إلى غيرك ، ثمَّ قالت : أما سمعت قول الخليل عليه السَّلام : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء:٧٨-٨٠] .

أمَّا البارئ فقالوا : من عرف أنَّه البارئ لم يكن للحوادث في قلبه أثر ، ولا للشَّواهد على سرّه خطر ، وقيل : من عرف أنَّه البارئ تبرَّأ عن حول نفسه وسطوته ، ولا يمن على الحضرة بعبوديَّته وطاعته ، وقيل من عرف أنَّه البارئ فني عن مساكنة الأغيار ، وسقط عن سرِّه ملاحظة الآثار ، وقيل : من عرف أنَّه البارئ تبرَّأ عن المحظور ، والتجأ إلى الملك الغفور .

أمَّا المصور فقالوا : أنَّه الذي سوَّى قامتك ، وعدل خلقتك ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤] ، وقيل : المصوِّر من زين الظَّواهر عموماً ، ونوَّر السَّرائر خصوصاً ، وقيل : المصِّور الذي ميَّز العوام من البهائم بتسوية الخلق ، وميَّز الخواص من العوام بتصفية الخلق .

واعلم أنَّه تعالى كما زيَّن الظَّواهر بالصُّورة الحسنة ، زيَّن البواطن أيضاً بالسِّيرة الحسنة ، وبهذا المعنى قال تعالى في تعظيم العلم : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

[النساء:١١٣] ، وقال في تعظيم الخلق : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤] ، فالمرء مشهور بخلقه مستور بخلقه .

قال يحيى بن معاذ : إذا سكت فأنا من النَّاس واحد ، وإذا نطقت فأنا في النَّاس واحد ، ولهذا قيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : " ما واحد خير من ألف مثله إلَّا الإنسان " .

المسألة الخامسة : حظُّ العبد من هذه الأسماء الثَّلاثة قليل ، أمَّا الخالق فقد رجع حاصله إلى العلم ، وأمَّا البارئ فقد رجع حاصله إلى القدرة ، فحظُّ العبد من الأوَّل تكميل القوَّة النَّظريَّة بمعرفة الحقائق ، ومن الثَّاني تكميل القوَّة العملية بمحاسن الأخلاق ، وإليهما الإشارة بقول الخليل : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾[الشعراء:٨٣] ، إشارة إلى تكميل القوَّة النَّظريَّة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] ، إشارة إلى تكميل القوَّة العمليَّة ، فإذا صار هكذا فقد صار تامَّاً في ذاته تماماً يليق بالبشريَّة ، فيجب بعده أن يشتغل بتكميل غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾[يوسف:١٠٨] ، وهذا هو حظُّ العبد من اسمه المصوِّر ، لأنَّه بإرشاده يصوِّر الحقّ في عقول الخلق " .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦ هـ) في " المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم " (٧/ ١٨٣-١٨٤) : " و(قوله: خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُوْرَتِه) هذا الضَّمير عائد على أقرب مذكور، وهو آدم، وهو أعمّ، وهذا الأصل في عود الضَّمائر، ومعنى ذلك: أنَّ الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردد في الأرحام أطواراً؛ إذ لم يخلقه صغيراً فكبر، ولا ضعيفاً فقوي، بل خلقه رجلاً كاملاً سويَّاً قويَّاً، بخلاف سُنَّة الله في ولده، ويصحُّ أن يكون معناه للإخبار عن أنَّ الله تعالى خلقه يوم خلقه على الصُّورة التي كان عليها بالأرض، وأنَّه لم يكن في الجنَّة على صورة أخرى، ولا اختلفت صفاته، ولا صورته، كما تختلف صور الملائكة والجنّ، والله تعالى أعلم.

ولو سلَّمنا أنَّ الضَّمير عائد علىٰ الله تعالىٰ لصحَّ أن يقال هنا: إنَّ الصُّورة بمعنىٰ الصِّفة، وقد بيَّنَّاه فيما تقدَّم. وقد ذكرنا في قوله: " أوَّل زمرة يدخلون الجنَّة علىٰ صورة القمر "، فإنَّ معناه علىٰ صفته من الإضاءة، لا علىٰ صورته من الاستدارة" .

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٤/١٣-١٤) : " قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْعَبَّاسِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: مُتَّبِعُو الْمُتَشَابِهِ لَا يَخْلُو أَنْ يَتَّبِعُوهُ ويجمعوه طلباً للتَّشكيك فِي الْقُرْآنِ وَإِضْلَالِ الْعَوَامِّ، كَمَا فَعَلَتْهُ الزَّنَادِقَةُ وَالْقَرَامِطَةُ الطَّاعِنُونَ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ طَلَبًا لِاعْتِقَادِ ظَوَاهِرِ الْمُتَشَابِهِ، كَمَا فَعَلَتْهُ الْمُجَسِّمَةُ الَّذِينَ جَمَعُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الْجِسْمِيَّةُ حتَّىٰ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَىٰ جِسْمٌ مُجَسَّمٌ وصورة مصورة ذات وجه وعين وئد وَجَنْبٍ وَرِجْلٍ وَأُصْبُعٍ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ" .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٦/١٦٦) : " قَالَ الْمَازِرِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ ثَابِتٌ ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ : " إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ" ، وَلَيْسَ بِثَابِتٍ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، وَكَأَنَّ مَنْ نَقَلَهُ رَوَاهُ بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي وَقَعَ لَهُ ، وَغَلِطَ فِي ذَلِكَ .

قَالَ الْمَازِرِيُّ : وَقَدْ غلط بن قُتَيْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَأَجْرَاهُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ ، وقال : للهِ تَعَالَىٰ صُورَةٌ لَا كَالصُّوَرِ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ظَاهِرُ الْفَسَادِ ، لِأَنَّ الصُّورَةَ تُفِيدُ التَّرْكِيبَ ، وكلّ مركَّب محدَث ، والله تعالىٰ ليس بمحدَث ، فليس هُوَ مُرَكَّبًا ، فَلَيْسَ مُصَوَّرًا ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُجَسِّمَةِ : جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ ، لَمَّا رَأَوْا أَهْلَ السُّنَّة يقولون : الباري سبحانه وتعالىٰ شيء لَا كَالْأَشْيَاءِ ، طَرَدُوا الِاسْتِعْمَالَ فَقَالُوا : جِسْمٌ لَا كالأجسام ، والفرق أنَّ لفظ شيء لَا يُفِيدُ الْحُدُوثَ ، وَلَا يَتَضَمَّنُ مَا يَقْتَضِيهِ ، وَأَمَّا جِسْمٌ وَصُورَةٌ فَيَتَضَمَّنَانِ التَّأْلِيفَ وَالتَّرْكِيبَ ، وَذَلِكَ دليل الحدوث .

قال : العجب من بن قُتَيْبَةَ فِي قَوْلِهِ : صُورَةٌ لَا كَالصُّوَرِ ، مَعَ أَنَّ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ عَلَىٰ رَأْيِهِ يَقْتَضِي خَلْقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ ، فَالصُّورَتَانِ عَلَىٰ رَأْيِهِ سَوَاءٌ ، فَإِذَا قَالَ : لَا كَالصُّوَرِ تَنَاقَض قَوْلُهُ ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا : إِنْ أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ : صُورَةٌ لَا كَالصُّوَرِ : أَنَّه لَيْسَ بِمُؤَلَّفٍ وَلَا مُرَكَّبٍ فَلَيْسَ بصورة حقيقة ، وَلَيْسَتِ اللَّفْظَةُ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَافِقًا عَلَىٰ افْتِقَارِهِ إِلَىٰ التَّأْوِيلِ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : الضَّمِيرُ فِي صُورَتِهِ عَائِدٌ عَلَى الْأَخِ الْمَضْرُوبِ ، وَهَذَا ظَاهِرُ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَعُودُ إِلَى آدَمَ ، وَفِيهِ ضَعْفٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَعُودُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَيَكُونُ الْمُرَادُ إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ وَاخْتِصَاصٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : نَاقَةَ الله ، وَكَمَا يُقَالُ فِي الْكَعْبَةِ بَيْتُ اللهِ وَنَظَائِرُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقال الإمام ابن جماعة (٧٣٣هـ) في "إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل" (ص١٥٣-١٥٥) : " عَن أَبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا قَاتل أحدكُم أَخَاهُ فليجتنب الْوَجْه . رَوَاهُ البُخَارِيّ ، وَزَاد مُسلم : فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته" .

وَفِي كتاب ابْن خُزَيْمَة : لَا يَقُولَن أحدكُم لعَبْدِهِ قبَّح الله وَجهك وَوجه من أشبهك ، فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته ، وَاخْتلف الْعلمَاء فِيمَن يعود الضَّمِير فِي صورته إِلَيْهِ :

فَقيل : هُوَ عَائِد إِلَى الْمَضْرُوب أَو المشتوم ، وَهُوَ الْأَقْرَب ، وَأَصله أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بِرَجُل يضْرب آخر على وَجهه ، فَقَالَ ذَلِك حثّاً على احترام الْوَجْه لما فِيهِ من الْمَنَافِع والحواس ، وَخَّص آدم عَلَيْهِ السَّلَام بِالذِّكر لأَنَّه أوَّل من خلق على هَذِه الصُّورَة .

وَقيل : أَشَارَ بذلك إِلَى أَنَّ آدم على صُورَة بنيه ، لَا كَمَا يُقَال عَنهُ من عظم الجثَّة وَطول الْقَامَة إِلَى السَّمَاء ، وَشبه ذَلِك .

وَقيل : الضَّمِير عَائِد إِلَى آدم ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الله تَعَالَى ابْتَدَأَ خلقه بشراً تَامّاً على صورته من غير نقل من نُطْفَة إِلَى علقَة إِلَى مُضْغَة كَغَيْرِهِ من بنيه ، فَيكون الْمُرَاد : الْحَث على حرمتهَا ، وَيُؤَيّد هَذَا التَّأْوِيل قَوْله تَعَالَى : ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩] .

وَقيل : إِشَارَة إِلَى أَنَّ آدم وَإِن خَالف وَعصى بعد كَرَامَة الله تَعَالَى لَهُ ، فَإِنَّ الله لم يُغيِّر صورته لَمَّا أهبطه من الْجنَّة ... بل أبقاه على صورته رَحْمَة ولطفاً بِهِ وكرامة .

فَإِن قيل : فقد رُوِيَ فِي بعض طرق الحَدِيث على صُورَة الرَّحمن ، قُلْنَا : هَذِه الرِّوَايَة ضَعِيفَة جدّاً ، وضعَّفها الْأَئِمَّة ، وأرسلها الثَّوْريّ ، ورفعها الْأَعْمَش ، وَكَانَ يُدَلِّس أَحْيَانًا إِذا لم يُصَرح بِالسَّمَاعِ ، وَأَيْضاً فَيحْتَمل أَن يكون بعض الرُّوَاة توهَّم عود الضَّمِير إِلَى الله تَعَالَى ، فَرَوَاهُ بِالْمَعْنَى على زَعمه

واعتقاده ، فَأَخْطَأَ ، وَأَيْضًا فَفِي رُوَاته حبيب بن أبي ثَابت ، وَكَانَ يُدَلس ، وَلم يُصَرح بِسَمَاعِهِ عَن عَطاء ، وَبِتَقْدِير صِحَّته وعود الضَّمِير إِلَى الله تَعَالَى ، فَقيل : المُرَاد بالصُّورة الصِّفة ، أَي : على صفته من الْعلم والإرادة والسُّلطة بِخِلَاف سَائِر حيوانات الأَرْض ، وميَّزه بهَا ، وميَّزه على الْمَلَائِكَة بسجودهم لَهُ ، فَيكون المُرَاد بذلك تشريف آدم ، كَمَا تقدَّم ذَلِك .

وَفِي هَذَا الْجَواب نظر ، لِأَنَّ ذَلِك لَا يخْتَص بِالْوَجْهِ ، وَقيل وَهُوَ الْأَقْرَب : إِنَّ الْإِضَافَة إِضَافَة الْملك والخلق ، لأَنَّه الَّذِي خلق صُورَة آدم ، وَهُوَ مَالِكهَا ومخترعها ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الصِّفة كَمَا يَصح إضافتها إِلَى الْمَوْصُوف يَصح إضافتها إِلَى خَالِقهَا وموجدها تَشْرِيفًا لَهَا وتكريماً ، وَمن قَالَ بِأَنَّ لله تَعَالَى صُورَة وَخلق آدم عَلَيْهَا فمردود عَلَيْهِ لما فِيهِ من التَّجسيم ، وَكَذَلِكَ من قَالَ : صُورَة لَا كالصُّور" .

وقال أيضاً في "إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل" (ص١٥٦-١٥٧) : " حَدِيث الْقِيَامَة الطَّوِيل فِي جمع الله النَّاس إِلَى قَوْله فيأتيهم الله فِي غير الصُّورَة الَّتِي يعْبدُونَ فَيَقُول أَنا ربكُم فَيَقُولُونَ نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك هَذَا مَكَاننَا حَتَّى يأتينا رَبنَا الحَدِيث إِلَى قَوْله فيأتيهم الله فِي الصُّورَة الَّتِي يعْرفُونَ فَيَقُول أَن ربكُم فَيَقُولُونَ أَنْت رَبنَا الحَدِيث .

اعْلَم أَنَّ الْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّة والنَّقْلِيَّة تحيل الصُّورَة الَّتِي هِيَ التَّخطيط على الله تبَارك وَتَعَالَى كَمَا تقدم ، فَوَجَبَ صرفهَا على ظَاهرهَا إِلَى مَا يَلِيق بجلاله تبَارك وَتَعَالَى مِمَّا هُوَ مُسْتَعْمل فِي لُغَة الْعَرَب وَهُوَ الصّفة وَالْحَالة ، يُقَال : كَيفَ صُورَة هَذِه الْوَاقِعَة ؟ وَكَيف صُورَة هَذِه الْمَسْأَلَة ؟ وَفُلَان من الْعلم على صُورَة كَذَا وَكَذَا ، فَالْمُرَاد بِجَمِيع ذَلِك الصِّفة لَا الصُّورَة الَّتِي هِيَ التَّخطيط .

فعلى هَذَا الصُّورَة هُنَا بِمَعْنى الصِّفة ، وَتكون فِي بِمَعْنى الْبَاء ، فَمَعْنَى الصُّورَة الَّتِي أنكروها :

أَوَّلاً : أَنَّه أظهر لَهُم شدَّة الْبَطْش والبأس وَالْعَظَمَة والأهوال والجبروت ، وَكَانَ وعدهم فِي الدُّنْيَا يلقاهم فِي الْقِيَامَة بِصفة الْأَمْن من المخاوف والبشرى وَالْعَفو وَالْإِحْسَان واللطف ، فَلَمَّا أظهر لَهُم غير الصِّفة الَّتِي هِيَ مُسْتَقِرَّة فِي نُفُوسهم أنكروها واستعاذوا مِنْهَا .

وَقَوله : " فَإِذا أَتَانَا رَبنَا عرفْنَاهُ" ، أَي : بِمَا وعده من صفة اللطف وَالرَّحْمَة وَالْإِحْسَان" .

وقال الحافظ بن حجر (٨٥٢هـ) في " فتح الباري" (١٣/ ٤٢٧-٤٢٨) : " وَقَوْلُهُ فِيهِ : " فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَة " ، اسْتدلَّ بن قُتَيْبَةَ بِذِكْرِ الصُّورَةِ عَلَىٰ أَنَّ للهَّ صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ ، كَمَا ثَبَتَ أَنَّه شَيْءٌ لَا كالأشياء ، وتعقَّبوه ، وَقَالَ بن بَطَّالٍ : تَمَسَّكَ بِهِ الْمُجَسِّمَةُ فَأَثْبَتُوا للهَّ صُورَةً ، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَىٰ الْعَلَامَةِ وَضَعَهَا اللهُّ لَهُمْ دَلِيلًا عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ ، كَمَا يُسَمَّىٰ الدَّلِيل وَالْعَلَامَةُ صُورَةً ، وَكَمَا تَقُول : صُورَةُ حَدِيثِكَ كَذَا ، وَصُورَةُ الْأَمْرِ كَذَا ، وَالْحَدِيثُ وَالْأَمْرُ لَا صُورَةَ لَهُمَا حَقِيقَةً ، وَأَجَازَ غَيْرُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصُّورَةِ الصِّفَةُ ، وَإِلَيْهِ مَيْلُ الْبَيْهَقِيِّ ، وَنقل بن التِّينِ أَنَّ مَعْنَاهُ : صُورَةُ الِاعْتِقَادِ ، وَأَجَازَ الْخَطَّابِيُّ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ خَرَجَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمُشَاكَلَةِ ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالطَّوَاغِيتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ هَذَا هُنَاكَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : "نَعُوذُ بِكَ" .

قَالَ غَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا : يَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ بِذَلِكَ إِلَىٰ مَا عَرَفُوهُ حِينَ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ ثمَّ أَنْسَاهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ، ثمَّ يُذَكِّرُهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَقَوْلُهُ : "فَإِذَا رَأَيْنَا رَبَّنَا عَرَفْنَاهُ " ، قَالَ بن بَطَّالٍ عَنِ الْمُهَلَّبِ : إِنَّ اللهَّ يَبْعَثُ لَهُمْ مَلَكًا لِيَخْتَبِرَهُمْ فِي اعْتِقَادِ صِفَاتِ رَبِّهِمُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ : " أَنَا رَبُّكُمْ" ، رَدُّوا عَلَيْهِ لِمَا رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ . فَقَوْلُهُ : "فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ" ، أَيْ : إِذَا ظَهَرَ لَنَا فِي مُلْكٍ لَا يَنْبَغِي لِغَيْرِهِ ، وَعَظَمَةٍ لَا تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا ، قَالَ : وَأَمَّا قَوْلُهُ : " هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَلَامَةٌ تَعْرِفُونَهَا ؟ فَيَقُولُونَ : السَّاقُ " ، فَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنَّ اللهَّ عَرَّفَهُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ اللهَّ جَعَلَ لَهُمْ عَلَامَةً تَجَلِّيهِ السَّاقُ ، وَذَلِكَ أَنَّه يَمْتَحِنُهُمْ بِإِرْسَالِ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ : أَنَا رَبُّكُمْ ، وَإِلَىٰ ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تعَالَىٰ : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧] ، وَهِيَ وَإِنْ وَرَدَ أَنَّهَا فِي عَذَابِ الْقَبْرِ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَتَنَاوَلَ يَوْمَ الْمَوْقِفِ أَيْضًا .

قَالَ : وأمَّا السَّاق فجاء عَن بن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[القلم:٤٢] ، قَالَ : عَنْ شِدَّةٍ مِنَ الْأَمْرِ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَىٰ سَاقٍ إِذَا اشْتَدَّتْ ، وَمِنْهُ :

قَدْ سَنَّ أَصْحَابُكَ ضَرْبَ الْأَعْنَاقِ   وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَىٰ سَاقِ

وَجَاءَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي تَفْسِيرِهَا : عَنْ نُورٍ عَظِيمٍ ، قَالَ بن فَوْرَكٍ : مَعْنَاهُ مَا يَتَجَدَّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَلْطَافِ ، وَقَالَ الْمُهَلَّبُ : كَشْفُ السَّاقِ لِلْمُؤْمِنِينَ رَحْمَةٌ وَلِغَيْرِهِمْ نِقْمَةٌ ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : تَهَيَّبَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ الْخَوْضَ فِي مَعْنَى السَّاقِ ، وَمَعْنَى قَوْلِ بن عَبَّاسٍ : إِنَّ اللهَ يَكْشِفُ عَنْ قُدْرَتِهِ الَّتِي تَظْهَرُ بِهَا الشِّدَّةُ ، وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ الْأَثَرَ الْمَذْكُورَ عَن بن عَبَّاسٍ بِسَنَدَيْنِ كلّ مِنْهُمَا حَسَنٌ ، وَزَادَ : إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَتْبِعُوهُ مِنَ الشِّعْرِ ، وَذَكَرَ الرَّجَزَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ .

وَأَنْشَدَ الْخَطَّابِيُّ فِي إِطْلَاقِ السَّاقِ عَلَى الْأَمْرِ الشَّدِيدِ :

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا

وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ من وَجه آخر صَحِيح عَن بن عَبَّاسٍ ، قَالَ : يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ : وَقَدْ يُطْلَقُ وَيُرَادُ النَّفْسُ ، وَقَوْلُهُ فِيهِ : " وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً ، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدُ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا" ، ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ جَمَالُ الدِّين بْنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِي أَنَّه وَقَعَ فِي الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَيْمَا مُجَرَّدَةً وَلَيْسَ بَعْدَهَا لَفْظُ يَسْجُدُ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَكَى عَنِ الْكُوفِيِّينَ : إِنَّ كَيْ نَاصِبَةٌ دَائِمًا ، قَالَ : وَيَرُدُّهُ قَوْلُهُمْ كَيْمَهْ ، كَمَا يَقُولُونَ : لِمَهْ ، وَأَجَابُوا بِأَنَّ التَّقْدِيرَ : كَيْ تَفْعَلَ مَاذَا ، وَيَلْزَمُهُمْ كَثْرَةُ الْحَذْفِ وَإِخْرَاجُ مَا الِاسْتِفْهَامِيَّةُ عَنِ الصَّدْرِ وَحَذْفُ أَلِفِهَا فِي غَيْرِ الْجَرِّ وَحَذْفُ الْفِعْلِ الْمَنْصُوبِ مَعَ بَقَاءِ عَامِلِ النَّصْبِ ، وكلّ ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ ، نَعَمْ وَقَعَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي تَفْسِيرِ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢] ، فَيَذْهَبُ كَيْمَا فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ، أَيْ : كَيْمَا يَسْجُدُ ، وَهُوَ غَرِيبٌ جِدًّا لَا يَحْتَمِلُ الْقِيَاسُ عَلَيْهِ ،انْتَهَى كَلَامُهُ . وَكَأَنَّهُ وَقَعَتْ لَهُ نُسْخَةٌ سَقَطَتْ مِنْهَا هَذِهِ اللَّفْظَةُ ، لَكِنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ الَّتِي وَقَفْتُ عَلَيْهَا حَتَّى أن بن بَطَّالٍ ذَكَرَهَا بِلَفْظِ : كَيْ يَسْجُدَ بِحَذْفِ مَا ، وَكَلَام بن هِشَامٍ يُوهِمُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ أَوْرَدَهُ فِي التَّفْسِيرِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ ذَكَرَهَا هُنَا فَقَطْ ، وَقَوْلُهُ فِيهِ : فَيَعُود ظَهره طبقًا وَاحِدًا" .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري شرح صحيح البخاري " (٥/ ١٨٣) : " وَاخْتُلِفَ فِي الضَّمِيرِ عَلَى مَنْ يَعُودُ ؟ فَالْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّه يَعُودُ عَلَى الْمَضْرُوبِ ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِإِكْرَامِ وَجْهِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْمُرَادَ التَّعْلِيلُ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ارْتِبَاطٌ بِمَا قَبْلَهَا . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَعَادَ بَعْضُهُمُ

الضَّمِيرَ عَلَىٰ اللهِ مُتَمَسِّكًا بِمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ : " إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ " ، قَالَ وَكَأَنَّ مَنْ رَوَاهُ أَوْرَدَهُ بِالْمَعْنَىٰ مُتَمَسِّكًا بِمَا تَوَهَّمَهُ ، فَغَلِطَ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ أَنْكَرَ الْمَازِرِيُّ وَمَنْ تَبِعَهُ صِحَّةَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ ثُمَّ قَالَ : وَعَلَىٰ تَقْدِيرِ صِحَّتِهَا فَيُحْمَلُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِالْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ " .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري شرح صحيح البخاري " (٦/ ٣٣٦) : " ... وَقَدْ رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ ، فَقَالَ : خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تَأْتِي فِي أَوَّلِ الاِسْتِئْذَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي أَثْنَاءِ كِتَابِ الْعِتْقِ ، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّ الضَّمِيرَ لِآدَمَ ، وَالْمَعْنَىٰ : أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوْجَدَهُ عَلَىٰ الْهَيْئَةِ الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِلْ فِي النَّشْأَةِ أَحْوَالًا وَلَا تَرَدَّدَ فِي الْأَرْحَامِ أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ بَلْ خَلَقَهُ اللهُ رَجُلًا كَامِلًا سَوِيًّا مِنْ أَوَّلِ مَا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، فَعَادَ الضَّمِيرُ أَيْضًا عَلَىٰ آدَمَ ، وَقِيلَ : مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : "عَلَىٰ صُورَتِهِ " ، أَيْ : لَمْ يُشَارِكْهُ فِي خَلْقِهِ أَحَدٌ إِبْطَالًا لِقَوْلِ أَهْلِ الطَّبَائِعِ ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ تَنْبِيهًا بِالْأَعْلَىٰ عَلَىٰ الْأَدْنَىٰ ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري شرح صحيح البخاري " (١١/ ٣) : " ... وَقِيلَ : الضَّمِيرُ للهِ ، وَتَمَسَّكَ قَائِلُ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحمن ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورَةِ الصِّفَةُ ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ خَلَقَهُ عَلَىٰ صِفَتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ" .

وقال الإمام السُّيوطي في " الدِّيباج على صحيح مسلم بن الحجَّاج" (١/ ٥٨) وبحاشيته : الحل المفهم لصحيح مسلم : "خلق آدم على صورته " ، هذا من أحاديث الصِّفات التي يؤمن بها ويمسك عن الخوض فيها أو تؤول بحسب ما يليق بتنزيه الله تعالى ، وأحسن ما قيل في تأويله : أنَّ الإضافة للتَّشريف كناقة الله وبيت الله ، أي : الصُّورة التي اختارها لآدم " .

وقال الإمام القسطلاني (٩٢٣هـ) في " إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري " (٩/ ١٣٠) : " ... وإنَّ أوَّله قصَّة الذي ضرب عبده فنهاه النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك وقال له: "إنَّ الله خلق آدم على صورته". رواه ... وللبخاري في الأدب المفرد ، وأحمد من طريق ابن عجلان عن سعيد عن أبي

هريرة مرفوعًا: " لا يقولنَّ قبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " ، وهو ظاهر في عود الضَّمير علىٰ المقول له ذلك، وقيل الضَّمير لله لما في بعض الطُّرق علىٰ صورة الرَّحمن ، أي : علىٰ صفته من العلم والحياة والسَّمع والبصر ، وغير ذلك، وإن كانت صفات الله تعالىٰ لا يشبهها شيء .

وقال التوربشتي: وأهل الحقِّ في ذلك طبقتين.

إحداهما : المتنزِّهون عن التَّأويل مع نفي التَّشبيه ، وإحالة العلم إلىٰ علم الله تعالىٰ الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا ، وهذا أسلم الطَّريقتين.

والطَّبقة الأخرىٰ يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف ، وذلك أنَّ الله تعالىٰ خلق آدم علىٰ صورة لم يشاكلها شيء من الصُّور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة.

وقال الطِّيبي: تأويل الخطَّابي في هذا المقام حسن يجب المصير إليه ، لأنَّ قوله : " طوله " ، بيان لقوله : "علىٰ صورته" ، كأنَّه قيل خلق آدم علىٰ ما عرف من صورته الحسنة وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة، وإنَّما خصَّ الطُّول منها ، لأنَّه لم يكن متعارفًا بين النَّاس .

وقال القرطبي: كأنَّ من رواه علىٰ صورة الرَّحمن أورده بالمعنىٰ متمسكًا بما توهَّمه فغلط في ذلك، وقوله : "ستُّون ذراعًا " ، يحتمل أن يريد بقدر ذراع نفسه أو الذِّراع المتعارف يومئذ عند المخاطبين ، والأوَّل أظهر ، لأنَّ ذراع كلّ أحد ربعه، فلو كان بالذِّراع المعهود كانت يده قصيرة في جنب طول جسده" .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (١٠٣٣هـ) في " أقاويل الثِّقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات " (ص١٣٥) : " وغلت طَائِفَة أُخْرَىٰ فِي الْإِثْبَات فشبَّهته فأثبتت لَهُ الصُّورَة والجوارح حتَّىٰ إِنَّ الهشاميَّة من غلاة الرَّافضة زَعَمُوا كَمَا قَالَ الْقُرْطُبِيّ : أَنَّ معبودهم سَبْعَة أشبار بشبر نَفسه ، وَقَالَت الكرَّاميَّة أنَّه جسم ، قَالَ : وَقد بَالغ بعض أهل الإغواء ، فَقَالَ : أنَّه علىٰ صُورَة الْإِنْسَان ، ثمَّ اخْتلفُوا ، فَمنهمْ من قَالَ : أنَّه علىٰ صُورَة شيخ أشمط الرَّأْس واللحية ، وَمِنْهُم من قَالَ : أنَّه علىٰ صُورَة شَاب أَمْرَد جعد قطط ، وَمِنْهُم من قَالَ : أنَّه مركَّب من

لحم ودم ، وَمِنْهُم من قَالَ : أَنَّه علىٰ قدر مَسَافَة الْعَرْش ، لَا يفضل من أَحدهمَا عَن الْأُخَر شَيْء ، تَعَالَىٰ الله عَن أَقْوَالهم علوّاً كَبِيراً ، وَعَن مثله نهىٰ الله تَعَالَىٰ بقوله : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[النِّسَاء: ١٧١] .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (١٠٣٣هـ) في "أقاويل الثِّقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات" (ص١٦٤-١٧٣) : " وَأمَّا الْكَفّ والأنامل وَالصُّورَة ، فقد روىٰ التِّرْمِذِيّ (٥/ ٢٢١ برقم ٣٢٣٥) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ حتَّىٰ كِدْنَا نَتَرَاءَىٰ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ، فَصَلَّىٰ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَجوَّزَ فِي صَلاَتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ فَقَالَ لَنَا: عَلَىٰ مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ ثمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا فقَالَ: أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَدَاةَ: أَنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلاَتِي فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا محمَّد قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: لاَ أَدْرِي رَبِّ، قَالَهَا ثلاَثًا قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّىٰ لِي كلّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ ...الحَدِيث . قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح .

وَقَالَ : سَأَلت محمَّد بن إِسْمَاعِيل عَن هَذَا الحَدِيث ، فَقَالَ : هَذَا حَدِيث حسن صَحِيح .

قَالَ ابْن فورك : قَوْله " وضع كَفَّه بَين كَتِفي " ، وَرُوِيَ " بَين كَنَفي بالنُّون " ، فَأَما الْكَفُّ ، فَقيل : هُوَ بِمَعْنىٰ الْقُدْرَة كَقَوْلِه :

هوِّن عَلَيْك فَإِنَّ الْأُمُور بكفِّ الْإِلَه مقادريها

يُرِيد فِي قدرته تقديرها وتدبيرها .

وَقيل : الْمُرَاد بالكف النِّعْمَة والْمِنَّة وَالرَّحْمَة ، وَأمَّا قَوْله : " بَين كَتِفي " فَالْمُرَاد بِهِ مَا وصف إِلَىٰ قلبه من لطفه وبرِّه وفوائده ، لِأَنَّ الْقلب بَين الْكَتِفَيْنِ ، وَهُوَ مَحل الْأَنْوَار والعلوم والمعا رف ، وَرِوَايَة " بَين كنفي" ، يُرَاد بِهِ كَقَوْل الْقَائِل : أَنا فِي كنف فلَان وفنائه ، أَرَادَ بذلك أَنَّه فِي ظلِّ نعْمَته وَرَحمته ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : أفادني الرَّب من رَحمته وإنعامه بِملكه وَقدرته حتَّىٰ علمت مَا أعلمهُ ، وَقَوله : "

فَوجدت برد أنامله" ، يحْتَمل أَن يكون الْمَعْنى برد نعمه ، فَإِنَّ تَأْوِيل الأنامل على معنى الإصبع على مَا تقدَّم ، فَيكون الْمَعْنى : حتَّى وجدت آثَار إحسانه وَنعمته وَرَحمته فِي صَدْرِي ، فتجلَّى لي عِنْد ذَلِك علم مَا بَين السَّماء وَالْأَرْض برحمة الله وَفضل نعْمَته .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ : وَقَوله : " فَإِذا أَنا بربي تبَارك وَتَعَالَى فِي أحسن صُورَة أَو رَأَيْت رَبِّي فِي أحسن صُورَة "، هَذَا رَاجع إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَي : رَأَيْته وَأَنا فِي أحسن صُورَة ، كَقَوْل الْقَائِل : رَأَيْت الْأَمِير فِي أحسن صُورَة وَمرَاده وَأَنا فِي أحسن زيي ، وَحِينَئِذٍ فَالْمُرَاد : أَنَّ الله تَعَالَى زيَّن خلقته عَلَيْهِ السَّلَام وكمَّل صورته عِنْد رُؤْيَته لرَبِّه زِيَادَة إكرام وتعظيم .

وَقَالَ بعض الْمُحَقِّقين مَا ملخَّصه : يجوز أَن يكون قَوْله " فِي أحسن صُورَة" رَاجعاً إِلَى مُحَمَّد ، أَي : رَأَيْته وَأَنا فِي أحسن صُورَة ، بِمَعْنى أَنَّ الله حسَّن صورته وَنَقله إِلَى هَيْئَة يُمكنهُ مَعهَا رُؤْيَته إِذْ كَانَ الْبشر لَا يُمكنهُم رُؤْيَته تَعَالَى على صورتهم الَّتِي عَلَيْهَا حتَّى ينقلوا إِلَى صور أخر غير صورهم ، كَمَا أَنَّ أهل الْجنَّة ينقلهم الله عَن صفاتهم إِلَى صِفَات أُخر أَعلَى وأشرف ، فَعجَّل الله لنَبيه هَذِه الْكَرَامَة فِي الدُّنْيَا ، وَيجوز أَن يكون رَاجعاً إِلَى الله ، بِمَعْنى أَنَّه رَأى ربَّه على أحسن مَا وعده بِهِ من إنعامه وإحسانه وإكرامه ، كَمَا تَقول للرَّجل : كَيفَ كَانَت صُورَة أَمرك عِنْد لِقَاء الْملك ، فَيَقُول : خير صُورَة أَعْطَانِي ، وأنعم عَليَّ ، وأدناني من محَلِّ كرامته ، فهذان تَأْوِيلَانِ صَحِيحَانِ جاريان على أساليب كَلَام الْعَرَب ، قَالَ : وَقد جَاءَ فِي بعض الحَدِيث أَنَّه كَانَت رُؤْيَة فِي الْمَنَام ، فَإِذا كَانَ الْأَمر كَذَلِك كَانَ التَّأْوِيل وَاضحاً ، لأَنَّه لَا يُنكر رُؤْيَة الله تَعَالَى فِي الْمَنَام كَذَلِك ، انْتهى .

وروى أَحْمد وَالْبُخَارِيّ وَمُسلم أَنَّه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ : خلق الله آدم على صورته وَطوله سِتُّونَ ذِرَاعاً " الحَدِيث ، وَفِيه : " وكلّ من يدْخل الْجنَّة على صُورَة آدم طوله سِتُّونَ ذِرَاعاً ، فَلم تزل الْخلق تنقص بعده حتَّى الْآن" . وَفِي لفظ آخر : " إِذا قَاتل أحدكُم أَخَاهُ فليجتنب الْوَجْه ، فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته" .

قَالَ النَّوَوِيّ : " هَذَا من أَحَادِيث الصِّفَات ، وَمذهب السَّلف أَنَّه لَا يتَكَلَّم فِي مَعْنَاهَا بل يَقُولُونَ : يجب علينا أَن نؤمن بهَا ، ونعتقد لَهَا معنى يَلِيق بِجلَال الله تَعَالَى من اعتقادنا أَنَّه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾

، وَهَذَا القَوْل اخْتَارَهُ جمَاعَة من محقِّقي الْمُتَكَلِّمين ، قَالَ : وَهُوَ أسلم ، وَالثَّانِي : أَنَّهَا تؤول علىٰ مَا يَلِيق علىٰ حسب مواقعها .

قَالَ الْمَازِرِيّ : " وَقد غلط ابْن قُتَيْبَة فِي هَذَا الحَدِيث فأجراه علىٰ ظَاهره ، وَقَالَ : لله صُورَة لَا كالصُّور ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْل المجسِّمة : جسم لَا كالأجسام ، لَمَّا رَأَوْا أهل السُّنَّة يَقُولُونَ : الله تَعَالَىٰ شَيْء لَا كالأشياء ، وَالْفرق أَنَّ لَفْظَة شَيْء لَا تفِيد الْحُدُوث وَلَا تَتَضَمَّن مَا يَقْتَضِيهِ ، وَأمَّا جسم وَصُورَة فيتضمَّنان التَّأْلِيف والتَّركيب ، وَذَلِكَ دَلِيل الْحُدُوث .

وَقَالَ أهل التَّأْوِيل : مَا قَالَه الْخطابِيّ أنَّ الضَّمِير فِي صورته يعود علىٰ آدم بِمَعْنىٰ أَنَّ الله تَعَالَىٰ خلقه ابْتِدَاء علىٰ صورته الَّتِي أوجده عَلَيْهَا ، وَلم يردده فِي أطوار الْخلقَة كبنيه ، نُطْفَة ثمَّ علقَة ثمَّ مُضْغَة ثمَّ أجنة ثمَّ أطفالاً ، وَفِي الحَدِيث الْأُخَر الضَّمِير يعود علىٰ الْمَضْرُوب .

وَقَالَ بعض الْمُحَقِّقين مَا ملخَّصه : يجوز عود الضَّمِير علىٰ آدم وعَلىٰ الله ، فَإِن عَاد علىٰ آدم فالغرض مِنْهُ الرَّدُّ علىٰ الدَّهريَّة وَالْيَهُود ، وَهُوَ من جَوَامِع الْكَلم ، فَإِنَّ الدَّهريَّة قَالَت : إِنَّ الْعَالم لَا أوَّل لَهُ ، فَلَا حَيَوَان إِلَّا من حَيَوَان آخر قبله ، وَلَا زرع إِلَّا من بذر قبله ، فأعلمنا عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته الَّتِي شوهد عَلَيْهَا ابْتِدَاء .

وَقَالُوا أَيْضاً : إِنَّ للطَّبيعة وَالنَّفس الْكُليَّة فعلاً فِي المحدثات المتكوّنة غير فعل الله ، فأعلمنا أنَّه أوجده كَذَلِك دون مُشَاركَة من طبيعة أَو نفس ، وَالْيَهُود قَالَت : إِنَّ آدم فِي الذَّنب كَانَ علىٰ خلاف صورته فِي الْجنَّة ، فَلَمَّا خرج مِنْهَا نقص قامته وَغير خلقته ، فأعلمنا بكذبهم وَأَنَّه خلق فِي أوَّل أمره علىٰ صورته الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عِنْد هُبُوطه ، وَإِن عَاد الضَّمِير علىٰ الله فإضافة صُورَة آدم إِلَيْهِ علىٰ وَجه التَّشريف والتَّخصيص لَا علىٰ مَا يسْبق للوهم من مَعَانِي الْإِضَافَة ، كَقَوْلِهِم : الْكَعْبَة بَيت الله ، وَإِنَّمَا خصَّصه بِالْإِضَافَة إِلَىٰ الله دون غَيره ، لِأَنَّ الله خلقه دفْعَة وَاحِدَة من غير ذكر وَأُنْثىٰ ، وَلَا ضمَّته الْأَرْحَام ، وخلقه بِيَدِهِ ، وأسجد لَهُ مَلَائكته ، وَهُوَ أَبُو الْبشر ، فنبَّهنا عَلَيْهِ السَّلَام بِإِضَافَة صورته إِلَىٰ الله علىٰ ذَلِك ، وَهُوَ نَظِير قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى**﴾[الحجر: ٢٩] ، وَقَوله : ﴿**وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ**﴾[الْمَائِدَة ١١٦] ، وَقَوله : ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ**﴾ [ص ٧٥] .

فَكَمَا لَا تدل هَذِه الْإِضَافَة علىٰ أَنَّ لَهُ نفساً وروحاً ويدين ، فَكَذَلِك إِضَافَة الصُّورَة إِلَيْهِ تَعَالَىٰ لَا تدلُّ علىٰ أَنَّ لَهُ صُورَة ، قَالَ : وَأَيْضًا فالعرب تسْتَعْمل الصُّورَة علىٰ وَجْهَيْن :

أَحَدُهُمَا : الصُّورَة الَّتِي هِيَ شكل مخطط مَحْدُود بالجهات .

وَالثَّانِي : بِمَعْنىٰ صفة الشَّيْء ، كَقَوْلِهِم : مَا صُورَة أَمرك فَكيف كَانَت صُورَة نَفسك ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَاد هُنَا ، فَإِن الله جعله خَليفَة فِي أرضه يعلم وَيَأْمُر وَينْهىٰ ويسوس وَيُدبر وسخر لَهُ مَا فِي السَّموات وَمَا فِي الأَرْض ، انْتهىٰ .

وَاعْترض بَعضهم هَذِه الْأَجْوِبَة ، وَقَالَ : الْوَاجِب أَن تمرّ الْأَحَادِيث كَمَا جاءَت بِلَا تَأْوِيل وَلَا تكييف ، فَإِنَّ الضَّمِير إِذا كَانَ عَائِدًا علىٰ آدم لَا فَائِدَة فِيهِ ، إِذْ لَيْسَ يشكُّ أحدٌ أَنَّ الله خَالق الْإِنْسَان علىٰ صورته وَالسِّبَاع والأنعام علىٰ صورها ، فَأَي فَائِدَة فِي الْحمل علىٰ ذَلِك ؟ وَلَا جَائِز أَن يُقَال : عَائِد علىٰ الْمَضْرُوب ، إِذْ لَا فَائِدَة فِيهِ ، لِأَنَّ الْخلق عالمون بِأَنَّ آدم خلق علىٰ خلق وَلَده ، وَوَجهه علىٰ وُجُوههم .

قلت : وَفِي هَذَا الاعتراض نظر ، فإِنَّه لَا يرد بعد إبراز مَا تقدَّم من النُّكات وَالْحكم ، نعم مِمَّا يُقَوي الاعتراض قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام فِي حَدِيث آخر : " لا تقبِّحوا الْوَجْه ، فَإِن ابْن آدم خُلق علىٰ صُورَة الرَّحمان" ، وَقَول الْمَازرِيّ فِي هَذَا الحَدِيث : أَنَّه لَيْسَ بِثَابِت عِنْد أهل الحَدِيث فِيهِ مَا فِيهِ ، فقد رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة عَن جرير عَن الْأَعْمَش عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا غَايَة مَا قَالَ الْبَيْهَقِيّ يحْتَمل أَن لفظ هَذَا الحَدِيث كَمَا فِي الحَدِيث الآخر ، فأدَّاه بَعْض الرُّواه علىٰ مَا وَقع فِي قلبه من مَعْنَاهُ ، وَالله أعلم .

ثمَّ رَأَيْت الْحَافِظ ابْن حجر قَالَ : وَقد أنكر الْمَازرِيّ وَمن تبعه صِحَّة هَذِه الرِّوَايَة ، وَقد أخرجهَا ابْن أبي عَاصِم فِي السُّنَّة وَالطَّبَرَانِيّ من حَدِيث ابْن عمر بِإِسْنَاد رِجَاله ثِقَات ، وأخرجها ابْن أبي عَاصِم أَيْضاً من طَرِيق أبي هُرَيْرَة بِلَفْظ يرد التَّأْوِيل الأوّل ، قَالَ : " من قَاتل فليجتنب الْوَجْه ، فَإِنَّ صُورَة وَجه الْإِنْسَان علىٰ صُورَة وَجه الرَّحمان" ، قَالَ : فتعين إِجْرَاء ذَلِك علىٰ مَا تقرَّر بَين أهل السُّنَّة من إمراره كَمَا جَاءَ من غير اعْتِقَاد تَشْبيه ، قَالَ : وَزعم بَعضهم أَنَّ الضَّمِير يعود علىٰ آدم ، أَي : علىٰ

صفته ، أَي : خلقه مَوْصُوفاً بِالْعلمِ الَّذِي فضّل بِهِ علىٰ الْحَيَوَان ، قَالَ : وَهَذَا مُحْتَمل ، وَقيل : الضَّمِير لله ، وَتمَسَّك قَائِله بِمَا فِي بعض طُرقه : " علىٰ صُورَة الرَّحمان" ، فَالْمُرَاد بالصَّورة الصِّفة ، أَي : إِنَّ الله خلقه علىٰ صفته من الْعلم والحياة والسَّمع وَالْبَصَر وَغير ذَلِك ، وَإِن كَانَت صِفَات الله لَا يشبهها شَيْء ، انْتهىٰ .

قلت : لَكِن التَّعْلِيل باتِّقاء الْوَجْه يردُّ جَمِيع التَّأْوِيل ، وَلم يبْق إِلَّا التَّعويل علىٰ مَذْهَب من سلف من أَئِمَّة السَّلف .

وروىٰ ابْن عَبَّاس إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام ضرب الْحجر لبني إِسْرَائِيل فتفجَّر ، فَقَالَ : اشربوا يَا حمير ، فَأوحىٰ الله إِلَيْهِ عَمَدت إِلَىٰ خلق من خلقي علىٰ صُورَتي فشبهتهم بالحمير ، فَمَا برح حتَّىٰ عُوقِبَ .

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : ذكره القتيبي فِي " مُخْتَلف الحَدِيث" ، وَقَالَ القتيبي : وَالَّذِي عِنْدِي وَالله أعلم : أَنَّ الصُّورَة لَيست بِأَعْجَب من الْيَدَيْنِ وَالْيَمِين وَالْعين، وَإِنَّمَا وَقعت الألفة لتِلْك لمجيئها فِي الْقُرْآن ، وَوَقعت الوحشة من هَذِه لِأَنَّهَا لم تأت فِي الْقُرْآن ، وَنحن نؤمن بِالْجَمِيعِ ، وَلَا نقُول فِي شَيْء مِنْهُ بكيفيَّة وَلَا حدٍّ ، انْتهىٰ .

وَفِي البُخَارِيّ وَمُسلم حَدِيث : " هَل نرىٰ رَبَّنَا يَوْم الْقِيَامَة" ، وَفِيه : " فيأتيهم الله فِي صُورَة غير صورته الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُول : أَنا ربُّكُم ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك ، هَذَا مَكَاننَا حتَّىٰ يأتينا ربُّنا ، فَإِذا أَتَانَا عرفْنَاهُ ، فيأتيهم الله فِي الصُّورَة ، وَفِي لفظ آخر : " فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُول : أَنا ربُّكُم ، فَيَقُولُونَ : أَنْت رَبُّنَا فيتبعونه" ، الحَدِيث .

وَقَالَ بعض أهل التَّأْوِيل : إِنَّ فِي بِمَعْنىٰ الْبَاء ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ**﴾[الْبَقَرَة ٢١٠] ، أَي :بظلل ، فَيكون معنىٰ الْإِتْيَان هُنَا أَنَّه يحضر لَهُم تِلْكَ الصُّورَ ، وَيذكر أَنَّه مَلَك عَظِيم يَقُولُ لَهُم بِأَمْر الله : أَنا ربُّكُم .

وَأمَّا الصُّورَة الثَّانِيَة فَهِيَ صفته تَعَالَىٰ لَا يُشَارِكهُ فِيهَا شَيْء ، وَهُوَ الْوَصْف الَّذِي كَانُوا عرفوه فِي الدُّنْيَا بقوله : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾[الشورىٰ:١١] ، وَلذَلِك قَالُوا : إِذا جَاءَنَا رَبنَا عرفْنَاهُ .

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : وَلَا يستبعد إِطْلَاق الصُّورَة بِمَعْنى الصِّفة ، فَمن المتداول أَن يُقَال : صُورَة هَذَا الْأَمر كَذَا ، أَي : صفته ، وَقيل : الْكَلَام خرج مخرج المشاكلة للفظ الصُّورَة ، وَالله أعلم ، وَمذهب السَّلف أسلم" .

الفَصْلُ الخَامِسُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهِم بِالصَّوْتَ صِفَةً لله تَعَالَى

زعم المتسلِّفة بأنَّ الله تعالىٰ يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ ، وفي ذلك يقول إمامهم ابن تيمية : " وَجُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُـــــونَ: إنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ كَلامُ اللهَّ وَقَدْ تَكَلَّمَ اللهُّ بِهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٥٦) .

وقال أيضاً : " كَمَا رَوَىٰ الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، فِيمَا رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ : " لَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ كَلَامَ اللهَّ ، قَالَ : يَا رَبِّ هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي أَسْمَعُ هُوَ كَلَامُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا مُوسَىٰ ، هُوَ كَلَامِي ، وإنَّما كَلَّمْتُكَ بِقُوَّةِ عَشَرَةِ آلَافِ لِسَانٍ ، وَلِي قُوَّةُ الْأَلْسُنِ كلّها ، وَأَنَا أَقْوَىٰ مِنْ ذَلِكَ ، وإنَّما كَلَّمْتُكَ عَلَىٰ قَدْرِ مَا يُطِيقُ بَدَنُكَ ، وَلَوْ كَلَّمْتُكَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا لَمِتَّ ، فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إلىٰ قَوْمِهِ قَالُوا لَهُ : صِفْ لَنَا كَلَامَ رَبِّكَ . فَقَالَ : سُبْحَانَ اللهَّ ، وَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : فَشَبِّهْهُ لَنَا !!! قَالَ : هَلْ سَمِعْتُمْ أَصْوَاتَ الصَّوَاعِقِ الَّتِي تُقْبِلُ فِي أَحْلَىٰ حَلَاوَةٍ سَمِعْتُمُوهَا ، فَكَأَنَّهُ مِثْلُهُ !!! ". انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ١١) ، مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٥٤) ، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٩٤)، (٥/ ١٦٠) .

وقال أيضاً : " عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نُودِيَ مِنْ الشَّجَرَةِ ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾[طه: ١٢] ، أَسْرَعَ الْإِجَابَةَ ، وَتَابَعَ التَّلْبِيَةَ ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إلَّا اسْتِئْنَاساً مِنْهُ بِالصَّوْتِ ، وَسُكُوناً إلَيْهِ . وَقَالَ : إنِّي أَسْمَعُ صَوْتَك ، وَأُحُسُّ حِسَّك ، وَلَا أَدْرِي مَكَانَك ، فَأَيْنَ أَنْتَ ؟!!! " .

انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٠٨)، شرح حديث النزول (ص٦١) .

وقال أيضاً : " وَاللهُّ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ بِصَوْتِ نَفْسِهِ ، وَنَادَىٰ مُوسَىٰ بِصَوْتِ نَفْسِهِ ؛ كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ . وَصَوْتُ الْعَبْدِ لَيْسَ هُوَ صَوْتُ الرَّبِّ ، وَلَا مِثْلُ صَوْتِهِ ؛ فَإِنَّ اللهَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ : لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . وَقَدْ نَصَّ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ أَحْمَد وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَلَىٰ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ أَنَّ اللهَّ يُنَادِي بِصَوْتِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ تَكَلَّمَ بِهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ كَلَاماً لِغَيْرِهِ ، لَا جِبْرِيلَ وَلَا غَيْرِهِ . وَأَنَّ الْعِبَادَ يَقْرَءُونَهُ بِأَصْوَاتِ

أَنْفُسِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، فَالصَّوْتُ الْمَسْمُوعُ مِنَ الْعَبْدِ صَوْتُ الْقَارِئِ ، وَالْكَلَامُ كَلَامُ الْبَارِئِ . وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَائِضِينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ صَوْتِ الْعَبْدِ وَصَوْتِ الرَّبِّ ... " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٥٨٤-٥٨٥) .

وقال إمامهم حافظ الحكمي (١٣٧٧هـ) : " قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ... فَيَضَعُ اللهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ مِنْ أَرْضِهِ ثمَّ يَهْتِفُ بِصَوْتِهِ فَيَقُولُ ... " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول (٢/ ٨٠٣) .

وقال المدعو محمَّد خليل هرَّاس في تعليقه علىٰ كتاب التَّوحيد لابن خزيمة : " وأنَّ كلامه حروف وأصوات ، يسمعها من يشاء من خلقه " . انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص١٣٨) .

وقال أيضاً : " ... يعني : تكليماً بلا واسطة ، لكن من وراء حجاب ، فيسمع كلامه ولا يُرىٰ شخصه " . انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص١٣٧) .

وقال أيضاً : " يسمعون صوته عزَّ وجلَّ بالوحي قويّاً له رنين وصلصلة ، ولكنَّهم لا يميِّزونه ، فإذا سمعوه صعقوا من عظمة الصَّوت وشدَّته " . انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص١٤٦) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين : " ... في هذا إثبات القول لله وأنَّه بحرف وصوت ؛ لأنَّ أصل القول لا بدَّ أن يكون بصوت ، ولو كان قولاً بالنَّفس لقيَّده الله كما قال تعالىٰ : ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾[المجادلة:٨] ، فإذا أطلق القول فلا بدَّ أن يكون بصوت " . انظر : مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ٢١٢) .

وقال أيضاً : " وهو سبحانه يتكلَّم بحرف وصوت، كيف يشاء " .

وقال أيضاً : " ولهذا كانت عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: أنَّ الله يتكلَّم بكلام حقيقي متىٰ شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين " .

وقال أيضاً : " فكلام الله عزَّ وجلَّ لموسىٰ كلام حقيقي بحرف، وصوت سمعه، ولهذا جرت بينهما محاورة " .

وقال أيضاً : " ... وهذه الآيات تدلُّ بمجموعها على أنَّ الله يتكلَّم بكلام حقيقي، متى شاء، بما شاء، بحرف وصوت مسموع، لا يماثل أصوات المخلوقين. وهذه هي العقيدة السَّلفيَّة عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة " .

وقال أيضاً : " فأهل السُّنَّة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلَّم سبحانه بصوت وحرف " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٤/ ٦١) ، (٨/ ٣٥٦) ، (٨/ ٣٨٩) ، (٨/ ٣٦٠) ، (٩/ ٧١) بالترتيب

مع العلم أنَّ نسبة الصَّوت لله تعالى لم تأت لا في القرآن ، ولا في أيِّ حديث صحيح ... انظر الأحاديث التي يستشهدون بها على إثبات الصوت لله تعالى والكلام عليها في كتاب : " إتحاف الكائنات " لمحمود خطاب السُّبكي " (ص٥٠ فما بعدها) ، بتحقيقنا .

قال الإمام البيهقي : " وَلَمْ تَثْبُتْ صِفَةُ الصَّوْتِ فِي كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... " .

وقال أيضاً : " ... وَكَذَلِكَ الصَّوْتُ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، إِنْ كَانَ صَحِيحًا، وَلَا أَرَاهُ يَصِحُّ إِلَّا وَهُوَ مُضَافٌ إِلَى غَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا قَوْلُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ فإِنَّه يُحَدِّثُ عَنِ التَّوْرَاةِ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِهَا أَنَّهم حَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا، فَلَيْسَ مِنْ قَوْلِهِ مَا يَلْزَمُنَا تَوْجِيهُهُ، إِذَا لَمْ يُوَافِقْ أُصُولَ الدِّين وَاللهُ أَعْلَمُ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٢٩) ، (٢/ ٣٢) بالترتيب.

وفي تعليقه على السَّيف الصَّقيل للسُّبكي أورد الإمام الكوثري طائفة من فتاوى العلماء التي ردَّت على القائلين بالحرف والصَّوت ، قال الكوثري : "وأرى من النُّصح للمسلمين أن أنقل هنا أجوبة الإمام العزّ بن عبد السَّلام ، والإمام جمال الدِّين أبي عمرو عثمان بن الحاجب المالكي ، والإمام علم الدِّين أبي الحسن علي بن محمَّد السَّخاوي مؤلِّف "جمال القرَّاء وكمال الإقراء" حينما استفتوا في هذه المسألة ، ومكانتهم السَّامية في العلم معروفة .

وَنَصُّ السُّؤال : ما يقول السَّادة الفقهاء في كلام الله القديم القائم بذاته؟ هل يجوز أن يقال أنَّه عين صوت القارئ وحروفه المقطَّعة ، وعين الأشكال التي يصوِّرها الكاتب في المصحف؟ وهل يجوز أن يقال : إنَّ كلام الله القديم القائم بذاته حروف وأصوات على المعنى الظَّاهر فيها ، وأنَّه عين ما

جعله الله معجزة لرسوله ﷺ ؟ وما الذي يجب على من اعتقد جميع ذلك وأذاعه وغرّ به ضعفاء المسلمين؟ وهل يحلّ للعلماء المعتبرين إذا علموا أنَّ ذلك قد شاع أن يسكتوا عن بيان الحقّ في ذلك وإظهاره والرَّد على من أظهر ذلك واعتقده؟ أفتونا مأجورين .

صورة جواب الإمام عز الدِّين بن عبد السَّلام رحمه الله : القرآن كلام الله صفة من صفاته قديم بقِدَمه ، ليس بحروف ولا أصوات ، ومن زعم أنَّ الوصف القديم هو عين أصوات القارئين وكتابة الكاتبين فقد ألحد في الدِّين وخالف إجماع المسلمين ، بل إجماع العقلاء من غير أهل الدِّين ، ولا يحلُّ للعلماء كتمان الحقّ ولا ترك البدع سارية في المسلمين ، ويجبُ على وُلاة الأمر إعانة العلماء المنزِّهين الموحِّدين ، وقمع المبتدعة المشبِّهين المجسِّمين ، ومن زعم أنَّ المعجزة قديمة فقد جهل حقيقتها ، ولا يحلُّ لولاة الأمر تمكين أمثال هؤلاء من إفساد عقائد المسلمين !!! ويجب عليهم أن يلزموهم بتصحيح عقائدهم بمباحثة العلماء المعتبرين ، فإنَّ لم يفعلوا ألجئوا إلى ذلك بالحبس والضَّرب والتَّعزيز ، والله أعلم .

كتبه عبد العزيز بن عبد السَّلام .

وصورة جواب الإمام جمال الدِّين أبي عمرو عثمان بن الحاجب المالكي : من زعم أنَّ أصوات القارئ وحروفه المتقطِّعة والأشكال التي يصوِّرها الكاتب في المصحف هي نفس كلام الله تعالى القديم فقد ارتكب بدعة عظيمة وخالف الضَّرورة ، وسقطت مكالمته في المناظرة فيه ، ولا يستقيم أن يقال : إنَّ كلام الله تعالى القائم بذاته هو الذي جعله الله معجزة لرسوله ﷺ ، فإنَّ ذلك يعلم بأدنى نظر ، وإذا شاع ذلك أو سئل عنه العلماء وجب عليهم بيان الحقّ في ذلك وإظهاره ، ويجب على من له الأمر وفَّقه الله أخذ من يعتقد ذلك ويعزّ به ضعفاء المسلمين ، وزجره وتأديبه وحبسه عن مخالطة من يخاف منه إضلاله إلى أن يظهر توبته عن اعتقاده مثل هذه الخرافات التي تأباها العقول السَّليمة ، والله أعلم . كتبه عثمان بن أبي بكر الحاجب :

وصورة جواب الإمام علم الدِّين أبي الحسن علي السَّخاوي : كلام الله عزَّ وجلَّ قديم ، صفة من صفاته ، ليس بمخلوق؛ وأصوات القرَّاء وحروف المصاحف أمر خارج عن ذلك ، ولهذا يقال :

صوت قبيح ، وقراءة غير حسنة ، وخطٌّ غير جيِّد ، ولو كان ذلك كلام الله لم يجز ذمّه على ما ذكر ، لأنَّ أصوات القرَّاء به تختلف باختلاف مخارجها ، والله تعالى منزَّه عن ذلك ، والقرآن عندنا مكتوب في المصاحف ، متلو في المحاريب ، محفوظ في الصُّدور ، غير حالٍ في شيء من ذلك ، والمصحف عندنا معظَّم محترم لا يجوز للمحدث مسّه ، ومن استخفَّ به أو ازدراه فهو كافر مباح الدَّم ، والصِّفة القديمة القائمة بذاته سبحانه وتعالى ليست المعجزة ، لأنَّ المعجزة ما تحدَّى به الرَّسول ﷺ وطالب بالإتيان بمثله ، ومعلوم أنَّه لم يتحدَّاهم بصفة الباري القديمة ، ولا طالبهم بالإتيان بمثلها ، ومن اعتقد ذلك وصرَّح به أو دعا إليه فهو ضال مبتدع ، بل خارج عمَّا عليه العقلاء إلى تخليط المجانين ، والواجب على علماء المسلمين إذا ظهرت هذه البدعة إخمادها وتبيين الحقّ ، والله أعلم .

وقد أطنب الإمام الكوثري في ذكر الفتاوى التي قيلت في الرَّد على الحرفيَّة والصَّوتيَّة ... انظر : السَّيف الصَّقيل في الرَّد على ابن زفيل (ص٤٤٦-٤٤٧) ، ضمن مجموعة رسائل للإمام الكوثري بعنوان : العقيدة وعلم الكلام .

وفي مقالاته (ص٥٧-٥٨) ، وتحت عنوان : "بدعة الصَّوتيَّة حول القرآن" قال الإمام الكوثري : "يوجد بين البشر من يرضى لنفسه أن يقول :

إنَّ القرآن كلام الله بحرف وصوت ، ومع ذلك فهو غير مخلوق ، وفي هؤلاء يقول الإمام أبو بكر الباقلَّاني في "النَّقض الكبير" : من زعم أنَّ السِّين من بسم الله بعد الباء ، والميم بعد السِّين الواقعة بعد الباء لا أوَّل له ، فقد خرج عن المعقول وجحد الضَّرورة ، وأنكر البديهة ، فإنَّ اعترف بوقوع شيء بعد شيء فقد اعترف بأوَّليَّته ، فإذا ادَّعى أنَّه لا أوَّل له فقد سقطت محاجَّته وتعيَّن لحوقه بالَّسفسطة . وكيف يُرجى أن يُرشد بالدَّليل من يتواقح في جحد الضَّروري . راجع "الشامل" لإمام الحرمين ، و"نجم المهتدي" لابن المعلم القرشي .

وقال الحليمي في "شعب الإيمان" : ومن زعم أنَّ حركة شفتيه أو صوته أو كتابته بيده في الورقة هو عين كلام الله بذاته ، فقد زعم أنَّ صفة الله قد حلَّت بذاته ومسَّت جوارحه وسكنت قلبه ، وأيّ فرق بين من يقول هذا وبين من يزعم من النَّصارى أنَّ الكلمة اتَّحدت بعيسى عليه الصَّلاة

والسَّلام!! وبعد إحاطة القارئ علماً بهذا وذاك لينظر قول الموفَّق بن قدامة صاحب المغني –الذي يقول عنه ابن تيمية : أنَّه ما دخل دمشق مثله بعد الأوزاعي– في مناظرته مع بعض الأشاعرة في صدد نفي الكلام النَّفسي ، المسجَّلة في المجموعة المحفوظة تحت رقم (١١٦) بظاهريَّة دمشق : "قال أهل الحقّ : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقالت المعتزلة هو مخلوق ، ولم يكن اختلافهم إلَّا في هذا الموجود دون ما في نفس الباري ممَّا لا ندري ما هو ولا نعرفه" . أهـ . وله أيضاً "الصِّراط المستقيم في إثبات الحرف القديم" ، وفيه عجائب ، فيكون اعترف في أوَّل خطوة أنَّ الحقَّ بيد المعتزلة وهو لا يشعر . فإذا كان حال الموفَّق هكذا فماذا يكون حال من دونه؟! نسأل الله الصَّون . وقد أجاد الآلوسي المفسِّر الرَّدَّ عليه وعلىٰ إخوانه من نفاة الكلام النَّفسي في مقدِّمة تفسيره ، فنستغني بذلك عن الإفاضة فيه هنا . والواقع أنَّ القرار في اللوح ، وفي لسان جبريل عليه السَّلام ، وفي لسان النَّبي ﷺ والسُّنَّة التَّالين وقلوبهم وألواحهم مخلوق حادث محدث ضرورة ، ومن ينكر ذلك يكون مسفسطاً ساقطاً من مرتبة الخطاب ، وإنَّما القديم هو المعنىٰ القائم بالله سبحانه بمعنىٰ الكلام النَّفسي في علم الله جلَّ شأنه في نظر أحمد بن حنبل وابن حزم ، وقد صحَّ عند أحمد قوله في المناظرة : "القرآن من علم الله وعلم الله غير مخلوق" أو بمعنىٰ صفة الكلام القائمة بالله سبحانه كقيام صفات العلم والقدرة ونحوهما به جلَّ شأنه علىٰ تقدير ثبوت إطلاق القرآن عليها ، فدلالة القرآن علىٰ المعنىٰ القائم بالله بالاعتبار الأوَّل دلالة اللفظ علىٰ مدلوله الوضعي ، ويشمل وجوده العلمي اللفظ والمعنىٰ في آن واحد ، لأنَّ كليهما في علم الله ، ودلالته علىٰ الصِّفة القائمة به سبحانه بالاعتبار الثَّاني تكون دلالة عقليَّة كما لا يخفىٰ .

فقولهم : "القرآن مكتوب في مصاحفنا ، محفوظ في قلوبنا ، مقروء بألسنتنا ، مسموع بآذاننا" من وصف المدلول باسم الدَّال مجازاً ، كما نصَّ علىٰ ذلك العلَّامة السَّعد في " شرح المقاصد" ، بل قال في شرح النَّسفيَّة عند شرح قول النَّسفي "غير حالٍّ فيها" : أي مع ذلك ليس حالَّاً في المصاحف ولا في القلوب والألسنة والآذان ، بل هو معنىٰ قديم قائم بذات الله تعالىٰ ، يُلفظ ويُسمع بالنَّظم الدَّال عليه ، ويحفظ بالنَّظم المخيل ، ويكتب بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدَّالَّة عليه ، كما

يقال : "النَّار جوهرٌ مُحرق ، يذكر باللفظ ويكتب بالقلم ، ولا يلزم منه كون حقيقة النَّار صوتاً وحرفاً" أ.هـ .

الفَصْلُ السَّادِسُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ الله يَشْعُرُ بِالمَلَلِ

قال القاضي أبو يعلى ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " اعلم أنَّه غير ممتنع إطلاق وصفه تَعَالَىٰ بالملل لا عَلَىٰ مَعْنَىٰ السَّآمة والاستثقال ونفور النَّفس عَنْهُ، كَمَا جاز وصفه بالغضب لا عَلَىٰ وجه النُّفور ... " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٧٠) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليه : " ... المعنىٰ لا يملّ وإن ملُّوا ، وإلَّا لم يكن له فضل عليهم . وقال قوم : من ملَّ من شيء تركه ، والمعنىٰ لا يترك الثَّواب ما لم يتركوا العمل . وأمَّا الملل الذي هو كراهة الشَّيء والاستثقال له ونفور النَّفس عنه والسَّآمة منه فمحال في حقِّه تعالىٰ ، لأنَّه يقتضي تغيّره وحلول الحوادث .

وقال القاضي أبو يعلىٰ : لا يمتنع إطلاق الملل عليه لا بمعنىٰ السَّآمة .

قلت : وهذا بعيد عن معرفة اللغة وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٢٠) .

وجاء في الفتوىٰ رقم (١٤٩١٩) من فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة (٢/ ٤٠٢) :

س: أخرج الأئمَّة أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنَّسائي عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ ، وإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا ، وأَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَىٰ الله تعالىٰ أَدْوَمُهُ، وَإِنْ قَلَّ » .

كيف الجواب علىٰ قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا » هل تمرّ كما جاءت، أم أنَّ لها تفسيراً؟ علماً أنني اطَّلعتُ علىٰ كلام الأئمَّة الحفَّاظ كابن حجر في (فتح الباري ١\١٠١) و (١٣\٣٦) ، ولم يعلِّقوا علىٰ كلامه بشيء، فهل هو موافقة له أم لا؟ وكذلك الحافظ الخطَّابي في (معالم السُّنن) ، والنَّووي في (شرحه علىٰ مسلم) ، وابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) وغيرهم، وحيث إنَّني أقوم بتحقيق إحدىٰ الرَّسائل، وقد وردت فيها عبارة المؤلف (فإن الله لا يملّ حتَّىٰ يمل العبد، والله لا يملّ أبداً) أرجو الإجابة علىٰ سؤالي؟ .

ج: الواجب هو إمرار هذا الحديث كما جاء، مع الإيمان بالصِّفة، وأنَّها حٌّق على الوجه الذي يليق بالله، من غير مشابهة لخلقه ولا تكييف، كالمكر والخداع والكيد الواردة في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وكلها صفات حقّ تليق بالله سبحانه وتعالى على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وبالله التَّوفيق، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء .

الفَصْلُ السَّابِعُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِ بَعْضِهِم بِأَنَّ اللهَ يَتَوَجَّع

من المعلوم أنَّ المتسلِّفة أثبتوا لله تعالى صفات لا حجَّة عليها من الكتاب والسُّنَّة ، بل إنَّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة يعارضها وينفيها عن الله تعالى ... من ذلك ما جاء في كتاب : " تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان " للشَّيخ السَّعدي : " قال الله متوجِّعاً !!! للعباد : ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[يس : ٣٠] ، أي : ما أعظم شقاءهم ، وأطول عناءهم ، وأشدّ جهلهم ، حيث كانوا بهذه الصِّفة القبيحة ، التي هي سبب لكلِّ شقاء وعذاب ونكال " . انظر : تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ص٦٩٥) ، تحقيق : عبد الرَّحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م .

فالسَّعدي يصف الله تعالى بصفة " التَّوجُّع " التي لم يقُلها قبله أحدٌ من العالمين ، وقد ورد هذا اللفظ الشَّنيع في طبعات : دار الرِّسالة ، ودار ابن الجوزي ، وطبعة مكتبة الرُّشد ، وقد حاول بعض أدعياء السَّلفيَّة تدارك فداحة ما وقع فيه مفسِّرهم السَّعدي المعتمد لديهم ، فحرَّف قوله : (متوجِّعاً !!!) لتصبح (مترحِّماً) ، وقد نشرت التَّحريف في طبعتها لكتاب السَّعدي كلّ من : دار المدني بجدَّة ، وطبعة المؤسسة السَّعيديَّة ، وكذا طبعة مركز ابن صالح ... فما رأيكم بهذا التَّحريف الذي ما كان إلَّا لجبر كسر كبير حصل في كلام عالم من كبار علمائهم ؟!! أم أنَّهم سيقولون بوصلتهم المعروفة دائماً : إنَّ الله تعالى يتوجَّع لا كتوجُّعنا ، بل يتوجَّع توجُّعاً يليق به !! سبحانك ربِّي هذا بهتانٌ عظيم ...

وهذا إمامهم محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين يُثبت الأذيَّة لله تعالى !!! ... فقد قال : " قوله: " يؤذيني ابن آدم " . أخرجه البخاري (٦/ ١٣٣ برقم ٤٨٢٦) ، مسلم (٤/ ١٧٦٢ برم ٢٢٤٦) .

أي: يلحق بي الأذى؛ فالأذيَّة لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأنَّ الله أثبتها لنفسه " . انظر : القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٢٤٤ هامش) ...

والحقّ ... أنَّ جميع المسائل السَّابقة وغيرها الكثير الكثير هي من تخرُّصاتهم وتخابطاتهم ، ولا تمتُّ إلى عقائد السَّلف بشيء البتَّة ... وقد قمت بالرَّدِّ عليها ضمن سلسلة الرُّدود عليهم ، وبرهنت بالأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة ... على مخالفتهم لعموم الأمَّة سلفاً وخلفاً ، وبالتَّالي يتَّضح لكلِّ عاقل بأنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة مخالفون للسَّلف في الكثير من المسائل التي طرحوها ، وأنَّ السَّلف ممَّا نسبوه لهم براء ... لأنَّ السَّلف الصَّالح فوَّضوا معاني جميع الألفاظ المتشابهة إلى الله تعالى ، مع إيمانهم بها واعتقادهم تنزيهه سبحانه عن ظاهر معناها ...

الفَصْلُ الثَّامِنُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ اللهَ فِيْ مَكَان يُسَمُّوْنَهُ بِالمَكَانِ العَدَمِي

من البدع العقديَّة المنكرة التي ابتدعها ابن تيمية وسار عليها من بعده مَنْ جعلوا السَّلف الصَّالح علّاقة علَّقوا عليها ترَّهاتهم ومنكراتهم : وجود الله تعالىٰ في مكان عدمي !!! – كما سيأتي لاحقاً – ، وهي بدعة مُنكرة باطلة لم ترد لا في كتاب ولا في سُنَّة ، ولم يقل بها أحد من السَّلف الصَّالح ... والغريب في أمر هؤلاء الحشويَّة أنَّهم دائماً يتبجَّحون باتِّباع الكتاب والسُّنَّة ، وأنَّ عقائدهم مضمَّنة في الكتاب والسُّنَّة ، ويردِّدون دائماً : لا نصف الله إلَّا بما وصف به نفسه أو وصفه محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به ... وهم في ذلك متناقضون ...

ومن الأدلَّة علىٰ تناقضهم : قال الشَّيخ العثيمين في " : شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرَّشاد" (ص١٦) : " ... وهو استواء حقيقي معناه: العلو والاستقرار علىٰ وجه يليق بالله تعالىٰ" .

وقال الشَّيخ العثيمين في " : شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرَّشاد" (ص١٩) : " (الاستواء غير مجهول) أي معلوم المعنىٰ ، وهو العلو والاستقرار (والكيف غير معقول) أي كيفيَّة الاستواء غير مدركة بالعقل ، لأنَّ الله تعالىٰ أعظم وأجل من أن تُدرك العقول كيفيَّة صفاته" .

وفي المقابل قال الشَّيخ الألباني ، كما جاء في " موسوعة العلَّامة الإمام مجِّدد العصر محمَّد ناصر الدِّين الألباني" (٦/ ٣٤٤) ، (٧/ ٦٨٨) : " لا يجوز استعمال ألفاظ لم ترد في الشَّرع؛ لا يجوز أن يُوصف الله بأنَّه مستقر؛ لأنَّ الاستقرار أولاً: صفة بشريَّة، ثانياً: لم يوصف بها ربّنا عزَّ وجلَّ حتَّىٰ نقول: استقرار يليق بجلاله وكماله كما نقول في الاستواء، فنحن لا نصف الله إلَّا بما وصف به نفسه ثمَّ مقروناً مع التَّنزيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١] . "الهدىٰ والنور" (٥٤٢/ ١٩: ١٥: ٠٠) .

فكلامهم فِرية بلا مِرّية ... وإلَّا فأين ورد في الكتاب أو السُّنَّة أو في كلام أحد من السَّلف الصَّالح أنَّ الله تعالىٰ في مكانٍ عدمي ؟؟!!! وأين اقترن المكان العدمي بالتَّنزيل ؟!! وكيف يقولون : مكان عدمي ... والعدم لا يُشار إليه ... فهم متناقضون مع أنفسهم ...

وعلىٰ كلّ حال فقد اجتمعت كلمة الأمَّة علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن المكان ، ومن أقوال أهل العلم في ذلك :

قال الإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمَّد بن عبد الله البغدادي التَّميمي الإسفراييني ، أبو منصور (٤٢٩هـ) : " قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٤٠هـ) رضي الله عنه : " إنَّ الله تَعَالَىٰ خلق الْعَرْش إظهاراً لقدرته ، لَا مَكَاناً لذاته ، وَقَالَ أيضاً : قد كَانَ وَلَا مَكَان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا كَانَ " . انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١) .

وروىٰ الإمام محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضىٰ (١٢٠٥هـ) بسنده عن الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٩٥هـ) رضي الله عنهم أجمعين أنَّه كان يقول في يوم عرفة : " ... أنت الله الذي لا يحويك مكان ... " . انظر : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤١٣) .

وقال الإمام جعفر الصادق بن محمَّد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين رضوان الله عليهم (١٤٨هـ) : " من زعم أنَّ الله تعالىٰ في شيء ، أو من شيء أو علىٰ شيء فقد أشرك ، لأنَّه لو كان علىٰ شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان محدثًا ، والله يتعالىٰ عن ذلك " . انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل بـه ، أبو بكر محمَّد الباقلاني المالكي (ص٤٠) .

وقال الإمام أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت بن إبراهيم (١٥٠هـ) : " لا يُوصف الله تعالىٰ بصفات المخلوقين ... قلتُ : أرأيتَ لو قيل : أين الله تعالىٰ ؟ فقال : يقال له كان الله تعالىٰ ولا مكان قبل أن يخلق الخلق ، وكان الله تعالىٰ ولـم يكن أين ولا خَلْق ولا شيء ، وهو خالق كلّ شيء " . انظر : الفقه الأبسط ، أبو حنيفة النعمان (ص٥٧) ، ضمن رسائل العالم والمتعلم .

وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) نقلاً عن الإمام الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) : " ... والدَّليل عليه هو أنَّه تعالىٰ كان ولا مكان ، فخلق المكان وهو علىٰ صفة الأزليَّة كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ، ولا التَّبديل في صفاته " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٣) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) نقلاً عن ذي النُّون الْمِصْرِيّ (٢٤٥هـ) رَضِي الله عَنهُ أَنَّه سئل عَن قَوْله تَعَالَى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، فَقَالَ : أثبت ذَاته وَنفى مَكَانَهُ ، فَهُوَ مَوْجُود بِذَاتِهِ ، والأشياء بِحِكْمَتِهِ كَمَا شَاءَ " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٤٢) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي نقلاً عن يحيى بن معَاذ الرَّازِيّ (٢٥٨هـ) أَنَّه قيل له : " أخبرنَا عَن الله عزَّ وَجلَّ ؟ قَالَ : إِلَه وَاحِد ، فَقيل لَهُ : كَيفَ هُوَ ؟ فَقَالَ : مَالك قَادر ، فَقيل لَهُ : أَيْن هُوَ ؟ فَقَالَ : بالمرصاد ، فَقَالَ السَّائِل : لم أَسأَلك عَن هَذَا ؟ فَقَالَ : مَا كَانَ غير هَذَا كَانَ صفة الْمَخْلُوق ، فَأَما صفته فَمَا أخْبرت عَنهُ " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٤٢) .

وقال اللغوي إبراهيم بن السّري الزّجّاج (٣١١هـ) : " العلي : هو فَعِيل في معنى فاعل ، فالله تعالى عالٍ على خلقه ، وهو عليٌّ عليهم بقدرته ، ولا يجب أن يُذهب بالعلو ارتفاع مكانٍ ، إذ قد بيّنّا أن ذلك لا يجوز في صفاته تقدَّست ، ولا يجوز أن يكون على أن يُتصوَّر بذهن ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً " . انظر : تفسير أسماء الله الحسنى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمَّد الزجاج (ص٤٨) .

وقال اللغوي إبراهيم بن السّري الزّجاج : " والله تعالى عالٍ على كلّ شيء ، وليس المراد بالعلو ارتفاع المحلِّ ، لأنَّ الله تعالى يجلُّ عن المحلِّ والمكان ، وإنَّما العُلو علوُّ الشأن وارتفاعُ السلطان " . انظر : تفسير أسماء الله الحسنى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمَّد الزجاج (ص٦٠) .

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَمِنْهُم من قَالَ بنفي الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، وَكَذَلِكَ بالأمكنة كلّها إِلَّا على مجَاز اللُّغَة ، بِمَعْنى : الْحَافِظ لَهَا والقائم بهَا ... الأَصْل فِيهِ : أَنَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وَجَائِز ارْتِفَاع الْأَمْكِنَة وبقاؤه على مَا كَانَ ، فَهُوَ على مَا كَانَ وَكَانَ على مَا عَلَيْهِ الْآن ، جلّ عَن التَّغَيُّر والزوال واللستحالة والبطلان ، إِذْ ذَلِك أَمَارَات الْحَدث الَّتِي بهَا عرف حدث الْعَالم وَدلَالَة احتمال الفناء ، إِذْ لَا فرق بَين الزَّوَال من حَال إِلَى حَال ، ليعلم أَنَّ حَاله الأولى لم تكن لذاته ، إِذْ لَا يحْتَمل زَوَال مَا لزم ذَاته وَبَين أَنَّهَا لَيست لذاته ، لما احْتمل هُوَ قبُول الْأَعْرَاض وانتقال الْأَحْوَال وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

وَبعد ، فَإِن فِي تَحْقِيق الْمَكَان لَهُ وَالْوَصْف لَهُ بِذَاتِهِ فِي كلّ مَكَان ، تَمْكِين الْحَاجة لَهُ إِلَىٰ مَا بِهِ قراره علىٰ مثل جَمِيع الْأَجْسَام والأعراض الَّتِي قَامَت بالأمكنة ، وفيهَا تقلبت وقرت علىٰ خُرُوج جُمْلَتهَا عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، فَمن أَنْشَأَهَا وَأمْسك كليتها لَا بمَكَان ، يتعالىٰ عَن الْحَاجة إِلَىٰ مَكَان أَو الْوَصْف بِمَا عَلَيْهِ الْعَالم أَنَّ كليته لَا فِي مَكَان ، وَأَنه بجزئياته فِي الْمَكَان .

ثمَّ إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَو جعل فِي مَكَان لجعل بِحَق الْجُزْئِيَّة من الْعَالم ، وَذَلِكَ أثر النُّقْصَان بل لما استقام قيام جَمِيع الْعَالم لَا بالأمكنة للجملة فقيِّمه علىٰ ذَلِك أَحَق وَأولىٰ ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

قَالَ أَبُو مَنْصُور رَحمَه الله : ثمَّ القَوْل بالكون علىٰ الْعَرْش وَهُوَ مَوضِع بِمَعْنىٰ كَونه بِذَاتِهِ أَو فِي كلّ الْأَمْكِنَة ، لَا يعدو من إحاطة ذَلِك بِهِ أَو الاستواء بِهِ أَو مجاوزته عَنهُ وإحاطته بِهِ ، فَإِن كَانَ الأول فَهُوَ إِذاً مَحْدُود بِهِ محاط ،مَنْقُوص عَن الْخلق ، إِذْ هُوَ دونه ، وَلَو جَازَ الْوَصْف لَهُ بِذَاتِهِ بِمَا يُحِيط بِهِ من الْأَمْكِنَة لجَاز بِمَا يُحِيط بِهِ من الْأَوْقَات ، فَيصير متناهياً بِذَاتِهِ ، مقصِّراً عَن خلقه ، وَإِن كَانَ علىٰ الْوَجْه الثَّانِي ، فَلَو زيد علىٰ الْخلق لَا ينقص أَيْضاً ، وَفِيه مَا فِي الأول ، وَإِن كَانَ علىٰ الْوَجْه الثَّالِث فَهُوَ الْأَمر الْمَكْرُوه الدَّال علىٰ الْحَاجة وعَلىٰ التَّقْصِير من أَن ينشئ مَا لَا يفضل عَنهُ مَعَ مَا يذم ذَا من فعل الْمُلُوك أَن لَا يفضل عَنْهُم من المعامد شَيْئاً .

وَبعد ، فَإِن فِي ذَلِك تجزئة بِمَا كَانَ بعضه فِي ذِي أبعاض وَبَعضه يفضل عَن ذَلِك ، وَذَلِكَ كُله وصف الْخَلَائق ، وَالله يتعالىٰ عَن ذَلِك ... " . انظر : التوحيد ، الماتريدي(ص٦٨-٧٠ ببعض الاختصار) .

وقال الإمام الماتريدي أيضاً : " ... وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان ، وَلَيْسَ فِي الْإِضَافَة إِلَىٰ أَنَّه علىٰ الْعَرْش اسْتَوَىٰ تثبيت مَكَان ، كَمَا لم يكن فِي قَوْله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وَقَوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ، وَقَوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ، ذَلِك علىٰ أَنَّ القَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتبجيل ، بل الْأَمْكِنَة إِنَّمَا شرفت بِهِ ، وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَاناً علىٰ مَكَان يَجعله مَخْصُوصاً لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيهِ ، فَأَما أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار ، فَلَيْسَ بِهِ فَكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدر مَكَان وَلَا جلَّ خطره إِلَّا بِهِ ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي

الْإِضَافَة تَعْظِيمه ثمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك للْحَاجة ، وَهُوَ يتعالىٰ عَنْهَا ، فَلذَلِك لم يجب بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ معنىٰ الْكَوْن فِي الْمَكَان ، إِذْ ذَلِك الْحَرْف يعبَّر بِهِ عَن الْعُلُوّ والجلال ، ومحال مثله لَهُ بخلقه ، فَثَبت أَنَّ ذَلِك من الْوَجْه الَّذِي يسْتَحقّهُ بِذَاتِهِ من الْعُلُوِّ والرفعة ، وَمَا هُوَ بِذَاتِهِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَانَ كَذَلِك وَلَا خلق لم يجز الْوَصْف لَهُ بالخلق ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ " . انظر : التوحيد ، الماتريدي (ص١٠٥) .

وقال أيضاً : " ... وَلَا يُوصف شَيْء بِالْقربِ إِلَىٰ الله من طَرِيق الْمسَافَة والمساحة ، وَلَا هُوَ بِالْقربِ إِلَىٰ شَيْء من ذَلِك الْوَجْه ، إِذْ ذَلِك جِهَة الْحُدُود وَالتَّقْدِير بالأمكنة ، وَقد كَانَ وَلَا مَكَان ، فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ ، يتعالىٰ عَن الزَّمان وَالْمَكَان ، إِذْ إِلَيْهِمَا ترجع حُدُود الْأَشْيَاء ونهايتها ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ " . انظر : التوحيد ، الماتريدي (ص١٠٦) .

وقال أيضاً : " ... تسْأَل عَن الْمَكَان ، وَقد كَانَ وَلَا مَكَان ، وَهُوَ يتعالىٰ عَن الْوَصْف بالأمكنة ، بل هُوَ علىٰ مَا كَانَ بِلَا تغير وَلَا زَوَال " . انظر : التوحيد ، الماتريدي (ص١٢٦) .

وقال الإمام ابن حبَّان (٣٥٤هـ) : " الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حدٌّ مَحْدُود فيحتوىٰ ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنىٰ ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشَّواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة الناطقين " . انظر : الثقات ، ابن حبان البُستي (١/ ١-٢) .

وقال في كلامه علىٰ حديث : " .. أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّموات وَالْأَرْض ؟ قَالَ : فِي عَماءٍ ، مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تحته هواء " : " قال أبو حاتم رضي الله تعالىٰ عَنْهُ : وَهِمَ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ مِنْ حَيْثُ " فِي غَمَامٍ " إِنَّما هُوَ "فِي عَماءٍ " يُرِيدُ بِهِ : أَنَّ الْخَلْقَ لَا يَعْرِفُونَ خَالِقَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ ، إِذْ كَانَ ولا زمان ولا مكان ، ومن لا يُعْرَفُ لَهُ زَمَانٌ ، وَلَا مَكَانٌ ، وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ ، لأَنَّه خَالِقُهَا ؛ كَانَ مَعْرِفَةُ الْخَلْقِ إِيَّاه ، كَأَنَّهُ كَانَ فِي عَماءٍ عَنْ عِلْمِ الْخَلْقِ ، لَا أَنَّ اللهَّ كَانَ فِي عَماءٍ ، إِذْ هذا الوصف شبيه بأوصاف المخلوقين " . انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٤/ ١٠) .

وقال أيضاً : " ... كَذَلِكَ يَنْزِلُ بِلَا آلَةٍ ، وَلَا تَحَرُّكٍ ، وَلَا انْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ... وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ ، بِلَا آلَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَاسَ نُزُولُهُ إِلَى نُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ ، كَمَا يُكَيَّفُ نُزُولُهُمْ ، جَلَّ رَبُّنَا وَتَقَدَّسَ مِنْ أَنْ تُشَبَّهَ صِفَاتُهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ " . انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠١) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي نقلاً عن محمَّد بن مَحْبُوب خَادِمِ أبي عُثْمَان المغربي : قَالَ لي أَبُو عُثْمَان المغربي (٣٧٣هـ) يَوْماً : يَا محمَّد ، لَو قَالَ لَك قَائِل : أَيْن معبودك ؟ أيش تَقول : قلت : أَقُول حَيْثُ لم يزل . قَالَ : فَإِن قَالَ : فَأَيْنَ كَانَ فِي الْأَزَل أيش تَقول ؟ قلت : حَيْثُ هُوَ الْآن ، يَعْنِي : أَنَّه كَانَ وَلَا مَكَان فَهُوَ الْآن كَمَا كَانَ ، قَالَ : فارتضى ذَلِك مني وَنزع قَمِيصه وأعطانيه " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٤٣) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي نقلاً عن أَبي عُثْمَان المغربي (٣٧٣هـ) ، قال : " كنت أعتقد شَيْئاً من حَدِيث الْجِهَة ، فَلَمَّا قدمت بَغْدَاد زَالَ ذَلِك عَن قلبِي ، فكتبت إِلَى أَصْحَابِي بِمَكَّة : أَنِّي أسلمت جَدِيداً ، قَالَ فَرجع كلّ من كَانَ تَابعه عَن ذَلِك " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٩/ ٤٣) .

وقال الإمام الباقلاني (٤٠٣ هـ) : " ويجب أن يُعلـم : أنَّ كلّ ما يدلُّ على الحدوث أو على سمة النقص ، فالرَّبُّ تعالى يتقدّس عنه .

فمن ذلـك : أنَّه تعالى متقدِّسٌ عن الاختصاص بالجهات ، والاتِّصاف بصفات الـمحدثات ، وكذلك لا يوصف بالتَّحوُّل ، والانتقال ، ولا القيام ، ولا القعود ، لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى :١١] ، وقوله :﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] ، ولأنَّ هذه الصفات تدلُّ على الحدوث ، والله تعالى يتقدَّس عن ذلـك " . انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل بـه (ص٤٠) .

وقال الإمام الباقلاني (٤٠٣ هـ) : " ولا نقول : إنَّ العرش له قرارٌ ولا مكانٌ ، لأنَّ الله تعالى كان ولا مكان ، فلـما خلق الـمكان لـم يتغيَّر عما كان " . انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل بـه (ص٣٩-٤٠) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " وَلَا يجوز على الله تَعَالَىٰ الْحُلُول فِي الْأَمَاكِن لاستحالة كَونه محدوداً ومتناهياً ، وَذَلِكَ لاستحالة كَونه مُحدثاً " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٥٣) .

وقال أيضاً : " وَاعْلَم أَنا إِذا قُلْنَا : إِنَّ الله عزَّ وَجلَّ فَوق مَا خلق ، لم يرجع بِهِ إِلَىٰ فوقيَّة الْمَكَان والارتفاع على الْأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالمماسَّة لشَيْء مِنْهَا ، بل قَوْلنَا أَنَّه فَوْقهَا يحْتَمل وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : أَنَّه يُرَاد بِهِ : أَنَّه قاهر لَهَا مستول عَلَيْهَا إِثْبَاتاً لإحاطة قدرته بهَا ، وشمول قهره لَهَا ، وَكَونهَا تَحت تَدْبيره جَارِيَة على حسب علمه ومشيئته .

وَالْوَجْه الثَّانِي : أَن يُرَاد : أَنَّه فَوْقهَا ، على معنى : أَنَّه مباين لَهَا بِالصّفةِ والنعت ، وَأَنَّ مَا يجوز على المحدثات من الْعَيْب وَالنَّقْص وَالْعجز والآفة وَالْحَاجة ، لَا يَصحُّ شَيْء من ذَلِك عَلَيْهِ ، ولا يجوز وَصفه بِهِ ، وَهَذَا أَيْضاً مُتَعَارَف فِي اللُّغَة ، أَن يُقَال : فلَان فَوق فلَان ، وَيُرَاد بذلك رفْعَة الْمرتبَة والمنزلة ، وَالله عزَّ وَجلَّ فَوق خلقه على الْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً . وَإِنَّمَا يمْتَنع الْوَجْه الثَّالِث ، وَهُوَ أَن يكون على معنى التحيُّز فِي جِهَة الاختصاص ببقعه دون بقْعَة " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٧٣) .

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) : " وأجمعوا على أنَّه لَا يحويه مَكَان ، وَلَا يجرى عَلَيْهِ زمَان " . انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت على أنَّ البارئ تعالى ليس بجسم ، ولا محتاجاً إلى مكان يحلّه ويستقرُّ فيه ؛ لأنَّه تعالى قد كان ولا مكان ، وهو على ما كان ، ثمَّ خلق المكان ، فمحال كونه غنياً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ، ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له ، هذا مستحيل " . انظر : شرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٥٣) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) : " وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي نَفْيِ الْمَكَانِ عَنْهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ " . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ ، وَلَا دُونَهُ شَيْءٌ ، لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ " . انظر : الأسماء والصفات ، البيهقي (٢/ ٢٨٧) .

وقال إمام الحرمين الجُويني (٤٧٨هـ) ما نصّه : " ومذهبُ أهل الحقّ قاطبة : أنَّ الله سبحانه وتعالى يتعالى عن التَّحيُّز والتخصُّص بالجهات " . انظر : كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجُويني الشَّافِعِي (ص٣٩) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " ... فَقَدِ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ أَنَّه سُبْحَانَهُ لَيْسَ مَعَنَا بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيِّزِ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٩/ ٤٤٩) .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ أبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ القرطبيُّ : " إذ الله تعالى منزَّه عن المكان ، كما هو منزَّه عن الزَّمان ، بل هو خالق الزَّمان والمكان ، ولم يزل موجوداً ، ولا زمانَ ولا مكانَ ، وهو الآن على ما عليه كان ، ولو كان قابلاً للمكان لكان مختصّاً به ، ويحتاج إلى مخصِّص ، ولكان فيه إمَّا متحرِّكاً وإمَّا ساكناً ، وهما أمران حادثان ، وما يتَّصف بالحوادث حادث " . انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٧٤) .

وقال أيضاً : " فإنَّه تعالى منزَّه عن المكان والزَّمان " . انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٢/ ٢٩) .

وقال الإمام أبو الفضل زين الدِّين عبد الرَّحيم بن الحسين بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (٨٠٦هـ) معلِّقاً على تبويب الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الْقَدَرِ : بَابَ تَحَاجِّ آدَم وَمُوسَىٰ عِنْدَ اللهَّ : " وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ هَذِهِ الْعِنْدِيَّةُ عِنْدِيَّةُ اخْتِصَاصٍ وَتَشْرِيفٍ لَا عِنْدِيَّةُ مَكَان ، لأنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ الْمَكَانِ والزَّمان ، وَإِنَّمَا هِيَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ، أَيْ : فِي مَحَلِّ التَّشْرِيفِ وَالْإِكْرَامِ وَالاِخْتِصَاصِ " . انظر : طرح التثريب في شرح التقريب ، أبو الفضل زين الدِّين عبد الرَّحيم العراقي (٨/ ٢٤٨) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) نقلاً عن الإمام أَحْمد بن يحيىٰ بن إِسْمَاعِيل الشَّيْخ شهَاب الدِّين ابْن جهبل الْكلابِي الْحلَبِي (٧٣٣هـ) : " وَهَا نَحن نذكر عقيدة أهل السّنة فَنَقُول :

عقيدتنا أَنَّ الله قديم أزلي ، لَا يشبه شَيْئاً ، وَلَا يُشبههُ شَيْء ، لَيْسَ لَهُ جِهَة وَلَا مَكَان ، وَلَا يجْرِي عَلَيْهِ وَقت وَلَا زمَان ، وَلَا يُقَال لَهُ أَيْن ، وَلَا حَيْثُ ، يُرىٰ لَا عَن مُقَابلَة وَلَا علىٰ مُقَابلَة ، كَانَ وَلَا مَكَان ، كَوَّن الْمَكَان ودبَّر الزَّمان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ .

هَذَا مَذْهَب أهل السُّنَّة وعقيدة مَشَايخ الطَّرِيق رَضِي الله عَنْهُم ... فَهَذِهِ كَلِمَات أَعْلَام أهل التَّوْحِيد ، وأئمة جُمْهُور الْأمة ، سوى هَذِه الشرذمة الزائغة ، كتبهم طافحة بذلك ، وردهم على هَذِه النازعة لَا يكَاد يحصر ، وَلَيْسَ غرضنا بذلك تقليدهم ، لمنع ذَلِك فِي أصُول الديانَات ، بل إِنَّمَا ذكرت ذَلِك ليعلم أَنَّ مَذْهَب أهل السُّنَّة مَا قدمْنَاهُ .

ثمَّ إِنَّ قَوْلنَا : إِنَّ آيَات الصِّفَات وأخبارها على من يسْمعهَا وظائف التَّقْدِيس ، وَالْإِيمَان بِمَا جَاءَ عَن الله تَعَالَى وَعَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مُرَاد الله تَعَالَى ، وَمُرَاد رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والتَّصديق ، وَالِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، وَالسُّكُوت ، والإمساك عَن التَّصَرُّف فِي الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة ، وكفّ الْبَاطِن عَن التفكُّر فِي ذَلِك ، واعتقاد أَنَّ مَا خَفِي عَلَيْهِ مِنْهَا لم يخف عَن الله وَلَا عَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَيَأْتِي شرح هَذِه الوظائف إِن شَاءَ الله تَعَالَى ، فليت شعري فِي أَي شَيْء نخالف السَّلف ، هَل هُوَ فِي قَوْلنَا : كَانَ وَلَا مَكَان ، أَو فِي قَوْلنَا : أَنَّه تَعَالَى كَوَّن الْمَكَان ، أَو فِي قَوْلنَا : وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ ، أَو فِي قَوْلنَا : تقدَّس الْحق عَن الجسميَّة ومشابهتها ، أَو فِي قَوْلنَا : يجب تَصْدِيق مَا قَالَه الله تَعَالَى وَرَسُوله بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ ، أَو فِي قَوْلنَا : يجب الِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، أَو فِي قَوْلنَا : نسكت عَن السُّؤَال والخوض فِيمَا لَا طَاقَة لنا بِهِ ، أَو فِي قَوْلنَا : يجب إمْسَاك اللِّسَان عَن تَغْيِير الظَّوَاهِر بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان ؟

وليت شعري فِي مَاذَا وافقوا هم السَّلف ، هَل فِي دُعَائِهِمْ إِلَى الْخَوْض فِي هَذَا والحثّ على الْبَحْث مَعَ الْأَحْدَاث الغرين ، والعوام الطَّغَام الَّذين يعجزون عَن غسل مَحل النَّجو وَإِقَامَة دعائم الصَّلَاة ، أَو وافقوا السَّلف فِي تَنْزِيه الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن الْجِهَة ، وَهل سمعُوا فِي كتاب الله أَو أثارة من علم عَن السّلف أَنهم وصفوا الله تَعَالَى بِجِهَة الْعُلُوّ ، وَأَنَّ كلّ مَالا يصفه بِهِ فَهُوَ ضالٌّ مضلٌّ من فراخ الفلاسفة والهنود واليونان ، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ .

انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٩/ ٤٢-٤٤) .

وقال الإمام الطِّيبي (٧٤٣هـ) : " لأنَّه منزَّه عن المكان " . انظر : شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) ، شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطيبي ، (٤/ ١٣٤٥) .

وقال الإمام الكرماني (٧٨٦هـ) : " ... لأنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن الحلول في المكان ، تعالىٰ عنه " .

وقال الإمام الكرماني أيضاً : " ... ولم يرد بالقرب قرب المسافة ، لأنَّه تعالىٰ منزَّه عن الحلول في المكان " . انظر : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٠٨) .

وقال الإمام الشَّاطبي (٧٩٠هـ) : " سألني الشَّيخ الأستاذ الكبير الشَّهير أبو سعيد فرج بن قاسم بن لب التغلبي أدام الله أيامه عن قول ابن مالك في تسهيل الفوائد في باب اسم الإشارة ، وقد يغني ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه ، فقال : إنَّ المؤلف مثل عظمة المشير في الشَّرح بقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ، ولم يبيِّن ما وجه ذلك ، فما وجهه ؟ ففكرت ، فلم أجد جواباً ، فقال : وجهه أنَّ الإشارة بذي القرب هاهنا قد يتوهَّم فيها القرب بالمكان ، والله تعالىٰ يتقدَّس عن ذلك ، فلمَّا أشار بذي البعد أعطىٰ بمعناه أنَّ المشير مباين للأمكنة ، وبعيد عن أن يوصف بالقُرب المكاني ، فأتىٰ البعد في الإشارة منبِّهاً علىٰ بعد نسبة المكان عن الذَّات العليَّة ، وأنَّه يبعد أن يحلَّ في مكان أو يدانيه " . وللاستزادة في تنزيه الله تعالىٰ عن المكان انظر : تبصرة الأدلة في أصول الدِّين ، أبو المعين النسفي الحنفي (١/ ١٧٤-١٨٣) ، الإفادات والإنشادات ، للشاطبي (ص٣) ، التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (٣٣/ ٢٤٨) ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٤/ ٢٥٤) ، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٣/ ٣٠) ، (٦/ ١٣٦) ، (٧/ ١٢٤) ، (١١/ ٥٠٥) ، (١٣/ ٤١٣) ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٥/ ١٠١) ، (٢٥/ ١١٧) ، التحبير لابن أمير حاج (٣/ ١٨) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي(٢٠/ ٢٤٨) ، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة للسخاوي (ص٥٤٤) ، حاشية السيوطي علىٰ سنن النسائي (٢/ ٢٢٦) ، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (١/ ٤١٩) ، (١/ ٤٢٢) ، (١٠/ ٣٩٣) ، (١٠/ ٣٩٦) ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (٤/ ١٥٤٠) ، (٥/ ١٨٢٦) ، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٦٠٦) ، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان (٦/ ٣٧١) ، الأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع ، حسن بن عمر بن عبد الله السيناوني المالكي (٣/ ١٠٦) ، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين للتباني (ص٧٩) ، التحرير والتنوير (تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) لابن عاشور (٢٠/ ٢٠) ، (٢٩/ ٣٣) ، الفتاوىٰ الهندية ، لجنة علماء برئاسة نظام الدِّين البلخي (٢/ ٢٥٩) ...

وعوداً علىٰ بدء ... فإنَّ المتسلِّفة وضعوا ربَّهم في مكان يسمُّون بِالْمَكَانِ الْعَدَمِيِّ للهِ تَعَالَىٰ ... ومن أقوال أئمَّتهم في ذلك :

قال الإمام ابن تيمية في " منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة" (٢/ ٣٢٣) : " أَنَّ لَفْظَ " الْجِهَةِ " قَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّه لَا مَوْجُودَ إِلَّا الْخَالِقُ

وَالْمَخْلُوقُ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللهِ كَانَ مَخْلُوقًا، وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يَحْصُرُهُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فإِنَّه بَائِنٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ.

فَإِذَا قِيلَ: أَنَّه فِي جِهَةٍ ؛ إِنْ كَانَ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ أَنَّه هُنَاكَ فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهَتِ الْمَخْلُوقَاتُ، فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ عَالٍ عَلَيْهِ" .

وقال الإمام ابن تيمية في " منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة" (٢/٥٥٦) : "وَإِذَا كَانَ الْخَالِقُ بَائِنًا عَنِ الْمَخْلُوقِ امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ فِي الْمَخْلُوقِ، وَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ مُتَحَيِّزًا بِهَذَا الاِعْتِبَارِ.

وَإِنْ أَرَادَ بِالْحَيِّزِ أَمْرًا عَدَمِيًّا فَالْأَمْرُ الْعَدَمِيُّ لَا شَيْءَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ بَائِنٌ عَنْ خَلْقِهِ، فَإِذَا سَمَّىٰ الْعَدَمَ الَّذِي فَوْقَ الْعَالَمِ حَيِّزًا، وَقَالَ: يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَالَمِ لِئَلَّا يَكُونَ مُتَحَيِّزًا، فَهَذَا مَعْنًى بَاطِلٌ لأَنَّه لَيْسَ هُنَاكَ مَوْجُودٌ غَيْرُهُ حتَّىٰ يَكُونَ فِيهِ وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ أَنَّه بَائِنٌ عَنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضُوعِ " .

وفي ردِّه علىٰ من يقول لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكَانَ جِسْمً قال الإمام ابن تيمية في " منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة" (٢/٥٥٧-٥٥٨) : " ... مَعْلُومٌ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّ إِثْبَاتَ مَوْجُودٍ فَوْقَ الْعَالَمِ لَيْسَ بِجِسْمٍ، أَقْرَبُ إِلَىٰ الْعَقْلِ مِنْ إِثْبَاتِ مَوْجُودٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ لَيْسَ بِمُبَايِنٍ لِلْعَالَمِ وَلَا بِمُدَاخِلٍ لَهُ، فَإِنْ جَازَ إِثْبَاتُ الثَّانِي فَإِثْبَاتُ الْأَوَّلِ أَوْلَىٰ.

وَإِذَا قُلْتُمْ: نَفْيُ هَذَا الثَّانِي مِنْ حُكْمِ الْوَهْمِ الْبَاطِلِ؛ قِيلَ لَكُمْ: فَنَفْيُ الْأَوَّلِ أَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ حُكْمِ الْوَهْمِ الْبَاطِلِ.

وَإِنْ قُلْتُمْ: إِنَّ نَفْيَ الْأَوَّلِ مِنْ حُكْمِ الْعَقْلِ الْمَقْبُولِ ؛ فَنَفْيُ الثَّانِي أَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ حُكْمِ الْعَقْلِ الْمَقْبُولِ.

وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ.

وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ فِي لَفْظِ " الْجِهَةِ " فَإِنَّ مُسَمَّى لَفْظِ الْجِهَةِ يُرَادُ بِهِ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ كَالْفَلَكِ الْأَعْلَى، وَيُرَادُ بِهِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ كَمَا وَرَاءَ الْعَالَمِ.

فَإِذَا أُرِيدَ الثَّانِي (أَمْكَنَ) أَنْ يُقَالَ: كلّ جِسْمٍ فِي جِهَةٍ. وَإِذَا أُرِيدَ الْأَوَّلُ امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ كلّ جِسْمٍ فِي جِسْمٍ آخَرَ.

فَمَنْ قَالَ: الْبَارِي فِي جِهَةٍ، وَأَرَادَ بِالْجِهَةِ أَمْرًا مَوْجُودًا، فَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ لَهُ، (وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ) فِي جِهَةٍ بِهَذَا التَّفْسِيرِ فَهُوَ مُخْطِئٌ.

وَإِنْ أَرَادَ بِالْجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيًّا، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ، فَقَدْ أَصَابَ. وَلَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ مَوْجُودٌ غَيْرُهُ، فَلَا يَكُونُ سُبْحَانَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ" .

وقال الإمام ابن تيمية في " منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة" (٢/٦٤٨) : " وَجُمْهُورُ الْخَلْقِ عَلَى أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَلْفِظُ بِلَفْظِ " الْجِهَةِ " فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ وَيَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ أَنَّ رَبَّهُمْ فَوْقُ، وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ فُطِرُوا عَلَيْهِ وَجُبِلُوا عَلَيْهِ ... " .

وقال الإمام ابن تيمية في " منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة" (٢/٦٤٨-٦٤٩) : " كَذَلِكَ قَوْلُهُ: " كلّ مَا هُوَ فِي جِهَةٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ " لَمْ يَذْكُرْ عَلَيْهِ دَلِيلًا، وَغَايَتُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ اللهَ لَوْ كَانَ فِي جِهَةٍ لَكَانَ جِسْمًا، وكلّ جِسْمٍ مُحْدَثٌ، لِأَنَّ الْجِسْمَ لَا يَخْلُو مِنَ الْحَوَادِثِ وَمَا لَا يَخْلُو مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ فِيهَا نِزَاعٌ: فَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ: قَدْ يَكُونُ فِي الْجِهَةِ مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ ؛ فَإِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا خِلَافُ الْمَعْقُولِ، قَالَ: هَذَا أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: أنّه لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، فَإِنْ قَبِلَ الْعَقْلُ ذَاكَ قَبِلَ هَذَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، وَإِنْ رَدَّ هَذَا رَدَّ ذَاكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، وَإِذَا رَدَّ ذَاكَ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ فِي الْجِهَةِ، فَثَبَتَ أنّه فِي الْجِهَةِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ" .

وقال الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوى " (٣/٤٢) : " فَيُقَالُ لِمَنْ نَفَى الْجِهَةَ: أَتُرِيدُ بِالْجِهَةِ أَنَّهَا شَيْءٌ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ؟ فَاللهُ لَيْسَ دَاخِلًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَمْ تُرِيدُ بِالْجِهَةِ مَا وَرَاءَ الْعَالَمِ؟ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ " .

وقال الإمام ابن تيمية في " بيان تلبيس الجهميَّة في تأسيس بدعهم الكلاميَّة " (١/٥٢٦-٥٢٧) : " والله تعالىٰ قد أخبر عن فرعون أنَّه طلب أن يصعد ليطلع إلىٰ إله موسىٰ ، فلو لم يكن موسىٰ أخبره أنَّ إلهه فوق ، لم يقصد ذلك ، فإنَّه لو لم يكن مقرّاً به فإذا لم يخبره موسىٰ به لم يكن إثبات العلو لا منه ولا من موسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام ، فلا يقصد الاطلاع ، ولا يحصل به ما قصده من التَّلبيس علىٰ قومه بأنَّه صعد إلىٰ إله موسىٰ .

فموسىٰ صدَّق محمَّداً في أنَّ ربَّه فوق ، وفرعون كذَّب موسىٰ في أنَّ ربَّه فوق . فالمقرُّون بذلك متَّبعون لموسىٰ ومحمَّد ، والمكذِّبون بذلك موافقون لفرعون ، وإن كانوا يعبِّرون عن ذلك بعبارات مبتدعة فيها إجمال وإبهام وإيهام ، كقولهم : ليس بمتحيِّز ، ولا جسم ، ولا جوهر ، ولا هو في جهة ، ولا مكان ، وأمثال هذه العبارات التي تفهم منها العامَّة تنزيه الرَّب تعالىٰ عن النَّقائص ، ومقصدهم بها أنَّه ليس فوق السَّموات ربّ ، ولا علىٰ العرش إله يعبد ، ولا عرج بالرَّسول إلىٰ الله".

ولأنَّ المتسلِّفة لا يحيدون عمَّا قاله ابن تيمية قيد أنمله ... فقد اعتقدوا بالمكان العدمي ، وأنَّ الله تعالىٰ موجود فيه ... وفي ذلك قال الشَّيخ الألباني في " مختصر العلو" (ص٦٩-٧٠) : "وجملة القول في الجهة أنَّه إن أريد به أمر وجودي غير الله كان مخلوقاً ، والله تعالىٰ فوق خلقه لا يحصره ولا يحيط به شيء من المخلوقات، فإنَّه بائن من المخلوقات ،كما سيأتي في الكتاب عن جمع من الأئمَّة.

وإن أُريد بـ"الجهة" أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلَّا الله وحده.

وهذا المعنىٰ الأخير هو المراد في كلام المثبتين للعلو والنَّاقلين عن السَّلف إثبات الجهة لله تعالىٰ كما في نقل القرطبي عنهم في آخر الكتاب" .

قال الأستاذ السَّقَّاف في الردِّ علىٰ هذه الترَّهات والسَّفسطات في "تنقيح الفهوم العالية " (ص٨٣) : ... ثمَّ هم بذلك يقولون: مكان وعدمي!! وهذا منهم تناقض بيِّن ، لأنَّه كيف يكون مكان ويُشار إليه وقد عيَّنوا جهته ثمَّ يقولون بعد ذلك : عدمي؟!! فهل يُشار إلىٰ العَدَم؟!!

ثمَّ كيف يقولون بأنَّ هذا المكان الذي يتخيَّلون وجود معبودهم فيه غير مخلوق ، مع أنَّ كلّ ما سوىٰ الله مخلوق؟!!

ثمَّ تأمَّلوا أيُّها النَّاس في تناقض وتخابط عباراتهم حيث يقولون: مكان عدمي فوق العالم غير مخلوق!" .

وقال الدُّكتور المتسلِّف محمَّد خليل هراس في " شرح القصيدة النُّونيّة " لابن قيِّم الجوزيَّة (١/ ٢١٥) : " ... ولا شكَّ أنَّ الله في هذه الجهة ، فله العلوّ المطلق علىٰ سائر خلقه، بحيث لا يكون شيء منها حاصراً له ولا محيطاً به، فهو سبحانه ليس في جهة وجوديَّة من هذه الجهات الواقعة داخل هذا العالم، ولكن الجهات كلّها بالنِّسبة إليه عدميَّة ، فإنَّه فوق عرشه ، والعرش هو الجسم الذي تنتهي به كرة العالم ، فالله عزَّ شأنه هناك !!! حيث انتهت جميع المخلوقات ، فهو مباينٌ لها محيطٌ بها ، ولا يحيط به شيء منها" .

وقال الدُّكتور المتسلِّف محمَّد خليل هراس في " شرح العقيدة الواسطيَّة " (ص١٤١-١٤٢) : " وَأَمَّا إِذَا أَرَادَ بِهَا الْمَكَانَ العَدَميَّ الَّذِي هُوَ خلاءٌ محضٌ لَا وُجُودَ فِيهِ؛ فَهَذَا لَا يُقَالُ: أَنَّه لَمْ يَكُنْ ثمَّ خَلْقٌ؛ إِذْ لَا يَتعَلَّقُ بِهِ الْخَلْقُ، فإنَّه أَمْرٌ عدميٌّ، فَإِذَا قِيلَ: إِنَّ اللهَّ فِي مَكَانٍ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ؛ كَمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ؛ فَأَيُّ محذورٍ فِي هَذَا؟! " .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) في " شرح العقيدة السَّفارينيَّة (الدرَّة المضيَّة في عقد أهل الفرقة المرضيَّة) (ص١٢٠) : " كذلك أيضاً الجهة، هل الله في جهة؟ نقول: أمَّا اللفظ فإنَّنا نتوقف فيه، وما لنا وله! وأمَّا المعنىٰ فنستفصل: ماذا تريد بالجهة؟ إن أردت أن الله تعالىٰ في جهة تحيط به إحاطة الَّظرف بالمظروف فهذا ممتنع وباطل، وإن أردت بذلك جهة سفل ومخالطة للمخلوقات فهذا أيضاً باطل وممتنع علىٰ الله، فليس الله في جهة السّفل وليس في جهة تحيط به إحاطة الظَّرف بالمظروف، وإن أردت أنَّه في جهة عليا عدميَّة لا تحيط به، ما ثمَّ إلَّا هو عزَّ وجلَّ ، فهذا حقٌّ ، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أعلم الخلق بالله ، قال للجارية: "أين الله" ؟ قالت: في

السَّماء . فاستفهم بأين التي يستفهم بها عن المكان، والمرأة أجابت بـ " في " الدالَّة علىٰ الظَّرفيَّة، أي: الظَّرفيَّة العدميَّة، يعني: لا شيء محيط بالله، فما ثمَّ فوق المخلوقات إلَّا الله عزَّ وجلَّ.... " .

قلتُ : واستدلال الحشويَّة المتسلِّفة بحديث الجارية هو ديدنهم ومعتمدهم في هذا الباب ... والكلام علىٰ حديث الجارية ينتظم في النّقاط التَّالية :

أوَّلاً : أنَّ الحديث من أخبار الآحاد ، وأخبار الآحاد ليست حجَّة في العقيدة ، علىٰ ما ذهب إليه جمهور الأصوليين ، منهم: الباقلَّاني ، الخطيب البغدادي ، ابن فورك ، الغزالي ، القاضي عبد الجبَّار ، الرَّازي ، البيهقي ، الكرماني ، القاسمي ، النَّووي ، الكاساني ، ابن عبد البر ، عبد القاهر البغدادي ، وغيرهم كثير . انظر : الفرق بين الفرق (ص٣٢٥) ، المستصفىٰ (١/ ١٤٢) ، شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٥١) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) ، الإحكام ، الآمدي (٢/ ٣٢ فما بعدها) ، شرح العضد علىٰ ابن الحاجب (٢/ ٥٦) ، نهاية السول في شرح منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول (١/ ٢٣) ، (٢/ ٣٧٥) ، أساس التقديس (ص١٩٢) ، الأسماء والصفات (ص٤٥٠) ...

ونسبهُ جماعة إلىٰ الأكثر من أهل الأصول . انظر : المعتمد في أصول الفقه ، (٢/ ٥٥٦) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) ...

كما نسبه ابن حزم إلىٰ الحنفيَّة والشَّافعيَّة وجمهور المالكيَّة ، وإلىٰ جميع المعتزلة . انظر : الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٠٧) ، إرشاد الفحول (ص٤٨) ، المسودة في أصول الفقه (ص٢٤٧-٢٤٨) ...

وقد أفضنا في الحديث عن عدم حجيَّة خبر الآحاد في العقيدة في كتابنا : " الإِمْدَادُ وَالإِسْعَادُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَ بِالآحَادِ فِي الاعْتِقَاد" ، وهو مطبوع منشور بحمد الله تعالىٰ ...

ثانياً : أنَّ الحديث مُخالفٌ لما تواتر عن سيِّدنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أنَّه كان إذا أتاه من يُريد الدُّخول في دين الله تعالىٰ ، يطلب منه النُّطق بالشَّهادتين ... ولم يسأله مثل هذا السُّؤال ... فالحديث علىٰ هذا شاذ ، والشَّاذ من أقسام الحديث الضَّعيف .

ثالثاً : أنَّ الحديث مرويٌّ بالمعنىٰ ، شأنه في ذلك شأن أغلب الأحاديث ، قال الخطيب البغدادي : " أَخْبَرَنِي أَبُو محمَّد عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَاذَانَ الصَّيْرَفِيُّ، أنا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ محمَّد بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْجَهْمِ الْكَاتِبُ، أنا محمَّد بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو السَّكُونِيُّ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ سَلَمَةَ الْفِلَسْطِينِيُّ، أَخْبَرَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أُكَيْمَةَ اللَّيْثِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ،

قَالَ: قُلْنَا لِرَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِأَبِينَا أَنْتَ وَأُمِّنَا يَا رَسُولَ اللهَّ ، إِنَّا لَنَسْمَعُ الْحَدِيثَ فَلَا نَقْدِرُ عَلَىٰ تَأْدِيَتِهِ كَمَا سَمِعْنَاهُ قَالَ: " إِذَا لَمْ تُحِلُّوا حَرَامًا وَلَا تُحَرِّمُوا حَلَالًا فَلَا بَأْسَ " . انظر : الكفاية في علم الرواية (ص١٩٩) ...

فكيف لو كان الأمر متعلِّقاً بالعقيدة التي يترتَّب عليها كفرٌ وإيمان ؟!!

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الطَّنَاجِيرِيُّ، أنا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ الْوَاعِظُ، ثنا الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بِسْطَامٍ الزَّعْفَرَانِيُّ، ثنا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، ثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ: قُلْتُ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: حَدِّثْنَا بِحَدِيثِ أَبِي الزَّعْرَاءِ كَمَا سَمِعْتَ ، قَالَ: " يَا سُبْحَانَ اللهَّ ، وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا نَجِيئُكُمْ بِالْمَعْنَىٰ " . انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٩) .

وقال أيضاً : أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ عَبْدِ الوهَّاب الْقُرَشِيُّ ، بِأَصْبَهَانَ، أنا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَيُّوبَ الطَّبَرَانِيُّ، ثنا مُطَّلِبُ بْنُ شُعَيْبٍ الْأَزْدِيُّ، ثنا عَبْدُ اللهَّ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ محمَّد بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عِيسَىٰ النَّاقِدُ ، وَاللَّفْظُ لَهُ، أنا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ حَمْدَانَ، ثنا جَعْفَرُ بْنُ محمَّد الْفِرْيَابِيُّ، حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ، ثنا مَعْنٌ، ثنا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ مَكْحُولٍ ، قَالَ دَخَلْنَا عَلَىٰ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ فَقُلْنَا: يَا أَبَا الْأَسْقَعِ ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَيْسَ فِيهِ وَهْمٌ وَلَا نِسْيَانٌ ، فَقَالَ : هَلْ قَرَأَ أَحَدٌ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: فَهَلْ زِدْتُمْ أَلِفًا أَوْ وَاوًا أَوْ شَيْئًا؟ فَقُلْتُ: إِنَّا لَنَزِيدُ وَنَنْقُصُ ، وَمَا نَحْنُ بِأُولَئِكَ فِي الْحِفْظِ؟ فَقَالَ: فَهَذَا الْقُرْآنُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَدْرُسُونَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَكَيْفَ وَنَحْنُ نُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ سَمِعْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَلَىٰ مَعْنَاهُ فَحَسْبُكُمْ " . انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٣) .

وقال أيضاً : أَخْبَرَنَا الْبَرْقَانِيُّ، أنا ابْنُ خَمِيرَوَيْهِ الْهَرَوِيُّ، أنا الْحُسَيْنُ بْنُ إِدْرِيسَ، ثنا ابْنُ عَمَّارٍ، ثنا الْمُعَافَىٰ ، عَنْ مِسْعَرٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ ، قَالَ: " إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَدِّثَكُمُ الْحَدِيثَ كَمَا سَمِعْنَاهُ ، وَلَكِنْ عَمُـــودُهُ ، وَنَحْوُهُ " . انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٨) .

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عُمَرَ بْنِ بُرْهَانٍ الْغَزَّالُ وَأَبُو الْفَتْحِ هِلَالُ بْنُ محمَّد بْنِ جَعْفَرٍ الْحَفَّارُ ، قَالَا: أنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ محمَّد الصَّفَّارُ ، قَالَ: قَالَ أَبُو محمَّد العبَّاس بْنُ عَبْدِ اللهِ التَّرْقُفِيُّ ، سَمِعْتُ الْفِرْيَابِيَّ ، يَقُولُ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ ، يَقُولُ: " لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحَدِّثَكُمْ بِالْحَدِيثِ كَمَا سَمِعْنَاهُ - وَقَالَ ابْنُ بُرْهَانٍ: كَمَا سَمِعْنَا - مَا حَدَّثْنَاكُمْ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ " . انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٩) .

ويؤكِّد ما قلناه من أنَّ الحديث روي بالمعنى : أنَّه وردت أحاديث قريبة في موضوعها من موضوع رواية حديث معاوية بن الحكم ، تعارضها ، منها :

عَنْ عَوْنٍ ، عَنْ أَخِيهِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَارِيَةٍ سَوْدَاءَ أَعْجَمِيَّةٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عَلَيَّ عِتْقَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ: " أَيْنَ اللهُ؟ " فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ بِإِصْبَعِهَا السَّبَّابَةِ، فَقَالَ لَهَا: " مَنْ أَنَا؟ " فَأَشَارَتْ بِإِصْبَعِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ وَإِلَى السَّمَاءِ، أَيْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: " أَعْتِقْهَا" . أخرجه أحمد في المسند (١٣/ ٢٨٥ برقم ٧٩٠٦) ، قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف لاختلاط المسعودي. وأخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ١/ ٢٨٤-٢٨٥ عن محمَّد بن رافع، وأبو داود (٣٢٨٤) ، ومن طريقه البيهقي ٧/ ٣٨٨ عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، وابن عبد البر في "التمهيد" ٩/ ١١٥ من طريق محمَّد بن العوام، ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، بهذا الإسناد. وجعل إبراهيم بن يعقوب الراوي عن أبي هريرة في حديثه هو عبد الله بن عتبة وليس ابنه عبيد الله. وأخرجه ابن خزيمة ١/ ٢٨٥-٢٨٦ من طريق أسد بن موسى، و٢٨٦ من طريق أبي داود الطيالسي، كلاهما عن المسعودي، به. وأخرجه ابن خزيمة أيضاً ١/ ٢٨٨ من طريق الحسين بن الوليد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسق لفظه، لكن ذكر ابن عبد البر أنَّه بلفظ حديث "الموطأ" سواء، وهو: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجارية له سوداء، فقال: يا رسول الله، إن عليَّ رقبةً مؤمنةً، فإن كنت تراها مؤمنة أُعتِقُها. فقال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ " قالت: نعم. قال: "أتشهدين أن محمداً رسولُ الله؟ " قالت: نعم. قال: "أتوقنين بالبعث بعد الموتِ؟ " قالت: نعم. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أعتِقْها". قلنا: هذا هو اللفظ الصحيح للحديث إن شاء الله، لكن أخطأ الحسين بن الوليد في إسناد هذا الحديث عن مالك، فقد اتفق رواة "الموطأ" على إرساله، لم يذكروا فيه أبا هريرة، قاله ابن عبد البر في "التمهيد" ٩/ ١١٤، والحديث مرسلاً في "الموطأ" برواية يحيى الليثي ٢/ ٧٧٧. وتابع مالكاً على إرساله يونسُ بن يزيد عند البيهقي ١٠/ ٥٧ من طريق محمَّد بن عبد الله بن الحكم، عن ابن وهب، عنه، عن الزهري، به. ووصله معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن رجل من الأنصار: أنَّه جاء بأمة سوداء ... فذكره، وهذا إسناد صحيح، وسيأتي تخريجه في "المسند" ٣/ ٤٥١-٤٥٢. وله شاهد من حديث الشريد بن سويد الثقفي: أن أمَّه أوصت أن يعتق عنها رقبة مؤمنة، فسأل رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فقال: عندي جارية سوداء، أو نوبية، فأُعتقها؟ فقال: "ائتِ بها" فدعوتها، فجاءت، فقال لها: "من ربُّك؟ " قالت: الله. قال: "من أنا؟ " فقالت: أنت رسول الله. قال: "أعتقها، فإنها مؤمنة". وسيأتي في مسنده ٤/ ٢٢٢، وإسناده حسن. وآخر من حديث ابن عباس عند البزار (١٣- كشف الأستار) ، والطبراني في "الكبير" (١٢٣٦٩) : أن رجلاً أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "إن عليَّ رقبة، وعندي جارية

سوداء أعجمية، فقال: "ائتني بها" فقال: "أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ " قالت: نعم. قال: "أتشهدين أني رسول الله؟ " قالت: نعم. قال: "أعتقها". وفيه محمَّد بن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى، وهو سيىء الحفظ. لكنه يُحسَّن في المتابعات والشواهد. وثالث من حديث معاوية بن الحكم، سيأتي في مسنده ٥/ ٤٤٧، لكن قال فيه: "أين الله؟ " فقالت: في السماء. قال: "من أنا؟ " قالت: أنت رسول الله.

وَعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَارِيَةٍ لَهُ سَوْدَاءَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً. فَإِنْ كُنْتَ تَرَاهَا مُؤْمِنَةً أُعْتِقُهَا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتُوقِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْتِقْهَا " . أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٧٧٧ برقم ٩) .

وَعَنْ عُبَيْدِ الله ابْنِ عَبْدِ الله، عَنْ رَجُلٍ، مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّه جَاءَ بِأَمَةٍ سَوْدَاءَ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، فَإِنْ كُنْتَ تَرَى هَذِهِ مُؤْمِنَةً أَعْتَقْتُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ " قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: " أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ الله؟ " قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: " أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ " قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: " أَعْتِقْهَا " . أخرجه أحمد في المسند (٢٥/ ١٩ برقم ١٥٧٤٣) ، تحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م ، قال الأرنؤوط في تخريجه : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه. عبد الرزاق: هو ابن همام الصنعاني، ومعمر: هو ابن راشد البصري، وعبيد الله بن عبد الله: هو ابن عتبة ابن عبد الله بن مسعود. وهو عند عبد الرزاق في "المصنف" (١٦٨١٤) ، ومن طريقه أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ص ١٢٤. وأخرجه مالك في "الموطأ" ٢/ ٧٧٧، وأخرجه البيهقي في "السنن" ١٠/ ٥٧ من طريق يونس بن يزيد، كلاهما عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، أن رجلاً من الأنصار ... قال البيهقي: هذا مرسل. قال ابن عبد البر في "التمهيد" ٩/ ١١٤: ظاهره الإرسال، لكنه محمولٌ على الاتصال، للقاء عبيد الله جماعة من الصحابة. وتعقَّبه الزرقاني في "شرح الموطأ" ٤/ ٨٥ بقوله: وفيه نظر، إذ لو كان كذلك ما وجد مرسلٌ قط، ثمَّ قال: فلعله أراد للقاء عبيد الله جماعة من الصحابة الذين رووا هذا الحديث. وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/ ٢٣، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. قلنا: ورواه المسعودي وهو مختلط- فيما سلف في مسند أبي هريرة (٧٩٠٦) - عن عون بن عبد الله، عن أخيه عبيد الله، عن ابي هريرة، أن رجلاً أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجارية سوداء أعجمية، فقال: يا رسول الله، إنّ علي عتق رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أين الله؟ " فأشارت إلى السَّماء بأصبعها السبابة، فقال لها: "من أنا؟ " فأشارت بأصبعها إلى رسول الله وإلى السماء، أي: أنت رسولُ الله. فقال: "أعتقها". قال الزرقاني في "شرح الموطأ" ٤/ ٨٦: أخرجه ابن عبد البر، وقال: أنَّه خالف حديث ابن شهاب في لفظه ومعناه، وجعله عن أبي هريرة، وابنُ شهاب يقول: رجل من الأنصار أنَّه جاء بأمةٍ له سوداء، وهو أحفظ من عون، فالقولُ قولُه. انتهى. ثمَّ قال الزرقاني: فإن كانت القصة تعددت فلا خلف، وإن كانت متحدة، فيمكن أن لعبيدِ الله فيه شيخين، رجل من الأنصار رواها له عن نفسه، وأبو هريرة رواها عن قصة ذلك الرجل، ويُؤول

قولُه: قالت: نعم، على أنَّها قالت بالإشارة، وأنه وقع منها الأمران، فقالت: نعم باللفظ حين قوله: "أتشهدين.. الخ"، وأشارت إلى السَّماء حين قوله: "أين الله"، و"من أنا"، فذكر كلّ من الزهري وعون ما لم يذكر الآخر، والعلم عند الله.

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَخِيهِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَارِيَةٍ سَوْدَاءَ، فَقَالَ: إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَبُّكِ؟» فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَتْ: اللهُ، فَقَالَ: «فَمَنْ أَنَا؟» فَقَالَتْ: رَسُولُهُ، وَأَوْمَأَتْ بِيَدِهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» . أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٩٥ برقم ٢٥٩٨) .

وَعَنْ عَوْنَ بْنَ أَبِي جُحَيْفَةَ يُحَدِّثُ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَتَتْ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةٌ ، وَمَعَهَا جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَفَتُجزِئُ عَنِّي هَذِهِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْنَ اللهُ ؟ قَالَتْ : فِي السَّماء قَالَ : فَمَنْ أَنَا ؟ قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُهُ قَالَ : أَتَشْهَدِينَ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّالله " . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١١٦ برقم ٢٩٧) ، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٦٣٧ برقم ١١٥٢٦) .

وَعَنِ الشَّرِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ أُمِّي أَوْصَتْ إِلَيَّ أَنْ أَعْتِقَ عَنْهَا رَقَبَةً وَإِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً سَوْدَاءَ نُوبِيَّةً ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ادْعُ بِهَا " فَقَالَ: " مَنْ رَبُّكِ؟ " قَالَتْ: اللهُ، قَالَ: " فَمَنْ أَنَا؟ " قَالَتْ: رَسُولُ الله قَالَ: " أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ " . أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٦٣٨ برقم ١٥٢٧٢) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ عَلَى أُمِّي رَقَبَةً وَعِنْدِي أَمَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم: ائْتِنِي بِهَا فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ: أَتَشْهَدِينَ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قال: فأعتقها . أخرجه البزار في المسند (١١/ ٥٥ برقم ٤٧٤٩) ...

وهناك روايات عديدة في هذا الباب ...

فالنَّاظر في الرِّوايات السَّابقة يجد أنَّها جاءت بألفاظ مغايرة للفظ " أين الله " ... فقد جاء الحديث بلفظ : " مَنْ رَبُّكِ " ، " أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله " ، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: " أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله " ، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: " أَتُوقِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ " ...

قال الشَّيخ محمَّد زاهد الكوثري في تعليقه على " السَّيف الصَّقيل في الرَّدِّ على ابن زَفيل " للسُّبكي ، عند ذكر حديث الجارية ما نصّه : " وراوي هذا الحديث عن ابن الحكم هو عطاء بن يسار ، وقد اختلفت ألفاظه فيه ، ففي لفظ له : "فمدَّ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده إليها وأشار إليها مستفهماً مَن في السَّماء ..." الحديث، فتكون المحادثة بالإشارة على أنَّ اللفظ يكون ضائعاً مع الخرساء الصمَّاء ، فيكون اللفظ الذي أشار إليه النَّاظم والمؤلِّف لفظ أحد الرُّواة على حسب فهمه لا لفظ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومثل هذا الحديث يصحُّ الأخذ به فيما يتعلَّق بالعمل دون الاعتقاد ، ولذا أخرجه مسلم في باب تحريم الكلام في الصَّلاة دون كتاب الإيمان !!! حيث اشتمل على تشميت العاطس في الصَّلاة ومنع النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك ، ولم يخرجه البخاري في صحيحه ، وأخرج في جزء خلق الأفعال ما يتعلَّق بتشميت العاطس من هذا الحديث مقتصراً عليه دون ما يتعلَّق بكون الله في السَّماء ، بدون أي إشارة إلى أنَّه اختصر الحديث... " . انظر : السَّيف الصَّقيل في الرَّد على ابن زفيل (ص١٠٧) .

وإذا أردنا التَّرجيح بينهما ، فليس إلَّا رواية : " أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ؟" أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ " ، لأنَّهما مفتاح الدُّخول في الإسلام ، فلا يُعتبر الإنسان مسلماً إلَّا إذا نطق بهما ، إلَّا إذا كان عاجزاً عن ذلك لِعِلَّة . وهما شعار الإسلام ، لا يصحُّ الدِّين إلَّا بهما ، وهذا من المعلوم من الدِّين بالضَّرورة ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: " إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كلّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله عزَّ وجلَّ حِجَابٌ " . أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٩٨ برقم ٢٠٧١) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للحديث : " إسناده صحيح على شرط الشيخين. يحيى بن عبد الله بن صيفي: هو يحيى بن عبد الله بن محمَّد بن يحيى بن صيفي المكي، وأبو معبد: اسمه نافذ المكي. وأخرجه أبو داود (١٥٨٤) ، وابن منده في "الإيمان" (١١٧) من طريق أحمد بن حنبل، بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري (٢٤٤٨) ، وابن ماجه (١٧٨٣) ، والترمذي (٦٢٥) و (٢٠١٤) ، والنسائي ٥/ ٥٥، وابن خزيمة (٢٣٤٦) ، والدارقطني ٢/ ١٣٥-١٣٦، والبيهقي

٨/٧، والبغوي (١٥٥٧) من طرق عن وكيع، به. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ١١٤، وعنه مسلم (١٩) (٢٩) عن وكيع، عن زكريا بن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، عن أبي معبد، عن ابن عباس، عن معاذ بن جبل، وقال مسلم: قال أبو بكر: ربما قال وكيع: عن ابن عباس أن معاذاً قال: بعثني ... وأخرجه الدارمي (١٦١٤) و (١٦٣١) ، والبخاري (١٣٩٥) و (١٤٩٦) و (٤٣٤٧) و (٧٣٧٢) ، ومسلم (١٩) (٣٠) ، والنسائي ٢/ ٥-٤، وابن خزيمة (٢٢٧٥) ، وابن منده (١١٦) ، والبيهقي ٤/ ٩٦ و٧/ ٧ من طرق عن زكريا بن إسحاق، به. وأخرجه البخاري (١٤٥٨) و (٧٣٧١) ، ومسلم (١٩) (٣١) ، وابن حبان (١٥٦) ، والطبراني (١٢٢٠٧) و (١٢٢٠٨) ، والدارقطني ٢/ ١٣٦، وابن منده (٢١٣) و (٢١٤) ، والبيهقي ٤/ ١٠١ و٢/ ٧ من طريق إسماعيل بن أمية، عن يحيى بن عبد الله، به قوله: "كرائم أموالهم "، قال ابن الأثير في "النهاية" ٤/ ١٦٧؟ أي نفائسَها التي تتعلَّقُ بها نفسُ مالكها ويختصُّها لها، حيث هي جامعة للكمال الممكن في حقّها، وواحدتها: كريمة. وقوله: "فادعهم إلى شهادة ... الخ "، قال السندي: أراد أن يَدعُوَهم إلى الإسلام بالتدريج، لأنّه أقربُ إلى الطاعة بخلاف ما لو عرض عليهم دينا مخالفا لدينهم في أشياءَ كثيرة، فإن ذلك يُنَفِّرهم ويبعدهم عن القَبُول، فلا دلالة في الحديث على أن مع أن التكليف بالفروع بعد الإيمان، كيف وقد أخر الدعوة إلى الزكاة عن الدعوة إلى الصلاة، مع أن التكليف بالزكاة لا يتأخر عن التكليف بالصلاة.

أمَّا عن مفتاح الدُّخول في الإيمان ، فقد وضَّحه الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل الشَّهير ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: " الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهَّ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ " . أخرجه البخاري (٦/ ١١٥ برقم ٤٧٧٧) ...

رَابِعَاً : أنَّ العديد من أهل العلم تكلَّموا على الحديث ...

قال الإمام البزَّار : " وهذا الحديث قد رُوِيَ بنحو معناه عَنِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ " . انظر : مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار (١١/ ٢٤١) .

وقال الإمام البيهقي : " وَهَذَا صَحِيحٌ، قَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مُقَطَّعًا مِنْ حَدِيثِ الْأَوْزَاعِيِّ وَحَجَّاجٍ الصَّوَّافِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ دُونَ قِصَّةِ الْجَارِيَةِ، وَأَظُنُّهُ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنَ الْحَدِيثِ لِاخْتِلَافِ الرُّوَاةِ فِي لَفْظِهِ. وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي كِتَابِ الظِّهَارِ مِنَ السُّنَنِ مُخَالَفَةَ مَنْ خَالَفَ مُعَاوِيَةَ بْنَ الْحَكَمِ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٣٢٥) .

أمَّا الحافظ ابن حجر فأشار في كتابه " التَّلخيص الحبير " بعد أن ذكر روايات الحديث إلى اضطراب الحديث بقوله : " وَفِي اللَّفْظِ مُخَالَفَةٌ كَثِيرَةٌ " . انظر : التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير (٣/ ٤٨٠) .

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ قَاصِرٌ ، فَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ حُكْمِهِ لِمَ وَلَا كَيْفَ ، كَمَا لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ فِي وجوده أَيْن وَحَيْثُ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٢٠-٢٢١) .

وقال الإمام الكوثري في تعليقه علىٰ "الأسماء والصِّفات " للبيهقي : " وقصَّة الجارية مذكورة فيما بأيدينا من نسخ مسلم **لعلَّها زيدت فيها بعد إتماماً للحديث** ، أو كانت نسخة المصنِّف ناقصة ؟ وقد أشار المصنِّف أي البيهقي إلىٰ اضطراب الحديث بقوله : " وقد ذكرت في كتاب الظِّهار من " السُّنَنِ " مخالفة من خالف معاوية بن الحكم في لفظ الحديث " . انظر : الأسماء والصفات ، البيهقي ، (هامش ص٥٣٣) ، تحقيق : الكوثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

وقال الإمام عبد الله بن الصدِّيق الغُماري : " رواه مسلم وأبو داود والنَّسائي . وقد تصرَّف الرُّواة في ألفاظه ، فروي بهذا اللفظ كما هنا وبلفظ " من ربُّك؟ " قالت: الله ربِّي. وبلفظ "أتشهدين أن لا إله إلَّا الله؟ " قالت: نعم . وقد أستوعب تلك الألفاظ بأسانيدها الحافظ البيهقي في " السُّنَن الكُبْرَىٰ " بحيث يجزم الواقف عليها أنَّ اللفظ المذكور هنا مرويٌّ بالمعنىٰ حسب فهم الرَّاوي ... " . انظر : التمهيد (٧/ ١٣٥ هامش) .

خَامِسَاً : أنَّ ظاهرالحديث يدلُّ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ في السَّماء ، بمعنىٰ أنَّ السَّماء تحويه ، وهذا عين الحلول ، وهي عقيدة باطلة ، فلا يجوز أبداً اعتقاد أنَّ الله يحلُّ في شيء من مخلوقاته ، لأنَّه سبحانه الغني الذي لا يحتاج إلىٰ ما سواه من خلقه ، وكلّ ما سواه من خلقه محتاج له ... فمقولة " الله في السَّماء " ، تعني : أن السَّماء تحيط به سبحانه وتعالىٰ من سائر الجهات بحيث يكون سبحانه أصغر منها !!! ثمَّ إنَّ صرف المتسلِّفة لعبارة : " في السَّماء " إلىٰ " علىٰ السَّماء " هو نوع من التَّأويل الذي يفرُّون منه ، وإن ادَّعوا أنَّه ليس تأويلاً ...

سَادِسَاً : أنَّ الحديث ينسب إلىٰ الله تعالىٰ المكان ، وقد اجتمعت كلمة الأمَّة علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عنه ...

قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفيّ (١٥٠هـ) في كتابه " الفقه الأبسط " ما نصّه : " مَن قَالَ لَا أعرِفُ رَبِّي فِي السَّماء اَوْ فِي الأَرْض فَقَد كَفَر " . انظر : الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر) (١٣٥) .

ومراد الإمام أنَّ من نسب إلى الله التَّحيُّز والـمكان ثمَّ قال لا أعرف هل مكانه السَّماء أم الأرض فهو كافرٌ .

وقال الإمام أبو إسحاق الزجَّاج (٣١١هـ) : " الْعليُّ هُوَ فعيل فِي معنى فَاعل فَالله تَعَالَى عَال على خلقه وَهُوَ عَليّ عَلَيْهِم بقدرته ، وَلَا يجب أَن يذهب بالعلوّ ارْتِفَاع مَكَان إِذْ قد بَينَّا أَنَّ ذَلِك لَا يجوز فِي صِفَاته تقدَّست ، وَلَا يجوز أَن يكون على أَن يتَصَوَّر بذهن أَو يتجلَّى لطرف تَعَالَى عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً " . انظر : تفسير أسماء الله الحسنى (ص٤٨) .

وقال الإمام الطَّحاوي الحنفي (٣٢١هـ) في " عقيدته " ما نصّه : " وتعالى - أي الله - عن الحدودِ والغاياتِ والأركانِ والأعضاءِ والأدواتِ ، لا تحويه الجهات السِّتُّ كسائر الـمبتدعات " .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ) : " وأنَّ الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار والتَّمكُّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كلّ شيء، إلى تُخوم الثَّرى، فوقيَّة لا تزيده قرباً إلى العرش والسَّماء، بل هو رفيع الدَّرجات عن العرش، كما أنَّه رفيع الدَّرجات عن الثَّرى، وهو مع ذلك قريب من كلّ موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كلّ شيء شهيد ". انظر : الإبانة عن أصول الديانة (ص٢١) .

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " الأَصْل فِيهِ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وَجَائِز ارْتِفَاع الْأَمْكِنَة وبقاؤه على مَا كَانَ ، فَهُوَ على مَا كَانَ وَكَانَ على مَا عَلَيْهِ الْآن ، جلَّ عَن التَّغَيُّر وَالزَّوال والاستحالة والبطلان إِذْ ذَلِك أَمَارَات الْحَدث الَّتِي بهَا عرف حدث الْعَالم وَدلَالَة إحتمال الفناء ، إِذْ لَا فرق بَين الزَّوَال من حَال إِلَى حَال ليعلم أَنَّ حَاله الأولى لم تكن لذاته إِذْ لَا يحْتَمل زَوَال

مَا لزم ذَاته وَبَين أَنَّهَا لَيست لذاته لما احْتمل هُوَ قبُول الْأَعْرَاض وانتقال الْأَحْوَال ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ " . انظر : التَّوحيد (ص٦٩) .

وقال أيضاً : " فَإِن قيل كَيفَ يرىٰ ؟!! قيل : بِلَا كَيفَ ، إِذْ الْكَيْفِيَّة تكون لذي صُورَة بل يرىٰ بِلَا وصف قيام وقعود ، وإتِّكاء وَتعلّق ، وإتِّصال وانفصال ، ومقابلة ومدابرة ، وقصير وطويل ، وَنور وظلمة ، وَسَاكن ومتحرِّك ، ومماسّ ومباين ، وخارج وداخل ، وَلَا معنىٰ يَأْخُذهُ الْوَهم أَو يقدره الْعقل لتعاليه عَن ذَلِك " . انظر : المرجع السابق (ص٨٥) .

وقال أيضاً : " ... ثمَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان وعَلىٰ ذَلِك اعْتِقَاد الْأَنَام لم يجز أَن يتَغَيَّر الْفَهم عَن الْإِضَافَة عَمَّا كَانَ من قبل وَإِلَيْهِ ينْصَرف الْفَهم عَن الْإِضَافَة إِلىٰ خلقه " . انظر : المر جع السابق (ص١٠٦) .

وقال أيضاً : " أَنَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان وَجَائِز ارْتِفَاع الْأَمْكِنَة وبقاؤه علىٰ مَا كَانَ فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ وَكَانَ علىٰ مَا عَلَيْهِ الْآن جلَّ عَن التَّغَيُّر والزَّوال والاستحالة والبطلان ، إِذْ ذَلِك أَمَارَات الْحَدث الَّتِي بهَا عرف حدث الْعَالم وَدلَالَة احتمال الفناء إِذْ لَا فرق بَين الزَّوَال من حَال إِلىٰ حَال ليعلم أَنَّ حَاله الأولىٰ لم تكن لذاته إِذْ لَا يحْتَمل زَوَال مَا لزم ذَاته وَبَين أَنَّهَا لَيست لذاته لما احْتمل هُوَ قبُول الْأَعْرَاض وانتقال الْأَحْوَال وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ ... " . انظر : التَّوحيد (ص٦٨-٧٧ باختصار) .

وقال الإمام ابن حبَّان (٣٥٤هـ) : " الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حد مَحْدُود فيحوىٰ ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنىٰ ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة الناطقين " . انظر : الثقات (١/ ١) .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " وَاعْلَم أَنَّا إِذا قُلْنَا إِنَّ الله عزَّ وَجلَّ فَوق مَا خلق لم يرجع بِهِ إِلىٰ فوقيَّة الْمَكَان والإرتفاع علىٰ الْأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالمماسَّة لشَيْء مِنْهَا " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٧٣) .

وقال الإمام أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التَّميمي الحنبلي (٤١٠هـ) إمام وفقيه ، رئيس الحنابلة في عصره في كتابه " اعتقاد الإمام المبجَّل ابن حنبل " : " وأنكر علىٰ من يقول بالجسم ،

وقال : إنَّ الأسماء مأخوذة بالشَّريعة واللغة ، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كلّ ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف ، والله تعالى خارج عن ذلك كلّه ، فلم يجز أن يسمَّى جسماً لخروجه عن معنى الجسميَّة ولم يجئ في الشَّريعة ذلك فبطل " . انظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٨) .

وقال الإمام ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (٤٤٩هـ) ، على ما نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، قال : " وَقَالَ بن بَطَّالٍ : غَرَضُ الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ الرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ الْمُجَسِّمَةِ فِي تَعَلُّقِهَا بِهَذِهِ الظَّوَاهِرِ وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِجِسْمٍ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مَكَانٍ يَسْتَقِرُّ فِيهِ ، فَقَدْ كَانَ وَلَا مَكَانَ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٦) .

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ) ما نصّه : " وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي نَفْيِ الْمَكَانِ عَنْهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» . وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ". وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ وَلَا دُونَهُ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٧) .

وقال الإمام أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الأشعري (٤٧٨ هـ) : " البارئ سبحانه وتعالى قائمٌ بنفسه ، متعال عن الافتقار إلى محلٍّ يحلّه أو مكانٍ يُقله " . انظر : الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص٣٣) .

وقال الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي (٥٠٥هـ) : " وَأَنَّهُ لَا يَحُلُّ فِي شَيْءٍ وَلَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ كَمَا تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحُدَّهُ زَمَانٌ بَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ خَلَقَ الزَّمان وَالْمَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى ما عليه كان " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ٩٠) .

وقال أيضاً : " الأصل السَّابع : العلم بأنَّ الله تعالى منزَّه الذَّات عن الاختصاص بالجهات ، فإنَّ الجهة إمَّا فوق وإمَّا أسفل وإمَّا يمين وإمَّا شمال أو قدَّام أو خلْف ، وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين ، أحدهما : يعتمد على الأرض ويسمَّى رِجْلاً ، والآخر يقابله ويسمَّى رأساً ، فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرَّأس ، واسم السّفل لما يلي جهة

الرِّجل ، حتَّىٰ إنَّ النَّملة التي تدبُّ منكَّسة تحت السَّقف تنقلب جهة الفوق في حقِّها تحتاً ، وإن كان في حقِّنا فوقاً " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ١٠٧) .

وقال الإمام أحمد بن علي بن ثابت الرِّفاعي الحسيني (٥٧٨ هـ) : " أي سادة نزِّهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين وطهِّروا عقائدكم من تفسير معنىٰ الاستواء في حقِّه تعالىٰ بالاستقرار كاستواء الأجسام علىٰ الأجسام المستلزم للحلول ، تعالىٰ الله عن ذلك ، وأيَّاكم والقول بالفوقيَّة والسُّفليَّة والمكان " . انظر : البرهان المؤيد (ص١٦) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " ما أكثر تفاوت النَّاس في الفُهوم ! حتَّىٰ العلماء يتفاوتون التَّفاوت الكثير في الأصول والفروع : فترىٰ أقوامًا يسمعون أخبار الصِّفات ، فيحملونها علىٰ ما يقتضيه الحسّ ، كقول قائلهم : ينزل بذاته إلىٰ السَّماء ، وينتقل!! وهذا فهم رديء ؛ لأنَّ المتنقل يكون من مكان إلىٰ مكان ، ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه، ويلزم منه الحركة ، وكلّ ذلك محال علىٰ الحقّ عزَّ وجلَّ " . انظر : صيد الخاطر (ص٤٨٧-٤٨٨) .

وقال الإمام ابن الأثير (٦٠٦هـ) : " الْمُرَادُ بقُرْب الْعَبْدِ مِنَ اللهَّ تَعَالَىٰ القُرْب بالذِكْر وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا قُرْبُ الذَّات وَالْمَكَانِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، واللهَّ يَتَعالىٰ عَنْ ذَلِكَ ويَتَقدّس " . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٢)

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُشَبِّهَةَ احْتَجُّوا عَلَىٰ إِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهَّ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك:١٦] ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ لا يُمْكِنُ إِجْرَاؤُهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّ كَوْنَهُ فِي السَّماء يَقْتَضِي كَوْنَ السَّماء مُحِيطًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ ، فَيَكُونُ أَصْغَرَ مِنَ السَّماءِ، والسَّماء أَصْغَرُ مِنَ الْعَرْشِ بِكَثِيرٍ ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ اللهَّ تَعَالَىٰ شَيْئًا حَقِيرًا بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الْعَرْشِ ، وَذَلِكَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُحَالٌ ، ولأنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] فَلَوْ كَانَ اللهَّ فِي السَّماء لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِنَفْسِهِ وَهَذَا مُحَالٌ، فَعَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَجِبُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا إِلىٰ التَّأْوِيلِ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣٠/ ٥٩٢) .

وقال الإمام ابن الحاج (٧٣٧هـ) : " ... إِذْ لَيْسَ فِي مَكَان فَقَدْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الْمَكَانُ " . انظر : المدخل (٢/ ١٤٩)

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : " وَ﴿الْعَلِيُّ﴾ يُرَادُ بِهِ عُلُوُّ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ لَا عُلُوُّ الْمَكَانِ، لِأَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّحَيُّزِ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٧٨) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " ... لأنَّه تعالىٰ كان ولا مكان ، فهو علىٰ ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغيَّر عمَّا كان " . انظر : تفسير النسفي (٢/ ٣٥٧) .

وقال الإمام ابن حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " ... وعند هُنَا لَا يُرَادُ بِهَا ظَرْفُ الْمَكَانِ ، لأنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَكَانِ ، بَلِ الْمَعْنَىٰ شَرَفُ الْمَكَانَةِ وَعُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ " . انظر : البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤١٦) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ جِهَتَيِ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ مُحَالٌ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا يُوصَفَ بِالْعُلُوِّ ، لِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَىٰ ، وَالْمُسْتَحِيلُ كَوْنُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْحِسِّ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦/ ١٣٦) .

وقال الإمام الزَّبيدي : " ... أنَّه سبحانه لا مكان له ولا جهة ، قال الشَّافعىٰ رحمه الله تعالىٰ : والدَّليل عليه هو أنَّه تعالىٰ كان ولا مكان فخلق المكان وهو علىٰ صفة الأزليَّة كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ، ولا التَّبديل في صفاته " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٣) .

وقال أيضاً : " (إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته) الشَّريفة (ذات الأجسام وأنَّه) تعالىٰ (لا يحلُّ في شىء) لا ذاته ولا صفاته ، أمَّا ذاته فلانَّ الحلول هو الحصول في الحيِّز تبعاً ، والله تعالىٰ منزَّه عن التَّحيز ، ولأنَّ الحلول ينافىٰ الوجوب الذاتي لافتقار الحال إلىٰ المحل ، وأمَّا صفاته فلانَّ الانتقال من صفات الأجسام والله تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة كما مرَّ (ولا يحلُّ فيه شىء تعالىٰ) وتقدَّس (عن أن يحويه مكان) فيشار إليه أو تضمُّه جهة ، وإنَّما اختصَّت السَّماء برفع الأيدىٰ إليها عند الدُّعاء لأنَّها جعلت قبلة الأدعية كما أنَّ الكعبة جعلت قبلة المصلِّي يستقبلها في الصَّلاة ، ولا يقال : أنَّ الله تعالىٰ في جهة الكعبة (كما تقدَّس عن أن يحدّه زمان) لأنَّ المحدود محتو علىٰ أجزاء

الماهيَّة ، والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك ، كما تقدَّم (بل كان) تعالىٰ (قبل أن خلق الزَّمان والمكان) والعرش والكرسيّ والسماوات والأرضيين (وهو الآن علىٰ ما عليه) من سلطة الأزليَّة كما (كان) قبل خلقه الزَّمان والمكان وغيرهما (وأنَّه) تعالىٰ (بائن عن خلقه بصفاته) العليَّة (ليس في ذاته سواه جلَّ وعزَّ ولا في سواه ذاته) الشَّريفة (وأنَّه) تعالىٰ (مقدَّس) منزَّه (عن التَّغير) من حال إلىٰ حال (والانتقال) من مكان إلىٰ مكان وكذا الاتِّصال والانفصال ، فانَّ كلاً من ذلك من صفات المخلوقين ... " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٥) ...

سَابِعَاً : أنَّ العلماء أوَّلوا وتكلَّموا عمَّا جاء في الحديث من قول الجارية " في السَّماء " ، وصرَّحوا بضرورة عدم حمل اللفظ علىٰ ظاهر معناه ، وأنَّه يجب تأويله ونظيره بما ينسجم مع القواطع العقليَّة وكذا قواعد اللغة العربيَّة ، مع التَّأكيد علىٰ أنَّه تعالىٰ لا يَتَوجَّهُ علَيهِ في وجوده أيّن ...

ومن تأويلات العلماء لما جاء في حديث الجارية من لفظ الأين :

جاء في منح الجليل شرح مختصر خليل : " قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ وَجْهَهُ حِين قِيلَ لَهُ: أَيْنَ اللهُ : الَّذِي أَيَّنَ الْأَيْنُ لَا يُقَالُ فِيهِ أَيْنَ؟ فَبَيَّنَ لِلسَّائِلِ فَسَادَ سُؤَالِهِ بِأَنَّ الْأَيْنِيَّةَ مَخْلُوقَةٌ، وَالَّذِي خَلَقَهَا كَانَ مَوْجُودًا قَبْلَ خَلْقِهَا لَا مَحَالَةَ، وَلَا أَيْنِيَّةَ لَهُ، وَصِفَاتُهُ تَعَالَىٰ لَا تَتَغَيَّرُ فَهُوَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْأَيْنِيَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِهَا " . انظر : منح الجليل شرح مختصر خليل (٤/ ٢٤٨) .

وجاء في " كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال " : " عن الأصبغ بن نباتة قال: كنَّا جلوساً عند علي بن أبي طالب فأتاه يهودي فقال: يا أمير المؤمنين متىٰ كان الله؟ فقمنا إليه فلهزناه حتَّىٰ كدنا نأتي علىٰ نفسه، فقال عليٌّ: خلُّوا عنه، ثمَّ قال : اسمع يا أخا اليهود ما أقول لك بأذنك واحفظه بقلبك، فإنَّما أحدثك عن كتابك الذي جاء به موسىٰ بن عمران، فإن كنت قد قرأت كتابك وحفظته فإنَّك ستجده كما أقول، إنَّما يقال متىٰ كان لمن لم يكن ثمَّ كان، فأمَّا من يزل بلا كيف يكون كان بلا كينونة، كائن لم يزل قبل القَبْل وبعد البَعْد لا يزال بلا كيف ولا غاية ولا منتهىٰ، إليه انقطعت دونه الغايات فهو غاية كلّ غاية. فبكىٰ اليهودي وقال: والله يا أمير المؤمنين أنَّها لفي التَّوراة هكذا حرفاً

حرفاً، وإنِّي أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله". (الأصبهاني في الحجَّة) " . انظر : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١/ ٤٠٧-٤٠٨) ، وانظر : الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة (٢/ ١٩٥) .

قال الإمام أبو حنيفة : " قلت : أَرَأَيت لَو قيل : أَيْن الله تَعَالَىٰ ؟ فَقَالَ : يُقَال لَهُ : كَانَ الله تَعَالَىٰ وَلَا مَكَان قبل أن يخلق الْخلق ، وَكَانَ الله تَعَالَىٰ وَلم يكن أَيْن وَلَا خلق كل شَيْء وَهُوَ خَالق كل شَيْء " .

انظر : الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر) (ص١٦١) .

وقال الإمام الخطَّابي : " وأمَّا قول النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أعتقها فإنَّها مؤمنة " ، ولم يكن ظهر له من إيمانها أكثر من قوله حين سألها : أين الله ؟ فقالت : في السَّماء ، وسألها : من أنا ؟ فقالت : رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنَّ هذا السُّؤال عن أمارة الإيمان وسمة أهله ، وليس بسؤال عن أصل الإيمان وصفة حقيقته !!! ولو أنَّ كافراً يريد الانتقال من الكفر إلى دين الإسلام فوصف من الإيمان هذا القدر الذي تكلَّمت به الجارية لم يصرّ به مسلماً حتَّى يشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويتبرَّىٰ من دينه الذي كان يعتقده، وإنَّما هذا كرجل وامرأة يوجدان في بيت فيقال للرَّجل من هذه منك ؟ فيقول : زوجتي وتصدِّقه المرأة ، فإنَّا نصدِّقهما في قولهما ، ولا نكشف عن أمرهما ، ولا نطالبهما بشرائط عقد الزَّوجية حتَّى إذا جاءانا وهما أجنبيان يريدان ابتداء عقد النِّكاح بينهما فإنَّا نطالبهما حينئذ بشرائط عقد الزَّوجية من إحضار الولي والشُّهود وتسمية المهر. كذلك الكافر إذا عُرض عليه الإسلام لم يقتصر منه على أن يقول : إنِّي مسلم حتَّى يصف الإيمان بكماله وشرائطه ، وإذا جاءنا من نجهل حاله بالكفر والإيمان ، فقال : إنِّي مسلم قبلناه، وكذلك إذا رأينا عليه أمارة المسلمين من هيئة وشارة ونحوهما حكمنا بإسلامه إلى أن يظهر لنا منه خلاف ذلك " . انظر : معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود (١/ ٢٢٢-٢٢٣) .

وقال الإمام ابن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " ذكر خبر آخر مِمَّا يَقْتَضِي التَّأْوِيل ويوهم ظَاهره التَّشْبِيه .

وَهُوَ من الْأَخْبَار الْمَشْهُورَة عِنْد أهل النَّقْل ، وَذَلِكَ مِمَّا يتَعَلَّق بِذكر الْمَكَان ، وَقد رُوِيَ فِي مَعْنَاهُ أَخْبَار سنذكرها أَوَّلاً فأوَّلاً فَمن ذَلِك : مَا رُوِيَ فِي الْخَبَر أَنَّ جَارِيَة عرضت على رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ مِمَّن أُرِيد عتقهَا فِي الْكَفَّارَة ، فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا : " أَيْن الله " ؟ فَأَشَارَتْ إِلَى السَّماء ، فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اعتقها فَإِنَّهَا مُؤمنَة " .

اعْلَم أَنَّ الْكَلَام فِي ذَلِك من وَجْهَيْن :

أَحَدُهُمَا : فِي تَأْوِيل قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيْن الله " مَعَ إستحالة كَونه فِي مَكَان .

وَالثَّانِي : قَوْله : " أَنَّهَا مُؤمنَة " من غير ظُهُور عمل مِنْهَا .

فَأَمَّا الْكَلَام فِيمَا يتَضَمَّن قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيْن الله " فَإِنَّ ظَاهر اللُّغَة تدل من لفظ أَيْن أَنَّهَا مَوْضُوعَة للسُّؤَال عَن الْمَكَان ، ويستخبر بهَا عَن مَكَان المسؤول عَنهُ بأين إِذا قيل : أَيْن هُوَ ، وَذَلِكَ أَنَّ أهل اللُّغَة قَالُوا لما ثقل على أهل اللِّسَان فِي الإستفهام عَن الْمَكَان أَن يَقُولُوا : أهوَ فِي الْبَيْت أم فِي الْمَسْجِد أم فِي السُّوق أم فِي بقْعَة كَذَا وَكَذَا وضعُوا لَفْظَة تجمع لجمع الْأَمْكِنَة يستفهمون بهَا عَن مَكَان المسؤول عَنهُ بأين ، وَهَذَا هُوَ أصل هَذِه الْكَلِمَة ، غير أَنَّهم قد استعملوها عَن مَكَان الْمَسْئُول عَنهُ فِي غير هَذَا الْمَعْنى توسُّعاً أَيْضاً تَشْبِيهاً بِمَا وضع لَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهم يَقُولُونَ عِنْد استعلام منزلَة المستعلم عِنْد من يستعلمه : أَيْن منزلَة فلَان مِنْك ؟ وَأَيْنَ فلَان من الْأَمِير ؟ واستعملوه فِي إستعلام الْفرق بَين الرُّتبتين بِأَن يَقُولُوا : أَيْن فلَان من فلَان ، وَلَيْسَ يُرِيدُونَ الْمَكَان وَالْمحل من طَرِيق التَّجاوز فِي الْبِقَاع بل يُرِيدُونَ الإستفهام عَن التُّربة والمنزلة ، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ : لفُلَان عِنْد فلَان مَكَان ومنزلة ، وَمَكَان فلَان فِي قلب فلَان حسن ، ويريدون بذلك الْمرتبَة والدَّرجة فِي التَّقْرِيب والتَّبعيد وَالْإِكْرَام والإهانة ، فَإِذا كَانَ ذَلِك مَشْهُوراً فِي اللُّغَة احْتمل أَن يُقَال : إِنَّ معنى قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيْن الله استعلام لمنزلته وَقدره عِنْدهَا وَفِي قَلبهَا ، وأشارت إِلَى السَّماء ودلَّت بإشارتها على أَنَّه فِي السَّماء عِنْدهَا على قَول الْقَائِل :إِذا أَرَادَ أَن يخبر عَن رفْعَة وعلو منزلَة فلَان فِي السَّماء ، أَي : هُوَ رفيع الشَّأْن عَظِيم الْمِقْدَار ، كَذَلِك قَوْلهَا فِي السَّماء على طَرِيق الْإِشَارَة إِلَيْهَا تَنْبِيها عَن مَحَله فِي قَلبهَا ومعرفتها بِهِ .

وَإِنَّمَا أشارت إلى السَّماء لِأَنَّهَا كَانَت خرساء ، فدلَّت بإشارتها على مثل دلَالَة الْعبارَة على نَحْو هَذَا الْمَعْنى ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك لم يجز أَن يحمل على غَيره مِمَّا يَقْتَضِي الْحَد والتَّشبيه والتَّمكين فِي الْمَكَان والتَّكييف .

وَمن أَصْحَابنَا من قَالَ : إِنَّ الْقَائِل إِذا قَالَ : إِنَّ الله فِي السَّماء وَيُرِيد بذلك أَنَّه فَوْقهَا من طَرِيق الصّفة لَا من طَرِيق الْجِهَة على نَحْو قَوْله سُبْحَانَهُ : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] لم يُنكر ذَلِك .

وَأمَّا قَوْله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام : " اعتقها فَإِنَّهَا مُؤمنَة " ، فَيحْتَمل أَن يكون قد عرف إيمَانهَا بِوَحْي فَأخْبر بذلك عَن ظُهُور إشارتها الَّتِي هِيَ عَلامَة من عَلَامَات الْإِيمَان .

وَيحْتَمل أَن يكون سَمَّاهَا مُؤمنَة على الظاهرمن حَالهَا وَأَنَّ ذَلِك الْقدر يَكْفِي من الْمَطْلُوب من إِيمَان من يُرَاد عتقه وَأَنَّه لَا يعْتَبر بعد ذَلِك ظُهُور الْأَعْمَال وَالْوَفَاء بالعبادات " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٥٨-١٦١) .

وقال الإمام طاهر بن محمَّد الأسفراييني، أبو المظفَّر (٤٧١هـ) : " وَأَن تعلم أَنَّه لَا يجوز عَلَيْهِ الْكَيْفِيَّة والكميَّة والأينيَّة ، لِأَنَّ من لَا مثل لَهُ لَا يُمكن أَن يُقَال فِيهِ : كَيفَ هُوَ ؟ وَمن لَا عدد لَهُ لَا يُقَال فِيهِ كم هُوَ ؟ وَمن لَا أوَّل لَهُ لَا يُقَال لَهُ مِم كَانَ ؟ وَمن لَا مَكَان لَهُ لَا يُقَال فِيهِ أَيْن كَانَ . وَقد ذكرنَا من كتاب الله تَعَالَى مَا يدلُّ على التَّوحيد وَنفي التَّشْبِيه وَنفي الْمَكَان والجهة وَنفي الِابْتِدَاء والأوليَّة ، وَقد جَاءَ فِيهِ عَن أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ رَضِي الله عَنهُ أشفى الْبَيَان حِين قيل لَهُ أَيْن الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي أَيَّن الأين لَا يُقَال لَهُ أَيْن ، فَقيل لَهُ : كَيفَ الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي كَيَّفَ الكيف لَا يُقَال لَهُ كَيفَ " . انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦١) .

وقال الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد التّجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (٤٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ: لِلْجَارِيَةِ أَيْنَ اللهُ؟ فَقَالَتْ: فِي السَّماء لَعَلَّهَا تُرِيدُ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ وَبِذَلِكَ يُوصَفُ كلّ مَنْ شَأْنُهُ الْعُلُوُّ فَيُقَالُ مَكَانُ فُلَانٍ فِي السَّماء بِمَعْنَى عُلُوِّ حَالِهِ وَرِفْعَتِهِ وَشَرَفِهِ " . انظر : المنتقى شرح الموطإ (٦/ ٢٧٤) .

وقال الإمام السَّرخسي (٤٨٣هـ) : " فَأَمَّا الْحَدِيثُ فَقَدْ ذُكِرَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الرَّجُلَ قَالَ : عَلَيَّ عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ أَوْ عَرَفَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِطَرِيقِ الْوَحْيِ أَنَّ عَلَيْهِ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً ،

فَلِهَذَا امْتَحَنَهَا بِالْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ فِي صِحَّةِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ كَلَامًا ، فَقَدْ رُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: أَيْنَ الله ؟ فَأَشَارَتْ إلَى السَّمَاءِ» وَلَا نَظُنُّ بِرَسُولِ اللهَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنّه يَطْلُبُ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يُثْبِتَ للهَّ تَعَالَى جِهَةً وَلَا مَكَانًا، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ لِأَنَّ الْكُفْرَ خَبَثٌ مِنْ حَيْثُ الِاعْتِقَادِ، وَالْمَصْرُوفُ إلَى الْكَفَّارَةِ لَيْسَ هُوَ الِاعْتِقَادُ إنَّمَا الْمَصْرُوفُ إلَى الْكَفَّارَةِ الْمَالِيَّةُ وَمِنْ حَيْثُ الْمَالِيَّةِ هُوَ عَيْبٌ يَسِيرٌ عَلَى شَرَفِ الزَّوَالِ " . انظر : المبسوط (٧/ ٤) .

وقال الإمام المازري المالكي (٥٣٦هـ) : " ... قيل : إنّما أراد عليه السَّلام أن يتطلَّب دليلاً على أنَّها موحِّدة فخاطبها بما تفهم به قصده ، إذ من علامات الموحِّدين التَّوجُّه إلى السَّماء عند الدُّعاء وطلب الحوائج ، لأنَّ العرب التي تعبد الأصنام تطلب حوائجها من الأصنام والعجم من النِّيران ، فأراد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكشف عن معتقدها: هل هي من جملة من آمن؟ فأشارت إلى السَّماء وهي الجهة المقصودة عند الموحِّدين كما ذكرنا. وقيل: إنّما وَجْهُ السُّؤال بـ (أين) هاهنا سؤال عمَّا تعتقده من جلال الباري سبحانه وعظمته، وإشارتها إلى السَّماء إخبار عن جلالته تعالى في نفسها ، والسَّماء قبلة الدَّاعين كما أنَّ الكعبة قبلة المصلِّين ، فكما لم يدلّ استقبال الكعبة على أنَّ الله جلَّت قدرته فيها لم يدل التَّوجُّه إلى السَّماء، والإشارة على أنَّ الله سبحانه حالٌّ فيها " . انظر : المُعلم بفوائد مسلم (١/ ٤١٢) .

وقال الإمام ابن العربي المالكي (٥٤٣هـ) : " والمراد بالسُّؤال بها عنه تعالى المكانة ، فإنَّ المكان يستحيل عليه " . انظر : عارضة الأحوذي (١١/ ١٩٤) .

وقال الإمام عياض بن موسى اليحصبي السّبتي (٥٤٤هـ) : " وقول النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية: " أين الله؟ "، قال الإمام: إنَّما أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يطلب دليلاً على أنَّها موحدة، فخاطبها بما يفهم قصده، إذ علامة الموحِّدين التَّوجُّه إلى الله إلى السَّماء عند الدُّعاء وطلب الحوائج؛ لأنَّ العرب التى تعبد الأصنام، وتطلب حوائجها من الأصنام، والعجم من النِّيران، فأراد - عليه السَّلام - الكشف عن معتقدها هل هي ممَّن آمن؟ فأشارت إلى السَّماء، وهى الجهة المقصودة عند الموحِّدين ، كما ذكرنا .

وقيل: إنَّما السُّؤال بأين هاهنا سؤال عمَّا تعتقده من جلالة الباري سبحانه وعظمته. وإشاراتها إلى السَّماء إخبار عن جلالته تعالى في نفسها، والسَّماء قِبْلةُ الدَّاعين، كما أنَّ الكعبةَ قِبْلةُ المصلين، كما لم يدل استقبال القبلة على أنَّ الله تعالى فيها، كذلك لم يدل التَّوجُّه إلى السَّماء والإشارة إلى السَّماء على أنَّ الله سبحانه فيها .

قال القاضي: لا خلاف بين المسلمين قاطبة – محدِّثِهم وفقيههم ومتكلِّمهم ومقلِّدهم ونُظَّارِهم – أَنَّ الظَّواهر الواردة بذكر الله في السَّماء كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك:١٦] ، أنَّها ليست على ظاهرها، وأنَّها متأوَّلة عند جميعهم، أمَّا من قال منهم بإثبات جهة فوق لله تعالى من غير تحديد ولا تكييف من دهماء المحدثين والفقهاء، وبعض المتكلِّمين منهم، فتأوَّل في السَّماء بمعنى على، وأمَّا دهماء النظَّار والمتكلِّمين ، وأصحاب الإثبات والتَّنزيه المحيلين، أن يختص بجهة أو يحيط به حد، فلهم فيها تأويلات بحسب مقتضاها، منها ما تقدَّم ذكره في كلام الإمام أبي عبد الله ". انظر : شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (٢/ ٤٦٥) .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) : " قد ثبت عند العلماء أنَّ الله تعالى لا يحويه السَّماء والأرض ولا تضمُّه الأقطار ، وإنَّما عرف بإشارتها تعظيم الخالق عندها " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٨٩) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " إنَّ لفظ " أين " كما يجعل سؤالاً عن المكان ، فقد يجعل سؤالاً عن المنـزلة والدَّرجة ، يقال : أين فلان من فلان ، فلعلَّ السُّؤال كان عن المنـزلة ، وأشار تها إلى السَّماء ، أي : هو رفيع القدْر جداً " . انظر : أساس التقديس (ص١٨٦) .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمَدُ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " وقوله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ للجارية : " أين الله ؟ " هذا السُّؤال من النَّبي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ تَنَزُّلٌ مع هذه الجارية على قدْر فهمها ؛ إذ أراد أن يظهر منها ما يدلُّ على أنَّها ليست ممَّن يعبد الأصنام ولا الحجارة التي في الأرض ... فأراد النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتعرَّف منها : هل هي ممن يعتقد أنَّ معبوده في بيت الأصنام أم لا ؟ فقال لها : أين الله ؟ فقالت : في السَّماء ، فقنع منها بذلك وحكم بإيمانها ، إذ لم تتمكَّن من فهم غير ذلك ،

وإذ نزَّهت الله تعالىٰ عن أن يكون من قبيل معبوداتهم وأصنامهم ، ورفعته عن أن يكون في مثل أمكنتهم ، وحملها علىٰ ذلك أنَّها رأت المسلمين يرفعون أبصارهم وأيديهم إلىٰ السَّماء عند الدُّعاء ، فتُرِكت علىٰ ذلك في تلك الحال لقصور فهمها إلىٰ أن يتمكَّن فهمها وينشرح صدرها ، إذ لو قيل لها في تلك الحالة : الله تعالىٰ يستحيل عليه المكان والزَّمان لخيْف عليها أن تعتقد النَّفي المُحْض والتَّعطيل ؛ إذ ليس كلّ عقل يقبل هذا ، ويعقله علىٰ وجهه ، بل إنَّما يعقله العالمون الذين شرح الله صدورهم لهدايته ، ونوَّر قلوبهم بنور معرفته ، وأمدّهم بتوفيقه ومعونته ، وأكثر الخلق تغلب عليهم الأوهام ، وتَكِلّ منهم الأفهام .

وقيل في تأويل هذا الحديث : أنَّ النَّبي ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إنَّما سألها بـ " أين " عن الرُّتبة المعنويَّة التي هي راجعة إلىٰ جلاله تعالىٰ وعظمته التي بها بَايَنَ كلّ من نُسبت إليه الإلهيَّة ، وهذا كما يقال : أين الثُّريَّا من الثَّرَىٰ ، والبصرُ من العَمَىٰ ؛ أي : بَعُدَ ما بينهما ، واختصَّت الثُّريَّا والبصر بالشَّرف والرِّفعة . وعلىٰ هذا يكون قولها : " في السَّماء " ؛ أي : في غاية العلوّ والرفعة ، وهذا كما يقال : فلان في السَّماء ومناط الثُّريَّا ، كما قال :

وَإِنَّ بَني حَرْبٍ كَما قَد عَلِمتُمُ مَناطَ الثُرَيّا قَد تَعَلَّت نُجومُها

أقول هذا ، والله ورسوله أعلم ، والتَّسليم أسلم .

تنبيه : ثمَّ اعلم أنَّه لا خلاف بين المسلمين قاطبة ، محدّثهم ، وفقيههم ، ومتكلِّمهم ، ومقلِّدهم ، ونُظَّارهم : أنَّ الظَّواهر الواردة بذكر الله في السَّماء ؛ كقوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك:١٦] ليست علىٰ ظاهرها ، وأنَّها متأوَّلة عند جميعهم . أمَّا من قال منهم بالجهة ، فتلك الجهة عنده هي جهة الفوق ، كما جاء في الأحاديث فلا بدَّ أن يُتَأَوَّل كونه في السَّماء ، وقد تأوَّلوه تأويلات ، وأشبه ما فيه : أنَّ " في " بمعنىٰ : " علىٰ " ، كما قال : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] ؛ أي : علىٰ جذوع النَّخل ، ويكون العلوّ بمعنىٰ الغلبة ، وأمَّا من يعتقد نفي الجهة في حقِّ الله تعالىٰ ، فهو أحقُّ بإزالة ذلك الظَّاهر ، وإجلال الله تعالىٰ عنه ، وأَوْلىٰ الفرق بالتَّأويل . وقد حصل من هذا الأصل المحقَّق : أنَّ قول الجارية : " في السَّماء " ليس علىٰ ظاهره باتِّفاق المسلمين ، فيتعيَّن أن يعتقد فيه أنَّه

مُعَرَّض لتأربل المتأوِّلين ، وأن مَنْ حمله على ظاهره فهو ضالٌّ من الضَّالِّين " . انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٧٣-٧٦) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : " ... لأنَّ كلّ من في السَّموات والأرض وما فيهما وما بينهما خلق الله تعالى وملك له، وإذا كان ذلك كذلك يستحيل على الله أن يكون في السَّماء أو في الأرض، إذ لو كان في شيء لكان محصوراً أو محدوداً، ولو كان ذلك لكان محدثاً، وهذا مذهب أهل الحقِّ والتَّحقيق .

وعلى هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك:١٦] ، وقوله : عليه السَّلام للجارية " أين الله؟ " قالت في السَّماء ، ولم ينكر عليها وما كان مثله ليس على ظاهره بل هو مؤوَّل تأويلات صحيحة قد أبداها كثير من أهل العلم في كتبهم " . انظر : التذكار في أفضل الأذكار من القرآن الكريم (ص١٨-١٩)

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " ... هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَفِيهَا مَذْهَبَانِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمَا مَرَّاتٍ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ ، أَحَدُهُمَا : الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ غَيْرِ خَوْضٍ فِي مَعْنَاهُ مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ سِمَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَالثَّانِي : تَأْوِيلُهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ، فَمَنْ قَالَ بِهَذَا قَالَ : كَانَ الْمُرَادُ امْتِحَانَهَا هَلْ هِيَ مُوَحِّدَةٌ تُقِرُّ بِأَنَّ الْخَالِقَ الْمُدَبِّرَ الْفَعَّالَ هُوَ اللهُّ وَحْدَهُ وَهُوَ الَّذِي إِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي اسْتَقْبَلَ السَّماء كَمَا إِذَا صَلَّى الْمُصَلِّي اسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأنَّه مُنْحَصِرٌ فِي السَّماء ، كَمَا أنَّه لَيْسَ مُنْحَصِرًا فِي جِهَةِ الْكَعْبَةِ بَلْ ذَلِكَ لِأَنَّ السَّماء قِبْلَةُ الدَّاعِينَ كَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ قِبْلَةُ الْمُصَلِّينَ أَوْ هِيَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ الْعَابِدِينَ لِلْأَوْثَانِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمَّا قَالَتْ : فِي السَّماء عَلِمَ أَنَّهَا مُوَحِّدَةٌ وَلَيْسَتْ عَابِدَةً لِلْأَوْثَانِ .

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً فَقِيهُهُمْ وَمُحَدِّثُهُمْ وَمُتَكَلِّمُهُمْ وَنُظَّارُهُمْ وَمُقَلِّدُهُمْ أَنَّ الظَّوَاهِرَ الْوَارِدَةَ بِذِكْرِ اللهَّ تَعَالَى فِي السَّماء ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وَنَحْوِهِ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا بَلْ مُتَأَوَّلَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ " . انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٢٤) .

وقال الإمام القاضي ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : " لم يرد به السُّؤال عن مكانه ، فإنَّه منزَّه عنه ، والرَّسول أعلى من أن يسأل أمثال ذلك " . انظر : تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (٢/ ٣٩٥) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني (٧٣٣هـ) : " وَقد تمَسَّك بِهَذَا الحَدِيث من قَالَ بالجهة وجعلوه عمدتهم.

وَقد تقدَّم أَنَّ المهم فِي صدر الْبَعْثَة بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الْعَامَّة إِنَّما كَانَ إِثْبَات وجود الْبَارِي تَعَالَىٰ ووحدانيَّته بالإلهيَّة ، فعاملهم بِمَا يؤنسهم مِمَّا ألفوه ، وأقرَّهم علىٰ اعْتِقَاد ثُبُوت وجوده تَعَالَىٰ وانفراده بالإلهيَّة ، لِأَنَّ أذهانهم لَا تحْتَمل النَّظر فِيمَا لم يألفوه من الْأَدِلَّة الدَّقيقة وَالتَّفْصِيل الْكُلِّي ، فَيَقَع مِنْهُم أَولاً بالإثبات الْجملِي فِي ذَلِك ، وَلَا طَرِيق لَهُ إِلَّا بِمَا ألفوه مِمَّا تقبله أذهانهم .

فَلَمَّا أشارت إِلىٰ السَّماء علم النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَظمَة الله تَعَالَىٰ عِنْدهَا ووحدانيَّته ونفرتها من آلِهَة الأَرْض عِنْدهَا الَّتِي كَانُوا يعبدونها ، فَلَمَّا فهم ذَلِك مِنْهَا سَأَلَهَا عَن نَفسه الْكَرِيمَة ليعلم إِقْرَارهَا بنبوته الَّتِي هِيَ ثَانِيَة عقد الْإِسْلَام ، فَلَمَّا قَالَت رَسُول الله علم إِسْلَامهَا .

وَقيل : يجوز أَن يُرَاد بـ أَيْن الْمنزلَة والرُّتبة فِي صدرها كَمَا يُقَال : أَيْن فلَان من فلَان ، وَأَيْنَ زيد مِنْك ، توسُّعاً فِي الْكَلَام ، وَلَا يُرَاد بذلك إِلَّا الرُّتْبَة والمنزلة .

وَيَقُول الْإِنْسَان لصَاحبه : أَيْن محلِّي مِنْك ؟!! فَيَقُول : فِي السَّماء يُرِيد أَعْلَىٰ مَحل ، انْتهىٰ " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٧١-١٧٢) .

وقال الإمام تقي الدِّين السُّبكي (٧٥٦هـ) في ردِّه علىٰ نونيَّة ابن قيِّم الجوزيَّة المسمَّىٰ بـ " السَّيف الصَّقيل " : " ... أمَّا القول فقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية : أين الله ؟ قالت في السَّماء ، وقد تكلَّم النَّاس عليه قديماً وحديثاً ، والكلام عليه معروف ولا يقبله ذهن هذا الرَّجل ، لأنَّه مشَّاء علىٰ بدعة لا يقبل غيرها " . انظر : السيف الصقيل في الرد علىٰ ابن زفيل (ص١٠٧-١٠٩) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " يَجِبُ عَلَىٰ الْخَلْقِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ قَاصِرٌ ، فَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ حُكْمِهِ لِمَ وَلَا كَيْفَ ، كَمَا لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ فِي وجوده أَيْن وَحَيْثُ " . انظر : فتح الباري (١/ ٢٢٠-٢٢١)

وقال الإمام كمال الدِّين البيَّاضي الحنفي (١٠٩٧هـ) : " في كتابه " إشارات المرام " (ممزوجاً بالمتن) : " ولا يتطرَّق إليه سمات الـحدوث والفناء ، كما أشار إليه بقوله [فيه وعليه] أي يُخرِّج علىٰ أنَّه

يُدعىٰ من أعلىٰ ، ويوصف بنعوت الجلال وصفات الكبرياء [ما روي في الحديث أنَّ رجلاً] وهو عمرو بن الشَّريد كما رواه أبو هريرة وعبد الله بن رواحة كما بيَّنه الإمام في مسنده بتخريج الحارثي وطلحة والبلخي والخوارزمي [أتىٰ إلىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمة سوداء فقال: وجب عليَّ عتق رقبة مؤمنة] ، قال: إنَّ أمِّي هلكت وأُمرتُ أن أعتق عنها رقبة مؤمنة ولا أملك إلَّا هذه وهي جارية سوداء أعجميَّة لا تدري ما الصَّلاة أفتجزيني هذه ؟ عمَّا لزم بالوصيَّة ، كما في مصنَّف الحافظ عبد الرزَّاق ، وليس في الرِّوايات الصَّحيحة أنَّها كانت خرساء كما قيل [فقال لها النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أمؤمنة أنت؟ قالت نعم، فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: أين الله؟] سائلاً عن المنزلة والعلو علىٰ العباد علوّ القهر والغلبة ، ومشيراً أنَّه إذا دعاه العباد استقبلوا السَّماء دون ظاهره من الجهة ، لكن لَّما كان التَّنـزيه عن الجهة ممَّا يقصر عنه عقول العامَّة فضلاً عن النِّساء حتَّىٰ يكاد يجزم بنفي ما ليس في الجهة، كان الأقرب إلىٰ إصلاحهم والأليق بدعوتهم إلىٰ الحقِّ ما يكون ظاهراً في الجهة ،كما في " شرح المقاصد " ، [فأشارت إلىٰ السَّماء] إشارة إلىٰ أعلىٰ المنازل ، كما يقال : فلان في السَّماء ، أي : رفيع القدْر جداً ، كما في" التَّقديس " للرَّازي [فقال: أعتقها فإنَّها مؤمنة]. ثمَّ قال: [فأشار إلىٰ الجواب بأنَّ السُّؤال والتَّقرير لا يدلَّان علىٰ المكان بالجهة لمنع البراهين اليقينيَّة عن حقيقة الأينيَّة] ... ثمَّ قال البيَّاضي:ـ

الرَّابِعَةُ: أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد امتحانها ، هل تُقرُّ بأن الخالق الفعَّال المتعالي هو الله الذي إذا دعاه الدَّاعي استقبل السَّماء ، كما دلَّ السُّؤال والتَّقرير كما في شرح مسلم للنَّووي ، وإليه أشار بترتيب التَّخريج أنَّه يُدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل .

الخَامِسَةُ: أنَّها كانت أعجميَّة لا تقدر أن تفصح عمَّا في ضميرها من اعتقاد التَّوحيد بالعبارة ، فتعرف بالإشارة أنَّ معبودها إله السَّماء ، فإنَّهم كانوا يسمُّون الله إله السَّماء كما دلَّ السُّؤال، والاكتفاء بتلك الإشارة ، كما في الكفاية لنور الدِّين البخاري " . انظر : إشارات المرام من عبارات الإمام (ص١٦٦ –١٦٨ باختصار) ...

وفي هذا الإطار لا بدَّ من مناقشة مسألة جوهريَّة في هذا الباب ... إن أدركها الإنسان وتبيَّنها ، عرف لا محالة أنَّ الله تعالىٰ ليس في مكان ، وهي أنَّ الله تعالىٰ لا يُوصف بأنَّه متَّصل بالعالم ، وكذلك لا يوصف بأنَّه منفصل عنه ... وهم يعنون بقولهم : " ليس بداخل العالم " : نفي الحلول والإتحاد والممازجة ، وإثبات المباينة لله تعالىٰ عن العالم ...

وقد ناقش علماءُ أهل السُّنَّة مسألة أنَّ الله تعالى ليس متَّصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه مناقشة عقليَّة مستفيضة ، نجملها في النِّقاط التَّالية :

(١) معنىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا داخل العالم ولا خارجه ، أي : أنَّ الله تعالىٰ لا يوصف بأنَّه متَّصل بالعالم وكذلك لا يوصف بأنَّه منفصل عن العالم ، وذلك لأنَّ الاتِّصال والانفصال من أوصاف الأجسام ، فالجسم إمَّا أن يكون متَّصلاً بغيره أو منفصلاً عن الغير ، والله تعالىٰ : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ : ١١] ، فهو لا يتَّصف بالدُّخول ولا بالخروج ، لأنَّها من صفات المحدثات . ونظير هذا قولك في حقِّ القَلَمِ – مثلاً – : أنَّه ليس جاهلاً ولا عالماً ، كما أنَّه ليس غنيَّاً ولا فقيراً ، وليس مبصراً ولا أعمىٰ ، وليس أعزباً ولا متزوِّجاً ... لأنَّه لا يحتمل أيَّاً ممَّا سبق ...

(٢) الذين نفوا كون الله تعالىٰ لا داخل العالم ولا خارجه ... كان السَّبب في نفيهم هو اعتقادهم بأنَّ الله تعالىٰ جسم ، لأنَّ من شأن الأجسام أن تقبل الدُّخول والخروج ... وقد قامت الأدلَّة النقليَّة والعقليَّة علىٰ تنزُّه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ...

(٣) من أراد منهم الخروج من المتاهة التي وضعوا أنفسهم فيها صرَّح بأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ موجود في مكانٍ سمُّوه بالمكان العدمي ... والمكان العدمي لا شكَّ في أنَّه مكان ، إذ من المعلوم أنَّ لكلِّ مكان مكين ، ولكلِّ مكين مكان ...

(٤) في عقيدة أهل الحقّ أنَّ الله تعالىٰ لا يمكن إدراكه وتصوُّره ، وأنَّه خارج عن كلّ ما يجول في الأوهام ويجول في الخواطر والنُّفوس ، وأنَّ كلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن الإدراك إدراك ...

(٥) أجمعت الأمَّة على نفي المكان عن الله تعالى ، وأنَّه تعالى لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان ...

(٦) صرَّح العديد من علماء الإسلام بتنزيه الله عن أن يكون الله تعالى داخل العالم أو خارجه ، من ذلك :

أَوَّلاً : قال الإمام الاسفراييني (٤٧١هـ) : " أنَّ الحركة والسُّكون والذَّهاب والمجيء والكون في المكان ، والاجتماع والافتراق والقُرب والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال والانفصال ... والجهات كلّها لا تجوز عليه تعالى ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنهاية " . انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦٠) .

ثَانِيَاً : وقال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) : " أنَّ الله تعالى مقدَّس عن المكان ومنزَّه عن الأقطار والجهات ، وأنَّه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متَّصل بالعالم ولا هو منفصل عنه " . انظر : إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤٢٤) .

ثَالِثَاً : وقال الإمام ابن الجوزي في : "كذلك ينبغي أن يقال : ليس بداخل في العالم وليس بخارج منه ، لأنَّ الدُّخول والخروج من لوازم المتحيِّزات ، وهما كالحركة والسُّكون وسائر الأعراض التي تختصُّ بالأجرام" . انظر : دفع شبه التشبيه (ص١٣٠) .

رَابِعَاً : وقال الإمام العز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) : " أنَّ من جملة العقائد التي لا يستطيع العامَّة فهمها هو أنَّه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا منفصل عن العالم ولا متَّصل به" . انظر : القواعد (ص٢٠١) .

خَامِسَاً : وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " قَالَ الْمُتَوَلِّي: مَنِ اعْتَقَدَ قِدَمَ الْعَالَمِ، أَوْ حُدُوثَ الصَّانِعِ، أَوْ نَفَى مَا هُوَ ثَابِتٌ لِلْقَدِيمِ بِالْإِجْمَاعِ، كَكَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا، أَوْ أَثْبَتَ مَا هُوَ مَنْفِيٌّ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ، كَالْأَلْوَانِ، أَوْ أَثْبَتَ لَهُ الِاتِّصَالَ وَالِانْفِصَالَ، كَانَ كَافِرًا " . انظر : روضة الطالبين (١٠/ ٦٤) .

سَادِسَاً : وقال الإمام نجم الدِّين الطُّوفي الصّرصري الحنبلي (٧١٦هـ) : ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ فيه أنَّ السُّجود سبب القُرب من الرَّب–جلَّ جلاله–قُرباً عقليَّاً لا حسيَّاً، أمَّا عند مثبتي الجهة فظاهر، وأمَّا عند غيرهم فلأنَّه–عزَّ وجلَّ– لا في السَّماء ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا متَّصل

ولا منفصل ، فيستحيل التَّقرُّب منه حسَّاً عندهم " . انظر : الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية ، نجم الدِّين الطوفي الصرصري الحنبلي (ص٦٨٦) .

سَابِعَاً : وقال الإمام عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف بن العربي الفاسي الفهري (١١٨٨هـ) : " لا شكَّ أنَّ المعتقد هو أنَّ الله تعالىٰ سبحانه ليس في جهة، وقد أوضح الأئمَّة تقريره في الكتب الكلاميَّة بما لا مزيد عنه، فهو سبحانه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متَّصلاً به ولا منفصلاً عنه، وتوهُّم أنَّ في هذا رفعاً للنَّقيضين وهو محال، باطلٌ؛ إذ لا تناقض بين داخل وخارج، وإنَّما التَّناقض بين داخل ولا داخل، وليس خارج مساوياً للدَّاخل، وإنَّما هو أخصّ منه، فلا يلزم من نفيه نفيه؛ لأنَّ نفي الأخصّ أعمّ من نفي الأعمّ، والأعمّ لا يستلزم الأخصّ.

فإن قيل : بم ينفرد هذا الأعمّ الذي هو لا داخل، عن الأخصّ الذي هو خارج.

قلنا: ينفردُ في موجودٍ لا يقبلُ الدُّخول ولا الخروج ولا الاتِّصال ولا الانفصال، وهذا يحمله العقل، ولكن يقصر عنه الوهم، وقصور الوهم منشأ الشُّبهة، ومثار دعوىٰ الاستحالة " . انظر : براءة الأشعريين لـ محمَّد العربي بن التباني (١ / ٨٣) .

ثَامِنَاً : وقال الإمام أبو البركات أحمد بن محمَّد الدَّردير المالكي المصري (١٢٠١هـ) في خريدته :

مُنَزَّهٌ عَنِ الحُلُوْلِ وَالجِهَة وَالاتِّـصَـالِ وَالانـفـصَـالِ وَالسَّفَـه

انظر : الخريدة البهية (ضمن مجمرع مهمات المتون) (رقم البيت ٣١/ ص٢) .

تَاسِعَاً : وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) : " (وأنَّه) تعالىٰ (مقدَّس) منزَّه (عن التَّغيُّر) من حال إلىٰ حال (والانتقال) من مكان إلىٰ مكان ، وكذا الاتِّصال والانفصال ، فإنَّ كلاً من ذلك من صفات المخلوقين " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٤) .

عَاشِراً : وقال الإمام أبو المحاسن محمَّد القاوقجي الطَّرابلسي اللبناني الحنفي (١٣٠٥ هـ) : " فإذا قال لك: أين الله ؟ قل: مع كلّ أَحَدٍ بِعِلْمِهِ لا بذاته، وفوقَ كلّ أَحَدٍ بقُدرَتِهِ، وظَاهِرٌ بكُلّ شَيْءٍ بآثارِ صِفاتِهِ، وباطِنٌ بحقيقةِ ذاتِهِ أي لا يمكن تصويره في النفس مُنَزَّهٌ عن الجِهَةِ والجِسْمِيَّةِ، فلا يقال: له يَمينٌ ولا شِمالٌ ولا خَلْفٌ ولا أَمَامٌ، ولا فَوْقَ العَرْشِ وَلا تَحتَهُ، وَلا عن يمينِهِ ولا عن شِمَالِهِ، وَلا

دَاخِلٌ في العالمِ وَلا خارجٌ عنهُ. وَلا يُقَالُ: لا يَعْلَمُ مَكَانَهُ إلا هُوَ" . انظر : الاعتماد في الاعتقاد ، أبو المحاسن محمَّد القاوقجي الطرابلسي اللبناني الحنفي (ص٢١) .

حَادِيْ عَشَر : قال الإمام محمَّد العربي بن التبَّاني (١٣٩٠هـ) : " وقد زعم المشبِّهة أنَّ من يعبد إلهاً لا يكون داخل العالم ولا خارجاً عنه يعبد إلهاً معدوماً، وجمهور الأمَّة الإسلاميَّة قالوا : أنَّه تعالى لا يوصف بأنَّه داخل العالم ولا خارج عنه، لأنَّ الدُّخول والخروج من صفات الحوادث " . انظر : براءة الأشعريين (٢/ ٧١) . ولاستزادة في هذه المسألة انظر : حسن المحاججة في بيان أن الله لا داخل العالم ولا خارجه للأستاذ الدكتور سعيد فوده ، صحيح شرح الطحاوية (ص٣٢٤-٣٣٥) للأستاذ السقَّاف

الفَصْلُ التَّاسِعُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهِم بِأَنَّ بالعُلُوِّ الحَقِيْقِي صِفَةً لله تَعَالَى

المتسلِّفةُ يثبتون لله تعالى العلوّ الحسِّي الحقيقي ، وحجّتهم في ذلك هي في قياسهم الخالق على المخلوق ، فقالوا بأنَّ الله تعالى إمَّا أن يكون داخل العالم ، وإمَّا أن يكون خارج العالم ، ولَمَّا كان القول بأنَّ كون الله تعالى داخل العالم يُفضي إلى حلول الخالق تعالى بالعالم ، وهذا لا يجوز ... إذاً لا بدَّ وأن يكون الله تعالى خارج العالم ... مع أنَّ كلامهم يصبُّ في مصبِّ حلول المخلوق في الخالق ، لأنَّ كلّ شيء سوى الله تعالى مخلوق لله تعالى ...

قال إمامهم عثمان الدَّارمي السِّجستاني : " وَقَدِ اتَّفَقَتِ الْكَلِمَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ أَنَّ اللهَّ فِي السَّمَاءِ، وَحَدُّوهُ بِذَلِكَ إِلَّا الْمَرِيسِيَّ الضَّالَّ وَأَصْحَابَهُ، حتَّى الصِّبْيَانُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ قَدْ عَرَفُوهُ بِذَلِكَ، إِذَا حَزَبَ الصَّبِي شَيْء يرفع يَدَيْهِ إِلى رَبِّهِ يَدْعُوهُ فِي السَّماء دُونَ مَا سِوَاهَا، فَكُلُّ أَحَدٍ بِاللهَّ وَبِمَكَانِهِ أَعْلَمُ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ " .

وقال : " ... بَلْ هُوَ عَلَى عَرْشِهِ، فَوْقَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ فِي أَعْلَى مَكَانٍ وَأَطْهَرِ مَكَانٍ، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٨] ، يَعْلَمُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ مَا فِي السَّموات وَمَا فِي الأَرْضِ، وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، يُدَبِّرُ مِنْهُ الْأَمر " .

وقال : " وَيحك! هَذَا الْمَذْهَب أَنْزَهُ للهَّ مِنَ السُّوءِ أَمْ مَذْهَبُ مَنْ يَقُولُ: فَهُوَ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ فوق سمواته، وَفَوق جَمِيع الْخَلَائِقِ فِي أَعْلَى مَكَانٍ، وَأَطْهَرِ مَكَانٍ، حَيْثُ لَا خَلْقَ هُنَاكَ مِنْ إِنْسٍ وَلَا جَانٍّ " .

وقال أيضاً : " لِأَنَّا قد أَيَّنا لَهُ مَكَانا وَاحِدًا، أَعْلَى مَكَانٍ، وَأَطْهَرَ مَكَانٍ وَأَشْرَفَ مَكَانٍ: عَلَى عَرْشِهِ الْعَظِيمِ الْمُقَدَّسِ الْمَجِيدِ، فَوْقَ السَّماء السَّابِعَةِ الْعُلْيَا، حَيْثُ لَيْسَ مَعَهُ هُنَاكَ إِنْسٌ وَلَا جَان وَلَا بجنبيه حُشٌّ وَلَا مِرْحَاضٌ وَلَا شَيْطَانٌ "

وقال أيضاً : " وَأَمَّا قَوْلُكَ: غَيْرُ بَائِنٍ بِاعْتِزَالٍ، وَلَا بِفُرْجَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَقَدْ كَذَبْتَ فِيهِ وَضَلَلْت ، عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، بَلْ هُوَ بِائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ بِفُرْجَةٍ بَيِّنَةٍ. وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ مَا هُمْ عَامِلُونَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ كَمَا أَنْبَأَنَا اللهُ تَعَالَى وَرَسُوله وَأَصْحَاب رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وقال أيضاً : " وَإِلَهُ السَّموات وَالْأَرْضِ عَلَى عَرْشٍ مَخْلُوقٍ عَظِيمٍ فَوْقَ السَّماء السَّابِعَة دون مَا سواهَا مِنَ الْأَمَاكِنِ. مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِذَلِكَ كَانَ كَافِرًا بِهِ وَبِعَرْشِهِ " .

وقال أيضاً : " فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ الْمُدَّعِي مَا لَا عِلْمَ لَهُ: مَنْ أَنْبَأَكَ أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ لَيْسَ بِأَقْرَبَ إِلَى اللهَّ تَعَالَى مِنْ أَسْفَلِهِ؟؛ لأَنَّه مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَّ فَوْقَ عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ أَقْرَبُ إِلَى اللهَّ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَأَنَّ السَّماء السَّابِعَةَ أَقْرَبُ إِلَى عَرْشِ اللهَّ تَعَالَى مِنَ السَّادِسَةِ، وَالسَّادِسَةَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَامِسَةِ، ثمَّ كَذَلِكَ إِلَى الْأَرْضِ. كَذَلِكَ رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّه قَالَ: "رَأْسُ الْمَنَارَةِ أَقْرَبُ إِلَى اللهَّ مِنْ أَسْفَلِهِ وَصَدَقَ ابْنُ الْمُبَارَكِ؛ لِأَنَّ كلّ مَا كَانَ إِلَى السَّماء أَقْرَبُ كَانَ إِلَى اللهَّ أَقْرَبَ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١ / ٢٢٨)، (١ / ٤٤٧)، (١/ ٤٥٠)، (١/ ٤٩٣)، (١/ ٤٤١)، (١/ ٤٤٢)، (١/ ٥٠٤) بالترتيب .

وقال أيضاً : " إِنَّ اللهَّ تَبارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَحُ الذِّكْرَ، فَيَنْظُرُ اللهُ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهُنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يَرَهُ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ، ثمَّ يَنْزِلُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى جَنَّةِ عَدْنٍ، وَهِيَ دَارُهُ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ، وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَهِيَ مَسْكَنُهُ، وَلَا يَسْكُنُهَا مَعَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرُ ثَلَاثَةٍ: النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، ثمَّ يَقُولُ: طُوبَى لِمَنْ دَخَلَكِ " .

انظر : الرد على الجهمية (ص٧٦) .

ونسبه للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال أيضاً : " فَلِمَاذَا يَحُفُّونَ حَوْلَ الْعَرْشِ إِلَّا لِأَنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ فَوْقَهُ، وَلَوْ كَانَ فِي كلّ مَكَانٍ لَحَفُّوا بِالْأَمْكِنَةِ كُلِّهَا، لَا بِالْعَرْشِ دُونَهَا، فَفِي هَذَا بَيَانٌ بَيِّنٌ لِلْحَدِّ، وَأَنَّ اللهَّ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَالْمَلَائِكَةَ حَوْلَهُ حَافُّونَ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ، وَيَحْمِلُ عَرْشَهُ بَعْضُهُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾**[غافر: ٧] .

وقال الإمام ابن تيمية : " وَفِي " الْإِنْجِيلِ " أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَا تَحْلِفُوا بِالسَّمَاءِ فَإِنَّهَا كُرْسِيُّ اللهِ. وَقَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ: إنْ أَنْتُمْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ فَإِنَّ أَبَاكُمْ - الَّذِي فِي السَّماء - يَغْفِرُ لَكُمْ كُلِّكُمْ اُنْظُرُوا إلَى طَيْرِ السَّمَاءِ: فَإِنَّهُنَّ لَا يَزْرَعْنَ وَلَا يَحْصُدْنَ وَلَا يَجْمَعْنَ فِي الْأَهْوَاءِ وَأَبُوكُمْ الَّذِي فِي السَّماء هُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُمْ أَفَلَسْتُمْ أَفْضَلَ مِنْهُنَّ؟ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٠٦) .

وقال أيضاً : " الشَّرائع كلّها مبنيَّة علىٰ أنَّ الله في السَّماء " .

وقال أيضاً : " وقد اتَّفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أنَّ الله في السَّماء وحَدُّوه بذلك " .

وقال أيضاً : " الأيدي ترفع بالدُّعاء إليه ، والأمم كلّها عربها وعجمها يقولون : إنَّ الله في السَّماء ما تركت علىٰ فطرها ، وفي الإنجيل : أنَّ المسيح قال للحواريين : إن أنتم غفرتم للنَّاس فإنَّ أباكم الذي في السَّماء يغفر لكم ظلمكم " . انظر : : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ١٥٩) ، (٢/ ٦١١) ، (٤/ ٤٨٩) ، بالترتيب .

وقال الإمام عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهَّاب : " وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلمون من أهل السُّنَّة علىٰ أنَّ الله مستو علىٰ عرشه بذاته ، ذكره الذَّهبي في كتاب العلو ". انظر : قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (٤٧٩) .

وجاء في معارج القبول : " يَهْبِطُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ إلَىٰ الْمَقَامِ الَّذِي هُوَ قَائِمُهُ " . انظر : معارج القبول (١/ ٣٠٤) .

ونسبه للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين : " وفي حديث الجارية من صفات الله: إثبات المكان لله !!! وأنَّه في السَّماء " . انظر : مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٤/ ٢٨٧) .

وقال المدعو محمَّد بن خليل حسن هرَّاس : " وإنْ أُرِيدَ بِهَا جِهَةُ الْعُلُوِّ؛ فـ (فِي) عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ فِي أَعْلَىٰ العلوِّ" . انظر : شرح العقيدة الواسطية، ويليه ملحق الواسطية (ص١٤٥) .

وقد تكلَّمنا عن ذلك بشيء من التَّفصيل في الفصل الثَّامن ...

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم ...

الفَصْلُ العَاشِرُ

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالقُعُوْدَ وَالجُلُوْسَ صِفَةً للهِ تَعَالَى

لا يتورَّع المتسلِّفةُ في التَّصريح بجلوس الله تعالىٰ علىٰ العرش ، وهذا ما صرَّح به كبراؤهم وعلماؤهم ...

قال إمامهم عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ رَجَاءٍ أبنا إِسْرَائِيلُ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ خَلِيفَةَ قَالَ: "أَتَتِ امْرَأَةٌ إِلىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: ادْعُ اللهَّ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَعَظَّمَ الرَّبَ. فَقَالَ: إِنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّموات وَالْأَرْضَ وَإِنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ، وَمَدَّ أَصَابِعَهُ الْأَرْبَعَ ، وَإِن لَهُ أطيطًا الرحل الْجَدِيد إِذْ رَكبه من يثقله" . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٢٦) . قال المحقق : " الحَدِيث بِهَذَا الْإِسْنَاد ضَعِيف، فِيهِ عَبْدِ اللهَّ بْنِ خَلِيفَةَ. قَالَ عَنهُ الذَّهَبِيّ فِي الْمِيزَان ٢/ ٤١٤: "لَا يكَاد يعرف"، وَقَالَ عَنهُ ابْن حجر فِي التَّقْرِيب ١/ ٤١٢: "مَقْبُول" وَقَالَ الألباني فِي سلسلة الْأَحَادِيث الضعيفة ٢/ ٢٥٧: "لم يوثقه غير ابْن حبَان وتوثيقه لَا يعْتد بِهِ كَمَا بيّنت ذَلِك مرَارًا"، وَقَالَ ابْن كثير فِي تَفْسِيره ١/ ٣١٠: "لَيْسَ بذلك الْمَشْهُور، وَفِي سَمَاعه من عمر نظر، ثمَّ مِنْهُم من يرويهِ عَن عمر، مَوْقُوفا، وَمِنْهُم من يرويهِ مُرْسلا، وَمِنْهُم من يزِيد فِي مَتنه زِيَادَة غَرِيبَة، وَمِنْهُم من يحذفها، وَأغْرب مِنْهُ حَدِيث جُبَير بن مطعم فِي صفة الْعَرْش كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي كِتَابه السّنة من سنَنه وَالله أعلم" وَأوردهُ ابْن خُزَيْمَة فِي التَّوْحِيد، مُرَاجعَة وَتَعْلِيق محمَّد هراس ص"١٠٦"، بِصِيغَة التمريض من طَرِيق عبد الله بن خَلِيفَة وَقَالَ: "وَقد رَوَاهُ وَكِيع بن الْجراح، عَن إِسْرَائِيل، عَن أبي إِسْحَاق عبد الله بن خَلِيفَة وَقَالَ: "قد رَوَاهُ وَكِيع بن الْجراح، عَن إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عبد الله بن خَلِيفَة مُرْسلا لَيْسَ فِيهِ ذكر عمر بيقِين وَلَا ظن، وَلَيْسَ هَذَا الْخَبَر من شرطنا؛ لأَنَّه غير مُتَّصِل الْإِسْنَاد، لسنا نحتج فِي هَذَا الْجِنْس من الْعلم بالمراسيل المنقطعات".

وَأوردهُ الهيثمي فِي الْمجمع ١/ ٨٣ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِلَفْظ. الأطيط وَلَيْسَ فِيهِ الْعُقُود وَمِقْدَار الْأَصَابع وَقَالَ: رَوَاهُ الْبَزَّار وَرِجَاله رجال الصَّحِيح. وَتعقب فِي الْهَامِش بِأَن فِيهِ عبد الله بن خَلِيفَة وَهُوَ مَجْهُول.

وَأوردهُ الألباني فِي سلسلة الْأَحَادِيث الضعيفة برقم ٨٦٦، ٢/ ٢٥٦) ... " .

وقال أيضاً : " وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّهم حِينَ حَمَلُوا الْعَرْشَ وَفَوْقَهُ الْجَبَّارُ فِي عِزَّتِهِ، وَبَهَائِهِ ضَعُفُوا عَنْ حَمْلِهِ وَاسْتَكَانُوا، وَجَثَوْا عَلَىٰ رُكَبِهِمْ، حتَّىٰ لُقِّنُوا "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهَّ" فَاسْتَقَلُّوا بِهِ بِقُدْرَةِ اللهَّ وَإِرَادَتِهِ. لَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَقَلَّ بِهِ الْعَرْشُ، وَلَا الْحَمَلَةُ، وَلَا السَّموات وَالْأَرْضُ وَلَا مَنْ فِيهِنَّ. وَلَوْ قَدْ شَاءَ لَاسْتَقَرَّ عَلَىٰ ظَهْرِ بَعُوضَةٍ فَاسْتَقَلَّتْ بِهِ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَكَيْفَ عَلَىٰ عَرْشٍ عَظِيمٍ أَكْبَرَ مِنَ السَّموات السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ؟ وَكَيْفَ يُنْكِرُ أَيُّهَا النفاج أَن عَرْشه يقلّهُ اوالعرش أَكْبَرَ مِنَ

السَّموات السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ؟ وَلَوْ كَانَ الْعَرْشُ فِي السَّموات وَالْأَرضين مَا وسعته وكلنه فَوْقَ السَّماء السَّابِعَةِ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٥٨) . قال المحقق : " هَذَا غير صَحِيح، فَلَيْسَ الْعَرْش حَامِلا للرب وَلَا يقلهُ، بل الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مستغن عَن الْعَرْش وَغَيره من الْمَخْلُوقَات وَهُوَ الْحَامِل للعرش وحملة الْعَرْش بقوته وَقدرته، وَهُوَ الَّذِي "يمسك السَّموات وَالْأَرْض أَن تَزُولَا وَلَئِن زالتا إِن أمسكهما من أحد من بعده أَنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" وَمن الْمَعْلُوم بِالضَّرُورَةِ من دين الْمُرْسلين أَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَنِي عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات عين فَمَا دونهَا إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْغَنِيّ الحميد " .

وقال ابن تيمية مقرَّاً : " قَالَ ابْنُ حَامِدٍ: فَالْمَذْهَبُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا لَا يَخْتَلِفُ أَنَّ ذَاتَه تَنْزِلُ ... قَالَ: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّه إِذَا جَاءَهُمْ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ كلّها بِأَنْوَارِهِ " . انظر : مجموع الفتاوى (٦/ ١٦٤- ١٦٦ باختصار) .

وجاء في " معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول " مرفوعاً للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللهَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّماء الدُّنيا وَلَهُ فِي كلّ سَمَاءٍ كُرْسِيٌّ فَإِذَا نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ثُمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ !! فَيَقُولُ: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٩٥) .

وجاء فيه أيضاً : " فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ رَبُّنَا عزَّ وجلَّ عَلَى كُرْسِيِّهِ أَعْلَى ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حُفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْجَوْهَرِ وَقَدْ حُفَّتْ تِلْكَ الْمَنَابِرُ بِكَرَاسِيَّ مِنْ نُورٍ " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٣٢٠) .

وجاء فيه أيضاً مرفوعاً للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والعياذ بالله تعالى: " ثمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٩٧) .

وجاء فيه أيضاً مرفوعاً للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والعياذ بالله تعالى: " فَآتِي رَبِّي وَهُوَ عَلَى كُرْسِيِّهِ -أَوْ عَلَى سَرِيرِهِ- فَيَتَجَلَّى لِي رَبِّي فَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا" . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٣٢٢) .

وجاء فيه أيضاً مرفوعاً للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والعياذ بالله تعالىٰ: " فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ أَعْلَىٰ ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حُفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْجَوْهَرِ وَقَدْ حُفَّتْ تِلْكَ الْمَنَابِرُ بِكَرَاسِيَّ مِنْ نُورٍ " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول (١/ ٣٢٠) .

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي (١٢٨٥هـ) : " قال الذَّهبي: حدَّث وكيع عن إسرائيل بحديث: "إذا جلس الرَّبُّ على الكرسي" فاقشعرَّ رَجلٌ عند وكيع، فغضب وكيع وقال: "أدركنا الأعمش وسفيان يحدِّثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها". أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرَّد على الجهميَّة " . انظر : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٤٥٠) .

وقال ابن تيمية : " إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَقَدْ حَدَثَ الْعُلَمَاءُ الْمَرْضِيُّونَ وَأَوْلِيَاؤُهُ الْمَقْبُولُونَ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجْلِسُهُ رَبُّهُ عَلَى الْعَرْشِ مَعَهُ. رَوَىٰ ذَلِكَ محمَّد بْنُ فَضِيلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ؛ فِي تَفْسِيرِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩] ، وَذَكَرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَىٰ مَرْفُوعَةٍ وَغَيْرِ مَرْفُوعَةٍ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا لَيْسَ مُنَاقِضًا لِمَا اسْتَفَاضَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الشَّفَاعَةُ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ وَيَدَّعِيه لَا يَقُولُ إنَّ إجْلَاسَهُ عَلَى الْعَرْشِ مُنْكَرًا ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَهُ بَعْضُ الْجَهْمِيَّة وَلَا ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مُنْكَرٌ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٧٤) .

وأنا أقول للإمام ابن تيمية ولمن يؤمن بعقيدة الإجلاس على العرش : لا ، لم يُحدِّث العلماءُ المرضيُّون ولا أولياؤه المقبولون بأنَّ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجلسه ربُّه على العرش معه ، بل استنكروه واستعظموه ، ورجَّحوا ما جاء في الصَّحيح من تفسير المقام المحمود بالشَّفاعة العظمى ، وهأنذا أسردُ عليك بعضاً من أقوالهم في استنكاره :

قال الإمام ابن عبد البر (٤٦٣هـ) : " ... عَلَىٰ هَذَا أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهَّ عزَّ وجلَّ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، أَنَّه الشَّفَاعَةُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ (١٠٤هـ) : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ أَنْ يُقْعِدَهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ مُنْكَرٌ !!! فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْخَالِفِينَ : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الْمَقَامُ

الَّذِي يَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلُ مَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَارَ إِجْمَاعاً فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ والسُّنَّة . ذَكَرَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ شَبَابَةَ عَنْ وَرْقَاءُ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ في قوله :﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : شَفَاعَةُ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٩/ ٦٤) .

وعقيدة الإقعاد أو الإجلاس على العرش عقيدة باطلة ، قال الإمام الذَّهبي (٧٤٨هـ) : " فأمَّا قضيَّة قعود نبيِّنا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نصٌّ !!! بل في الباب حديث واه " . انظر : مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٨٣) .

ومجسِّمة الحنابلة هم من قالوا بعقيدة الإقعاد على العرش ، وهي عقيدة مزدكيَّة ، قال الإمام الكوثري (١٩٥٢م) : " ومن معتقد المزدقيَّة منهم – الثنويَّة – أنَّ المعبود قاعد على كرسيِّه في العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو (الملك) في العالم الأسفل " . انظر : مقدِّمات الإمام الكوثري (ص٣٨) .

ومن المعلوم أنَّ الجلوس لم يرد إطلاقه على الله لا في الكتاب ولا في السُّنَّة الصَّحيحة ، ومع ذلك فقد أراق مجسِّمةُ الحنابلةِ لأجلها دماءَ الموحِّدين الرَّافضين لها ، وكفَّروا من لا يؤمن بها ، كما صنعوا مع الإمام التِّرمذي ، الذي أنكر عليهم هذه العقيدة التَّجسيميَّة التَّكفيرية ، فكفَّروه في غير ما مناسبة ، كما تجد ذلك في " كتاب السُّنَّة " للخلَّال ، والعياذ بالله تعالى ...قال الإمام ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) في ترجمة الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " ... وقصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل في الجامع يوم الجمعة ، وعن حديث الجلوس على العرش ، فقال أبو جعفر : أمَّا أحمد بن حنبل فلا يعدُّ خلافه ، فقالوا له : فقد ذكره العلماء في الاختلاف ، فقال : ما رأيته روي عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم ، وأمَّا حديث الجلوس على العرش فمُحال ، ثمَّ أنشد :

سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَنِيْس ۝ وَلَا لَهُ فِي عَرْشِهِ جَلِيْس

فلمَّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث ، وثبوا ورموه بمحابرهم ... " . انظر : معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) (٦/ ٢٤٥٠) .

وقال الإمام ابن الأثير (٦٣٠هـ) في " الكامل " أحداث سنة (٣١٧هـ) : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بَكْرٍ الْمَرْوَزِيِّ الْحَنْبَلِيِّ (٢٧٥هـ) وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَامَّةِ ، وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْجُنْدِ فِيهَا ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ الْمَرْوَزِيِّ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، هُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُقْعِدُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ ، وَقَالَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَىٰ : إِنَّمَا هُوَ الشَّفَاعَةُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَاقْتَتَلُوا ، فَقُتِلَ بَيْنَهُمْ قَتْلَىٰ كَثِيرَةٌ " .

انظر : الكامل في التاريخ (٦/ ٧٤٦) .

ولم ينتبه غوغائيُّو الحنابلة إلى أنَّ عقيدة الإقعاد على العرش عقيدة تجسيميَّة بحتة ، خالفوا فيها جمهور الأمَّة الذي ذهب إلى نفيها واستنكارها ، قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي (٧٧٤هـ) في حوادث سنة (٣١٧هـ) : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بكر المروذي الْحَنْبَلِيِّ ، وَبَيْنَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ ، اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، فَقَالَتِ الْحَنَابِلَةُ : يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ . وَقَالَ الْآخَرُونَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى ، فَاقْتَتَلُوا بِسَبَبِ ذلك ، وقتل بينهم قتلى ، فإِنَّا للهَّ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : مَقَامُ الشَّفَاعَةِ العظمى ، وهي الشَّفاعة في فصل القضاء بين العباد ، وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ، حتَّى إبراهيم ، وَيَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ " . انظر : البداية والنهاية (١١/ ١٦٢) ، دار الفكر .

وقال الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافِعِي (٨٥٢هـ) : " قَالَ بن بَطَّالٍ (٤٤٩هـ) أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ الشَّفَاعَةَ فِي إِخْرَاجِ مَنْ أُدْخِلَ النَّار مِنَ الْمُذْنِبِينَ وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِ تعالَى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨] ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَأَجَابَ أَهْلُ السُّنَّة بِأَنَّهَا فِي الْكُفَّارِ ، وَجَاءَتِ الْأَحَادِيثُ فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مُتَوَاتِرَةً ، وَدَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشَّفَاعَةُ ، وَبَالَغَ الْوَاحِدِيُّ (٤٦٨هـ) فَنَقَلَ فِيهِ الْإِجْمَاعَ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَى مَا جَاءَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَزَيَّفَهُ !!! وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأويل : الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يَقُومُهُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُرِيحَهُمْ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ ، ثمَّ

أَخْرَجَ عِدَّةَ أَحَادِيث فِي بَعْضُهَا التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ وَفِي بَعْضِهَا مُطْلَقُ الشَّفَاعَةِ " . انظر فتح الباري (١١/ ٤٢٦)

.

وقال الشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني (١٩٩٩م) في مقدِّمة العلو : " لو أنَّ المؤلِّف رحمه الله وقف عند ما ذكرنا لأحسن ، ولكنَّه لم يقنع بذلك ، بل سوَّد أكثر من صفحة كبيرة في نقل أقوال من أفتى بالتَّسليم بأثر مجاهد في تفسير قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قال : يُجلسه أو يُقعده على العرش . بل قال بعضهم : أنا منكرٌ على كلّ من ردَّ هذا الحديث ، وهو عندي رجل سوء متَّهم ... بل ذكر عن الإمام أحمد (٢٤١هـ) أنَّه قال : هذا تلقَّته العلماء بقبول إلى غير ذلك من الأقوال التي تراها في الأصل ، ولا حاجة بنا إلى استيعابها في هذه المقدِّمة . وذكر في " مختصره " المسمَّى بـ " الذَّهبيَّة " أسماء جمع آخرين من المحدِّثين سلَّموا بهذا الأثر ، ولم يتعقَّبهم بشيء هناك . وأمَّا هنا فموقفه مضطربٌ أشدّ الاضطراب !!! فبينما تراه يقول في آخر ترجمة محمَّد بن مصعب العابد عقب قول من تلك الأقوال (ص١٢٦) : فأبصر – حفظك الله من الهوى – كيف آل الفكر بهذا المحدِّث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر " ... فأنت إذا أمعنت النَّظر في قوله هذا ، ظننت أنَّه ينكر هذا الأثر ولا يعتقده ، ويلزمه ذلك ولا يتردَّد فيه ، ولكنك ستفاجأ بقوله (ص١٤٣) بعد أن أشار إلى هذا الأثر عقب ترجمة حرب الكرماني : وغضب العلماء لإنكار هذه المنقبة العظيمة التي انفرد بها سيِّد البشر ، ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلا بتوقيف ... " . ثمَّ ذكر أشخاصاً آخرين ممَّن سلَّموا بهذا الأثر غير من تقدَّم ، فإذا أنت فرغت من قراءة هذا ، قلت : لقد رجع الشَّيخ من إنكاره إلى التَّسليم به ، لأنَّه قال : أنَّه لا يقال إلا بتوقيف ! ولكن سرعان ما تراه يستدرك على ذلك بقوله بعد سطور : ولكن ثبت في " الصِّحاح " أنَّ المقام المحمود هو الشَّفاعة العامَّة الخاصَّة بنبيِّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

قلت : وهذا هو الحقُّ في تفسير المقام المحمود دون شكٍّ ولا ريب ، للأحاديث التي أشار إليها المصنِّف رحمه الله تعالى ، وهو الذي صحَّحه الإمام ابن جرير في " تفسيره (١٥/ ٩٩) ثمَّ القرطبي (١٠/ ٣٠٩) وهو الذي لم يذكر الحافظ ابن كثير غيره ، وساق الأحاديث المشار إليها . بل هو الثَّابت

عند مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير . وذاك الأثر عنه ليس له طريق معتبر ، فقد ذكر المؤلِّف (ص١٢٥) أنَّه روي عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ ، وعطاء بن السَّائب ، وأبي يحيىٰ القتَّات ، وجابر بن يزيد " . قلت : والأولان مختلطان ، والآخران ضعيفان ، بل الأخير متروكٌ متَّهم " . انظر : مقدمة مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٥-١٦) .

قلت : وفي كتابه : " السُّنَّة " أورد الخَلَّالُ (٣١١هـ) عشرات الرِّوايات حولَ هذه المسألة ، حمل بعضُها الإغلاظ علىٰ من أنكرها ، وحكمت بعض الرِّوايات بكفر من ردَّها وأنكرها ، بعد أن اعتبروها فضيلة للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مع أنَّها روايات باطلة مُنْكرة . انظر في هذه المسألة : السُّنَّة للخلال (١/ ٢١٢-٢٥٩) ...

وقال القاضي أبو يعلىٰ ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " وَذَكَرَ أَبُو عبد اللهَّ بْن بطَّة (٣٨٧هـ) فِي كتاب " الإبانة " ، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سليمان النِّجاد (٣٤٨هـ) : لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً : أنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ : يُقْعدُ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ : صدقت فِي قولك ، وبررت فِي يمينك ، وامرأتك عَلَىٰ حالها ، فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا !!! وعليه نشأنا !!! ونحن عَلَيْهِ إلىٰ أن نموت إن شاء اللهَّ !!! فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة الَّتِي قالتها العلماء وتلقُّوها بالقبول ، فمن ردَّها فهو من الفرق الهـالكة !!! ". انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٨٥) .

إذا عرفت ذلك فاعلم أنَّ لفظة الجلوس والقعود لم يرد إضافتهما إلىٰ الله تعالىٰ لا في القرآن ولا في السُّنَّة المطهَّرة ، وإنَّما جاءتا في الكتب التي اشتملت علىٰ الطَّامَّات العقديَّة والبدعيَّة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد أفضتُ في الكلام علىٰ ذلك في كتابي : " أَجْمَلُ الرُّدُوْدِ فِيْ إِعْلَامِ الجَحُوْدِ المَنْكُوْدِ بِحَقِيْقَةِ المَقَامِ المَحْمُوْد" ، فالحمد لله علىٰ توفيقه ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، ونعوذ بالله من الخذلان ...

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِالحَدَّ صِفَةً لله تَعَالَى

نقل ابن تيمية عن عثمان بن سعيد موافقاً ومقرّاً له : إثبات الحدِّ لله تعالى ، وأنَّ من لم يؤمن بذلك فقد كفر بتنزيل الله تعالى ، وجحد آيات الله تعالى ، وفي ذلك يقول : " باب الحدِّ والعرش : قال أبو سعيد : وادَّعى المعارض أيضاً : أنَّه ليس لله حدٌّ ، ولا غايةٌ ، ولا نهايةٌ .

قال : وهذا هو الأصل الذي بنى عليه جهم جميع ضلالاته !!! واشتقَّ منها جميع أغلوطاته ، وهي كلمة لم يبلغنا أنَّه سبق جهماً إليها أحد من العالمين ، فقال له قائل ممَّن يحاوره : قد علمت مرادك أيُّها الأعجمي ، تعني أنَّ الله لا شيء ، لأنَّ الخلق كلّهم قد علموا أنَّه ليس له شيء يقع عليه اسم الشَّيء إلَّا وله حدٌّ وغاية وصفة ، وأَّن (لا شيء) ليس له حدّ ولا غاية ولا صفة ، فالشَّيء أبداً موصوف لا محالة ، ولا شيء يوصف بلا حدٍّ ولا غاية ، وقولك : لا حدَّ له يعني أنَّه لا شيء .

قال أبو سعيد : والله تعالى له حدٌّ لا يعلمه أحد غيره ، ولا يجوز أن يتوهَّم لحدِّه غاية في نفسه ، ولكن نؤمن بالحدِّ ، ونكل علم ذلك إلى الله ، ولمكانه أيضاً حدٌّ ، وهو على عرشه فوق سمواته ، فهذان حدَّان اثنان .

وسئل عبد الله بن المبارك ، بم نعرف ربَّنا ؟ قال : بأنَّه على عرشه بائن من خلقه . قيل : بحدٍّ ؟ قال : بحدٍّ .

حدَّثناه الحسن بن الصَّباح البزَّار عن علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك .

فمن ادَّعى أنَّه ليس لله حدٌّ فقد ردَّ القرآن !! وادَّعى أنَّه لا شيء ، لأنَّ الله وصف حدَّ مكانه في مواضع كثيرة ، من كتابه ، فقال : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك: ١٦] ، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥] ، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾[النحل: ٥٠] ، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠] .

فهذا كلُّه وما أشبهه شواهـــــد ودلائل على الحدِّ ، ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله ، وجحد آيات الله " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥٦-٥٨) ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٦٨٦-٦٨٩) .

قلت : ونسبة الحدِّ إلى عبد الله بن المبارك افتراء عليه ، ولم يصح عنه ، وقد افتراه عليه غلاةُ الحنابلة الذي ساروا على مذهب القاضي أبي يعلى في التَّجسيم ...

وقال ابن تيمية : " قد دلَّ الكتاب والسُّنَّة على معنى ذلك !!! كما تقدَّم احتجاج الإمام أحمد لذلك بما في القرآن ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الله تعالى له حدٌّ يتميَّز به عن المخلوقات ، وأنَّ بينه وبين الخلق انفصالاً ومباينة " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٤٨) .

وقال ابن تيمية : " قال القاضي : " وإذا ثبت استواؤه ، وأنَّه في جهة ، وأنَّ ذلك من صفات الذَّات ، فهل يجوز إطلاق الحدِّ عليه ؟!!! قد أطلق أحمد القول بذلك في رواية المروذي ، فقد ذكر له قول ابن المبارك : " نعرف الله على العرش بحدٍّ " ، فقال أحمد : " بلغني ذلك وأعجبه " . وقال الأثرم : قلت لأحمد : يحكى عن ابن المبارك : " نعرف ربَّنا في السَّماء السَّابعة على عرشه بحدٍّ " ، فقال أحمد : " هكذا هو عندنا " . قال القاضي : " ورأيت بخطِّ أبي إسحاق : أنا أبو بكر أحمد بن نصر الرفاء ، سمعت أبا بكر بن أبي داود ، سمعت أبي يقول : جاء رجل إلى أحمد بن حنبل ، فقال له : لله تبارك وتعالى حدٌّ ؟ قال : " نعم لا يعلمه إلَّا هو ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[الزمر: ٧٥] ، يقول محدقين " .

قال : " فقد أطلق أحمد القول بإثبات الحدِّ ، وقد نفاه في رواية حنبل ، فقال : " نحن نؤمن بأنَّ الله على العرش ، كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدٍّ ، ولا صفة يبلغها واصف أو يحدُّه أحد . فقد نفى الحدَّ عن الصِّفة المذكورة ، وهو الحدُّ الذي يعلمه خلقه ، والموضع الذي أطلقه محمول على معنيين :

أحدهما : أنَّه تعالى في جهة مخصوصة ، وليس هو تعالى ذاهباً في الجهات ، بل خارج العالم ، متميِّز عن خلقه ، منفصل عنهم ، غير داخل في كلّ جهة . وهذا معنى قول أحمد : له حدٌّ لا يعلمه إلَّا هو .

والثَّاني : أنَّه علىٰ صفة يبيّن بها عن غيره ، ويتميَّز ، ولهذا سمِّي البواب حداداً ، لأنَّه يمنع غيره عن الدُّخول ، فهو تعالىٰ فرد واحد ، ممتنعٌ عن الاشتراك له في أخصِّ صفاته .

قال : وقد منعنا من إطلاق القـــول بالحدِّ في غير موضع من كتابنا ، ويجب أن يجوز علىٰ الوجه الذي ذكرناه .

فهذا رجوع منه إلىٰ القول بإثبات الحدِّ ، لكن اختلف في ذلك كلامه ، فقال هنا : ويجب أن يحمل علىٰ اختلاف كلام أحمد في إثبات الحدِّ علىٰ اختلاف حالين ، فالموضع الذي قال : أنَّه علىٰ العرش بحدٍّ معناه : ما حاذىٰ العرش من ذاته ، فهو حدٌّ له ، وجهة له . والموضع الذي قال : هو علىٰ العرش بغير حدٍّ ، معناه : ما عدا الجهة المحاذية للعرش ، وهي الفوق ، والخلف ، والإمام ، والميمنة ، والميسرة ، وكان الفرق بين جهة التَّحت المحاذية للعرش وبين غيرها ما ذكرنا أنَّ جهة التَّحت تحاذي العرش بما قد ثبت من الدَّليل ، والعرش محدود ، فجاز أن يُوصف ما حاذاه من الذَّات أنَّه حدٌّ وجهة ، وليس كذلك فيما عداه ، لأنَّه لا يحاذي ما هو محدود ، بل هو مارٌّ في الميمنة ، والميسرة ، والفوق ، والأمام ، والخلف إلىٰ غير غاية ، فلهذا لم يوصف واحد من ذلك بالحدِّ والجهة . وجهة العرش تحاذي ما قابله من جهة الذَّات ، ولم تحاذ جميع الذَّات ، لأنَّه لا نهاية لها " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٧٣٣-٧٣٦) .

وافترىٰ ابن تيمية علىٰ السَّلف ، والأئمَّة ، وأهل الحديث ، والكلام ، والفقه ، والتَّصوُّف ، فزعم أنَّهم يقولون بالحدِّ لله تعالىٰ ، وفي ذلك يقول : " قول السَّلف والأئمَّة ، وأهل الحديث ، والكلام ، والفقه ، والتَّصوُّف ، الذين يقولون : له حدٌّ لا يعلمه غيره " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣٠١) .

كما زعم ابن تيمية أنَّ المحفوظ عن السَّلف والأئمَّة إثبات الحدِّ لله ، فقال : " وهذا المحفوظ عن السَّلف والأئمَّة من إثبات حدٍّ لله في نفسه ، قد بيَّنوا مع ذلك أنَّ العباد لا يحدونه ولا يدركونه ، ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنُّه بعض النَّاس ، فإنَّهم نفوا أن يحدّ أحد الله ، كما ذكره حنبل عنه في كتاب السُّنَّة والمحنة ، وقد رواه الخلَّال في كتاب السُّنَّة : أخبرني عبيد الله بن حنبل ، حدَّثني

أبي حنبل بن إسحاق ، قال : قال عمِّي : نحن نؤمن بالله عزَّ وجلَّ علىٰ عرشه ، كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدٍّ ، ولا صفة يبلغها واصف أو يحدُّه أحد " .

ويستمرُّ ابن تيمية في الإفتراء ، فيزعم أنَّ كثيراً من أئمَّة السَّلف والحديث أو أكثرهم يقولون بالحدِّ لله تعالىٰ ، فيقول : " ثمَّ إنَّ كثيراً من أئمَّة السُّنَّة والحديث أو أكثرهم يقولون : أنَّه فوق سمواته علىٰ عرشه ، بائن من خلقه بحدٍّ ، ومنهم من لم يطلق لفظ الحدِّ ، وبعضهم أنكر الحدَّ " .

وقال ابن تيمية أيضاً : " وأمَّا سلف الأمَّة وأئمَّتها ومن اتَّبعهم ، فألفاظهم فيها أنَّه فوق العرش ، وفيها إثبات الصِّفات الخبريَّة التي يعبر هؤلاء المتكلِّمون عنها بأنَّها أبعاض ، وأنَّها تقتضي التَّركيب والانقسام ، وقد ثبت عن أئمَّة السَّلف أنَّهم قالوا : لله حدٌّ ، وأنَّ ذلك لا يعلمه غيره ، وأنَّه مباينٌ لخلقه ، وفي ذلك لأهل الحديث والسُّنَّة مصنَّفات... " .

وزعم ابن تيمية أنَّ كلمة المسلمين اتَّفقت علىٰ إثبات الحدِّ لله تعالىٰ ، وفي ذلك يقول : " وقد اتَّفقت الكلمة من المسلمين والكافرين !!! أنَّ الله في السَّماء !!! وحَدُّوهُ بذلك ، إلَّا المريسي الضَّال وأصحابه ، حتَّىٰ الصِّبيان ٍّ!!! الذين لم يبلغوا الحِنث قد عرفوه بذلك ، إذا حزب الصَّبيَّ شيءٌ يرفع يديه إلىٰ ربِّه تعالىٰ يدعوه في السَّماء دون ما سواها ، فكلُّ أحدٍ بالله تعالىٰ وبمكانه !!! أعلم من الجهميَّة " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٧٠٦) ، (٢/ ٥٢٧) ، (٣/ ٥٩١-٥٩٢) ، (٢/ ٦١١) بالترتيب .

وقال أيضاً : " وذلك لا ينافي ما تقدَّم من إثبات أنَّه في نفسه له حدٌّ يعلمه هو ، لا يعلمه غيره " .

انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢/ ٦٢٨) ، وانظر المزيد من أقوال ابن تيمية في اعتقاد الحدِّ لله تعالىٰ في كتابه : " بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية " : (١/ ١٥٢) ، (٢/ ٥٢٧) ، (٢/ ٦٠٧) ، (٢/ ٦١٦) ، (٢/ ٦٢٩) ، (٣/ ٢١) ، (٣/ ٢٣) ، (٣/ ٢٤) ، (٣/ ٢٥) ، (٣/ ٣٥) ، (٣/ ٤١) ، (٣/ ٤٣) ، (٣/ ٢٠٩) ، (٣/ ٦٨٦) ، (٣/ ٦٨٩) ، (٣/ ٦٩٧) ، (٣/ ٦٩٩) ، (٣/ ٧٢٨) ، (٣/ ٧٢٩) ، (٣/ ٧٣٣) ، (٣/ ٧٣٤) ، (٣/ ٧٣٥) ، (٣/ ٧٣٦) ، (٣/ ٧٣٧) ، (٣/ ٧٤١) ، (٥/ ١٨١-١٨٢) ، (٨/ ١٥٣) .

وقال ابن أبي العزّ : " ... فالحدُّ بهذا المعنىٰ لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً !!! فإنَّه ليس وراء نفيه إلّا نفي وجود الرَّبِّ ، ونفي حقيقته " . انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي (ص٢٤٠) .

وقام أشقاهم المدعو محمَّد محمود بن أبي القاسم الدّشتي بكتابة كتاب سمّاه : " إثباتُ الحدِّ لله وبأنَّه قاعدٌ وجالسٌ على العرش " .

وهم بذلك مخالفون لعقيدة ودين الأُمَّة التي نزَّهت الله تعالى عن الحدِّ والجسم ، فما قالوه في هذه المسألة وغيرها الكثير ... هو التَّجسيم بعينه وشينه ومينه !!!! قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٤٠هـ) : " مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ". انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٧٣) .

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِأَنَّ الله يَلْمَسُ وَيُلْمَس

لا يتردَّدُ المتسلِّفة في وصف الله تعالىٰ بأنَّه يَلْمس ويُلمس ، وهذه عقيدة تجسيميَّة بحتة ... مع أنَّ عقيدة الأمَّة قامت علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، قال الإمام ابن حزم في " الفصل في الملل والأهواء والنِّحل " (٢/ ١٢٤) : " ثمَّ إِنَّا ننفي عَن الْبَارِي تَعَالَىٰ جَمِيع صِفَات الْعَالم ، فَنَقُول : أَنه تَعَالَىٰ لَا يجهل أصلاً ، وَلَا يغْفل الْبَتَّة ، وَلَا يسهو ، وَلَا ينَام ، وَلَا يحسّ ، وَلَا يخفىٰ عَلَيْهِ متوهّم ، وَلَا يعجز عَن مسئول عَنهُ" .

كما قامت عقيدة أهل الحقّ علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن كلِّ ماني البشر ... قال الإمام الطَّحاوي في عقيدته : " وَمَنْ وَصَفَ اللهَّ بِمَعْنًىٰ مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ ، فَقَدْ كَفَرَ. مَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ. وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ. وَعَلِمَ أَنَّ اللهَّ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ".

ومع أنَّ المشابهة بين الله تعالىٰ وبين الخلق منفيَّة عنه تعالىٰ إلَّا أنَّ المتسلِّفة عاندوا جميع نصوص التَّنزيه ، كما عاندوا ما أجمعت عليه الأمَّة من تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة خلقه .... قال إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد الدَّارمي (٢٨٠هـ) : " وَلَوْ لَمْ يَكُنْ للهَّ تَعَالَىٰ يَدَانِ بِهِمَا خَلَقَ آدَمَ وَمَسَّهُ بِهِمَا مَسِيساً كَمَا ادَّعَيْتَ ، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَال : ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[آل عمران: ٢٦] ، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ٢٩] ، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[الملك: ١] ، لِلْمَذْهَبِ الَّذِي فَسَّرْنَا . فَإِنْ كُنْتَ لَا تُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ فَسَلْ مَنْ يُحْسِنُهَا ثمَّ تَكَلَّمْ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢٣٩) .

وجاء في كتاب السُّنَّة المنسوب لعبد الله بن أحمد بن حنبل : " قَرَأْتُ عَلَىٰ أَبِي ، نا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ لَمْ يَمَسَّ بِيَدِهِ شَيْئاً إِلَّا ثَلَاثاً : خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ ، وَغَرَسَ الْجَنَّةَ بِيَدِهِ ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ ". انظر : السنة (١/ ٢٩٦ برقم ٥٧٣) .

وجاء فيه أيضاً : " حَدَّثَنِي أَبِي رَحِمَهُ اللهَّ ، نا أَبُو الْمُغِيرَةِ ، حَدَّثَتْنَا عَبْدَةُ ، عَنْ أَبِيهَا ، خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ ، قَالَ : إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ لَمْ يَمَسَّ بِيَدِهِ إِلَّا آدَمَ صَلَوَاتُ اللهَّ عَلَيْهِ خَلَقَهِ بِيَدِهِ ، وَالْجَنَّةَ ، وَالتَّوْرَاةَ كَتَبَهَا بِيَدِهِ

، قَالَ : وَدَمْلَجَ اللهُ عزَّ وجلَّ لُؤْلُؤَةً بِيَدِهِ فَغَرَسَ فِيهَا قَضِيباً ، فَقَالَ : امْتَدِّي حتَّىٰ أَرْضِي ، وَأَخْرِجِي مَا فِيكِ بِإِذْنِي ، فَأَخْرَجَتِ الْأَنْهَارَ وَالثِّمَارَ " . انظر : السنة (١/ ٢٩٧ برقم ٥٧٤) .

وجاء فيه أيضاً : " حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ ، نا سُفْيَانُ ، عَنْ حُمَيْدٍ يَعْنِي الْأَعْرَجَ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[ص: ٢٥] ، قَالَ : يَقُولُ أُدْنُهُ أُدْنُهُ إِلىٰ مَوْضِعٍ اللهُ أَعْلَمُ بِهِ .

حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ ، نا وَكِيعٌ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، قَالَ : حتَّىٰ يَضَعَ بَعْضَهُ عَلَيْهِ !!! .

حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ ، نا ابْنُ إِدْرِيسَ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : حتَّىٰ يَأْخُذَ بِقَدَمِهِ !!! " . انظر : السنة (٢/ ٤٧٥ برقم ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧) .

وقال ابن تيمية الحرَّاني : " كونه فوق العرش ثبت بالشَّرع المتواتر وإجماع سلف الأُمَّة مع دلالة العقل ضرورة ونظراً أنَّه خارج العالم ، فلا يخلو مع ذلك : إمَّا أن يلزم أن يكون مماسَّاً أو مبايناً أو لا يلزم ، فإن لزم أحدهما كان ذلك لازماً للحقّ ، ولازمُ الحق حقٌّ ، وليس في مماسَّته للعرش ونحوه محذورٌ ، كما في مماسَّته لكلِّ مخلوق من النَّجاسات والشَّياطين وغير ذلك " . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٥/ ١٢٧) .

وقال أيضاً : " وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَصِفُونَهُ بِاللَّمْسِ ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ ، وَالشَّافِعِيِّ ، وَأَحْمَد ، وَغَيْرِهِمْ ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِالذَّوْقِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٣٦) .

وقال أيضاً : " وَقَالَ جُمْهُورُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ : نَصِفُهُ أَيْضاً بِإِدْرَاكِ اللَّمْسِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَمَالٌ لَا نَقْصَ فِيهِ . وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ ، بِخِلَافِ إِدْرَاكِ الذَّوْقِ ، فإنَّه مُسْتَلْزِمٌ لِلْأَكْلِ ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِلنَّقْصِ ،كَمَا تَقَدَّمَ . وَطَائِفَةٌ مِنْ نُظَّارِ الْمُثْبِتَةِ وَصَفُوهُ بِالْأَوْصَافِ الْخَمْسِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ ". انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٣٦) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٥/ ٧٦) .

وقال أيضاً : " ... والمنازع وأصحابه يعلمون صحَّة هذا الكلام ، لأنهم يقرُّون في مسألة الرُّؤية أنَّ كلّ موجود يجوز أن يُحس بالحواسِّ الخمس ، ويلتزمون علىٰ ذلك أنَّ الله يجوز أن يُحس به بالحواسِّ

الخمس : السَّمع ، والبصر ، والشَّمُّ ، والذَّوق ، واللمس ، وأنَّ مالا يُحسّ به بالحواسِّ الخمس لا يكون إلَّا معدوماً !!! فعامَّة السَّلف والصِّفاتيَّة علىٰ أنَّ الله يمكن أن يُشْهد ، ويُرىٰ ، ويُحسُّ به " .

وقال أيضاً : " فإن أهل السُّنَّة والجماعة المقرين بأنَّ الله تعالىٰ يُرىٰ متَّفقين علىٰ أنَّ ما لا يُمكن معرفته بشيء من الحواسِّ ، فإنَّما يكون معدوماً لا موجوداً " .

وعقيدتهم في أنَّ الله تعالىٰ يمسُّ ويُمسُّ هي التَّجسيم بعينه وشينه ومينه ... وقد رددتُ عليهم ضمن سلسلة الرُّدود عليهم ، بحمد الله ...

الفَصْلُ الثَّالِثُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادُهُم بِالقُرْبِ المَادِّيِّ صِفَةً لله تَعَالَى

من المعلوم أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة يعتقدون بالقرب المادي لله تعالى ، وهي عقيدة تجسيميَّة بحتة ... فقد زعم إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني ، فقال : " فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ الْمُدَّعِي مَا لَا عِلْمَ لَهُ : مَنْ أَنْبَأَكَ أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ لَيْسَ بِأَقْرَبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ أَسْفَلِهِ ؟؛ لأَنَّه مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ أَقْرَبُ إِلَى اللهِ مِنْ أَسْفَلِهِ ، وَأَنَّ السَّماء السَّابِعَةَ أَقْرَبُ إِلَى عَرْشِ اللهِ تَعَالَى مِنَ السَّادِسَةِ ، وَالسَّادِسَةَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَامِسَةِ ، ثمَّ كَذَلِكَ إِلَى الْأَرْضِ . كَذَلِكَ رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّه قَالَ : " رَأْسُ الْمَنَارَةِ أَقْرَبُ إِلَى اللهِ مِنْ أَسْفَلِهِ وَصَدَقَ ابْنُ الْمُبَارَكِ ؛ لِأَنَّ كلّ مَا كَانَ إِلَى السَّماء أَقْرَبُ كَانَ إِلَى اللهِ أَقْرَبَ . وَقُرْبُ اللهِ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ أَقْصَاهُم وأدناهم وَاحِد لَا يَبْعُدُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ . وَبَعْضُ الْخَلْقِ أَقْرَبُ مِنْ بَعْضٍ عَلَى نَحْوِ مَا فَسَّرْنَا مِنْ أَمْرِ السَّموات وَالْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ قُرْبُ الْمَلَائِكَةِ مِنَ اللهِ ، فَحَمَلَةُ الْعَرْشِ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ فِي السَّموات ، وَالْعَرْشُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ ... ". انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٥٠٤) .

وأكَّد ابن تيمية على القُرب والبُعد المكانيِّ لله تعالى ، فقال : " الثَّالِثُ : قَوْلُ : " أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ " الَّذِينَ يُثْبِتُونَ أَنَّ اللهَ عَلَى الْعَرْشِ ، وَأَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِمَّنْ دُونَهُمْ ، وَأَنَّ مَلَائِكَةَ السَّماء الْعُلْيَا أَقْرَبُ إِلَى اللهِ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّماء الثَّانِيَةِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّماء صَارَ يَزْدَادُ قُرْباً إِلَى رَبِّهِ بِعُرُوجِهِ وَصُعُودِهِ ، وَكَانَ عُرُوجُهُ إِلَى اللهِ لَا إِلَى مُجَرَّدِ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنَّ رُوحَ الْمُصَلِّي تَقْرُبُ إِلَى اللهِ فِي السُّجُودِ ، وَإِنْ كَانَ بَدَنُهُ مُتَوَاضِعاً . وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ ... " . انظر : مجموع الفتاوى (٦/ ٧) .

وزعم ابن تيمية أنَّ القول المعروف عن السَّلف ، والأشعري ، والكلابيَّة هو أنَّ الله تعالى يقرِّبُ العباد إلى ذاته تعالى ، وأنّه استوى على العرش بذاته ، فقال : " وَالَّذِينَ يُثْبِتُونَ تَقْرِيبَهُ الْعِبَادَ إِلَى ذَاتِهِ

هُوَ الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ لِلسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكُلَّابِيَة ؛ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ قُرْبَ الْعِبَادِ إِلَى ذَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ يُثْبِتُونَ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِذَاتِهِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ : الِاسْتِوَاءُ فِعْلٌ فَعَلَهُ فِي الْعَرْشِ فَصَارَ مُسْتَوِياً عَلَى الْعَرْشِ.

وَهَذَا أَيْضاً قَوْلُ ابْنِ عَقِيلٍ ، وَابْنِ الزَّاغُونِي ، وَطَوَائِفَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد ، وَغَيْرِهِمْ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٦٦) ، شرح حديث النزول (ص١٠٥) .

وقال إمامهم ابن أبي العزّ الحنفي (٧٩٢هـ) : " فَكَيْفَ يَسْتَبْعِدُ الْعَقْلُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّه يَدْنُو سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ ؟ أَوْ يُدْنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ؟ فَمَنْ نَفَى ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ الْمَشْهُورِ ، الَّذِي رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى : " فَقَالَ لَهُ أَبُو رَزِينٍ : كَيْفَ يَسَعُنَا - يَا رَسُولَ اللهِ - وَهُوَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ جَمِيعٌ ؟ فَقَالَ : سَأُنْبِئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللهِ: هَذَا الْقَمَرُ ، آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِياً بِهِ ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ " ، وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّه أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كلّ شَيْءٍ . فَهَذَا يُزِيلُ كلّ إِشْكَالٍ ، وَيُبْطِلُ كلّ خَيَالٍ " . انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي (ص٢٦٠) ، وانظر : مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٩١) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهِم بِالنُّزُوْلِ وَالهَرْوَلَةِ بِمَعْنَى النُّقْلَةَ وَالحَرَكَةَ صِفَةً للهِ تَعَالَى

إنَّ النَّاظر في كتب أهل العلم يجد أنَّ كَلِمَتَهُم قد اجتمعت على وجوب تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ولوازمها من الحركة ، والنُّقلة ، والجلوس ، والجهة ، وسائر سمات ولوازم المحدثات ، وكذا اجتمعت كَلِمَتُهُم على وجوب تنزيهه سبحانه وتعالى عن النَّقائص وعن كلّ ما يتعارض مع كماله المطلق سبحانه وتعالى ، ولذلك منعوا من إجراء الألفاظ المتشابهة على ظاهر معناها ...

ومن المعلوم يقيناً أنَّ جمهور السَّلف قال بوجوب إمرارها على ظاهر لفظها لا ظاهر معناها مع الإيمان بأنَّها حقّ على ما يليق به سبحانه ، وأنَّ ظاهرها المتعارف عليه في حقِّنا غير مراد ، ومنعوا من تأويلها مع التَّأكيد على وجوب تنزيهه تعالى عن الحركة والنُّقلة والانتقال وسائر صفات ولوازم المحدثات ، بينما ذهب جمهور الخلف إلى تأويلها بما يتوافق مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث ، وذلك لأمور استجدَّت لم تكن في زمان السَّلف ، ومن تلك الألفاظ : النُّزول ، والمجيء ، والإتيان ، والهرولة ... فلا يجوز أن تُحمل هذه الألفاظ على ظاهر معناها ... وهاأنذا مورد بعضاً من أقوال السَّلف والخلف في هذا الباب :

قَالَ الإمام الخلَّال : أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ، أَنَّ حَنْبَلاً حَدَّثَهُمْ ، قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهَّ (يقصد أحمد بن حنبل) عَنِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُرْوَى : " أَنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا " ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهَّ : نُؤْمِنُ بِهَا ، وَنُصَدِّقُ بِهَا ، **وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى** ، وَلَا نَرُدُّ مِنْهَا شَيْئاً ، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسول حَقٌّ إِذَا كَانَتْ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ ، وَلَا نَرُدُّ عَلَى اللهَّ قَوْلَهُ ، وَلَا نَصِفُ اللهَّ بِأَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، بِلَا حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى : ١١] . انظر : مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص٤٦٩) .

قُلْتُ : وقد خالف ابن القيِّم هذه القواعد ، ولم يلتزمها في كتبه كـ " الصَّواعق " ، و " اجتماع الجيوش " ، و " البدائع " ، وغيرها ... وكلام أحمد هذا يصوِّر بحقٍّ عقيدة جمهور السَّلف الصَّالح في مسألة النُّزول وغيرها من المسائل المتعلِّقة بالمتشابه ، وقد نقلها ابن تيمية في غير ما كتاب من كتبه

من غير نكير . انظر مثلاً : الفتاوى الكبرى (٦/ ٣٨٧) ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢/ ٦٢٣) ، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣١) .

قلتُ : وهذا أمرٌ لم يَرُق للقائمين على المكتبة الشَّاملة ، لذا قاموا بشطب الفقرة السَّابقة من كتاب " السُّنَّة " للخلَّال ، الموجود ضمن المكتبة الشَّاملة ، الإصدار السَّادس ، كما وضعوا مكان قوله : (**وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى**) مجموعة من النِّقاط (...) في كتاب " اجتماع الجيوش الإسلاميَّة " لابن القيِّم ، تحقيق : عواد عبد الله المعتق ، نشر : مطابع الفرزدق التِّجاريَّة ، الرِّياض ، (الطبعة : الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م) ، المكتبة الشَّاملة ، الإصدار السَّادس ، وهذه إحدى صور عبثهم بكتب أهل العلم ، وهو مندرجٌ تحت : عدم الأمانة العلميَّة ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ....

وقال الإمام التِّرمذي : " وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي هَذَا الحَدِيثِ – حديث النُّزول – وَمَا يُشْبِهُ : هَذَا مِنَ الرِّوَايَاتِ مِنَ الصِّفات : وَنُزُولِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلّ لَيْلَةٍ إلى السَّماء الدُّنيا ، قَالُوا : قَدْ تَثْبُتُ الرِّوَايَاتُ فِي هَذَا **وَيُؤْمَنُ بِهَا** ، **وَلاَ يُتَوَهَّمُ** ، وَلاَ يُقَالُ : كَيْفَ ؟ هَكَذَا رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ ، وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ، وَعَبْدِ الله بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهم قَالُوا فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ : أَمِرُّوهَا بِلاَ كَيْفٍ ، وَهَكَذَا قَوْلُ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة وَالجَماعَةِ " . انظر : سنن الترمذي (٢/ ٤٢-٤٣) .

فالإمام التِّرمذي السَّلفي يذهب إلى وجوب الإيمان والتَّسليم مع التَّفويض المطلق في هذه المسألة ، فلا يُقال : كيف ، ولا تتوهَّم !!! ، " والتَّوهُّم : من قبيل التَّجويز ، والتَّجويز يُنَافِي الْعلم ، وَقَالَ بَعضهم : التَّوَهُّم يجْرِي مجْرى الظُّنون " . انظر : الفروق اللغوية (ص٩٨) .

فالتَّوهُّم ، والكيْفُ عليه سبحانه وتعالى غير معقول ، وهذا هو معتقد أهل العلم من أهل الكتاب والسُّنَّة ...

وقال الإمام السَّلفي عَلِيُّ بنُ إِسْمَاعِيْلَ بن إِسْحَاقَ العَلاَّمَةُ ، إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِين ، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ إِسْمَاعِيْلَ بنِ أَبِي بِشْرٍ إِسْحَاقَ بنِ سَالِمِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ بنِ عَبْدِ الله بنِ مُوْسَى ابنِ أَمِيْرِ البَصْرَةِ بِلاَلِ بنِ أَبِي بُرْدَةَ ابنِ صَاحِب رَسُوْل الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَبِي مُوْسَى عَبْدِ الله بنِ قَيْس بن حَضَّارٍ الأَشْعَرِيُّ ، اليَمَانِيُّ ، البَصْرِيُّ (٣٢٤هـ) : " ... فأمَّا الحركة والسُّكون والكلام فيهما ، فأصلهما موجود

في القرءان ، وهما يدلَّان علىٰ التَّوحيد ، وكذلك الاجتماع والافتراق ، قال الله تعالىٰ مُخبراً عن خليله إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾[الأنعام : ٧٦] ، في قصَّة أُفول الكوكب والشَّمس والقمر ، وتحريكها من مكان إلىٰ مكان ما دلَّ علىٰ أنَّ ربَّه عزَّ وجلَّ لا يجوز عليه شيء من ذلك ، وأنَّ من جاز عليه الأفول والانتقال من مكان إلىٰ مكان فليس بإله ". انظر : استحسان الخوض في علم الكلام (ص٤٥) .

فالإمام الأشعري السَّلفي ، ينفي عن الله تعالىٰ الحركة والانتقال والأُفول ، لأنَّها أعراضٌ لا تقومُ إلَّا بجواهرَ وأجسام ، والله تعالىٰ يتنزَّه عن ذلك ، فمن جاز عليه الأُفول والانتقال من مكان إلىٰ مكان فليس بإله ، ومع أنَّ جمهور أهل العلم يقولون بامتناع الحركة والنُّقلة علىٰ الله تعالىٰ ، إلَّا أنَّ الإمام ابن تيمية قلب لكلامهم ظَهْرَ المِجَنِّ ، وأبىٰ إلَّا تفسير النُّزول بحسب ظاهر المعنىٰ ، وأنَّ الله تعالىٰ ينزل بذاته إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، وافترىٰ علىٰ جمهور أهل الكتاب السُّنَّة ، فزعم بأنَّهم يقولون : أنَّ الله تعالىٰ ينزل من مكانه ، ولا يخلو منه العرش ، قال : " ثمَّ إِنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّة !! يَقُولُونَ : أنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ !! كَمَا نُقِلَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ (٢٣٨هـ) ، وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ (١٧٩هـ) ، وَغَيْرِهِمَا ، وَنَقَلُوهُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ (٢٤١هـ) فِي رِسَالَتِهِ إِلىٰ مُسَدَّدٍ (٢٢٨هـ) . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٦٣٨-٦٣٩) .

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَىٰ مَنْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ، وَإِنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ فِي هَذَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ (٦٠٠هـ) وَغَيْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . وَقَدْ صَنَّفَ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ منده (٤٧٠هـ) مُصَنَّفاً فِي الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنَ الْعَرْشِ أَوْ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ - كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ كَلَامِهِ - . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ يَقُولَ يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو . وَجُمْهُورُهُمْ عَلَىٰ أَنَّه لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤١٤) .

قلت : وأين ما ادَّعاه ابن تيمية علىٰ الإمام ابن منده ، وهو القائل : " ... وَأَنَا متمسِّكٌ بِالكِتَابِ والسُّنَّة ، مُتَبَرِّئٌ إلىٰ الله مِنَ الشِّبْه وَالمِثْلِ وَالنِّدِّ وَالضِّدِّ وَالأَعضَاء وَالجِسْم وَالآلَات ، وَمِنْ كلّ مَا

يَنسُبه النَّاسبُوْنَ إِلَيَّ !!! وَيَدَّعيه المدعُوْنَ عليَّ مِنْ أَنْ أَقُوْلَ فِي الله – تَعَالَىٰ – شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ قُلته ، أَوْ أَرَاهُ ، أَوْ أَتَوَهَّمُه ، أَوْ أَصفه بِهِ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٥١) .

فإذا ثبت أَنَّه قال ما نسبه له ابن تيمية ، فهو متناقض مع نفسه ، وكم في كلامهم من التَّناقض والتَّباين ...

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " ثمَّ إِنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّة !! يَقُولُونَ : أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٦٣٨) .

وهنا ينسب ابن تيمية ما قاله لجمهور السَّلف ، مع أنَّ السَّلف لم يتكلَّم أحد منهم بما نَسبه ابنُ تيمية لجمهورهم ، فهذا كذبٌ ...!!! ثمَّ إنَّ ابن تيمية لم يستند في كلامه على أيِّ حديث صحيح ، بل هو مجرَّد أقوال لعلماء ، ومتى كان الدِّين يُبنى على أقوال العلماء التي لا تستند في وجودها وصحَّتها لكتاب ولا سنَّة ؟!!!

فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

وقال الإمام ابن تيمية ما هو أعظم من قوله السَّابق ، فقد قال : " فمن أين في القرآن ما يدلُّ دلالة ظاهرة على أنَّ كلّ متحرِّك مُحدَث أو مُمكن ؟! وأنَّ الحركة لا تقوم إلَّا بحادث أو ممكن ؟ وأنَّ ما قامت به الحوادث لم يخل منها ؟!! وأنَّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؟!! وأين في القرآن امتناع حوادث لا أوَّل لها ؟! " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ١١٨) .

وبسبب جرأة من يزعمون ويدَّعون السَّلفيَّة في إظهار باطلهم ، فقد اضطرَّ العديد من علماء الأمَّة إلى أن يكتبوا محاضر في العقائد الصَّحيحة ، حرصاً منهم على التَّصحيح والتَّصويب ، ونشر الحقِّ بين الأمَّة وخاصَّة في أمور العقيدة ، ومن ذلك المحضر الذي كتبه جماعة من أئمَّة الشَّافعيَّة ، منهم : الشَّيخ أبو إسحاق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، والإمام أبو بكر الشَّاشي (٥٠٧هـ) ، وغيرهما ، وهذا نصُّه :

بِسم اللهَّ الرَّحمن الرَّحيم : يشْهد من ثَبت اسْمه وَنسبه ، وَصَحَّ نهجه ومذهبه ، واختبر دينه وأمانته ، من الْأَئِمَّة الْفُقَهَاء ، والأماثل الْعلمَاء ، وَأهل الْقُرْآن والمعدلين الْأَعْيَان ، وَكَتَبُوا خطوطهم الْمَعْرُوفَة ، بعباراتهم المألوفة ، مسارعين إلى أَدَاء الْأَمَانَة ، وتوخَّوا فِي ذَلِك مَا تحظره الدّيانَة ، مَخَافَة قَوْله تَعَالَى

: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، إِنَّ جماعة من الحشويَّة والأوباش الرّعاع ، المتوسِّمين بالحنبليَّة ، أظهرُوا بِبَغْدَادَ من الْبدع الفظيعة والمخازي الشَّنيعة ، مالم يتسمح بِهِ ملحد فضلاً عَن موحد ، وَلَا تجوز بِهِ قَادِح فِي أصل الشَّرِيعَة ، وَلَا معطِّل ، ونسبوا كلّ من ينزِّه الْبَارِي تَعَالَىٰ وَجلَّ عَن النَّقَائص والآفات ، وينفي عَنهُ الْحُدُوث والتَّشبيهات ، ويقدِّسه عَن الْحُلُول والزّوال ، ويعظمه عَن التَّغَيُّر من حَال إِلىٰ حَال ، وَعَن حُلُوله فِي الْحَوَادِث ، وحدوث الْحَوَادِث فِيهِ ، إِلىٰ الْكفْر والطغيان ، ومنَافاة أهل الْحقّ وَالْإِيمَان ، وتنَاهوا فِي قذف الْأَئِمَّة الماضين ، وثلب أهل الْحق وعصابة الدِّين ، ولعنهم فِي الْجَوَامِع والمشاهد والمحافل والمساجد والأسواق والطُّرقات وَالْخلْوَة وَالْجَمَاعَات ، ثمَّ غرَّهم الطَّمع والإهمال ، ومدَّهم فِي طغيانهم الغيُّ والضَّلال ، إِلىٰ الطَّعْن فِيمَن يعتضد بِهِ أَئِمَّة الْهدىٰ ، وَهُوَ للشَّريعة العروة الوثقىٰ ، وَجعلُوا أَفعاله الدِّينِيَّة معاصي دنيَّة ، وترقّوا من ذَلِك إِلىٰ الْقدح فِي الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رَحْمَة الله عَلَيْهِ وَأَصْحَابه ، وَاتفقَ عود الشَّيخ الإِمَام الأوحد أَبِي نصر ابْن الْأُسْتَاذ الإِمَام زين الْإِسْلَام أبي الْقَاسِم الْقشيرِي (٤١٨هـ) رَحْمَة اللهَّ عَلَيْهِ من مَكَّة حرسها اللهَّ ، فَدَعَا النَّاس إِلىٰ التَّوحيد ، وَقدَّس الْباري عَن الْحَوَادِث والتَّحديد ، فَاسْتَجَاب لَهُ أهل التَّحْقِيق ، من الصُّدُور الْفَاضِل السَّادة الأماثل ، وتمادت الحشويَّة فِي ضلالتها ، والإصرار علىٰ جهالتها ، وَأَبُو إِلَّا التَّصْرِيح بِأَنَّ المعبود ذُو قدم وأضراس ، ولهوات وأنَامل ، وَأَنَّه ينزل بِذَاتِهِ ، ويتردَّد علىٰ حمَار فِي صُورَة شَاب أَمْرَد ، بِشعر قطط ، وَعَلِيهِ تَاج يلمع ، وَفِي رجلَيْهِ نَعْلَانِ من ذهب ، وَحفظ ذَلِك عَنْهُم ، وعلَّلوه ودوَّنوه فِي كتبهمْ ، وَإِلَىٰ الْعَوام ألقوه ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَار لَا تَأْوِيل لَهَا ، وأنَّها تجرىٰ علىٰ ظواهرها ، وتعتقد كَمَا ورد لَفظهَا ، وأنَّه تَعَالَىٰ يتكَلَّم بِصَوْت كالرَّعد ، كصهيل الْخَيل ، وينقمون علىٰ أهل الْحق ، لقَولهم : إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ مَوْصُوف بِصِفَات الْجَلَال ... " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣١٠-٣١١) .

قلت : سبحان الله ... أحداثُ التَّاريخ تعود كما حدثت في السَّابق ... فأعمال هذه الشِّرذمة القليلة هي هي علىٰ مدار التَّاريخ ، فما وجدوا في زمن إلَّا أفسدوه ، ولا دخلوا بلداً إلَّا جعلوا أهله شيعاً وأحزاباً ، يلعنُ بعضُهم بعضاً ، ويسبُّ بعضُهم بعضاً ، ويكفِّرُ بعضُهم بعضاً ، وإلَّا قل لي بربِّك :

ماذا أفادت هذه الشِّرذمة أُمَّة الإسلام مُذ وجدت ، ألسنا في كلّ يوم نرجع القهقرىٰ إلىٰ الورىٰ ، فبعد أن كنَّا نناطح السَّحاب شموخاً وعزَّة ، أصبحنا يُضرب بنا المثل في الخنوع والخضوع ، وصرنا في وضع لا نُحسد عليه ... لقد أنهكوا أهل العلم بالرَّدِّ علىٰ ترَّهاتهم وخزعبلاتهم ، بدلاً من أن تُوجَّه جُهودهم لنصرة الإسلام والرَّدِّ علىٰ كلّ من يكيد للإسلام من خارج أبناء الأمَّة ، ولكن أبىٰ هؤلاء إلَّا أن يُوقفوا المسيرة ، وهذا هو دَوْرُهم المرسُوم لهم... ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم .

ولأجل نصرة ما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة ، جيَّشوا جيوشهم ، وجاءوا بقضِّهم وقضيضهم ، ففتَّشوا ، ونقَّبوا ، وبحثوا في كلّ صعيد ، فجمعوا كلّ ما يتعلق بمسألة النُّزول ، من روايات صحيحة وتالفة وشاذَّة وباطلة ومنكرة ... لنصرة مذهبهم ، فقد ذكر إمامهم حافظ حكمي (١٣٧٧هـ) العديد العديد من الرِّوايات التي تُضحك الثَّكلىٰ ، مع زعمه بصحَّتها ، – مع أنَّ الكثير منها روايات وأحاديث تالفة ، كما قال محقِّق الكتاب السَّلفي !!! – ، ومن تلك الرِّوايات : " ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، وَلَهُ فِي كلّ سَماءٍ كُرْسِيٌّ !! فَإِذَا نَزَلَ إلىٰ سَماءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ثمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ ، فَيَقُولُ : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " ، رَوَاهُ ابْنُ مَنْدَهْ ، قَالَ : وَلَهُ أَصْلٌ مُرْسَلٌ .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " يَنْزِلُ الله إلىٰ سَماءِ الدُّنيا كلّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ كلّ لَيْلَةٍ إلىٰ سَماءِ الدُّنيا لِثُلُثِ اللَّيْلِ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَوْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، أَلَا مَظْلُومٌ يَسْتَنْصِرُنِي فَأَنْصُرَهُ ، أَلَا عَانٍ يَدْعُونِي فَأَفُكَّ عَنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَكَانَهُ حتَّىٰ يَفِيءَ الْفَجْرُ ثمَّ يَعْلُو رَبُّنَا عزَّ وجلَّ إلىٰ السَّماء الْعُلْيَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ نَزَلَ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، فَقَالَ : مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَرِجَالُهُ أَئِمَّةٌ ، وَرَوَاهُ أَبُو مُعَاوِيَةَ بِلَفْظِ : " إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّماء ثمَّ يَهْبِطُ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا ثمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ حتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " .

وَعَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا مَضَىٰ نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثُ اللَّيْلِ نَزَلَ الله إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا ، فَقَالَ : لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حتَّىٰ يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا كلّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ . وَأَنَّ دَاوُدَ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : لَا يُسْأَلُ الله شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَاحِراً أَوْ عَشَّاراً " . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِنَحْوِهِ . وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِينَ مِنَ اللَّيْلِ ، يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الْأُولَىٰ مِنْهُنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، ثمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ ، لَا يَكُونُ مَعَهُ فِيهَا إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَرَ أَحَدٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ، ثمَّ يَهْبِطُ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، يَقُولُ : أَلَا مُسْتَغْفِرٌ فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا سَائِلٌ فَأُعْطِيَهُ ، أَلَا دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ " . رَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ .

وَرَوَىٰ مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله كلّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَلَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَقْبَلَهُ ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ إِلىٰ مَطْلِعِ الصُّبْحِ وَيَعْلُو عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . وَعَنْ أَبِي الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنّه قَالَ : وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوِتْرِ :

أُحِبُّ أُوتِرُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَ يَهْبِطُ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ إلى السَّماء الدُّنيا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ، هَلْ مِنْ دَاعٍ ، حتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ ارْتَفَعَ " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٩٥-٢٩٧) ...

وقد دفعت أمثال هذه الرِّوايات الحنابلة إلى الغلوِّ والتَّعصُّب في مسألة النُّزول ، حتَّى وقعوا في التَّجسيم البحت ... قال الإمام أبو محمَّد عفيف الدِّين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (٧٦٨هـ) في كتابه الطيِّب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبَه والردِّ على المعتزلة : " ومتأخِّرو الحنابلة غلوا في دينهم غلوّاً فاحشاً ، وتسفَّهوا سفهاً عظيماً ، وجسَّموا تجسيماً قبيحاً ، وشبّهوا الله بخلقه تشبيهاً شنيعاً ، وجعلوا له من عباده أمثالاً كثيرة ؛ حتَّى قال أبوبكر ابن العربي في (العواصم) : " أخبرني من أثق به من مشيختي ، أنَّ القاضي أبا يعلى الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظَّواهر في صفاته تعالى : ألزموني ما شئتم فإنِّي ألتزمه إلَّا اللحية والعورة !!!

قال أئمَّة بعض أهــل الحقّ : وهـذا كفرٌ قبيحٌ ، واستهزاء بالله تعالى شنيع ، وقائله جاهل به تعالى ، لا يُقتدىٰ به ولا يُلتفت إليه ، ولا هو متَّبع لإمامه الذي ينتسب إليـه ويتستَّر به ؛ بل هـو شريك للمشركين في عبادة الأصنام ؛ فإنَّه ما عبَد الله ولا عرفه ، وإنَّما صوَّر صنماً في نفسه ، فتعالى الله عمَّا يقول الملحدون والجاحدون علواً كبيراً " . ومثل ما نقله ابن العربي عن أبي يعلى هذا ، منقول في كتب الملل والنِّحل عن داود الجواربي ، تعالى الله عن ذلـك .

ثمَّ قال اليافعي : " ولقد أحسن ابن الجوزي من الحنابلة حيث صنَّف كتاباً في الرَّدِّ عليهم ، ونقل عنهم أنَّهم أثبتوا لله صورة كصورة الآدمي في أبعاضها .

وقال في كتابه : " دفع شُبه التَّشبيه " : " هؤلاء قد كَسَوا هذا المذهب شيناً قبيحاً حتَّى صار لا يُقال عن حنبلي إلَّا مجسِّم ، قال : وهؤلاء متلاعبون !!! وما عرفوا الله ولا عندهم من الإسلام خبر ولا يحدِّثون ، فإنَّهم يكابرون العقول ، وكأنَّهم يحدِّثون الصِّبيان والأطفال ، قال : وكلامهم صريحٌ في التَّشبيه ، وقد تبعهم خلقٌ من العوام !!! وفضحوا التَّابع والمتبوع " . انظر : السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل (ص١٣٠-١٣١) .

قلتُ : ومن المؤسف حقّاً أن يقوم القائمون علىٰ المكتبة الشّاملة / الإصدار السّادس ، بشطب هذه الفقرة من كتاب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبه والردّ علىٰ المعتزلة " ، وهذه خيانة من خياناتهم ، حتّىٰ أنّني أجزم أنَّ من أهم الأسباب التي دعتهم لإصدار المكتبة الشّاملة : العبث بكتب أهل العلم ، كي توافق هواهم وعقائدهم ، ولكن هيهات ، فإنَّ للحقِّ رجال ، يأبىٰ الله تعالىٰ إلّا أن يسخِّرهم ويستخدمهم لكشف مخازي القوم وسقطهم وخياناتهم علىٰ مدىٰ الزّمان ...

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَالله تَعَالَىٰ لم يزل وَلَا يزَال ، بِلَا تغيُّر وَلَا زَوَال ، وَلَا انْتِقَال من حَال إِلَىٰ حَال ، وَلَا تحرُّك وَلَا قَرار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهن أَحْدَاث فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث ، وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ثمَّ الْقدَم ثمَّ جرىٰ لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيُّرها مَا دَامَت ذَاته ، فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغيُّر الْأَحْوَال عَلَيْهِ وبنقله من حَال إِلَىٰ حَال ، وَذَلِك دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان " . انظر : التَّوحيد (ص١٠٥) .

فالإمام الماتريدي السّلفي ينزِّه الله تعالىٰ عن كلّ ما من شأنه أن يؤدِّي إلىٰ اختلاف الأحوال التي منها : التَّغيُّر والزَّوال ، والحركة والانتقال ، لأنّها تتعارض مع صفات الله التي لا يطالها تغيير ولا تبديل ، لأنَّ التَّغيُّر والتَّبدُّل من علامات الحدث ، والله تعالىٰ أزليٌّ أبديٌّ لا يزول ولا يحول ... جلَّ عن الشَّبيه والمثيل والنِّد والكفء والنَّظير ...

وقال الإِمَامُ ابنُ حِبَّانَ (٣٥٤هـ) : " قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ : صِفَاتُ اللهَّ جَلَّ وَعَلَا لَا تُكَيَّفُ ، وَلَا تُقَاسُ إِلَىٰ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَكَمَا أَنَّ اللهَّ جَلَّ وَعَلَا مُتَكَلِّمٌ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ بِأَسْنَانٍ ، وَلَهَوَاتٍ وَلِسَانٍ ، وَشَفَةٍ كَالْمَخْلُوقِينَ ، جَلَّ رَبُّنَا وَتَعَالَىٰ عَنْ مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَاسَ كَلَامُهُ إِلَىٰ كَلَامِنَا ، لِأَنَّ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ لَا يُوجَدُ إِلَّا بِآلَاتٍ ، وَاللهُّ جَلَّ وَعَلَا يَتَكَلَّمُ كَمَا شَاءَ بِلَا آلَةٍ ، كَذَلِكَ يَنْزِلُ بِلَا آلَةٍ ، وَلَا تَحَرُّكٍ ، وَلَا انْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، وَكَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ ، فَكَمَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ : الله يُبْصِرُ كَبَصَرِنَا بِالْأَشْفَارِ وَالْحَدَقِ وَالْبَيَاضِ ، بَلْ يُبْصِرُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا آلَةٍ ، وَيَسْمَعُ مِنْ غَيْرِ أُذُنَيْنِ ، وَسِمَاخَيْنِ ، وَالْتِوَاءٍ ، وَغَضَارِيفَ فِيهَا ، بَلْ يَسْمَعُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا آلَةٍ ، وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا

آلَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَاسَ نُزُولُهُ إِلىٰ نُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ ، كَمَا يُكَيَّفُ نُزُولُهُمْ ، جَلَّ رَبُّنَا وَتَقَدَّسَ مِنْ أَنْ تُشَبَّهَ صِفَاتُهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ " . انظر : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٣/ ١٩٩)

فابن حبَّان يؤمن بالنُّزول ، وأنَّ نزوله تعالىٰ ليس كنزول خلقة ، فنزولنا لا يكون إلَّا بجسم ينتقل من مكان إلىٰ مكان ، ولما كان الله تعالىٰ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ: ١١] ، فمن الغباوة أن يُقاس نزوله بنزولنا ، فنزوله تعالىٰ لا يكيَّف ، وصفاته سبحانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ تعالىٰ عن النَّظير ، والمثيل ، والشَّبيه ، والنِّد ، والكفء ... وهذا أمر لا يُعجب من يدَّعون السَّلفيَّة ، فقد قال أئمَّتهم وصرَّحوا بأنَّ نزول الله تعالىٰ نزول حقيقي من علو إلىٰ سفلٍ ... ، قال إمامهم صدر الدِّين محمَّد بن علاء الدِّين عليّ بن محمَّد ابن أبي العزّ الحنفي ، الأذرعي الصَّالحي الدِّمشقي (٧٩٢هـ) : " ... التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كلّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا ، والنُّزول الْمَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلىٰ سُفْلٍ " . انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٨٦) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) : " وأجمع السَّلف علىٰ ثبوت النُّزول لله ، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، وهو نزول حقيقي يليق بالله " . انظر : تعليق مختصر علىٰ كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد (ص٥٨) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين أيضاً : " ... فهذا ليس عند الإنسان شَكٌّ في أنَّه نزول حقيقي ". انظر : شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) (ص٣٠٩) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين أيضاً : " ... كذلك النُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا حينما يبقىٰ ثلث الليل الآخر نؤمن به علىٰ أنَّه نزول حقيقي ... انظر : منهاج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل (ص١٥) .

قلت : والنُّزول الحقيقي هو النُّزول المعهود الذي يعني انتقال الجسم بالحركة من مكان إلىٰ مكان آخر ...

وقال المدعو خالد بن عبد الله بن محمَّد المصلح : " ونزوله هو نزول حقيقي ، ولا تقل : كيف ينزل ؟ ولا يشكل عليك ماهيَّة ذلك وحقيقته وكُنهه ، فإنَّك لم تكلَّف بذلك ، وإنَّما كلِّفت بأن تؤمن بكل ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر به رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه .

وتأويل النُّزول بغير ما دلَّ عليه ظاهر النَّصِّ !! كمن يقولون : تنزل رحمته ، أو ينزل ملك من الملائكة ، فإنَّ هذا خطأ كبير ، وتحريف خطير للنصِّ ؛ لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : " ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من داعٍ فأجيبه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له " ، فهل يسوغ أن يقول هذا القول مَلَكٌ من الملائكة ؟ " . انظر : شرح لمعة الاعتقاد (٣/ ٢٤) .

وبحسب ما قاله هذا الرَّجل ، فإنَّ جمهور علماء الأمَّة ممَّن نقلنا عنهم في هذا كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ " أنَّهم أوَّلوا نزول الله تعالىٰ ، ولم يجروه علىٰ ظاهر معناه ، قد وقعوا في خطأ كبير ، وحرَّفوا الكلم عم مواضعه ، ومنهم : ، مالك (١٧٩هـ) ، محمَّد بنُ حِبَّانَ البُسْتِيُّ (٣٥٤هـ) ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَلِيٍّ الرَّازي الحَنَفِيُّ (٣٧٠هـ) ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ الطيِّب بنِ محمَّد بنِ جَعْفَرِ بنِ قَاسِم البَصْرِيُّ ، ثمَّ البَغْدَادِيُّ ، ابْنُ البَاقِلاَّنِيّ (٤٠٣هـ) ، أَبُو عَبْدِ الله الحُسَيْنُ بنُ الحَسَنِ بنِ محمَّد بنِ حَلِيْم البُخَارِيُّ (٤٠٣هـ) ، ابنِ فُوْرَكَ الأَصْبَهَانِيّ (٤٠٦هـ) ، أَبُو محمَّد عَبْدُ الوهَّاب بنُ عَلِيّ بن نَصْرِ بن أَحْمَدَ بنِ حُسَيْن بن هَارُوْنَ ابْنِ أَمِيْرِ العَرَبِ مَالِكِ بن طوق التَّغْلِبيُّ (٤٢٢هـ) ، أَبُو مَنْصُوْرٍ عبد القاهر البَغْدَادِيُّ (٤٢٩هـ) ، أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بنُ سَعِيْدِ بنِ عُثْمَانَ بنِ سَعِيْدِ بنِ عُمَرَ الأُمَوِيُّ مَوْلاَهُمْ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، ثمَّ الدَّانِي ، المعروف بِابْنِ الصَّيْرَفِيِّ (٤٤٤هـ) ، أَبُو محمَّد عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ سَعِيْدِ بنِ حَزْمِ الظَّاهِرِيُّ (٤٥٦هـ) ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيِّ بنِ مُوْسَىٰ الخُسْرَوْجِرديُّ ، البيهقي (٤٥٨هـ) ، ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ) ، أَبُو المُظَفَّرِ طَاهِرُ بنُ محمَّد الإسفرايينيّ ، (٤٧١هـ) ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، أَبُو سَعْدٍ عَبْدُ الرَّحمن بنُ مَأْمُوْنِ بنِ عَلِيٍّ النَّيسَابورِيُّ المُتَوَلِّي الشَّافِعِي (٤٧٨هـ) ، أَبُو المَعَالِي عَبْدُ المَلِكِ الجُوَيْنِيُّ (٤٧٨هـ) ، البزدَوي (٤٩٣هـ) ، أبو حامد الغزَّالي (٥٠٥هـ) ، أَبُو المعين النَّسَفِيّ المكحولي (٥٠٨هـ) ، ابنِ رشد القُرْطُبِيُّ (٥٢٠هـ) ، ابْنُ العَرَبِيِّ المالكي (٥٤٣هـ) ، القَاضِي عِيَاضِ اليحصبي (٥٤٤هـ) ، أَبُو العبَّاس أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَازِمِ بنِ عَلِيِّ بنِ رِفَاعَةَ الرِّفَاعِيُّ (٥٧٨هـ) ، أحمد بن محمَّد بن محمود بن سعيد القابسي (٥٩٣هـ) ، أَبُو الفَرَجِ ابن الجوزي الحَنْبَلِيُّ (٥٩٧هـ) ، عثمان بن عبد الله القيسي القرشي ، أبو عمرو ،

المعروف بالسّلاجي (٥٩٤هـ)، ابْنُ الأَثِيْرِ (٦٠٦هـ)، فَخْرُ الدِّين الرَّازي (٦٠٦هـ)، أبو العبَّاس أَحْمَدُ بن عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ، الأنصاريُّ القرطبيُّ (٦٥٦هـ)، سلطان العلماء الشَّيخ العز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ)، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الخزرجي، شمس الدِّين القرطبي (٦٧١هـ)، يحيىٰ بن شرف النَّووي (٦٧٦هـ)، ابن منظور (٧١١هـ)، ابْنِ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيُّ الْحَمَوِيُّ (٧٣٣هـ)، ابْن جهبل الْكلابِي الْحلَبِي (٧٣٣هـ)، الْحُسَيْن بن محمَّد بن عبد الله الطَّيِّبيّ (٧٤٣هـ)، عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني أَبُو السَّعادات عفيف الدِّين (٧٦٨هـ)، محمَّد بن يوسف الكرماني (٧٨٦هـ)، إبراهيم بن موسىٰ بن محمَّد اللخمي الغرناطي الشَّهير بالشَّاطبي (٧٩٠هـ)، عبد الرَّحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، سراج الدِّين أبو حفص عمر ابن الملقِّن (٨٠٤هـ)، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافِعِي (٨٥٢هـ)، بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ)، أبو عبد الله السَّنوسي هو محمَّد بن يوسف بن عمر بن شعيب السَّنوسي (٨٩٥هـ)، عبد الرَّحمن بن أبي بكر، جلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ)، أحمد بن محمَّد بن أبىٰ بكر بن عبد الملك القسطلاني (٩٢٣هـ)، عبد الوهَّاب بن أحمد الشَّعراني (٩٧٣هـ)، ابن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ)، محمَّد بن أحمد الخطيب الشَّربيني الشَّافِعِي (٩٧٧هـ)، علي بن سلطان محمَّد، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ)، عبد الرَّؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثمَّ المناوي (١٠٣١هـ)، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (١٠٣٣هـ)، عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن عبد الباقي بن إبراهيم البعلي (١٠٧١هـ)، محمَّد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (١١٢٢هـ)، محمَّد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن، نور الدِّين السّندي (١١٣٨هـ)، محمَّد بن أحمد بن سالم السَّفاريني الحنبلي (١١٨٨هـ)، محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزَّبيدي الشَّهير بمرتضىٰ (١٢٠٥هـ)، محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ)، سليم بن أبي فراج بن سليم بن أبي فراج البِشْري، شيخ الجامع الأزهر (١٣٣٥هـ)، محمَّد الخَضِر بن سيِّد عبد الله بن أحمد الجكني الشَّنقيطي (١٣٥٤هـ)، محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ)، محمَّد بن زاهد الكوثري (١٣٧١هـ)، عبيد الله بن محمَّد عبد السَّلام بن خان محمَّد بن أمان الله بن حسام الدِّين الرحماني المباركفوري (١٤١٤هـ)، وغيرهم كثير ...

فهل بعد كلام هؤلاء الفحول الأساطين من علماء الأمَّة الربَّانيِّين كلام ؟!! فإذا كان هؤلاء مبتدعة ضالُّون محرِّفون للكَلِم عن موضعه – كما يزعم مدَّعو السَّلفيَّة – فمن بقي بعدهم من علماء الأمَّة الذين يعوَّل علىٰ كلامهم في شرح وتوضيح وبيان وتفصيل معاني النُّصوص الشَّرعيَّة ؟!! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم : ٣٦] ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[يونس : ٣] ، ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات : ١٥٦] ، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الصافات : ١٥٧] ، ولذا فإنَّ الواجب علىٰ علماء الأمَّة أن يُوقفوا هؤلاء وأمثالهم عند حدِّهم ، فقد بغوا وطغوا وتطاولوا علىٰ علماء الأمَّة بجهلهم وأموالهم ، وكذا بالكُتب المزوَّقة التي تُوزَّع بالملايين فتُهدىٰ ولا تُباع في مختلف الأصقاع !!! ... فالواجب أن تجتمع الكلمة علىٰ التَّحذير منهم ، بكشف مخازيهم وضلالاتهم ، وعيوبهم ، وإفلاسهم العلمي ، فقد استغلُّوا غفلة النَّاس وجهلهم ، فعمدوا إلىٰ نشر ترَّهاتهم وخُزعبلاتهم التي أخمدها علماء الأمَّة في القرن الثَّامن الهجري ، وبقيت هامدة خامدة الأنفاس لا تقوىٰ علىٰ الحراك حتَّىٰ القرن الثَّاني عشر ، فوجدت الهمج الرّعاع الذين اعتنقوها واعتقدوها مرَّة ثانية بعد أسلافهم من الحشويَّة والمشبِّهة ، الذين طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ...

وقال إمامهم عبد الرَّحمن السَّعدي (١٣٧٦هـ) : " ونزوله سبحانه نزول حقيقي !!! يليق بجلاله وعظمته ، ولا يصحُّ تحريف معناه إلىٰ غير ذلك من التَّحريفات الباطلة ، مثل قولهم : معنىٰ النُّزول : نزول أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته ، فهذا من أبطل الباطل " . انظر : شرح رسالة في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (ص١١) .

فهل تأويل الإمام مالك لنزول الله تعالىٰ بنزول أمره من أبطل الباطل ؟!!! وهل من نقلنا عنهم تأويل النُّزول بنزول أمره أو غيره من التَّأويلات المراعية جلال الله تعالىٰ وعظمته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث في كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ " ... من أبطل الباطل ؟!!! لقد استهوىٰ سلطان المخالفة هؤلاء ، وسيطر علىٰ كيانهم حتَّىٰ جعلوا – وعلىٰ الدَّوام – أقوالهم وأقوال علمائهم هي الصَّواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وأقوال غيرهم ولو كانت مجموع الأمَّة خطأ لا يحتمل الصَّواب ...

وكذا صرَّح إمامهم الألباني بأنَّ نزول الله تعالىٰ نزول حقيقي ، فقال : " فنزوله نزول حقيقي يليق بجلاله ، لا يُشبه نزول المخلوقين ، وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته ، وخاص بعباده المتقرِّبين إليه بطاعته ، ووقوفهم بعرفة تلبية لدعوته عزَّ وجلَّ . فهذا هو مذهب السَّلف في النُّزول والدُّنو ، فكن علىٰ علم بذلك " . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٠٨) .

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ... فما قالوه ... مغالطة كبيرة ، لأنَّه لا بدَّ من الاحتكام للغة العربيَّة في معرفة معاني الآيات الكريمة ، وكذا الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة ... ولا يوجد في معاجم وقواميس اللغة معنىٰ من المعاني كالذي قالوا ، فإنَّ قولهم لا مكان له من الإعراب في لغة العرب ، إلَّا إذا قلنا بتفويض الكيْف والمعنىٰ ، وهم يأبون علينا ... بل يقولون بأنَّ التَّفويض من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ، كما قال ابن تيمية في " درء التَّعارض " : " فتبيَّن أنَّ قول أهل التَّفويض الذين يزعمون أنَّهم متَّبعون للسُّنَّة والسَّلف : من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد !!! . انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥) .

والعياذ بالله تعالىٰ ...

بقي أمرٌ قاله الألباني ، وهو قوله : " وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته " . والدُّنو الذي يقصده الألباني ومن معه من مدَّعي السَّلفيَّة : هو دنوُّ الله تعالىٰ من محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهم بذلك يفسِّرون الدُّنو والتَّدلي الواردين في سورة " النَّجم " ، وهم به مخالفون لجمهور أهل العلم ... قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم ٨-٩] : يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ مِنْ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَدَلَّىٰ إِلَيْهِ ، وَهَذَا مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ ، وإنَّما هُوَ : ثمَّ تَدَلَّىٰ فَدَنَا ، وَلَكِنَّهُ حَسُنَ تَقْدِيمُ قَوْلِهِ : ﴿دَنَا﴾[النجم : ٨] ، إِذْ كَانَ الدُّنُوُّ يَدُلُّ عَلَىٰ التَّدَلِّي وَالتَّدَلِّي عَلَىٰ الدُّنُوِّ، كَما يُقَالُ : زَارَنِي فُلَانٌ فَأَحْسَنَ ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَزَارَنِي ، وَشَتَمَنِي فَأَسَاءَ ، وَأَسَاءَ فَشَتَمَنِي لِأَنَّ الْإِسَاءَةَ هِيَ الشَّتْمُ : وَالشَّتْمُ هُوَ الْإِسَاءَةُ ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأويل ... ثمَّ ذكر من القائلين بذلك : الحسن البصري ، قتادة ، والرَّبيع ". انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٢/ ١٣-١٤) .

وقال الإمام البغوي (٥١٦هـ) : قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم : ٨-٩] ، اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ . أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بن يوسف ثنا محمَّد بْنُ إِسْمَاعِيلَ ثَنَا محمَّد بن يوس ثنا أبو أسامة ثنا زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ أبي الْأَشْوَعِ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : فَأَيْنَ قَوْلُهُ : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم : ٨-٩] . قَالَتْ : ذَلِكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ ، فَسَدَّ الْأُفُقَ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بْنُ يُوسُفَ ثَنَا محمَّد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنّام ثنا زَائِدَةُ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ زِرّاً عَنْ قَوْلِهِ : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم : ٩] ، قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ محمَّدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ .

فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَدَلَّىٰ فَنَزَلَ إِلىٰ محمَّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ، بَلْ أَدْنَىٰ ، وَبِهِ قَالَ ابن عبَّاس ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : ثمَّ تَدَلَّىٰ فَدَنَا ، لِأَنَّ التَّدَلِّيَ سَبَبُ الدُّنُوِّ ". انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٣٠١-٣٠٢) .

وعليه : فابن عبَّاس ، والحسن البصري ، وقتادة ، والرَّبيع ... قالوا : إنَّ مسألة التَّدلي مرتبطة بأمين الوحي جبريل عليه السَّلام ، وليس الأمر كما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة : أنَّ المتدلِّي هو الله تعالىٰ ... والذي ذكرناه هو قول جمهور المفسِّرين . وللاستزادة في هذه المسألة انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٩٤) ، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٠١) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٢٣) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٥٠١) ....

وقد انتهىٰ بهم الأمر في هذه المسألة إلىٰ قياس الخالق علىٰ المخلوق ، حيث جعلوا الحركة أمارة ما بين الحيِّ والميِّت ، وفي ذلك قال الإمام ابن تيمية : " ... لأنَّ الحيَّ القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرَّك إذا شاء ، ويهبط ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأنَّ أمارة ما بين الحي

والميّت التَّحرُّك ، كلّ حيٍّ متحرِّك لا محالة ، وكلّ ميِّت غير متحرِّك لا محالة " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥١) ، (٢/ ٧٢) ، شرح العقيدة الأصفهانية (ص٧٩) .

وأنا أقول له : يا ابن تيمية : إنَّ الأرض جماد لا روح فيها ، وهي تتحرَّك ، ولا يخالف في ذلك إلَّا أعمىٰ البصر والبصيرة ، تماماً كما فعل الشَّيخ ابن باز فألَّف كتاباً بعنوان : " الأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة علىٰ سكون الأرض وحركة الكواكب والنُّجوم " ، وما ألَّف هذا الكتاب المتهالك إلَّا لنصرة باطل مذهبه ، بالغشِّ والتَّدليس والكذب والخيانة والتَّلاعب بعقول الجهَّال والعميان ، فسبحان مقلِّب القلوب ، ومقسِّم العقول ...

وقد ذكر الله تعالىٰ في الكتاب المجيد أنَّ الجبال تتحرَّك ، فقال : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[النمل : ٨٨] .

قال الإمام الشَّعراوي : " فليس غريباً الآن أن نعرف أنَّ للجبال حركة ، وإنْ كنَّا لا نراها ؛ لأنَّها ثابتة بالنِّسبة لموقعك منها ؛ لأنَّك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنَّك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنَّك تتحرَّك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السَّحاب ، فالسَّحاب لا يمرُّ بحركة ذاتيَّة فيه ، إنَّما يمرُّ بدفْع الرِّياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتيَّة إنَّما بحركة الأرض كلّها ، وهذا دليل واضح علىٰ حركة الأرض ... " . انظر : تفسير الشعراوي ، الخواطر (١٥/ ٩٥٢٧) .

فالنَّاظر في ما قاله ابن تيمية يجد غلوَّاً فادحاً ، حيث خالف عموم الأمَّة ، وقد دفع هذا الغلو تلميذه الإمام الذَّهبي لتوجيه رسالة له ، اشتهرت باسم : " الرِّسالة الذَّهبيَّة " ، نصح فيها شيخه ابن تيمية للعدول عن غيِّه وضلاله ، ونصُّ الرِّسالة هو : " الحمد لله علىٰ ذلَّتي ، يا ربِّ ارحمني وأقلني عثرتي ، واحفظ عليَّ إيماني ، واحزناه علىٰ قلَّة حزني ، واأسفاه علىٰ السُّنَّة وذهاب أهلها ، واشوقاه إلىٰ إخوان مؤمنين يعاونونني علىٰ البكاء ، واحزناه علىٰ فَقْد أُناس كانوا مصابيح العلم وأهل التَّقوىٰ وكنوز الخيرات ، آه علىٰ وجود درهم حلال وأخ مؤنس .

طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب النَّاس ، وتَبّاً لمن شغله عيوبُ النَّاس عن عيبه ، إلىٰ كم ترىٰ القذاة في عين أخيك وتنسىٰ الجذع في عينك ؟ إلىٰ كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمُّ العلماء ، وتتبع عورات النَّاس مع علمك بنهي الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تذكروا موتاكم إلَّا بخير ، فإنَّهم قد أفضوا إلىٰ ما قدَّموا " . أخرج الشق الأول منه : الطيالسي في المسند (٣/ ٩٥ برقم ١٥٩٧) .

بلىٰ أعرفُ أنَّك تقول لي لتنصُرَ نفسك : إنَّما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شمُّوا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جهاد ، بلىٰ والله عرفوا خيراً ممَّا إذا عمل به العبد فقد فاز ، وجهلوا شيئاً كثيراً ممَّا لا يعنيهم و" من حسن إسلام المرء تركــــه ما لا يعنيه " . أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٦٤ برقم ٥٣) ، وغيره ...

يا رجل ، بالله عليك كفَّ عنَّا ، فإنَّك مِحجاجٌ عليم اللسان لا تقرّ ولا تنام ، إيَّاكم والأغلوطات في الدِّين ، كره نبيُّك صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسائل وعابها ونهىٰ عن كثرة السُّؤال ، وقال : " إنَّ أخوف ما أخاف علىٰ أمَّتي كلّ منافق عليم اللسان " . أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨٩ برقم ١٤٤) ، وغيره .

وكثرة الكلام بغير زلل تقسِّي القلب إذا كان في الحلال والحرام ، فكيف إذا كان في عبارات اليُونسيَّة والفلاسفة وتلك الكفريَّات التي تعمي القلوب ؟ والله قد صرنا ضحكة في الوجود ، فإلىٰ كم تنبشُ دقائق الكفريَّات الفلسفيَّة بعقولنا ، يا رجل قد بلعتَ سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرَّات ، وكثرة استعمال السُّموم يُدمن عليه الجسم وتكمن والله في البدن . واشوقاه إلىٰ مجلس فيه تلاوة بتدبُّر ، وخشية بتذكُّر ، وصمت بتفكُّر ، واهاً لمجلس يُذكرُ فيه الأبرار ، فعند ذكر الصَّالحين تنزل الرَّحمة ، لا عند ذكر الصَّالحين يُذكرون بالازدراء واللعنة ، كان سيف الحجَّاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخَيتَهما ، بالله خلُّونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب ، وجدوا في ذكر بدع كنَّا نعدها من أساس الضَّلال ، قد صارت هي محض السُّنَّة وأساس التَّوحيد ، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار ، ومن لم يكفّر فهو أكفر من فرعون ، وتعد النَّصارىٰ مثلنا ، والله في القلوب شكرك إن سَلِمَ لكَ إيمانك بالشَّهادتين فأنت سعيد .

يا خيبة من اتَّبعك فإنَّه مُعَرَّضٌ للزَّندقة والانحلال !!! ولا سيَّما إذا كان قليل العلم والدِّين باطوليّاً شهوانيّاً ، لكنَّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلَّا قعيدٌ مربوط خفيف العقل ، أو عامي كذّاب بليد الذِّهن ، أو غريب واجم قوي المكر ، أو ناشف صالح عديم الفهم ، فإن لم تصدِّقني ففتشهم وزنهم بالعدل .

يا مسلم ، أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك ، إلىٰ كم تصادقها وتعادي الأخيار ؟ إلىٰ كم تصدقها وتزدري الأبرار ، إلىٰ كم تعظِّمها وتصغر العباد ، إلىٰ متىٰ تُخاللها وتمقت الزُّهَّاد ، إلىٰ متىٰ تمدح كلامك بكيفيَّة لا تمدح بها والله أحاديث الصَّحيحين ، يا ليت أحاديث الصَّحيحين تسلم منك !!! بل في كلّ وقت تُغيرُ عليها بالتَّضعيف والإهدار !!! أو بالتَّأويل والإنكار .

أما آن لك أن ترعوي ؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب ، أمَّا أنت في عشر السَّبعين وقد قرب الرَّحيل . بلىٰ والله ما أذكر أنَّك تذكر الموت بل تزدري بمن يذكر الموت ، فما أظنُّك تقبل علىٰ قولي ولا تُصغي إلىٰ وعظي ، بل لك همَّة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلَّدات وتقطع لي أذناب الكلام ، ولا تزال تنتصر حتَّىٰ أقول لكَ : والبتَّة سكت .

فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشَّفوق المحبُّ الواد ، فكيف يكون حالك عند أعدائك ، وأعداؤك والله فيهم صُلحاء وعقلاء وفضلاء ، كما أنَّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر . قد رضيتُ منك بأن تسبَّني علانية ، وتنتفع بمقالتي سرّاً : " فرحم الله امرءاً أهدىٰ إليَّ عيوبي " . أخرجه من كلام عمر بن الخطَّاب : الدارمي (١/ ٥٠٦ برقم ٦٧٥) .

فإنِّي كثير العيوب غزير الذُّنوب ، الويل لي إن أنا لا أتوب ، ووافضيحتي من علَّام الغيوب ، ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّد خاتم النَّبيِّين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين " . انظر : السيف الصقيل في الردِّ علىٰ رد ابن زفيل (ص٢١٧-٢١٩) .

والرِّسالة ثابتة لا مجال للطَّعن فيها ، وذلك لـ :

١-أنَّ الإمام الذَّهبي تلميذ من تلاميذ ابن تيمية المشهورين ، وهو لا يعتقد في ابن تيمية العصمة ، بل خالفه وناقشه في العديد من المسائل ، قال الإمام الذَّهبي في معرض كلامه عن ابن تيمية ، علىٰ

ما نقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني : " وَأَنا لَا أعتقد فِيهِ عصمَة ، بل أَنا مُخَالف لَهُ فِي مسَائِل أَصْلِيَّة وفرعيَّة !!! ... " . انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ١٧٦) .

وقال الذَّهبي في " تذكرة الحفَّاظ " في حديثه عن ابن تيمية : " وقد انفرد بفتاوىٰ نيل من عِرضِهِ لأجلها ... فالله تعالىٰ يسامحه ويرضى عنه ، وكلّ أحد من الأمَّة فيؤخذ من قوله ويترك " . انظر : تذكرة الحفاظ (٤٤/ ١٩٢) .

وهذا بعكس من يدَّعون السَّلفيَّة في زماننا ، أولئك الذين أضفوا علىٰ كلام ابن تيمية هالة عظيمة من الجلال والإعظام ، حتَّىٰ وصل الأمر ببعضهم إلىٰ الاعتقاد بأنَّ كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بدليل أنَّنا لم نرَ عالماً منهم تجاسر علىٰ تخطئة ابن تيمية ، اللهمَّ إلَّا الألباني – فيما اطَّلعت – وقد ناقشه وخالفه علىٰ استحياء ، بل أنَّه حين ناقشه في مسألة فناء النَّار ذكر أنَّ لابن تيمية أجراً !!! فيما اجتهد فيه من القول بفناء النَّار ، مع أنَّه لا مجال فيها للاجتهاد ...

فلا مجال البتَّة لاعتقاد عدم صحَّة نسبة الرِّسالة للإمام الذَّهبي ، لأنَّ الدِّين النَّصيحة ، والإنسان أيَّاً كان لا يستغني عن النَّصيحة ، والرِّسالة برمَّتها ما خرجت إلَّا مخرج النَّصيحة ، وقد وصف الإمام الذَّهبي أتباع ابن تيمية في النَّصيحة بقوله : " يا خيبة من اتبعك ، فإنَّه معرَّض للزَّندقة والانحلال ، لاسيَّما إذا كان قليل العلم والدِّين باطولياً شهوانيَّاً . لكنَّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه ، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلَّا قعيد مربوط خفيف العقل ، أو عامِّي كذَّاب بليد الذّهن أو غريب واجم ، قوي المكر أو ناشف صالح عديم الفهم ، فإن لم تصدقني ففتِّشهم وزنهم بالعدل ...

كما أنَّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر " . ففي هذا المقطع قيّم ووزن الذَّهبي أتباع ابن تيمية ممَّن يدَّعون السَّلفيَّة ، وهذا مدعاة لأن يراجعوا أنفسهم ، فقد وصف أتباعه بأنَّ منهم القعيد والمربوط وخفيف العقل ، وبليد الذّهن وقوي المكر ، كما أنَّ أوليائه فيهم الفجرة والكذبة والبقر والعور . وفي هذا إشارة إلىٰ أنَّ فكرهم فيه جهل وكذب . وكم نتمنَّىٰ أن تكون نصيحة الإمام الذَّهبي لشيخه ابن تيمية مدعاة لمدَّعي السَّلفيَّة في زماننا كي يراجعوا حساباتهم

وأنفسهم ، خاصَّة وأنَّهم ما تركوا عالماً من غير طريقتهم إلَّا وصموه بالكفر والنِّفاق والتَّعطيل والتَّجهُّم والتَّفسيق والتَّضليل ...

٢-أنَّ الإمام الذَّهبي انتقد ابن تيمية غير مرَّة ، من ذلك قوله : " فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة ، وآراء الأوائل ومجازات العقول ، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسُّنَّة وأصول السَّلف ، ولفَّقت بين العقل والنَّقل ، فما أظنُّك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقربها ، وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحطِّ عليه ، والهجر والتَّضليل والتَّكفير والتَّكذيب بحقٍّ وبباطل ، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصِّناعة منوَّراً مضيئاً ، على محيَّاه سيما السَّلف ، ثمَّ صار مظلماً مكسوفاً ، عليه قتمة عند خلائق من النَّاس ، ودجَّالاً أفَّاكاً كافراً عند أعدائه ، ومبتدعاً فاضلاً محقِّقاً بارعاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء ، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدِّين ومحيي السُّنَّة عند عوام أصحابه " . انظر : زغل العلم (ص٤٢) .

فالذَّهبي ذمَّ ابن تيمية بسبب خوضه بالفلسفة ، وهذا الذَّمُّ منه ينسف مدحه له في " تذكرة الحفَّاظ " حين قال : فما رأيت مثله " . انظر : تذكرة الحفاظ (٤٤/ ١٩٢) .

وقال الإمام الذَّهبي : " فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له : ابن تيمية ، مع الزُّهد في المأكل والملبس والنِّساء ، ومع القيام في الحقّ والجهاد بكلِّ ممكن ، وقد تعبتُ في وزنه وفتَّشته حتَّى مللت في سنين متطاولة ، فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشَّام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذَّبوه وكفَّروه إلّا الكبر والعجب ، وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار ، فانظر كيف وبال الدَّعاوي ومحبَّة الظُّهور ، نسأل الله تعالى المسامحة ، فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه ، ولا أعلم منه ، ولا أزهد منه ، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم ، وما سلَّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه ، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر ، وما جرى عليهم إلَّا بعض ما يستحقُّون ، فلا تكن في ريب من ذلك " . انظر : زغل العلم (ص٣٨) .

٣-أثبت رسالة الإمام الذَّهبي لشيخه ابن تيمية الإمام شمس الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحمن السَّخاوي (٩٠٢هـ) ، فقال : " وقد رأيت له - أي للذَّهبي - عقيدة مجيدة ، ورسالة كتبها لابن تيمية هي لدفع نسبته لمزيد تعصُّبه مفيدة ". انظر : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص٧٧) .

وكذلك أثبتها الأستاذ الدكتور بشَّار عواد معروف ، فقال عن الرِّسالة : " وهي رسالة بعث بها الذَّهبي إلىٰ شيخه ورفيقه أبي العبَّاس ابن تيمية الحرَّاني ينصحه فيها ويعاتبه في بعض تصرُّفاته ، وهي رسالة مفيدة في تبيان عقيدة الذَّهبي وقد ذكرها السَّخاوي في الإعلان ... وذهب بعضهم إلىٰ القول بأنَّها مزوَّرة ، ولا عبرة بذلك !!! " . انظر : الذَّهبي ومنهجه في كتابه تأريخ الإسلام (ص١٤٦) .

وذكر الأستاذ الدُّكتور بشار عواد معروف نُسخ الرِّسالة ، وأنَّها موجودة في : دار الكتب المصريَّة بخطِّ تقي الدِّين ابن قاضي شهبة الأسدي المتوفَّىٰ سنة (٨٥١ هـ) رقم (١٨٨٢٣) ، وفي : دار الكتب الظَّاهريَّة برقم (١٣٤٧) أ.هـ وقد نقلتها من كتاب : " السَّيف الصَّقيل في الرَّدِّ علىٰ ابن زفيل " للإمام تقي الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي المتوفَّىٰ سنة (٧٥٦هـ) ...

وبعد هذه الإطلالة السَّريعة علىٰ بعض من عقائد من أجروا النُّزول علىٰ ظاهر معناه ... نعود ثانية إلىٰ أقوال فحول الأمَّة وأساطينها المنزِّهين لله تعالىٰ عن الحركة والانتقال ... فنقول :

قال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، المُفْتِي ، المُجْتَهِدُ ، عَلَمُ العِرَاقِ ، أَبو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَلِيٍّ الرَّازي ، الحَنَفِيُّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٣٧٠هـ) : " وأمَّا الخبر بنزول الباري إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فذلك أمره وفضله ورحمته ، لا نقول : وحركته ... " . انظر : شرح بدء الأمالي (ص٢٠٦) .

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، أَوْحَدُ المُتَكَلِّمِيْن ، مُقَدَّم الأُصُوْلِيين ، القَاضِي ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ الطيِّب بنِ محمَّد بنِ جَعْفَرِ بنِ قَاسِم البَصْرِيُّ ، ثمَّ البَغْدَادِيُّ ، ابْنُ البَاقِلاَّنِيّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ ، المضروب به المَثَلُ بِفَهْمِهِ وَذَكَائِهِ (٤٠٣هـ) : " ويجب أن يعلم : أنَّ كلّ ما يدلُّ علىٰ الحدوث أو علىٰ سمة النَّقص ، فالرَّبُّ تعالىٰ يتقدَّس عنه ، فمن ذلك : أنَّه تعالىٰ متقدِّس عن الاختصاص بالجهات ، والاتِّصاف بصفات المحدثات ، وكذلك لا يُوصف بالتَّحوُّل ، والانتقال ، ولا القيام ، ولا القعود ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

[الإخلاص : ٤] ، ولأنَّ هذه الصِّفات تدلُّ على الحدوث ، والله تعالىٰ يتقدَّس عن ذلك ". انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص٤٠-٤١) .

فالله تعالىٰ متعالٍ عن المكان ، فهو تعالىٰ غيرُ متمكّن في مكان ، ولا متحيِّز إلىٰ جهة ، لأنَّه سبحانه وتعالىٰ ليس بجوهر يتحيَّز ، فهو يتقدّس عن الحيِّز ، إذ التَّحيُّز خاصٌّ بالجواهر ، وكلّ متحيِّز فهو مختصٌّ بحيِّزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرِّكاً عنه ، والحركة والسُّكون حادثان وهما من أعراض الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ القديم يتعالىٰ عن ذلك ويتنزَّه ، سبحانه وتعالىٰ عمَّا يصفون ...

وقال الإمام الحليمي (٤٠٣ هـ) : " وأمَّا البراءة من التَّشبيه بإثبات أنَّه – تعالىٰ – ليس بجوهر ولا عَرَض ، فلأنَّ قوماً زاغوا عن الحقِّ فوصفوا الباريء جلَّ ثناؤه ببعض صفات المحدثين ، فمنهم من قال : أنَّه جوهر ، ومنهم من قال : أنَّه جسم ، ومنهم من أجاز أن يكون علىٰ العرش ، كما يكون الملك علىٰ سريره ، وكان ذلك في وجوب اسم الكفر لقائله كالتَّعطيل والتَّشريك .

فإذا أثبت المثبت أنَّه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] . وجماع ذلك أنَّه ليس بجوهر ولا عَرَض ، فقد انتفىٰ التَّشبيه ، لأنَّه لو كان جوهراً أو عَرَضاً لجاز عليه ما يجوز علىٰ سائر الجواهر والأعراض ، ولأنَّه إذا لم يكن جوهراً ولا عَرَضاً لم يجز عليه ما يجوز علىٰ الجواهر من حين أنَّها جواهر كالتَّآلف والتَّجسم ، وشغل الأمكنة ، والحركة والسُّكون ، ولا ما يجوز علىٰ الأعراض من حيث أنَّها أعراض كالحدوث وعدم البقاء . انظر : المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٤) .

فالإمام الحليمي يؤكِّد ويبرهن علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، وعن لوازمها من الحركة والسُّكون ، إذ كلّ جسم لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهي أعراض ملازمة للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثة لتغيُّرها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلّ ، وافتقر إليه ، وبالحاجة للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز علىٰ المحدثات من الحركة والسُّكون

والانتقال من مكان إلىٰ آخر ، فهو تعالىٰ ليس محلاًّ للحوادث ، فلا يحُلُّ بها ولا تحُلُّ فيه سبحانه وتعالىٰ ...

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، الصَّالح ، شَيْخُ الْمُتكَلِّمِيْن ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ الْحَسَنِ بن فُوْرَكَ الأَصْبَهَانِيّ ، الأُصُوْلِيّ ، الأَدِيْبُ ، النَّحْوِيُّ ، الوَاعِظُ ، صاحب التَّصَانِيْفَ الكَثِيْرَة (٤٠٦هـ) : " ... وَقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح : ٤] ، يكْشف أَيْضاً علىٰ أَنَّه لَيْسَ كلّ نزُول وإنزال نقل وتحويل ، بل ذَلِك لفظ مُشْتَرَك الْمَعْنىٰ ، قد يكون نقلاً وتحويلاً ، وَيكون علىٰ غير هَذَا الْوَجْه أَيْضاً ، علىٰ الْمُتَعَارف والمعهود بَين أهل اللُّغَة ، وَإِذا كَانَ اللَّفْظ مُشْتَرَك الْمَعْنىٰ وَجب التَّرْتِيب وَإِضَافَة مَا يَلِيق فِي الْمَذْكُور والمضاف إِلَيْهِ علىٰ حسب مَا يَلِيق بِهِ ، أَلا ترىٰ أَنَّه إِذا أضيف إِلىٰ السَّكِينَة لم يكن حَرَكَة وَلَا نقلة ، وَإِذا أضيف إِلىٰ الْكَلَام لم يكن أَيْضاً تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان ، وَإِذا أُرِيد بِهِ الحكم وَتغَير الْمرتبَة فَكَذَلِك ، وَإِذا كَانَ مَا وصف بِهِ الربُّ جلَّ ذكره من النُّزول مَحْمُولاً علىٰ بعض هَذِه الْمَعَانِي الَّتِي لَا تَقْتَضِي لَهُ مَا لَا يَلِيق بنعته من إِيجَاب حدث يحدث فِي ذَاته ، وتغيير يلْحقهُ ، أَو نقص تمثيلاً أَو تحديداً ، وَهُوَ أَن يكون علىٰ أحد وُجُوه من الْمَعَانِي .

إِمَّا أَن يُرَاد بِهِ : إقباله علىٰ أهل الأَرْض بِالرَّحْمَةِ والاستعطاف بالتَّذْكِير والتَّنبيه الَّذِي يلقىٰ فِي قُلُوب أهل الْخَيْر مِنْهُم من أسعده بتوفيقه لطاعته حتَّىٰ يزعجهم إِلىٰ الْجد والانكماش فِي التَّوْبَة والإنابة والإقبال علىٰ الطَّاعَة . وَوجدنَا الله عزَّ وجلَّ قد خصَّ بالمدح المستغفرين بالأسحار ، وَقَالَ فِي وَصفهم أَيْضاً : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات : ١٧-١٨] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران : ١٧] . فَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك هُوَ الْمُرَاد بِهِ ، وَهُوَ الْإِخْبَار عَمَّا يظْهر من أَلطافه ومعونته وتأييده لأَهل وَلَايَته فِي مثل هَذَا الْوَقْت ، بالزَّواجر الَّتِي يقيمها فِي نُفُوسهم ، والمواعظ الَّتِي تنبِّههم بِقُوَّة التَّرْغِيب والتَّرهيب .

وَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك فعلاً يظهره بِأَمْرِه فيضاف إِلَيْهِ ، كَمَا يُقَال : ضرب الْأَمِير اللصَّ ، ونادىٰ الْأَمِير فِي الْبَلَد الْيَوْم ، وإِنَّما أَمر بذلك فيضاف إِلَيْهِ علىٰ معنىٰ أَنَّه عَن أمره ظهر ، وبأمره حصل ، وَإِذا كَانَ ذَلِك مُحْتملاً فِي اللُّغَة لم يُنكر أَن يكون لله عزَّ وجلَّ مَلَائِكَة يَأْمُرهُم بالنُّزول إِلىٰ السَّماء الدُّنيا

بِهَذَا النِّداء وَالدُّعَاء ، فيضاف ذَلِك إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ علىٰ الْوَجْه الَّذِي يُقَال : ضرب الْأَمِير اللصَّ ، ونادىٰ فِي الْبِلَاد

وَقد روىٰ لنا بعض أهل النَّقْل هَذَا الْخَبَر عَن النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يُؤَيِّد هَذَا الْبَاب ، وَهُوَ بِضَم الْيَاء من " ينزل " وَذكر أَنَّه قد ضَبطه عَمَّن سَمعه عَنهُ من الثِّقَات الضَّابطين . وَإِذا كَانَ ذَلِك مَحْفُوظاً مضبوطاً كَمَا قَالَ ، فوجهه ظَاهر ، وَلما ذكرْنَاهُ مِمَّا يحْتَملهُ من التَّأْويل مؤيِّد شَاهد ، وَيحْتَمل أَيْضاً أَن يكون علىٰ معنىٰ أَنَّهم يَقُولُونَ : مازلنا فِي خير حتَّىٰ نزل بِنَا بَنو فلَان ، علىٰ معنىٰ نُزُول حكمهم وَأمرهمْ ، فَيكون تَقْدِير التَّأْويل مَا قُلْنَا فِيهِ من الْإِخْبَار عَمَّا يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي كلّ لَيْلَة من أَفعاله الَّتِي هِيَ ترغيب لأهل الْخَيْر فِي الْخَيْر ، وَزِيَادَة فِي الدَّوَاعِي إِلىٰ الطَّاعَة والاستعطاف لأهل الْعَطف ، مَعَ أَنَّه إِذا لم يحل مَا أطلق عَلَيْهِ من هَذَا الْوَصْف من أَن يكون مِمَّا يلْزم الذَّات لأجل فعل أَو يكون مِمَّا يجب لأجل إفعال ، وَبَطل أَن يكون ذَلِك مِمَّا يلْزم الذَّات ، وَجب أَن يكون ذَلِك مِمَّا يُوصف بِهِ من أجل فعل يَفْعَله .

وَقد رُوِيَ لنا عَن الْأَوْزَاعِيّ (١٥٧هـ) رَحمَه الله أَنَّه سُئِلَ عَن هَذَا الْخَبَر ، فَقَالَ : يفعل مَا يَشَاء ، وَهَذَا إِشَارَة مِنْهُ إِلىٰ أَنَّ ذَلِك فعلٌ يظْهر مِنْهُ عزَّ ذكره .

وَرُوِيَ عَن مَالك بن أنس أَنَّه قَالَ فِي هَذَا الْخَبَر : ينزل أمرُه فِي كلّ شَيْء ، وأَمَّا هُوَ جلَّ ذكره فَهُوَ دَائِم لَا يَزُول ...

فَإِن قَالَ قَائِل : فَإِذا حملتم مَا رُوِيَ من النُّزول فِي الْخَبَر علىٰ مَا ذكرْتُمْ فعلام تحملون قَوْله : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾[النحل : ٢٦] ، وَقَوله سُبْحَانَهُ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: ٢٢] ، وَقَوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾[البقرة : ٢١٠] ، قيل : هَذَا تَأْوِيل أهل الْعلم هَذِه الْآي فِي وُجُوه كَثِيرَة ، فَمن ذَلِك أَنَّهم تأولوا قَوْله عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾[النحل : ٢٦] ، أَنَّ مَعْنَاهُ : الاستئصال فِي الْهَلَاك والدَّمار بإرسال الْعَذَاب ، كَمَا يَقُول النَّاس : أتىٰ السُّلْطَان بلد كَذَا فقلبه ظهراً لبطن ، أَي : استأصله ، وَلَيْسَ يُرِيدُونَ حُضُوره الْبَلَد بِنَفسِهِ ، وَلَا

شُهُوده ، بل يُرِيدُونَ الْهَلَاك والتَّدمير . وَقَالَ بَعضهم : إِنَّمَا أَرَادَ بذلك ظُهُور فعل من جِهَته فِي الْبُنيان سَمَّاهُ إتياناً ، وَللهَّ أَن يُسَمِّي أَفعاله بِمَا شَاءَ ، وَأَن يصف نَفسه من ذَلِك بِمَا أَرَادَ .

وأمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر : ٢٢] ، فَمنهمّ من قَالَ : إِن مَعْنَاهُ : جَاءَ رَبُّك بِالْملكِ صفاً ، وَزعم أَنَّ الْوَاو هُنَا بِمَعْنى الْبَاء . وَمِنْهُم من قَالَ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر : ٢٢] ، أَمر رَبّك وَحكمه ، يُرِيد أَمر الْقِيَامَة وَمَا يخْتَص بِهِ ذَلِك الْوَقْت ، من أمره الْمَخْصُوص ، وَحكمه الَّذِي لَا يَقع الشَّركَة فِيهِ بِالدُّعَاءِ والنِّداء .

وَقد بَيَّنَّا فِيمَا قبل أَنَّه لَا تدافع بَين أهل اللُّغَة فِي قَوْلهم : ضرب الْأَمِيرُ اللصَّ ، ونادى الْأَمِيرُ فِي الْبَلَد بِكَذَا ، وإِنَّمَا يُرَاد بذلك : أَنَّ ذَلِك الْفِعْل وَقع بِأَمْرِه وَعَن حكمه ، فيُضاف الْفِعْل إِلَيْهِ بِاللَّفْظِ الَّذِي يُضَاف إِلَى من فعله وتولَّاه ، وَنَظِير ذَلِك قَوْله عزَّ وجلَّ فِي قصَّة قوم لوط : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[القمر : ٣٧] ، وَكَانَ الطَّمس للأعين من الْمَلَائِكَة بِأَمْر الله عزَّ وجلَّ ، وَإِذا كَانَ مثله مُتَعَارَف فِي اللُّغَة ، وإِنَّمَا ورد الْخطاب فِي الْقُرْآن على الْمُتَعَارف فِي اللُّغَة والمعهود فِيمَا بَين أَهلهَا لم يُنكر أَن يحمل على ذَلِك قَوْله تَعَالَى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر : ٢٢] .

وأمَّا قَوْله سُبْحَانَهُ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[البقرة : ٢١٠] ، فقد قَالَ بعض أهل التَّفْسِير : إِنَّ مَعْنَاهُ : هَل ينظرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله بِالْعَذَابِ فِي ظُلل من الْغَمَام ، وَهَذَا سَائِغ فِي اللُّغَة أَن يعبّر عَن الشَّيْء بِفِعْلِهِ إِذا وَقع عَن أمره وتدبيره ، كَقَوْلِهِم : أَتَى الْأَمِيرُ بلد فلَان ، إِذا وصل إِلَيْهِ جَيْشه ، وَدخل السُّلْطَانُ بلد كَذَا إِذا نفذ فِيهِ أمرُه وَحكمه ". انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٠٣-٢٠٩) .

فالإمام ابن فورك ذكر معاني عديدة للنُّزول ، وأكَّد على أَنَّه لَيْسَ كلّ نزُول وإنزال نقل وتحويل ... ، وأنَّ المعنى الذي يتناسب مع جلال الله وتنزيهه سبحانه هو : إقباله على أهل الأَرْض بِالرَّحْمَةِ والاستعطاف بالتَّذكير والتَّنبيه الَّذِي يلقى فِي قُلُوب أهل الْخَيْر مِنْهُم من أسعده بتوفيقه لطاعته حتَّى يدفعهم إلى الْجد والتَّوْبَة والإنابة والإقبال على الطَّاعَة أو بمعنى الْإِخْبَار عَمَّا يظْهر من ألطافه

ومعونته وتأييده لأَهل ولَايته فِي مثل هَذَا الْوَقْت بالزَّواجر الَّتِي يقيمها فِي نُفُوسهم والمواعظ الَّتِي تنبِّههم بِقُوَّة التَّرْغِيب والتَّرهيب .

وَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك فعلاً يظهره بأَمْره فيضاف إِلَيْهِ ، وَإِذا كَانَ ذَلِك مُحْتملاً فِي اللُّغَة لم يُنكر أَن يكون لله عزَّ وجلَّ مَلَائِكَة يَأْمُرهُم بالنُّزول إِلىٰ السَّماء الدُّنيا بِهَذَا النداء وَالدُّعَاء ، فيضاف ذَلِك إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ علىٰ الْوَجْه الَّذِي يُقَال : ضرب الْأَمِيرُ اللصَّ ، ونادىٰ فِي الْبِلَاد ، ويشهد لذلك أنَّ حديث النُّزول روي بِضَم الْيَاء من " ينزل " حيث ضَبطه البعض عَمَّن سَمعه عَنهُ من الثِّقَات الضابطين ...

ويؤيِّد هذا ما رواه النَّسائي ، قال : أَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ ، حدَّثنا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ ، حدَّثنا أَبِي ، حدَّثنا الْأَعْمَشُ ، حدَّثنا أَبُو إِسْحَاقَ ، حدَّثنا أَبُو مُسْلِمٍ الْأَغَرُّ ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ، وَأَبَا سَعِيدٍ يَقُولَانِ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حتَّىٰ يَمْضِي شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ ، ثمَّ يَأْمُرُ مُنَادِياً يُنَادِي يَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ " . أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٨٠ برقم ١٠٢٤٣) ، عمل اليوم والليلة (ص٣٤٠ برقم ٤٨٢) .

وأخيراً ذكر الإمام ابن فورك بعضاً من تأويلات السَّلف للنُّزول ، فذكر أنَّه سئل الأوزاعي عَن هَذَا الْخَبَر ، فَقَالَ : يفعل مَا يَشَاء ، وَهَذَا إِشَارَة مِنْهُ إِلىٰ أَنَّ ذَلِك فعل يظْهر مِنْهُ عزَّ ذكره ، وعَن مَالك بن أنس أَنَّه قَالَ فِي هَذَا الْخَبَر : ينزل أمرُه فِي كلّ شَيْء ، وأمَّا هُوَ جلَّ ذكره ، فَهُوَ دَائِم لَا يَزُول ولا يحول ، لأنَّ النُّزول بمعنىٰ الحركة ، يتعارض مع وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، إذ الحركة والانتقال من لوازم المحدثات ...

وقال الإمام العلاَّمَةُ ، شَيْخُ المَالِكِيَّة ، أَبُو محمَّد عَبْدُ الوهَّاب بنُ عَلِيّ بن نَصْرِ بن أَحْمَدَ بنِ حُسَيْن بن هَارُوْنَ ابْنِ أَمِيْرِ العَرَبِ مَالِكِ بن طوق التَّغْلِبِيُّ ، العِرَاقِيُّ ، الفَقِيْهُ، المَالِكِيُّ ، مِنْ أَوْلاَد صَاحِب الرَّحْبَة (٤٢٢هـ) : " ولا يجوز أنْ يثبت له كيفيَّة ، لأنَّ الشَّرعَ لم يَرِد بذلك ، ولا أخبر النبيُّ عليه السَّلام فيه بشيء ، ولا سألته الصَّحابة عنه ، ولأنَّ ذلك يرجع إلىٰ التَّنقُّل والتَّحوُّل وإشغال الحيِّز

والافتقار إلىٰ الأماكِن ، وذلك يَؤُول إلىٰ التَّجسِيم وإلىٰ قِدَم الأجسام ، وهذا كُفرٌ عِند كافَّة أهل الإسلام ". انظر : شرح عقيدة مالك الصغير ، عبد الوهَّاب البغدادي المالكي (ص٢٨) .

فتفسير النُّزول بمعنىٰ الحركة والنُّقلة والتَّحوُّل وإشغال الحَيِّز ، تصريح بالجسميَّة والافتقار إلىٰ الأماكِن ، وذلك يَؤُول إلىٰ التَّجسِيم وإلىٰ قِدَم الأجسام ، وهذا كُفرٌ عِند كافَّة أهل الإسلام ، كما ذكر شَيْخُ المَالِكِيَّة ، أَبُو محمَّد عَبْدُ الوهَّاب بنُ عَلِيّ بن نَصْرِ بن أَحْمَدَ بنِ حُسَيْن بن هَارُوْنَ ابْنِ أَمِيْرِ العَرَبِ مَالِكِ بن طوق التَّغْلِبيُّ الذي قال عنه الخطيب في تاريخه : " وكان ثقة ، ولم يلق من المالكيِّين أحداً أفقه منه ، وكان حسن النَّظر جيِّد العبارة ، وذكره ابن بسَّام في كتاب " الذَّخيرة " ، فقال : كان بقية النَّاس ، ولسان أصحاب القياس . انظر : تاريخ بغداد وذيوله (١١/ ٣٢) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان (٣/ ٢١٩) ...

وقال الإمام العَلاَّمَةُ ، البَارِعُ ، المُتَفَنِّنُ ، الأُسْتَاذُ ، أَبُو مَنْصُوْرٍ البَغْدَادِيُّ ، نَزِيْلُ خُرَاسَان ، وَصَاحِبُ التَّصَانِيْفِ البَدِيْعَةِ ، وَأَحَدُ أَعلاَمِ الشَّافِعِيَّةِ ، الذي كَانَ يُدَرِّس فِي سَبْعَةَ عَشَرَ فَنّاً ، وَيُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ ، وَكَانَ رَئِيْساً مُحْتَشِماً مُثرياً ، والذي قَالَ عنه أَبُو عثْمان الصَّابُوْنِيّ (٤٤٩هـ) : كَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُوْرٍ مِنْ أَئِمَّةِ الأُصُوْلِ (٤٢٩هـ) : " وأجمعوا ... عَلىٰ نفي الْحَرَكَة والسُّكون عَنهُ " . انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١) .

فالأمَّة – علىٰ ما نقل الإمام عبد القاهر البغدادي – أجمعت عَلىٰ نفي الْحَرَكَة والسُّكون عَنهُ سبحانه وتعالىٰ ، فمن فسَّر النُّزول بمعنىٰ الحركة والنُّقلة فقد خالف الإجماع ، ومن خالف الإجماع ، باء بالخسار والضَّياع ... قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء : ١١٥] .

وقال الإِمَامُ ابْنِ الصَّيْرَفِيِّ (٤٤٤هـ) : " ومن قولهم : إنَّ الله جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه : ينزل في كلّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا في الثُّلث الباقي من الليل ، فيقول : " هل من داع يدعوني فأستجيب له ؟ وهل من سائل يسألني فأعطيه ؟ وهل من مستغفر يستغفرني فأغفر له " ؟ حتَّىٰ ينفجر الصُّبح ، علىٰ ما صحَّت به الأخبار ، وتواترت به الآثار عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ونزوله تبارك وتعالىٰ كيف شاء، بلا حدٍّ ، ولا تكييف ، ولا وصف بانتقال ، ولا زوال .

وقال بعض أصحابنا : ينزل أمره تبارك وتعالىٰ ، واحتجَّ بقوله عزَّ وجلَّ ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الطلاق : ١٢] . وكذا روىٰ حبيب عن مالك بن أنس رحمه الله . وسئل الأوزاعي عن التَّنزُّل ، فقال : يفعل الله ما يشاء ، أي : يظهر من أفعاله ما يشاء !! حدَّثنا عبد الرَّحمن بن عثمان ، قال : نا قاسم بن أصبغ ، قال : نا أحمد بن زهير ، قال : نا عبد الوهَّاب بن نجدة ، قال : نا بقية بن الوليد ، قال : نا الأوزاعي ، قال : كان مكحول والزُّهري يقولان : أمرّ الأحاديث كما جاءت .

قال أبو عمرو : وهذا دين الأمَّة ، وقول أهل السُّنَّة في هذه الصِّفات أن تمرَّ كما جاءت بغير تكييف ، ولا تحديد ، فمن تجاوز المرويَّ فيها ، وكيَّف شيئاً منها ، ومثلها بشيء من جوارحنا وآلتنا ، فقد ضلَّ واعتدىٰ ، وابتدع في الدِّين ما ليس منه ، وخرق إجماع المسلمين ، وفارق أئمَّة الدِّين . انظر : الرسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الديانات (ص١٣٤-١٣٨) .

قلت : وهذا الذي نقله الإمام أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي عن الإمام الأوزاعي ، وكذا عن مكحول ، والزُّهري ، والذي وصفه بأنَّه دين الأمَّة ، وقول أهل السُّنَّة والجماعة في هذه الصِّفات ، هو ما كان عليه السَّلف الصَّالح من عقيدة التَّفويض ، قال الإمام عياض بن موسىٰ بن عياض بن عمرون اليحصبي السَّبتي ، أبو الفضل (٥٤٤هـ) : " وَقَوله : " ينزل رَبُّنَا تبَارك وَتَعَالَىٰ كلّ لَيْلَة " ، روىٰ ابْن حبيب عَن مَالك : ينزل أمره وَنَهْيه ، وأمَّا هُوَ تَعَالَىٰ فدائم لَا يَزُول ، وَقَالَهُ غَيره ، وَاعْترض بَعضهم علىٰ هَذَا بِأَنَّ أمره ينزل فِي كلّ حِين ، فَلَا يخْتَصُّ بِوَقْت دون وَقت ، وَهَذَا لَا يلْزم ، لِأَنَّ الَّذِي يخْتَصُّ نزُول أمره بِهِ هَذَا الْوَقْت هُوَ مَا اقْترن بِهَذَا القَوْل : " هَل من سَائل ، هَل من دَاع " الحَدِيث ، وَأمره ينزل أبداً من غير هَذِه الْقَرِينَة ... انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٩) .

وقد استوفيت المسألة من جميع جوانبها – بحمد الله – في رسالتي للماجستير ، وكانت بعنوان : " التَّفويض في صفات الله تعالىٰ بين السَّلف والخلف " ، وكذا في كتابي الكبير " القَوْلُ العَرِيْضُ فِيْ الكَلَامِ عَنِ التَّفْوِيْضِ " ، ولله الحمد والمنَّة ...

وقال الإِمَامُ ابنِ حَزْمِ الظَّاهِرِيُّ (٤٥٦هـ) : " ... وَهَذَا إِنَّما هُوَ فعل يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي سَمَاء الدُّنيا من الْفَتْح لقبُول الدُّعَاء ، وَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَة من مظانِّ الْقبُول والإجابة وَالْمُغْفِرَة للمجتهدين والمستغفرين والتَّائبين . وَهَذَا مَعْهُود فِي اللُّغَة ، تَقول : نزل فلَان عَن حَقِّه ، بِمَعْنىٰ : وهبه لي وتطوّل بِهِ عَليّ . وَمن الْبُرْهَان علىٰ أَنَّه صفة فعل لَا صفة ذَات : أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَّق التَّنَزُّل الْمَذْكُور بِوَقْت محدَّد ، فصحَّ أَنَّه فعلٌ مُحدث فِي ذَلِك مفعول حينئذٍ .

وَقد علمنَا أَنَّ مَا لم يزل فَلَيْسَ مُتَعَلقاً بِزَمَان الْبَتَّةَ ، وَقد بَيَّن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بعض أَلْفَاظ الحَدِيث الْمَذْكُور مَا ذَلِك الْفِعْل ، وَهُوَ أَنَّه ذكر عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ الله يَأْمر مَلَكاً يُنَادي فِي ذَلِك الْوَقْت بذلك ، وَأَيْضاً فَإِنَّ ثلث اللَّيْل مُخْتَلف فِي الْبِلَاد باخْتلَاف الْمطَالع والمغارب ، يعلم ذَلِك ضَرُورَة من بحث عَنهُ ، فصحَّ ضَرُورَة أَنَّه فعل يَفْعَله رَبُّنا تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْوَقْت لأهل كلّ أُفق .

وأمَّا من جعل ذَلِك نُقلة ، فقد قدَّمنَا بطلَان قَوْله فِي إِبطَال القَوْل بالجسم بعون الله وتأييده . وَلَو انْتقل تَعَالَىٰ لَكَانَ محدوداً مخلوقاً مؤلّفاً شاغلاً لمَكَان ، وَهَذِه صفة المخلوقين ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

وَقد حمد الله إِبْرَاهِيم خَلِيله وَرَسُوله وَعَبده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ بَيَّن لِقَوْمِهِ بنقلة الْقَمَر أَنَّه لَيْسَ رَبًّا ، فَقَالَ : ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾[الأنعام : ٧٦] ، وكلّ منتقل عَن مَكَان فَهُوَ آفل عَنهُ ، تَعَالَىٰ الله عَن هَذَا .

وَكَذَلِكَ القَوْل فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾[البقرة : ٢١٠] ، فَهَذَا كُله علىٰ مَا بَينا من أَنَّ الْمَجِيء والإتيان يَوْم الْقِيَامَة فعل يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْيَوْم يُسمىٰ ذَلِك الْفِعْل مجيئاً وإتياناً .

وَقد رُوِّينَا عَن أَحْمد بن حَنْبَل (٢٤١هـ) رَحمَه الله ، أَنَّه قَالَ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، إِنَّما مَعْنَاهُ : وَجَاء أَمر رَبك " . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٣٢) ، وانظر أيضاً : الدرة فيما يجب اعتقاده ، أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ص٣٣٨-٣٣٩) .

وكلام الإمام ابن حزم واضحٌ في الرَّدِّ علىٰ من فسَّر النُّزول بالحركة والنُّقلة ، وأنَّهما من صفات الحوادث المتعلِّقة بالزَّمان والمكان اللذين هما خلق من خلق الله تعالىٰ ، وردَّ علىٰ القائلين بالنُّقلة والجسم ، وَأَنَّه تعالىٰ لَو انْتقل لَكَانَ محدوداً مخلوقاً مؤلَّفاً شاغلاً لمَكَان ، وَهَذِه صفة المخلوقين ، وذهب إلىٰ تفسير النُّزول بأنَّه فعلٌ يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي سَمَاء الدُّنيا من الْفَتْح لقبُول الدُّعَاء ، وَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَة من مظانِّ الْقبُول والإجابة وَالْمُغْفِرَة للمجتهدين والمستغفرين والتَّائبين... وختم كلامه بالنَّقل عن أحمد أنَّه أوَّل المجيء في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، فقال : وَجَاء أَمر رَبِّك ...

وقال الإمام أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظَّاهري (٤٥٦هـ) : " مسألة الله يتنزَّل كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا :

مسألة : وأنَّ الله تعالىٰ يتنزَّل كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا ، وهو فعل يفعله عزَّ وجلَّ ليس حركة ولا نُقلة . برهان ذلك ما حدَّثناه عبد الله بن يوسف ، ثنا أحمد بن فتح ، ثنا عبد الوهَّاب بن عيسىٰ ، ثنا أحمد بن محمَّد ، ثنا أحمد بن علي ، ثنا مسلم بن الحجَّاج ، ثنا يحيىٰ بن يحيىٰ : قرأت علىٰ مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن أبي عبد الله الأغرّ ، وعن أبي سلمة بن عبد الرَّحمن ، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " يتنزَّل الله كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له " .

قال مسلم : وحدَّثناه قتيبة بن سعيد ، ثنا يعقوب – هو ابن عبد الرَّحمن القاري – ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال " : ينزل الله إلىٰ سماء الدُّنيا كلّ ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوَّل ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتَّىٰ يضيء الفجر " . قال مسلم : وحدَّثناه إسحاق بن منصور ، ثنا أبو المغيرة ، ثنا الأوزاعي ، ثنا يحيىٰ هو ابن أبي كثير – ، ثنا أبو سلمة بن عبد الرَّحمن ، ثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إذا مضىٰ شطر الليل أو ثلثاه ، ينزل الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من سائل يعطىٰ ؟ هل من داع يُستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟

حتَّىٰ ينفجر الصُّبح " . قال علي : فالرِّواية عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة من طريق الزُّهري : " إذا بقي ثلث الليل الآخر " ، ومن طريق يحيىٰ بن أبي كثير : " إذا مضىٰ شطر الليل أو ثلثاه " ، ومن طريق أبي صالح ، عن أبي هريرة : " إذا مضىٰ ثلث الليل الأول إلىٰ أن يضيء الفجر " ، وهكذا رواه ابنا أبي شيبة ، وابن راهويه ، عن جرير ، عن منصور ، عن أبي إسحاق السّبيعي ، عن الأغرّ ، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وأوقات الليل مختلفة باختلاف تقدُّم غروب الشَّمس عن أهل المشرق وأهل المغرب ، فصحَّ أنَّه فعل يفعله الباري عزَّ وجلَّ من قبول الدُّعاء في هذه الأوقات ، لا حركة ، والحركة والنُّقلة من صفات المخلوقين ، حاشا الله تعالىٰ منها " . انظر : المحلىٰ بالآثار (١/ ٥١-٥٢) .

فابن حزم هنا يؤكِّد علىٰ أنَّ نزول الله تعالىٰ فعل يفعله الله تعالىٰ في ذلك الوقت من إجابة الدَّاعين ، وإغاثة المستغيثين ، وغفران ذنوب المستغفرين ، وقبول توبة التَّائبين ، لأنَّ الارتماء في أعتاب المولىٰ جلَّ جلاله في وقت السَّحر لا يوفِّق الله له إلَّا من أخلص قلبه وقالبه لله تعالىٰ ، أولئك الذين هجروا دفء الفراش وليونته ، ونفضوا الكرىٰ عن عيونهم ، والكسل عن أبدانهم ، وأقبلوا علىٰ الله تعالىٰ وَجِلِين مُشفقين من ذنوبهم وتقصيرهم ، راغبين بفيض عطاء ربِّهم ، فالليل مَعبَد العابدين ، وخلوة الصَّادقين ، ووقت مناجاة الله ربِّ العالمين ، وسؤال المحتاجين ، واستغفار المستغفرين التَّائبين ، وشرف النُّسَّاك المتعبِّدين ، وهو محطُّ نزول البركات ، والرَّحمات ، وإجابة السُّؤالات وغفران الخطيئات ، وهو بحقٍّ مدرسة طلَّاب الآخرة الذين وصفهم الله تعالىٰ بقوله سبحانه : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] ، وهم الذين امتدحهم الله تعالىٰ بقوله : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات : ١٧- ١٨] ، أولئك الصِّيد الذين أقضَّ الخوفُ مضاجعهم ، وكأنَّ زفير جهنَّم في آذانهم ، فهم يخافونه ويرجونه سبحانه : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر : ٩] ، فهم بين الخوف والرَّجاء ، في الصَّباح والمساء ، لا يملُّون ولا يفترون ، وقد آمنوا وأيقنوا أنَّ يد الله سبحانه وتعالىٰ أبداً مبسوطة بالعطاء والقبول ، وعلموا كذلك أنَّ عمل الليل ليس كعمل النَّهار ،

كيف لا والله تعالىٰ قد امتدح المستغفرين بالأسحار فقال : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران : ١٧] ، وذلك لأنَّ الاستغفار في وقت السَّحر فيه من المكابدة والمجاهدة ما لا يوجد في النَّهار ... ويؤكِّد الإمام ابن حزم في النِّهاية علىٰ أنَّ نزول الله تعالىٰ ليس بحركة ولا نُقلة ، لانَّهما لازمان ولا ينفكَّان عن الجسميَّة ، والله يتعالىٰ عن ذلك كلِّه ، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] .

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، الثَّبْتُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ الحُسَيْنِ بن عَلِيٍّ بنِ مُوْسَىٰ الخُسْرَوْجِرديُّ ، البيهقي ، الخُرَاسَانِيُّ ، الفَقِيْهُ ، الحَافِظُ الأُصُوْلِي ، الدِّين الوَرِع ، وَاحِدُ زَمَانِهِ فِي الحِفْظِ ، وَفَردُ أَقرَانه فِي الإِتْقَان وَالضَّبط أيضاً : " أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ ، أنا أَبُو محمَّد بْنُ حَيَّانَ أَبُو الشَّيخ الْأَصْبَهَانِيُّ ، قَالَ : وَفِيمَا أَجَازَنِي جَدِّي يَعْنِي مَحْمُودَ بْنَ الْفَرَحِ ، قَالَ : قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ (٢٣٨هـ) : سَأَلَنِي ابْنُ طَاهِرٍ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَعْنِي فِي النُّزول - فَقُلْتُ لَهُ : النُّزول بِلَا كَيْفٍ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الصِّفات كَانَ مَذْهَبُ السَّلف فِيهَا الْإِيمَانَ بِهَا ، وَإِجْرَاءَهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا وَنَفْيَ الْكَيْفِيَّةِ عَنْهَا . وَذَكَرَ الْحِكَايَةَ الَّتِي أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ ، أنا أَبُو محمَّد بْنُ حَيَّانَ ، ثنا الْحَسَنُ بْنُ محمَّد الدَّارَكِيُّ ، ثنا أَبُو زُرْعَةَ ، ثنا ابْنُ مُصَفَّىٰ ، ثنا بَقِيَّةُ ، ثنا الْأَوْزَاعِيُّ ، عَنِ الزُّهري ، وَمَكْحُولٍ ، قَالَا : امْضُوا الْأَحَادِيثَ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِّ الْحَافِظُ ، ثنا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بَالَوَيْهِ ، ثنا محمَّد بْنُ بِشْرِ بْنِ مَطَرٍ ، ثنا الْهَيْثَمُ بْنُ خَارِجَةَ ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، قَالَ : سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ ، وَمَالِكٌ ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ فِي التَّشْبِيهِ ، فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفِيَّةٍ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ (٣٨٨هـ) : وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ : كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ : (كدخداىء كارخويش كن) يَنْزِلُ كَمَا يَشَاءُ . أَخْبَرَنَا أَبُو عُثْمَانَ ، ثنا أَبُو يَعْقُوبَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْعَدْلُ ، ثنا مَحْبُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن الْقَاضِي ، ثنا جَدِّي أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَحْبُوبٍ ،

ثنا أَحْمَدُ بْنُ حَيَوَيْهِ ، حدَّثنا أَبُو عَبْدِ الرَّحمن الْعَتَكِيُّ ، ثنا محمَّد بْنُ سَلَّامٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللهَّ بْنَ الْمُبَارَكِ ، فَذَكَرَ حِكَايَةً قَالَ فِيهَا : فَقَالَ الرَّجُلُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحمن ، كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنِ الْمُبَارَكِ : " كدخاي كارخويش كن " يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله : وإنَّما يُنكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزول الَّذِي هُوَ نَزْلَةٌ مِنْ أَعْلَىٰ إِلىٰ أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلىٰ تَحْتٍ ، وَهَذَا صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإنَّما هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَائِهِمْ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، لَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ ، وَلَا عَلَىٰ أَفْعَالِهِ كِمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] .

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ الله فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ : وَهَذَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أُمِرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِظَاهِرِهِ ، وَأَنْ لَا نَكْشِفَ عَنْ بَاطِنِهِ ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي ذَكَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ ، فَقَالَ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران : ٧] الْآيَةَ ، فَالْمُحْكَمُ مِنْهُ يَقَعُ بِهِ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ وَالْعَمَلُ ، وَالْمُتَشَابِهُ يَقَعُ بِهِ الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ الظَّاهِرُ ، وَيُوكَلُ بَاطِنُهُ إِلىٰ اللهَّ عزَّ وجلَّ ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران : ٧] ، وإنَّما حَظُّ الرَّاسِخِينَ أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا بِهِ كلّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا .

وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[البقرة : ٢١٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، وَالْقَوْلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عِنْدَ عُلَمَاءِ السَّلف هُوَ مَا قُلْنَاهُ ، وَرُوِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ الله عَنْهُمْ .

وَقَدْ زَلَّ بَعْضُ شُيُوخِ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِمَّنْ يُرْجَعُ إِلىٰ مَعْرِفَتِهِ بِالْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ ، فَحَادَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ حِينَ رَوَىٰ حَدِيثَ النُّزول ، ثمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلىٰ

السَّماء ؟ قِيلَ لَهُ : يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ . فَإِنْ قَالَ : هَلْ يَتَحَرَّكُ إِذَا نَزَلَ ؟ فَقَالَ : إِنْ شَاءَ يَتَحَرَّكُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَتَحَرَّكْ . وَهَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ عَظِيمٌ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالْحَرَكَةِ ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ يَتَعَاقَبَانِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ ، وإِنَّما يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْحَرَكَةِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَعْرَاضِ الْحَدَثِ ، وَأَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَعَالٍ عَنْهُمَا ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . فَلَوْ جَرَىٰ هَذَا الشَّيخ عَلَىٰ طَرِيقَةِ السَّلف الصَّالح وَلَمْ يُدْخِلْ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ لَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ بِهِ الْقَوْلُ إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ الْفَاحِشِ . قَالَ : وإِنَّما ذَكَرْتُ هَذَا لِكَيْ يُتَوَقَّىٰ الْكَلَامُ فِيمَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، فإِنَّه لَا يُثْمِرُ خَيْراً وَلَا يُفِيدُ رُشْداً ، وَنَسْأَلُ اللهَ الْعِصْمَةَ مِنَ الضَّلَالِ ، وَالْقَوْلِ بِمَا لَا يَجُوزُ مِنَ الْفَاسِدِ وَالْمُحَالِ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ (٢٧٦هـ) : قَدْ يَكُونُ النُّزول بِمَعْنَىٰ إِقْبَالٍ عَلَىٰ الشَّيء بِالْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْهُبُوطُ وَالِارْتِفَاعُ وَالْبُلُوغُ وَالْمَصِيرُ ، وَأَشْبَاهُ هَذَا الْكَلَامِ ، وَذَكَرَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ . قَالَ : وَلَا يُرَادُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا انْتِقَالٌ يَعْنِي بالذَّات ، وإِنَّما يُرَادُ بِهِ الْقَصْدُ إِلىٰ الشَّيء بِالْإِرَادَةِ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّةِ. قُلْتُ : وَفِيمَا قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله كِفَايَةٌ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلىٰ مَعْنَاهُ الْقُتَيْبِيُّ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ : لَا نُحَتِّمُ عَلَىٰ النُّزول مِنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلَكِنَّا نُبَيِّنُ كَيْفَ هُوَ فِي اللُّغَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ .

وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الْأُسْتَاذِ أَبِي عُثْمَانَ رَحِمَهُ الله فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ عَقِيبَ حَدِيثِ النُّزول : قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ يَعْنِي الْحَمْشَاذِيَّ (٣٨٨هـ) عَلَىٰ إِثْرِ الْخَبَرِ : وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ : " يَنْزِلُ الله " فَسُئِلَ أَبُو حَنِيفَةَ (١٥٠هـ) عَنْهُ ، فَقَالَ : يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ .

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ (١٧٩هـ) : نُزُولُهُ إِقْبَالُهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَنْزِلُ نُزُولاً يَلِيقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِلَا كَيْفٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ نُزُولُهُ مِثْلَ نُزُولِ الْخَلْقِ بِالتَّجَلِّي وَالتَّمَلِّي ، لأَنَّه جَلَّ جَلَالُهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مِثْلَ صِفَاتِ الْخَلْقِ ، كَمَا كَانَ مُنَزَّهاً عَنْ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مِثْلَ ذَاتِ الْغَيْرِ ، فَمَجِيئُهُ وَإِتْيَانُهُ وَنُزُولُهُ عَلَىٰ حَسْبِ مَا يَلِيقُ بِصِفَاتِهِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَكَيْفِيَّةٍ . ثُمَّ رَوَىٰ الْإِمَامُ رَحِمَهُ الله عُقَيْبَ حِكَايَةِ ابْنِ الْمُبَارَكِ (١٨١هـ) حِينَ سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ نُزُولِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ : " كد خداي كارخويش كن " يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ .

وَقَدْ سَبَقَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ بِإِسْنَادِهِ وَكَتَبْتُهَا حَيْثُ ذَكَرَهَا أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله . انظر : الأسماء والصِّفات (٢/ ٣٧٦-٣٧٨) .

وقال الإمام البيهقي – أيضاً – في كلامه على حديث النُّزول : " ... وهذا حديث صحيح رواه جماعة من الصَّحابة عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحاب الحديث فيما ورد به الكتاب والسُّنَّة من أمثال هذا ، ولم يتكلَّم أحد من الصَّحابة والتَّابعين في تأويله على قسمين : منهم من قبِلَه وآمن به ولم يؤوله ، وَوَكَلَ علمه إلى الله ، ونفى الكيفيَّة والتَّشبيه عنه ، ومنهم من قبله وآمن به وحمله على وجه يصحُّ استعماله في اللغة ولا يناقض التَّوحيد .

وقد ذكرنا هاتين الطَّريقتين في كتاب " الأسماء والصِّفات " في المسائل التي تكلَّموا فيها من هذا الباب .

وفي الجملة : يجب أن يُعلم ... أنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلى مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحركة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجسم ، وأنَّ وجهه ليس بصورة ، وأنَّ يده ليست بجارحة ، وأنَّ عينه ليست بحدقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص : ٤] ، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم : ٦٥] .

أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ ، أنا أبو بكر محمَّد بن أحمد بن بالويه ، ثنا محمَّد بن بشر بن مطر ، ثنا الهيثم بن خارجة حدَّثنا الوليد بن مسلم ، قال : سئل الأوزاعي (١٥٧هـ) ، ومالك (١٧٩هـ) ، وسفيان الثَّوري (١٦١هـ) ، والليث بن سعد (١٧٥هـ) عن هذه الأحاديث ، فقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيفيَّة .

أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ ، أخبرني محمَّد بن يزيد ، سمعت أبا يحيى البزَّار ، يقول : سمعت العبَّاس بن حمزة ، يقول : سمعت أحمد بن أبي الحوَّاري ، يقول : سمعت سفيان بن عيينة ، يقول : كلّ ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسُّكوت عليه . قال الشَّيخ : وإنَّما أراد به – والله أعلم – فيما تفسيره يؤدِّي إلى تكييف ، وتكييفه يقتضي تشبيهه له بخلقه في أوصاف الحدوث .

أخبرنا أبو علي الحسين بن محمَّد الروذباري ، أنا محمَّد بن بكر ، ثنا أبو داود ، ثنا القعنبي ، ثنا يزيد بن إبراهيم عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن القاسم بن محمَّد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قرأ رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم هذه الآية : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران : ٧] ، قالت رضي الله عنها : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " فإذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّىٰ الله فاحذروهم " .

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثني أبو بكر محمَّد بن علي الفقيه القفال ، ثنا عمر بن محمَّد بن بحير ، ثنا يونس بن عبد الأعلىٰ ، قال : قال لي محمَّد بن إدريس الشَّافِعِي رحمه الله : لا يقال للأصيل لِمَ ولا كيف " . انظر : الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد علىٰ مذهب السَّلف وأصحاب الحديث (ص١١٧-١١٩) .

وقال الإمام البيهقي أيضاً : " أَخۡبَرَنَا أَبُو عَبۡدِ اللهِ الۡحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعۡتُ أَبَا محمَّد أَحۡمَدَ بۡنَ عَبۡدِ اللهِ الۡمُزَنِيَّ (٣٥٦هـ) يَقُولُ : " حَدِيثُ النُّزول قَدۡ ثَبَتَ عَنۡ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مِنۡ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ . وَوَرَدَ فِي التَّنۡزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوۡلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[الفجر : ٢٢] ، والنُّزول وَالۡمَجِيءُ صِفَتَانِ مَنۡفِيَّتَانِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنۡ طَرِيقِ الۡحَرَكَةِ وَالِانۡتِقَالِ مِنۡ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ ، بَلۡ هُمَا صِفَتَانِ مِنۡ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ بِلَا تَشۡبِيهٍ ، جَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَقُولُ الۡمُعَطِّلَةُ لِصِفَاتِهِ ، وَالۡمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوًّا كَبِيرًا " .

قُلۡتُ : وَكَانَ أَبُو سُلَيۡمَانَ الۡخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِنَّمَا يُنۡكِرُ هَذَا وَمَا أَشۡبَهَهُ مِنَ الۡحَدِيثِ مَنۡ يَقِيسُ الۡأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزول الَّذِي هُوَ تَدَلٍّ مِنۡ أَعۡلَىٰ إِلَىٰ أَسۡفَلَ ، وَانۡتِقَالٌ مِنۡ فَوۡقٍ إِلَىٰ تَحۡتٍ وَهَذِهِ صِفَةُ الۡأَجۡسَامِ وَالۡأَشۡبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنۡ لَا تَسۡتَوۡلِي عَلَيۡهِ صِفَاتُ الۡأَجۡسَامِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الۡمَعَانِيَ غَيۡرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنۡ قُدۡرَتِهِ وَرَأۡفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطۡفِهِ عَلَيۡهِمۡ ، وَاسۡتِجَابَتِهِ دُعَاءَهُمۡ ، وَمَغۡفِرَتِهِ لَهُمۡ ، يَفۡعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ كَيۡفِيَّةٌ وَلَا عَلَىٰ أَفۡعَالِهِ كَمِّيَّةٌ ، سُبۡحَانَهُ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِ شَيۡءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الۡبَصِيرُ " . انظر : السنن الكبرىٰ (٣/ ٤) .

فقد أكّد الإمام البيهقي في كلامه السَّابق على أنّه لا مجال البتّة لإنكار النُّزول فقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ ، لكن لا يجوز البتّة أن يفسَّر النُّزول بأي معنىٰ من معاني البشر ، كالْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ ...

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، حَافظُ المَغْرِبِ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، أَبُو عُمَرَ يُوْسُفُ بنُ عَبْدِ الله بنِ محمَّد بنِ عَبْدِ البَرِّ بنِ عَاصِمٍ النَّمَرِيُّ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، المَالِكِيُّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ الفَائِقَة (٤٦٣هـ) : " وَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّماء الدُّنيا " عِنْدَهُمْ مِثْلُ قَوْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[الأعراف : ١٤٣] ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، كُلُّهُمْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَيَتَجَلَّىٰ وَيَجِيءُ بِلَا كَيْفٍ ، لَا يَقُولُونَ : كَيْفَ يَجِيءُ وَكَيْفَ يَتَجَلَّىٰ ، وَكَيْفَ يَنْزِلُ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ جَاءَ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ تَجَلَّىٰ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ يَنْزِلُ ، لأَنَّه لَيْسَ كَشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَتَعَالَىٰ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَلَا شَرِيكَ لَهُ " . انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٥٣) .

وقال الإمامُ ابن عَبْدِ البَرِّ أيضاً : " وَقَدْ رَوَىٰ محمَّد بْنُ عَلِيٍّ الْجَبَلِيُّ ، وَكَانَ مِنْ ثِقَاتِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَيْرَوَانِ ، قَالَ : حدَّثنا جَامِعُ بْنُ سَوَادَةَ بِمِصْرَ ، قَالَ : حدَّثنا مُطَرِّفٌ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ (١٧٩هـ) أَنَّه سُئِلَ عَنِ الْحَدِيثِ : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي اللَّيْلِ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " ، فَقَالَ مَالِكٌ : يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَما قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ الله عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّه تَتَنَزَّلُ رَحْمَتُهُ وَقَضَاؤُهُ بِالْعَفْوِ وَالِاسْتِجَابَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ ، أَيْ : أَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلِذَلِكَ مَا جَاءَ فِيهِ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ ، وَقَدْ رَوَىٰ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ أَنَّه قَالَ : يَا رَسُولَ اللهَ ، أَيُّ اللَّيْلِ أَسْمَعُ ؟ قَالَ : جَوْفُ اللَّيْلِ الْغَابِرُ يَعْنِي الْآخِرَ ، وَهَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ مَا ذَكَرْنَا ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَنْدُوباً فِيهِ إِلَىٰ الدُّعَاءِ ، كَما نُدِبَ إِلَىٰ الدُّعَاءِ عِنْدَ الزَّوَالِ ، وَعِنْدَ النِّدَاءِ ، وَعِنْدَ نُزُولِ غَيْثِ السَّماء ، وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِنَ السَّاعَاتِ الْمُسْتَجَابِ فِيهَا الدُّعَاءُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَالَ آخَرُونَ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ . أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهَ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ ، قَالَ : حدَّثنا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ ، قَالَ : حدَّثنا يَحْيَىٰ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ بِمِصْرَ ، قَالَ : سَمِعْتُ نُعَيْمَ بْنَ حَمَّادٍ (٢٢٨هـ) ، يَقُولُ : حَدِيثُ النُّزول يَرُدُّ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ قَوْلَهُمْ ، قَالَ : وَقَالَ نُعَيْمٌ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ، قَالَ أَبُو عُمَرَ : لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ مِنْ

أَهْلِ السُّنَّة ، لِأَنَّ هَذَا كَيْفِيَّةٌ ، وَهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا فِيمَا يُحَاطُ بِهِ عِيَاناً ، وَقَدْ جَلَّ الله وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَمَا غَابَ عَنِ الْعُيُونِ ، فَلَا يَصِفُهُ ذَوُو الْعُقُولِ إِلَّا بِخَبَرٍ وَلَا خَبَرَ فِي صِفَاتِ اللهَّ إِلَّا مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَا نَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَشْبِيهٍ أَوْ قِيَاسٍ أَوْ تَمْثِيلٍ أَوْ تَنْظِيرٍ ، فإنَّه : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصير " . انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٤٤-١٤٥) .

وكلام ابن عبد البر تضمَّن ثلاثة أمور ، هي :

١-نقل عن الإمام مالك أنَّه أوَّل النُّزول بـ : نزول أَمْرُهُ ، أَيْ نُزُوْل رَحْمَتُهُ وَقَضَاؤُهُ بِالْعَفْوِ وَالِاسْتِجَابَةِ ، وأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، لأنَّه وقت التَّجلِّيات التي لا يستحقُّها إلَّا الذين هجروا الدُّنيا بما فيها وأقبلوا علىٰ الله تعالىٰ يذكرون ويصلُّون ويستغفرون ويبتهلون ...

٢-لا أرىٰ صحَّة الكلام الذي نسبه ابن عبد البر لنعيم بن حمَّاد ، حيث قال : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ، فهو من رواية : يَحْيَىٰ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ ، وهو متكلَّمٌ فيه . انظر : الجرح والتعديل (٩/ ١٧٥) ، المغني في الضعفاء (٢/ ٧٤٠) ، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (٦/ ٨٥٠) ، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (وعليه إتحاف الخاصة بتصحيح الخلاصة للعلامة الحافظ البارع علي بن صلاح الدِّين الكوكباني الصنعاني) (ص٤٢٦) .

وكان يحدِّث بالأحاديث الموضوعة " . انظر : المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين (٣/ ٨٢) .

وله أحاديث منكرة . انظر : الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة (٢/ ٣٧١) .

قال فيه مغلطاي (٧٦٢هـ) : " وكان يتشيَّع ، وكان صاحب وراقة ، يحدِّث من غير كُتبه فطعن عليه " . انظر : إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٢/ ٣٤٧) .

وقال فيه الحافظ ابن حجر : " قال بن أبي حاتم : كتبت عنه وكتب عن أبي وتكلَّموا فيه . وقال بن يونس : كان عالماً بأخبار البلد ، وبموت العلماء ، وكان حافظاً للحديث ، وحدَّث بما لم يكن يوجد عند غيره ، وتوفِّي في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين . قلت : وقال مسلمة بن قاسم : يتشيَّع ، وكان صاحب وراقة ، يحدِّث من غير كُتبه ، فطعن فيه لأجل ذلك " . انظر : تهذيب التهذيب (١١/ ٢٥٧) .

٣- انتقد الإمام ابن عبد البر من يقولون من مدَّعي السَّلفيَّة : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ، قَالَ أَبُو عُمَرَ : لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة ، لِأَنَّ هَذَا كَيْفِيَّةٌ ، وَهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا ،

لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا فِيمَا يُحَاطُ بِهِ عِيَاناً ، وَقَدْ جَلَّ اللهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَمَا غَابَ عَنِ الْعُيُونِ ، فَلَا يَصِفُهُ ذَوُو الْعُقُولِ إِلَّا بِخَبَرٍ وَلَا خَبَرَ فِي صِفَاتِ اللهِ إِلَّا مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَا نَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَشْبِيهٍ أَوْ قِيَاسٍ أَوْ تَمْثِيلٍ أَوْ تَنْظِيرٍ ، فإنَّه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] . وهذا كلام نفيس من الإمام ابن عبد البر (٤٦٣هـ) ، يردُّ علىٰ من يدَّعون السَّلفيَّة بالباطل والبهتان ، لأنَّ السَّلف الصَّالح لم يتطرَّقوا في كلامهم للذَّات ، قال الإمام الذَّهبي : " قد ذكرنَا أَنَّ لفظَة (بِذَاته) لاَ حَاجَةَ إِلَيْهَا ، وَهِيَ تَشْغَبُ النُّفُوسَ ، وَتركُهَا أَوْلَىٰ – وَاللهُ أَعْلَمُ – " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٩/ ٦٠٧) .

وقد اعترف الشَّيخ الألباني بأنَّ لفظة الذَّات لم تكن معروفة في عهد الصَّحابة ، وفي ذلك قال : " قلت : ومن هذا العرض يتبيَّن أنَّ هاتين اللفظتين : " بذاته " و" بائن " لم تكونا معروفتين في عهد الصَّحابة ، رضي الله عنهم " . انظر : مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٧) .

وفي كتابه الطيِّب : " سير أعلام النُّبلاء " ، قال الإمام الذَّهبي في ترجمة : عبد الجليل بن محمَّد بن عبد الواحد بن محمَّد الأصبهاني كوتاه : " قالَ السَّمْعَانِيُّ : لَمَّا وَرَدْتُ أَصْبَهَانَ ، كَانَ مَا يَخْرُجُ مِنْ دَارِهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ مُهِمَّةٍ ، كَانَ شَيْخُهُ إِسْمَاعِيْلُ الحَافِظُ هَجَرَهُ ، وَمَنَعَهُ مِنْ حُضُوْرِ مَجْلِسِهِ لِمَسْأَلَةٍ جَرَتْ فِي النُّزول ، وَكَانَ كُوتَاهُ يَقُوْلُ: النُّزول بالذَّات ، فَأَنْكَرَ إِسْمَاعِيْلُ هَذَا ، وَأَمرَهُ بِالرُّجُوْعِ عَنْهُ ، فَمَا فعلَ ... وَمَسْأَلَةُ النُّزول فَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَتَرْكُ الخوضِ فِي لوازِمِهِ أَوْلَىٰ ، وَهُوَ سَبِيْلُ السَّلف ، فَمَا قَالَ هَذَا : نُزُوْلُهُ بِذَاتِهِ ، إِلَّا إِرغَاماً لِمَنْ تَأَوَّلَهُ ، وَقَالَ : نُزولُهُ إِلَىٰ السَّماء بِالعِلْمِ فَقَطْ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ المِرَاءِ فِي الدِّين . وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، وَنَحْوُهُ ، فَنَقُوْلُ : جَاءَ ، وَيَنْزِلُ ، وَننَهَىٰ عَنِ القَوْلِ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ ، كَمَا لاَ نَقُوْلُ : يَنْزِلُ بِعِلْمِهِ ، بَلْ نَسكتُ ، وَلاَ نَتفَاصَحُ عَلَىٰ الرَّسول –صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِعبَارَاتٍ مُبْتَدَعَةٍ – وَاللهُ أَعْلَمُ – ". انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٣٠-٣٣١) .

وقال الفقيه ، المتكلِّم ، العَلاَّمَةُ ، المُفْتِي ، أَبُو المُظَفَّرِ طَاهِرُ بنُ محمَّد الإسفرَايينِيّ ، ثمَّ الطُّوْسِيُّ ، الشَّافِعِي ، الأشعري ، صَاحِبُ التَّفْسِيْرِ الكَبِيْرِ (٤٧١هـ) : " ... وأن تعلم أنَّ الحركة ، والسُّكون ،

والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتَّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، والشَّكل ، والحيِّز ، والمقدار ، والنّواحي ، والأقطار ، والجوانب ، والجهات كلّها لا تجوز عليه تعالىٰ ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنِّهاية .... وأن تعلم أنَّ كلّ ما دلَّ علىٰ حدوث شيء من الحدِّ ، والنِّهاية ، والمكان ، والجهة ، والسُّكون ، والحركة ، فهو مستحيل عليه سبحانه وتعالىٰ ، لأنَّ ما لا يكون محدثاً لا يجوز عليه ما هو دليل علىٰ الحدوث " . انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦٠-١٦١) .

فالإمام الإِسفرَايينِيّ يقول بوجوب تنزيه الله تعالىٰ عن جميع لوازم المحدثات ، مثل : الحركة ، والسُّكون ، والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، ... لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنِّهاية ... وهي مستحيلة عليه سبحانه وتعالىٰ ، وهذه عقيدة ودين جمهور أهل السُّنَّة والجماعة ، ولا عبرة بمن خالف ، فرأيه زائف تالف ...

وقال الإمام أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشِّيرازي (٤٧٦هـ) : " ... والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قديم أزلي أبداً كان وأبداً يكون ، لا يجوز عليه التَّغيير ، ولا التَّبديل ، ولا الانتقال ، ولا التَّحريك " . انظر : الإشارة إلىٰ مذهب أهل الحق (ص٢٣٥) .

فالتَّغيّر في الذَّات والتَّبدُّل في الصِّفات مُستحيل علىٰ الله تعالىٰ ، لأنَّ ذلك مِن صفات المخلوقات ، وبناء علىٰ ذلك : يستحيل عليه تعالىٰ النُّزول بمعنىٰ الانتقال ، لأنَّ هذا المعنىٰ فيه وصف لله بالحركة ، والله مُنَزَّه عن الحركة بإجماع الأمَّة ، كما نقلنا عن الإمام أبي منصور البغداديّ وغيره من أهل العلم ...

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ ، أَبُو سَعْدٍ عَبْدُ الرَّحمن بنُ مَأْمُوْنِ بن عَلِيٍّ النَّيسَابورِيُّ المُتَوَلِّي الشَّافِعِي (٤٧٨هـ) : " وأمَّا قوله عليه السَّلام : " ينزل الله في كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا " ، والمراد به أنَّه يبعث مَلَكاً إلىٰ سماء الدُّنيا حتَّىٰ ينادي ، علىٰ ما ورد في الخبر ، ثمَّ أضاف نزول الملك إلىٰ نفسه ، كما

يُقال : نادىٰ الأميرُ في البلد ، إذا أمر بالنِّداء ، ويُقال : قتَل الأميرُ فلاناً ، والقاتل غيره ، ويضاف إلىٰ الأمير من حيث أنَّه هو الآمر به " . انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص٧٨) .

فالإمام المتولِّي الشَّافِعِي يذهب إلىٰ تأويل النُّزول ، وأنَّ الله تعالىٰ يبعث مَلَكاً إلىٰ سماء الدُّنيا حتَّىٰ يُنادي ، علىٰ ما ورد في الخبر ، ثمَّ أضاف نزول المَلك إلىٰ نفسه ، كما يقال : نادىٰ الأميرُ في البلد ، إذا أمر بالنِّداء ، ويقال : قتل الأميرُ فلاناً ، والقاتل غيره ... فالنَّازل هو المَلك الذي ينزلُ بأمره ونهيه تعالىٰ ، وقد حكىٰ ابن فورك – كما تقدَّم – أنَّ بعض المشايخ ضبطه بضم الياء من ينزل ، وذكر أنَّه ضبط عمَّن سمع منه من الثِّقات الضَّابطين ، ، فيكون معدَّىٰ إلىٰ مفعول محذوف ، أي : ينزلُ اللهُ مَلكاً يأمره أن ينادي في ذلك الوقت ...

وقال الإِمَامُ الكَبِيْرُ ، شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ ، إِمَامُ الحَرَمَيْنِ ، أَبُو المَعَالِي عَبْدُ المَلِكِ ابْنُ الإِمَامِ أَبِي محمَّد عَبْد الله بن يُوْسُفَ بنِ عَبْدِ الله بن يُوْسُفَ بنِ محمَّد بنِ حَيُّوْيَه الجُوَيْنِيُّ ، ثمَّ النَّيْسَابُوْرِيُّ ، ضِيَاءُ الدِّين ، الشَّافِعِي ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٤٧٨هـ) ، في كلامه عمَّا رُوي بشأن حديث النُّزول : " وأمَّا الأحاديث التي يتمسَّكون بها ، فآحاد لا تُفضي إلىٰ العلم ، ولو أضربنا عن جميعها لكان سائغاً ، لكنَّا نومئ إلىٰ تأويل ما دُوِّن منها في الصِّحاح ، فمنها حديث النُّزول ، وهو ما روي عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " ينزل الله تعالىٰ إلىٰ السَّماء الدُّنيا كلّ ليلة جمعة ويقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من داع فأجيب له " الحديث . ولا وجه لحمل النُّزول علىٰ التَّحوُّل ، وتفريغ مكان وشغل غيره ، فإنَّ ذلك من صفات الأجسام ونعوت الأجرام ، وتجويز ذلك يؤدِّي إلىٰ طرفي نقيض ، أحدهما : الحكم بحدوث الإله ، والثَّاني : القدح في الدَّليل علىٰ حدوث الأجسام ، والوجه حمل النُّزول ، وإنْ كان مضافاً إلىٰ الله تعالىٰ ، علىٰ نزول ملائكته المقربين ، وذلك سائغ غير بعيد ، ونظير ذلك قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المائدة : ٣٣] ، معناه : إنَّما جزاء الذين يحاربون أولياء الله ، ولا يبعد حذف المضاف وإقامة المضاف إليه تخصيصاً .

وممَّا يتَّجه في تأويل الحديث أن يُحمل النُّزول على إسباغ الله نعماءه على عباده مع تماديهم وإصرارهم على العصيان ، وذهولهم في الليالي عن تدبُّر آيات الله تعالى ، وتذكر ما هم بصدده من أمر الآخرة .

وقد يُطلق النُّزول في حقِّ الواحد منا على إرادة التَّواضع ، فيُقال : نزل المَلك عن كبريائه إلى الدَّرجة الدُّنيا ، إذا حلم على رعيته ، وانحطَّ عن سطوته ، مع تمكُّنه من تشديد الوطأة عليهم .

ومن الدَّليل على أنَّ النُّزول ليس من شرطه الانتقال : إطلاق النُّزول مضافاً إلى القرآن ، مع العلم باستحالة انتقال الكلام كما سبق ... " . انظر : كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص١٦١-١٦٢) .

وقد أفاد كلام الإمام الجويني أنَّ حديث النُّزول حديث آحاد ، وحديث الآحاد ليس حجَّة في العقائد ، لأنَّها لا تُفيد إلَّا الظَّن ، قال الإمام أبو منصور عبدالقادر البغدادي (٤٢٩هـ) : " وأخبار الآحاد متى صحَّ إسنادها وكانت متونها غير مستحيلة في العقل ، كانت موجبة العمل بها دون العلم " . انظر : أصول الدِّين (ص١٢) .

وقد أفضنا سابقاً في الكلام على أنَّ خبر الآحاد ليس حجَّة في العقائد ...

ومن المعلوم أنَّ النُّزول ليس من شرطه الانتقال ، بدليل إطلاق النُّزول مضافاً إلى القرآن ، مع العلم باستحالة انتقال الكلام ... كما أنَّ القرآن الكريم ، فضلاً عن السُّنَّة المطهَّرة ، جاء فيهما النُّزول بمعاني لا يُقصد منها النُّزول من علو إلى سفل ، من ذلك :

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[الصافات : ١٧٧] ، والمعنى : فإذا حلَّ بهم العذاب ...

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام : ٩٣] ، والمعنى سأقول ...

وقوله تعالى : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[التوبة : ٤٠] ، والمعنى : ألقى السَّكينة في قلبه ...

وقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[الزمر : ٦] ، والمعنى : جعل أو خلق لكم ...

وقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد : ٢٥] ، والمعنىٰ : خلقنا أو جعلنا ...

وقوله تعالىٰ : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص : ٢٤] ، والكلام خرج مخرج الثَّناء علىٰ الله علىٰ ما رزقه ومنحه وأعطاه ...

وقد ذكرنا أقوال فحول العلماء في تفسير هذه الآيات في غير ما مكان من كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ الله عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْل " ...

وقال الإمام ، القَاضِي الصَّدْر ، العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ الحَنَفِيَّة بَعْد أَخِيْهِ الكَبِيْرِ ، إِمَامَ الأَئِمَّة عَلَىٰ الإِطلاَق ، وَالموفودَ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاق ، الذي ملأ الكَوْن بِتَصَانِيْفِه فِي الأُصُوْل وَالفُرُوْع أَبُو اليُسْرِ محمَّد بنُ محمَّد بنِ الحُسَيْنِ ابنِ المُحَدِّث عبد الكَرِيْم بن مُوْسَىٰ بن مُجَاهِدٍ النَّسَفِي ، البزدوي (٤٩٣هـ) في كلامه علىٰ حديث : " أنَّ الله ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا ليلة النِّصف من شعبان " : " وأمَّا حديث النُّزول : بعضهم قالوا : إنَّ هذا الحديث ليس بمشهور ، وهذا من باب العلم ، والعلم لا يثبت إلَّا بخبر مشهور ، فلا يكون هذا الخبر حجَّة في هذا الباب . علىٰ أنَّه إن ثبت النُّزول فليس النُّزول من صفات الأجسام . فإنَّ النُّزول ليس بانتقال ، بل هو اتِّصال أثر الشَّيء بالشَّيء ، يقال : نزل بفلان المُلاء – يعني : أَشرافُ القوم وسَراتهم –، ونزل إليه المرض ونزل به ، وليس هذا بانتقال ، وكذا يقال : نزل إلىٰ سخطة فلان ونزل فيَّ سخطةُ فلان ، ونزل فلان إلىٰ غضب فلان بي ، أي : اتَّصل بي أثر غضبه ، وقام بي أثره . فيكون معنىٰ قوله : " أنَّ الله ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا ليلة النِّصف من شعبان " ، فإنَّ هذه ليلة يقسم فيها أرزاق العباد ، ويكتب فيها الآجال ، قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان : ٣-٥] . وهي ليلة النِّصف من شعبان بإجماع أهل التَّفسير .

فإن قالوا : هذه إضافة للنُّزول إلىٰ غير ما أضاف رسول الله تعالىٰ إليه . فنقول : بلىٰ ، هكذا ، ولكن هذا مستعمل بين أهل اللغة لما بينَّا أنَّه يقال : نزل في غضب فلان وسخطة فلان ، أي : اتَّصل بي آثار سخطه وغضبه لا عينه " . انظر : أصول الدِّين ، أبو اليسر محمَّد البزدوي (ص٣٨-٣٩) .

فالإمام البزدوي يؤكِّد على أنَّه ليس من شرط النُّزول الانتقال ، بل قد يُطلق النُّزول على أشياء عديدة ، لا تتعلَّق بالحركة والنُّقلة ، كما يقال : نزل بفلان المُلاء ونزل إليه المرض ونزل به ، وليس هذا بانتقال ، وكذا يقال : نزل إلى سخطة فلان ونزل فيَّ سخطةُ فلان ، ونزل فلان إلى غضب فلان بي ، أي : اتَّصل بي أثر غضبه ، وقام بي أثره ، وهو بذلك يذهب إلى التَّأويل في مسألة النُّزول ...

وقال الشَّيخ ، الإِمَامُ ، البَحْر ، حجَّةُ الإِسْلاَم ، أُعجوبَة الزَّمان ، زَيْنُ الدِّين ، أَبُو حَامِد محمَّد بنُ محمَّد بنِ محمَّد بنِ أَحْمَدَ الطُّوْسِيّ ، الشَّافِعِي ، الغَزَّالِي ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ ، وَالذَّكَاءِ المُفرِط (٥٠٥هـ) : " ... إذا قرع سمعه النُّزول في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل الله تعالى في كلّ ليلة إلى السَّماء الدُّنيا " ، فالواجب عليه أن يعلم : أنّ النُّزول اسم مشترك ، قد يطلق إطلاقاً يفتقر فيه إلى ثلاثة أجسام ، جسم عالٍ هو مكان لساكنه ، وجسم سافل كذلك ، وجسم متنقّل من السَّافل إلى العالي ، ومن العالي إلى السَّافل . فإن كان من أسفل إلى علوّ سُمِّي : صعوداً وعروجاً ورقيّاً ، وإن كان من علوّ إلى أسفل سُمّي : نزولاً وهبوطاً .

وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه إلى تقدير انتقال وحركة في جسم ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾[الزمر : ٦] ، وما رؤي البعير والبقر نازلاً من السَّماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام ، ولإنزالها معنى لا محالة ، كما قال الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رضي الله عنه : دخلت مصر فلم يفهموا كلامي ، فنزلت ، ثمَّ نزلت ، ثمَّ نزلت . فلم يرد به انتقال جسده إلى أسفل.

فتحقَّق للمؤمن أنَّ النُّزول في حقِّ الله تعالى ليس بالمعنى الأوَّل ، وهو انتقال شخص وجسد من علوّ إلى أسفل ، فإنَّ الشَّخص والجسد أجسام ، والرَّبّ جلَّ جلاله ليس بجسم ، فإن خطر له أنَّه لم يرد هذا فما الذي أراد ؟ فيقال له : أنت إذا عجزت عن فهم نزول البعير ، فأنت عن فهم نزول الله تعالى أعجز ، فليس هذا بعشّك فأدرجي ، واشتغل بعبادتك أو حرفتك واسكت ، واعلم أنَّه أُريد به معنى من المعاني التي يجوز أن تُراد بالنُّزول في لغة العرب ، ويليق ذلك المعنى بجلال الله تعالى وعظمته ، وإن كنت لا تعلم حقيقته وكيفيَّته " . انظر : إلجام العوام عن علم الكلام (ص٥٧-٥٨) .

وقد أكَّد الإمام الغَزَّالِي على المعاني السَّابقة ، فقال في موضع آخر : " وأمَّا قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل الله تعالىٰ إلى السَّماء الدُّنيا " ، فلفظ مفهوم ذكر للتَّفهم وعلم أنَّه يسبق إلى الإفهام منه المعنىٰ الذي وضع له أو المعنىٰ الذي يُستعار ، فكيف يقال : أنَّه متشابه ، بل هو مخيل معنىٰ خطأ عند الجاهل ، ومفهم معنىٰ صحيحاً عند العالم ، وهو كقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] . فإنَّه يخيل عند الجاهل اجتماعاً مناقضاً لكونه على العرش ، وعند العالم يفهم أنَّه مع الكلِّ بالإحاطة والعلم ، وكقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرَّحمن " . لم أجده بهذا اللفظ ، وإنَّما روي بلفظ : " إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كلّها بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمن عزَّ وجلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ " . جاء في هامش مسند أحمد : " إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي هانئ - وهو حميد بن هانئ الخولاني المصري- ، وأبي عبد الرَّحمن الحبلي - وهو عبد الله بن يزيد المعافري - فمن رجال مسلم . أبو عبد الرَّحمن ، شيخ أحمد : هو عبد الله بن يزيد المقرئ ، وحيْوة : هو ابن شُريح . وأخرجه مسلم (٢٦٥٤) ، وابنُ أبي عاصم في " السُّنَّة " (٢٢٢) و (٢٣١) ، وابنُ حبان (٩٠٢) ، والآجُري في " الشريعة " (ص ٣١٦) ، والبيهقي في " الأسماء والصِّفات " ص ١٤٧، من طريق أبي عبد الرَّحمن المقرئ ، بهذا الإسناد . وأخرجه النسائي في "الكبرىٰ" (٧٧٣٩) ، والطبري في " التفسير " (٦/ (٦٦٥٧) من طريق عبد الله بن المبارك ، عن حيوة ، به " . انظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل (١١/ ١٣٠-١٣١) .

فإنَّه عند الجاهل يخيِّل عضوين مركَّبين من اللحم والعظم والعصب ، مشتملين على الأنامل والأظفار ، نابتين من الكفِّ ، وعند العالم يدلُّ على المعنىٰ المستعار له دون الموضوع له ، وهو ما كان الاصبع له ، وكان سرّ الإصبع وروحه وحقيقته ، وهو القدرة على التَّقليب كما يشاء ، كما دلَّت المعيَّة عليه في قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد : ٤] ، على ما تراد المعيَّة له ، وهو العلم والإحاطة ، ولكن من شائع عبارات العرب : العبارة بالسَّبب عن المسبّب ، واستعارة السَّبب للمستعار منه ، وكقوله تعالىٰ : " من تقرَّب إليَّ شبراً ، تقرَّبت إليه ذراعاً ، ومن أتاني بمشي أتيته بهرولة " . أخرجه بهذا اللفظ : البخاري في : خلق أفعال العباد ، (ص٩٤) ، البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧ برقم١٠٤٣) ، الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٦٨) .

فإنَّ الهرولة عند الجاهل تدلُّ على نقل الأقدام وشدَّة العدْو ، وكذا الاتيان يدلُّ على القُرب في المسافة ؟ وعند العاقل يدلُّ على المعنىٰ المطلوب من قرب المسافة بين النَّاس ، وهو قرب الكرامة

والإنعام ، وإنَّ معناه : أنَّ رحمتي ونعمتي أشدّ انصباباً إلى عبادي من طاعتهم إليَّ " . انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٨٥-٨٦) .

وقال الإمام الزَّاهِد مَيْمُون بن محمد بن محمَّد بن مُعْتَمد بن محمَّد بن محمَّد بن مَكْحُول ابْن الْفضل أَبُو الْمعِين النَّسَفِيّ المكحولي (٥٠٨هـ) : " ولا يجوز أنْ يوصَفَ الله تعالى بالمَجيء والذَّهاب ، لأنَّ المَجيءَ والذَّهابَ مِن صفاتِ المخلوقين وأمَارات المُحدَثين ، وهما صفتان منفيَّتان عن الله تعالى ، ألا ترىٰ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام كيف استدلَّ بالمُنتقِل مِن مكان إلى مكان أنَّه ليس بربٍّ حيث قال : ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[الأنعام : ٧٦] ، ومعنى قولِه تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك .

وقوله تعالى : ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾[الحشر : ٢] ، أي : جاء بهم عذاب الله من حيث لم يحتسبوا ، يعني قيل : كعب الأشرف .

وقوله تعالى : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[النحل : ٢٦] ، يعني : استهلكهم ، واستأصلهم فلم يبق منهم نافخ نار ولا ساكن ديار ، نزلت في غزو نمرود بن كنعان لعنه الله .

ومعنى قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[البقرة : ٢١٠] . يعني بعدما أثبتنا من الدَّلائل أنَّه لا شبيه له ولا شريكم له ولا مجيء له ينظرون إتيانه في ظلل من الغمام ، ويعتقدون هذا ليؤمنوا به ، وهذا في صفات الله تعالى محال .

ومعنى الخبر : ينزل الله تعالى كلّ يوم وليلة النّصف من شعبان إلى السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من تائب فيتاب عليه . قلنا : النُّزول من الله تعالى الاطلاع والاقبال على عباده ، يعني : ينظر إلى عباده بالرَّحمة ، هكذا نقل عن علي بن أبي طالب ، كرَّم الله وجهه " . انظر : بحر الكلام (ص١١٠-١١٢) .

وقال الإمَامُ أَبُو الوَلِيْدِ محمَّد بنُ أَحْمَدَ بنِ أَحْمَدَ بن رشد القُرْطُبيُّ، المَالِكِيُّ (٥٢٠هـ) : " ... ونحو ذلك من الأحاديث التي يقتضي ظاهرها التَّشبيه مخافة أن يتحدَّث بها ، فيكثر التَّحدث بها وتشيع في النَّاس ، فيسمعها الجهَّال الذين لا يعرفون تأويلها ، فيسبق إلى ظنونهم التَّشبيه بها . وسبيلها- إذا صحَّت الرِّوايات بها- أن تتأوَّل على ما يصحُّ ممَّا ينتفي به التَّشبيه عن الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه ،

كما يصنع بما جاء في القرآن مما يقتضي ظاهره التَّشبيه ، وهو كثير ، كالإتيان في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[البقرة : ٢١٠] ، والمجيء في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، والاستواء في قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف : ٥٤] . وكما يفعل أيضاً بما جاء من ذلك في السُّنن المتواترة ، كالضَّحك ، والتَّنزيل ، وشبه ذلك ممَّا لم يكره روايتها لتواتر الآثار بها ، لأنَّ سبيلها كلّها في اقتضاء ظاهرها التَّشبيه وإمكان تأويلها على ما ينتفي به تشبيه الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه سواء . وأبعدها كلّها من التَّشبيه ما جاء من أنَّ عرش الرَّحمن اهتزَّ لموت سعد بن معاذ ، لأنَّ العرش مخلوق ، خلقٌ من خلقِ الله عزَّ وجلَّ ، فلا يستحيل عليه الحركة والاهتزاز ، وإضافته إلى الله تعالى إنَّما هي بمعنى التَّشريف له ، كما يقال : بيت الله وحرمه ، لا بمعنى أنَّه يحلُّ فيه وموضع لاستقراره ، إذ ليس في مكان ولا مستقرّاً بمكان ، فقد كان قبل أن يخلق المكان ، فلا يلحقه عزَّ وجلَّ باهتزاز عرشه ما يلحق من اهتزَّ عرشه من المخلوقين وهو جالس عليه من تحرُّكه بحركته ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . ويحتمل أن يكون الكلام مجازاً ، فيكون المراد بتحرُّك العرش : تحرُّك حملته ، استبشاراً وفرحاً بقدوم روحه ، وهذا جائز في كلام العرب أن يقال : اهتزَّ المجلس لقدوم فلان عليه ، أي : اهتزَّ أهله لقدومه ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾[يوسف : ٨٢] ، يريد أهلها ، ومثل قول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " هذا جبل يحبُّنا ونحبُّه ". أخرجه البخاري (٥/ ١٠٣ برقم ٤٠٨٣) .

أي : يحبُّنا أهله ونحبُّ أهله . وقد قيل : إنَّ المراد باهتزاز العرش : سريره الذي حُمل عليه ؛ وهذا يردُّه النَّص الذي في بعض الآثار من إضافة العرش الذي اهتزَّ بموته إلى الرَّحمن عزَّ وجلَّ " . انظر : البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة (١٨/ ٥٠٤-٥٠٦) .

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن السيِّد البطليوسي ، النَّحْوِيّ ، اللُّغَوِيّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٥٢١هـ) : " ... وَمن هَذَا الْبَاب : قَوْله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل رَبُّنَا كلّ لَيْلَة إِلَى سَمَاء الدُّنيا ثلث اللَّيْل الْأَخير ، فَيَقُول : هَل من سَائل فَأُعْطِيه هَل من مُسْتَغْفِر فَأَغْفِر لَهُ هَل من تائب فأتوب عَلَيْهِ " . جعلته المجسِّمة نزولاً على الْحَقِيقَة ، تَعَالَىٰ الله عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ علوّاً

كَبيراً ، وَقد أجمع العارفون بِاللهِّ عزَّ وجلَّ علىٰ أنَّه لَا ينْتَقل لِأَن الِانْتِقَال من صِفَات المحدثات ، وَلِهَذَا الحَدِيث تَأْوِيلَانِ صَحِيحَانِ لَا يقتضيان شَيْئاً من التَّشْبيه :

أَحدهمَا : أَشَارَ اليه مَالك (١٧٩هـ) رَحمَه الله ، وَقد سُئِل عَن هَذَا الحَدِيث ، فَقَالَ : ينزل أمره كلّ سحر ، فَأَما هُوَ عزَّ وجلَّ فإنَّه دَائِم لَا يَزُول وَلَا ينْتَقل ، سُبْحَانَهُ لَا إله إلَّا هُوَ ، وَسُئِلَ عَنهُ الْأَوْزَاعِيّ (١٥٧هـ) ، فَقَالَ : يفعل الله مَا يَشَاء ، وَهَذَا تلويح يحْتَاج إِلىٰ تَصْرِيح وخفي إشارة يحْتَاج إِلىٰ تَبْيِين عبارَة .

وَحَقِيقَة الَّذِي ذَهَبا إليه رحمهما الله أَنَّ الْعَرَب تنْسب الْفِعْل إِلىٰ من أَمر بِهِ كَمَا تنسبه إِلىٰ من فعله وباشره بِنَفسِهِ ، فَيَقُولُونَ : كتب الْأَمِير لفُلَان كتاباً ، وَقطع الْأَمِير يَد اللصّ ، وَضرب السُّلْطَان فلَاناً ، وَلم يُبَاشر شَيْئاً من ذَلِك بِنَفسِهِ إنَّما أَمر بذلك . وَلأَجل هَذَا احْتِيجَ إِلىٰ التَّأْكِيد الْمَوْضُوع فِي الْكَلَام ، فَقيل : جَاءَ زيد نَفسه وَرَأَيْت زيداً نَفسه ، فَمَعْنَاه علىٰ هَذَا : أَنَّ الله تَعَالَىٰ يَأْمرُ ملَكاً بالنُّزول إِلىٰ السَّماء الدُّنيا فينادي بِأَمْره ، وَقد تَقول الْعَرَب جَاءَ فلَان اذا جَاءَ كِتَابه أَو وَصيته ، وَيَقُولُونَ للرَّجل : أَنْت ضربت زيداً ، وَهُوَ لم يضْربهُ إِذا كَانَ قد رَضِي بذلك وشايع عَلَيْهِ ، قَالَ الله تَعَالَىٰ : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة : ٩١] ، المخاطبون بها لم يقتلُوا نَبياً ، وَلَكنهُمْ لما رَضوا بذلك وتولوا قتلة الْأَنْبِيَاء وشايعوهم علىٰ فعلهم نسب الْفِعْل إليهم وان كَانُوا لم يباشروه ، وعَلىٰ هَذَا يتَأَوَّل قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾[النحل : ٢٦] . فَهَذَا تَأْوِيل كَمَا ترَاهُ صَحِيح جَار علىٰ فصيح كَلَام الْعَرَب فِي محاوراتها والمتعارف من أساليبها ومخاطباتها وَهُوَ شرح لما أَرَادَهُ مَالك ، وَالْأَوْزَاعِيّ رحمهما الله ، وَمِمَّا يُقَوي هَذَا التَّأْوِيل وَيشْهد بِصِحَّتِهِ : أَنَّ بعض أهل الحَدِيث رَوَاهُ ينزل بِضَم الْيَاء وَهَذَا وَاضح .

والتَّأْوِيل الثَّانِي : أَنَّ الْعَرَب تسْتَعْمل النُّزول علىٰ وَجْهَيْن ، أَحدهمَا : حَقِيقَة ، وَالْآخر مجَاز واستعارة . فَأَما الْحَقِيقَة : فانحدار الشَّيْء من علو إِلىٰ سفل ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾[النور : ٤٣] .

وكقول امْرِئ الْقَيْس :

هُوَ الْمُنْزِلُ الآلافَ من جَوّ ناعِطٍ بَني أَسَدٍ حَزْناً من الأرضِ أَوْعَرَا

وأمَّا الِاسْتِعَارَة وَالْمجَاز ، فعلىٰ أَرْبَعَة أوجه :

أَحدهَا : الإقبال علىٰ الشَّيء بعد الْأَعْرَاض عَنهُ والمقاربة بعد المباعدة ، يُقَال : نزل البَائِع فِي سلْعَته إذا قَارب الْمُشْتَرِي فِيهَا بعد مباعدته وَأمكنهُ مِنْهَا بعد مَنعه ، وَيُقَال : نزل فلَان عَن أَهله ، أَي : تَركهَا وَأَقْبل علىٰ غَيرهَا ، وَمِنْه قَول الشَّــاعِر :

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلىٰ حُكْمِهِ مِن شاهِقٍ عالٍ إلىٰ خَفْضِ

أَي : جعلني أقَارِب من كنت أباعده ، وَأَقْبل علىٰ من كنت أعرض عَنهُ ، فَيكون معنىٰ الحَدِيث علىٰ هَذَا : أَن العَبْد فِي هَذَا الْوَقْت أقرب إلىٰ رَحْمَة الله مِنْهُ فِي غَيره من الأوقات ، وَأَنَّ البارئ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقبل علىٰ عباده بالتحنن والتعطف فِي هَذَا الْوَقْت لما يلقيه فِي قُلُوبهم من التَّنْبِيه والتَّذكير الباعثين لَهُم علىٰ الطَّاعَة وَالْجد فِي الْعَمَل ، فَهَذَا تَأْوِيل أَيْضاً مُمكن صَحِيح ... " . انظر : الإنصاف في التنبيه علىٰ المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف (ص٨٢-٨٥) .

وقال الإمام إسماعيل بن محمَّد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التَّيمي الأصبهاني ، أبو القاسم ، الملقَّب بقوام السُّنَّة (٥٣٥هـ) : " سبيل الأخبار الواردة في الصِّفات : أن يؤمن بها ، ولا يتعرَّض لها ، وتمضي كما أمضاها الأسلاف من غير تمثيل ولا تأويل " . انظر : الترغيب والترهيب ، قوام السُّنَّة (١/ ٢٥٢) .

قلت : وكلام الإمام الأصبهاني يصبُّ في مصبِّ جمهور السَّلف الذين ذهبوا إلىٰ تفويض معاني المتشابه إلىٰ الله تعالىٰ ، مع تنزيههم لله تعالىٰ عن ظاهر معناها ، وهذا هو المراد من قول السَّلف (بلا كيف) ، ومنه يتبيَّن للإنسان الحصيف طالب الحقّ : أنَّ الذين ينسبون للسَّلف إثبات ظواهر المعاني الحقيقية للألفاظ المتشابهة مع تفويض الكيفيَّة ، ينسبون للسَّلف بقولهم هذا : التَّشبيه ، وقد سال بهم السَّيل وهم لا يدرون ...

وقد أفضنا في الكلام عن مسألة النُّزول في كتابنا الكبير : " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ " ، فالحمد لله تعالىٰ علىٰ توفيقه ...

وللاستزادة في هذه المسألة انظر : العواصم من القواصم (النص الكامل) (ص٢١٦-٢١٧) ، المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك (٣/ ٤٤٤-٤٥٤) ، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٢/ ١٩٨-٢٠٠) ، شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِي عِيَاض المُسَمَّىٰ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ

مُسْلِم (٣/ ١٠٩-١١١) ، كتاب المعجم للإمام عَبْد الخالق بْن أسد بْن ثابت ، الفقيه أَبُو محمَّد الدِّمشقيّ الحنفيّ (ص٣٣٠-٣٣١) ، البرهان المؤيد (ص١٦) ، أصول الدِّين ، القابسي (ص٦٦) ، العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية (ص٦٥) ، كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٧٩) ، دفع شبه التشبيه بأكفِّ التنزيه (ص١٩٤-١٩٦) ، (ص٢٢٢-٢٢٣) ، صيد الخاطر (ص٤٨٧) ، تلبيس إبليس (ص٧٨-٨٠) ، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٤٢) ، أساس التقديس (ص٢٠٤-٢٠٧) ، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٢٠) ، طبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٢٣١) ، (٩/ ٨١) ، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٣٨-٣٩) ، الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ (٢/ ٢٠١-٢٠٣) ، المجموع شرح المهذب (مع تكملة السُّبكي والمطيعي) (٤/ ٤٧-٤٨) ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٣٦-٣٧) ، لسان العرب (١١/ ٦٥٧) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التَّأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٢٨) ، إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٦٤-١٦٥) ...

الفَصْلُ الخَامِسُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بأَنَّ المَقَامَ المَحْمُوْدَ هُوَ أَنْ يُجْلِسَ اللهُ رَسُوْلَهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى العَرْشِ مَعَه

لقد تضمَّن الكلام في هذا الفصل ، عدَّة أُمور ، هي :

أَوَّلاً : لا يُوْجَدُ فِي الكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ الصَّحِيْحَةِ دَلِيْلٌ عَلَى عَقِيْدَةِ الجُلُوْسِ وَالإِجْلَاس :

من المعلوم أنَّ الجلوس لم يرد إطلاقه على الله لا في الكتاب ولا في السُّنَّة الصَّحيحة ، ومع ذلك فقد أراق مجسِّمةُ الحنابلةِ لأجلها دماءَ الموحِّدين الرَّافضين لها ، وكفَّروا من لا يؤمن بها ، كما صنعوا مع الإمام التِّرمذي ، الذي أنكر عليهم هذه العقيدة التَّجسيميَّة التَّكفيرية ، فكفَّروه في غير ما مناسبة ، كما تجد ذلك في " كتاب السُّنَّة " للخلَّال ، والعياذ بالله تعالى ...

ومجسِّمة الحنابلة هم من قالوا بعقيدة الإقعاد على العرش ، وهي عقيدة وثنيَّة مزدكيَّة ، قال الإمام الكوثري (١٩٥٢م) : " ومن معتقد المزدقيَّة منهم – الثَّنويَّة – أنَّ المعبود قاعد على كرسيِّه في العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو (الملك) في العالم الأسفل " . انظر : مقدِّمات الإمام الكوثري (ص٣٨) .

قال الإمام ياقوت الحموي في" معجم الأدباء" (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) (٦/ ٢٤٥٠) في ترجمة الإمام الطَّبري : " ... وقصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل في الجامع يوم الجمعة ، وعن حديث الجلوس على العرش ، فقال أبو جعفر : أمَّا أحمد بن حنبل فلا يعدُّ خلافه ، فقالوا له : فقد ذكره العلماء في الاختلاف ، فقال : ما رأيته روي عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم ، وأمَّا حديث الجلوس على العرش فمُحال ، ثمَّ أنشد :

سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَنِيْس   وَلَا لَهُ فِي عَرْشِهِ جَلِيْس

فلمَّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث ، وثبوا ورموه بمحابرهم ... " .

ولذلك أراد الطَّبري أن يسترضيهم ببضع كلمات ذكرها في تفسيره للمقام المحمود ...

ولم يكتف مجسِّمة الحنابلة بهذه العقيدة المنكرة ، بل عمدوا إلى تكفير وتبديع من أنكرها ...

ففي كتاب السُّنَّة للخلَّال أوردوا عشرات الرِّوايات في تكفير وتفسيق وتبديع الإمام التِّرمذي لأنَّه رفض روايات الإقعاد على العرش، من ذلك :

أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَ : ثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، قَالَ : ثَنَا محمَّد بْنُ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : يُقْعِدُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : مَنْ رَدَّهُ فَقَدْ رَدَّ عَلَىٰ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَنْ كَذَّبَ بِفَضِيلَةِ النَّبِي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهَّ الْعَظِيمِ " . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢١٥ برقم ٢٤٦) .

وَأَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ أَصْرَمَ الْمُزَنِيُّ ، بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَقَالَ : مَنْ رَدَّ هَذَا فَهُوَ مُتَّهَمٌ عَلَىٰ اللهَّ وَرَسُولِهِ ، وَهُوَ عِنْدَنَا كَافِرٌ ، وَزَعَمَ أَنَّ مَنَ قَالَ بِهَذَا فَهُوَ ثَنَوِيُّ ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالتَّابِعِينَ ثَنَوِيَّةٌ ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا فَهُوَ زِنْدِيقٌ يُقْتَلُ " . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢١٥ برقم ٢٤٧) .

وَأَخْبَرَنِي محمَّد بْنُ عَبْدُوسٍ ، وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ ، وَبَعْضُهُمَا أَتَمُّ مِنْ بَعْضٍ ، قَالَا : ثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ ، قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ حَمَّادٍ الْمُقْرِئُ : مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ فَسَكَتَ فَهُوَ مُتَّهَمٌ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ، فَكَيْفَ مَنْ طَعَنَ فِيهَا ؟، وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الدَّقِيقِيُّ : مَنْ رَدَّهَا فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ ، وَحُكْمُ مَنْ رَدَّ هَذَا أَنْ يُتَّقَىٰ، وَقَالَ عبَّاس الدُّورِيُّ : لَا يَرُدُّ هَذَا إِلَّا مُتَّهَمٌ ، وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ : الْإِيمَانُ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ ، وَقَالَ إِسْحَاقُ لِأَبِي عَلِيٍّ الْقُوهُسْتَانِيِّ : مَنْ رَدَّ هَذَا الْحَدِيثَ فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، وَقَالَ عَبْدُ الوهَّاب الْوَرَّاقُ لِلَّذِي رَدَّ فَضِيلَةَ النَّبِي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ فَهُوَ مُتَّهَمٌ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْأَصْبَهَانِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ حَدَّثَ بِهِ الْعُلَمَاءُ مُنْذُ سِتِّينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ ، وَلَا يَرُدُّهُ إِلَّا أَهْلُ الْبِدَعِ ، قَالَ : وَسَأَلْتُ حَمْدَانَ بْنَ عَلِيٍّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، فَقَالَ : كَتَبْتُهُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً ، وَمَا رَأَيْتُ أَحداً يَرُدُّهُ إِلَّا أَهْلُ الْبِدَعِ ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ : حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ ، وَمَا يُنْكِرُ هَذَا إِلَّا أَهْلُ الْبِدَعِ ، قَالَ هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ : هَذَا حَدِيثٌ يُسَخِّنُ اللهُّ بِهِ أَعْيَنَ الزَّنَادِقَةِ ، قَالَ : وَسَمِعْتُ محمَّد بْنَ إِسْمَاعِيلَ السُّلَمِيَّ يَقُولُ : مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَوْجِبْ مِنَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ مَا قَالَ مُجَاهِدٌ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهَّ الْعَظِيمِ ، قَالَ : وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهَّ الْخَفَّافَ

يَقُولُ : سَمِعْتُ محمَّد بْنَ مُصْعَبٍ يَعْنِي الْعَابِدَ يَقُولُ : نَعَمْ ، يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ لِيَرَىٰ الْخَلَائِقُ مَنْزِلَتَهُ " . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢١٧ برقم ٢٥١).

وحدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ ، عَنِ ابْنِ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء:٧٩] ، قَالَ : يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ " وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، وَمَنْ رَدَّ عَلَىٰ مُجَاهِدٍ مَا قَالَهُ مِنْ قُعُودِ محمَّد صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَغَيْرَهُ ، فَقَدْ كَذَبَ ، وَلَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا التِّرْمِذِيَّ الَّذِي يُنْكِرُ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ قَطُّ فِي حَدِيثٍ وَلَا غَيْرِ حَدِيثٍ .

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ : أَرَىٰ أَنْ يُجَانَبَ كُلُّ مَنْ رَدَّ حَدِيثَ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَيُحَذَّرُ عَنْهُ ، حتَّىٰ يُرَاجِعَ الْحَقَّ ، مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحداً يُذَكَّرُ بِالسُّنَّةِ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِلَّا إِنَّا عَلِمْنَا أَنَّ الْجَهْمِيَّةَ تُنْكِرُهُ مِنْ جِهَةِ إِثْبَاتِ الْعَرْشِ ، فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَمْرَ الْعَرْشِ ، وَيَقُولُونَ : الْعَرْشُ عظَمَةٌ ، مَعَ أَنَّهم لَمْ يُنْكِرُوا مِنْهُ فَضِيلَةَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّ هَذَا التِّرْمِذِيَّ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ وَرَأَيْتُ مَنْ عِنْدِي مِنْ أَصْحَابِنَا ، يَذْكُرُونَ أَنَّهم لا يَعْرِفُونَهُ فِي الطَّلَبِ ، وَلَا عَرَفْتُهُ أَنَا ، وَمُجَاهِدٌ كَانَتْ لَهُ جَلَالَةٌ عِنْدَ أَصْحَابِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ابْنِ عبَّاس وَابْنِ عُمَرَ ، يَأْخُذُ لَهُ بِالرِّكَابِ ، أَسْأَلُ اللهَّ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا ، وَعَلَيْكُمْ بِلُزُومِ السُّنَّة ، وَالِاقْتِدَاءِ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ ، بِأَبِي عَبْدِ اللهَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فإنَّه أَوْضَحَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُحْدَثَاتِ مَا هُوَ كِفَايَةٌ لِمَنِ اقْتَدَىٰ بِهِ .

قَالَ محمَّد بْنُ إِسْمَاعِيلَ السُّلَمِيُّ : كُلُّ مَنْ ظَنَّ أَوْ تَوَهَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَوْجِبْ مِنَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ فِي حَدِيثِ مُجَاهِدٍ فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَذْكُرَ أَحَدٌ النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَقْدُمُوا عَلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَلَوْلَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْمَرُّوذِيَّ رَحِمَهُ اللهُّ اجْتَهَدَ فِي هَذَا لَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا وَبِمَنْ يَقْصُرُ عَنْ هَذَا الضَّالِّ الْمُضِلِّ عُقُوبَةٌ، فإنَّه مِنْ شَرِّ الْجَهْمِيَّةِ مَا يُبَالِي مَا تَكَلَّمَ بِهِ ، قَالَ : لَيْسَ هَذَا عَرْشَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِنَّما هُوَ مِثْلُ عَرْشِ بِلْقِيس ، وَعَرْشٌ مِنَ الْعُرُوشِ شَبَّهَ عَرْشَ الْآدَمِيِّينَ بِعَرْشِ الرَّحمن عَزَّ وَجَلَّ ، لَا يَرْعَوِي عَنْ دَفْعِ فَضِيلَةِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ بَعْدَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا شَكَّ فِي تَجَهُّمِهِ ، وَلَا

نَقْدِرُ عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّحْذِيرِ وَتَبْيِينِ أَمْرِهِ ، وَنُعَادِي مَنْ يَنْصُرُهُ ، أَوْ يَمِيلُ إِلَىٰ مَنْ يَنْصُرُهُ بِتَكْفِيرِ مُجَاهِدٍ ، وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِ مُجَاهِدٍ فِي ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، فإنَّه يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، فَقَالَ : هَذَا كُفْرٌ ، وَمَنْ قَالَ : بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ هَارُونُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيُّ : مَنْ رَدَّ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ فَهُوَ عِنْدِي جَهْمِيٌّ ، وَمَنْ رَدَّ فَضْلَ النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ عِنْدِي زِنْدِيقٌ لَا يُسْتَتَابُ ، وَيُقْتَلُ ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَضَّلَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْأَنبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلام ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ : " لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي " . لا يصح مرفوعاً ، بل هو من قول مجاهد ، أخرجه الشافعي في مسنده ، (٢/ ١٨٣ برقم ٦٥١) ، الآجري في الشريعة (٣/ ١٤١٣ برقم ٩٥٣) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٩١) ، البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ١٠٤ برقم ٢٨) .

... فَمَنْ رَدَّ هَذَا وَحَدِيثَ مُجَاهِدٍ فَلَا يُكَلَّمُ ، وَلَا يُصَلَّىٰ عَلَيْهِ . وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْهَاشِمِيُّ : أَنَّ هَذَا الْمَعْرُوفَ بِالتِّرْمِذِيِّ عِنْدَنَا مُبْتَدِعٌ جَهْمِيٌّ ، وَمَنْ رَدَّ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ ، فَقَدْ دَفَعَ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ رَدَّ فَضِيلَةَ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ عِنْدَنَا كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ " . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢٣٣ برقم ٢٦٨) .

وقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَسَمِعْتُ هَارُونَ بْنَ الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيَّ ، يَسْأَلُ أَبَا جَعْفَرٍ الدَّقِيقِيَّ محمَّد بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الرِّضَا الْعَدْلَ حِينَ قَدِمَ إِلَىٰ بَغْدَادَ فِي مَجْلِسِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ النَّاس : مَا تَقُولُ فِي هَذَا التِّرْمِذِيِّ الَّذِي رَدَّ فَضِيلَةَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَدِيثَ ابْنِ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ . قَالَ : حَدَّثَنَاهُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً ، حُكْمُ مَنْ رَدَّ هَذَا الْحَدِيثَ أَنْ يُنْفَىٰ ، لَا يَرُدُّ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا الزَّنَادِقَةُ .
انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢٤٧ برقم ٢٨٤) .

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ الصَّاغَانِيُّ : لَا أَعْلَمُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِمَّنْ تَقَدَّمَ ، وَلَا فِي عَصْرِنَا هَذَا إِلَّا وَهُوَ مُنْكِرٌ لِمَا أَحْدَثَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ رَدِّ حَدِيثِ محمَّد بْنِ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ ، يُهْجَرُ وَنَحْذِرُ عَنْهُ ، فَقَدْ حَدَّثَنَا بِهِ هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ فُضَيْلٍ ، عَنْ

لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِّ بْنِ سَلَامٍ ، قَالَ : يُقْعِدُهُ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الرَّبِّ جَلَّ وَعَزَّ ، فَقِيلَ لِلْجُرَيْرِيِّ : إِذَا كَانَ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الرَّبِّ فَهُوَ مَعَهُ ، قَالَ : وَيْحَكُمْ ، هَذَا أَقَرُّ لِعَيْنِي فِي الدُّنيا ، وَقَدْ أَتَىٰ عَلَيَّ نَيِّفٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَداً رَدَّ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ إِلَّا جَهْمِيٌّ ، وَقَدْ جَاءَتْ بِهِ الْأَئِمَّةُ فِي الْأَمْصَارِ ، وَتَلَقَّتْهُ الْعُلَمَاءُ بِالْقَبُولِ مُنْذُ نَيِّفٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ ، وَبَعْدُ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا التِّرْمِذِيَّ ، وَلَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُهُ عِنْدَ مُحَدِّثٍ ، فَعَلَيْكُمْ رَحِمَكُمُ اللهُّ بِالتَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ وَالاِتِّبَاعِ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : " لَا أَعْرِفُ هَذَا الْجَهْمِيَّ الْعَجَمِيَّ ، لَا نَعْرِفُهُ عِنْدَ مُحَدِّثٍ ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِنَا ، وَلَا عَلِمْتُ أَحَداً رَدَّ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ" يُقْعِدُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْعَرْشِ " ، رَوَاهُ الْخَلْقُ عَنِ ابْنِ فُضَيْلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَاحْتَمَلَهُ الْمُحَدِّثُونَ الثِّقَاتُ ، وَحَدَّثُوا بِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، لَا يَدْفَعُونَ ذَلِكَ ، يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْقَبُولِ وَالسُّرُورِ بِذَلِكَ ، وَأَنَا فِيمَا أَرَىٰ أَنِّي أَعْقِلُ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً ، وَاللهِّ مَا أَعْرِفُ أَحَداً رَدَّهُ ، وَلَا يَرُدُّهُ إِلَّا كُلُّ جَهْمِيٍّ مُبْتَدَعٍ خَبِيثٍ ، يَدْعُو إِلَىٰ خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَشْيَاخُنَا وَأَئِمَّتُنَا ، عَجَّلَ اللهُّ لَهُ الْعُقُوبَةَ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جِوَارِنَا ، فإِنَّه بَلِيَّةٌ عَلَىٰ مَنِ ابْتُلِيَ بِهِ ، فَالْحَمْدُ للهِّ الَّذِي عَدَلَ عَنَّا مَا ابْتَلَاهُ بِهِ وَالَّذِي عِنْدَنَا ، وَالْحَمْدُ للهِّ أَنَّا نُؤْمِنُ بِحَدِيثِ مُجَاهِدٍ وَنَقُولُ بِهِ عَلَىٰ مَا جَاءَ ، وَنُسَلِمُ الْحَدِيثَ وَغَيْرَهُ مِمَّا يُخَالِفُ فِيهِ الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَالصِّفَاتِ ، وَقُرْبِ محمَّد صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ .

وَقَدْ كَانَ كَتَبَ إِلَيَّ هَذَا الْعَجَمِيُّ التِّرْمِذِيُّ كِتَاباً بِخَطِّهِ ، وَدَفَعْتُهُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الْمَرُّوذِيِّ ، وَفِيهِ : أَنَّ مَنْ قَالَ بِحَدِيثِ مُجَاهِدٍ فَهُوَ جَهْمِيٌّ ثَنَوِيٌّ ، وَكَذَبَ الْكَذَّابُ الْمُخَالِفُ لِلْإِسْلَامِ ، فَحَذَرُوا عَنْهُ ، وَأَخْبِرُوا عَنِّي أَنَّه مَنْ قَالَ بِخِلَافِ مَا كَتَبْتُ بِهِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، فَلَوْ أَمْكَنَنِي لَأَقَمْتُهُ لِلنَّاسِ ، وَنَادَيْتُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أُشْهِرَهُ لِيَحْذَرَ النَّاس مَا قَدْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَهَذَا دِينِي الَّذِي أَدِينُ للهِّ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ ، أَسْأَلُ اللهَّ أَنْ يُمِيتَنَا وَيُحْيِينَا عَلَيْهِ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ دَاوُدَ الْقَنْطَرِيُّ : أَمَّا بَعْدُ : فَعَلَيْكُمْ بِالتَّمَسُّكِ بِهَدْيِ أَبِي عَبْدِ اللهِ أَحْمَدَ بْنِ محمد بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فإِنَّه إِمَامُ الْمُتَّقِينَ لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَطَعْنٌ لِمَنْ خَالَفَهُ ، وَأَنَّ هَذَا التِّرْمِذِيَّ الَّذِي طَعَنَ عَلَىٰ مُجَاهِدٍ بِرَدِّهِ فَضِيلَةَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبْتَدَعٌ ، وَلَا يَرُدُّ حَدِيثَ محمد بْنِ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : يُقْعِدُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ " إِلَّا جَهْمِيٌّ يُهْجَرُ ، وَلَا يُكَلَّمُ وَيُحَذَّرُ عَنْهُ ، وَعَنْ كُلِّ مَنْ رَدَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَىٰ هَذَا التِّرْمِذِيِّ أَنَّه جَهْمِيٌّ خَبِيثٌ ، لَقَدْ أَتَىٰ عَلَىٰ أَرْبَعٍ وَثَمَانُونَ سَنَةً ، مَا رَأَيْتُ أَحداً رَدَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ إِلَّا جَهْمِيٌّ ، وَمَا أَعْرِفُ هَذَا وَلَا رَأَيْتُهُ عِنْدَ مُحَدِّثٍ قَطُّ ، وَأَنَا مُنْكِرٌ لِمَا أَتَىٰ بِهِ مِنَ الطَّعْنِ عَلَىٰ مُجَاهِدٍ ، وَرَدَّ فَضِيلَةَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْعِدُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وأَنَّه مَنْ قَالَ بِحَدِيثِ مُجَاهِدٍ ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ ثَنَوِيٌّ ، لَا يُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَذَبَ عَدُوُّ اللهِ وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ ، فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ يُهْجَرُ وَلَا يُكَلَّمُ ، وَيُحَذَّرُ عَنْهُ " . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢٣٢ برقم ٢٦٧) .

قَالَ أَبو بَكْرٍ : وَسَمِعْتُ هَارُونَ بْنَ الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيَّ ، يَسْأَلُ أَبَا جَعْفَرٍ الدَّقِيقِيَّ محمد بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الرِّضَا الْعَدْلَ حِينَ قَدِمَ إِلَىٰ بَغْدَادَ فِي مَجْلِسِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ النَّاس : مَا تَقُولُ فِي هَذَا التِّرْمِذِيِّ الَّذِي رَدَّ فَضِيلَةَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَدِيثَ ابْنِ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ . قَالَ : حَدَّثَنَاهُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً ، " حُكْمُ مَنْ رَدَّ هَذَا الْحَدِيثَ أَنْ يُنْفَىٰ ، لَا يَرُدُّ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا الزَّنَادِقَةُ . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٢٨٤ برقم ٢٤٧) .

وحَدَّثَنَا أَبو بَكْرٍ ، قَالَ : جَاءَنِي كِتَابُ عَلِيِّ بْنِ سَهْلٍ بِخَطِّهِ ، وَفِيهِ حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ ، وَخَلَّادُ بْنُ أَسْلَمَ ، قَالَا : ثَنَا محمد بْنُ فُضَيْلٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : " يُجْلِسُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ " . وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ رَدَّ فَضِيلَةَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَلَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ أَبْزَىٰ : قُلْتُ لِأَبِي : لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَسُبُّ أَبَا بَكْرٍ مَا كُنْتَ صَانِعاً بِهِ ؟ قَالَ : أَقْتُلُهُ ، قُلْتُ : فَعُمَرَ ، قَالَ : أَقْتُلُهُ ، فَهِيَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَدَّ فَضَائِلَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٣٠٤ برقم ٢٥٥) .

وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ ، قال : سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ عَبْدِ النُّورِ عَنْ فَضِيلَةِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَدِيثِ مُجَاهِدٍ ، فَقَالَ : " وَاللهِ مَا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضِيلَةٌ مِثْلُهَا ، أَدْرَكْتُ شُيُوخَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْقَبُولِ ، وَيُسَرُّونَ بِهَا ، وَلَا يَرُدُّهَا إِلَّا رَجُلُ سُوءٍ جَهْمِيٍّ . انظر : السنة ، الخَلَّال البغدادي الحنبلي (١/ ٣٠٥ برقم ٢٥٥) .

هذا بعض ما تضمَّنه كتاب السُّنَّة للخلَّال وغيره من كتبهم من تكفير لمن ردَّ أثر مجاهد الذي فسَّر به قول الله تعالىٰ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، بإجلاس الله للرَّسول علىٰ العرش معه ، مع أنَّه أثرٌ منكرٌ ، معارضٌ لما جاء في الصَّحيح من تفسير المقام المحمود بالشَّفاعة العُظمىٰ ...

ولم يكتفوا بتكفير من أنكر تلك العقيدة المنكرة ، بل تجاوزوا ذلك إلىٰ قتالهم وسفك دمائهم ...

قال الإمام ابن الأثير في " الكامل في التَّاريخ" (٦/ ٧٤٦) أحداث سنة (٣١٧هـ) : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بَكْرٍ الْمَرْوَزِيِّ الْحَنْبَلِيِّ (٢٧٥هـ) وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَامَّةِ ، وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْجُنْدِ فِيهَا ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ الْمَرْوَزِيِّ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، هُوَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُقْعِدُ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَقَالَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَىٰ : إِنَّمَا هُوَ الشَّفَاعَةُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَاقْتَتَلُوا ، فَقُتِلَ بَيْنَهُمْ قَتْلَىٰ كَثِيرَةٌ " .

ولم ينتبه غوغائيُّو الحنابلة إلىٰ أنَّ عقيدة الإقعاد علىٰ العرش عقيدة تجسيميَّة بحتة ، خالفوا فيها جمهور الأمَّة الذي ذهب إلىٰ نفيها واستنكارها ، قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي (٧٧٤هـ) في حوادث سنة (٣١٧هـ) : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بكر المروذي الْحَنْبَلِيِّ ، وَبَيْنَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ ، اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، فَقَالَتِ الْحَنَابِلَةُ : يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ . وَقَالَ الْآخَرُونَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَىٰ ، فَاقْتَتَلُوا بِسَبَبِ ذلك ، وقتل بينهم قتلىٰ ، فإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : مَقَامُ الشَّفَاعَةِ العظمىٰ ، وهي الشَّفاعة

فِي فصل القضاء بين العباد ، وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ، حتَّىٰ إبراهيم ، وَيَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ " . انظر : البداية والنهاية (١١/ ١٦٢) .

وقال القاضي أبو يعلىٰ ابن الفرَّاء في "إبطال التَّأويلات لأخبار الصِّفات" (١/ ٤٨٥) : " وَذَكَرَ أَبُو عبد اللهَّ بْن بطَّة (٣٨٧هـ) فِي كتاب الإبانة ، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان النّجاد : لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً : أنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ : يُقعد محمَّداً صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ : صدقت فِي قولك ، وبررت فِي يمينك ، وامرأتك عَلَىٰ حالها ، فهذا مذهبنا !!! وديننا !!! واعتقادنا !!! وعليه نشأنا !!! ونحن عَلَيْهِ إِلَىٰ أن نموت إن شاء اللهَّ !!! فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة الَّتِي قالتها العلماء وتلقُّوها بالقبول ، فمن ردَّها فهو من الفرق الهالكة !!! " . فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، ونعوذ بالله من الخذلان ...

وشجَّعهم علىٰ هذا التَّفسير الْمُنكر تبنِّي ابن تيمية له ، فقد قال ابن تيمية في "مجموع الفتاوىٰ" (٤/ ٣٧٤) : " ... إذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَقَدْ حَدَثَ الْعُلَمَاءُ الْمَرْضِيُّونَ وَأَوْلِيَاؤُهُ الْمَقْبُولُونَ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجْلِسُهُ رَبُّهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ مَعَهُ. رَوَىٰ ذَلِكَ محمَّد بْنُ فَضِيلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ؛ فِي تَفْسِيرِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء:٧٩] ، وَذَكَرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَىٰ مَرْفُوعَةٍ وَغَيْرِ مَرْفُوعَةٍ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا لَيْسَ مُنَاقِضًا لِمَا اسْتَفَاضَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الشَّفَاعَةُ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ وَيَدَّعِيهِ لَا يَقُولُ إنَّ إجْلَاسَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ مُنْكَرًا ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَهُ بَعْضُ الْجَهْمِيَّةِ وَلَا ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مُنْكَرٌ " .

وأنا أقول للإمام ابن تيمية ولمن يؤمن بعقيدة الإجلاس علىٰ العرش : لا ، لم يُحدِّث العلماءُ المرضيُّون ولا أولياؤه المقبولون بأنَّ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجلسه ربُّه علىٰ العرش معه ، بل استنكروه واستعظموه ، ورجَّحوا ما جاء في الصَّحيح من تفسير المقام المحمود بالشَّفاعة العظمىٰ ...

ثَانِيَاً : عَقِيْدَةُ الجُلُوْسِ انْتَقَلَت إِلَىٰ الْمُسْلِمِيْنَ مِنَ اليَهُوْد :

فاليهود لم يتورَّعوا عن نسبة القعود والجلوس لله تعالىٰ ...

فقد جاء في سفر التَّثنية (١٧ : ١٨-١٩) : " وَعِنْدَمَا يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ، يَكْتُبُ لِنَفْسِهِ نُسْخَةً مِنْ هذِهِ الشَّرِيعَةِ فِي كِتَابٍ مِنْ عِنْدِ الْكَهَنَةِ اللاَّوِيِّينَ فتكُونُ مَعَهُ وَيَقْرَأُ فِيهَا كُل أَيَّامِ حيَاتِهِ لِيَتعلَمَ أَنْ يَتَّقِيَ الرَّبَّ إِلهَهُ وَيَحْفَظَ جَمِيعَ كَلِمَاتِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَهَذِهِ الفَرَائِض لِيَعْمَل بِهَا " .

وجاء في سفر أخبار الأيام الثَّاني (١٨:١٨) : " وَقَالَ: «فَاسْمَعْ إِذًا كَلاَمَ الرَّبِّ. قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّماء وُقُوفٌ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ " .

وجاء في سفر المزامير (٨:٤٧) : " اللهُ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ قُدْسِهِ " .

وجاء في سفر الملوك الأوَّل (٢٢: ١٩) : " وَقَالَ: فَاسْمَعْ إِذًا كَلاَمَ الرَّبِّ: قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّمَاءِ وُقُوفٌ لَدَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ " .

وعلى سَنَن اليهود في إثبات القعود والجلوس لله تعالى ... سار المتسلِّفة ، فأثبتوا لله تعالى الجلوس ...

ثَالِثاً : أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِيْ الأَثَرِ الوَارِدِ عَنْ مُجَاهِد :

قال الإمام ابن عبد البر في " التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد" (١٩/ ٦٤) : " ... عَلَى هَذَا أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهَّ عزَّ وجلَّ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، أَنَّه الشَّفَاعَةُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ (١٠٤هـ) : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ أَنْ يُقْعِدَهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ مُنْكَرٌ !!! فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْخَالِفِينَ : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلُ مَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَارَ إِجْمَاعاً فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ والسُّنَّة . ذَكَرَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ شَبَابَةَ عَنْ وَرْقَاءُ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ في قوله : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : شَفَاعَةُ محمَّد صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

قلت : وما ذكره ابن عبد البر هنا هو الوارد في تفسير مجاهد ، ولم يذكر غيره ... قال مجاهد في تفسير المقام المحمود الوارد في قوله تعالى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ : " أَخْبَرَنَا عَبْدُ

الرَّحْمَنِ، قَالَ: نا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: نا آدَمُ، قَالَ: نا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] قَالَ: «الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

. انظر: تفسير مجاهد (ص٤٤١).

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثَّعلبي (٤٢٧ هـ) في " الكشف والبيان عن تفسير القرآن " (١٦/٤٤٧- ٤٥١): " ... أخبرنا عبد الله بن حامد، قال: أخبرنا أحمد بن محمَّد بن يحيى، قال: أحمد بن نجدة، قال: حدَّثنا الحماني قال: حدَّثنا ابن فضيل عن ليث، عن مجاهد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: يجلسه على العرش.

قلت: وهذا تأويل غير مستحيل؛ لأنَّ الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء قائمًا بذاته، ثمَّ خلق الأشياء من غير حاجة له إليها، بل إظهارًا لقدرته وحكمته وليعلم وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بظهور أفعاله المتقنة المحكمة، وخلق لنفسه عرشًا فاستوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسًّا أو كان العرش له مكانًا، بل هو الآن على الصِّفة التي كان عليها قبل أن خلق المكان والزَّمان، فعلى هذا القول سواء أقعد محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش أو على الأرض، لأنَّ استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزَّوال أو تحول الأحوال من القيام والقعود والحال الذي يشغل العرش، بل هو مستو على العرش كما أخبر عن نفسه بلا كيف، وليس إقعاده محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش موجبًا له على صفة الرُّبوبيَّة أو مخرجًا إيَّاه من صفة العبوديَّة، بل هو رفع لمحله وإظهار لشرفه وتفضيل له على غيره من خلقه ... وأمَّا ما نقل عن مجاهد وغيره من أنَّه يجلسه على العرش أو الكرسي، وإن كان معناه لا يستبعد، كما ذكره ابن جرير والقرطبي، فالشَّأن في صفته، فإن صحَّ مرفوعًا فذاك، وإلَّا فلا ينبغي حمل معنى الآية عليه. والله أعلم".

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) في " التَّفْسِيرُ البَسِيْط " (١٣/٤٤٤- ٤٤٥): " وروي عن مجاهد في تفسير قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: يجلسه معه على العرش ...

وهذا تفسير فاسد وقول رذل، وقول مجاهد: معه، قولٌ موحش فظيع، ونصُّ الكتاب ينادي بفساد هذا التَّفسير؛ وهو قوله: ﴿يَبۡعَثُكُمۡ﴾ [الأنعام:٦٠]، والبعث لا يكون بمعنى الإجلاس، ومن فَسَّر البعث بالإجلاس فقد فَسَّره بضد ما وُضع له؛ لأن البعث وضع للإثارة؛ يقال: بعثت المبارك والقاعد فانبعث، هذا هو الأصل، ثمَّ يقال: بعث الله الميِّت، وبعث بمعنى أرسل راجع إلى هذا، لأنَّه يقيمه إلى ما يرسله إليه وله، ولأنَّ الله تعالى قال: ﴿مَقَامًا﴾، ولم قل: مقعدًا، والمقام موضع القيام، يدلُّ على هذا قوله: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[آل عمران: ٩٧]، وهو موضع قدميه في حال قيامه، وقول الشَّاعر: هذا مقام قدمي رباح

وإذا فسد هذا الفساد الظَّاهر لم يُعتد به ".

وقال الإمام الرازي في " التفسير " (٢١/٣٨٨) في كلامه عن المقام المحمود : " اَلْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَالَ الْوَاحِدِيُّ رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّه قَالَ: «يُقْعِدُ اللهُ مُحَمَّدًا عَلَى الْعَرْشِ» وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّه قَالَ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ، ثمَّ قَالَ الْوَاحِدِيُّ وَهَذَا قَوْلٌ رَذْلٌ مُوحِشٌ فَظِيعٌ وَنَصُّ الْكِتَابِ يُنَادِي بِفَسَادِ هَذَا التَّفْسِيرِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ:

الأَوَّلُ: أن البعث ضِدُّ الْإِجْلَاسِ يُقَالُ بَعَثْتُ النَّازِلَ وَالْقَاعِدَ فَانْبَعَثَ وَيُقَالُ بَعْثَ اللهُ الْمَيِّتَ أَيْ أَقَامَهُ مِنْ قَبْرِهِ فَتَفْسِيرُ الْبَعْثِ بِالْإِجْلَاسِ تَفْسِيرٌ لِلضِّدِّ بِالضِّدِّ وَهُوَ فَاسِدٌ.

وَالثَّانِي: أنَّه تَعَالَى قَالَ مَقاماً مَحْمُوداً وَلَمْ يَقُلْ مَقْعَدًا وَالْمَقَامُ مَوْضِعُ الْقِيَامِ لَا مَوْضِعَ الْقُعُودِ.

وَالثَّالِثُ: لَوْ كَانَ تَعَالَى جَالِسًا عَلَى الْعَرْشِ بِحَيْثُ يَجْلِسُ عِنْدَهُ محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَكَانَ مَحْدُودًا مُتَنَاهِيًا وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ.

وَالرَّابِعُ: يُقَالُ إِنَّ جُلُوسَهُ مَعَ اللهَّ عَلَى الْعَرْشِ لَيْسَ فِيهِ كَثِيرُ إِعْزَازٍ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالَ وَالْحَمْقَى يَقُولُونَ فِي كُلِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهم يَزُورُونَ اللهَّ تَعَالَى وَإِنَّهُمْ يَجْلِسُونَ مَعَهُ وإنَّه تَعَالَى يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا فِي الدُّنْيَا وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ حَاصِلَةً عِنْدَهُمْ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا مَزِيدُ شَرَفٍ وَرُتْبَةٍ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّه إِذَا قِيلَ السُّلْطَانُ بَعَثَ فُلَانًا فُهِمَ مِنْهُ أَنَّه أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمٍ لِإِصْلَاحِ مُهِمَّاتِهِمْ وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّه أَجْلَسَهُ مَعَ نَفْسِهِ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَلَامٌ رَذْلٌ سَاقِطٌ لَا يَمِيلُ إِلَيْهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَلِيلُ الْعَقْلِ عَدِيمُ الدِّينِ وَاللهُ أَعْلَمُ" .

قال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي (٦٧١هـ) في " الجامع لأحكام القرآن " (١٠/ ٣١١) : " وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: يُجْلِسُهُ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا تَأْوِيلٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا وَالْعَرْشَ قَائِمًا بِذَاتِهِ، ثمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهَا، بَلْ إِظْهَارًا لِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَلِيُعْرَفَ وُجُودُهُ وَتَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمُهُ بِكُلِّ أَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ، وَخَلَقَ لِنَفْسِهِ عَرْشًا اسْتَوَى عَلَيْهِ كَمَا شَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ صَارَ لَهُ مُمَاسًّا، أَوْ كَانَ الْعَرْشُ لَهُ مَكَانًا. قِيلَ: هُوَ الْآنَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ، فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ سَوَاءٌ فِي الْجَوَازِ أَقْعَدَ محمَّد عَلَى الْعَرْشِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّ اسْتِوَاءَ اللهَّ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ لَيْسَ بِمَعْنَى الِانْتِقَالِ وَالزَّوَالِ وَتَحْوِيلِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ وَالْحَالِ الَّتِي تَشْغَلُ الْعَرْشَ، بَلْ هُوَ مُسْتَوٍ عَلَى عرشه" .

وذكر الإمام الذَّهبي في " العلو" – مختصره – أنَّه لم يثبت في إقعاد نبيِّنا على العرش نصٌّ ، فقال : " فأمَّا قضيَّة قعود نبيِّنا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نصٌّ !!! بل في الباب حديث واه " . انظر : مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٨٣) .

وقال الإمام الذَّهبي في " ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال " (٣/ ٤٣٩) : " قال أبو بكر بن عيَّاش: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف – أو شيء نحوه؟ قال: أخذها من أهل الكتاب.

وقال النّباتي: ذكر مجاهد في كتاب الضُّعفاء لابن حبَّان البستي، ولم يذكره أحمد ممَّن ألف في الضُّعفاء.

قال: ومجاهد ثقة بلا مدافعه. ومن أنكر ما جاء عن مجاهد في التَّفسير في قوله : ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ ، قال: يُجلسه معه على العرش" .

وقال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدمشقي (٧٧٤هـ) في " البداية والنِّهاية " (١٩/ ٤٩٠) : " وَقَدْ رَوَىٰ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، وَأَبُو يَحْيَىٰ الْقَتَّاتُ، وَعَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، وَجَابِرٌ الْجُعْفِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّه قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ: أَنَّه يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ. وَرُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، وَجَمَعَ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ جُزْءًا كَبِيرًا، وَحَكَاهُ هُوَ وَغَيْرُهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ؛ كَأَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ وَخَلْقٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُنْكِرُهُ مُثْبِتٌ وَلَا نَافٍ. وَقَدْ نَظَمَهُ الْحَافِظُ أَبُو الْحَسَنِ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ.

قُلْتُ: وَمِثْلُ هَذَا لَا يَنْبَغِي قَبُولُهُ إِلَّا عَنْ مَعْصُومٍ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي هَذَا حَدِيثٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَلَا يُصَارُ بِسَبَبِهِ إِلَيْهِ، وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَغَيْرِهِ فِي هَذَا: أَنَّه الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ بِمُجَرَّدِهِ، وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ لَا يَصِحُّ، وَلَكِنْ قَدْ تَلَقَّاهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ بِالْقَبُولِ، وَلَمْ يَصِحَّ إِسْنَادُهُ إِلَىٰ ابْنِ سَلَامٍ. وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ" .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني (٧٧٥هـ) في " اللباب في علوم الكتاب " (١٢/ ٣٦٤-٣٦٥) في كلامه عن المقام المحمود : " القول الرَّابع: قال الواحديُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: روي عن ابن عبَّاس - رَضِيَ اللهُ عَنْه - أنَّه قال: يقعدُ الله محمَّداً علىٰ العرشِ، وعن مجاهد أنَّه قال: يجلسه معه علىٰ العرشِ.

قال الواحدي: وهذا قولٌ رذلٌ موحشٌ فظيعٌ، ونصُّ الكتاب يُفسد هذا التَّفسير من وجوه:

الأَوَّلُ: أنَّ البعث ضدُّ الإجلاس، يقال: بعثتُ النَّاقة، وبعث الله الميِّت، أي: أقامه من قبله، فتفسير البعث بالإجلاس تفسير الضدِّ بالضدِّ؛ وهو فاسدٌ.

وَالثَّانِي: أنَّه تعالىٰ، لو كان جالساً علىٰ العرشِ، بحيث يُجلس عنده محمَّداً - صلوات الله وسلامه عليه - لكان محدوداً متناهياً، ومن كان كذلك، فهو محدثٌ.

الثَّالِثُ: أنَّه تعالىٰ قال: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، ولم يقل: مقعداً، والمقام: موضع القيام، لا موضع القعود.

الرَّابِعُ: أنَّ جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزازٍ؛ لأنَّ هؤلاء الحمقى يقولون: إنَّ أهل الجنَّة كلُّهم يجلسون معه ويرونه، وإنَّه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدُّنيا، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكلِّ المؤمنين، لم يكن في تخصيص محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بذلك مزيد شرفٍ ومرتبةٍ.

الخَامِسُ: أنَّه إذا قيل: السُّلطان بعث فلاناً، فهم منه أنَّه أرسله لإصلاح مهمَّاتهم، ولا يفهم أنَّه أجلسه مع نفسه؛ فثبت أنَّ هذا القول كلام رذلٌ، لا يميل إليه إلاَّ قليل العقل، عديم الدِّين" .

وقال الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافعي (٨٥٢هـ) : " قَالَ بن بَطَّالٍ (٤٤٩هـ) أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ الشَّفَاعَةَ فِي إِخْرَاجِ مَنْ أُدْخِلَ النَّار مِنَ الْمُذْنِبِينَ وَتمَسَّكُوا بِقَوْلِهِ تعَالَى : ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ**﴾[المدثر: ٤٨] ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَأَجَابَ أَهْلُ السُّنَّة بِأَنَّهَا فِي الْكُفَّارِ ، وَجَاءَتِ الْأَحَادِيثُ فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مُتَوَاتِرَةً ، وَدَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا**﴾[الإسراء: ٧٩] ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشَّفَاعَةُ ، وَبَالَغَ الْوَاحِدِيُّ (٤٦٨هـ) فَنَقَلَ فِيهِ الْإِجْمَاعَ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَى مَا جَاءَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَزَيَّفَهُ !!! وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيل : الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يَقُومُهُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لِيُرِيحَهُمْ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ ، ثمَّ أَخْرَجَ عِدَّةَ أَحَادِيث فِي بَعْضُهَا التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ ، وَفِي بَعْضِهَا مُطْلَقُ الشَّفَاعَةِ ". انظر : فتح الباري (١١/٤٢٦).

وقال الإمام علي بن سلطان القاري (١٠١٤هـ) في " شرح الشِّفا " (١/٤٦٩) : " روي عن مجاهد أنَّه قال يجلسه معه على العرش . وعن عبد الله بن سلام قال : يقعده على الكرسي ، وأمثال ذلك مِمّا ظاهره منكر من القول ، فيجب ردّه وانكاره على ناقله أو تأويله لحسن الظَّن بقائله ، وبعضهم أوَّل ذلك بأن يجلسه مع أنبيائه وملائكته على ما حكاه الطَّبري . وقد قدَّمنا تأويلاً آخر فتدبَّر (لكن ما فسره النَّبي (في صحيح الآثار يرده) بتشديد الدَّال ، أي : يرد ظاهر ما جاء بخلافه ويدفعه ، فيتعيَّن أن يأول غيره إليه ولا ينعكس الأمر عليه . وفي نسخة ترده بفتح التَّاء وكسر الرَّاء وتخفيف الدَّال ، أي : ترد عليه ، ويلائمه قوله (فلا يجب أن يلتفت إليه) ، أي : بتأويل ، قال : وقيل لأنَّه تضييع عمر

في توضيح أمر (مع أنَّه لم يأت) ، أي : خلافه (في كتاب ولا سُنَّة) ، أي : ثابتة حتَّىٰ يحتاج إلىٰ تأويل ومعالجة (ولا اتَّفق) وفي نسخة ولا اتَّفقت (علىٰ المقال به أمَّة) ، أي : جماعة من المجتهدين وعلماء الدِّين حتَّىٰ يحتاج إلىٰ تأويل بجمعه أرباب اليقين (وفي إطلاق ظاهره منكر من القول وشنعة) بضم فسكون ، أي : وشناعة في العبارة يأتي دفعها بالإشارة " .

وقال الشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني في مقدِّمة العلو : " لو أنَّ المؤلِّف رحمه الله -يقصد الذَّهبي- وقف عند ما ذكرنا لأحسن ، ولكنَّه لم يقنع بذلك ، بل سوَّد أكثر من صفحة كبيرة في نقل أقوال من أفتىٰ بالتَّسليم بأثر مجاهد في تفسير قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قال : يُجلسه أو يُقعده علىٰ العرش . بل قال بعضهم : أنا منكرٌ علىٰ كلِّ من ردَّ هذا الحديث ، وهو عندي رجل سوء متَّهم ... بل ذكر عن الإمام أحمد أنَّه قال : هذا تلقَّته العلماء بقبول إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تراها في الأصل ، ولا حاجة بنا إلىٰ استيعابها في هذه المقدِّمة . وذكر في " مختصره " المسمَّىٰ بـ " الذَّهبيَّة " أسماء جمع آخرين من المحدِّثين سلَّموا بهذا الأثر ، ولم يتعقَّبهم بشيء هناك . وأمَّا هنا فموقفه مضطربٌ أشدَّ الاضطراب !!! فبينما تراه يقول في آخر ترجمة محمَّد بن مصعب العابد عقب قول من تلك الأقوال (ص١٢٦) : فأبصر - حفظك الله من الهوىٰ - كيف آل الفكر بهذا المحدِّث إلىٰ وجوب الأخذ بأثر منكر " ... فأنت إذا أمعنت النَّظر في قوله هذا ، ظننت أنَّه ينكر هذا الأثر ولا يعتقده ، ويلزمه ذلك ولا يتردَّد فيه ، ولكنَّك ستفاجأ بقوله (ص١٤٣) بعد أن أشار إلىٰ هذا الأثر عقب ترجمة حرب الكرماني : وغضب العلماء لإنكار هذه المنقبة العظيمة التي انفرد بها سيِّد البشر ، ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلَّا بتوقيف ... " . ثمَّ ذكر أشخاصاً آخرين ممَّن سلَّموا بهذا الأثر غير من تقدَّم ، فإذا أنت فرغت من قراءة هذا ، قلت : لقد رجع الشَّيخ من إنكاره إلىٰ التَّسليم به ، لأنَّه قال : أنَّه لا يقال إلَّا بتوقيف ! ولكن سرعان ما تراه يستدرك علىٰ ذلك بقوله بعد سطور : ولكن ثبت في " الصِّحاح " أنَّ المقام المحمود هو الشَّفاعة العامَّة الخاصَّة بنبيِّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " قلت : وهذا هو الحقُّ في تفسير المقام المحمود دون شكٍّ ولا ريب ، للأحاديث التي أشار إليها المصنِّف رحمه الله تعالىٰ ، وهو الذي صحَّحه الإمام ابن جرير في " تفسيره (١٥/ ٩٩)

ثمَّ القرطبي (٣٠٩/١٠) ، وهو الذي لم يذكر الحافظ ابن كثير غيره ، وساق الأحاديث المشار إليها .
بل هو الثَّابت عند مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير . وذاك الأثر عنه ليس له طريق معتبر ، فقد ذكر المؤلِّف (ص١٢٥) أنَّه روي عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ ، وعطاء بن السَّائب ، وأبي يحيىٰ القتَّات ، وجابر بن يزيد " . قلت : والأوَّلان مختلطان ، والآخران ضعيفان ، بل الأخير متروكٌ متَّهم " . انظر : مقدمة مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٥-١٦) .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي في " شرح سنن النَّسائي المسمَّىٰ «ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ»" (٣٣٧/٨-٣٤٠ باختصار) في كلامه عن المقام المحمود : " القول الثَّاني: أنَّ المقام المحمود: إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة.

قال القرطبي: وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنَّه يكون بيده لواء الحمد، ويشفع. روىٰ التِّرمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ؛ آدم فمن سواه إلَّا تحت لوائي". وهو حديث صحيح.

القول الثَّالث: ما حكاه الطَّبري عن فرقة، منها مجاهد، أنَّها قالت: المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعالىٰ محمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه علىٰ الكرسي؛ وروت في ذلك حديثًا، وعضد الطَّبري جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلَّا علىٰ تلطُّف في المعنىٰ، وفيه بعد، ولا ينكر مع ذلك أن يروىٰ، والعلم يتأوّله .

وذكر النقاش عن أبي داود السّجستاني أنَّه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متَّهم، مازال أهل العلم يتحدثون بهذا، من أنكر جوازه علىٰ تأويله؟.

قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمَّة بتأويل القرآن، فإنَّ له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثَّاني: في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢- ٢٣] ، قال: تنتظر الثَّواب؛ ليس من النَّظر.

وروي عن مجاهد أيضًا في هذه الآية قال: يجلسه علىٰ العرش.

وهذا تأويله غير مستحيل؛ لأنَّ الله تعالىٰ كان قبل خلقه الأشياء كلّها، والعرشَ قائمًا بذاته، ثمَّ خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارًا لقدرته وحكمته، وليُعرَف وجودُه وتوحيده، وكمال قدرته وعلمه بكلِّ أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشًا استوىٰ عليه كما شاء من غير أن صار له مماسًا، أو كان العرش له مكانًا، قيل: هو الآن علىٰ الصِّفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزَّمان؛ فعلىٰ هذا القول سواء في الجواز أقْعَدَ محمَّدًا علىٰ العرش، أو علىٰ الأرض؛ لأنَّ استواء الله تعالىٰ علىٰ العرش ليس بمعنىٰ الانتقال والزَّوال، وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ علىٰ عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف، وليس إقعاده محمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ العرش موجبًا له صفة الرُّبوبيَّة، أو مخرجًا له عن صفة العبوديَّة، بل هو رفع لمحله، وتشريف له علىٰ خلقه" .

وقال الأستاذ وهبي غاوجي الألباني في مقدِّمة " إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل " لابن جماعة (ص٣١-٣٢) : "القَوْل الثَّالِث : مَا حَكَاهُ الطَّبَرِيّ عَن فرقة مِنْهَا مُجَاهِد أَنَّهَا قَالَت : الْمقَام الْمَحْمُود هُوَ أَن يجلس الله تَعَالَىٰ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَه علىٰ كرسيَّه ، وروت فِي ذَلِك حَدِيثاً هُوَ حَدِيث عَائِشَة ، وَتقدَّم أَنَّه لَا يَصح ، وعضد الطَّبَرِيّ جَوَاز ذَلِك بشطط من القَوْل ، وَهُوَ لَا يخرج إِلَّا علىٰ تلطُّف فِي الْمَعْنىٰ ، وَفِيه بُعد ، وَلَا يُنكر مَعَ ذَلِك أَن يرْوىٰ وَالْعلم يتأوَّله ، وَذكر النقاش عَن أبي دَاوُد السّجسْتانِي أَنَّه قَالَ : من أنكر هَذَا الحَدِيث فَهُوَ عندنَا مُتَّهم ، مَا زَالَ أهل الْعلم يتحدَّثون بِهَذَا من أنكر جَوَازه علىٰ تَأْوِيله .

قَالَ أَبُو عمر : وَمُجاهد وَإِن كَانَ أحد الْأَئِمَّة يتَأَوَّل الْقُرْآن فَإِنَّ لَهُ قَوْلَيْنِ مهجورين عِنْد أهل الْعلم ، أَحدهمَا هَذَا ، وَالثَّانِي فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] ، قَالَ : تنْتَظر الثَّوَاب لَيْسَ من النّظر . قلت : ذكر هَذَا فِي بَاب ابْن شهَاب فِي حَدِيث التَّنْزِيل ، وَرُوِيَ عَن مُجَاهِد أَيْضاً فِي هَذِه الْآيَة ، قَالَ : يُجلسه علىٰ الْعَرْش ، وَهَذَا تَأْوِيل غير مُسْتَحِيل ، لِأَن الله تَعَالَىٰ كَانَ قبل خلقه الْأَشْيَاء كلّهَا وَالْعرش قَائِماً بِذَاتِهِ ثمَّ خلق الْأَشْيَاء من غير حَاجَة إِلَيْهَا بل إِظْهَارًا لقدرته وحكمته وليعرف وجوده وتوحيده وَكَمَال قدرته وَعلمه بِكُل أَفعاله المحكمة ، وَخلق لنَفسِهِ عرشاً

اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ كَمَا شَاءَ من غير أَن صَار مماسّاً لَهُ أَو كَانَ الْعَرْش لَهُ مَكَاناً ، قيل : هُوَ الْآن علىٰ الصّفة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا من قبل أَن يخلق الْمَكَان وَالزَّمَان ، فعلىٰ هَذَا القَوْل سَوَاء فِي الْجَوَاز أقعد محمَّد علىٰ الْعَرْش أَو علىٰ الأَرْض لِأَنَّ اسْتِوَاء الله تَعَالَىٰ علىٰ الْعَرْش لَيْسَ بِمَعْنىٰ الِانْتِقَال والزَّوال وتحويل الْأَحْوَال من الْقيام وَالْقعُود وَالْحَال الَّتِي تشغل الْعَرْش ، بل هُوَ مستو علىٰ عَرْشه كَمَا أخبر عَن نَفسه بِلَا كَيفَ ، وَلَيْسَ إقعاده مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوجباً لَهُ صفة الرُّبوبيَّة أَو مُخرجاً لَهُ عَن صفة الْعُبُودِيَّة ، بل هُوَ رفع لمحلِّه وتشريف لَهُ علىٰ خلقه .

وَأمَّا قَوْله فِي الْأَخْبَار مَعَه ، فَهُوَ بِمَنْزِلَة قَوْله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[الأعراف:٢٠٦] و ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم:١١] و ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩] ، وَنَحْو ذَلِك ، كلّ ذَلِك عَائِد إِلَىٰ الرُّتْبَة والمنزلة والحظوة والدَّرجة الرفيعة لَا إِلَىٰ الْمَكَان .

أَقُول : إِنَّمَا نقلت كَلَام الْقُرْطُبِيّ علىٰ طوله فِيمَا نقل عَن مُجَاهِد مَعَ أَنَّه مَبْنِيّ علىٰ أصل بَاطِل لَا يَصحُّ ويعارض الصَّحِيح من الحَدِيث ، وَقد بلغ التَّوَاتُر الْمَعْنَوِيّ من أجل أَن يُقَاس عَلَيْهِ فِيمَا يَصح مِمَّا يجب تَأْوِيله تَنْزِيهاً لله تَعَالَىٰ عَن مشابهة الْخلق . وَذكر السُّيُوطِيّ فِي كِتَابه تحذير الْخَوَاص من أَحَادِيث الْقصاص تَحْقِيق الدُّكتور محمَّد الصَّباح أَنَّ الإِمَام الطَّبَرِيّ بلغه أَنَّ قَاصّاً جلس فِي بَغْدَاد ، فروىٰ فِي تَفْسِير قَوْله تَعَالَىٰ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أَنَّه يجلسه علىٰ عَرْشه ، فَلَمَّا بلغه ذَلِك احتدَّ علىٰ ذَلِك وَبَالغ فِي إِنْكَاره ، وَقَالَ إِنَّ حَدِيث الْجُلُوس علىٰ الْعَرْش مُحَال ، ثمَّ أنْشد :

سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَنِيْس   وَلَا لَهُ فِي عَرْشِهِ جَلِيْس

والقصَّة علىٰ طرافتها ذكرهَا ياقوت الْحَمَوِيّ فِي مُعْجم الْبلدَانِ (١٨ - ٥٧) ، وَأَبُو حَيَّان فِي الْبَحْر الْمُحِيط (٦\٧٢،٧٣) ، ونعوذ بِاللهّ من الخذلان" .

وقال الأستاذ ناصر بن عبد الكريم العلي العقل في " شرح كتاب قاعدة جليلة في التَّوسُّل والوسيلة لابن تيمية " (٥/١١) : " وقد فسَّر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوسيلة بأَّنها درجة في الجنَّة، وبعضهم قال: يدخل فيها ما دون ذلك من الأمور التي ميَّزه الله بها.

أمَّا المقام المحمود فقد فسِّر بتفسيرين: أوَّلها: أنَّ المقصود بالمقام المحمود شفاعته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخلائق أن يفصل الله بينهم يوم القيامة، ومنها شفاعته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنَّة بأن يدخلوها، وقد جاء تفسيره في النَّصِّ الصَّريح بأنَّه هو المقام المحمود.

وفسَّر بعض السَّلف المقام المحمود بصورة أخرىٰ، وهو ما ورد في بعض الآثار من أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُجلس نبيَّه علىٰ العرش، وهذه مسألة قال بها بعض السَّلف وأنكرها آخرون، فبعضهم جعلها مسألة من مسائل العقيدة والأصول، وبعضهم جعلها من الأمور التي تحتاج إلىٰ تحقيق ونظر، وبعضهم أنكرها، وعلىٰ هذا فإنَّ تفسير المقام المحمود بالشَّفاعة العظمىٰ هو التَّفسير القاطع الذي لا شكَّ فيه، لكن هل من المقام المحمود أنَّ الله يجلس نبيَّه علىٰ العرش؟ هذه المسألة لا يمنع منها العقل، بعض النَّاس يستهولها عقلاً، ويقول: كيف يكون علىٰ العرش؟ فنقول: العرش مخلوق والرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلوق، والله عزَّ وجلَّ يقدِّر ما يشاء ويفعل ما يشاء، لكن لا يلزم من هذا أن يقف الإنسان عند ما يتخيَّله خياله من لوازم تتعلَّق باستواء الله علىٰ عرشه، فالله ليس كمثله شيء، والله قادر علىٰ أن يفعل ذلك، كما أنَّ الله عزَّ وجلَّ رفع مقام النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المعراج إلىٰ أن وصل سدرة المنتهىٰ، ووصل إلىٰ مقام لم يصله أحد قبله من الخلق، ولن يصله أحد بعده، قادر علىٰ أن يجلسه علىٰ العرش كما يليق بفعل الله عزَّ وجلَّ، وليس ذلك بممتنع، لكن أقول: إنَّ هذه المسألة ليست متَّفقاً عليها عند السَّلف، بل بعضهم عدَّها من غرائب الأقوال ، والله أعلم".

رَابِعَاً : أَقوَالُ العُلَمَاءِ فِي بَقيَّةِ الآثَارِ الوَارِدَةِ فِي المَسْأَلَة :

قال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) في " الكشف والبيان عن تفسير القرآن " (١٦/٤٤٧- ٤٥١) : " أنبأني الحسين بن محمَّد بن فنجويه ، قال: حدَّثنا علي بن أحمد بن نصرويه ، قال: حدَّثنا محمَّد بن الحسين بن شهريار ، قال: وجدت في كتاب أبي عن أبي همام الوليد بن شجاع ، عن علي بن جعفر ، عن المسعودي، عن عاصم ، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: إنَّ الله اتَّخذ إبراهيم عليه السَّلام خليلًا له ، وإنَّ صاحبكم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل الله، وأكرم الخلق علىٰ الله، ثمَّ قرأ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، قال: يقعده علىٰ العرش .

وأخبرنا ابن فنجويه ، قال: حدَّثنا عمر بن الخطَّاب، قال: حدثنا أبو حامد أحمد بن جعفر المستملي ، قال: حدثنا حجاج بن يوسف الشَّاعر ، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن كثير أبو غسان العنبري ، قال: حدَّثنا سلم بن جعفر، عن سعيد الجريري ، عن سيف السَّعدي ، عن عبد الله بن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، قال: إذا كان يوم القيامة يؤتىٰ بنبيِّكم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيقعد بين يدي الرَّب عزَّ وجلَّ علىٰ الكرسي .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، قال: أخبرنا أحمد بن محمَّد بن يحيىٰ ، قال: أحمد بن نجدة ، قال: حدَّثنا الحماني قال: حدَّثنا ابن فضيل عن ليث ، عن مجاهد في قوله عزَّ وجلَّ: **﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾** ، قال: يجلسه علىٰ العرش .

قلت : وهذا تأويل غير مستحيل؛ لأنَّ الله تعالىٰ كان قبل خلقه الأشياء قائمًا بذاته، ثمَّ خلق الأشياء من غير حاجة له إليها، بل إظهارًا لقدرته وحكمته وليعلم وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بظهور أفعاله المتقنة المحكمة، وخلق لنفسه عرشًا فاستوىٰ عليه كما شاء من غير أن صار له مماسًّا أو كان العرش له مكانًا، بل هو الآن علىٰ الصِّفة التي كان عليها قبل أن خلق المكان والزَّمان، فعلىٰ هذا القول سواء أقعد محمَّدًا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ علىٰ العرش أو علىٰ الأرض، لأنَّ استواء الله تعالىٰ علىٰ العرش ليس بمعنىٰ الانتقال والزَّوال أو تحول الأحوال من القيام والقعود والحال الذي يشغل العرش، بل هو مستو علىٰ العرش كما أخبر عن نفسه بلا كيف، وليس إقعاده محمدًا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ علىٰ العرش موجبًا له علىٰ صفة الرُّبوبيَّة أو مخرجًا إيَّاه من صفة العبوديَّة، بل هو رفع لمحله وإظهار لشرفه وتفضيل له علىٰ غيره من خلقه ... والله أعلم" .

قال الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (٧٤٨هـ) في " العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها " (ص٩٣-٩٤) : "حَدِيثُ أَبُو أَحْمَدَ عُبَيْدُ اللَّهِ بن الْعَبَّاس الشطوي حَدثنَا أَبُو الْعَبَّاسِ محمَّد بْنُ سُفْيَانَ الحنائي حبشون حَدثنَا محمَّد بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَالْحَسَنُ بن حَمَّاد قَالَا حَدثنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ عَنْ سَلَمَةَ الْأَحْمَر عَن أَشْعَث بْنِ طُلَيْقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ بَيْنَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ ٱلَّتَن تى تي **ثرثزثمَّ** ،

قَالَ : يُجْلِسُنِي عَلَى الْعَرْشِ . هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ لَا يُفْرَحُ بِهِ وَسَلَمَة هَذَا مَتْرُوك الحَدِيث وَأَشْعَث لَمْ يَلْحَقْ ابْنَ مَسْعُودٍ .

حَدِيثٌ يُرْوَىٰ عَنْ سَعِيدٍ الْجَرِيرِيِّ عَنْ سَيْفٍ السَّدُوسِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ سَلامٍ قَالَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُقْعِدَ بَيْنَ يَدَي اللهَّ عَلَىٰ كرسيَّه فَقُلْتُ لِلْجَرِيرِيِّ يَا أَبَا مَسْعُودٍ إِذَا كَانَ عَلَىٰ كرسيَّه أَلَيْسَ هُوَ مَعَهُ قَالَ وَيْلَكُمْ هَذَا أَقَرُّ حَدِيثٍ فِي الدُّنْيَا لِعَيْنِي . هَذَا مَوْقُوفٌ وَلا يَثْبُتُ إِسْنَادُهُ .

حَدِيثُ جُوَيْبِرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ ، سَيَأْتِي وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَيُرْوَىٰ مَرْفُوعًا وَإِنَّمَا هَذَا شَيْءٌ قَالَهُ مُجَاهِدٌ كَمَا سَيَأْتِي فَاللهُّ أَعْلَمُ " .

وقال الإمام الذَّهبي في " ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال" (٤/ ١٧٤) : " حدَّثنا محمَّد بن حماد، عن مقاتل بن سليمان، عن الضحَّاك، عن ابن عبَّاس، قال: إذا كان يوم القيامة ينادىٰ مناد: أين حبيب الله؟ فيتَّخطىٰ صفوف الملائكة حتَّىٰ يصير إلىٰ العرش، حتَّىٰ يُجلسه معه علىٰ العرش، حتَّىٰ يمسّ رُكبته !!! فهذا لعلَّه وضعه أحد هؤلاء أصحاب مقاتل أو القادسي" .

وقال الشَّيخ الألباني في " سلسلة الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة وأثرها السيِّئ في الأمَّة " (٢/ ٢٥٥ برقم ٨٦٥) : " " يجلسني علىٰ العرش " . باطل.

ذكره الذَّهبي في " العلو" (٥٥ طبع الأنصار) من طريقين عن أحمد بن يونس عن سلمة الأحمر عن أشعث بن طليق عن عبد الله بن مسعود ، قال: بينا أنا عند رسول الله صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرأ عليه حتَّىٰ بلغت ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، قال: فذكره.

وقال الذَّهبي: " هذا حديث منكر لا يفرح به، وسلمة هذا متروك الحديث، وأشعث لم يلحق ابن مسعود ". قلت: قد وجدت له طريقاً أخرىٰ موصولاً عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه، ولا يصحُّ أيضاً كما سيأتي بيانه برقم (٥١٦٠) إن شاء الله تعالىٰ.

ثمَّ ذكره الذَّهبي نحوه عن عبد الله بن سلام موقوفاً عليه وقال: " هذا موقوف ولا يثبت إسناده، وإنَّما هذا شيء قاله مجاهد كما سيأتي ".

ثمَّ رواه (ص ٧٣) من طريق ليث عن مجاهد نحوحديث ابن مسعود موقوفاً على مجاهد. وكذلك رواه الخلَّال في " أصحاب ابن منده " (١٥٧ / ٢) ، ثمَّ قال الذَّهبي: " لهذا القول طرق خمسة، وأخرجه ابن جرير في " تفسيره "، وعمل فيه المروزي مصنَّفاً "! ثمَّ رواه (ص ٧٨) من طريق عمر بن مدرك الرَّازي: حدَّثنا مكِّي بن إبراهيم عن جويبر عن الضحَّاك عن ابن عبَّاس موقوفاً مثله.

قال: " إسناده ساقط، وعمر هذا متروك، وجويبر (سقط الخبر من الأصل ولعلَّه. مثله) ، وهذا مشهور من قول مجاهد، ويروى مرفوعاً، وهو باطل ".

قلت: وممَّا يدل على ذلك أنَّه ثبت في " الصِّحاح " أنَّ المقام المحمود هو الشَّفاعة العامَّة الخاصَّة بنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ومن العجائب التي يقف العقل تجاهها حائراً أن يفتي بعض العلماء من المتقدِّمين بأثر مجاهد هذا كما ذكره الذَّهبي (ص ١٠٠ - ١٠١ و١١٧ - ١١٨) عن غير واحد منهم، بل غلا بعض المحدِّثين ، فقال: لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً أنَّ الله يُقعد محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش واستفتاني، لقلت له: صدقت وبررت!

قال الذَّهبي رحمه الله: " فأبصر - حفظك الله من الهوى - كيف آل الغلو بهذا المحدِّث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر، واليوم فيردن الأحاديث الصَّريحة في العلو، بل يحاول بعض الطَّغام أن يرد قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ .

قلت: وإنَّ مثل هذا الغلو لمَّا يحمل نفاة الصفات على التَّشبُّث بالاستمرار في نفيها، والطَّعن بأهل السُّنَّة المثبتين لها، ورميهم بالتَّشبيه والتَّجسيم، ودين الحقّ بين الغالي فيه والجافي عنه، فرحم الله امرءا آمن بما صحَّ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كهذا الحديث، فضلاً عن مثل هذا الأثر!

وبهذه المناسبة أقول: إنَّ ممَّا ينكر في هذا الباب ما رواه أبو محمَّد الدّشتي في " إثبات الحد " (١٤٤ / ١ - ٢) من طريق أبي العزّ أحمد بن عبيد الله بن كادش: أنشدنا أبو طالب محمَّد بن علي الحربي: أنشدنا الإمام أبو الحسن علي بن عمر الدَّارقطني رحمه الله قال:

حديث الشَّفاعة في أحمد ... إلى أحمد المصطفى نسنده

فأمَّا حديث إقعاده على العرش فلا نجحده
أمروا الحديث على وجهه ولا تدخلوا فيه ما يفسده
ولا تنكروا أنَّــــــه قاعد ولا تجحدوا أنَّــــــه يقعده

فهذا إسناد لا يصحُّ، من أجل أبي العزّ هذا، فقد أورده ابن العماد في وفيات سنة (٥٢٦) من " الشَّذرات " (٤ / ٧٨) وقال: " قال عبد الوهَّاب الأنماطي: كان مخلطاً ".

وأمَّا شيخه أبو طالب وهو العشاري ، فقد أورده في وفيات سنة (٤٥١) ، وقال (٣ / ٢٨٩) : " كان صالحاً خيراً عالماً زاهداً ". فاعلم أنَّ إقعاده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش ليس فيه إلَّا هذا الحديث الباطل، وأمَّا قعوده تعالى على العرش فليس فيه حديث يصحُّ، ولا تلازم بينه وبين الاستواء عليه كما لا يخفى. وقد وقفت فيه على حديثين، أنا ذاكرهما لبيان حالهما ... " .

قلتُ : وقد أغفل الألباني هنا حقيقة حال العشاري ... قال الذَّهبي في " ميزان الاعتدال" (٣/٦٥٦-٦٥٧) : " محَّمد بن علي بن الفتح، أبو طالب العشاري .

شيخ صدوق معروف، لكن أدخلوا عليه أشياء فحدَّث بها بسلامة باطن، منها حديث موضوع في فضل ليلة عاشوراء.

ومنها عقيدة للشَّافعي.

ومنها: قال: حدَّثنا ابن شاهين، حدَّثنا أبو بكر بن أبي داود، حدَّثنا شاذان، حدثنا سعد بن الصَّلت، حدَّثنا هارون بن الجهم، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي، قال: أتى النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبعة فأمر عليَّاً أن يضرب أعناقهم، فهبط جبرائيل ، فقال: لا تضرب عنق هذا.

قال: لم؟ قال: لأنَّه حسن الخلق سمح الكف.

قال: يا جبرائيل، أشئ عنك أو عن ربِّك؟ قال: بل ربِّي أمرني بذلك.

هارون أيضاً ليس بمعتمد.

العشاري، حدَّثنا أحمد بن منصور البوشري ، حدَّثنا أبو بكر النّجاد، حدثنا الحربي، حدَّثنا سريج بن النُّعمان، حدَّثنا ابن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: " صوموا عاشوراء

ووسِّعوا علىٰ أهاليكم، فقد تاب الله فيه علىٰ آدم ... إلىٰ أن قال: فمن صامه كان كفَّارة أربعين سنة، وأُعطي ثواب ألف شهيد، وكتب له أجر سبع سموات ... إلىٰ أن قال: وفيه خلق الله السَّموات والأرض، والعرش والقلم، وأوَّل يوم خلق يوم عاشوراء" .

فقبَّح الله من وضعه، والعتب إنَّما هو علىٰ محدِّثي بغداد كيف تركوا العشاري يروي هذه الأباطيل.

وقال الخطيب : كتبت عنه، وكان ثقة صالحاً.

مات سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة.

قلت: ليس بحجَّة" . وانظر : لسان الميزان (٥/ ٣٠١-٣٠٢) .

ولزيادة التَّفصيل والإيضاح في هذه المسألة نقل ما قاله أئمَّة التَّفسير في تفسير قول الله تعالىٰ :

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ...

روىٰ أبو الحجَّاج مجاهد بن جبر التَّابعي المكي القرشي المخزومي (١٠٤هـ) في تفسيره (ص٤٤١) : " أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: نا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: نا آدَمُ، قَالَ: نا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] قَالَ: «الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ شَفَاعَةُ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» .

وروىٰ أبو بكر عبد الرزَّاق بن همَّام بن نافع الحميري اليماني الصَّنعاني (٢١١هـ) في تفسيره (٢/ ٣٠٩) ، قال : نا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ: أرنا الثَّوْرِيُّ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ ، يَقُولُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ: يَجْمَعُ اللهُ النَّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حَيْثُ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ حُفَاةً عُرَاةً سُكُوتًا كَمَا خُلِقُوا سُكُوتًا لَا تَتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيُنَادَىٰ : محمَّد ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَبِكَ وَإِلَيْكَ ،لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ " ، قَالَ: فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ الله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] .

وروى البخاري (٩/ ١٣١ برقم٧٤٤٠) بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يُحْبَسُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ حتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، لِتَشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، قَالَ: وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ثَلاَثَ كَلِمَاتٍ كَذَبَهُنَّ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى: عَبْدًا آتَاهُ اللهُ التَّوْرَاةَ، وَكَلَّمَهُ، وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ قَتْلَهُ النَّفْسَ، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَرُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، فَيَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ: وَسَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّانِيَةَ: فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ: فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ

حَبَسَهُ القُرْآنُ "، أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ، قَالَ: ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] قَالَ: «وَهَذَا المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» .

وقال الإمام الطَّبري في التَّفسير (١٥/٤٣-٥٣) : " اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، فَقَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ: ذَلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي هُوَ يَقُومُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ لِيُرِيحَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: ثنا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: يُجْمَعُ النَّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا، قِيَامًا لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يُنَادَىٰ: يَا مُحَمَّدُ، فَيَقُولُ: " لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، عَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَبِكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، فَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ .

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ الْمُثَنَّىٰ، قَالَ: ثنا محمَّد بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: ثنا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: يُجْمَعُ النَّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَلَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ، فَأَوَّلُ مَا يَدْعُو محمَّد النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقُومُ محمَّد النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقُولُ: «لَبَّيْكَ» ، ثمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُ .

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عُمَرَ بْنِ خَالِدٍ الرَّقِّيُّ، قَالَ: ثنا عِيسَىٰ بْنُ يُونُسَ، عَنْ رِشْدِينَ بْنِ كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] ، قَالَ: الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ: مَقَامُ الشَّفَاعَة .

حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: ثنا سُفْيَانُ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ، قَالَ: ثنا أَبُو الزَّعْرَاءِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، فِي قِصَّةٍ ذَكَرَهَا، قَالَ: ثمَّ يُؤْمَرُ بِالصِّرَاطِ فَيُضْرَبُ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ، فَيَمُرُّ النَّاس بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، يَمُرُّ أَوَّلُهُمْ كَالْبَرْقِ، وَكَمَرِّ الرِّيحِ، وَكَمَرِّ الطَّيْرِ، وَكَأَسْرَعِ الْبَهَائِمِ، ثمَّ كَذَلِكَ حتَّىٰ يَمُرُّ الرَّجُلُ سَعْيًا، ثمَّ مَشْيًا، حتَّىٰ يَجِيءَ آخِرُهُمْ يَتَلَبَّطُ عَلَىٰ بَطْنِهِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لِمَا أَبْطَأْتَ بِي؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَمْ أُبْطِئْ

بِكَ، إِنَّمَا أَبْطَأَ بِكَ عَمَلُكَ، قَالَ: ثمَّ يَأْذَنُ اللهُ فِي الشَّفَاعَة ، فَيَكُونُ أَوَّلَ شَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رُوحُ الْقُدُسِ، ثمَّ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، ثمَّ مُوسَىٰ، أَوْ عِيسَىٰ، قَالَ أَبُو الزَّعْرَاءِ: لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا قَالَ، قَالَ: ثمَّ يَقُومُ نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَابِعًا، فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ بَعْدَهُ فِيمَا يَشْفَعُ فِيهِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ الله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] .

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِ اللهَّ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ: مَقَامُ الشَّفَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: ثنا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: ثنا عِيسَىٰ، وَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ، قَالَ: ثنا الْحَسَنُ، قَالَ: ثنا وَرْقَاءُ، جَمِيعًا عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِ اللهَّ تَعَالَىٰ: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: شَفَاعَةُ محمَّد يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، قَالَ: ثنا الْحُسَيْنُ، قَالَ: ثني حَجَّاجٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، مِثْلَهُ .

حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، قَالَ: ثنا الْحُسَيْنُ، قَالَ: ثنا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، قَالَ: هُوَ الشَّفَاعَة ، يُشَفِّعُهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ، فَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ .

حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] وَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا، أَوْ مَلَكًا نَبِيًّا، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جِبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ تَوَاضَعَ، فَاخْتَارَ نَبِيُّ اللهَّ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا، فَأُعْطِيَ بِهِ نَبِيُّ اللهَّ ثِنْتَيْنِ: أَنَّه أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنَّه الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] شَفَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، قَالَ: ثنا محمَّد بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، قَالَ: هِيَ الشَّفَاعَة ، يُشَفِّعُهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ

حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ وَالثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: يَجْمَعُ اللهُ النَّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حَيْثُ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، فَيُنْفُذِهُمُ الْبَصَرَ حُفَاةً عُرَاةً، كَمَا خُلِقُوا سُكُوتًا لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، قَالَ: فَيُنَادَىٰ مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ، قَالَ: فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] .

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، قَالَ: ثنا محمَّد بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، قَالَ حُذَيْفَةُ: يَجْمَعُ اللهُ النَّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، حَيْثُ يُنْفُذِهُمُ الْبَصَرَ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثمَّ يَقُومُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ» ثمَّ ذَكَرَ نَحْوَهُ، إِلَّا أَنَّه قَالَ: هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ .

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وَعَدَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْعَثَهُ إِيَّاهُ، هُوَ أَنْ يُقَاعِدَهُ مَعَهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا عَبَّادُ بْنُ يَعْقُوبَ الْأَسَدِيُّ، قَالَ: ثنا ابْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ . وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ مَا صَحَّ بِهِ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَذَلِكَ مَا:

حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: ثنا وَكِيعٌ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] سُئِلَ عَنْهَا، قَالَ: «هِيَ الشَّفَاعَة » .

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: ثنا مَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: ثنا دَاوُدُ بْنُ يَزِيدَ الْأَوْدِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِي» .

حَدَّثَنَا أَبُو عُتْبَةَ الْحِمْصِيُّ أَحْمَدُ بْنُ الْفَرَجِ، قَالَ: ثنا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الزُّبَيْدِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ، فَيَكْسُونِي رَبِّي حُلَّةً خَضْرَاءَ، ثمَّ يُؤْذَنُ لِي، فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ» .

حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، قَالَ: ثنا شُعَيْبُ بْنُ اللَّيْثِ، قَالَ: ثني اللَّيْثُ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ، أَنَّه قَالَ: سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ صَاحِبَ ذَلِكَ، ثمَّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثمَّ بِمُحَمَّدٍ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ فَيَمْشِي حتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا " .

حَدَّثَنِي أَبُو زَيْدٍ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ، قَالَ: ثنا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: ثنا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ، قَالَ: ثني عُثْمَانُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، وَعَلْقَمَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنِّي لَأَقُومُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا ذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ذَاكَ إِذَا جِيءَ بِكُمْ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُؤْتَى بِرَيْطَتَيْنِ بَيْضَاوَيْنِ، فَيَلْبَسُهُمَا، ثمَّ يَقْعُدُ مُسْتَقْبِلَ الْعَرْشِ، ثمَّ أُوتَى بِكِسْوَتِي فَأَلْبَسُهَا، فَأَقُومُ عَنْ يَمِينِهِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ غَيْرِي يَغْبِطُنِي فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، ثمَّ يُفْتَحُ نَهْرٌ مِنَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ» .

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: ثنا محمَّد بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَدَّ اللهُ الْأَرْض مَدَّ الْأَدِيمِ حتَّى لَا يَكُونَ

لِبَشَرٍ مِنَ النَّاس إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ» ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى وَجِبْرَئِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَاللهُ مَا رَآهُ قَبْلَهَا، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ إِنَّ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : صَدَقَ، ثمَّ أَشْفَعُ، قَالَ: فَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ " .

حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» فَذَكَرَ نَحْوَهُ، وَزَادَ فِيهِ: " ثمَّ أَشْفَعُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ عِبَادُكَ عَبَدُوكَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ " .

حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا أَبُو عَامِرٍ، قَالَ: ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ آدَمَ بِنِ عَلِيٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: إِنَّ النَّاس يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجِيءُ مَعَ كُلِّ نَبِيٍّ أُمَّتُهُ، ثمَّ يَجِيءُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آخِرِ الْأُمَمِ هُوَ وَأُمَّتُهُ، فَيَرْقَى هُوَ وَأُمَّتُهُ عَلَى كَوْمٍ فَوْقَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، وَيَا فُلَانُ اشْفَعْ، وَيَا فُلَانُ اشْفَعْ، فَمَا زَالَ يَرُدُّهَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ إِيَّاهُ .

حَدَّثَنَا محمَّد بْنُ عَوْفٍ، قَالَ: ثنا حَيْوَةُ وَرَبِيعٌ، قَالَا: ثنا محمَّد بْنُ حَرْبٍ، عَنِ الزُّبَيْدِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ، فَيَكْسُونِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ حُلَّةً خَضْرَاءَ، ثمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ» وَهَذَا وَإِنْ كَانَ هُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩] لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الرِّوَايَة عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، فَإِنَّ مَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ مِنْ أَنَّ اللهَ يُقْعِدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَرْشِهِ، قَوْلٌ غَيْرُ مَدْفُوعٍ صِحَّتُهُ، لَا مِنْ جِهَةِ خَبَرٍ وَلَا نَظَرٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّه لَا خَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ بِإِحَالَةِ ذَلِكَ. فَأَمَّا مِنْ جِهَةَ النَّظَرِ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ إِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى ذَلِكَ عَلَى أَوْجُهٍ ثَلَاثَةٍ: فَقَالَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ، ثمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ فَلَمْ يُمَاسَّهَا، وَهُوَ كَمَا لَمْ يَزَلْ غَيْرَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي خَلَقَهَا إِذْ لَمْ يَكُنْ هُوَ لَهَا مُمَاسًّا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُبَايِنًا، إِذْ لَا فِعَالَ لِلْأَشْيَاءِ

إِلَّا وَهُوَ مُمَاسٌّ لِلْأَجْسَامِ أَوْ مُبَايِنٌ لَهَا. قَالُوا: فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاعِلُ الْأَشْيَاءِ، وَلَمْ يَجُزْ فِي قَوْلِهِمْ أَنَّه يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُمَاسٌّ لِلْأَشْيَاءِ، وَجَبَ بِزَعْمِهِمْ أَنَّه لَهَا مُبَايِنٌ، فَعَلَىٰ مَذْهَبِ هَؤُلَاءِ سَوَاءٌ أَقْعَدَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عَرْشِهِ أَوْ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِذْ كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّ بَيْنُونَتَهُ مِنْ عَرْشِهِ، وَبَيْنُونَتَهُ مِنْ أَرْضِهِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ فِي أَنَّه بَائِنٌ مِنْهُمَا كِلَيْهِمَا، غَيْرُ مُمَاسٍّ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَىٰ: كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ قَبْلَ خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ، لَا شَيْءَ يُمَاسُّهُ، وَلَا شَيْءَ يُبَايِنُهُ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ فَأَقَامَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَهُوَ كَمَا لَمْ يَزَلْ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ خَلْقِهِ لَا شَيْءَ يُمَاسُّهُ وَلَا شَيْءَ يُبَايِنُهُ، فَعَلَىٰ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَيْضًا سَوَاءٌ أَقْعَدَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عَرْشِهِ، أَوْ عَلَىٰ أَرْضِهِ، إِذْ كَانَ سَوَاءٌ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ عَرْشُهُ وَأَرْضُهُ فِي أَنَّه لَا مُمَاسَّ وَلَا مُبَايِنَ لِهَذَا، كَمَا أَنَّه لَا مُمَاسَّ وَلَا مُبَايِنَ لِهَذِهِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَىٰ: كَانَ اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ قَبْلَ خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ لَا شَيْءَ يُمَاسُّهُ، وَلَا شَيْءَ يُبَايِنُهُ، ثُمَّ أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَخَلَقَهَا، فَخَلَقَ لِنَفْسِهِ عَرْشًا اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ جَالِسًا، وَصَارَ لَهُ مُمَاسًّا، كَمَا أَنَّه قَدْ كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ لَا شَيْءَ يَرْزُقُهُ رِزْقًا، وَلَا شَيْءَ يَحْرِمُهُ ذَلِكَ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ فَرَزَقَ هَذَا وَحَرَمَ هَذَا، وَأَعْطَىٰ هَذَا، وَمَنَعَ هَذَا، قَالُوا: فَكَذَلِكَ كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ يُمَاسُّهُ وَلَا يُبَايِنُهُ، وَخَلَقَ الْأَشْيَاءَ فَمَاسَّ الْعَرْشَ بِجُلُوسِهِ عَلَيْهِ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ، فَهُوَ مُمَاسٌّ مَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُبَايِنٌ مَا شَاءَ مِنْهُ، فَعَلَىٰ مَذْهَبِ هَؤُلَاءِ أَيْضًا سَوَاءٌ أَقْعَدَ مُحَمَّدًا عَلَىٰ عَرْشِهِ، أَوْ أَقْعَدَهُ عَلَىٰ مِنْبَرٍ مِنْ نُورٍ، إِذْ كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ جُلُوسَ الرَّبِّ عَلَىٰ عَرْشِهِ، لَيْسَ بِجُلُوسٍ يَشْغَلُ جَمِيعَ الْعَرْشِ، وَلَا فِي إِقْعَادِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوجِبًا لَهُ صِفَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَا مُخْرِجُهُ مِنْ صِفَةِ الْعُبُودِيَّةِ لِرَبِّهِ، كَمَا أَنَّ مُبَايَنَةَ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ مُبَايِنًا لَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مُوجِبَةٍ لَهُ صِفَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَا مُخْرِجَتُهُ مِنْ صِفَةِ الْعُبُودِيَّةِ لِرَبِّهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّه مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ لَهُ مُبَايِنٌ، كَمَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَوْصُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِ قَائِلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لَهَا، هُوَ مُبَايِنٌ لَهُ. قَالُوا: فَإِذَا كَانَ مَعْنَىٰ مُبَايِنٍ وَمُبَايِنٌ لَا يُوجِبُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُرُوجَ مِنْ صِفَةِ الْعُبُودَةِ وَالدُّخُولَ فِي مَعْنَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ، فَكَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ قُعُودَهُ عَلَىٰ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، فَقَدْ تَبَيَّنَ إِذًا بِمَا قُلْنَا أَنَّه غَيْرُ مُحَالٍ فِي قَوْلِ أَحَدٍ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ مَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ مِنْ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

يُقْعِدُ مُحَمَّدًا عَلَىٰ عَرْشِهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنَّا لَا نُنْكِرُ إِقْعَادَ اللهِ مُحَمَّدًا عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَإِنَّمَا نُنْكِرُ إِقْعَادَهُ إِيَّاهُ مَعَهُ.

حَدَّثَنِي عبَّاس بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ، قَالَ: ثنا يَحْيَىٰ بْنُ كَثِيرٍ، عَنِ الْجُرَيْرِيِّ، عَنْ سَيْفٍ السَّدُوسِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الرَّبِّ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَإِنَّمَا يُنْكَرُ إِقْعَادَهُ إِيَّاهُ مَعَهُ. قِيلَ: أَفَجَائِزٌ عِنْدَكَ أَنْ يُقْعِدَهُ عَلَيْهِ لَا مَعَهُ، فَإِنْ أَجَازَ ذَلِكَ صَارَ إِلَىٰ الْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ إِمَّا مَعَهُ أَوْ إِلَىٰ أَنَّه يُقْعِدُهُ، وَاللهُ لِلْعَرْشِ مُبَاينٌ، أَوْ لَا مُمَاسٌّ وَلَا مُبَاينٌ، وَبِأَيِّ ذَلِكَ قَالَ كَانَ مِنْهُ دُخُولًا فِي بَعْضِ مَا كَانَ يُنْكِرُهُ، وَإِنْ قَالَ: ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ كَانَ مِنْهُ خُرُوجًا مِنْ قَوْلِ جَمِيعِ الْفِرَقِ الَّتِي حَكَيْنَا قَوْلَهُمْ، وَذَلِكَ فِرَاقٌ لِقَوْلِ جَمِيعِ مَنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ، إِذْ كَانَ لَا قَوْلَ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي حَكَيْنَاهَا، وَغَيْرُ مُحَالٍ فِي قَوْلٍ مِنْهَا مَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي ذَلِكَ".

وقال الإمام إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجَّاج (٣١١هـ) في " معاني القرآن وإعرابه" (٣/ ٢٥٦) : " ... أمره بأن يزْدَاد في عبادته علىٰ مَا أمِرَ به الخلقُ أجْمعونَ، لأنَّه فضَّله عليهم، ثمَّ وعده أن يبعثه مقاماً محموداً. والذي صحَّت به الرِّواية والأخبار في المقام المحمود أنَّه الشَّفَاعَة " .

وقال الإمام أبو محمَّد عبد الرَّحمن بن محمَّد بن إدريس بن المنذر التَّميمي، الحنظلي، الرَّازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ) في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٢٣٤٢-٢٣٤٣) : " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، وسئل عنه قَالَ: هُوَ المقام الَّذِي أشفع فيه لأمَّتي .

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: «المقام المحمود الشَّفَاعَة» .

وعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يبعث النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فأكون أنا وأمَّتي علىٰ تل ويكسوني ربِّي حلَّة خضراء، ثمَّ يؤذن لي أن أقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود» .

مِنْ طَرِيق علي بن حُسَيْنٍ قَالَ: أخبرني رجل مِنَ أهْل العلم، إِنَّ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تمّد الأَرْض يَوْم الْقِيَامَة مدّ الأديم ولا يكون لبشر مِنْ بني آدم فيها إلَّا موضع قدمه ثمَّ أدعىٰ أوَّل

النَّاس فأخرّ ساجدًا ثمَّ يؤذن لي فأقول: يا ربّ أخبرني هَذَا لجبريل وجبريل عَنْ يمين الرَّحمن والله ما رآه جبريل قط قبلها إنَّك أرسلته إليّ. وجبريل عَلَيْهِ السَّلامُ ساكت لا يتكلَّم حتَّىٰ يَقُولُ الرَّب : صدقت .

ثُمَّ يؤذن لي في الشَّفَاعَة فأقول: أي ربّ عبادك عبدوك في أطراف الأَرْض فذلك المقام المحمود» .

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: يجمع النَّاس في صَعِيدٍ وَاحِدٍ يسمعهم الدَّاعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قيامًا لا تكَلَّمَ نفس إلَّا بإذنه ينادي: يا محمَّد فَيَقُولُ «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَبِكَ وَإِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ» ، فهذه المقام المحمود» .

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: يأذن الله تَعَالَىٰ في الشَّفَاعَة فيقوم رُوح القُدُس جبريل عَلَيْهِ السَّلامُ، ثمَّ يقوم إبراهيم خليل الله عليه الصَّلاة والسَّلام ، ثمَّ يقوم عِيسَىٰ أو موسىٰ عليهما السَّلام ، ثمَّ يَقُومُ نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفًا ليشفع ، لا يَشْفَعُ أحد بعده أكثر ممَّا شفع، وهو المقام المحمود الَّذِي قَالَ اللهُ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن عيسىٰ بن محمَّد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (٣٩٩هـ) في " تفسير القرآن العزيز" (٣/ ٣٤-٣٥) : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، وَعَسَىٰ مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ، وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ: الشَّفَاعَة .

يَحْيَىٰ: عَنْ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، عَنْ حُذَيْفَة ابْن الْيَمَانِ قَالَ: " يَجْمَعُ اللهُ النَّاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حُفَاةً عُرَاةً؛ كَمَا خُلِقُوا يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ، حتَّىٰ يُلْجِمَهُمُ الْعَرَقُ، وَلَا تكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ. قَالَ: فَأَوَّلُ مَنْ يُدْعَىٰ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا مُحَمَّدُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالسَّعِيدُ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَبِكَ وَإِلَيْكَ، وَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، وَعَلَىٰ عَرْشِكَ اسْتَوَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ. ثمَّ يُقَالُ لَهُ: اشْفَعْ. قَالَ: فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وعده الله ".

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي، أبو إسحاق (٤٢٧هـ) في " الكشف والبيان عن تفسير القرآن " (٦/ ١٢٦) : " عبد الله بن إدريس عن عبد الله عن نافع عن ابن عمرو قال: إنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، قال: يدنيني فيقعدني معه علىٰ العرش.

ابن فنجويه: أجلسني معه علىٰ سريره.

أبو أسامة عن داود بن يزيد الأزدي عن أبيه عن أبي هريرة عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، قال: «الشَّفاعة» .

عاصم عن أبي وائل عن عبد الله قال: إن الله تعالىٰ اتخذ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا ، وإنَّ صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق علىٰ الله ، ثمَّ قرأ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، قال: يُقعده علىٰ العرش.

وروىٰ سعيد الجروي عن سيف السّدوي عن عبد الله بن سلام قال: إذا كان يوم القيامة يؤتي نبيّكم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فيقعد بين يدي الرَّب عَزَّ وَجَلَّ علىٰ الكرسي.

وروىٰ ليث عن مجاهد في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، قال: يجلسه علىٰ العرش.

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم الثَّعلبي: هذا تأويل غير مستحيل ، لأنَّ الله تعالىٰ كان قبل خلقه الأشياء قائما بذاته ثمَّ خلق الأشياء من غير حاجة له إليها، بل إظهارا لقدرته وحكمته ليعرف وجوده وحده وكمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة بالحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوىٰ عليه كما يشاء من غير أن صار له ممَّا شاء أو كان له العرش مكان بل هو الآن علىٰ الصِّفة التي كان عليها قبل أن خلق المكان والزَّمان، فعلىٰ هذا القَوْلُ سواء أقعد محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ العرش أو علىٰ الأرض لأنَّ استواء الله علىٰ العرش ليس بمعنىٰ الاستقبال والزَّوال أو تحول الأحوال من القيام والقعود أو الحال الذي يشغل العرش، بل هو مستو علىٰ عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف، وليس إقعاده محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ العرش موجباً له صفة الرُّبوبيَّة أو مخرجاً إيَّاه من صفة

العبوديَّة بل هو رفع لمحله وإظهار لشرفه وتفضيل له علىٰ غيره من خلقه، وأمَّا قولهم: في الأخبار معه، فهو شابه قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ، و ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ، ونحوهما من الآيات، كل ذلك راجع إلىٰ الرتبة والمنزلة لا إلىٰ المكان والجهة ، والله أعلم" .

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب حَمّوش بن محمَّد بن مختار القيسي القيرواني ثمَّ الأندلسي القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) في " الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه " (٦/٤٢٦٩-٤٢٧١) : " ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، وعسىٰ من الله واجبة، لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يدع أن يفعل بعباده ما أطعمهم به من الجزاء علىٰ أعمالهم لأنَّه ليس من عادته الغرور ولا من صفته. والمقام المحمود: هو الشَّفَاعَة . قاله: ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة وابن جريج والحسن .

وقال حذيفة: يجمع الله عَزَّ وَجَلَّ النَّاس في صعيد واحد، يسمعهم الدَّاعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، سكوتاً لا تكلّم نفس إلَّا بإذنه، فينادي محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقُولُ «لَبَّيۡكَ وَسَعۡدَيۡكَ وَالشَّرُّ لَيۡسَ إِلَيۡكَ وَالۡمَهۡدِيُّ مَنۡ هَدَيۡتَ وَعَبۡدُكَ بَيۡنَ يَدَيۡكَ وَبِكَ وَإِلَيۡكَ لَا مَلۡجَأَ وَلَا مَنۡجَا مِنۡكَ إِلَّا إِلَيۡكَ تَبَارَكۡتَ وَتَعَالَيۡتَ سُبۡحَانَكَ رَبَّ الۡبَيۡتِ» .

قال: فذلك المقام المحمود الذي ذكر الله جلَّ ذكره.

وعن ابن عبَّاس أنَّه قال: بلغنا أنَّه إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النَّار بقيت آخر زمرة من زمرة الجنَّة وآخر زمرة من زمر النَّار، فتقول زمرة النَّار لزمرة الجنَّة: أمَّا نحن فحسبنا ما علم الله عَزَّ وَجَلَّ في قلوبنا من الشَّك والتَّكذيب فما ينفعكم إيمانكم فإذا قالوا لهم ذلك دعوا ربّهم عَزَّ وَجَلَّ وصاحوا بأعلىٰ أصواتهم، فيسمع أهل الجنَّة أصواتهم فيسألون آدم الشَّفَاعَة لهم. فيأبىٰ عليهم. ثمَّ يمضون من نبي إلىٰ نبي فكلّهم يعتذر حتَّىٰ يأتوا محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيشفع لهم فذلك المقام المحمود وحديث الشَّفَاعَة مختلف الألفاظ طويل ذكرنا منه ما يليق بالكتاب.

وعن مجاهد من رواية ليث، عنه أنَّه قال: المقام المحمود يجلسه معه علىٰ عرشه.

وعن النَّبي عليه السَّلام في قوله: ﴿مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ أنَّه قال: " هو المقام الذي أشفع فيه لأمَّتي " رواه أبو هريرة عنه" .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) في " النُّكت والعيون " (٣/ ٢٦٤-٢٦٥) : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنَّ المقام المحمود الشَّفَاعَة للنَّاس يوم القيامة، قاله حذيفة بن اليمان.

الثَّاني: أنَّه إجلاسه على عرشه يوم القيامة، قاله مجاهد.

الثَّالث: أنَّه إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة. ويحتمل قولاً رابعاً: أن يكون المقام المحمود شهادته على أمَّته بما أجابوه من تصديق أو تكذيب، كما قال تعالى : ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٤١] .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) في " الوسيط في تفسير القرآن المجيد " (٣/ ١٢٢) : " قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، قال ابن عبَّاس: عسى من الله واجبة، يريد أعطاك الله يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فِيهِ الأوَّلون والآخرون، تشرف على جميع الخلائق، وتسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، وليس أحد إلَّا تحت لوائك.

وإجماع المفسِّرين على أَّن المقام المحمود هو مقام الشَّفَاعَة ، ومعنى يبعثك ربُّك مقاماً : يقيمك فِي ذلك المقام.

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْفَارِسِيُّ، أنا أَبُو عَمْرِو بْنُ مَطَرٍ، نا عَبْدَانُ الْجَوَالِيقِيُّ، نا أَبُو بَكْرِ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، نا وَكِيعٌ، عَنْ إِدْرِيسَ الأَوْدِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ الشَّفَاعَة .

أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَتْحِ محمَّد بْنُ عَلِيٍّ الْكُوفِيُّ، أنا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمَانَ، نا الْفَضْلُ بْنُ الْخَصِيبِ، نا محمَّد بْنُ هَارُونَ الرَّازِيُّ، نا أَبُو أُسَامَةَ، نا دَاوُدُ الأَوْدِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ

النَّبِيِّ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، قَالَ: هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أُشَفَّعُ فِيهِ لأُمَّتِي ".

وقال الإمام السَّمعاني (٤٨٩هـ) في " تفسير القرآن " (٣/ ٢٦٩) : " وَقَوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ أجمع الْمُفَسِّرُونَ أَن هَذَا مقَام الشَّفَاعَة ، وَقد ثَبت هَذَا عن النَّبِي. وَفِي رِوَايَة أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي قَرَأَ قَوْله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، قَالَ: " هُوَ الْمقَام الَّذِي أشفع فِيهِ لأمتي " وَرُوِيَ أَنَّه عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام قَالَ: " أَنا سيد الْأَنْبِيَاء إِذا بعثوا، وَأَنا وافدهم إِذا تكلمُوا، وَأَنا مبشّرهم إِذا أبلسوا، وَأَنا إِمَامهمْ إِذا سجدوا؛ أَقُول فليسمع، وأشفع فأشفع، وأسأل فَأُعْطِي ".

وَعَن مُجَاهِد أَنَّه قَالَ: يجلسه على الْعَرْش، وَعَن غَيره: يقعده على الْكُرْسِيّ بَين يَدَيْهِ، وَقَالَ بَعضهم: يقيمه عَن يَمِين الْعَرْش" .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن " (٣/ ١٥٢-١٥٦ باختصار) : " قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، عَسَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَاجِبٌ لأَنَّه لَا يَدَعُ أَنْ يُعْطِيَ عِبَادَهُ أَوْ يَفْعَلَ بِهِمْ مَا أَطْمَعَهُمْ فِيهِ، وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَة لِأُمَّتِهِ لِأَنَّهُ، يَحْمَدُهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّد بْنُ مُحَمَّد بْنِ سَمْعَانَ أَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ الرَّيَّانِيُّ ثَنَا حُمَيْدُ بْنُ زنجويه أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ المقري أنا حيوة عن كعب بن عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثمَّ صَلُّوا عليّ فمن صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجنَّة لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَة » .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بْنُ يوسف ثنا محمَّد بن إسماعيل ثنا علي بن عياش ثنا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ محمَّد بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

أَخْبَرَنَا أَبُو حَامِدٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ أَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحِيرِيُّ أَنَا حَاجِبُ بْنُ أَحْمَدَ الطُّوسِيُّ أَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ بن منيب أنا يَعْلَىٰ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بالله شيئا» ... وَالْأَخْبَارُ فِي الشَّفَاعَة متواترة كَثِيرَةٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَهَا عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَهُوَ مُبْتَدِعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ" .

وقال الإمام أبو محمَّد عبد الحق بن غالب بن عبد الرَّحمن بن تمام بن عطيَّة الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) في " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " (٤٧٨/٣) : " وقوله :﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عزة من الله عَزَّ وَجَلَّ لرسوله، وهو أمر الشَّفَاعَة الذي يتدافعه الأنبياء حتَّىٰ ينتهي إليه عليه السَّلام، والحديث بطوله في البخاري ومسلم" .

وقال الإمام محمود بن أبىٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري أبو القاسم (المتوفىٰ: نحو ٥٥٠هـ) في " إيجاز البيان عن معاني القرآن " (٥٠٨/٢) :﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ : الشَّفَاعَة . وقيل: إعطاؤه لواء الحمد" .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) في " زاد المسير في علم التَّفسير " (٤٧/٣) : " قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ «عسىٰ» من الله واجبه، ومعنىٰ ﴿يَبۡعَثَكَ﴾ يقيمك ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ، وهو الذي يحمَده لأجله جميع أهل الموقف. وفيه قولان:

أحدهما: أنَّه الشَّفَاعَة للنَّاس يوم القيامة، قاله ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، والحسن، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد.

والثَّاني: يجلسه على العرش يوم القيامة. روى أبو وائل عن عبد الله أنَّه قرأ هذه الآية، وقال: يُقعده على العرش، وكذلك روى الضحَّاك عن ابن عبَّاس، وليث عن مجاهد" .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) في " مفاتيح الغيب " (٢١/٣٨٧-٣٨٨) : " اتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي لِأَنَّ لَفْظَةَ عَسَى تُفِيدُ الْإِطْمَاعَ وَمَنْ أَطْمَعَ إِنْسَانًا فِي شَيْءٍ ثُمَّ حَرَمَهُ كَانَ عَارًا وَاللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُطْمِعَ أَحَدًا فِي شَيْءٍ ثُمَّ لَا يُعْطِيهِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ، فِيهِ بَحْثَانِ:

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: فِي انْتِصَابِ قَوْلِهِ ﴿مَّحْمُودًا﴾ وَجْهَانِ.

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ انْتِصَابُهُ عَلَى الْحَالِ مِنْ قَوْلِهِ يَبْعَثَكَ أَيْ يَبْعَثُكَ مَحْمُودًا. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ نَعْتًا لِلْمَقَامِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

الْبَحْثُ الثَّانِي: فِي تَفْسِيرِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ أَقْوَالٌ:

الْأَوَّلُ: أَنَّه الشَّفَاعَة قَالَ الْوَاحِدِيُّ أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّه مَقَامُ الشَّفَاعَة كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِي» .

وَأَقُولُ اللَّفْظُ مُشْعِرٌ بِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَصِيرُ مَحْمُودًا إِذَا حَمِدَهُ حَامِدٌ وَالْحَمْدُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْإِنْعَامِ فَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَقَامًا أَنْعَمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ عَلَى قَوْمٍ فَحَمِدُوهُ عَلَى ذَلِكَ الْإِنْعَامِ وَذَلِكَ الْإِنْعَامُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُوَ تَبْلِيغُ الدِّينِ وَتَعْلِيمُ الشَّرْعِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ حَاصِلًا فِي الْحَالِ وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تَطْمِيعٌ وَتَطْمِيعُ الْإِنْسَانِ فِي الشَّيْءِ الَّذِي وَعَدَهُ فِي الْحَالِ مُحَالٌ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْإِنْعَامُ الَّذِي لِأَجْلِهِ يَصِيرُ مَحْمُودًا إِنْعَامًا سَيَصِلُ مِنْهُ حَصَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّاس وَمَا ذَاكَ إِلَّا شَفَاعَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يدلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَأَيْضًا التَّنْكِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﱫﭺ ﭻﱪ يَدُلُّ عَلَى أَنَّه يَحْصُلُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ حَمْدٌ بَالِغٌ عَظِيمٌ كَامِلٌ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ حَمْدَ الْإِنْسَانِ عَلَى سَعْيِهِ فِي التَّخْلِيصِ عَنِ الْعِقَابِ أَعْظَمُ مِنْ حَمْدِهِ فِي السَّعْيِ فِي زِيَادَةٍ مِنَ الثَّوَابِ لَا

حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهَا لِأَنَّ احْتِيَاجَ الْإِنْسَانِ إِلَى دَفْعِ الْآلَامِ الْعَظِيمَةِ عَنِ النَّفْسِ فَوْقَ احْتِيَاجِهِ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ الزَّائِدَةِ الَّتِي لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: **﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾** هُوَ الشَّفَاعَة فِي إِسْقَاطِ الْعِقَابِ عَلَىٰ مَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْل السُّنَّة وَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ مُشْعِرٌ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ إِشْعَارًا قَوِيًّا ثُمَّ وَرَدَتِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَىٰ وَجَبَ حمل اللَّفْظِ عَلَيْهِ وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الْوَجْهَ الدُّعَاءُ الْمَشْهُورُ وَابْعَثْهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُون، وَاتَّفَقَ النَّاس عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الشَّفَاعَة .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: قَالَ حُذَيْفَةُ، يُجْمَعُ النَّاس فِي صَعِيدٍ فَلَا تَتَكَلَّمُ نَفْسٌ فَأَوَّلُ مَدْعُوٍّ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَبِكَ وَإِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ تبارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ» .

فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: **﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾**، وَأَقُولُ: الْقَوْلُ الأَوَّلُ أَوْلَىٰ لِأَنَّ سَعْيَهُ فِي الشَّفَاعَة يُفِيدُهُ إِقْدَامُ النَّاس عَلَىٰ حَمْدِهِ فَيَصِيرُ مَحْمُودًا وَأَمَّا ذِكْرُ هَذَا الدُّعَاءِ فَلَا يُفِيدُ إِلَّا الثَّوَابَ أَمَّا الْحَمْدُ فَلَا فَإِنْ قَالُوا لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ أَنَّه تَعَالَىٰ يَحْمَدُهُ عَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ قُلْنَا لِأَنَّ الْحَمْدَ فِي اللُّغَةِ مُخْتَصٌّ بِالثَّنَاءِ الْمَذْكُورِ فِي مُقَابَلَةِ الْإِنْعَامِ فَقَطْ فَإِنْ وَرَدَ لَفْظُ الْحَمْدِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَعْنَىٰ فَعَلَىٰ سَبِيلِ الْمَجَازِ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: الْمُرَادُ مَقَامٌ تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ وَهَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ لِلْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الْقَوْلِ الثَّانِي.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَالَ الْوَاحِدِيُّ رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّه قَالَ: «يُقْعِدُ اللهُ مُحَمَّدًا عَلَىٰ الْعَرْشِ» وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّه قَالَ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ، ثمَّ قَالَ الْوَاحِدِيُّ وَهَذَا قَوْلٌ رَذْلٌ مُوحِشٌ فَظِيعٌ وَنَصُّ الْكِتَابِ يُنَادِي بِفَسَادِ هَذَا التَّفْسِيرِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ.

الْأَوَّلُ: أَنَّ البعث ضِدُّ الْإِجْلَاسِ يُقَالُ بَعَثْتُ النَّازِلَ وَالْقَاعِدَ فَانْبَعَثَ وَيُقَالُ بَعَثَ اللهُ الْمَيِّتَ أَيْ أَقَامَهُ مِنْ قَبْرِهِ فَتَفْسِيرُ الْبَعْثِ بِالْإِجْلَاسِ تَفْسِيرٌ لِلضِّدِّ بِالضِّدِّ وَهُوَ فَاسِدٌ.

وَالثَّانِي: أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : **﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾** وَلَمْ يَقُلْ مَقْعَدًا وَالْمَقَامُ مَوْضِعُ الْقِيَامِ لَا مَوْضِعَ الْقُعُودِ.

وَالثَّالِثُ: لَوْ كَانَ تَعَالَى جَالِسًا عَلَى الْعَرْشِ بِحَيْثُ يَجْلِسُ عِنْدَهُ محمَّد عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام لَكَانَ مَحْدُودًا مُتَنَاهِيًا وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ.

وَالرَّابِعُ: يُقَالُ إِنَّ جُلُوسَهُ مَعَ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ لَيْسَ فِيهِ كَثِيرُ إِعْزَازٍ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالَ وَالْحَمْقَى يَقُولُونَ فِي كُلِّ أَهْلِ الجنَّة أَنَّهم يَزُورُونَ اللَّهَ تَعَالَى ، وَإِنَّهُمْ يَجْلِسُونَ مَعَهُ ، وَإِنَّهُ تَعَالَى يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا فِي الدُّنيا ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ حَاصِلَةً عِنْدَهُمْ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا مَزِيدُ شَرَفٍ وَرُتْبَةٍ.

وَالْخَامِسُ: أنَّه إِذَا قِيلَ السُّلْطَانُ بَعَثَ فُلَانًا فُهِمَ مِنْهُ أَنَّه أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمٍ لِإِصْلَاحِ مُهِمَّاتِهِمْ وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّه أَجْلَسَهُ مَعَ نَفْسِهِ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَلَامٌ رَذْلٌ سَاقِطٌ لَا يَمِيلُ إِلَيْهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَلِيلُ الْعَقْلِ عَدِيمُ الدِّين ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وللاستزادة في هذه المسألة انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٠٩-٣١٢) ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل (٣/ ٢٦٤) ، تفسير النَّسفي (٢/ ٢٦٩) ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل (١/ ٤٥٣) ، تفسير الخازن المسمَّى لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل (٤/ ١٧٦) ، البحر المحيط في التَّفسير (٧/ ١٠٠-١٠٢) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ١٠٣-١٠٤) ، تفسير اللُّباب في علوم الكتاب " (١/ ٣٣٦٤) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٤٩٢) ، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٢/ ٤١٠) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٢٢٣) ، التَّفسير المظهري (٥/ ٤٧١) ، فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير" (٣/ ٢٩٩) ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد " (١/ ٦٣٤) ، تفسير المراغي (١٥/ ٨٤) ، تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (١/ ٤٦٤) ، التَّحرير والتَّنوير (١٥/ ١٨٥-١٨٦) ، تفسير الشَّعراوي - الخواطر (١٤/ ٨٧٠٣-٨٧٠٥) ، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم (٨/ ٤١١) ، التَّفسير الواضح (٢/ ٣٩١) ...

الفَصْلُ السَّادِسُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِتَعَدُّدِ التَّوْحِيْد

من البدع العقديَّة التي ابتدعها مُدَّعو السَّلفيَّة ، والتي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين : تقسيمهم التَّوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات، ، وزعموا أنَّ المشركين كانوا يوحِّدون الله تعالى توحيد ربوبيَّة ، كما زعموا أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة وحدَه لا يكفي للإيمانِ ، بل لا بدَّ من توحيدِ الألوهيَّة ...

وإنِّي أجزم بأنَّ السَّبب الذي دفعهم لهذا التَّقسيم المبتدع هو حتَّى يتسنَّى لهم تكفير المتوسِّلين إلى الله تعالى بالأنبياء والصَّالحين من خلال توحيد الألوهيَّة ، وكذا تكفير كلّ من لا يؤمن بأنَّ لله تعالى : وجه حقيقي ، وعينين حقيقيَّتين ، ويدين حقيقيَّتين ، وأصابع حقيقيَّة ، وقدمين حقيقيَّتين ... من خلال توحيد الأسماء والصِّفات ...

فالنَّاظر في كتب المتسلِّفة يرى أنَّهم استغلُّوا تعديد التَّوحيد لتكفير الأمَّة المحمَّديَّة ، كما بيَّنته في كتابي : " تَكْفِيْرُ الوَهَّابِيَّةِ لِعُمُوْمِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّة" ، وفي ذلك يقول المتسلِّف الوهَّابي المدعو : محمَّد أحمد باشميل تحت عنوان : " توحيد أبي جهل وأبي لهب :

أبو جهل وأبو لهب ومن على دينهم من المشركين ، كانوا يؤمنون بالله ويوحِّدونه في الرُّبوبيَّة خالقاً ورازقاً ، محيياً ومميتاً ، ضارَّاً ونافعاً ، لا يشركون به في ذلك شيئاً ؟؟!! عجيب ، وغريب ، أن يكون أبو جهل وأبو لهب ، أكثر توحيداً لله وأخلص إيماناً به من هؤلاء المسلمين الذين يقولون لَا إِلَه إِلَّا الله محمَّد رسول الله " . انظر : كيف نفهم التوحيد (ص١٢) .

وهذه جرأة من هذا الباشميل في التَّكفير ليس لها مثيل ، لم نجد لها نكيراً من أيِّ عالم من علماء الوهَّابيَّة ، ولا غرو ، فقد شجَّعهم محمَّد بن عبد الوهَّاب على عدم الرَّهبة والحرج من تكفير أهل لَا إِلَه إِلَّا الله ، والعياذ بالله تعالى ...

وصنَّف صاحب كتاب : " جهود علماء الحنفيَّة في إبطال عقائد القبوريَّة " علماء الحنفيَّة ، والمالكيَّة ، والشافعيَّة ، والحنابلة " بأنَّهم قبوريَّة ، يعبدون القبور ... فقال : ... الأَمْرُ التَّاسِعُ : في تحقيق أنَّ

كثيراً من المتكلِّمين من الماتريديَّة والأشعريَّة وغيرهم قبوريَّة ، لتأثُّرهم بالفلاسفة ، والمناطقة ، والصُّوفيَّة ، وجعلهم حقيقة توحيد الألوهيَّة عين توحيد الربوبيَّة ، كما سبق على لسان علماء الحنفيَّة
.

الأَمْرُ العَاشِرُ : أنَّ كثيراً بل أكثر من ينتمون إلى المذاهب الأربعة من الحنفيَّة ، والمالكيَّة ، والشافعيَّة ، والحنابلة ، قبوريَّة " . انظر : جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ٤١٩) .

فصاحب كتاب جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية يكفِّر أكثر من ينتمون إلى المذاهب الأربعة من الحنفيَّة ، والمالكيَّة ، والشافعيَّة ، والحنابلة ، ويعتبرهم عُبَّاد قبور ...

وفي حديثه عن أقسام التَّوحيد !!! اتَّهم المدعو : صالح الفوزان الأشاعرة بأنَّهم يجحدون توحيد الأسماء والصِّفات ، فقال : " والقسم الثَّانِي : – وهو توحيد الألوهيَّة – جحده أكثر الخلق ، وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بالدَّعوة إليه ، وقد جحده المشركون قديماً وحديثاً ، وجحودهم له يتمثَّل بعبادة الأشجار ، والأحجار ، والأصنام ، والقبور ، والأضرحة ، وعبادة مشايخ الصُّوفيَّة باعتقاد النَّفع والخير فيهم من دون الله – عزَّ وجلَّ – ممَّن ينتسبون إلى الإسلام زوراً وبهتاناً . والقسم الثَّالِث – وهو توحيد الأسماء والصِّفات ، ويعني إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من صفات الكمال ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من صفات النَّقص على حدِّ قوله تعالى :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى : ١١] .

وهذا القسم قد جحده الجهميَّة وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة ، وهو في الحقيقة داخل في توحيد الرُّبوبيَّة ، لكن لما كثر منكروه وروَّجوا الشُّبه حوله ؛ أفرد البحث ، وجعل قسماً مستقلاً ، وألفت فيه المؤلَّفات الكثيرة ؛ فألَّف الإمام أحمد ردَّه المشهور على الجهميَّة ، وألَّف ابنه عبد الله كتاب (السنَّة) ، وألَّف عبد العزيز الكناني كتاب (الحيدة) في الرَّدِّ على بشر المريسي ، وألَّف أبو عبد الله المروزي كتاب (السُّنَّة) ، وألَّف عثمان بن سعيد كتاب (الرَّدّ على بشر المريسي) ، وألَّف إمام الأئمة محمَّد بن خزيمة كتاب (التَّوحيد) ، وألَّف غير هؤلاء كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن

القيِّم الرُّدود علىٰ هؤلاء ومن جاء بعدهم وسار علىٰ نهجهم ؛ فلله الحمد والمنَّة علىٰ بيان الحقِّ ودحض الباطل " . انظر : الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد والرد علىٰ أهل الشرك والإلحاد (ص١٤٢) .

قلت : أمَّا عن كلام الفوزان عن كتاب " الرَّدّ علىٰ الجهميَّة والزَّنادقة " ونسبته للإمام أحمد ، فإنَّ هذا الكتاب مُفترىً علىٰ الإمام ، ومكذوب عليه ، كتبه ونسبه له من لا يستحي من الله ولا من العباد ... وممَّا جاء في الكتاب من الباطل : " لَمَّا سمع موسىٰ كلام ربِّه ، قال : يا رب هذا الذي سمعته هو كلامك ؟ قال : نعم يا موسىٰ هو كلامي ، إنَّما كلَّمتك علىٰ قدر ما يطيق بدنك ، ولو كلَّمتك بأكثر من ذلك لَمِتَّ . قال : فلمَّا رجع موسىٰ إلىٰ قومه قالوا له : صِفْ لنا كلام ربِّك ؟!!! قال : سبحان الله ، وهل أستطيع أن أصفه لكم ؟! قالوا : فشبِّهه . قال : هل سمعتم أصوات الصواعق التي تُقبل في أحلىٰ حلاوة سمعتموها ، فكأنه مثله " . انظر : الرد علىٰ الجهمية والزنادقة (ص١٣٧) .

أرأيتم كيف نسبَ الصَّوت إلىٰ الله تعالىٰ مع أنَّ الصوت لم تأت إضافته إلىٰ الله تعالىٰ في حديث صحيح ، ثمَّ كيف شبَّه صوت الله تعالىٰ بصوت الصَّواعق التي تُقبل في أحلىٰ حلاوة سمعتموها ... !!!

وعن نسبة الكتاب للإمام أحمد قال الإمام الذَّهبي : " ... لاَ كَرِسَالَةِ الإِصْطَخْرِيِّ ، وَلاَ كَالرَّدِّ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ المَوْضُوْعِ عَلَىٰ أَبِي عَبْدِاللهِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ كَانَ تَقِيّاً وَرِعاً ، لاَ يَتَفَوَّهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٨٦-٢٨٧) .

وقال محقِّق سير أعلام النُّبلاء : " يرىٰ الذَّهبي المؤلِّف أنَّ كتاب " الرَّدُّ علىٰ الجهميَّة " موضوعٌ علىٰ الامام أحمد . وقد شكَّك أيضاً في نسبة هذا الكتاب إلىٰ الامام أحمد بعض المعاصرين في تعليقه علىٰ " الاختلاف في اللفظ ، والردِّ علىٰ الجهميَّة " لابن قتيبة . ومستنده أنَّ في السَّند إليه مجهولاً ، فقد رواه أبو بكر غلام الخَلَّال ، عن الخَلَّال ، عن الخضر بن المثنىٰ ، عن عبد الله بن أحمد ، عن أبيه ... والخضر بن المثنىٰ هذا مجهول ، والرِّواية عن مجهول مقدوح فيها ، مطعونٌ في سندها . وفيه ما يخالف ما كان عليه السَّلف من معتقد ، ولا يتسق مع ما جاء عن الإمام في غيره ممَّا صحَّ عنه ، وهذا هو الذي دعا الذَّهبي هنا إلىٰ نفي نسبته إلىٰ الامام أحمد ، ومع ذلك فإنَّ غير واحد من العلماء قد

صحَّحوا نسبة هذا الكتاب إليه ، ونقلوا عنه ، وأفادوا منه ، منهم القاضي أبو يعلىٰ ، وأبو الوفاء بن عقيل ، والبيهقي (٤٥٨هـ) ، وابن تيمية ، وتلميذه ابن القيِّم ، وتوجد من الكتاب نسخة خطيَّة في ظاهريَّة دمشق ، ضمن مجموع رقم (١١٦) ، وهي تشتمل علىٰ نصِّ " الرَّدّ علىٰ الجهميَّة " فقط ، وهو نصف الكتاب ، وعن هذا الأصل نشر الكتاب في الشَّام ، بتحقيق الأستاذ محمَّد فهر الشقفة . ومما يؤكِّد أنَّ هذا الكتاب ليس للإمام أحمد : أننا لا نجد له ذكراً لدىٰ أقرب النَّاس إلىٰ الامام أحمد بن حنبل ممَّن عاصروه وجالسوه ، أو أتوا بعده مباشرة وكتبوا في الموضوع ذاته ، كالإمام البخاري (٢٥٦هـ) ، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ) ، وأبي سعيد الدَّارمي (٢٨٠هـ) . والإمام أبو الحسن الأشعري قد ذكر عقيدة الامام أحمد في كتابه : " مقالات الإسلاميِّين " ، ولكنَّه لم يشر إلىٰ هذا الكتاب مطلقاً ، ولم يستفد منه شيئاً " . انظر : هامش سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٨٧) .

وأمَّا عن كلامه علىٰ أقسام التَّوحيد !!! ... فتقسيم التَّوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام بدعة مُنكرة لم نرها في كلام أيٍّ من السَّلف ، وهو من تقسيم الحشويَّة الذين كانوا وما زالوا مصيبة وداء عُضالاً حلَّ بأمَة الإسلام ، ومن أفضل الرُّدود علىٰ ما قالوه في هذا الباب هو ما جاء في كتاب " براءة الأشعريِّين من عقائد المُخالفين " للعلَّامة محمَّد العربي بن التَّبَّاني ، فإنَّه كفىٰ وشفىٰ ...

أمَّا بقيَّة الكتب التي ذكرها الفوزان ، فسيكون الحديث عنها وعن غيرها من الكتب المعنونة بالسنَّة في دراسة مستقلَّة ضمن كتاب ضخم ، لإطلاع الجميع وإخبارهم في أيِّ فلك يدور من يدَّعون السَّلفيَّة ... وكذا إعلام الجميع بحقيقة السُّنَّة التي إليها ينتسبون ، وإليها يدعون ...

كما أنَّ المتسلِّفة اتَّهموا المُتكلِّمين بأنَّهم أخطؤوا في التَّوحيد !!! بل أخطؤوا في ثلاث من أُصول الدِّين !!! منها : تأويل الصِّفات ، وأنَّهم لم يعرفوا من تفسير لَا إلَه إلَّا الله إلَّا أنَّ معناها القادر علىٰ الاختراع ، وهو ما يقرُّ به الكفرة ، وأنَّهم أنكروا توحيد الإلهيَّة ..... ولذلك فقد رجع بعض المُتكلِّمين عن علم الكلام ...

فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " والأشاعرة : أخطؤوا في ثلاث من أُصول الدِّين !!! منها : تأويل الصِّفات ، وهو صرفها عن حقيقتها ، التي تليق بالله ، وحاصل تأويلهم : سلب صفات الكمال عن ذي الجلال .

أيضاً ، أخذوا ببدعة عبد الله بن كُلَّاب ، في كلام الرَّبِّ تعالىٰ وتقدَّس ، وردُّ العلماء عليهم في ذلك شهير ، مثل : الإمام أحمد ، والشَّافعي ، وأصحابه ، والخلَّال في كتاب السُّنَّة ، وإمام الأئمة : محمَّد بن خزيمة ، واللالكائي ، وأبو عثمان الصَّابوني الشَّافعي ، وابن عبد البرّ ، وغيرهم من أتباع السَّلف ، كمحمَّد بن جرير الطَّبري ، وشيخ الإسلام الأنصاري .

وقد رجع كثيرٌ من المتكلِّمين الخائضين ، كالشَّهرستاني ، شيخ أبي المعالي ، وكذلك أبو المعالي ، والغزالي ، وكذلك الأشعري قبلهم في كتاب الإبانة ، والمقالات . ومع هذا وغيره ، فبقي هذا في المتأخِّرين ، المقلِّدين لأناس من المتأخِّرين ، ليس لهم اطلاع علىٰ كلام العلمـــاء ، وكانوا يعدُّون من العلماء .

وأخطؤوا أيضاً في التَّوحيد !!! ولم يعرفوا من تفسير لَا إلَه إلَّا الله إلَّا أنَّ معناها القادر علىٰ الاختراع ، ودلالة لَا إلَه إلَّا الله علىٰ هذا دلالة التزام ، لأنَّ هذا من توحيد الرُّبوبيَّة الذي أقرَّ به الأُمم ، ومشركو العرب ، كما قال تعالىٰ : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٥] ، وهي كثيرة في القرآن ، يحتجُّ تعالىٰ عليهم بذلك علىٰ ما أنكروه من توحيد الإلهيَّة ، الذي هو معنىٰ لَا إلَه إلَّا الله ، مطابقة ، وتضمُّناً " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ٣٢٠-٣٢١) .

واتَّهموا المتكلِّمين بأنَّهم لا يفهمون ولا يعرفون التَّوحيد ، ولا يفرِّقون بينه وبين ما يضادّه من الشِّرك ؛ وهذا وقع كثير منهم في الشِّرك !!!

فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " ... والغربة : إنَّما هي في معرفة ما دعا إليه من التَّوحيد ، والنَّهي عن ما يضادّه من الشِّرك ؛ وهذا قد صار مجهولاً عند أكثر الأمَّة ، حتىٰ من ينتسب إلىٰ العلم ، من المتكلِّمين وأتباعهم ؛ فلهذا وقع كثير منهم في الشِّرك !!! فعاد الإسلام في هذه الأمَّة غريباً كما بدأ،

لعموم البلوىٰ بالشِّرك ، وظهوره في المشارق والمغارب ، وبناء المساجد علىٰ القبور والمشاهد ، وعبادتها بكلِّ ما يعبد به الله من أنواع العبادة .

وهذا لا يقدر أحد علىٰ إنكاره ، وأنَّه وقع في الأمَّة بعد القرون المفضَّلة ، وعمَّت به البلوىٰ ؛ فظنَّ الأكثر أنَّ التَّوحيد إنَّما هو توحيد الرُّبوبيَّة ، الذي أقرَّ به المشركون ، كما في قوله : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون: ٨٤ – ٨٩] ، وقوله : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس: ٣١] ، وهذا هو الذي عند الأشعري وغيره من أمثاله .

وأمَّا توحيد الإلهيَّة ، الذي جحده مشركو قريش والعرب ابتداء ، فما عرفوا التَّوحيد ، وهو الذي دعت إليه الرُّسل من أولهم إلىٰ آخرهم ، فلهذا وقع الأكثر في الشِّرك الأكبر المنافي لهذا التَّوحيد ، بدعوتهم الأموات في الرَّغبات والرَّهبات ، والاستغاثة بهم في المهمَّات ؛ فإذا لم ينكر العلماء هذا الشِّرك ، ولا عرفوا الإخلاص الذي هو الدِّين ، الذي شرعه الله للأنبياء والمرسلين ، وقعوا في الشِّرك ، وتبعهم علىٰ ذلك الخلق الكثير والجمُّ الغفير .

وقد صُنِّفت المصنَّفات في جواز هذا الشِّرك !!! كما ذكره شيخ الإسلام عن جماعة ممَّن ينتسب إلىٰ العلم ، كأبي معشر البلخي ، والفخر الرَّازي ، وثابت بن قرة ، ومحمَّد بن النُّعمان ، وابن البكري ، وابن الأخنائي وغيرهم ، فلم ينكر هذا الشِّرك الذي أخبر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه يقع في أمَّته إلَّا الفرقة النَّاجية !!! وهم الأقلُّون عدداً !!! الأعظمون قدراً عند الله !!! سنذكر بعضهم إن شاء الله تعالىٰ " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١٢/٣٠٨-٣٠٩) .

وما كان منهم هذا وغيره إلَّا بسبب ما اخترع لهم منظِّرهم وموجِّههم وكبيرهم الذي علَّمهم ... ابن تيمية ، حيث اخترع لهم وابتكر القول بتقسيم التَّوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام ، هي : توحيد الرُّبوبيَّة ،

وتوحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، مع أنَّ هذا التَّقسيم لم يقل به أحد من العالمين بالصُّورة التي قسَّمه عليها وأراده من خلالها ابن تيمية ، حيث أوحىٰ لهم فيه أنَّ الكفرة والمشركين موحِّدين لله تعالىٰ توحيد ربوبيَّة ، لكنَّهم ليسوا موحِّدين توحيد أُلوهيَّة ، ولذلك أدخلوا المتوسِّلين بالأنبياء والصَّالحين في هذا المدخل ، فحكموا بشركهم وكفرهم ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

ويستمرُّ كلامهم في تكفير عموم الأُمَّة الذين يتوسَّلون إلىٰ الله تعالىٰ بالوسائل المحبوبة والمرضيَّة لديه ... فيقول الشَّيْخ محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي النَّجدي (١٢٠٦هـ) : " ... مثال ذلك إذا قال بعض المشركين !!! : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وأنَّ الشَّفاعة حقٌّ ، أو أنَّ الأنبياء لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلاماً للنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستدلُّ به علىٰ شيء من باطله ، وأنت لا تفهم معنىٰ الكلام الذي ذكره ، فجاوبه بقولك : إنَّ الله ذكر في كتابه أنَّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتَّبعون المتشابه ، وما ذكرته لك من أنَّ الله ذكر أنَّ المشركين يقرُّون بالرُّبوبيَّة !!! وأنَّ كفرهم بتعلُّقهم علىٰ الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغيِّر معناه. وما ذكرت لي أيُّها المشرك!!! من القرآن أو كلام النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا أعرف معناه ، ولكن أقطع أنَّ كلام الله لا يتناقض ، وأنَّ كلام النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يخالف كلام الله " . انظر : كشف الشبهات (ص١٦-١٧) .

وأنا هنا أسأل محمَّد بن عبد الوهَّاب ، فأقول : من هو الذي ترك المحكم واتبع المتشابه ؟!!! من هو الذي أشاح وجهه عن قول الله تعالىٰ المحكم : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، هذه الآية المحكمة التي نصَّت علىٰ وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، والحيِّز ، والجهة ، والحدِّ ، ... وأرشدت إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ ليس بجسم مصوَّر ، ولا جوهر محدود مقدَّر ، وأنَّه لا يماثل الأجسام لا في التَّقدير ولا في قبول الانقسام ، وأنَّه ليس بجوهر ، ولا تحلُّه الجواهر ، ولا بعَرَض ولا تحلُّه الأعراض ، بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ، ولا هو مثل شيء

، وأنَّه لا يحدُّه المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْجِهَاتُ ، وَلَا تَكْتَنِفُهُ الْأَرَضُونَ ولا السَّموات ...

وَأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَىٰ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي قاله ، وبالمعنىٰ الذي أراده ، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار ، والتمكُّن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وَحَمَلته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَىٰ تُخُومِ الثَّرَىٰ ، فَوْقِيَّةً لَا تَزِيدُهُ قُرْباً إِلَىٰ الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ ، كَمَا لَا تَزِيدُهُ بُعْداً عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَىٰ ، بَلْ هُوَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ ، كَمَا أَنَّه رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْعَبْدِ من حبل الوريد ، وهو علىٰ كل شيء شهيد ، إِذْ لَا يُمَاثِلُ قُرْبُهُ قُرْبَ الْأَجْسَامِ ، كَمَا لَا تُمَاثِلُ ذَاتُهُ ذَاتَ الْأَجْسَامِ ، وأَنَّه لَا يَحُلُّ فِي شَيْءٍ ، وَلَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ ، تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ ، كَمَا تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحُدَّهُ زَمَانٌ ، بَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَىٰ ما عليه كان .

وأنَّه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته ، وأنَّه مقدَّس عن التغيُّر والانتقال ، لا تحلُّه الحوادث ، ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله ، منزَّهاً عن الزَّوال ، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ٩٠) .

وقال الشَّيْخ محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي النَّجدي (١٢٠٦هـ) أيضاً : " ... فإذا تحقَّقت أنَّهم مقرُّون بهذا ولم يدخلهم في التَّوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !!!... وتحقَّقت أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتلهم ليكون الدُّعاء كلّه لله ، والنَّذر كلّه لله ، والاستغاثة كلّها بالله ، وجميع أنواع العبادات كلّها لله . وعرفت أنَّ إقرارهم بتوحيد الرُّبوبيَّة لم يدخلهم في الإسلام ، وأنَّ قصدهم الملائكة ، والأنبياء ، والأولياء ، يريدون شفاعتهم ، والتقرُّب إلىٰ الله بذلك ، هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم . عرفت حينئذ التَّوحيد الذي دعت إليه الرُّسل وأبىٰ عن الإقرار به المشركون " . انظر : كشف الشبهات (ص٦-٧) .

وكلام ابن عبد الوهَّاب هذا تضمَّن عدَّة أُمور ، منها :

١ .اعترافه بأنَّ الموحِّدين المؤمنين المتوسِّلين إلىٰ الله تعالىٰ بمنزلةِ ومكانةِ وشرفِ الأنبياء والصَّالحين ، والمقرِّين بأنَّه لا خالق ولا رازق ، ولا نافع ولا ضارّ إلَّا الله تعالىٰ ، وأنَّ المتوسَّل به إلىٰ الله تعالىٰ ما هو إلَّا وسيلة محبوبة عند الله تعالىٰ لم يدخلوا في صفِّ المؤمنين بالتَّوحيد الذي دعا إليه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... وبسبب عدم دخولهم في التَّوحيد الذي لا يرتضي غيره ابن عبد الوهَّاب كان قتال الرَّسول إيَّاهم ، ولذلك فابن عبد الوهَّاب يزعم أنَّه لا يقاتل مخالفيه إلَّا لأنَّ الرَّسول قاتلهم ليكون الدُّعاء كلُّه لله ، والنَّذر كلُّه لله ، والاستغاثة كلُّها بالله ، وجميع أنواع العبادات كلُّها لله ...

٢. زعم ابن عبد الوهَّاب أنَّ قصد المتوسِّلين بتوسُّلهم الملائكة ، والأنبياء ، والأولياء ، إرادة لشفاعتهم ، والتقرُّب إلىٰ الله بذلك ، هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم ...

وتحت ستار وغطاء المحافظة علىٰ صفاء التَّوحيد ، كان ابن عبد الوهَّاب يخطب في النَّاس بكفر المتوسِّلين إلىٰ الله تعالىٰ بالأنبياء والصَّالحين ، فقد قال مفتي الشَّافعيَّة ورئيس المدرِّسين في مكَّة أيام السُّلطان عبد الحميد ، الشَّيْخ العلَّامة أحمد زيني دحلان في حديثه عن محمَّد بن عبد الوهَّاب : " كان محمَّد بن عبد الوهَّاب الذي ابتدع هذه البدعة يخطب للجمعة في مسجد الدِّرعيَّة ، ويقول في كلِّ خطبة : ومن توسَّل بالنَّبي فقد كفر ...

وكان – محمَّد بن عبد الوهَّاب – ينهىٰ عن الصَّلاة علىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ ، ويتأذَّىٰ من سماعها ، وينهىٰ عن الإتيان بها ليلة الجمعة ، وعن الجهر بها علىٰ المنائر ، ويؤذي من يفعل ذلك ، ويعاقبه أشدَّ العقاب ، حتىٰ أنَّه قتل رجلاً أعمىٰ كان مؤذِّناً صالحاً ذا صوت حسن ، نهاه عن الصَّلاة علىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنارة فلم ينته ، وأتىٰ بالصَّلاة علىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر بقتله فقتل ، ثمَّ قال : إنَّ الرَّبابة في بيت الخاطئة يعني الزَّانية أقل إثماً ممَّن ينادي بالصَّلاة علىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ المنائر ، ويلبِّس علىٰ أصحابه بأنَّ ذلك كلّه محافظة علىٰ التَّوحيد ، فما أفظع قوله وما أشنع فعله . وأحرق " دلائل الخيرات " وغيرها من كتب الصَّلاة علىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويتستَّر بقوله : إنَّ ذلك بدعة ، وأنَّه يريد المحافظة علىٰ التَّوحيد .

وكان يمنع أتباعه من مطالعة كتب الفقه والتَّفسير والحديث وأحرق كثيراً منها ، وأذن لكلِّ من تبعه أن يفسِّر القرآن بحسب فهمه ، حتىٰ الهمج الرِّعاع الأجلاف الأعراب من أتباعه ، فكان كلُّ واحد منهم يفعل ذلك ، وإن كان لا يحفظ شيئاً من القرآن ، فيقول الذي لا يقرأ لآخر يقرأ : أقرأ عليَّ حتىٰ أفسِّر لك ، فإذا قرأ عليه فسَّره له برأيه ، وأمرهم أن يعملوا ويحكموا بما يفهمونه ، وجعل ذلك مقدَّماً علىٰ كتب العلم ونصوص العلماء ، وكان يقول في كثير من الأقوال : الأئمَّة الأربعة ليست بشيء ...

وكان ينتقص النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً بعبارات مختلفة ، ويزعم أنَّ قصده المحافظة علىٰ التَّوحيد ، فمنها : أن يقول : أنَّه طارش ، وهو في لغة أهل المشرق بمعنىٰ الشَّخص المرسل من قوم إلىٰ آخرين ، فمراده أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حامل كتب ، أي : غاية أمره أنَّه كالطَّارش الذي يرسله الأمير أو غيره في أمر النَّاس ليبلغهم إيَّاه ثمَّ ينصرف .

ومنها : أنَّه كان يقول : نظرت في قصَّة الحديبية فوجدت بها كذا كذا ، إلىٰ غير ذلك ممَّا يشبه هذا حتىٰ أنَّ أتباعه كانوا يفعلون مثل ذلك أيضاً ، ويقولون مثل قوله بل أقبح ممَّا يقول ويخبرونه بذلك فيظهر الرِّضا ، وربَّما أنَّهم قالوا ذلك بحضرته فيرضى به ، حتىٰ إنَّ بعض أتباعه كان يقول : عصاي هذه خير من محمَّد ، لأنَّها ينتفع بها في قتل الحيَّة ونحوها ، ومحمَّد قد مات ولم يبق فيه نفع أصلاً ، وإنَّما هو طارش !! " . انظر : الدرر السنية في الردِّ علىٰ الوهابية (ص٤٢-٤٤ ببعض الاختصار) .

ومن المعلوم أنَّ منظِّر المتسلِّفة الأوَّل – ابن تيمية – هو من ابتدع لهم هذا التَّقسيم ... فها هو ابن تيمية يتَّهم المُتكلِّمين بأنَّهم دخلوا في بعض الباطل المُبتدع ، وأخرجو توحيد الإلهيَّة منه ... وفي يقول ابن تيمية عن المتكلِّمين : " ... وَدَخَلُوا فِي بَعْضِ الْبَاطِلِ الْمُبْتَدَعِ ، وَأَخْرَجُوا مِنَ التَّوْحِيدِ مَا هُوَ مِنْهُ كَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَإِثْبَاتِ حَقَائِقِ أَسْمَاءِ اللهَّ وَصِفَاتِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوا مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَّا تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَّ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ .

وَهَذَا التَّوْحِيدُ كَانَ يُقِرُّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَالَ الله عَنْهُمْ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[المؤمنون: ٨٦ – ٨٧] ، وَقَالَ عَنْهُمْ : ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦] .

قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : يَقُولُ لَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ؟ فَيَقُولُونَ : الله ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ.

وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ الَّذِي أَمَرَ الله بِهِ الْعِبَادَ هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ ، الْمُتَضَمِّنُ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِأَنْ يُعْبَدَ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً ، فَيَكُونُ الدِّين كُلُّهُ للهِ ... " . انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٣/ ٢٨٩-٢٩٠) .

فابن تيمية اتَّهم المتكلِّمين بأنَّهم خلطوا الفلسفة بالكلام ، ولذلك اضطرب كلامهم ، وازدادت شكوكهم وحيرتهم ، وازدادوا ظلمةً من ظلمة الفلاسفة .... مع أنَّ النَّاظر في كتب ابن تيمية يجد أنَّ كلامه ينطبق عليه تماماً بشهادة تلميذه الذَّهبي

كما أنَّه قسَّم التَّوحيد إلى أقسام ثلاثة : ربوبيَّة ، وألوهيَّة ، وأسماء وصفات . وهذا التَّقسيم ما سبقه إليه أحد من العالمين ، ولم يقل به أحد من السَّلف الذي يزعم أنَّه يقول بقولهم ، وقد اعتاد أتباعه ممَّن يدَّعون السَّلفيَّة ظلماً وزوراً وبهتاناً وعدواناً على هذا التَّقسيم في مؤلَّفاتهم ومصنَّفاتهم ، وكان من أشهرهم : ابن أبي العزّ شارح العقيدة الطَّحاويَّة ، الذي خالف عقيدة الطَّحاوي في أمور عديدة لا يستحق بسببها أن يُسمَّى شرحه باسمها ، وقد ذكرتها في كتابي : " إِرْشَادُ الفُحُولِ إِلَى مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ الله عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْل " ، ولذلك قال عنه الإمام علي القارِّي الحنفي : صاحب مذهب باطل تابع لطائفة من المبتدعة ...

قال الإمام التبَّاني في " براءة الأشعريِّين" (ص٩٤-٩٥) : " وقد اطَّلعت عل كلام لابن تيمية في توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة مفرَّق في أربعة مواضع من كُتُبه ، أذكره كلّه ليراه القرَّاء ثمَّ أبطله ....

(١) قال في " مجموع الفتاوى " لابن تيمية (٢٢/ ٤٤٦-٤٤٨) : " وَسُئِلَ:عَنْ {قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك الْجَدُّ" . وَهَلْ هُوَ بِالْخَفْضِ أَوْ بِالضَّمِّ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ.

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ للهِ، أَمَّا الْأُولَى فَبِالْخَفْضِ. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَبِالضَّمِّ وَالْمَعْنَى أَنَّ صَاحِبَ الْجَدِّ لَا يَنْفَعُهُ مِنْك جَدُّهُ: أَيْ لَا يُنْجِيهِ وَيُخَلِّصُهُ مِنْك جَدُّهُ وَإِنَّمَا يُنْجِيهِ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ و " الْجَدُّ " هُوَ الْغِنَى وَهُوَ الْعَظَمَةُ وَهُوَ الْمَالُ. بَيَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه مَنْ كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا رِئَاسَةٌ وَمَالٌ لَمْ يُنْجِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يُخَلِّصْهُ مِنْ اللهِ؛ وَإِنَّمَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ إيمَانُهُ وَتَقْوَاهُ؛ فَإِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: {اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْت وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك الْجَدُّ} فَبَيَّنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَهُوَ أَنْ لَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ اللهُ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَاهُ وَلَا يُتَوَكَّلُ إلَّا عَلَيْهِ وَلَا يُسْأَلُ إلَّا هُوَ. وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ بَيَانُ مَا يَنْفَعُ وَمَا لَا يَنْفَعُ وَأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أَوْ دُنْيَا أَوْ رِئَاسَةً كَانَ ذَلِكَ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللهِ مُنْجِيًا لَهُ مِنْ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إلَّا مَنْ يُحِبُّ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ *وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا﴾ يَقُولُ: مَا كُلُّ مَنْ وَسَّعْت عَلَيْهِ أَكْرَمْته وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرْت عَلَيْهِ أَكُونُ قَدْ أَهَنْته بَلْ هَذَا ابْتِلَاءٌ لِيَشْكُرَ الْعَبْدُ عَلَى السَّرَّاءِ وَيَصْبِرَ عَلَى الضَّرَّاءِ فَمَنْ رُزِقَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ كَانَ كُلُّ قَضَاءٍ يَقْضِيهِ اللهُ خَيْرًا لَهُ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ: {لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدِ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ} . و " تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ " أَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَلَا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا فَيُطِيعَهُ وَيُطِيعَ رُسُلَهُ وَيَفْعَلَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ. وَأَمَّا " تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ " فَيَدْخُلُ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا أَمَرَ بِهِ وَأَوْجَبَهُ وَأَرْضَاهُ وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَيَفْعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَهُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ وَيَسْتَعِينُ اللهَ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ تَوْحِيدٌ لَهُ فَيَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

(٢) وقال في " مجموع الفتاوى" (١٠/٢٨٣-٢٨٤) : " ... فَإِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا بَيَانُ حَالِ الْعَبْدِ الْمَحْضِ للهِ الَّذِي يَعْبُدُهُ وَيَسْتَعِينُهُ فَيَعْمَلُ لَهُ وَيَسْتَعِينُهُ وَيُحَقِّقُ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ وَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ؛ وَإِنْ كَانَتْ الْإِلَهِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الرُّبُوبِيَّةَ؛ وَالرُّبُوبِيَّةُ تَسْتَلْزِمُ الْإِلَهِيَّةَ؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمَا

إِذَا تَضَمَّنَ الْآخَرَ عِنْدَ الِانْفِرَادِ لَمْ يَمْنَعْ أَنْ يَخْتَصَّ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ الِاقْتِرَانِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ، ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ، ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فَجَمَعَ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ: اسْمِ الْإِلَهِ وَاسْمِ الرَّبِّ. فَإِنَّ " الْإِلَهَ " هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ. وَ " الرَّبُّ " هُوَ الَّذِي يُرَبِّي عَبْدَهُ فَيُدَبِّرُهُ" .

(٣) وقال ابن تيمية في "منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة " (٣/٢٨٨-٢٩٠) : " مَعَ أَنَّ فِي الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ مِنَ الِاضْطِرَابِ وَالشَّكِّ فِي أَشْيَاءَ، وَالْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ فِي مَوَاضِعَ، وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ فِي مَوَاضِعَ، وَالتَّقْصِيرِ فِي الْحَقِّ فِي مَوَاضِعَ - مَا ذَمَّهُمْ لِأَجْلِهِ عُلَمَاءُ الْمِلَّةِ وَأَئِمَّةِ الدِّينِ، فَإِنَّهُمْ قَصَّرُوا فِي مَعْرِفَةِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَعَدَلُوا عَنْهَا إِلَى طُرُقٍ أُخْرَى مُبْتَدَعَةٍ فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ مَا لِأَجْلِهِ خَرَجُوا عَنْ بَعْضِ الْحَقِّ الْمُشْتَرَكِ [بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ] ، وَدَخَلُوا فِي بَعْضِ الْبَاطِلِ الْمُبْتَدَعِ، وَأَخْرَجُوا مِنَ التَّوْحِيدِ مَا هُوَ مِنْهُ كَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِثْبَاتِ حَقَائِقِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَمْ يَعْرِفُوا مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَّا تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ .

وَهَذَا التَّوْحِيدُ كَانَ يُقِرُّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[الْمُؤْمِنُونَ: ٨٦، ٨٧] ، وَقَالَ عَنْهُمْ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٦] .

قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: يَقُولُ لَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ.

وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، الْمُتَضَمِّنُ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِأَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، فَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَا يُخَافُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُدْعَى إِلَّا اللَّهُ" .

(٤) وقال في رسالة أهل الصفة (ص٣٤) : " توحيد الرُّبوبيَّة وحده لا ينفي الكفر ولا يكفي " .

أقول : قد لبَّس ابن تيمية في تآليفه على العامَّة وأشباههم من المتفقِّهة كثيراً بالسَّلف الصَّالح والكتاب والسُّنَّة لترويج هواه في سوقهم ، ولكنَّه في هذا الكلام صرَّح بهواه ، ولم يلصقه بهما ولا بالسَّلف ، وإنِّي بحول الله وتوفيقه أكيل له بصاعه الذي لبَّس به على البسطاء كيلاً حقيقيّاً وافياً ، مبرهناً ، فأقول : هذا في الأربعة مواضع باطل باثنين وثلاثين وجهاً :

الوَجْهُ الأَوَّلُ : لم يقل الإمام أحمد بن حنبل الذي انتسب إليه كذباً لأصحابه : إنَّ التَّوحيد قسمان : توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ، وإنَّ من لم يعرف توحيد الألوهيَّة لا تعتبر معرفته لتوحيد الربوبيَّة ، لأنَّ هذا يعرفه المشركون ، وهذه عقيدة الإمام أحمد مدوَّنة في مصنَّفات أتباعه في مناقبه لابن الجوزي ، وفي غيره ليس فيه هذا الهذيان .

الوَجْهُ الثَّانِي : لم يقل أيُّ واحد من أتباع التَّابعين لأصحابه : إنَّ التَّوحيد قسمان : توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ، وإنَّ من لم يعرف توحيد الألوهيَّة لا يعتدُّ بمعرفته لتوحيد الرُّبوبيَّة ، فلو اجتمع معه الثَّقلان على إثباته عن أي واحد منهم لا يستطيعون .

الوَجْهُ الثَّالِثُ : لم يقل أيُّ واحد من التَّابعين لأصحابه : إنَّ التَّوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ، فلو اجتمع معه الثَّقلان على إثباته عن أي واحد منهم لا يستطيعون .

الوَجْهُ الرَّابِعُ : لم يقل أيُّ صحابي من أصحاب النَّبي صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ورضي عنهم أنَّ التَّوحيد ينقسم إلى توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ، وأنَّ من لم يعرف توحيد الألوهيَّة لا يعتدُّ بمعرفته لتوحيد الربوبيَّة ، لأنَّ هذا يعرفه المشركون ، وإنِّي أتحدَّى كلَّ من له إلمامٌ بالعلم أن ينقل لنا هذا التَّقسيم المختَرَع عنهم ، ولو برواية واهية .

الوَجْهُ الخَامِسُ : لم يأت في سنَّة النَّبي صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم الواسعة التي هي بيان لكتاب الله عزَّ وجلَّ من صحاح وسنن ومسانيد ومعاجم ، أنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول لأصحابه ويعلِّمهم أنَّ التَّوحيد ينقسم إلى توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ، وأنَّ من لم يعرف توحيد الألوهيَّة لا يعتدُّ بمعرفته لتوحيد الربوبيَّة ، لأنَّ هذا يعرفه المشركون ، فلو اجتمع معه الثَّقلان على إثبات هذا الهذيان عن النَّبي صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم بإسناد ولو واهياً لا يستطيعون.

الوَجْهُ السَّادِسُ : بل كُتُب السُّنَّة طافحة بأنَّ دعوته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاس إلىٰ الله كانت إلىٰ شهادة أن لَا إلَه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ، وخلع عبادة الأوثان ، ومن أشهرها : حديث معاذ بن جبل لَمَّا أرسله النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ اليمن ، فقال له : " ادعهم إلىٰ شهادة أن لَا إلَه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أنَّ عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ... الحديث " .

وروىٰ الخمسة وصحَّحه ابن حبَّان أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره أعرابيٌّ برؤية الهلال ، فأمر بالصِّيام ولم يسأله النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا عن الإقرار بالشَّهادتين ، وكان اللازم علىٰ هذيانه هذا أن يدعو النَّبي صلَّىٰ الله تعالىٰ عليه وسلَّم جميع النَّاس إلىٰ توحيد الألوهيَّة الذي جهلوه ، وأمَّا توحيد الربوبيَّة فقد عرفوه ! ويقول لمعاذ : ادعهم إلىٰ توحيد الألوهيَّة ! ويقول للأعرابي الذي رأىٰ هلال رمضان هل تعرف توحيد الألوهيَّة ؟!

الوَجْه السَّابِعُ : لم يأمر الله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عباده بتوحيد الألوهيَّة ، ولم يقل لهم : إنَّ من لم يعرفه لا يعتدُّ بمعرفته لتوحيد الرُّبوبيَّة ، بل أمر وهو :

الوَجْهُ الثَّامِنُ : بكلمة التَّوحيد مطلقة ، قال الله تبارك وتعالىٰ مخاطباً نبيَّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمَّد : ١٩] ، وهكذا جميع آيات التَّوحيد المذكورة في القرآن ، مع سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن .

الوَجْهُ التَّاسِعُ : يلزم علىٰ هذا الهذيان علىٰ الله تبارك وتعالىٰ لعباده حيث عرفوا كلّهم توحيد الرُّبوبيَّة ولم يعرفوا توحيد الألوهيَّة ـ أن يبيِّنه لهم ولا يضلّهم ولا يعذّبهم علىٰ جهلهم نصف التَّوحيد ولا يقول لهم : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة : ٣] ، نعوذ بالله من زلقات اللسان ، وفساد الجنان .

الوَجْهُ العَاشِرُ : الإله هو الرَّب ، والرَّب هو الإله ، فهما متلازمان يقع كل منهما في موضع الآخر ، وكتاب الله تعالىٰ طافح بذلك ، وكذلك سنَّته عليه الصَّلاة والسَّلام ، قال الله تبارك وتعالىٰ : (يَا أَيُّهَا النَّاس اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) ، وكان اللازم – علىٰ زعمه – حيث كانوا

يعرفـون توحيد الرُّبوبيـَّة ولا يعرفـون توحيد الألوهيَّة أن يقول الله : (اعبدوا إلهكم) ، وقال الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية ، وكان اللازم – علىٰ زعمه – حيث كان النَّمرود . يعرف توحيد الرُّبوبيَّة ويجهل توحيد الألوهيَّة أن يقول الله تعالىٰ : (ألم تر إلىٰ الذي حاج إبراهيم في إلهه) وكان اللازم – علىٰ زعمه – أن يقول الله في قوله تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ اتقوا إلهكم .

وكان اللازم – علىٰ زعمه – أن يقول الله في قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ، هل يستطيع إلهك ، وكان اللازم – علىٰ زعمه – أن يقول الله في قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ثمَّ الذين كفروا بإلههم يعدلون ، لأنَّ الرَّب يعرفونه ، وهو شيء كثير في القرآن .

الوَجْهُ الحَادِي عَشَر: يلزم – علىٰ زعمه – عدم تبيين الذي لا ينطق عن الهوىٰ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنَّاس في دعوته لهم إلىٰ الله تبـارك وتعالىٰ توحيد الألوهيـَّة الذي جهلوه وعدم تبيينه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم ذلـك ، لا يخلو من أن يكون جهلاً له أو كتماناً ، وكلاهما مستحيل في حقـِّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفر ، نعـوذ بالله من زلقـات اللسان وفساد الجـنان .

الوَجْهُ الثَّانِي عَشَر: زعمه أنَّ المشركين يعرفون توحيد الرُّبوبيَّة ، أي يعرفون أنَّ الرَّبَّ هو الخالق الرَّازق المحيىٰ المميت غير صحيح في مشركي العرب وحدهم فضلاً عن مشركي جميع الأمم ، وقد أخبر الله عنهم في آيات كثيرة بأنَّهم أنكروا البعث أشدَّ الإنكار ، وأنَّهم ما يهلكهم إلَّا الدَّهر – مرور الزَّمان – وقد اشتهر ذلـك في أشعارهم .

قال أحدهم : (أشاب الصَّغير وأفنىٰ الكبير كرُّ الغداة ومرّ العشي) ، واشتهر قولهم : (أرحام تدفع وأرض تبلع) ، أيقول عاقل في هؤلاء مع هذا الكفر أنَّهم يعرفون توحيد الرُّبوبيَّة ؟ ، ولو سلم أنَّهم يقرُّون بتوحيد الرُّبوبيَّة فإنَّ مجرَّد الإقرار به لا يسمَّىٰ توحيداً عند علماء الإسلام ، ولو كان

الإقرار بالرُّبوبيَّة توحيداً - كما زعم - لكان تصديق عتاة قريش النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكذيبهم بآيات الله تعالىٰ توحيداً ولا يقول بهذا عاقل .

قال الله تعالىٰ : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ، ولو كان الإقرار بالربوبية توحيداً - كما زعم - لكان علم عاد بالخالق لهم مع تكذيبهم آياته ورسوله هوداً عليه الصَّلاة والسَّلام لما هدَّدهم بالعذاب توحيداً ، زاجراً لهم عن قولهم : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾، ولا يقول بهذا عاقل ، أيقول عاقل في فرعون الذي قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ، وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ، وقال لملأه : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ، لما أجابه موسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام عن سؤاله عن حقيقة ربِّ العالمين قائلاً هو : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ، و ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ، أنَّه يعرف توحيد الرُّبوبيَّة ، أيقول عاقل في النَّمرود بن كنعان الذي ادَّعىٰ الرُّبوبيَّة وحاجّ خليل الله عليه الصَّلاة والسَّلام في ربِّه وزعم أنَّه يحيىٰ ويميت ، أنَّه يعرف توحيد الرُّبوبيَّة ؟ أيقول عاقل في الدَّهريِّين المنكرين وجود الإله ، وفي الثَّنويَّة المنكرين وجود إله واحد ، وفي الوثنيَّة القائلين بكثرة الأرباب والآلهة ، وفي التَّناسخيَّة ، وفي المزدكَّية والخرميَّة والبابيَّة والماركسيَّة ، ويدعي في هذه الطَّوائف الضَّالَّة كلّها أنَّها تعرف توحيد الرُّبوبيَّة ؟، وكثير من سكان المعمورة دهريُّون طبائعيُّون إباحيُّون ملاحدة ينكرون وجود الرَّب ، حتَّىٰ من كان منهم متديِّناً بالمسيحيَّة واليهوديَّة كأهل أوروبا انسلخ أكثرهم منهما إلىٰ الإلحاد والإباحة ، ولا زال الإلحاد والإباحة منتشرين في الأرض من بعد نوح عليه الصَّلاة والسَّلام ، وعليهما أكثر سكان الرُّبع العامر الآن .

الوَجْهُ الثَّالِثُ عَشَر: قوله في تفسير قوله صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد) ، فبيَّن في هذا الحديث أصلين عظيمين أحدهما : توحيد الرُّبوبيَّة والثَّاني توحيد الإلهيَّة ، كذب مكشوف يجوز علىٰ الأغبياء ، ولا يخلو فاعل بين من كونه النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بيَّن أنَّ

التَّوحيد ينقسم إلىٰ توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ، أو الحديث نفسه بيَّن نفسه ، أو فهمه من الحديث ذلك ، ولا شك أنَّه كذب مكشوف في الأَوَّل والثَّاني قطعاً ، فإنَّ النَّبـي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبيِّن في هذا الحديث أصلين عظيمين إلىٰ آخر الهذيان ، ولا الحديث بيَن ذلك ، فانحصر فاعل بيَن في فهمه ، وكان الواجب عليه للعامَّة وأشباههم التَّصريح بفهمه ، بأن يقول لهم : فهمت من هذا الحديث أصلين عظيمين إلخ ... ولا يلبس عليهم بهذا الهراء ، وباقى كلامه هنا ثرثرة لا تحتاج إلىٰ تعليق .

الوَجْهُ الرَّابعُ عَشَر: يقال في قوله في الموضع الثَّاني (وإن كانت الإلهيَّة تتضمَّن الرُّبوبيَّة والرُّبوبيَّة تستلزم الإلهيَّة) هل قال الإمام أحمد بن حنبل الذي يقدِّسه عند عرضه هذا الكلام ؟.

الوَجْهُ الخَامِسُ عَشَر : هل قاله أحد من أتباع التَّابعين رحمهم الله تعالىٰ ؟.

الوَجْهُ السَّادِسُ عَشَر: هل قاله أحد من التَّابعين رحمهم الله تعالىٰ ؟.

الوَجْهُ السَّابعُ عَشَر: هل قاله أحد من الصَّحابة رضوان الله عليهم ؟.

الوَجْهُ الثَّامِنُ عَشَر: هل قاله النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟.

الوَجْهُ التاسع عَشَر: هل قاله الله تبارك وتعالىٰ في كتابه العزيز ؟.

الوَجْهُ العِشْرُوْن: التَّضمُّن والالتزام من علم المنطق ، وهو قد ألَّف كتاباً في تحريمه ، فقد صدق من قال فيه : أنَّه لا يدري ما يقول ، وهو كثير التَّناقض في كلامه ولا يشعر .

الوَجْهُ الحَادِي وَالعِشْرُوْن: يقال للمفتونين به : وضِّحوا لنا هذا الكلام : (وإن كانت الإلهيَّة تتضمَّن الرُّبوبيَّة والرُّبوبيَّة تستلزم الإلهيَّة ، فإنَّ أحدهما إذا تضمَّن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختصّ بمعناه عند الاقتران ، كما في قوله : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلخ . وهل كان السَّلف الصَّالح الذين يلبِّس بهم علىٰ البسطاء يقولون هذا الهذيان ويعلِّمونه تلامذتهم ؟ ، وهل قاله علماء الإسلام والمفسِّرون ؟ .

الوَجْهُ الثَّانِي وَالعِشْرُوْن: قوله في الموضع الثَّالِث (فإنَّهم قصروا عن معرفة الأدلَّة العقليَّة التي ذكرها الله في كتابه) ، دعوىٰ كاذبة مقلوبة عليه فيقال له : إنَّما المقصِّر عن معرفة الأدلَّة العقليَّة التي

ذكرها الله تعالىٰ في كتابه أنت وأشياخك المجسِّمة ، مبنيَّة علىٰ إعجابه بنفسه وتأليهه وإزدرائه علماء الإسـلام ، وكلّ مائق يمكنه أن يقول : إنَّ النَّاس كلّهم مخطئون أو أنَّ المتكلِّمين جميعاً قصَّروا عن معرفة الأدلَّة العقليَّة إلخ ... لأنَّ الثَّرثرة لا ضريبـة عليها ، ولكن هل يضمن لهذه الصَّواب دائماً ؟ وكلّ من تصفَّح تآليفه يجد إعجابه برأيه وإزدراءه للعلماء ماثلين أمام عينه في كلِّ صفحة ، والإعجاب واحتقار عباد الله من أوليَّات إبليس .

الوَجْهُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُوْن: يقال له في قوله (فعدلوا عنها إلىٰ طرق أخرىٰ مبتدعة) ، من أين لـك أن علماء الإسلام كلّهم عدلوا عن الأدلَّة العقليَّة التىٰ ذكرها الله تعالىٰ في كتابه إلىٰ طرق أخرىٰ مبتدعة ، ومشيت أنت وحدك عليها فعصمت من الطُّرق المبتدعة ؟، أبنصٍّ صريح من كتاب الله تعالىٰ أو من سُنَّة نبيِّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ، فلو استظهر بالثَّقلين علىٰ أن يجد فيهما ما يصوِّب رأيه ويخطِّئ علماء الإسلام ، لم يظفر بذلـك .

الوَجْهُ الرَّابِع وَالعِشْرُوْن: قوله (فيها من الباطل ما لأجله خرجوا عن بعض الحقِّ المشترك بينهم وبين غيرهم ، ودخلوا في بعض الباطل المبتدع ، وأخرجوا من التَّوحيد ما هو منه ، كتوحيد الإلهيَّة وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته) ، كلام معمَّىٰ ملبّس فاسد ، مشتمل علىٰ خمسة أوجه كلّها فاسدة:

الأَوَّلُ : " فيها " أي : في الطُّرق التي ابتدعها علماء الإسلام – علىٰ زعمه – من الباطل أي الكفر ، ومن للتَّبعيض أي بعض الكفر ، ما أي الذي لأجله خرجوا عن بعض الحقّ المشترك بينهم وبين غيرهم ، أي خرجوا عن توحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات اللذين هما مع توحيد الرُّبوبيَّة مجموع الحقّ المشترك بينهم يعني جميع المسلمين ، وبين غيرهم يعني نفسه ، ودخلوا في بعض الباطل المبتدع ، أي : دخلوا في بعض الكفر المبتدع ، (وأخرجوا من التَّوحيد ما هو منه كتوحيد الإلهيَّة وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته) ، أي : أخرجوا هذين القسمين من مجموع التَّوحيد الذي هو توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات ، وقد قلَّده محمَّد بن عبد الوهَّاب في هذا الموضع أيضاً ، فقسَّم التَّوحيد في بعض رسائله إلىٰ ثلاثة أقسام ، وتقدَّم في الموضع الأَوَّل

والثَّاني والرَّابع من كلامه ما يدلُّ صريحاً علىٰ أنَّ التَّوحيد ينقسم إلىٰ قسمين فقط : توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهية ، فليتأمَّل الألبَّاء هذا الخبط .

الثَّانِي : الحقّ معنىٰ من المعاني لا يصحُّ تبعيضه والباطل كذلك ، فتقويم كلامه هذا – علىٰ مقتضىٰ زعمه – أن يقول : علماء الإسلام قاطبة خرجوا عن الحقِّ الذي هو الإيمان ، ودخلوا في الباطل الذي هو الكفر ، أي كفروا ، والعياذ بالله ، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال ، ولم يقل عاقل من المسلمين أنَّ الإيمان والكفر يتجزَّآن لذاتهما ، فقد كفَّر المسلمين في أوَّل هذا الكلام ، وليس تكفيرهم بالتَّعبير بلفظ بعض في وسطه ، وصرح بتكفيرهم في آخره كما سأحلّله .

الثَّالِثُ : قوله : (خرجوا عن بعض الحقِّ المشترك بينهم وبين غيرهم) كلام يضحك من المجانين قبل العقلاء ، لأنَّ معناه توحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات بضاعة مشتركة بينه وبين علماء الإسلام فخرجوا هم عن هذه الشَّركة باختيارهم وتركوها له خالصة .

الرَّابِعُ : وهو أشدّ فساداً ممَّا قبله قوله : (وأخرجوا من التَّوحيد ما هو منه كتوحيد الألوهيَّة وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته) ، فإنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ علماء الإسلام كلّهم يعرفون أقسام التَّوحيد الثَّلاثة حقّ المعرفة ، ومع ذلك أخرجوا منه قسمين عمداً وهما : توحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات ، وأبقوا لأنفسهم توحيد الرُّبوبيَّة الذي أقرَّ به المشركون .

الخَامِسُ: قوله : (وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته) تلبيس فاسد ، فإنَّ الله تبارك وتعالىٰ لم يكلِّف عباده بمعرفة (إثبات حقائق أسماء الله وصفاته) ، ورسوله المبعوث رحمة للعالمين لم يأمر النَّاس لما دعاهم إلىٰ الله بذلك ، وإنَّما أمر الله عباده أن يعبده ولا يشركوا به شيئاً ، وأمرنا تعالىٰ أن ندعوه بأسمائه الحسنىٰ ولم يأمرنا بإثبات حقائقها ، وأمرنا باتِّباع نبيّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع ما أتانا به من الأوامر واجتناب ما نهانا عنه ، وسلفنا الصَّالح الصَّحابة وأتباعهم وأتباع أتباعهم لما نشروا محاسن الدِّين الإسلامي علىٰ المعمورة لم يأمروا النَّاس بإثبات حقائق أسماء الله وصفاته ، ومن شكَّ في هذا أو كابر فليبرز لنا نقلاً صحيحاً عنهم يدلُّ لهذيانه هذا ، ومقصوده به حقائق صفات الله فقط ، لأنَّه يعتقد في ظواهر القرآن والسُّنَّة المتشابهة أنها صفات لله حقيقيَّة ، فيقول : أنَّه

تعالىٰ استوىٰ علىٰ عرشه حقيقة ، وفوق العرش حقيقة ، تقليداً لسلفه المجسِّمة ، وقد تقدَّم رد ابن الجوزي عليهم بأنَّ تسميتها صفات بدعة لم يقلها النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لأصحابه ، فأسماء الله تعالىٰ مقحم بين المضاف والمضاف إليه .

الوَجْهُ الخَامِس وَالعِشْرُوْن: قوله (ولم يعرفوا من التَّوحيد إلَّا توحيد الرُّبوبيَّة وهو الإقرار بأنَّ الله تعالىٰ خالق كلّ شيء ، وهذا التَّوحيد كان يقرّ به المشركون الذين قال الله عنهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ، وقال عنهم : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ، صريح في تكفير المتكلِّمين ، متناول أيضاً للصَّحابة فمن بعدهم إلىٰ يوم القيامة إلَّا من قال برأيه ، وقد صحَّ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال : (أُمرت أن أقاتل النَّاس حتىٰ يقولوا لا إله إلَّا الله (أي ومحمَّد رسول الله) فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلَّا بحقِّها وحسابهم علىٰ الله) ، وصحَّ عنه أيضاً أنَّه قال (من صلَّىٰ صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا) ، وصحَّ عنه أيضاً أنَّه قال لمولاه أسامة بن زيد رضى الله عنهما : (أقتلته بعد ما قال لا إله إلَّا الله)، فقال يا رسول الله إنَّما قالها خوفاً من السَّيف ، فقال له : (فهلَّا شققت عن قلبه حتىٰ تعلم أنَّه قالها لذلك) ، وصحَّ عنه أيضاً أنَّه قال : (إنِّي لم أُومر أن أنقِّب عن قلوب النَّاس ولا لأشقّ بطونهم) ، وصحَّ عنه أيضاً أنَّه قال : (إذا قال الرَّجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) . ودلَّت نصوص الشَّريعة المستفيضة علىٰ أنَّ الكفر أمر باطني لا يعلمه إلَّا الله ، فالحكم به علىٰ واحد من المسلمين خطير جدَّاً ، فكيف الحكم به علىٰ الأمَّة الإسلاميَّة كلّها ؟ ، فهذا لا يتفوَّه به إلَّا من نزع من قلبه مخافة المنتقم الجبَّار ، فقد برهن بهذا الكلام ، علىٰ أنَّه مقتد بأسلافه الحروريين الذين كفَّروا كثيراً من سادات المسلمين الصَّحابة رضوان الله عليهم والأمَّة الإسلاميَّة جمعاء إلَّا من وافقهم علىٰ هواهم ، ولذلك جاء في الصَّحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنَّه قال فيهم : (هم شرار الخلق ، عمدوا إلىٰ آيات نزلت في الكفَّار فحملوها علىٰ المؤمنين) ، فهو في المائة الثَّامنة مجدِّد الرُّبوع البالية يحمل الآيات الواردة في الكفَّار علىٰ المؤمنين كما حملها

عليهم أسلافه كلاب النَّار ، فالذي قال من العلماء أنَّه كفَّر ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين فقط ، والذي قال منهم أنَّه طعن في الشَّريف أبي الحسن الشَّاذلي ، والذي قال أنَّه طعن في رجال الصُّوفيَّة جميعاً ، والذي قال أنَّه كفَّر إمام الحرمين أبا المعالي الجويني وتلميذه أبا حامد الغزالي ، كلّهم صادقون ، لأنَّ كلاًّ منهم اطَّلع على قبيحة من قبائحه المدسوسة المفرَّقة في كتبه ورسائله ، ولم يطَّلعوا على كلامه هذا ، ولو اطَّلعوا عليه لتحقَّقوا أنَّه كفَّر الأمَّة الإسلاميَّة جمعاء ، متكلِّمين وفقهاء ومحدِّثين وصوفيَّة ، في مقدِّمتها سلفها الصَّالح والصَّحابة والتَّابعون وأتباعهم رضوان الله عليهم .

فإن قيل : منطوق كلامه في حكمه بالشِّرك خاصّ بفرق المتكلِّمين ، فكيف عمَّمته في الأمَّة الإسلاميَّة كلّها ؟ فادَّعيت أنَّه متناول للصَّحابة والتَّابعين وأتباعهم ، وللفقهاء والمحدِّثين والصُّوفيَّة ؟ قلت : الصَّحابة وعلماء التَّابعين وأتباعهم ومن بعدهم من علماء المسلمين كلّهم متكلِّمون ، والدَّليل عليه عشرة أوجه :

الأوَّل: علم الكلام علم قرآني فإنَّه مبسوط في كلام الله تعالى بذكر الإلهيَّات والنَّبويَّات والسَّمعيَّات والثَّلاثة مجموعة ، مع ذكر ما يتوقَّف عليه وجود الصَّانع من حدوث العالم المشار إليه بخلق السَّموات والأرض والنُّفوس وغيرها والإشارة إلى مذاهب المبطلين والطَّبائعيِّين وإنكار ذلك عليهم والجواب عن شُبه المبطلين المنكرين لشيء من ذلك ، إمكاناً أو وجوداً ، كقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ، وذكر حجج إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وحكم لقمان وغير ذلك ممَّا يطول ذكره ، وتكلَّم فيه النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كإبطاله اعتقاد الأعراب في الأنواء وفي العدوي وفي جوابه للأشعريِّين عن سؤالهم عن أوَّل هذا الأمر ، قال (كان الله ولم يكن شيء غيره – إلى آخر الحديث) وغير ذلك ، وهو كسائر العلوم مركوز في طباع الصَّحابة النَّاصعة الصَّافية ، ولاتِّفاقهم جميعاً في العقيدة الإسلاميَّة لم يحتاجوا إلى الكلام فيه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ...."

الوَجْهُ السَّادِسُ وَالعِشْرُوْن: حمله قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الواردة في المشركين على المسلمين فاسد، ودعواه أنَّ المشركين، مع إنكارهم البعث واتِّخاذهم الأنداد والولد له تعالىٰ يعرفون توحيد الُّربوبيَّة، تقدَّم إبطالها، ومعنىٰ الآية عند المفسِّرين ليسندنَّ خلقها في الحقيقة ونفس الأمر ، أي : الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها إلىٰ الله تعالىٰ، فلو استظهر بالثَّقلين علىٰ إثبات أنَّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألهم عن ذلك فأجابوه بالقول لا يستطيعون.

الوَجْهُ السَّابعُ وَالعِشْرُوْن : حمله قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الواردة أيضاً في المشركين علىٰ المسلمين فاسد أيضاً، لأنَّهم لو كانوا يعرفون توحيد الرُّبوبيَّة، - كما زعم - ما أمر الله تعالىٰ نبيَّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤالهم عن الأرض ومن فيها لمن هي ، وعن ربِّ السَّماوات السَّبع ورب العرش العظيم ، وعمَّن بيده ملكوت كلذِ شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه، ولكان الأمر بسؤالهم عن هذه الأشياء مع معرفتهم خالقها عبثاً وأمراً بتحصيل الحاصل ، وهو محال منه تعالىٰ ، ولو كانوا يعرفون توحيد الرُّبوبيَّة - كما زعم - ما كفروا به عزَّ وجلَّ ، وما أنكروا البعث ، وما اتَّخذوا له أنداداً عبدوهم من دونه، ولو كانوا يعرفون توحيد الرُّبوبيَّة ما قال تعالىٰ عنهم: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ، أي : فيما قالوا من إنكار البعث وفيما قالوا وفعلوا من الشِّرك باتِّخاذ الأنداد من دونه وغير هذا من أنواع الكفر، وإنَّما أمر الله سبحانه نبيَّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوقيفهم علىٰ هذه الأشياء التي لا يمكنهم في الفطرة والعقل السَّليم إنكارها، وأن أنكروها في الواقع، تبكيتاً وإقامة للحجَّة عليهم، ولا يمكنه أن يثبت عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه سألهم عن هذه الأشياء وأجابوه قولاً، ولو استظهر بجميع أهل الأرض.

الوَجْهُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُوْن : حمله قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ، الواردة في المشركين علىٰ المسلمين فاسد أيضاً، ومعناها عند المفسِّرين ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ ، في إقرارهم بوجود الخالق ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ باتِّخاذهم له أنداداً عبدوهم من دونه أو

باتِّخاذهم الأحبار والرُّهبان أرباباً، أو بقولهم واعتقادهم الولد له سبحانه، أو بقولهم لا شريك لك ، إلَّا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك، أو بغير ذلك.

والتَّعبير في جانب شركهم بالجملة الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت والدَّوام الواقعة حالاً لازمة، وفي جانب إيمانهم، أي إقرارهم بالجملة الفعليَّة الدَّالَّة على التَّجدُّد، دليل على أنَّ شركهم دائم مستمرٌّ ملازم لهم، وأنَّ إقرارهم غير دائم ولا مستمر، وإقرارهم بوجود الخالق الرَّازق المحيي المميت، مع ارتكابهم ما ينافيه ممَّا تقدَّم من الأقوال والأفعال، دليل على أنَّه لا يكون توحيداً - كما زعم - ولا إيماناً لا لغة ولا شرعاً، فإنَّ الإيمان لغة هو (التَّصديق بالقلب مطلقاً)، وشرعاً (تصديق النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما علم مجيئه به بالضّرورة)، أي : فيما اشتهر كونه من الدِّين بحيث يعلمه العامَّة من غير افتقار إلى نظر واستدلال، ويكفي الاجمال فيما يلاحظ إجمالاً، ويشترط التَّفصيل فيما يلاحظ تفصيلاً، وهذا هو المشهود وعليه الجمهور، والإقرار باللسان شرط في إجراء الأحكام الدُّنيويَّة عند الإمام أبي منصور الماتريدي والأشاعرة وشطر منه عند أكثر الحنفيَّة، والعمل بالطَّاعات شرط في كماله عند الجمهور غير داخل في حقيقة، فليس الإيمان مجرَّد معرفة الله، بدون الاذعان والنُّطق باللسان - كما قال جهم بن صفوان - ولو كان مجرَّد المعرفة إيماناً بالله تعالى لكان إبليس مؤمناً ، لأنَّه عارف بربِّه يعرف أنَّه خالقه ومميته وباعثه ومعذِّبه، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ ، وقال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ، وقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ، ولكان الكفَّار مؤمنين بربِّهم، إذا أنكروا بلسانهم ، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ، فلم يجعلهم مع استيقانهم بأنَّ الله تعالى واحد مؤمنين مع جحدهم بلسانهم.

وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ، فلم تنفعهم معرفتهم مع إنكارهم.

وقال تعالى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ، فلم تنفعهم معرفته صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع كتمانهم أمره وجحودهم به، وليس الإيمان هو الاقرار باللسان فقط – كما قالت الكرَّاميَّة – ولو كان هو الإقرار ما نفاه الله تعالى عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، وليس الإيمان مجموع الاعتقاد بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان – كما قالت الخوارج والمعتزلة – ، عليه كفر اعتقاد القلب ولا تعلُّق له باللسان والأركان ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان أمراً باطناً لا يوقف التَّصديق اعتقاد القلب ولا تعلُّق له باللسان والأركان إلَّا أنَّه لَمَّا كان أمراً باطناً لا يوقف عليه ، ولا يمكن بناء أحكام الشَّرع عليه ، جعل الشَّرع العبارة عمَّا في القلب بالإقرار أمارة عليه وشرطاً لإجراء الأحكام الدُّنيويَّة، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: (أُمرت أن أقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله ، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلَّا بحِّقها وحسابهم على الله) ، ومن أطلق اسم الإيمان على غير التَّصديق فقد صرفه عمَّا هو المفهوم منه في اللغة، ولو جاز ذلك لجاز صرف كلّ اسم عن موضوعه في اللغة وفيه إبطال اللسان، ولم يصح حينئذ الاحتجاج بالقرآن.

والدَّليل على صحَّة ما ذكرنا جواب النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل عليه السَّلام: (ما الإيمان؟) بقوله: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، الحديث) وروي أنَّ جبريل عليه السَّلام قال بعد ذلك: (فإذا قلت هذا فأنا مؤمن) ، قال : (نعم) ، فلو كان الإيمان اسماً لما وراء التَّصديق لكان تفسير النَّبي صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيَّاه بالتَّصديق خطأً وقوله نعم كذباً والقول به باطل.

واستدلَّ المحقِّقون على أنَّ الأعمال الصَّالحة خارجة عن حقيقة الإيمان بوجوه:

أحدها : أنَّ الله سبحانه وتعالى فرَّق بين الإيمان وبين الأعمال في كثير من الآيات نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ،

وقوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ، وغير هذه من الآيات.

والنَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سئل عن أفضل الأعمال قال: (إيمان بالله لا شكَّ فيه ، وجهاد لا غلول فيه ، وحجّ مبرور)، وكذا في حديث ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه ، قلت : أي الأعمال أفضل؟، قال: (الإيمان بالله ورسوله) قلت: ثمَّ أي؟ قال (الصَّلاة لميقاتها) قلت ثمَّ أي؟، قال (برّ الوالدين)، ووجه ذلك أنَّه عطف الأعمال علىٰ الإيمان والعطف يقتضي المغايرة، وشرط الإيمان لصحَّة الأعمال في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ، والشَّرط غير المشروط لا محالة، وصَّح إيمان النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وإيمان أصحاب قبل مشروعيَّة الصَّلاة والصَّوم والزَّكاة والحجّ غيرها، ولو كانت الأعمال من أركان الإيمان لم يكن الإيمان موجوداً بدون أركانه.

الثَّانِي: إنَّ الله تعالىٰ جعل محّل الإيمان القلب فقال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ، وقال: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ ، وقال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ، ومعلوم أنَّ القلب محّل الاعتقاد لا محّل العمل.

الثَّالِثُ: أنَّ الله قال أثبت الإيمان مع الكبيرة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾، فسمَّىٰ قاتل النَّفس عمداً عدواناً مؤمناً، والدَّليل علىٰ أنَّ الاقرار ليس بإيمان نفي الله الأيمن عمَّن قال من المنافقين آمنَّا، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

ومن حيث المعقول أنَّه لا وجود للشَّئ إلَّا بوجود ركنه، والإنسان مؤمن علىٰ التَّحقيق من حين آمن بالله إلىٰ أن يموت بل إلىٰ الأبد، وإنَّما يكون مؤمناً بوجود الإيمان وقيامه به حقيقة ولا وجود للإقرار في كلّ لحظة، فدلَّ أنَّه مؤمن بما معه من التَّصديق القائم بقلبه الدَّائم بتجدّد أمثاله، لكن الله تعالىٰ أوجب الاقرار ليكون شرطاً لإجراء أحكام الدُّنيا، إذا لا وقوف للعباد علىٰ ما في القلب فلا بدَّ لهم من دليل ظاهر ، والله تعالىٰ مطلع علىٰ ما في الضَّمائر، فتجري أحكام الآخرة علىٰ التَّصديق بدون

الاقرار، حتَّىٰ أنَّ من أقر ولم يصدق فهو مؤمن عندنا، وعند الله تعالىٰ هو من أهل النَّار، ومن صدَّق بقلبه ولم يقرّ بلسانه من غير عناد ولا تمكن فهو كافر عندنا، وعند الله تعالىٰ مؤمن من أهل الجنَّة، إذا تقرَّر بهذا فالمتكلِّمون الذين عناهم خصوصاً فحكم عليها بالشِّرك لزعمه تقصيرهم عن معرفة الأدلَّة العقليَّة التي ذكرها الله تعالىٰ في كتاب ، وجهلهم توحيد الألوهيَّة وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته وعبادتهم غيره، هم الأمَّة الإسلاميَّة المعاصرة له : المالكيَّة والشَّافعيَّة والحنفيَّة وفضلاء الحنابلة، لكونها كلّها في أصول الدِّين علىٰ مذهبي الأشعري والماتريدي.

ولا يخفىٰ علىٰ كلِّ من له مسكة من عقل ودين أنَّها صدَّقت النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلِّ ما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ ممَّا علم مجيئه به بالضَّرورة ، صدَّقت بقلوبها ، وأقرَّت بألسنتها ، وعملت بجوارحها.

فإذا كانت هذه الأمَّة التي انتشرت إذ ذاك في أكثر الرّبع العامر كلّها في رأيه كافرة مشركة لأنَّها لم تعرف - في زعمه - توحيد الألوهيَّة، فأين الأمة الإسلامية ؟ وأين الطَّائفة التي لا تزال ظاهرة علىٰ الحقِّ إلىٰ قيام السَّاعة؟ كما في خبر الصَّادق صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا يتردَّد كلّ وقح مفتون به في جواب هذا السُّؤال أن يقول : هي كلّها أحمد بن تيمية ومقلِّدوه، ولا يتردَّد عاقل وقف علىٰ كلامه هذا أنَّه حكم علىٰ الملايين من أمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكفر وما في قلوبهم لا يعلمه إلَّا الله، ولا يتردَّد أن يقول في حكمه هذا أنَّه باهت مرتكب جرماً عظيماً راجعاً عليه، وهو تكذيبه لنصوص كتاب الله تعالىٰ وصريح سنَّته عليه الصَّلاة والسَّلام الكثيرة، منها قوله صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمولاه أسامة : (هلا شققت عن قلبه حتَّىٰ تعلم أنَّه قالها لذلك)، وقد فرع علىٰ حكمه الفاجر قوله وهو:

الوَجْهُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُوْن : كذبه وتلبيسه في جملة واحدة أربع مرَّات . (فالطَّائفة من السَّلف تقول لهم من خلق السَّماوات والأرض فيقولون الله)، وهو فاسد مشتمل علىٰ خمسة أوجه كلها فاسدة:

الأَوَّلُ: افتراؤه علىٰ طائفة من السَّلف سائلة للأشاعرة والماتريديَّة المعاصرين له افتراء مكشوفاً مستحيلاً ، لأنَّ السَّلف يطلقون علىٰ خير القرون كما في الحديث الصَّحيح: (خير القرون قرني ثم

الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته يشهدون قبل أن يستشهدوا ويحلفون قبل أن يستحلفوا ويظهر فيهم السمن وأقصىٰ أمدهم آخر المائة الثالثة).

الثَّانِي: افتراؤه علىٰ المعاصرين له افتراء مكشوفاً مستحيلاً بأنَّ طائفة من السَّلف سألتهم قائلة: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ، والمسؤولون من الخلف، وعليهما.

الثَّالِثُ: بين الطَّائفة السَّائلة وبين المسؤولين أكثر من أربعمائة سنة، وهذه المدَّة المديدة بينهما تحيل كون السَّائلين والمسؤولين في عالم الأشباح، وإنَّما يتعيَّن فرض السُّؤال والجواب بينهما في عالم الأرواح وهو البرزخ والأرواح في هذا إمَّا منعَّمة وإمَّا معذَّبة ، فالمنعَّم منها مشغول بنعيمه ، والمعذَّب مشغول بعذابه ، فلا فائدة للسَّائل في سؤاله ولا للمجيب في جوابه.

الرَّابِعُ: لا وجود للطَّائفة السَّائلة ولا للمسؤولين في عالم الأشباح ولا في عالم الأرواح ، وإنَّما إعجابه برأيه وازدراؤه لعلماء الإسلام خيَّلا له سؤالهم، فهو وحده الطَّائفة المتخيّلة للسُّؤال والمسؤولون المتخيّلون في ذهنه هم المالكيَّة والشَّافعية والحنفيَّة وفضلاء الحنابلة المعاصرون له، وحقيقة هذا السُّؤال وتوضيحه هكذا: (أحمد بن تيمية الذي هو من الخلف يقول لكم : يا مالكيَّة ويا شافعيَّة ويا حنفيَّة ويا فضلاء الحنابلة) : ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والطَّائفة تُطلق لغة علىٰ الواحد إلىٰ الألف، فقد لبَّس وكذب في جملة واحدة أربع مرَّات، كذب ولبَّس بلفظها المحتمل للجمع والواحد، وكذب ولبَّس أيضاً في قوله: (من السَّلف) وهو من الخلف، وكذب ولبَّس أيضاً في قوله: (تقول) بالتَّاء المعينة للفظ الطَّائفة للجمع، وكذب ولبَّس أيضاً في قوله: (لهم) ، أي : للمسؤولين المتخيّلين ، والحقيقة إنَّما هي:

وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطَّعن وحده والنِّزالا

فإن قيل : مراده بالطَّائفة السَّلفيَّة السَّائلة جماعة من التَّابعين، وبالمسؤولين المعتزلة الذين وجدوا في زمانهم فهو علىٰ هذا صادق، قلت: هذا باطل بوجهين:

الأَوَّلُ: لو قربه من الحقّ قليلاً لسمّىٰ من الطَّائفة السَّلفيَّة السَّائلة ولو واحداً ، وسمَّىٰ من المعتزلة المسؤولين ولو واحداً، فركوبه فيهما جادَّة الإبهام التي لا يسلكها إلَّا الملبِّسون والكائدون للإسلام دليل واضح علىٰ أنَّه لا سائل ولا مسؤول ، فهو المفتعل لهما جزماً.

الثَّانِي: لو اجتمع معه الثَّقلان علىٰ النَّقل عن أي واحد من التَّابعين وأتباعهم ولو بإسناده واه أنَّهم قالوا للمعتزلة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لم يستطيعوا ذلك بل لو اجتمع معه الثَّقلان علىٰ النَّقل عن أي صحابي من الصَّحابة الذين فتحوا البلدان ونشروا محاسن الدِّين الإسلامي علىٰ المعمورة ولو بإسناد واه أنَّهم كانوا يقولون للمجوس أو لغيرهم من طوائف الكفَّار ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لم يستطيعوا ذلك، بل لو اجتمع معه الثَّقلان علىٰ النَّقل عن سيِّد الكائنات صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو بإسناد واه أنَّه كان يقول للنَّاس في دعوته لهم إلىٰ الله ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لم يستطيعوا ذلك.

الخَامِسُ: المخاطب بسؤال المشركين في قوله تعالىٰ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ ، هو النَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصَّة، وأن الشَّرطَّية المقرونة بلام القسم ممكن وقوع شرطها وهو سؤالهم عن ذلك، وعدم وقوعه أي عدم سؤالهم عن ذلك عربية فمدخولها جائز الأمرين مستقبل معنىٰ وإن كان ماضياً، ولم يرد أنَّه صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألهم عن ذلك، ولذلك قال المفسِّرو :ن إنَّ المشركين يقولون: (الله) بالفطرة التي فطر الله تعالىٰ النَّاس عليها، وهي العهد الذي أخذه عليهم في عالم الذَّر ، وبضرورة العقل السَّليم لا باللفظ، وعليه فقد تورَّط في الجهل أربع مرات: جعله نفسه في مقام النَّبي صلَّىٰ الله تعالىٰ عليه وسلَّم، وحمله الآية الواردة في المشركين علىٰ المسلمين، وجعله مدخول إن الشَّرطيَّة واجباً وهو جائز، وباللفظ، ولا يتردَّد العاقل في أنَّ مخاطبة وسؤال المتخيّل في الذِّهن يعدُّ ضرباً من الجنون.

الوَجْهُ الثَّلَاثُوْن : جعله التَّوسُّل والاستغاثة عبادة للمتوسَّل به والمُستغاث به والمُستعان به !!

قوله : (وهم مع ذلك يعبدون غيره) فاسد أيضاً ، ومعناه يقول أحمد بن تيمية الملبس بلفظ (الطَّائفة) ، والملبس أيضاً المدَّعي أنَّه (من السَّلف) للمالكيَّة والشافعيَّة والحنفيَّة ومستقيمي العقيدة من الحنابلة: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وهم مع اعترافهم بتوحيد الرُّبوبيَّة مشركون في رأيه لأنَّهم (يعبدون غيره) ، أي : يتوسَّلون بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالصَّالحين من أُمَّته ، ويستغيثون ويستعينون بهم ، وكلٌّ من التَّوسُّل والاستعانة والاستغاثة عبادة غير الله تعالىٰ في زعمه !!

وقد اعتمد في تكفير المسلمين بهذه الألفاظ علىٰ إرادة نفع جاه المُتوسَّل به أو المُستغاث به مثلاً ، قياساً علىٰ عبدة الأوثان بجامع الإرادة المذكورة في كلّ ، وهو قياس فاسد من ستَّة أوجه :

الأوَّلُ : جهله حقيقة العبادة ، فإنَّ العبادة لغة : أقصىٰ نهاية الخضوع والتذلُّل بشرط نيَّة التَّقرُّب ، ولا يكون ذلك إلَّا لمن له غاية التَّعظيم ، فقد تبيَّن منه أنَّ العبادة لغة لا تُطلق إلَّا علىٰ العمل الدَّالِّ علىٰ الخضوع المتقرّب به لمن يعظمه باعتقاد تأثيره في النَّفع والضُّر ، أو اعتقاد الجاه العظيم الذي ينفعه في الدُّنيا والآخرة ، وهي التي نهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عن أن تقع لغيره ، وكفر من لم ينته عنها ، وما قصر عن هذه المرتبة لا يقال فيه عبادة لغير الله .

وشرعاً : امتثال أمر الله كما أمر علىٰ الوجه المأمور به من أجل أنَّه أمر ، مع المبادرة بغاية الحبِّ والخضوع والتَّعظيم ، فاعتبر فيها ما اعتبر في اللغويَّة من الخضوع والتَّذلُّل والتَّعظيم .

فاللغويَّة غير مقيَّدة بعمل مخصوص ، والشَّرعيَّة مقيَّدة بالأعمال المأمور بها ، فكانت جارية علىٰ الأعمِّ الأغلب في الحقائق الشرعيَّة من كونها أخصّ من اللغويَّة .

ومن أجل اختصاصها بالمأمور به خرجت عبادة اليهودي مثلاً ، لأنَّه وإن تمسَّك بشريعة إلَّا أنَّها لما كانت منسوخة كانت كأن لم تكن ، وعبادة المبتدع في الدِّين ما ليس منه ، فالله سبحانه لَّما نهىٰ الكفَّار عمَّا هم مشتغلون به من عبادة غيره ، ووبَّخهم علىٰ وضع الشَّيء في غير محلِّه وتعظيمهم غير أهله ، وبيَّن لهم بالدَّلائل الواضحة عدم صلوحيَّة ما اتخذوه من دونه لما اتَّخذوه إليه ، وكان الحامل لهم علىٰ ذلك اتباع أهوائهم ، والاسترسال مع أغراضهم ، وذلك مناف لعبوديَّتهم ، إذ العبد لا يتصرَّف في

نفسه بمقتضىٰ شهوته وغرضه ، وإنَّما يتصرَّف علىٰ مقتضىٰ أمر سيِّده ونهيه ، قصد سبحانه أن يخرجهم عن داعية أهوائهم واتباع أغراضهم ، حتىٰ يكونوا عبيداً لله تعالىٰ ، اختياراً ، كما هم عبيد له اضطراراً ، فوضع لهم الشَّريعة المطهَّرة وبيَّن لهم الأعمال التي تعبَّدهم بها ، والطُّرق التي توصلهم إلىٰ منافعهم ومصالحهم علىٰ الوجه الذي ارتضاه لهم ، ونهاهم عن مجاوزة ما حدَّ لهم ...

وعلىٰ هذا فشرط كونها عبادة نيَّة التقرُّب للمعبود ، فالسُّجود لا يكون عبادة ولا كفراً إلَّا تبعاً للنيَّة ، فسجود الملائكة عليهم الصَّلاة والسَّلام لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام عبادة لله ، لأنَّه امتثال لأمره وتقرُّب وتعظيم له ، والسُّجود للصَّنم كفرٌ إذا قصد به التقرُّب إليه ، إذ هو عبادة لغير الله ، وكذا يحكم عليه به عند جهل قصده أو إنكاره لأنَّه علامة علىٰ الكفر .

والسُّجود للتحيَّة معصية فقط في شرعنا ، وقد كان سائغاً في الشَّرائع السَّابقة ، بدليل سجود يعقوب وبنيه ليوسف عليهم الصَّلاة والسَّلام .

فتحقَّق من تعريفي العبادة لغة وشرعاً أنَّ العبادة التذلُّل والتعظيم للمعبود ، وعليه ، فليس كلّ تعظيم عبادة ، وأنَّ ضابط التَّعظيم المقتضي للعبادة هو أن يعتقد له التأثير في النفع والضر ، أو يعتقد له الجاه التامّ والشَّهادة المقبولة بحيث ينفع في الآخرة ويستنزل به النَّصر والشِّفاء في الدُّنيا .

والتَّوسُّل لا يُسمَّىٰ عبادة قطعاً ، ولا يقال فيه عبادة ، وإنَّما هي وسيلة إليها ، ووسيلة الشَّيء غيره بالضَّرورة .

الثَّاني : الوسيلة لغة كلّ ما يتقرَّب به إلىٰ الغير ، وسل إلىٰ الله تعالىٰ توسيلاً ، عمل عملاً تقرَّب به إليه ، فتحقَّق منه أنَّ التَّوسُّل لا يُسمَّىٰ عبادة قطعاً ، ولا يقال فيه عبادة ، وإنَّما هو وسيلة إليها ، ووسيلة الشَّيء غيره بالضَّرورة وهو واضح ، فإنَّ التَّوسُّل لا تقرُّب فيه للمتوسَّل به ولا تعظيمه غاية التَّعظيم ، والتَّعظيم إذا لم يصل إلىٰ هذا الحدِّ لا يكون الفعل المعظَّم به عبادة ، فلا يُطلق اسم العبادة علىٰ ما ظهر من الاستعمال اللغوي إلا علىٰ ما كان بهذه المثابة من كون العمل دالّاً علىٰ غاية الخضوع منويّاً به التَّقرُّب للمعبود تعظيماً له بذلك التَّعظيم التام ، فاذا اختلَّ شيء منها منع الإطلاق ، أمَّا الدّلالة علىٰ نهاية الخضوع فظاهر ، لأنَّ مناط التَّسمية لم يوجد ، ولأنَّ النَّاس من قديم الزَّمان

إلىٰ الآن يخضعون لكبرائهم ورؤسائهم بما يقتضيه مقامه الدُّنيوي عندهم ويحيُّونهم بأنواع التَّحيَّات ، ويتذلَّلون بين أيديهم ، ولا يعدُّون ذلك قُربة ، ولا يُطلقون عليه اسم العبادة ، وإنَّما يرونه من باب الأدب ، وما ذاك إلَّا لكون ذلك الخضوع لم يبلغ نهايته ، والعظيم النَّاشئ عنه لم يبلغ غايته ، وبهذا ظهر الفرق بين التَّوسُّل والعبادة ، علىٰ أنَّ عَبد يتعدَّىٰ بنفسه ، وتوسَّل يتعدَّىٰ بحرف الجر .

وقد أوغل ابن تيمية في بيداء القياس الفاسد دفعتين ، قياسه معاني هذا الألفاظ ، توسَّل استعان ، استغاث ، تشفَّع ، علىٰ العبادة ، وقياسه المؤمنين المتوسِّلين بالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلاً علىٰ عبدة الأوثان من دون الله بجامع إرادة الجاه في كلٍّ .

فلينظر اللبيب إلىٰ أين رماه جهله باللغة العربيَّة ، فإنَّه لو تأمَّل في قول القائل : اللهمَّ إنِّي أتوسَّل إليك بفلان ، وأجراه علىٰ ما تدلُّ عليه اللغة لوجد معناه : اللهمَّ إنِّي أتقرَّب إليك وأتحبَّب إليك ، فهو دالٌّ بجوهره علىٰ أنَّ التَّقرُّب لله لا لمن يراد جاهه !!

ومن جهل الفرق بين عَبَد وتوسَّل ، كيف يصحُّ له القياس في دين الله وإلحاق بعض الفروع ببعض ، والقياس أصعب أنواع الاجتهاد ، لكثرة ما يعتبر في أركانه من الشُّروط ، وما يَردُ عليه من المعارضات والمناقضات وغير ذلك من أنواع الاعتراضات ، فلا يصفو مشربه إلَّا لأهل الاجتهاد ، ومن أحاط بمداركهم علىٰ اختلاف مراتبهم ، ومن قصَّر عن تلك المراتب لا يسوغ له الجزم بالحكم المأخوذ منه في دانق ، فكيف بالحكم المأخوذ منه في تكفير المسلمين ؟!!

الثَّالِثُ : وحيث تحقَّق الفرق بين العبادة والتَّوسُّل ، فالعبادة فيها معنىٰ زائد يناسب إناطة الحكم به ، وهو اشتمالها علىٰ الأعراض عن الله وإطلاق الإلهيَّة علىٰ غيره ، وإقامته مقامه ، وخدمته بما يستحق أن يخدم ، وقد أشار إلىٰ هذا المعنىٰ بعض فضلاء أهل السُّنَّة ، وملخَّص كلامه : أنَّ الشُّبهة الحاملة لعبدة الأوثان علىٰ عبادتها هي أنَّهم استصغروا أنفسهم فاستعظموا أن يعبدوا الله مباشرة ، ورأوا من سوء الأدب أن يشتغل الحقير من أوَّل وهلة بخدمة العظيم ، وقرَّبوا ذلك بأمر مستحسن في العادة ، وهو أنَّ الحقير لا ينبغي له أن يخدم الملك حتىٰ يخدم عماله إلىٰ أن يترقَّىٰ لخِدمته ، وقال : وهذه هي الحاملة علىٰ التَّوسُّل إلىٰ الله تعالىٰ بمن له جاه عنده ، إلَّا أنَّ الشَّرع أذِنَ في التَّوسُّل ولم يأذن

في العبادة ، فكانت حاجة الكفَّار تندفع بما شرعه الله ، إلَّا أنَّ الله تعالىٰ أعمىٰ بصائرهم ، ولو تنبَّهوا لأمر عادي آخر لأرشدهم ، فإنَّ الملك من ملوك الدُّنيا إذا استجاه له أحد بعظيم من وزرائه وتشفَّع له بذلك ، ربَّما أقبل عليه وأخذ بيديه وقضىٰ ما أراده منه . أمَّا إذا عظم ذلك الوزير بما يعظم به الملك وعامله بمعاملته وأقامه في مقامه فيما يختصُّ به الملك عن غيره ، رجاء أن يقضي ذلك الوزير حاجته من الملك ، فإنَّ الملك إذا علم بصنيعه يغضب أشدَّ الغضب ، ولا يقتصر في العقوبة علىٰ قطع الرَّجاء من الحاجة ، بل يفتك به وبالوزير إن أحبَّ ذلك !

فمثال التَّوسُّل الأوَّل ، ومثال العبادة الثَّاني ، فتأمَّل هذا المثال فإنَّه واف بواقعة الحال ، وبالله التَّوفيق والاعتصام

الرَّابعُ : القاعدة المشهورة المطَّردة ، وهي : أنَّ استواء الفعلين في السَّبب الحامل علىٰ الفعل لا يوجب استواءهما في الحكم ، يدلُّ علىٰ هاته القاعدة دلالة قطعيَّة ، أنَّه لو لم يكن الأمر كذلك بأن كان الاستواء في الحامل يوجب الاستواء في الحكم - كما ادعاه ابن تيمية وقرَّره في قياسه التَّوسُّل علىٰ العبادة والمتوسِّل علىٰ عابد الوثن - ، للزم إبطال الشَّريعة وتساوي الأعمال في الأحكام ، واللازم باطل بالاتِّفــاق ، وهو ضروريٌّ غنيٌّ عن الاستدلال !! " . انظر : براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (١/ ٩٦ فما بعدها باختصار) .

ونحن نقول لسائر المتسلِّفة :

هل يُعتبر موحِّداً من قال الله فيهم : ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[الأنعام : ٢٩].

وهل هم موحِّدون من قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾[الفرقان : ٦٠] .

وهل هم موحِّدون من قال الله فيهم : ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

[المؤمنون : ٣١-٣٧] .

وهل فرعون يُعتبر موحّداً ، وقد قال فيما حكاه الله عنه : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات : ٢٤] ... وهو بهذا القول يدَّعي الرُّبوبيَّة لنفسه ، وقد سلَّم له بها قومه ، بعد أن استخفَّ عقولهم﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[الزخرف : ٥٤] ، وحكى الله تعالى جدال موسى مع فرعون ، وأنَّ فرعون قال له : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء: ٢٣ – ٢٩] .

وهل يُعتبر موحِّداً من سيقول لمتبوعه يوم القيامة : ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾[الشعراء: ٩٧ – ٩٩] .

وهل يدخل في التَّوحيد من خاطبهم يوسف عليه السَّلام بقوله : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يوسف: ٣٩] .

وهل يدخل في التَّوحيد من قال الله تعالى فيهم : ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[ص: ٤ – ٧] .

وهل يدخل في التَّوحيد من قال الله تعالى فيهم : ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: ٨١ – ٨٣] .

وكيف يكون مؤمناً ربوبيَّة من قال الله تعالى فيهم : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١] .

وكيف يكون مؤمناً ربوبيَّة من خاطبهم إبراهيم عليه السَّلام بقوله : ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٥٦] .

وكيف يكون مؤمناً ربوبيَّة من حكم الله تعالى بكفره ، فقال : ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾[الرعد: ٣٠] .

وكيف يكون النَّمرود مؤمناً ربوبيَّة ، وقد قال الله تعالى عنه : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨] .

فالنَّمرود ادَّعى الربوبيَّة من دون الله تعالى ، وخلع على نفسه خصائص الرُّبوبيَّة ، من إحياء الموتى ، وإماتة الأحياء ، ولذلك عمد إلى مجادلة إبراهيم عليه السَّلام في الربوبيَّة لا في الألوهيَّة ... فكيف يزعم من قسَّموا التَّوحيد من المتمسلفة بأنَّ الخلق ومن ضمنهم النَّمرود يؤمنون بالرُّبوبيَّة لله تعالى ؟!!

كيف يزعم ابن تيمية أنَّ التَّوۡحِيدُ الَّذِي أَمَرَ الله بِهِ الۡعِبَادَ هُوَ تَوۡحِيدُ الۡأُلُوهِيَّةِ ، وأنَّ توحيد الرُّبوبيَّة كَانَ يُقِرُّ بِهِ الۡمُشۡرِكُونَ ؟ وكيف يزعم ابن عبد الوهَّاب أنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أُرسل إلى قوم يتعبَّدون !!! ويحجُّون !!! ويتصدَّقون !!! ويذكرون الله كثيراً !!! مع أنَّ الله تعالى أمر الرَّسول ومعه الصفّ المؤمن بمواجهة الكفرة بأنَّ لكم دينكم ولنا دين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[الكافرون: ١ – ٦] .

فسورة " الكَافِرُوْن " تردُّ على دعوى ابن تيمية الفارغة حين زعم أنَّ " المُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا التَّوْحِيدِ – تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ – وَمَعَ هَذَا يُشْرِكُونَ بِاللهِّ ، فَيَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِّ ، وَيَقُولُونَ : أَنَّهم شُفَعَاؤُنَا عِنْدَهُ وأَنَّهم يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ ، فَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ وَقُرْبَاناً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾

[الزمر: ٣] . انظر : مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٧٨) .

هذا ما قاله ابن تيمية ، وهو مجازفة كبيرة وخطيرة أدَّت فيما بعد إلى أن يتمسَّك بها الرّعاع الجهلة ، ويجعلوها متمسَّكاً ودليلاً على تكفير أُمَّة محمَّد صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي اعتادت على التَّوسُّل إلى الله تعالى بالأنبياء والصَّالحين ، مع الإيمان المطلق بأنَّ الله تعالى هو مالك الأمر كله ، وأنَّ المتوسَّل به إلى الله تعالى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرَّاً ...

فالله تعالى أخبرنا أنَّه سبحانه وتعالى له الأمر من قبل ومن بعد ، وكلُّ شيء بيده سبحانه ، لكنَّه طالبنا أن نربط الأسباب بمسبَّباتها ، فهو سبحانه القائل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٨] ، والقائل : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك: ١٥] ، وهو سبحانه القائل : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ١٧] ، والقائل : ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ١٩١] .

فإن استشهدوا على إيمان الكفرة والمشركين بالربوبيَّة بقول الله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ

عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[العنكبوت: ٦١ – ٦٣] ، وبقوله : ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ – ٩٠] .

قلنا : إنَّ المشركين ما قالوا هذا إلَّا بعد أن غُلبوا بالحُجَّة وأُلزموا بها ، فقالوه بألسنتهم وأبته قلوبهم ، فنافقوا ، والمنافق هو الذي يُبطن الكفر ويُظهر الإيمان الذي هو تصديق القلب ... ثمَّ إنَّ مجرَّد النُّطق باللسان لا يُدخل الإنسان في دائرة الإيمان إن لم يرافقه تصديق الجَنَان ، قال تعالىٰ : ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٤] .

كما أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة شنَّعوا علىٰ من فسَّروا الإيمان بالتَّصديق دون العمل ... فكيف أدخلوا المشركين عبدة الأصنام والأوثان في دائرة الإيمان ؟!!! بل جعلوهم أكثر إيماناً ممَّن يَدَّعون الله الواحد الأحد الفرد الصَّمد ، ويتوسَّلون إليه بأشرف الخلق وحبيب الحقِّ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ؟!! مع الإيمان المطلق بأنَّ النَّفع والضرَّ بيد الله تعالىٰ وحده لا شريك له ، وأنَّ الأنبياء فضلاً عن الأولياء والصَّالحين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضرَّاً ، لا في حياتهم ولا بعد وفاتهم ، لأنَّ النَّافع والضَّارَّ هو الله تعالىٰ وحده ، وقد قال الله تعالىٰ فيما حكاه عن الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨] ، وأنَّ مراد المتوسِّل من المتوسَّل به إنَّما هو الطَّلب بأن يدعو الله تعالىٰ له ، لأنَّ الموت ليس عدماً أو فناء محضاً ، والنُّبوَّة لا تنقطع رتبتها بالموت ، الذي هو انتقال من دار الدُّنيا إلىٰ دار البرزخ ، وللأرواح عملٌ وتصرُّفٌ بعد الموت ، فهي ترىٰ ، وتسمع ، وتتكلَّم ، فتدعو ، وتستغفر ...

قال الإمام القرطبي : " الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنّما هو انقطاع تعلُّق الرُّوح بالبدن ، ومفارقته وحيلولة بينهما ، وتبدّل حال ، وانتقال من دار إلى دار ... " . انظر : كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (١/ ١١١-١١٢) .

وقال الإمام المناوي : " إنَّ الميِّت ولو أعمى ، يعرف من يحمله من محل موته إلى مغتسله ، ومن يغسِّله ، ومن يكفِّنه ، ومن يدليه في قبره ، ومن يلحده فيه ، وغير ذلك ... وذلك لأنَّ الموت ليس بعدم محض ، والشُّعور باق حتى تمام الدَّفن ، حتى أنَّه يعرف زائره ... وإنَّما يغلط أكثر النَّاس في هذا ، وأمثاله ، حيث يعتقد أنَّ الرُّوح من جنس ما يعهد من الأجسام ، الذي إذا شغلت مكاناً ، لا يمكن أن تكون بغيره ، بل الرُّوح لها اتِّصال بالبدن ، والقبر ، وجِرمها في السَّماء كشعاع الشَّمس ، ساقط بالأرض ، وأصله متَّصل بالشَّمس " . انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ٣٩٨) .

وعلى كلِّ حال فقد حكم الله تعالى بكفر المشركين الذين قالوا : ﴿نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣] ، حيث قال الله تعالى في الرَّدِّ عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾: قال الإمام الطَّبري في تفسيرها : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ إِلَى الْحَقِّ وَدِينِهِ الْإِسْلَامِ، وَالْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، فَيُوَفِّقُهُ لَهُ ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ مُفْتَرٍ عَلَى اللهِ، يَتَقَوَّلُ عَلَيْهِ الْبَاطِلَ، وَيُضِيفُ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ مِنْ صِفَتِهِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ وَلَدًا افْتِرَاءً عَلَيْهِ، كَفَّارٌ لِنِعَمِهِ، جَحُودٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ" . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٠/ ١٥٨) .

وقال الإمام الرَّازي : " وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الْكَذِبِ وَالْكُفْرِ بَقِيَ مَحْرُوماً عَنِ الْهِدَايَةِ ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْكَذِبِ وصفهم لهذه الْأَصْنَامِ بِأَنَّهَا آلِهَةٌ مُسْتَحِقَّةٌ لِلْعِبَادَةِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا جَمَادَاتٌ خَسِيسَةٌ وَهُمْ نَحَتُوهَا وَتَصَرَّفُوا فِيهَا ، وَالْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ حَاصِلٌ بِأَنَّ وَصْفَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِالْإِلَهِيَّةِ كَذِبٌ مَحْضٌ ، وأَمَّا الْكُفْرُ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْكُفْرَ الرَّاجِعَ إِلَى الِاعْتِقَادِ ، والأمر هاهنا كَذَلِكَ فَإِنَّ وَصْفَهُمْ لَهَا بِالْإِلَهِيَّةِ كَذِبٌ ، وَاعْتِقَادَهُمْ فِيهَا بِالْإِلَهِيَّةِ جَهْلٌ وَكُفْرٌ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كُفْرَانَ النِّعمة ، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ الْعِبَادَةَ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ وَنِهَايَةُ التَّعْظِيمِ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِمَنْ يَصْدُرُ عَنْهُ غَايَةُ

الْإِنْعَامِ ، وَذَلِكَ الْمُنْعِمُ هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهَذِهِ الْأَوْثَانُ لَا مَدْخَلَ لَهَا فِي ذَلِكَ الْإِنْعَامِ ، فَالِاشْتِغَالُ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَوْثَانِ يُوجِبُ كُفْرَانَ نِعْمَةِ الْمُنْعِمِ الْحَقِّ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٦/ ٤٢٢).

فقولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾، ما كان إلَّا تعليلاً زائفاً وفاسداً لعبادتهم ما نحتوا من الحجارة التي عبدوها وقرَّبوا لها القرابين ، فجاء الرَّدُّ القرآني عليهم تنبيهاً على كفرهم وضلالهم.

فبعد أن أُقيمت الحجَّة عليهم بأنَّ ما يعبدون من الأوثان والأصنام التي نحتوها وجسَّموها بأيديهم لا تملك لهم نفعاً ولا ضرَّاً ، ولا حياة ولا موتاً ، قالوا مُرغمين بألسنتهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾ ، وهذا من كفرهم وكذبهم الذي كشفه الله في القرآن العظيم ، فقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، إشارة إلى كذبهم حين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾ ، لأنَّهم عبدوا أصنامهم وأوثانهم ، وآمنوا بأنَّها تنفعُ وتضرُّ وترزقُ ، وأضافوا إليها صفات الرُّبوبيَّة والألوهيَّة ...

فالآية تصوِّر كذبهم في مدَّعاهم ، وأنَّهم لو كانوا مؤمنين صادقين في إيمانهم لما أشركوا ما يعبدون من الأصنام مع الله تعالى ، ولما عبدوا غيره سبحانه ، ولما سبُّوه حين تُسبُّ آلهتهم ، ولذلك نهى الله المسلمين أن يسبُّوا أصنام المشركين ، فقال : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] .

قال الطَّبري في تفسيرها : " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُو الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ ، فَيَسُبَّ الْمُشْرِكُونَ اللهَ جَهْلاً مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ وَاعْتِدَاءً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَمَا حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى ، قَالَ : ثنا أَبُو صَالِحٍ ، قَالَ : ثني مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عبَّاس ، قَوْلُهُ : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ

﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] ، قَالَ : قَالُوا : يَا محمَّد ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ ، فَنَهَاهُمُ الله أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ .

حدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُعَاذٍ ، قَالَ : ثنا يَزِيدُ ، قَالَ : ثنا سَعِيدٌ ، عَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] : كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَوْثَانَ الْكُفَّارِ ، فَيَرُدُّونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَنهَاهُمُ الله أَنْ يَسْتَسِبُّوا لِرَبِّهِمْ ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ جَهَلَةٌ لا عِلْمَ لَهُمْ بِاللهِ .

حدَّثَنَا محمَّد بْنُ الْحُسَيْنِ ، قَالَ : ثنا أَحْمَدُ بْنُ الْمُفَضَّلِ ، قَالَ : ثنا أَسْبَاطٌ ، عَنِ السُّدِّيِّ : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] ، قَالَ : لَمَّا حَضَرَ أَبَا طَالِبٍ الْمَوْتُ قَالَتْ قُرَيْشٌ : انْطَلِقُوا بِنَا فَلْنَدْخُلْ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ فَلْنَأْمُرْهُ أَنْ يَنْهَى عَنَّا ابْنَ أَخِيهِ ، فَإِنَّا نَسْتَحِي أَنْ نَقْتُلَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فَتَقُولُ الْعَرَبُ : كَانَ يَمْنَعُهُ ، فلمَّا مَاتَ قَتَلُوهُ ، فَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ ، وَأَبُو جَهْلٍ ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأُمَيَّةُ وَأُبَيُّ ابْنَا خَلَفٍ ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْبَخْتَرِيِّ ، وَبَعَثُوا رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ : الْمُطَّلِبُ ، قَالُوا : اسْتَأْذِنْ عَلَى أَبِي طَالِبٍ ، فَأَتَى أَبَا طَالِبٍ ، فَقَالَ : هَؤُلَاءِ مَشْيَخَةُ قَوْمِكَ ، يُرِيدُونَ الدُّخُولَ عَلَيْكَ . فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَنْتَ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا ، وَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ آذَانَا وَآذَى آلِهَتَنَا ، فَنُحِبُّ أَنْ تَدْعُوهُ فَتَنْهَاهُ عَنْ ذِكْرِ آلِهَتِنَا ، وَلْنَدَعْهُ وَإِلَهَهُ . فَدَعَاهُ ، فَجَاءَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ : هَؤُلَاءِ قَوْمُكَ وَبَنُو عَمِّكَ . قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا تُرِيدُونَ ؟ " قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ تَدَعَنَا وَآلِهَتَنَا ، وَنَدَعَكَ وَإِلَهَكَ . قَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ : قَدْ أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، فَقَالَ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذَا ، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمُ الْعَرَبَ ، وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ بِالْخَرَاجِ ؟ " ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ : نَعَمْ وَأَبِيكَ لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعَشْرَ أَمْثَالِهَا ، فَمَا هِيَ ؟ قَالَ : " قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا الله " ، فَأَبَوْا وَاشْمَأَزُّوا . قَالَ أَبُو طَالِبٍ : يَا ابْنَ أَخِي قُلْ غَيْرَهَا ، فَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ فَزِعُوا مِنْهَا ، قَالَ : " يَا عَمُّ ، مَا أَنَا بِالَّذِي أَقُولُ غَيْرَهَا حَتَّى يَأْتُوا بِالشَّمْسِ فَيَضَعُوهَا فِي يَدَيَّ ، وَلَوْ أَتَوْنِي بِالشَّمْسِ فَوَضَعُوهَا فِي يَدَيَّ مَا قُلْتُ غَيْرَهَا " ، إِرَادَةَ أَنْ يُؤَيِّسَهُمْ . فَغَضِبُوا وَقَالُوا :

لَتكُفَّنَّ عَنْ شَتْمِكَ آلِهَتَنَا ، أَوْ لَنَشْتُمَنَّكَ وَلَنَشْتُمَنَّ مَنْ يَأْمُرُكَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] .

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ : ثنا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : " كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ ، فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَأَنْزَلَ الله : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٠٨] .

حَدَّثَنِي يُونُسُ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ ، قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] ، قَالَ : إِذَا سَبَبْتَ إِلَهَهُ سَبَّ إِلَهَكَ ، فَلَا تَسُبُّوا آلِهَتَهُمْ " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٩/ ٤٨٠-٤٨٢) .

فسدّاً للذَّريعة أمر الله تعالى المؤمنين أن لا يسبُّوا آلهة الكفرة والمشركين حتى لا يتسبَّبوا بسبِّ الله تعالى من قِبَلِ المشركين الذين كانوا يسبُّون الله تعالى إذا ما سُبَّت آلهتهم ... فهل من سبَّ الله تعالى مؤمناً بل أشدُّ إيماناً من المؤمنين بالله ، المتوسِّلين إليه بوسيلة محبوبة لديه ؟!!!

ونختم الحديث في الكلام عمّا سمَّوه بتوحيد الرُّبوبيَّة بما قاله الله تعالى على لسان الكفرة والمشركين ، قال سبحانه : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[الأنعام: ١٣٠] ، وبقوله : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: ٧١] .

فالمشركون شهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين ، في الوقت الذي يزعم فيه المتمسلفون أنَّ الكفرة أشدّ إيماناً من المتوسِّلين إلى الله تعالى بحبيبه ورسوله ومصطفاه ، وكذا بسائر عباد الله الصَّالحين ...

بقي أمرٌ أخيرٌ لا بدَّ من الإشارة إليه ، وهو القسم الثَّالِث من توحيد ابن تيمية الذي سمّاه بـ " توحيد الأسماء والصِّفات " ، ومراده من هذا القسم أن يقول : من لا يؤمن بأنَّ لله تعالى : عينٌ ،

ووجهٌ ، ويدٌ ، وكفٌّ ، وإصبعٌ ، وساقٌ ، وقدم ... على الحقيقة ، وأنَّه في السَّماء على الحقيقة ، وأنَّه جالس على العرش على الحقيقة ، وأنَّه يتحرَّك ويسكن على الحقيقة ، وأنَّه يتكلَّم بصوت وحرف على الحقيقة ، وأنَّ صوته يُشبه صوتَ الصَّواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعها الإنسان ... فمن لا يؤمن بهذه الأمور وغيرها الكثير الكثير على طريقته ومذهبه فهو كافر خارج من ربقة الدِّين ... وقد استوعبت هذا وغيره في مصنَّف خاص ... أتيت فيه على طامَّاته ومعاطبه المبثوثة في سائر كتبه وكتب من يدَّعون ظلماً وزوراً وعدواناً الانتساب إلى السَّلف ... الذي هو في الحقيقة فترة زمنيَّة مباركة لا مذهباً يُتمذهبُ به ...

ونختم هذا الفصل باثنتين من الفتاوى المتعلِّقة بتقسيم التَّوحيد : الأولى لدار الإفتاء المصريَّة ، والثَّانية لدار الإفتاء الأردنيَّة ...

ففي جوابه على سؤال : هل كان المشركون مقرِّين بتوحيد الرُّبوبيَّة؟ وهل التَّوسل بالنَّبي صلَّى الله عليه وآله والتَّبرك بزيارة مقامات الأولياء يُعدُّ شركاً ؟قال الأستاذ الدُّكتور علي جمعة مفتي جمهورية مصر العربيَّة :

يجب على المسلم أن يحذر من المجازفة بالتَّكفير حتى لا يقع تحت طائلة الوعيد المذكور فى قول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم:(لا يرمى رجل رجلاً بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك) . رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله) . رواه البخارى من حديث ثابت بن الضحَّاك.

تقسيم التوحيد :

تقسيم التَّوحيد إلى ألوهيَّة وربوبيَّة هو من المصطلحات المحدثات التي لم ترد عن السَّلف الصَّالح، وأوَّل من أحدثها- على ما هو المشهور- هو الشَّيخ ابن تيمية رحمه الله، ثمَّ أخذه عنه من تكلَّم به بعد ذلك، وحاصل قوله فى ذلك: أنَّ الرُّبوبيَّة هي توحيد الله بأفعاله، والألوهيَّة هى توحيد الله بأفعال العباد، وأنَّهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، أي: أنَّ أحدهما يتضمَّن الآخر عند

الانفراد، ويختصّ بمعناه عند الاقتران؛ فالألوهيَّة تتضمَّن الرُّبوبيَّة، والرُّبوبية تستلزم الإلهيَّة، وهذا الكلام إلىٰ هذا القدر لا إشكال فيه، إلَّا أنه تجاوزه إلىٰ الزَّعم بأنَّ هذا التَّوحيد وحده لا يكفي في الإيمان، وأنَّ المشركين مقرُّون بتوحيد الرُّبوبيَّة، وأنَّ كثيراً من طوائف الأمَّة من المتكلِّمين وغيرهم قد اقتصروا عليه وأهملوا توحيد الألوهيَّة.

والقول بأنَّ توحيد الرُّبوبيَّة لا يكفي وحده فى الإيمان هو قول مبتدع مخالف لإجماع المسلمين قبل ابن تيمية، بل ومخالف لكلامه نفسه من أنَّ توحيد الألوهيَّة متضمِّن لتوحيد الرُّبوبيَّة، وأنَّ توحيد الرُّبوبيَّة مستلزم لتوحيد الألوهيَّة؛ فإنَّ بطلان اللازم يدلُّ علىٰ بطلان الملزوم، فإذا لم يكن المشركون مقرِّين بتوحيد الألوهيَّة فلا يصحُّ الزَّعم بعد ذلك أنَّهم كانوا مقرِّين بتوحيد الرُّبوبيَّة؛ ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم، وإذا صحَّ إقرار المسلمين بتوحيد الرُّبوبيَّة فلا يجوز أن يُدَّعىٰ أنَّهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ الفرض أنَّهما متلازمان، فكيف يثبت الملزوم مع انتفاء اللازم!؟.

وقد تصدَّىٰ أهل العلم لردِّ هذا القول وبيَّنوا فساده، وأنَّه قول باطل لا دليل عليه، وأنَّ كلّ أحد يؤخذ من قوله ويترك إلَّا النَّبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ...

احذروا مذهب الخوارج :

تتستَّر تيارات التَّكفير بهذا الأقوال الفاسدة واتِّخاذها ذريعة لاتِّهام المسلمين بالشِّرك والكفر مع نسبة كلّ هذه الأفهام المغلوطة إلىٰ الشَّيخ ابن تيمية هو من التَّلبيس والإرجاف الذىٰ ينتهجه أدعياء هذا الفكر الخارجي ليتطاولوا به علىٰ حرمات المسلمين، منغمسين بذلك في أوحال التَّكفير والتَّفسيق والتَّبديع لجمهور الأمَّة ومشاهير علمائها وصالحيها بل وسوادها الأعظم، ومتَّهمين سلف الأمَّة وخلفها بالشِّرك

والكفر إلَّا من كان علىٰ مثل باطلهم ومشربهم الفاسد.

وهذا هو عين مذهب الخوارج الذىٰ حذَّرتنا النُّصوص الشَّرعيَّة من الوقوع فىٰ باطله:

(١) روىٰ الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما تعليقاً- ووصله ابن جرير الطَّبرىٰ في تهذيب الآثار بسند صحيح- أنَّه كان يراهم شرار خلق الله، وكان يقول: (إنَّهم انطلقوا إلىٰ آيات نزلت فىٰ الكفَّار فجعلوها علىٰ المؤمنين).

(٢) وعن الإمام علىٰ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: (يأتىٰ في آخر الزَّمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البريَّة، يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فإينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيادمة) . متفق عليه.

(٣) وعن عبد الله بن أبىٰ أوفىٰ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: (الخواج هم كلاب النَّار) . رواه الإمام أحمد وابن ماجة وغيرهما.

الخلاصة :

نحن نحذِّر المسلمين من السَّير خلف هذه الأفكار التَّكفيريَّة الضَّالَّة التىٰ يطعن بها خوارج العصر في عقائد المسلمين، ونُهيب بكلِّ مسلم غيور علىٰ دينه أن يَحذر ويُحذر من تكفير إخوانه المسلمين؛ فتكفير المسلم كقتله، وعلىٰ أهل العلم أن يبيِّنوا لهؤلاء الأغرار فساد معتقداتهم حتىٰ يرجعوا إلىٰ الحقّ الذي يرضي الله ورسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم" . منشور علىٰ النِّت ، باختصار .

وفي جوابها علىٰ سؤال : هل هناك دليل شرعي علىٰ جواز تقسيم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات؟

أجابت دائرة الإفتاء الأردنية :

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله .

التوحيد عقيدة إسلامية واضحة وبيّنة، ولذلك سميت شهادة الإسلام بكلمة التوحيد، ومعنىٰ التوحيد هو إثبات صفة الوحدانية لله تعالىٰ، وبإثباتها يُثبت العبد المؤمن تفرُّد الله بالألوهية والربوبية وصفات الكمال وأسماء الجلال، وقد جعل القرآن الكريم التوحيد علامة فارقة في حياة

الإنسان، فإنّ المؤمن بألوهية الله تعالى ووحدانيته في الإيجاد والإمداد والإسعاد ينطلق قلبه في ميدان الإيمان بلا قيد، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٩] .

وأما مفهوم الإيمان بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، فالألوهية لفظ مشتق من الإله، والإيمان بها إثبات استحقاق الله تعالى لعبودية الخلق له، والربوبية لفظ مشتق من الرب، والإيمان بها إثبات أنّ الله رب مدبر يتصرف في كل شيء بقدرته وإرادته، وتوحيد الأسماء والصفات إثبات انفراد الله تعالى باستحقاق الكمالات التي تدلّ عليها أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وقد دلّت نصوص القرآن الكريم على تلازم الإيمان بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة، حيث قال الله تعالى في بيان اتّصالهما: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥] ، فمن آمن بربوبية الله توجه إليه بإثبات الألوهية، ومن أثبت الألوهية كان مثبتاً للربوبية لا محالة، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الدخان:٨] ، قال ابن عاشور في تفسير الآية: "ولما كان تفرده بالإحياء والإماتة دليلاً واضحاً في أحوال المخاطبين وفيما حولهم من ظهور الأحياء بالولادة والأموات بالوفاة يوماً فيوماً من شأنه أن لا يجهلوا دلالته بلَهَ جحودهم إيّاها، ومع ذلك قد عبدوا الأصنام التي لا تحيي ولا تميت، أعقب بإثبات ربوبيته للمخاطبين تسجيلاً عليهم بجحد الأدلة وبكفران النعمة" [التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٨٤] .

وتعداد أنواع التوحيد وتقسيمها بحسب مفهوم كلٍّ منها لا محذور فيه شرعاً أو علماً، بل يمكن تقسيم التوحيد بأكثر من هذه الأقسام، فيمكن أن تقول: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، لكن الخطأ في توهّم أن الإيمان بالربوبية حاصل للكفار، وهو قول باطل غير معتبر، لما دلّت عليه الأدلة الشرعية كما سبق، ولم ينقل الفصل بين الإيمان بالربوبية والألوهية عن أحد من علماء الإسلام المعتبرين، والقول به يؤدي إلى أباطيل كثيرة، منها القول بإيمان الكفار بالربوبية مع أنّ الله وصفهم بأنهم مشركون وكفار، والذي أوقع أصحاب هذا القول في اللبس

والخطأ هو الإقرار الظاهري لبعض المشركين بأنّ الله هو الخالق في مثل قول الله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف:٨٧] ، ونظائرها من الآيات.

والسرّ الكامن وراء جواب الكفار في مثل هذه الآيات يبينه علماء الكلام والتفسير بأن هذا الإقرار من الكفار كإقرار الملجئ الذي لا يملك فراراً من السؤال لشدة ظهور الحقيقة، وليس تصديقاً حقيقياً منهم، فلا أحد يمكنه أن ينكر أن الله هو الخالق والرازق والربّ المدبّر مع ظهور دلائل ذلك وشواهده في الأنفس وفي الآفاق، ولذلك أنكر الله تعالى عليهم عدولهم عن هذه الحقيقة الواضحة باعتقاد شريك له، بل وصفهم الله تعالى بعد إقرارهم الظاهري هذا بالكذب وشدة الكفر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣] ، قال [البيضاوي في تفسيره ٤/ ٢١٦] : " ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضوح الدَّليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، بحيث اضطروا إلى إذعانه".

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبطل دعوى أن الكفار كانوا مؤمنين بالربوبية، بل يثبت خلاف ذلك، فهم كانوا مشركين بالرُّبوبيَّة لأنَّهم اعتقدوا مع الله أرباباً كثيرين، حيث حكى الله على لسان يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] ، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٨٠] ، وقال عزّ من قائل: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] .

وعليه؛ فإنّ تقسيم التوحيد في مقام التعليم والتفهيم وإيضاح المعاني لا محذور فيه، أما تقسيمه بطريقة تجعل المشركين مؤمنين بالربوبية، فهو أمر مخالف لما ثبت قطعاً في القرآن الكريم، وتزداد خطورته إذا كان أصلاً في تكفير بعض المسلمين بحجّة إنكارهم للربوبية من خلال مسائل فقهية

فرعية، كالتوسّل والاستغاثة والتبرّك بالصالحين، وغيرها من المسائل التي لا يخرج الخلاف فيها عن دائرة الفقه الإسلامي المنضبط الذي يجمع ولا يفرق. والله تعالى أعلم" .

الفَصْلُ السّابِعُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِ بعضهم بفناء النَّار

من البدع العقديَّة المنكرة التي ابتدعها ابن تيمية وسار عليها بعضُ من بعده ممَّن جعلوا السَّلف الصَّالح علَّاقة علَّقوا عليها ترّهاتهم ومنكراتهم : اعْتِقَادِهم بفناء النَّار ...

مع العلم أنَّ بقاء النَّار ودوام عذاب الكفرة فيها دائم ، وهم مخلَّدون فيها أبد الدَّهر ، قد دلَّت عليه عشرات الآيات القرآنيَّة الكريمة ، وكذا أحاديث الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقام عليه إجماع الأُمَّة

وممَّا يَدلُّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢] ، ومعنىٰ الآية : أنَّهم كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ فخرجوا ، أُعيدوا فيها . ومعنىٰ الخروج ما يروىٰ عن الحسن : أنَّ النَّار تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتىٰ إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ... انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ١٥٠) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ٦٨) ، الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٨) .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] .

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢/ ٢٠٧) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دَلِيلٌ عَلَىٰ خُلُودِ الْكُفَّارِ فِيهَا وَأَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا. وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، لِهَذِهِ الْآيَةِ " .

وقوله : تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء : ١٦٨-١٦٩] .

قال الإمام الألوسي في " روح المعاني" (٣/ ١٩٧) : " وقوله تعالىٰ : ﴿أَبَدًا﴾ نصب علىٰ الظَّرفيَّة رافع احتمال أن يراد بالخلود المكث الطَّويل وَكَانَ ذلِكَ ، أي : انتفاء غفرانه وهدايته سبحانه إيَّاهم

وطرحهم في النَّار إلى الأبد عَلَى الله يَسِيراً سهلاً لا صارف له عنه ، وهذا تحقير لأمرهم وبيان لأنَّه تعالى لا يعبأ بهم ولا يبالي " .

وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[المائدة : ٣٧] .

قال الإمام ابن عطيَّة في " المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز "(٢/٢١٨) " في تفسيرها : " ... وأخبر تعالى عن هؤلاء الكفَّار أنَّهم ليسوا بخارجين من النَّار بل عذابهم فيها مقيم متأبِّد " .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف : ٤٠] .

قال الإمام القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٧/ ٢٠٦) : " قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وَالْجَمَلُ لَا يَلِجُ فَلَا يَدْخُلُونَهَا الْبَتَّةَ. وَهَذَا دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ لَا يَجُوزُ الْعَفْوُ عَنْهُمْ. وَعَلَى هَذَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْخَطَأُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَغْفِرُ لَهُمْ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ " .

وقوله تعالى : ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[الإسراء : ٩٧] .

قال الإمام القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٠/ ٣٣٤) : " يُقَالُ: خَبَتِ النَّارُ تَخْبُو خَبْوًا ، أَيْ : طَفِئَتْ، وَأَخْبَيْتُهَا أَنَا. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي : نار تَتَلَهَّبُ. وَسُكُونُ الْتِهَابِهَا مِنْ غَيْرِ نُقْصَانٍ فِي آلَامِهِمْ وَلَا تَخْفِيفٍ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ. وَقِيلَ: إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَخْبُوَ " .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[الفرقان : ٦٥].

قال الإمام القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٣/ ٧٢) في تفسيرها : " أَيْ : لَازِماً دَائِماً غَيْرَ مُفَارِقٍ " .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن : ٢٣] . قال صاحب " روح البيان " (١٠/ ٢٠٠) في تفسيرها : " أي : في النَّار أو في جهنَّم ، والجمع باعتبار المعنى ﴿أَبَدًا﴾ بلا نهاية ، فهو دفع لأن يراد بالخلود المكث الطَّويل" .

وقوله تعالى : ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ: ٣٠] .

قال الإمام ابن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير" (٣٠/ ٤٢-٤٣) في تفسيرها : " ... وَالْمَعْنَى : فَسَنَزِيدُكُمْ عَذَاباً زِيَادَةً مُسْتَمِرَّةً فِي أَزْمِنَةِ الْمُسْتَقْبَلِ ، فَصِيغَ التَّعْبِيرُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِهَذَا التَّرْكِيبِ الدَّقِيقِ ، إِذِ ابْتُدِئَ بِنَفْيِ الزِّيَادَةِ بِحَرْفِ تَأْبِيدِ النَّفْيِ وَأُرْدِفَ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُقْتَضِي ثُبُوتَ نَقِيضِ حُكْمِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ لِلْمُسْتَثْنَى ، فَصَارَتْ دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى مَعْنَى : سَنَزِيدُكُمْ عَذَابًا مُؤَبَّداً . وَهَذَا مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ طَرِيفٌ مِنَ التَّأْكِيدِ إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِعَادَةُ لَفْظٍ ، فَإِنَّ زِيَادَةَ الْعَذَابِ تَأْكِيدٌ لِلْعَذَابِ الْحَاصِلِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ الْوَعِيدَ بِزِيَادَةِ الْعَذَابِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ جِيءَ فِي أُسْلُوبِ نَفْيِهِ بِحَرْفِ نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَهُوَ (لَنْ) الْمُفِيدُ تَأْكِيدَ النِّسْبَةِ الْمَنْفِيَّةِ وَهِيَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَجْمُوعُ النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ ، فَإِنَّ قَيْدَ تَأْبِيدِ نَفْيِ الزِّيَادَةِ الَّذِي يُفِيدُهُ حَرْفُ (لَنْ) فِي جَانِبِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ يَسْرِي إِلَى إِثْبَاتِ زِيَادَةِ الْعَذَابِ فِي جَانِبِ الْمُسْتَثْنَى ، فَيَكُونُ مَعْنَى جُمْلَةِ الِاسْتِثْنَاءِ : سَنَزِيدُكُمْ عَذَابًا أَبَداً ، وَهُوَ مَعْنَى الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ . وَفِي هَذَا الْأُسْلُوبِ ابْتِدَاءٌ مُطْمِعٌ بِانْتِهَاءٍ مُؤَيِّسٍ وَذَلِكَ أَشَدُّ حُزْناً وَغَمّاً بِمَا يُوهِمُهُمْ أَنَّ مَا أُلْقُوا فِيهِ هُوَ مُنْتَهَى التَّعْذِيبِ حَتَّى إِذَا وَلَجَ ذَلِكَ أَسْمَاعَهُمْ فَحَزِنُوا لَهُ ، أُتْبِعَ بِأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُهُمْ عَذَابٌ آخَرُ أَشَدُّ ، فَكَانَ ذَلِكَ حُزْناً فَوْقَ حَزْنٍ ، فَهَذَا مِنْوَالُ هَذَا النَّظْمِ وَهُوَ مُؤْذِنٌ بِشِدَّةِ الْغَضَبِ " .

وفي كتابه " فتح الباري" (١١/ ٤٢١) ذكر الإمام ابن حجر العديد من الأحاديث التي تدلُّ على خلود أهل النَّار في النَّار ، قال بعدها : " قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّ خُلُودَ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا لَا إِلَى غَايَةِ أَمَدٍ ، وَإِقَامَتَهُمْ فِيهَا عَلَى الدَّوَامِ بِلَا مَوْتٍ وَلَا حَيَاةٍ نَافِعَةٍ وَلَا رَاحَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦] ، وَقَالَ

تَعَالَىٰ : ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[الحج:٢٢] ، قَالَ : فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَأَنَّهَا تَبْقَىٰ خَالِيَةً أَوْ أَنَّهَا تَفْنَىٰ وَتَزُولُ فَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مُقْتَضَىٰ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ " .

وقال الإمام المناوي في " فيض القدير شرح الجامع الصَّغير" (٦/ ٢٤١) : "وهذا صريح في أنَّ الجنَّة أبديَّة لا تفنىٰ والنَّار مثلها ، وزعم جهم بن صفوان أنَّها فانيتان ، لأنَّها حادثتان ، ولم يتابعه أحد من الإسلاميِّين ، بل كفَّروه به ، وذهب بعضهم إلىٰ إفناء النَّار دون الجنَّة ، وأطال ابن القيِّم كشيخه ابن تيمية في الانتصار له في عدَّة كراريس ، وقد صار بذلك أقرب إلىٰ الكفر منه إلىٰ الإيمان لمخالفته نصَّ القرآن ، وختم بذلك كتابه الذي في وصف الجنان ، فكان من قبيل خبر : " إِنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، ثُمَّ يُدْرِكُهُ مَا سَبَقَ لَهُ فِي الْكِتَابِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار فَيَدْخُلُ النَّار" ، وقد سلف عن الزَّمخشري في ذلك ما فيه بلاغ فراجعه ، وقد قال السُّبكي في ابن تيمية : هو ضالٌّ مضل " .

ومن المعلوم أنَّ القول بفناء النَّار هو أحد المزالق الخطيرة التي وقع فيها ابن تيمية – غفر الله له– مع العلم أنَّ تلميذه ابن القيِّم انتصر له في هذه المسألة في كتابيه : "حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح " (ص٢٥٣ فما بعدها) ، مطبعة المدني، القاهرة ، "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتَّعليل "(ص٢٥٥٧ فما بعدها) ، تحقيق : محمَّد بدر الدِّين أبو فراس النَّعساني الحلبي ، دار الفكر ، بيروت ، (١٣٩٨هـ) ، (١٩٧٨م) .

وقد ذكر الدُّكتور سعيد فودة في تحقيقه لكتاب "رسالة في الرَّدِّ علىٰ ابن تيمية في مسألة حوادث لا أوَّل لها" للعلَّامة الأخميمي (ص٩٧) " أنَّ لابن تيمية تصنيفاً مستقلَّاً في هذه المسألة ، ذكره تلميذه ابن القيِّم والصَّفدي في : "الوافي بالوفيات" (٧/ ٢٦) ، وابن شاكر في "فوات الوفيات" (١/ ٧٨) ، وغيرهم . وأنَّ لهذا التَّصنيف نسخة مخطوطة تامَّة ضمن مجموع محفوظ في مكتبة تشتر بيتي تحت الرقم (٣٤٠٦) (٦) ...

ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ المتمسِّحون بالسَّلف قاموا ببتر وشطب جزء كبير جداً من كتاب " الصَّواعق المُرسلة في الرَّدِّ على الجهميَّة والمعطِّلة " لشيخهم محمَّد بن أبي بكر بن أيُّوب بن سعد شمس الدِّين ابن قيِّم الجوزيَّة ، لا سيَّما كلامه عن فناء النَّار ، لكن فضح فعلهم هذا تلميذه الموصلي الذي أثبت القول في " مختصر الصَّواعق" فيما يقارب خمسين صفحة ...

والحقّ أنَّ الآيات لتي دلَّت على خلود الكفرة في النَّار كثيرة ، وقد ذكر عدداً كثيراً منها الإمام السُّبكي في كتابه : "الاعتبار ببقاء الجنَّة والنَّار" والذي ردَّ فيه على ابن تيمية في زعمه بفناء النَّار .

وكذا ردَّ عليه الإمام الصَّنعاني في كتاب : "رفع الأستار لإبطال أدلَّة القائلين بفناء النَّار" وقد قام الشَّيخ الألباني –رحمه الله- بتحقيق هذا الكتاب ، وقال في مقدِّمته له : "فأخذت في البطاقات نظراً وتقليباً ، عمَّا قد يكون فيها من الكنوز بحثاً وتفتيشاً ، حتى وقعت عيني على رسالة للإمام الصَّنعاني تحت اسم "رفع الأستار لإبطال أدلَّة القائلين بفناء النَّار" في مجموع رقم الرِّسالة فيه (٢٦١٩) ، فطلبته ، فإذا فيه عدَّة رسائل ، هذه الثَّالثة منها ، فدرستها دراسة دقيقة واعية ، لأنَّ مؤلِّفها الإمام الصَّنعاني رحمه الله تعالى ردَّ فيها على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم ميلهما إلى القول بفناء النَّار ، بأسلوب علمي رصين دقيق ، من غير عصبيَّة مذهبيَّة ، ولا متابعة أشعريَّة !!! ولا معتزليَّة ، كما قال هو نفسه رحمه الله تعالى في آخرها . وقد كنت تعرَّضت لردِّ قولهما هذا منذ أكثر من عشرين سنة بإيجاز في : "سلسلة الأحاديث الضَّعيفة" في المجلَّد الثَّاني منه (ص٧١-٧٥) بمناسبة تخريجي فيه بعض الأحاديث المرفوعة ، والآثار الموقوفة التي احتجَّا ببعضها على ما ذهبا إليه من القول بفناء النَّار ، وبيَّنت هناك وهاءها ، وأنَّ لابن القيِّم قولاً آخر ، وهو أنَّ النَّار لا تفنى أبداً ، وأنَّ لابن تيمية قاعدة في الرَّدِّ على من قال بفناء الجنَّة والنَّار .

وكنت توهَّمت يومئذ أنَّه يلتقي فيه مع ابن القيِّم في قوله الآخر ، فإذا بالمؤلِّف الصَّنعاني يبيِّن بما نقله عن ابن القيِّم ، أنَّ الرَّد المُشار إليه ، إنَّما يعني الرَّدّ على من قال بفناء الجنَّة فقط من الجهميَّة دون من قال بفناء النَّار ، وأنَّه هو نفسه – أعني ابن تيمية- يقول بفنائها ، وليس هذا فقط وأنَّ أهلها يدخلون بعد ذلك جنَّات تجري من تحتها الأنهار .

وذلك واضح كلّ الوضوح في الفصول الثَّلاثة التي عقدها ابن القيِّم لهذه المسألة الخطيرة في كتابه "حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح" (٢/ ١٦٧-٢٢٨)، وقد حشد فيها من خيل الأدلَّة ورجِلها، وكثيرها وقليلها، ودقّها وجلّها، وأجرىٰ فيها قلمه، ونشر فيها عمله، وأتىٰ بكلِّ ما قدر عليه من قال وقيل، واستنفر كلَّ قبيل وجيل، كما قال المؤلِّف رحمه الله، ولكنَّه أضفىٰ بهذا الوصف علىٰ ابن تيمية وابن القيِّم أولىٰ به وأحرىٰ، لأنَّنا من طريقه عرفنا رأي ابن تيمية في هذه المسألة، وبعض أقواله فيها، وأمَّا حشد الأدلَّة المزعومة وتكثيرها، فهي من ابن القيِّم وصياغته، وإنَّ كان ذلك لا ينفي عنه أنَّه تلقَّىٰ ذلك كلّه أو جلّه من شيخه في بعض مجالسه".

ثم إنَّ الألباني قال في (ص٢٥): "فكيف يقول ابن تيمية: ولو قدِّر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتَّة!! فكأنَّ الرحَّمة عنده لا تتحقَّق إلَّا بشمولها للكفَّار المعاندين الطَّاعنين!! أليس هذا من أكبر الأدلَّة علىٰ خطأ ابن تيمية وبُعده هو ومن تبعه عن الصَّواب في هذه المسألة الخطيرة". انظر: موسوعة الإمام محمد ناصر الدين الألباني «موسوعة تحتوي علىٰ أكثر من (٥٠) عملاً ودراسة حول العلامة الألباني وتراثه الخالد، الألباني، (٩/ ٤٣٩-٤٤٠)، صَنَعَهُ: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، نشر: مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء، اليمن، الطبعة: الأولىٰ، (١٤٣١هـ، ٢٠١٠م).

ومن العجيب أنَّنا رأينا في هذه الأيام كتاباً لرجل معاصر مقلِّد لابن تيمية وهو يردُّ فيه علىٰ الألباني في تعدِّيه بزعمه علىٰ ابن القيِّم وابن تيمية سمَّاه "القول المختار لبيان فناء النَّار" واسم مؤلِّفه: عبد الكريم صالح الحميد، طبع مطبعة السَّفير، الرِّياض، (١٤١٢هـ)، وخلاصة ما تضمَّنه الكتاب المُشار إليه في النِّقاط التَّالية:

(١) اتَّهم الكاتب الألبانيَّ – صاحب الحقّ في هذه المسألة – بأنَّه تكلَّم بحقِّ ابن القيِّم وابن تيمية بما لا يصلح، وأنَّه سقط بما سقط به أهل البدع والأهواء من الغلو في التَّأويل، وأنَّ ابن القيِّم قد انتصر لشيخه في ذلك.

(٢) كما اتَّهم الكاتب الشَّيخ الألبانيَّ بأنَّه يعيب علىٰ ابن تيمية حشده لكلِّ ما يتوهَّمه من الأدلَّة، وأنَّه يتكلَّف في الرَّدِّ علىٰ الأدلَّة المخالفة له تكلُّفاً ظاهراً.

(٣) كما اتَّهم الكاتب الشَّيخ الألبانيَّ بأَنه بلغ الأمر بابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم إلى تحكيم العقل فيما لا مجال فيه ، كما يفعل المعتزلة تماماً ، حتى زعم أنَّ تأويل المعتزلة والأشاعرة لآيات وأحاديث الصِّفات كاستواء الله على عرشه ، ونزوله إلى السَّماء ، ومجيئه يوم القيامة ، وغير ذلك من التَّأويل أيسر من تأويل ابن القيِّم للنُّصوص من أجل القول بفناء النَّار .

(٤) وأخيراً ، أوضح الكاتب بأنَّ الباعث له على الكتابة هو الدِّفاع عن ابن تيمية وابن القيِّم ، وبيان أنَّ الحق معهما في قولهما بفناء النَّار ... " . انظر : مجموع رسائل السقاف (ص١٨-٢٠ باختصار) .

والنَّاظر في مجموع الأدلَّة التي استدلُّوا بها على ما ذهبوا إليه من القول بفناء النَّار ، يرى أنَّها انطوت على سفسطة من الكلام ، ولعلَّ أبرز دليل استدلُّوا به هو قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود: ١٠٦ - ١٠٧] .

وقال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص٩٢٠) : " أجمع أهل السُّنَّة على أنَّ أهل النَّار مخلَّدون فيها غير خارجين منها: كإبليس، وفرعون، وهامان، وقارون، وكلُّ من كفر وتكبَّر وطغى، فإنَّ له جهنَّم لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد وعدهم الله عذاباً أليماً، فقال عزَّ وجلَّ : الْعَذابَ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:٥٦] .

وأجمع أهل السُّنَّة أيضاً على أنَّه لا يبقى فيها مؤمن ولا يخلَّد إلَّا كافر جاحد، فاعلم.

قلت: وقد زلَّ هنا بعض من ينتمي إلى العلم والعلماء ، فقال: إنَّه يخرج من النَّار كلّ كافر ومبطل وجاحد ويدخل الجنَّة، فإنَّه جائز في العقل أن تنقطع صفة الغضب فيعكس عليه فيقال: وكذلك جائز في العقل أن تنقطع صفة الرَّحمة فيلزم عليه أن يدخل الأنبياء والأولياء النَّار يعذَّبون فيها،

وهذا فاسد مردود بوعده الحقّ وقوله الصِّدق، قال الله تعالىٰ في حقِّ أهل الجنان: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[هود:١٠٨] ، أي: غير مقطوع، وقال : ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨] ، وقال: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾[فصلت:٨] ، وقال: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾[التوبة:٢١-٢٢] ، وقال في حقِّ الكافرين : ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[الأعراف:٤٠] ، وقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾[الجاثية:٣٥] ، وهذا واضح، وبالجملة فلا مدخل للمعقول فيما اقتطع أصله الإجماع والرَّسول ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور:٤٠] .

وفي كتابه "البراهين السَّاطعة" (ص٢٨٣ فما بعدها) تكفَّل الإمام العزّامي بالرَّدِّ علىٰ أدلَّتهم ، فقال : "فإن قلت : فما معنىٰ قوله تعالىٰ في سورة الأنعام في خطاب الكفَّار يوم القيامة : ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[الأنعام: ١٢٨] .

قلت : معنىٰ هذا الاستثناء في الكلام العزيز : المبالغة في أنَّ خلودهم أبدي في دار العذاب ، لا مخلِّص لهم منه البتَّة إلَّا أن يشاء الله خلاصهم منه ، وهو ممَّا لا يشاؤه ، كما قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[النساء: ١١٦] ، وكما قال : ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾[النساء: ١٣٧] ، وكما قال:﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾[المائدة: ٣٧] ، ولكنه أخرجه مخرج الاستثناء وعلىٰ صورة الإطماع لهم تهكُّماً بهم ، وتشديداً للأمر عليهم ببيان أنَّ ذلك الخلاص الذي يطلبونه ليس مربوطاً إلَّا بمشيئته وحده ، وهو لا يشاؤه ، وفيه من الفوائد غير ما ذكر ، أنَّ الأمور كلّها مربوطة بمشيئته ، لا يجب عليه منها شيء ، فلو شاء ألَّا يخلّدهم في دار العذاب خلوداً أبديّاً لفعل ، ولكنَّه لا يشاء ذلك كما أخبر عن نفسه .

وإلىٰ هذه الفائدة أشار الحبر ابن عبَّاس فيما روىٰ علي بن أبي طلحة عنه أنَّه قال في قوله : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[الأنعام : ١٢٨] : " إنَّ هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم علىٰ الله في خلقه ألَّا ينزلهم جنَّة ولا ناراً " ومعناه : أنَّه لا يجب عليه إدخال المؤمنين الجنَّة ولا إدخال الكافرين النَّار ، بل ذلك راجع إلىٰ محض مشيئته ، فما شاء كان ، ولم يرد رضي الله عنه أنَّا لا نحكم علىٰ الكافرين بتأبيد عذابهم في دار العقاب وتخليد المؤمنين إلىٰ غير النِّهاية في دار النَّعيم ، فإنَّ هذا الحكم علىٰ الفريقين ليس حكماً

منًّا على الله ، وإنَّما هو حكم منا بما أخبر الله به عن نفسه أنَّه فاعله لا محالة . فهكذا ينبغي أن تفهم كلام الحبر ، وإيَّاك وما قال الجاهلون فيه .

وكذلك القول في قوله تعالى في سورة هود في خلود الأشقياء في النَّار أبداً والسُّعداء في الجنَّة أبداً : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾[هود: ١٠٧] : المقصود منه تأكيد الدَّوام والأبديَّة ببيان أنه لا يقطع تلك الأبديَّة للفريقين وداريهما إلَّا مشيئته وحده وقد أعلمهم في غير ما آية من كتابه أنَّه لا يشاء قطع تلك الأبديَّة ، كما قال في الجنَّة وأهلها ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾:[الرعد: ٣٥] ، وكما قال في أصحاب النَّار وفي عذابها : ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾[الزخرف : ٧٤-٧٥] ، أي : يائسون من الفرج أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك ، فمعنى الكلام : أنَّ أهل الشَّقاء من الكفَّار خالدون في النَّار أبداً إلَّا الوقت الذي يشاء الله خلاف ذلك فيه ، وأنَّ هذا الوقت الذي تقع فيه تلك المشيئة غير كائن البتَّة ، وأنَّ أهل الجنَّة خالدون فيها أبداً إلَّا الزَّمان الذي يشاء الله فيه قطع تلك الأبديَّة ، وأنَّ هذا الزَّمان الذي تحصل فيه تلك المشيئة لا يوجد قطعاً . ومن فوائد الاستثناء في الآيتين : الإعلام بأنَّ الأمر في الثَّواب والعقاب ودوامهما مربوط بمحض مشيئته لا لوجوب عليه سبحانه ولا تحتم ، فإنَّ العظمة الإلهيَّة أرفع من ذلك وأعلى . ولمَّا كان ممَّا يستبعده الجاهلون تأبيد العذاب والمعذَّبين ، ولا سيَّما إذا كانت دار العذاب هي النَّار ، وقد أخبرهم أنه فاعل ذلك لا محالة بمشيئته ، دفع ذلك الاستبعاد بخاتمة الآية الأولى ، وهي قوله سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود :١٠٧] . مهما كان المراد بعيداً في أنظار القاصرين عن معرفة سعة القدرة الربَّانيَّة وعظم نفوذ الإرادة الإلهيَّة ، فليس شيء على ذلك الجناب ببعيد ، وزاد عزَّ وجلَّ أهل الجنَّة طمأنينة على أنَّ مشيئة انقطاع نعيمهم غير واقعة منه سبحانه في وقت من الأوقات ، فقال وله الحمد : ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود : ١٠٨] ، يعني : غير مقطوع .

قال المولى أبو السُّعود في تفسير قوله : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾[هود : ١٠٧] في الآية الأولى : "يعني أنَّهم مستقرُّون في النَّار في جميع الأزمنة إلَّا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها ، وإذ لا إمكان

لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النُّصوص القاطعة الموجبة للخلود ، فلا إمكان لانتهاء مدَّة قرارهم فيها ، ولدفع ما عسىٰ أن يتوهَّم من كون استحالة تعلُّق مشيئة الله تعالىٰ بعدم الخلود بطريق الوجوب علىٰ الله تعالىٰ قال : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾[هود : ١٠٧] ، يعني أنَّه في تخليد الأشقياء في النَّار بحيث يستحيل وقوع خلافه ، فعال بموجب إرادته ، قاض بمقتضىٰ مشيئته الجارية علىٰ سنن حكمته الدَّاعية إلىٰ ترتيب الأجزية علىٰ أفعال العباد " أهـ .

ومن أهل العلم من جعل الاستثناء من الخلود في عذاب النَّار ونعيم الجنَّة ، وذلك بأنَّ أهل النَّار لا يخلَّدون في عذاب النَّار وحده ، بل يعذَّبون بالزَّمهرير ، وبأنواع من العذاب سوىٰ عذاب النَّار ، وبما هو أغلظ منها كلّها ، وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم بقوله سبحانه لهم : ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون : ١٠٨] ، وإهانته إيَّاهم ، وكذلك أهل الجنَّة لهم سوىٰ الجنَّة ما هو أكبر منها وأجلّ موقعاً منهم ، وهو رضوان الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة : ٧٢] ، وكشف الحجاب عنهم ، وإباحتهم النَّظر إلىٰ ذاته العليَّة ، كما قال تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢ – ٢٣] ، وكما قال النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ " . أخرجه مسلم (١/ ١٦٣ برقم ١٨١) .

ومعنىٰ قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود :١٠٧] : أنَّه يفعل بأهل النَّار ما يريد من أنواع العذاب ، وعذاب النَّار وسواه لا مانع لما أراده ، وعلىٰ هذا الوجه الثَّاني اقتصر الزَّمخشري ، وعلىٰ هذين الوجهين في تفسير الآيتين الكريمتين .

فالمراد من ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾[هود: ١٠٦] : مَنْ مات كافراً ، ومن ﴿ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾[هود:١٠٨] : مَنْ مات مؤمناً ، وإن كان فاسقاً ، فإنَّ الأوَّلين في النَّار خالدون في دار عقابهم أبداً ودارهم باقية أبداً ، والآخرون مشتركون في الحكم بخلودهم في الجنَّة أبداً ، وإن اختلفوا في ابتداء الدُّخول كما تدلُّ عليه صحاح الأحاديث" .

وأخيراً أرىٰ أنَّ من المناسب ذكر رسالة الإمام الحافظ أبي الحسن تقي الدِّين علي بن عبد الكـــافي السُّبكـــي " الاعتبار ببقاء الجنَّة والنَّار " التي ردَّ بها علىٰ ابن تيمية في نفيه الخلود في النَّار تبعاً لجهم بن صفوان ، وتبعه في ذلك تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة ، فقد كفىٰ ووفىٰ وشفىٰ ...

قال الإمام تقي الدِّين السُّبكي : بسم الله الرَّحمن الرَّحيم :

الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّىٰ الله علىٰ سِّيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم. وبعد فإنَّ اعتقاد المسلمين أنَّ الجنَّة والنَّار لا تفنيان ، وقد نقل أبو محمَّد بن حزم الإجماع علىٰ ذلك ، وأنَّ من خالفه كافر بإجماع، ولا شكَّ في ذلك ، فإنَّه معلوم من الدِّين بالضَّرورة ، وتواردت الأدلَّة عليه، قال الله تعالىٰ : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١] ، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢] ، ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧] ، ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢٥٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾[آل عمران:٨٨-٨٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[ال عمران :١١٦] ، وقال تعالىٰ :

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾[النساء:١٤] ، وقال تعالىٰ :﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾[النساء :٩٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾[الأنعام:١٢٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا

خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾[التوبة:٦٣] ، وقال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [التوبة:٦٨] ، وقال تعالى : ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[يونس:٢٧] ، وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾[هود:١٠٦-١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الرعد:٥] ، وقال تعالى : ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[النحل:٢٩] ، وقال تعالى : ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[السجدة:١٤] ، وقال تعالى : ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾[الفرقان:٦٩] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾[الأحزاب:٦٤-٦٥] ، وقال تعالى : ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[الزمر:٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾[فصلت:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾[محمد:١٥] ، وقال تعالى : ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المجادلة:١٧] ، وقال تعالى : ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾[الحشر:١٧] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[التغابن:١٠] ، وقال تعالى : ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ

نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[البينة:٦] .

فهذه أربع وثلاثون ءاية فيها لفظ الخلود وما اشتقّ منه أربع مع التَّأبيد، والآيات التي فيها معناه كثيرة أيضاً. كقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[البقرة:٨٦]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[البقرة:١٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾[النساء:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[النساء:١٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[المائدة:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾[هود:٨]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[هود:١١]، وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[إبراهيم٢١]، وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[إبراهيم:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون:١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾[العنكبوت:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الجاثية:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[الحج:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[السجدة:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[الإسراء:٩٧]، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الجاثية:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[غافر:٤٩-٥٠]،

وقوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾[الشورى:٤٥] ، وقوله تعالى : ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[الحاقة:٣٥-٣٦] ، وقال تعالى : ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[الأعلى:١٣] ، وقال تعالى : ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾[البلد:٢٠] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾[الانفطار:١٦] .

وغيرها من الآيات كثير في هذا المعنى جدّاً ، وذلك يمنع من احتمال التّأويل ويوجب القطع بذلك، كما أنَّ الآيات الدالَّة على البعث الجسماني لكثرتها يمتنع تأويلها، وَمَنْ أوَّلها حكمنا بكفره بمقتضى العلم جملة. وكذلك الأحاديث متظاهرة جدّاً على ذلك، كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَءالِهِ وَسَلَّم " : " مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا " أخرجه البخاري (٧/ ١٣٩ برقم ٥٧٧٨) ، مسلم (١/ ١٠٣ برقم ١٠٩) ، واللفظ له .

متَّفق عليه من حديث أبي سعيد، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَءالِهِ وَسَلَّم : " أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ " صحيح من حديث أبي سعيد . أخرجه مسلم (١/ ١٧٢ برقم ١٨٥) .

وقوله عليه السَّلام : " إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ " . أخرجه البخاري (٨/ ١١٣ برقم ٦٥٤٨) .

وفي رواية صحيحة : " فخلود فلا موت وفي الجنَّة مثل ذلك" .

وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[البقرة:٨٢] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٥] ، وقال تعالى : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس:٦٢] ، وقال تعالى : ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ

جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾[آل عمران:١٩٨] ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[النساء:١٣] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾[النساء:١٢٢] ، وقال تعالى : ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[المائدة:٨٥] ، وقال تعالى : ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾[المائدة:١١٩] ، وقال تعالى : ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة:٨٩] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[هود:٢٣] ، وقال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[يونس:٢٦] ، وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[هود:١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾[الرعد:٣٥] ، وقال تعالى : ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾[إبراهيم:٢٣] ، وقال تعالى : ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨] ، وقال تعالى : ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾[الكهف:٢-٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[طه:٧٦] ، وقال تعالى : ﴿وَهُمۡ فِي مَا

ﭐشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١١] ، وقال تعالى : ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ [الفرقان:١٥] ، وقال تعالى : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾[الفرقان:٧٦] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [العنكبوت:٥٨] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾[لقمان:٨-٩] ، وقال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصلت:٨] ، وقال تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأحقاف:١٣-١٤] ، وقال تعالى : ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الفتح:٥] ، وقال تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾[الإنسان:١٩] ، وقال تعالى : ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد:١٢] ، وقال تعالى : ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[المجادلة:٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾[ق:٣٤] ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التغابن:٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾[الطلاق:١١] ، وقال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[البينة:٧-٨] .

فهذه الآيات التي استحضرناها في بقاء الجنَّة والنَّار ، وبدأنا بالنَّار لأنَّا وقفنا على تصنيف لبعض أهل العصر في فنائها ، وقد ذكرنا نحو مائة ءاية منها نحو من ستِّين في النَّار ونحو من أربعين في الجنَّة ، وقد ذكر الخلد أو ما اشتقَّ منه في أربع وثلاثين في النَّار وثمان وثلاثين في الجنَّة ، وذكر التَّصريح بعدم الخروج أو معناه في أكثر من ثلاثين، وتضافر هذه الآيات ونظائرها يفيد القطع بإرادة حقيقتها ومعناها ، وأنَّ ذلك ليس ممَّا استعمل فيه الظَّاهر في غير المراد به ، ولذلك أجمع المسلمون على اعتقاد ذلك ، وتلقَّوه خلفاً عن سلف عن نبيِّهم النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو مركوز في فِطرة المسلمين ، معلوم من الدِّين بالضّرور ،ة بل وسائر الملل غير المسلمين يعتقدون ذلك ، ومن ردَّ ذلك فهو كافر ، ومن تأوَّله فهو كمن تأوَّل الآيات الواردة في البعث الجسماني ، وهو كافر أيضاً بمقتضى العلم ، وإن كنت لا أُطلق لساني بذلك .

وقد وقفت على التَّصنيف المذكور ، وذكر فيه ثلاثة أقوال في فناء الجنَّة والنَّار:

أَحَدُهَا : أنَّها تفنيان ، وقال : إنَّه لم يقل به أحد من السَّلف .

وَالثَّانِي : أنَّها لا تفنيان .

وَالثَّالِثُ : أنَّ الجنَّة تبقى والنَّار تفنى ومال إلى هذا واختاره، وقال: إنَّه قول السَّلف، ومعاذ الله وأنا أبرىء السَّلف عن ذلك ، ولا اعتقد أنَّ أحداً منهم قاله ، وإنَّما روي عن بعضهم كلمات تتأوَّل كما تتأوَّل المشكلات التي ترد ، وتحمل على غير ظاهرها ، فكما أنَّ الآيات والأحاديث يقع فيها ما يجب تأويله كذلك كلام العلماء يقع فيه ما يجب تأويله ، ومن جاء إلى كلمات ترد عن السَّلف في ترغيب أو ترهيب أو غير ذلك فأخذ بظاهرها وأثبتها أقوالاً ضلَّ وأضلّ ، وليس ذلك من دأب العلماء ، ودأب العلماء التَّنقير عن معنى الكلام ، والمراد به ، وما انتهى إلينا عن قائله ، فإذا تحقَّقنا أنَّ ذلك مذهبه واعتقاده نسبناه إليه ، وأمَّا بدون ذلك فلا ، ولا سيَّما في مثل هذه العقائد التي المسلمون مطبقون فيها على شيء كيف يعمد إلى خلاف ما هم عليه ينسبه إلى جلَّة المسلمين وقدوة المؤمنين ، ويجعلها مسألة خلاف كمسألة في باب الوضوء !!! ما أبعد من صنع هذا عن العلم والهدى ، وهذه بدعة من أنحس البدع وأقبحها ، أضلَّ الله من قالها على علم.

فإن قلت: قد قال الله تعالىٰ :﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾[النبأ:٢٣] ، قلت: هو جمع منكر يصدق علىٰ القليل والكثير وعلىٰ ما لا نهاية له، فإن قلت : هو جمع قلّة لأنَّ أفعالاً من جموع القلَّة، قلت: قد تجمع القلَّة بجمع الكثرة ، وأيضاً فالحقب الزَّمان ، والزَّمان يصدق علىٰ القليل والكثير ، فإذا كان المفرد كذلك فما ظنُّك بالجمع، فإن قلت: قد قيل إنَّ الحقب ثمانون سنة ، السَّنة ثلثمائة وستُّون يوماً ، اليوم كألف سنة ممَّا تعدُّون اليوم منها كالدُّنيا كلّها. قلت: إذا صحَّ ذلك فغاية الأخبار بأنَّهم لابثون فيها ذلك ، ولا يدلُّ علىٰ نفي الزِّيادة إلَّا بالمفهوم ، والمنطوق يدلُّ علىٰ التَّأبيد ، والمنطوق مقدَّم علىٰ المفهوم، هذا إن جعلنا أحقاباً ءاخر الكلام ، وقد جعله الزَّجَّاج وغيره موصوفاً بقوله : ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾[النبأ:٢٤] ، وعلىٰ هذا لا يبقىٰ فيه متعلَّق البتَّة.

فإن قلت: قد روي عن الحسن الأحقاب لا يدري أحد ما هي ، ولكن الحقب سبعون ألف سنة اليوم منها كألف سنة ممَّا تعدُّون. قلت: إن ثبت ذلك عنه يرجع الجواب إلىٰ بعض ما تقدَّم من الصِّفة أو إلغاء المفهوم أو أنَّ الذي لا يتناهىٰ ، يقال : إنَّه لا يدري أحد ما هو ، وإن كان يدري أنَّه لا يتناهىٰ ، فإنَّ دراية عدم العدد يلزم منها عدم دراية العدد، فإن قلت: قد قال هذا المصنِّف : إنَّ قول الحسن لا يدري ما هي يقتضي أنَّ لها عدداً والله أعلم به ، ولو كانت لا عدد لها لعلم كلُّ أحد أنَّه لا عدد لها، قلت: إنَّ قوله لا يدري ما هي يقتضي أنَّ لها عدداً ليس بصحيح ، لأنَّه لم يقل : لا يدري عددها ، بل قال : لا يدري ما هي ، وما هي أعمّ المطالب ، فيدخل فيه المتناهي وغير المتناهي ، وقوله : ولو كانت لا عدد لها لعلم كلُّ أحد بذلك ، فقد يعلمه بعض النَّاس دون بعض، والحاصل أنَّ الأحقاب قيل محدودة ، وهو قول الزَّجَّاج القائل بأنَّ ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ صفة"، وقيل غير محدودة ، وقيل الآية منسوخة بقوله تعالىٰ : ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠] ، ولا يُستبعد النَّسخ في الأخبار ولا سيَّما مثل هذا ، فإنَّ هذا ممَّا يقبل التَّغيير ، وهو أمر مستقبل ، والأكثرون علىٰ أنَّها غير محدودة ، وأنَّ المراد : كلَّما مضىٰ حقب جاء حقب.

فإن قلت: فما تقول فيما روي عن الحسن البصري أنَّه سئل عن هذه الآية فقال: الله أعلم بالأحقاب فليس فيها عدد إلَّا الخلود؟ قلت: قول صحيح لا يخالف لما تقدَّم ، وتصريحه بالخلود بين مراده.

فإن قلت: فقد قال هذا المصنِّف : إنَّ قول الحسن حقٌّ ، فإنَّهم خالدون فيه ،ا لا يخرجون منها ما دامت باقية. قلت: قوله : إنَّ قول الحسن حقٌّ صحيح، وأمَّا فهمه إيَّاه وتفسيره الخلود بعدم الخروج منها ما دامت باقية فليس بصحيح، وليس ذلك بخلود ، فإنَّك إذا قلت : فلان خالد في هذه الدَّار الفانية لا يصحُّ ، وحقيقة الخلود التَّأبيد ، وقد يستعمل في المكث الطَّويل مجازاً ، وأمَّا استعماله في الخلود في مكان إلى حين فنائه ، فهذا معنى ثالث لم يسمع من العرب .

فإن قلت: ما تقول في قول من قال : إنَّ الآية في عصاة المؤمنين . قلت: ضعيف لقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾[النبأ:٢٧-٢٨] ، اللهمَّ إلَّا أن نجعلها عامَّة ، ويكون التَّعليل ليس للجميع بل لبعضهم ، وقد يجيء في الكلام الفصيح مثل ذلك أو يراد بالطَّاغي الكفَّار ، فإنَّها مرصاد لهم ، والعصاة فيها تبع لهم ، فجاء قوله : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[النبأ:٢٣] ، للتَّابعين والمتبوعين جميعاً ، ثمَّ جاء التَّعليل للمتبوعين لأنَّهم الأصل.

فإن قلت: قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾[الأنعام:١٢٨] ، وأولياؤهم هم الكفَّار لقوله : ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١] ، وقوله في سورة هود في أهل الجنَّة وأهل النَّار: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾[هود:١٠٧] ، على ماذا يحمل إذا كانتا باقيتين؟

قلت: قد تكلَّم النَّاس في ذلك وأكثروا ، وذكر أبو عمرو الدَّاني في تصنيف له في ذلك سبعة وعشرين قولاً ، ليس فيها أنَّ الكفَّار يخرجون من النَّار ، وإنَّما أقوال أخر ، منها : أنَّه استثناء المدَّة التي قبل دخولهم أو الأزمنة التي يكون أهل النَّار فيها في الزَّمهرير ونحوه ، وأهل الجنَّة فيها هو أعلى منها من رضوان الله وما لا يعلمه إلَّا هو ، أو أنَّه استثناء معلَّق بالمشيئة ، وهو لا يشاء

خروجهم ، فهو أبلغ في التَّأبيد ، أو أنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنىٰ الواو ، كقوله : إلَّا الفرقدان ، أو أنَّها بمعنىٰ سوىٰ ، حكاه الكوفيُّون ، كقوله : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء:٢٢] ، وقوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢] ، أو أنَّ الاستثناء لما بعد السَّموات والأرض ، كقوله : لا تكسل حولاً إلَّا ما شئت ، معناه : الزِّيادة علىٰ الحول أو أنَّه لعصاة المؤمنين ، والذي يدلُّ علىٰ التَّأبيد قوله في الجنَّة : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٨] ، فلو لم يكن مؤبَّداً لكان مقطوعاً ، فيتعيَّن الجمع بين أَوَّل الآية وآخرها ، فبقي يقيناً الاستثناء علىٰ ظاهر هذا المجاز في قوله :﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ، وليس التَّجوُّز فيه بأولىٰ من التَّجوُّز في الاستثناء ، ويرجِّح التَّجوُّز في الاستثناء الأدلَّة علىٰ التَّخليد وقوله في النَّار : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[هود:١٠٧] ، يناسب الوعيد والزِّيادة في العذاب ولا يناسب الانقطاع.

واعلم أنَّ ﴿مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ظاهره استثناء مدَّة زمانيَّة من قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[هود:١٠٧] ، ويحتمل أن يراد بها ظرف مكان ويكون الاستثناء من الضَّمير في ﴿فِيهَا﴾ ، ويراد به الطَّبقة العليا التي هي لعصاة المؤمنين ، فكأنَّه قال : إلا ما شاء ربك من أمكنة جهنَّم .

فإن قلت : قد قال أبو نضرة: القرءان كلُّه ينتهي إلىٰ هذه الآية : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[هود:١٠٧] ، قلت: هذا كلام صحيح ، والله يفعل ما يريد ، وليس في ذلك أنَّه يخرج الكفَّار من النَّار .

فإن قلت: قد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وقتادة : الله أعلم بتثنيته علىٰ ما وقعت. قلت: صحيح ، لأنَّ تعيين كلّ واحد من الأقوال التي حكيناها ضعيف ، والله أعلم به وبغيره ، وليس في كلام أبي سعيد وقتادة ما يحتمل خروج الكفَّار من النَّار.

فإن قلت: قد روىٰ الطَّبراني عن يونس عن ابن أبي ذئب عن ابن زيد في قوله : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، قال : أخبرنا الذي شاء لأهل الجنَّة فقال : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولم يخبرنا بالذي شاء لأهل النَّار.

قلت: هذا الذي يقتضي أن ابن زيد يقول بعدم الانقطاع لأنَّه جعل﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ هو الذي

شاءه وهو الذي بعد الاستثناء ، فكذا يكون في أهل النَّار أنَّ الاستثناء لا يدلُّ على الانقطاع ، ولكنَّه لم يبيِّن ما بعده بل قال تعالى :﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود:١٠٧] .

فان قلت: فقد قال السدِّي : إنَّها يوم نزلت كانوا يطمعون في الخروج. قلت: إن صَّح هذا عن السدِّي أنَّها يوم نزلت كانوا يطمعون في الخروج ، فهو محمول على أنَّه حملها على العصاة ، لأنَّ الطَّامعين هم المسلمون.

فإن قلت: قد روى عبد بن حميد في تفسيره عن سليمان بن حرب نا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن قال عمر رضي الله عنه : لو لبث أهل النَّار في النَّار بقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون. قلت: الحسن لم يسمع من عمر ، وقد رأيت هذا الأثر في تفسير عبد في موضعين ، في أحدهما : يخرجون ، وفي الآخر يرجون لا تصريح فيه ، فقد يحصل لهم رجاء ثمَّ ييأسون ويخرجون يحتمل أن يكون من النَّار إلى الزَّمهرير ، ويحتمل أن يكون ذلك في عصاة المؤمنين ، فلم يجيء في شيء من الآثار أنَّه في الكفَّار.

فإن قلت: قد قال: هذا المصنِّف : إنَّه يحتجُّ على فناء النَّار بالكتاب والسُّنَّة وأقوال الصَّحابة ، وأنَّ القائلين ببقائها ليس معهم كتاب ولا سُنَّة ولا أقوال الصَّحابة رضي الله عنهم. قلت: هذا الكتاب والسُّنَّة بين أظهرنا بحمد الله ، وهما دالَّان على بقائها.

فإن قلت: قد قال في (مسند أحمد) حديث ذكر فيه أنَّه ينبت فيها الجرجير، قلت : ليس في "مسند أحمد" ، ولكنَّه في غيره ، وهو ضعيف ، ولو صحَّ حمل على طبقة العصاة.

فإن قلت: قال حرب الكرماني: سألت إسحق عن قول الله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ، فقال: أتت هذه الآية على كلِّ وعيد في القرءان، وعن أبي نضرة عن بعض أصحاب النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: هذه الآية تأتي على القرءان كلِّ ،ه حيث كان في القرءان ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تأتي عليه. قلت: إن صحَّت هذه الآثار حُملت على العصاة ، لأن القرءان لم يرد فيه خروج العصاة من النَّار صريحاً ، إنَّما ورد في السُّنَّة بالشَّفاعة فالمراد بهذه الآثار موافقة القرءان للسُّنَّة في ذلك ، فإنَّ السَّلف كانوا

شديدي الخوف ، ولم يجدوا في القرءان خروج الموحِّدين من النَّار ، وكانوا يخافون الخلود كما تقوله المعتزلة.

فإن قلت: قال ابن مسعود رضي الله عنه : ليأتينَّ على جهنَّم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً. قلت: إن صحَّ هذا عن ابن مسعود حمل على طبقة العصاة ، وقوله : ﴿أَحْقَابًا﴾ يحمل على أحقاب غير الأحقاب المذكورة في القرءان حتَّى يصحّ الحمل على العصاة.

فإن قلت: قال الشَّعبي: جهنَّم أسرع الدَّارين عمرانا وأسرعها خراباً. قلت: أنا أعيذ الشَّعبي من ذلك ، فإنَّه يقتضي خراب الجنَّة.

فإن قلت: قد اعترض هذا المصنِّف على الإجماع ، لأنَّه غير معلوم ، فإنَّ هذه المسائل لا يقطع فيها بإجماع ، نعم قد يظنّ فيها الإجماع قبل أن يعرف النِّزاع ، وقد عرف النِّزاع قديماً وحديثاً بل إلى السَّاعة. قلت: الإجماع لا يعترض عليه بأنَّه غير معلوم بل يعترض بنقل خلاف صريح ، ولم ينقله وإنَّما هو من تصرُّفه وفهمه ، وقوله : "إنَّ هذه المسائل لا يقطع فيها بإجماع " ، دعوى مجرَّدة.

فإن قلت : قد قال : لم أعلم أحداً من الصَّحابة رضي الله عنهم قال : لا تفنى ، وإنَّما المنقول عنهم ضدّ ذلك ، لكن التَّابعون نقل عنهم هذا وهذا. قلت: هو مطالب بالنَّقل عن الصَّحابة رضي الله عنهم والتَّابعين ، ولن يجده ، وغايته كما قلت لك أن يأخذه من كلمات وردت فَهِمَ منها ذلك، ويجب تأويلها تحسيناً للظَّنِّ بهم.

فإن قلت: قد قال إنَّه ليس في القرءان ما يدلُّ على أنَّها لا تفن ،ى بل الذي يدلُّ عليه ظاهر القرءان أنَّهم خالدون فيها أبدً ،ا وأنَّه يقتضي خلودهم فيها ما دامت باقية لا يخرجون منها مع بقائها وبقاء عذابها ، كما يخرج أهل التَّوحيد. قلت: قد قلت لك إنَّ حقيقة الخلود في مكان يقتضي بقاء ذلك المكان ، وقد تأمَّلت كلام المصنِّف فلم أر فيه زيادة على ذلك ، بل اندفع في ذكر الآيات وأحاديث الشَّفاعة ، ولم يبيِّن ما يؤول إليه أمر الكفَّار بعد فناء النَّار.

فإن قلت: قد فرَّق بين الجنَّة والنَّار شرعاً وعقلاً ، أمَّا شرعاً فمن وجوه:

أَحَدُهَا أنَّ الله تعالىٰ أخبر ببقاء نعيم أهل الجنَّة ودوامها ، وأنَّه لا نفاد له ولا انقطاع في غير موضع من كتابه ، كما أخبر أنَّ أهل الجنَّة لا يخرجون منها، وأمَّا النَّار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك ، بل أخبر أنَّ أهلها لا يخرجون منها.

قلت: قد أخبر في النَّار وأهلها أنَّهم في عذاب مقيم ، وأنَّهم لا يفتر عنهم ولا يخفف عنهم ، فلو فنيت لكان إمَّا أن يموتوا فيها أو يخرجوا ، وكلٌّ منهما أخبر في القرءان بنفيه.

فإن قلت: قد ذكره من الوجوه الشَّرعية أنَّ الجنَّة من مقتضىٰ رحمته والنَّار من عذابه ، فالنَّعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته ، فيجب دوامه بدوام معاني أسمائه وصفاته ، والعذاب من مخلوقاته ، والمخلوق قد يكون له انتهاء لا سيَّما مخلوق خلق لحكمة تتعلَّق بغيره. قلت: ومن أسمائه تعالىٰ : شديد العقاب ، والجبَّار ، والقهَّار ، والمذلّ ، والمنتقم ، فيجب دوامه بدوام ذاته وأسمائه أيضاً ، فنقول لهذا الرَّجل : إن كانت هذه الأسماء والصِّفات تقتضي دوام ما يقتضيه من الأفعال فيلزم قدم العالم ، وإن كانت لا تقتضي فلا يلزم دوام الجنَّة ، فأحد الأمرين لازم لكلام هذا الرَّجل ، وكلٌّ من الأمرين باطل.

فإن قلت: قد قال إنَّه أخبر أنَّ رحمته وسعت كلَّ شيء ، وسبقت رحمتي غضبي ، فإذا قدِّر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتَّة. قلت: الآخرة داران : دار رحمة لا يشوبها شيء ، وهي الجنَّة ، ودار عذاب لا يشوبه شيء وهي النَّار ، وذلك دليل علىٰ القدرة، والدُّنيا مختلطة بهذا وبهذا ، فقوله : " إذا قدِّر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة " إن أراد نفي الرَّحمة مطلقًا فليس بصحيح ، لأنَّ هناك كمال الرَّحمة في الجنَّة ، وإن أراد لم يكن في النَّار ، قلنا له : مه ؟ وإن قال : إنَّها شيء والعقاب شيء، وقد قال تعالىٰ : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف:١٥٦] .

فإن قلت: قد ثبت أنَّه حكيم رحيم ، والنُّفوس الشَّريرة التي لو رُّدت إلىٰ الدُّنيا لعادت ، لا تصلح أن تسكن دار السَّلام ، فإذا عذِّبوا عذاباً تخلص نفوسهم من ذلك الشَّر، كان هذا معقولاً في الحكمة ، أمَّا خلق نفوس تعمل الشَّر في الُّدنيا ، وفي الآخرة لا تكون إلَّا في العذاب ، فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرَّحمة ما لا يظهر في غيره، ولهذا كان جهم ينكر أن يكون الله تعالىٰ

أرحم الرَّاحمين ، بل يفعل ما يشاء ، والذين سلكوا طريقته كالأشعري وغيره ليس عندهم في الحقيقة له حكمة ولا رحمة ، وإذا ثبت أنَّه حكيم رحيم وعلم بطلان قول جهم تعيَّن إثبات ما تقتضيه الحكمة والرَّحمة ، وما قاله المعتزلة أيضاً باطل ، فقول القدريَّة والمجبرة والنُّفاة في حكمته ورحمته باطل ، ومن أعظم غلطهم : اعتقادهم تأبيد جهنَّم ، فإن ذلك مستلزم ما قالوه ، وقد أخبر تعالى أنَّ أهل الجنَّة والنَّار لا يموتون ، فلا بدَّ لهم من دار ، ومحال أن يعذَّبوا بعد دخول الجنَّة ، فلم يبق إلَّا دار النَّعيم ، والحيّ لا يخلو من لذَّة أو ألم ، فإذا انتفى الألم تعيَّنت اللذَّة الدَّائمة.

قلت : قد صرَّح بما صرَّح به في آخر كلامه فيقتضي أنَّ ابليس وفرعون وهامان وسائر الكفَّار يصيرون إلى النَّعيم المقيم واللذَّة الدَّائمة ، وهذا ما قال به مسلم ولا نصراني ولا يهودي ولا مشرك ولا فيلسوف ، أمَّا المسلمون فيعتقدون دوام الجنَّة والنَّار ، وأمَّا المشرك فيعتقد عدم البعث ، وأمَّا الفيلسوف فيعتقد أنَّ النُّفوس الشَّريرة في ألم ، فهذا القول الذي قاله هذا الرَّجل ما نعرف أحداً قاله ، وهو خروج عن الإسلام بمقتضى أهل العلم إجمالاً ، ولا أُكفِّر أحداً معيَّناً من أهل القبلة بلساني ولا بقلبي ولا بقلمي إلَّا أن يعتقد مشاققة الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذا ضابط التَّكفير عندي ، وسبحان الله إذا كان الله تعالى يقول :

وسبحان الله إذا كان الله تعالى يقول : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾[العكبوت:٢٣] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾[الإسراء:٩٧] ، ونبيّه النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخبر بذبح الموت بين الجنَّة والنَّار ، ولا شكَّ أنَّ ذلك إنَّما يفعل إشارة إلى إياسهم وتحقّقهم البقاء الدَّائم في العذاب ، فلو كانوا ينتقلون إلى اللذَّة والنَّعيم ، لكان ذلك رجاء عظيماً لهم وخيراً من الموت ولم يحصل لهم إياس ، فمن يصدِّق بهذه الآيات والأحاديث كيف يقول هذا الكلام ، وما قاله من مخالفة الحكمة جهل ، وما ينسبه إلى الأشعري رضي الله عنه افتراء عليه نعوذ بالله تعالى منه.

فإن قلت: قد يقول إنَّه تخلص نفوسهم من الشَّر بذلك العذاب فيسلمون. قلت: معاذ الله ، أمَّا إسلامهم في الآخرة ، فلا ينفعهم بإجماع المسلمين ، وبقوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ

ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾[الأنعام:١٥٨] ، وأمَّا خلوصهم من الشَّرط فباطل لقوله تعالىٰ : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] ، ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[محمد:١٦] ، فهذا يستحيل أن يخرج الشَّر من قلوبهم أو يدخل فيها خير.

فإن قلت: ما في خلق هؤلاء من الحكمة . قلت: إظهار القدرة واعتبار المؤمنين وفكرتهم في عظمة الله تعالىٰ القادر علىٰ أن يخلق الملائكة والبشر الصَّالحين والأنبياء ومحمَّداً النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيِّد الخلق ، وعلىٰ أن يخلق من الطَّرف الآخر فرعون وهامان وأبا جهل وشياطين الجنّ والإنس وإبليس رأس الضَّلال، والقادر علىٰ خلق دارين متمحضة كلّ واحدة منهما ، هذه للنَّعيم المقيم وهذه للعذاب الأليم ، ودار ثالثة وهي الدُّنيا ممتزجة من النَّوعين ، فسبحان من هذه قدرته ، وجلَّت عظمته ، وكان الله سبحانه قادراً أن يخلق النَّاس كلّهم مؤمنين طائعين ، ولكن أراد سبحانه أن يبيِّن الَّشيء وضدّه، علمه من علمه وجهله من جهله، والعلم منشأ السَّعادة كلّها ، نشأ عنه الإيمان والطاعة، والجهل منشأ الشَّقاوة كلّها ، نشأ عنه الكفر والمعصية ، وما رأيت مفسدة من أمور الدُّنيا والآخرة تنشأ إلَّا عن الجهل، فهو أضرّ الأشياء.

فإن قلت: قد نقل عن جهم وأصحابه أنَّهم قالوا بفناء الجنَّة والنَّار ، وأنَّ أئمَّة الإسلام كفَّروهم بذلك لأربع آيات من القرءان : قوله تعالىٰ : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾[الرعد:٣٥] و ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[ص:٥٤] و﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[الواقعة:٣٣] ، و﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٨] ، ولما رواه الطَّبراني وابن ماجه في التَّفسير. قلت: من قال بفناء الجنة والنَّار أو أحدهما فهو كافر.

فإن قلت: قد قال هذا المصنِّف إنَّ هذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهىٰ من الحوادث ، وهو عمدة أهل الكلام ، استدلُّوا به علىٰ حدوث الأجسام وحدوث ما لا يخلو من الحوادث . قلت: في هذا دسيسة يشبه أن يكون هذا المصنِّف قصد به التَّطرُّق إلىٰ حلول الحوادث بذات الباري تعالىٰ وتنـزَّه ، وقد أطال الكلام في ذلك وقال بعده إنَّه اشتبه هذا علىٰ كثير من أهل الكلام هذا ما اعتقدوه حقًا حتىٰ بنوا عليه حدوث ما لم يخل عن الحوادث ، ثمَّ قال :

وعليه أيضاً نفي الصِّفات لأنَّها أعراض لا تقوم إِلَّا بجسم ، هذا كلامه ، ويشبه أن يكون عمل هذا التَّصنيف وسيلة إلى تقرير ذلك ... " .

الفَصْلُ الثَّامِنُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بأَنَّ التَّفْوِيْضُ مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ وَالإِلْحَاد

من المعلوم أنَّ التَّفْوِيْضُ هو مَنْهَجٌ عَامٌّ لِجَمْهُوْرِ السَّلَف وبعض الخلف ...

ومن يقرأ كلام أهل العلم في مسألة التَّفويض يجد أنَّهم اتَّخذوه منهجاً عامَّاً في كلِّ ما لا يعرفونه أو يُحيطون بعلمه ... وهو أمر متفاوت بين عالم وآخر ... ولذلك رأينا منهم من يتكلَّم في معنىً أحجم عن الكلام فيه آخر ، وهكذا ... فقد روىٰ ابن أبي شيبة في "المصنَّف" (١٠/ ٥١٢ برقم ٣٠٧٢٧) بسنده عَنِ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ : أَدْرَكْت أَصْحَابَ عَبْدِ الله وَأَصْحَابَ عَلِيٍّ وَلَيْسَ هُمْ لِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ أَكْرَهُ مِنْهُمْ لِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، قَالَ : وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ : أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ الله مَا لاَ أَعْلَمُ" .

وروىٰ في " المصنَّف " (١٠/ ٥١٣ برقم ٣٠٧٣١) بسنده عَنْ إبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ سُئِلَ عَن ﴿وفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ، فَقَالَ : أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ الله مَا لاَ أَعْلَمُ" .

وروىٰ أبو نعيم الأصبهاني في " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء " (٣/ ٣٦٩) بسنده عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّهُ رَوَىٰ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» ، فَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنْهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: مِنَ الله الْعِلْمُ، وَعَلَىٰ رَسُولِهِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ، أَمِرُّوا أَحَادِيثَ رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَتْ" ...

ومن أقوال أهل العلم في ذلك :

قال الإمام محمَّد بن مفلح بن محمَّد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدِّين المقدسي الرَّامينىٰ ثمَّ الصَّالحي الحنبلي في " كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدِّين علي بن سليمان المرداوي " (١٠/ ٢١٣) : " وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ إنْكَارُ مَنْ سَمَّىٰ شَارِبَ الْخَمْرِ كافراً ، وكذلك أَنْكَرَ الْقَاضِي جَوَازَ إطْلَاقِ اسْمِ كُفْرِ النِّعْمَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْكَبَائِرِ، وَحَكَىٰ ابْنُ حَامِدٍ عَنْ أَحْمَدَ جَوَازَ إطْلَاقِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ عَلَىٰ بَعْضِ الذُّنُوبِ الَّتِي لَا تَخْرُجُ عَنْ الْمِلَّةِ . وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَقَّىٰ الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ

النُّصُوصِ تَوَرُّعًا ، وَيَمُرُّهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ، مَعَ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْمَعَاصِيَ لا تخرج عن الملة ، انتهى ملخَّصاً" .

وقال الإمام ابن رجب في " فتح الباري " (١/ ١٢٩-١٣٠) : " وقد وردت نصوص اختلف العلماء في حملها على الكُفر النَّاقل عن الملَّة أو على غيره ، مثل الأحاديث الواردة في كفر تارك الصَّلاة ، وتردَّد إسحاق بن راهوية فيما ورد في إتيان المرأة في دبرها أنَّه كفر ، هل هو مُخرج عن الدِّين بالكليَّة أم لا ؟ ومن العلماء من يتوقَّى الكلام في هذه النُّصوص تورُّعاً ، ويمرّها كما جاءت من غير تفسير ، مع اعتقادهم أنَّ المعاصي لا تُخرج عن الملَّة" .

وقال الإمام منصور بن يونس بن صلاح الدِّين ابن حسن بن إدريس البهُّوتى الحنبلى في " دقائق أولي النُّهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات " (٣/ ٣٩٧) : " (وَمَنْ أَطْلَقَ الشَّارِعُ) أَيْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كُفْرَهُ كَدَعْوَاهُ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَمَنْ أَتَى عَرَّافًا) وَهُوَ الَّذِي يُحَدِّثُ وَيَتَخَرَّصُ (فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَهُوَ تَشْدِيدٌ) وَتَأْكِيدٌ نَقَلَ حَنْبَلٌ: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ (لَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ الْإِسْلَامِ) انْتَهَى. وَقِيلَ: كُفْرُ نِعْمَةٍ وَقَالَهُ طَوَائِفُ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ ، وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ وَقِيلَ: قَارَبَ الْكُفْرَ وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ " مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى محمَّد " أَيْ: جَحَدَ تَصْدِيقَهُ بِكَذِبِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ عَلَى هَذَا إذَا اعْتَقَدَ تَصْدِيقَهُمْ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِتَكْذِيبِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ كُفْرًا حَقِيقَةً انْتَهَى. قَالَ فِي تَصْحِيحِ الْفُرُوعِ: وَالصَّوَابُ رِوَايَةُ حَنْبَلٍ وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ.

وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَقَّى الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ النُّصُوصِ تَوَرُّعًا وَيُمِرُّهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَا تُخْرِجُ عَنْ الْمِلَّةِ " .

فالمعروف عن السَّلف الصَّالح أنَّهم ما كانوا يتكلَّمون في أمر لا يعلمونه ، وكانوا يفوِّضون العلم فيه إلى الله تعالى ، وخاصَّة في الآيات المتشابهات ... حيث كانوا يفوِّضون العلم فيه إلى الله تعالى كَيَفاً ومعنى ... وهذا هو ما كان عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف ... إلَّا أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة قلبوا – كعادتهم – للأمَّة ظهر المِجن ، فخالفوا مجموع الأمَّة ، وخطُّوا لأنفسهم خطَّاً مُغايراً ،

فأثبتوا لله تعالىٰ كيفاً وفوَّضوا العلم به إلىٰ الله تعالىٰ ... وقدَّموا هذا المنهج والمسلك علىٰ أنَّه منهج السَّلف الصَّالح ... بل وصل بهم الأمر إلىٰ أن وصفوا من يفوِّض الكيف والمعنىٰ بأنَّه قام بمنكر ، وأنَّ ما قام به يعتبر من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

وفيما يلي من أقوالهم في هذه المسألة ...

قال الإمام ابن تيمية في " درء تعارض العقل والنَّقل" (١/ ٢٠٥) : " ... فتبيَّن أنَّ قول أهل التَّفويض الذين يزعمون أنَّهم متّبعون للسُّنَّة والسَّلف من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد " .

وقال الشَّيخ صالح بن فوزان الفوزان في " المنتقىٰ من فتاوىٰ الفوزان" (٢٥/ ١) : " فإنَّ السَّلف لم يكن مذهبهم التفويض ، وإنَّما مذهبهم الإيمان بهذه النُّصوص كما جاءت ، وإثبات معانيها التي تدلُّ عليها علىٰ حقيقتها ووضعها اللغوي ، مع نفي التَّشبيه عنها ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ : ١١] .

وقال الشَّيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين في " فتاوىٰ الشَّيخ ابن جبرين " (٤١/٦٤) : " ... وكلا الأمرين خطأ ، وإنَّما الصَّواب : ترك التَّأويل وإثبات حقيقة الصفات التي أفادتها تلك النُّصوص ، مع تفويض العلم بالكيفيَّات والماهيَّات ، ومع اعتقاد أنَّها لا يُفهم منها تشبيه الرَّب أو شيء من صفاته بالمخلوقين ، فلا تشبيه ولا تعطيل " .

وقال الشَّيخ عبد الرزَّاق عفيفي في " فتاوىٰ الشَّيخ عبد الرزَّاق عفيفي" (١/ ١٠٤) : " مذهب السَّلف هو التَّفويض في كيفيَّة الصِّفات لا في المعنىٰ ، وقد غلط ابن قدامة في لمعة الاعتقاد ، وقال : بالتَّفويض ، ولكن الحنابلة يتعصَّبون للحنابلة !!! ولذلك يتعصَّب المشايخ في الدِّفاع عن ابن قدامه ، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ ابن قدامه مفوِّض " .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في "فتاوىٰ نور علىٰ الدَّرب" (١/ ٦٥) : " والمفوِّضة قال أحمد فيهم : أنَّهم شرّ من الجهميَّة ، والتَّفويض أن يقول القائل : الله أعلم بمعناها فقط وهذا لا يجوز ، لأنَّ معانيها معلومة عند العلماء . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وهكذا

جاء عن الإمام ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن وعن غيره من أهل العلم ، فمعاني الصِّفات معلومة ، يعلمها أهل السُّنَّة والجماعة ؛ كالرِّضا والغضب والمحبَّة والاستواء والضَّحك وغيرها ، وأنَّها معاني غير المعاني الأخرىٰ ، فالضَّحك غير الرِّضا ، والرِّضا غير الغضب ، والغضب غير المحبَّة ، والسَّمع غير البصر ، كلّها معلومة لله سبحانه لكنَّها لا تشابه صفات المخلوقين ، يقول ربُّنا سبحانه وتعالىٰ : فَلا تَضْرِبُوا للهَّ الْأَمْثالَ ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] ، ويقول سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] .

ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ٤] ، هذا هو الحقّ الذي عليه أهل السُّنَّة من أصحاب النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم " .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في " مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز" (٣/ ٥٥) : "وليس التَّفويض مذهب السَّلف ، بل هو مذهب مبتدع مخالف لما عليه السَّلف الصَّالح " .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في " مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز" (٣/ ٥٥) : " ليس الأسلم تفويض الأمر في الصِّفات إلىٰ علَّام الغيوب ، لأنَّه سبحانه بيَّنها لعباده ، وأوضحها في كتابه الكريم وعلىٰ لسان رسوله الأمين صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يبيِّن كيفيَّتها ، فالواجب تفويض علم الكيفيَّة لا علم المعاني ، وليس التَّفويض مذهب السَّلف ، بل هو مذهب مبتدع مخالف لما عليه السَّلف الصَّالح .

وقد أنكر الإمام أحمد -رحمه الله- وغيره من أئمَّة السَّلف علىٰ أهل التَّفويض ، وبدَّعوهم لأنَّ مقتضىٰ مذهبهم أنَّ الله سبحانه خاطب عباده بما لا يفهمون معناه ولا يعقلون مراده منه ، والله سبحانه وتعالىٰ يتقدَّس عن ذلك ، وأهل السنَّة والجماعة يعرفون مراده سبحانه بكلامه ويصفونه بمقتضىٰ أسمائه وصفاته وينزِّهونه عن كلِّ ما لا يليق به عزَّ وجلَّ . وقد علموا من كلامه سبحانه ومن كلام رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه سبحانه موصوف بالكمال المطلق في جميع ما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في " مجموع فتاوىٰ العلامة عبد العزيز بن باز " (٣/ ٧٠-٧١) : " ... إنَّ هذه الدَّعوىٰ علىٰ مذهب السَّلف دعوىٰ لا أساس لها من الصحَّة ، فإنَّ السَّلف الصَّالح ليس مذهبهم التَّفويض لأسماء الله وصفاته لا تفويضاً عامَّاً ولا خاصَّاً ، وإنَّما يفوِّضون علم الكيفيَّة كما تقدَّم بيان ذلك ، وكما نصَّ علىٰ ذلك مالك وأحمد وغيرهما وقبلهما أمّ سلمة رضي الله عنها وربيعة بن أبي عبد الرَّحمن شيخ مالك رضي الله عن الجميع ، وليس من مذهب السَّلف أيضا تأويل الصِّفات ، بل يمرُّونها كما جاءت ويؤمنون بمعانيها علىٰ الوجه اللائق بالله سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كما سلف ذكر ذلك غير مرَّة .

وليس من مذهب السَّلف أيضاً نفي التَّجسيم !!! ولا إثباته !!! لأنَّ ذلك لم يرد في الكتاب ولا في السنَّة ولا في كلام سلف الأمَّة ، كما نصَّ علىٰ ذلك غير واحد من أئمَّة السنَّة ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فقد نصَّ علىٰ ذلك في كتابه : " التَّدمريَّة " حيث قال في القاعدة السَّادسة : " ولهذا لما كان الرَّد علىٰ من وصف الله تعالىٰ بالنَّقائص بهذا الطَّريق طريقاً فاسداً لم يسلكه أحد من السَّلف أو الأئمَّة ، فلم ينطق أحد منهم في حقِّ الله بالجسم لا نفياً ولا إثباتاً ، ولا بالجوهر والتَّحيُّز ، ونحو ذلك ، لأنَّها عبارات مجملة لا تحقُّ حقَّاً ولا تُبطل باطلاً . ولهذا لم يذكر الله في كتابه فيما أنكره علىٰ اليهود وغيرهم من الكفار ما هو من هذا النَّوع ، بل هذا هو من الكلام المبتدع الذي أنكره السَّلف والأئمَّة " .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين في " مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين "(٨/ ٧٣) : " أهل السُّنَّة والجماعة يتبرَّؤون من الطَّريقتين :

الطَّريقة الأولىٰ : التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقي المراد إلىٰ معنىٰ غير مراد . والطريقة الثانية : وهي طريقة أهل التَّفويض ، فهم لا يفوِّضون المعنىٰ كما يقول المفوِّضة بل يقولون : نحن نقول : بل يداه ؛ أي : يداه الحقيقيَّتان مبسوطتان ، وهما غير القوَّة والنِّعمة .

فعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة بريئة من التَّحريف ومن التَّعطيل .

وبهذا نعرف ضلال أو كذب من قالوا : إنَّ طريقة السَّلف هي التَّفويض ، هؤلاء ضلُّوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السَّلف ، وكذبوا إن قالوا ذلك عن عمد ، أو نقول : كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز ؛ لأنَّ الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ .

وعلى كلِّ حال ، لا شكَّ أنَّ الذين يقولون : إنَّ مذهب أهل السُّنَّة هو التَّفويض ؛ أنَّهم أخطأوا ؛ لأنَّ مذهب أهل السُّنَّة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفيَّة " .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين في " مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين "(٨/ ٧٧) : " فتبيَّن أنَّ طريقة التَّفويض طريق خاطئ ؛ لأنَّه يتضمَّن ثلاث مفاسد : تكذيب القرآن ، وتجهيل الرَّسول ، واستطالة الفلاسفة ! وأنَّ الذين قالوا : إنَّ طريقة السَّلف هي التَّفويض كذبوا على السَّلف ! أو الذين قالوا : إنَّ طريقة السَّلف هي التَّفويض كذبوا على السَّلف ، بل هم يثبتون اللفظ والمعنى ويقرِّرونه ، ويشرحونه بأوفى شرح " .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين في " لقاء الباب المفتوح "(٢٧/ ٢٤) : " السُّؤال :

رُوِي عن الإمام أحمد رحمه الله أنَّه قال في قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر:٢٢] : وجاء أمر ربِّك ، فبعضهم أورد هذا في أحد كتبه ، وقال : مذهب الإمام أحمد هو : التَّفويض ، وقد لجأ الإمام أحمد – وهو إمام أهل السُّنَّة – إلى التَّأويل في هذه الآية ، فهل صحَّت الرِّواية عن الإمام أحمد ؟

الجواب :

أوَّلاً : لا بدَّ أن يثبت هذا عن الإمام أحمد .

ثانياً : إذا قُدِّر أنَّه رحمه الله أخطأ في هذه المسألة التي لا يقرّها هو بعموم كلامه ، فلا يعني ذلك أنَّه معصوم، ويُقبَل رأيُه.

ثالثاً : ذكرتَ أنَّه يُفوِّض ، وهذا على إطلاقه فيه نظر ؛ لأنَّ التَّفويض نوعان : تفويض المعنى . وتفويض الكيفيَّة .

فـأهل السُّنَّة والجماعة يفوِّضون الكيفيَّة ، ولا يفوِّضون المعنىٰ ، بل يقرُّون به ، ويثبتونه ، ويشرحونه ، ويقسمونه ، فمن ادَّعىٰ أنَّ أهل السُّنَّة هم الذين يقولون بالتَّفويض (ويعني به تفويض المعنىٰ) فقد كذب عليهم .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه : " درء تعارض العقل والنَّقل " أنَّ قول أهل التَّفويض من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد .

هذا هو الذي يقوله بعض النَّاس ، أنَّه مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ، وهو التَّفويض ، ولذلك يقولون : أهل السُّنَّة قسمان : مُفَوِّضة ، ومُؤَوِّلة .

وهذا خطأ عظيم ، فـأهل السنَّة مُؤوِّلة ، وأهل السُّنَّة مُفَوِّضة ؛ لكنَّهم يؤولون إذا دلَّ الدَّليل علىٰ التَّأويل ، ويفوِّضون الكيفيَّة ، وأمَّا المعنىٰ فلا يفوِّضونه .

وخلاصة الجواب علىٰ سؤالك : أن نقول : إن صحَّ هذا عن الإمام أحمد فالإمام أحمد ليس بمعصوم ، ولكنَّني لا أظنُّه يصح " .

وقد أفضىٰ بهم تفويض الكيفيَّة إلىٰ الوقوع في بحر التَّشبيه والتَّجسيم ... حتَّىٰ آل بهم الأمر إلىٰ درجة التَّصريح بأنَّ الله تعالىٰ جسم ...

وعلىٰ كلِّ حالٍ فإنَّ الإيمان بظاهر الألفاظ الموهمة للتَّشبيه هو ما كان عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف ...

ففي موضوع الاستواء – مثلاً – وقفت أثناء البحث علىٰ العديد العديد من أقوال السَّلف والخلف الذين صرَّحوا بتفويض معنىٰ الاستواء إلىٰ الله تعالىٰ.... ومن هذه الأقوال :

قال الإمام أبو الحسن الأشعري في " الإبانة عن أصول الدِّيانة" (ص٢١) : " وأنَّ الله تعالىٰ استوىٰ علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي قاله ، وبالمعنىٰ الذي أراده ، استواءً منزّهاً عن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكّن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كلِّ شيء إلىٰ تخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لا تزيده قرباً إلىٰ العرش والسَّماء ، بل هو رفيع الدَّرجات عن العرش ، كما أنَّه رفيع الدَّرجات عن الثَّرىٰ ، وهو

مع كلِّ ذلك قريب من كلِّ موجود ، وهو أقرب إلىٰ العبد من حبل الوريد ، وهو علىٰ كلِّ شيء شهيد " .

وقال الإمام الباقلاني في "الإنصاف" (ص٢٤) : " ... وأخبر أنَّه ذو الوجه الباقي بعد أن تقضي الماضيات ، كما قال عزَّ وجلَّ : " ... وأنَّ الله جلَّ ثناؤه مستو عن العرش ، ومستول علىٰ جميع خلقه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] بغير مماسَّة وكيفيَّة ، ولا مجاورة ، وأنَّه في السَّماء إله وفي الأرض إله ، كما أخبر بذلك ... وأنَّه مع ذلك ليس بذي جوارح وحواس توجد بها هذه الإدراكات . فتعالىٰ الله عن التَّصوير والجوارح ، والآلات . وأن يعلم : أنَّه مع إدراك سائر الأجناس من المدركات وجميع الموجودات ، غير ملتذ ولا متألِّم بإدراك شيء منها ، ولا مشقة له منها ولا نافر عنها ، ولا منتفع بإدراكها ولا متضرِّر بها . ولا يجانس شيئاً منها ، ولا يضادها ، وإن كان مخالفاً لها " .

وقال الإمام عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الدَّاني في " الرِّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الدِّيانات" (ص١٣٠) : " أنَّه سبحانه فوق سماواته ، مستوٍ علىٰ عرشه ، ومستول علىٰ جميع خلقه ، وبائن منهم بذاته ، غير بائن بعلمه ، بل علمه محيط بهم ، يعلم سرَّهم وجهرهم ، ويعلم ما يكسبون ، علىٰ ما ورد به خبره الصَّادق ، وكتابه النَّاطق ، فقال تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، واستواؤه عزَّ وجلَّ : علوُّه بغير كيفيَّة ، ولا تحديد ، ولا مجاورة ولا مماسَّة " .

وقال الإمام البيهقي في "الأسماء والصِّفات" (٢/٢٧٨) : " قَالَ الخَطَّابِيُّ : ... وَلَيْسَ مَعْنَىٰ قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّ اللهَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، هُوَ أَنَّهُ مُمَاسٌّ لَهُ ، أَوْ مُتَمَكِّنٌ فِيهِ ، أَوْ مُتَحَيِّزٌ فِي جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ ، لَكِنَّهُ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ جَاءَ بِهِ التَّوْقِيفُ فَقُلْنَا بِهِ ، وَنَفَيْنَا عَنْهُ التَّكْيِيفَ ، إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " .

ثمَّ إنَّ الإمام البيهقي علَّق علىٰ الاستواء بقوله : " ثُمَّ قَدْ مَضَىٰ قَوْلُ أَهْلِ النَّظَرِ فِي مَعْنَاهُ ، وَحَكَيْنَا عَنِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا تَرْكَ الْكَلَامِ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ ، هَذَا مَعَ اعْتِقَادِهِمْ نَفْيَ الْحَدِّ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٣٣٤) .

وقال في موضع آخر : " فَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ ، فَالْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَانُوا لَا يُفَسِّرُونَهُ ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ ، كَنَحْوِ مَذْهَبِهِمْ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٣) .

ولا يعني قوله : وكانوا لا يفسِّرونه ، أنَّه غير قابل للتَّفسير ، فإذا أحجموا هم عن تفسيره ، فقد فسَّره غيرهم ، وتفسيرهم له لم يتعارض مع المسلَّمات اللغويَّة والعقديَّة ...

وقال الإمام البيهقي في "شُعَب الإيمان" (١/ ١٩٠) : " ... وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ ، فَلِأَنَّ قَوْماً زَاغُوا عَنِ الْحَقِّ فَوَصَفُوا الْبَارِئَ - جَلَّ وَعَزَّ - بِبَعْضِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ جَوْهَرٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ جِسْمٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ الْعَرْشِ قَاعِداً كَمَا يَكُونُ الْمَلِكُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي وُجُوبِ اسْمِ الْكُفْرِ لِقَائِلِهِ كَالتَّعْطِيلِ وَالتَّشْرِيكِ ، فَإِذَا أَثْبَتَ الْمُثْبِتُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ ، فَقَدِ انْتَفَىٰ التَّشْبِيهُ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ جَوْهَراً أَوْ عَرَضاً لَجَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ سَائِرِ الْجَوَاهِرِ ، وَالْأَعْرَاضِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جَوْهَراً ، وَلَا عَرَضاً لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْجَوَاهِرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا جَوَاهِرُ ، كَالتَّأْلِيفِ ، وَالتَّجْسِيمِ ، وشَغْلِ الْأَمْكِنَةِ ، وَالْحَرَكَةِ ، وَالسُّكُونِ ، وَلَا مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْأَعْرَاضِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أَعْرَاضٌ ، كَالْحُدُوثِ ، وَعَدَمِ الْبَقَاءِ " .

وقال في "الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرَّشاد علىٰ مذهب السَّلف وأصحاب الحديث" (ص١١٧) : " وفي الجُملة يجب أن يعلم : أنَّ استواء الله سبحانه وتعالىٰ ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ، ولا استقرار في مكان ، ولا مماسَّة لشيء من خلقه ، لكنَّه مستو علىٰ عرشه كما أخبر ، بلا كيف بلا أين ، بائن من جميع خلقه ، وأنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحرَكة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجِسْم ، وأنَّ وجهه ليس بصُورة ، وأنَّ يدَه ليست بجارحة ، وأنَّ عيْنه ليست بحَدَقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال : ﴿لَيْسَ

﴿كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ، وقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] ، وقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥] .

وقال الإمام أبو المظفَّر شاهفور بن طاهر بن محمَّد الإسفراييني في"التَّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النَّاجية عن الفرق الهالكين" (ص١٦١) : " وَأَن تعلم أَنَّه لَا يجوز عَلَيْهِ الْكَيْفِيَّة والكمِّيَّة والأينيَّة لِأَنَّ من لَا مثل لَهُ لَا يُمكن أَن يُقَال فِيهِ كَيفَ هُوَ ؟ وَمن لَا عدد لَهُ لَا يُقَال فِيهِ كمْ هُوَ ؟ وَمن لَا أوَّل لَهُ لَا يُقَال لَهُ مِمَّ كَانَ ؟ وَمن لَا مَكَان لَهُ لَا يُقَال فِيهِ أَيْن كَانَ ؟ وَقد ذكرنَا من كتاب الله تَعَالَىٰ مَا يدلُّ علىٰ التَّوحيد وَنفي التَّشْبِيه وَنفي الْمَكَان والجهة وَنفي الِابْتِدَاء والأوَّلية ، وَقد جَاءَ فِيهِ عَن أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ رَضِي الله عَنهُ أشفىٰ الْبَيَان حِين قيل لَهُ : أَيْن الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي أَيَّن الأين لَا يُقَال لَهُ أَيْن ، فَقيل لَهُ : كَيفَ الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي كَيَّفَ الكيْف لَا يُقَال لَهُ كَيْفَ " .

وقال الإمام أبو إسحاق الشِّيرازي في " الإشارة إلىٰ مذهب أهل الحقّ" (ص٢٣٥-٢٣٦) : " أنَّ الله عزَّ وجلَّ مستوٍ علىٰ العرش؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤] ، وأنَّ استواءه ليس باستقرار ولا ملاصقة ، لأنَّ الاستقرار والملاصقة صفة الأجسام المخلوقة، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قديم أزليٌّ، أبداً كان وأبداً يكون، لا يجوز عليه التَّغيير ولا التَّبديل، ولا الانتقال ولا التَّحريك. والعرش مخلوق لم يكن فكان؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النمل:٢٦] . فلو أنَّ المراد بالاستواء " الاستقرار والملاصقة "، لأدَّىٰ إلىٰ تغيُّر الرَّب وانتقاله من حال إلىٰ حال، وهذا محالٌ في حقِّ القديم؛ فإنَّ كلَّ متغيِّرٍ لا بدَّ له من مغيِّر .

ولأنَّ العرش مخلوق محدود، فلو كان الرَّب عزَّ وجلَّ مستقرَّاً عليه، لكان لا يخلو: إمَّا أن يكون أكبر، أو أصغر منه، أو مثله:

فلو كان أكبر منه: يكون متبعِّضاً بعضه خالٍ من العرش، والبعض صفة الأجسام المؤلَّفة.

وإن كان أصغر منه: فيكون العرش مع كونه مخلوقاً أكبر منه، وذلك نقص. وإن كان مثله: يكون محدوداً كالعرش، فإن كان العرش مربَّعاً فيكون الرَّب مربَّعاً، وإن كان مخمَّساً فيكون الرَّب مخمَّساً، وما هو محدود له شَبَه وله مثل ولا يكون قديماً.

فدلَّ: علىٰ أنَّه كان ولا مكان، ثمَّ خلق المكان، وهو الآن علىٰ ما عليه كان.

فإن قيل: إذا قلتم إنَّه ليس علىٰ العرش، ولا في السَّماوات، ولا في جهة من الجهات، فأين هو؟!

يُقال لهم: أوَّل جهلكم: وصفكم له بـ" أين "؛ لأنَّ " أين " استخبار عن المكان، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ منزَّه عن ذلك " .

وقال الإمام عبد الرَّحمن النَّيسابوري المعروف بالمتولِّي الشَّافعي في " الغنية في أصول الدِّين" (ص٧٥-٧٦) في معرض ردِّه علىٰ المجسِّمة والمشبِّهة :

"... فإن استدلُّوا بظواهر الكتاب والسُّنَّة مثل قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ... ومثل قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " ينزل الله في كلِّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا " ، وغير ذلك من الآيات والأخبار ، فلأصحابنا في ذلك طريقان :

أَحَدُهُمَا : الإعراض عن التَّأويل ، والإيمان بها كما جاءت ، والإيمان بها صحيح ، وإن لم يعرف معناها ، كما أنَّ إيماننا بجميع الأنبياء والملائكة صلوات الله عليهم ، والكتب المنزلة من الله تبارك وتعالىٰ صحيح ، وإن لم يعرف شيئاً من ذلك ، وإيماننا بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور صحيح ، وإن لم نعرف معناها ، وهذا الطَّريق أقرب إلىٰ السَّلامة ..." .

وقال الإمام أبو المظفَّر ، منصور بن محمَّد بن عبد الجبَّار ابن أحمد المروزىٰ السَّمعاني في " تفسير القرآن" (٢/٣٦٦) في تفسير " قَوْله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] : " قد بينَّا مَذْهَب أهل السُّنَّة فِي الاسْتوَاء ؛ وَهُوَ أَنه نؤمن بِهِ ، وَنكِل علمه إِلَى الله تَعَالَى ، من غير تَأْوِيل وَلَا تَفْسِير " .

وقال الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي في "إحياء علوم الدِّين" (١/١٠٨) : " ... العلم بأنَّه تعالىٰ مستو علىٰ عرشه بالمعنىٰ الذي أراد الله تعالىٰ بالاستواء ، وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ، ولا يتطرَّق إليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذي أريد بالاستواء إلىٰ السَّماء ، حيث قال في

القرآن﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ ، وليس ذلك إلَّا بطريق القهر والاستيلاء ، كما قال الشَّاعر :

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

واضطرَّ أهل الحقِّ إلىٰ هذا التَّأويل ... كما اضطرَّ أهل الباطن إلىٰ تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] ، إذ حمل ذلك بالاتِّفاق علىٰ الإحاطة والعلم ، وحمل قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرَّحمن " ، علىٰ القدرة والقوَّة ، وحمل قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الحجر الأسود يمين الله في أرضه " ، علىٰ التَّشريف والإكرام ، لأنَّه لو ترك علىٰ ظاهره للزم منه المحال ، فكذا الاستواء لو ترك علىٰ الاستقرار والتَّمكُّن لزم منه كون المتمكِّن جسماً مماسَّاً للعرش ، إما مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وذلك محال ، وما يؤدِّي إلىٰ المحال فهو محال " .

وقال الإمام البغوي في " تفسير البغوي (٢/١٩٧) في معالم التَّنزيل عند كلامه علىٰ قوله تعالىٰ :﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف :٥٤] : " فأمَّا أهل السُّنَّة يقولون : الِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الْعَرْشِ صِفَةٌ للهِ تَعَالَىٰ بِلَا كَيْفٍ ، يَجِبُ عَلَىٰ الرَّجُلِ الْإِيمَانُ بِهِ وَيَكِلُ الْعِلْمَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَسَأَلَ رَجُلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، كَيْفَ اسْتَوَىٰ ؟ فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ مَلِيّاً وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثمَّ قَالَ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا ضَالًّا ، ثمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ . وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الصِّفَاتِ المتشابهات : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ " .

قال الإمام ابن عطية الأندلسي في " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (٢/٤٧٥) في كلامه علىٰ الاستواء : " " معناه عند أبي المعالي وغيره من حذَّاق المتكلِّمين بالملك والسُّلطان ، وخصَّ العرش

بالذِّكر تشريفاً له إذ هو أعظم المخلوقات ، وقال سفيان الثَّوري (١٦١هـ) : فعل فعلاً في العرش سمَّاه استواء " .

قال الإمام ابن تيمية الحرَّاني في " مجموع الفتاوىٰ" (١٣/٣٨٨) : " و " تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ " خَيْرٌ مِنْ تَفْسِيرِ الزَّمخشري وَأَصَحُّ نَقْلاً وَبَحْثاً وَأَبْعَدُ عَنْ الْبِدَعِ وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَىٰ بَعْضِهَا ؛ بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ بِكَثِيرِ ؛ بَلْ لَعَلَّهُ أَرْجَحُ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ ؛ لَكِنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ جَرِيرٍ أَصَحُّ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا . وَثَمَّ تَفَاسِيرُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ جِدّاً كَتَفْسِيرِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ والماوردي " .

وقال الإمام أحمد بن علي بن ثابت الرِّفاعي الحسيني في " البرهان المؤيَّد" (ص١٦-١٩) : " أي سادة : نزِّهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين ، وطهِّروا عقائدكم من تفسير معنىٰ الاستواء في حقِّه تعالىٰ بالاستقرار ، كاستواء الأجسام علىٰ الأجسام ، المستلزم للحلول ، تعالىٰ الله عن ذلك . وإيَّاكم والقول بالفوقيَّة ، والسُّفليَّة ، والمكان ، واليد ، والعين بالجارحة ، والنُّزول بالإتيان والانتقال ، فإنَّ كلّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يدلُّ ظاهره علىٰ ما ذكر ، فقد جاء في الكتاب والسُّنَّة مثله ممَّا يؤيِّد المقصود ، فما بقي إلَّا ما قاله صلحاء السَّلف ، وهو الإيمان بظاهر كلِّ ذلك - المقصود هو ظاهر اللفظ لا ظاهر المعنىٰ - ، وردِّ علم المراد إلىٰ الله ورسوله ، مع تنزيه الباري تعالىٰ عن الكيْف وسمات الحدوث ، وعلىٰ ذلك درج الأئمَّة ، وكلّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسُّكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسِّره إلَّا الله تعالىٰ ورسوله ، ولكم حمل المتشابه علىٰ ما يوافق أصل المحكم ، لأنَّه أصل الكتاب ، والمتشابه لا يعارض المحكم ... سأل رجل الإمام مالكاً بن أنس رضي الله عنه عن قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ، فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة ، وما أراك إلَّا مبتدعاً ، وأمر به أن يُخرج .

وقال إمامنا الشَّافعي رضي الله عنه لما سئل عن ذلك : آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتَّهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كلّ الإمساك .

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : من قال : لا أعرف الله أفي السَّماء هو أم في الأرض فقد كفر ، لأنَّ هذا القول يوهم أنَّ للحقِّ مكاناً ، ومن توهَّم أنَّ للحقِّ مكاناً فهو مشبِّه .

وسئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الاستواء ، فقال : استوىٰ كما أخبر ، لا كما يخطر للبشر .

وقال الإمام ابن الإمام جعفر الصَّادق عليه السَّلام : من زعم أنَّ الله في شيء أو من شيء أو علىٰ شيء فقد أشرك ، إذ لو كان علىٰ شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان محدثاً " ...

وفي العين المُضافة إلىٰ الله تعالىٰ العين المضافة إلىٰ الله تعالىٰ قال الإمام عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الدَّاني في " الرِّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الدِّيانات" (ص١٢٢-١٢٣) : " فنص سبحانه علىٰ إثبات أسمائه وصفات ذاته ، فأخبر جلَّ ثناؤه ... والأعين: كما أفصح القرآن بإثباتها من صفاته فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[الطور:٤٨] ، وقال: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾[هود:٣٧] ، وقال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾[القمر:١٤] ، وقال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩] ، وليست عينه بحاسَّة من الحواس، ولا تشبه الجوارح والأجناس إذ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١] .

وقال الإمام البيهقي في " الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرَّشاد علىٰ مذهب السَّلف وأصحاب الحديث" (ص١١٧) : " وفي الجملة يجب أن يعلم ... أنَّ عينه ليست بحدقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف فقد قال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وقال : ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[الإخلاص: ٤] ، وقال : ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] .

وفي كتابه الفتح نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي في " فتح الباري" (١٣/ ٣٩٠) عن ابن المنير (٦٨٣هـ) قوله : " وَلِأَهْلِ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ : كَالْعَيْنِ ، وَالْوَجْهِ ، وَالْيَدِ ، ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهَا صِفَاتُ ذَاتٍ أَثْبَتَهَا السَّمْعُ وَلَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا الْعَقْلُ .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْعَيْنَ كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةِ الْبَصَرِ ، وَالْيَدَ كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةِ الْقُدْرَةِ ، وَالْوَجْهَ كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةِ الْوُجُودِ .

وَالثَّالِثُ : إِمْرَارُهَا عَلَىٰ مَا جَاءَتْ مُفَوَّضاً مَعْنَاهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ .

وَقَالَ الشَّيخ شِهَابُ الدِّين السَّهْرَوَرْدِيُّ (٦٣٢هـ) فِي كِتَابِ الْعَقِيدَةِ لَهُ : أَخْبَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَثَبَتَ عَنْ رَسُولِهِ الاِسْتِوَاءُ ، وَالنُّزُولُ ، وَالنَّفْسُ ، وَالْيَدُ ، وَالْعَيْنُ ، فَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهَا بِتَشْبِيهٍ ، وَلَا تَعْطِيلٍ ، إِذْ لَوْلَا إِخْبَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ مَا تَجَاسَرَ عَقْلٌ أَنْ يَحُومَ حَوْلَ ذَلِكَ الْحِمَىٰ . قَالَ الطِّيبِيُّ هَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ الْمُعْتَمَدُ وَبِهِ يَقُولُ السَّلَفُ الصَّالِحُ " .

قلت : وقد سبق القول بأنَّ الله تعالىٰ في صفاته متعال عن الاشباه ، ولذا فإنَّ الواجب يُحتّم علينا الإيمان بكلِّ أمر ثبت التَّنزيل فيه علىٰ مراد الله تعالىٰ ، ومن جملة ذلك لفظة (العَيْن) ، هذا إذا لم نصل إلىٰ المعنىٰ المُراد من ذلك اللفظ ، وذلك بعد استفراغ الوُسع والطَّاقة في سبيل الوصول إلىٰ المعنىٰ المراد ...

قال الإمام الكوثري : " ومن ذكر من السَّلف أنَّ العين واليد صفتان لم يرد بهذا اللفظ القول بالجارحة ، بل يكون قائلاً بأنَّ المراد بالعين معنىٰ قائم بالله ، وكذلك اليد ، لكن لا أعيِّن ذلك المعنىٰ المراد ، بأن أقول : إنَّه الرُّؤية أو الحفظ والقدرة ، أو النِّعمة أو العناية الخاصَّة ، لكون تعيين المراد من بين المحتملات الموافقة للتَّنزيه تحكُّماً علىٰ مراد الله ، وتسميته لهما صفتين تدلُّ علىٰ أنَّه جازم بأنَّهما ليستا من قبيل أجزاء الذَّات ، تعالىٰ الله عن ذلك ، ومن قال : وله يد بها يبطش ، وعين بها يرىٰ ، جعلهما من قبيل الجوارح وخالف السَّلف الصَّالح . وقد قال التِّرمذي عند الكلام علىٰ حديث : " يمين الرَّحمن ملأىٰ سحَّاء " : وهذا حديث قد روته الأئمَّة نؤمن به كما جاء من غير أن يفسَّر أو يتوهَّم ، هكذا قال غير واحد من الأئمَّة ، منهم : الثَّوري ، ومالك بن أنس ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، أنَّه تروىٰ هذه الأشياء ، ويؤمن بها ، فلا يقال كيف " . انظر : السيف الصقيل في الرد علىٰ ابن زفيل ، السُّبْكِي ، ومعه تكملة الرد علىٰ نونية ابن القيم للكوثري (ص١٦٧) ...

وفي اليد المضافة إلى الله تعالى قال الإمام محمَّد بن عيسى بن سَوْرة التِّرمذي ، أبو عيسى بعد روايته لحديث : " يَمِينُ الرَّحْمَنِ مَلأَى ، سَحَّاءُ لاَ يُغِيضُهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، قَالَ : أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْمِيزَانُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ " : " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤] .

وَهَذَا حَدِيثٌ قَدْ رَوَتْهُ الأَئِمَّةُ ، نُؤْمِنُ بِهِ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفَسَّرَ أَوْ يُتَوَهَّمَ ، هَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الأَئِمَّةِ : الثَّوْرِيُّ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ تُرْوَى هَذِهِ الأَشْيَاءُ وَيُؤْمَنُ بِهَا ، وَلاَ يُقَالُ كَيْفَ " . انظر : سنن الترمذي (٥/ ١٠٠) .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العبَّاس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني في " اعتقاد أئمَّة الحديث" (ص٥١) : " وخلق آدم عليه السَّلام بيده ، ويداه مبسوطتان ينفق كيف شاء ، بلا اعتقاد كيف يداه ، إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيف .

ولا يعتقد فيه الأعضاء ، والجوارح ، ولا الطُّول والعرض ، والغلظ ، والدِّقَّة ، ونحو هذا ممَّا يكون مثله في الخلق ، وأنَّه ليس كمثله شيء ، تبارك وجه ربِّنا ذو الجلال والإكرام " .

وقال الإمام البيهقي في " الأسماء والصِّفات" (٢/ ١٥٨) : " وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ : لِيسَ فِيمَا يُضَافُ إِلَى اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَةِ الْيَدَيْنِ شِمَالٌ ، لِأَنَّ الشِّمَالَ مَحَلُّ النَّقْصِ وَالضَّعْفِ ، وَقَدْ رُوِيَ : " كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ " ، وَلَيْسَ مَعْنَى الْيَدِ عِنْدَنَا الْجَارِحَةَ ، إِنَّمَا هُوَ صِفَةٌ جَاءَ بِهَا التَّوْقِيفُ ، فَنَحْنُ نُطْلِقُهَا عَلَى مَا جَاءَتْ وَلَا نُكَيِّفُهَا ، وَنَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ انْتَهَى بِنَا الْكِتَابُ وَالْأَخْبَارُ الْمَأْثُورَةُ الصَّحِيحَةُ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ " .

وقال الإمام عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السّبتي في " مشارق الأنوار على صحاح الآثار" (٢/ ٣٠٣) : " ... وَقَوله : " يبسط يَده بِاللَّيْلِ ليتوب مسيء النَّهَار " ، من هَذَا أَيْضاً ، وَيكون إِشَارَة إِلَى الْقبُول والأنعام عَلَيْهِ ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾

[المائدة: ٦٤] ، وَقَوله : " كتب التَّوْرَاة بِيَدِهِ ، وَخلق آدم بِيَدِهِ ، وَيقبض السَّمَوَات بِيَدِهِ ،وَمثل هَذَا مِمَّا جَاءَ فِي الحَدِيث وَالْقُرْآن من إِضَافَة الْيَد إِلَى الله تَعَالَى ، اتّفق الْمُسلمُونَ أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة أَن الْيَد هُنَا لَيست بجارحة ، وَلَا جسم ، وَلَا صُورَة ، ونزهوا الله تَعَالَى عَن ذَلِك ، إِذْ هِيَ صِفَات الْمُحدثين ، واثبتوا مَا جَاءَ من ذَلِك إِلَى الله تَعَالَى ، وآمنوا بِهِ ، وَلم ينفوه ، وَذهب كثير من السَّلف إِلَى الْوُقُوف هُنَا ، وَلَا يزِيدُونَ ، ويسلِّمون ، ويكِلون علم ذَلِك إِلَى الله وَرَسُوله ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي كل مَا جَاءَ من مثله من الْمُتَشَابه ... " .

وقال الإمام الرَّازي : " واعلم أنَّ لفظ اليد حقيقة في هذه الجارحة المخصوصة ، إلَّا أنَّه يستعمل على سبيل المثال المجاز في أمور غيرها :

فَالأَوَّلُ : أنه يستعمل لفظ اليد في القدرة ، يقال : يد السُّلطان فوق يد الله الرعيَّة . أي : قدرته غالبة على قدرتهم. والسَّبب في حسن هذا المجاز : أنَّ كمال حال هذا العضو ، إنَّما يظهر بالصفة المسَّماة بالقدرة . ولَّما كان المقصود من اليد حصول القدرة ، أطلق اسم القدرة على اليد ، وقد يقال : هذه البلدة في يد الأمير ، وإن كان الأمير مقطوع اليد ، ويقال : فلان في يده الأمر والنَّهي والحلّ والعقد ، والمراد : ما ذكرناه .

وَالثَّانِي : أنَّ اليد قد يراد بها النِّعمة ، وإنَّما حسن هذا المجاز ، لأنَّ آلة عطاء النِّعمة اليد . فإطلاق اسم اليد على النِّعمة ، إطلاق لاسم السَّبب على المسبَّب .

الثَّالِثُ : أنَّه قد يذكر لفظ اليد صلة الكلام على سبيل التَّأكيد . كقولهم : يداك أوكتا ، ويقرب منه : قوله تعالى : ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة : ١٢] . وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[الفرقان : ٤٨] ، فإنَّ النَّجوى الرَّحمة ، ولا يكون لها هذان العنصران المسمَّيان باليدين " . انظر : أساس التقديس (ص١٤١-١٤٢) .

وقال الإمام الرَّازي – أيضاً –: " وأمَّا جُمْهُورُ الْمُوَحِّدِينَ فَلَهُمْ فِي لَفْظِ الْيَدِ قَوْلَانِ :

الْأَوَّلُ : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : الْقُرْآنُ لَمَّا دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ الْيَدِ للهِ تَعَالَى آمَنَّا بِهِ ، وَالْعَقْلُ لَمَّا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ يَدُ اللهِ عِبَارَةً عَنْ جِسْمٍ مَخْصُوصٍ وَعُضْوٍ مُرَكَّبٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ آمَنَّا بِهِ ، فَأَمَّا أَنَّ

الْيَدَ مَا هِيَ وَمَا حَقِيقَتُهَا فَقَدْ فَوَّضْنَا مَعْرِفَتَهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَهَذَا هُوَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ " . انظر : التفسير الكبير (١٢/ ٣٩٥) .

وعند حديثه على قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَمِيْنُ اللهِ مَلأَىٰ " ، قال الإمام القرطبي : " قال أبو عيسى (٢٧٩هـ) هذا حديث حسن صحيح ، وهذا الحديث تفسير هذه الآية : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة : ٦٤] . وعن هذا الحديث قالت الأئمَّة : نؤمن به كما جاء من غير أن يفسَّر أو يُتوهم عيْنُه ، قاله غير واحد من الأئمَّة منهم : سفيان الثَّوري ، ومالك بن أنس ، وابن عيينة ، وابن المبارك : أنَّه تروىٰ هذه الأشياء ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف . وحكاه الخطَّابي عن الشَّافعيّ . وروىٰ البخاري والتِّرمذي عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ ، إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً تَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ ، حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ " . أخرجه البخاري (٢/ ١٠٨ ، برقم ١٤١٠) .

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ : وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي هَذَا الحَدِيثِ وَمَا يُشْبِهُ هَذَا مِنَ الرِّوَايَاتِ مِنَ الصِّفَاتِ : وَنُزُولِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، قَالُوا : قَدْ تَثْبُتُ الرِّوَايَاتُ فِي هَذَا وَيُؤْمَنُ بِهَا وَلاَ يُتَوَهَّمُ وَلاَ يُقَالُ : كَيْفَ ؟ " . انظر : الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٢/ ٢٢١) .

وروىٰ الإمام الذَّهبي بسنده عن الإمام أبي بكر عبد الله بن الزُّبير القرشي الأسدي الحميدي الحافظ الفقيه (٢١٩هـ) ، قال : أصول السُّنَّة ، فذكر أشياء منها ، قال : وما نطق به القرآن والحديث ، مثل : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة: ٦٤] ، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ، وما أشبه هذا لا نزيد فيه ، ولا نفسِّره ، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنَّة ، ونقول : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ، ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهمي " . انظر : تذكرة الحفاظ (٢/ ٣) .

فالإمام الذَّهبي يصف من فسَّر المتشابه بأنَّه متعدٍّ ، مدَّع ، صاحب قول مهجور ...

وروىٰ الإمام الذَّهبي في " سير أعلام النُّبلاء" (١٦/ ٢٩٥) بسنده عن الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن ابراهيم الاسماعيلي (٣٧١هـ) ، قوله : " اعْلَمُوا – رحِمَكُمُ اللهُ – أَنَّ مَذَاهِبَ أَهْلِ الحَدِيْثِ : الإِقرَارُ بِاللهِ

، وَملاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَقبولُ مَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ اللهِ ، وَمَا صحَّتْ بِهِ الرِّوَايَةُ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، لاَ مَعْدِلَ عَنْ ذَلِكَ .

وَيعتقِدُوْنَ بِأَنَّ اللهَ مدعُوٌّ بِأَسمَائِهِ الحُسْنَىٰ ، وَموصوفٌ بِصفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ ، وَوَصَفَهُ بِهَا نَبِيُّهُ، خَلَقَ آدَمَ بيَدَيْهِ ، وَيدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ بِلاَ اعْتِقَادِ كَيْفٍ ، وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ العِرشِ بِلاَ كَيْفٍ ، وَذكرَ سَائِرَ الاعْتِقَادِ " .

وفي الوَجْهِ المُضَافِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ قال الإمام عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التَّميمي (٤١٠هـ) في " اعتقاد الإمام ابن حنبل" (ص٢٩٤) في كلامه عن عقيدة الإمام أحمد بن حنبل : " ومذهب أبي عبدالله أحمد بن حنبل رضي الله عنه : أنَّ لله عزَّ وجلَّ وجهاً لا كالصُّور المصوَّرة ، والأعيان المخطَّطة ، بل وجه وصفه ، بقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] ، ومن غيَّر معناه ، فقد ألحد عنه ، وذلك عنده وجه في الحقيقة دون المجاز ، ووجه الله باق لا يبلىٰ ، وصفة له لا تفنىٰ ، ومن ادَّعىٰ أنَّ وجهه نفسه فقد ألحد ، ومن غيَّر معناه فقد كفر ، وليس معنىٰ وجه : معنىٰ جسد عنده ، ولا صورة ، ولا تخطيط ، ومن قال ذلك فقد ابتدع " .

وقال الإمام عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الدَّاني (٤٤٤هـ) في " الرِّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الدِّيانات" (ص١٢١-١٢٣) : " ... وأنَّه لم يزل مسمِّياً لنفسه بأسمائه ، وواصفاً لها بصفاته ، قبل إيجاد خلقه ، وأنَّه قديم بأسمائه وصفات ذاته التي منها : الحياة التي بان بها من الأموات والموات ، والقدرة التي أبدع بها الأجناس والذَّوات ، والعلم الذي أحكم به جميع المصنوعات ، وأحاط بجميع المعلومات ، والإرادة التي صرف بها جميع أصناف المخلوقات ، والسَّمع والبصر اللذان أدرك بهما جميع المسموعات والمبصرات ، والكلام الذي باين فيه أهل السُّكوت والخرس وذوي الآفات ، والبقاء الذي سبق به المكوّنات ، وباين معه جميع الفانيات ، كما أخبر تعالىٰ فقال : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الآية ... فنصَّ سبحانه علىٰ إثبات أسمائه وصفات ذاته ، فأخبر جلَّ ثناؤه أنَّه ذو الوجه الباقي بعد تقضي الماضيات ، وهلاك جميع المخلوقات ، وقال تعالىٰ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ، وقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ " .

وقال الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابوني (٤٤٩هـ) في "عقيدة السلف أصحاب الحديث" (ص١-٣) : " عقيدة أصحاب الحديث " : أصحاب الحديث ، حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم ، يشهدون لله تعالىٰ بالوحدانيَّة ، وللرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالرِّسالة والنُّبوَّة ، ويعرفون ربَّهم عزَّ وجلَّ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد له بها رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ما وردت الأخبار الصِّحاح به ، ونقلته العدول الثِّقات عنه ، ويثبتون له جلَّ جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه ، وعلىٰ لسان رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه ، فيقولون : إنَّه خلق آدم بيده ، كما نصَّ سبحانه عليه في قوله – عزَّ من قائل – : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ ، ولا يحرِّفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين علىٰ النِّعمتين ، أو القوَّتين ، تحريف المعتزلة الجهميَّة ، أهلكهم الله ، ولا يكيِّفونهما بكيف أو تشبيههما بأيدي المخلوقين ، تشبيه المشبِّهة ، خذلهم الله ، وقد أعاذ الله تعالىٰ أهل السنَّة من التَّحريف والتَّكييف ، ومنَّ عليهم بالتَّعريف والتَّفهيم ، حتَّىٰ سلكوا سبل التَّوحيد والتَّنزيه ، وتركوا القول بالتَّعطيل والتَّشبيه ، واتَّبعوا قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ .

قولهم في الصِّفات " : وكذلك يقولون في جميع الصِّفات التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصِّحاح من السَّمع ، والبصر ، والعين ، والوجه ، والعلم ، والقوَّة ، والقدرة ، والعزَّة ، والعظمة ، والإرادة ، والمشيئة ، والقول ، والكلام ، والرِّضا ، والسّخط ، والحياة ، واليقظة ، والفرح ، والضَّحك ، وغيرها ، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين ، بل ينتهون فيها إلىٰ ما قاله الله تعالىٰ ، وقاله رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه ، ولا تكييف له ولا تشبيه ، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، ولا إزالة للفظ الخبر عمَّا تعرفه العرب ، وتضعه عليه بتأويل منكر ، ويجرونه علىٰ الظَّاهر ، ويكِلون علمه إلىٰ الله تعالىٰ ، ويقرُّون بأنَّ تأويله لا يعلمه إلا الله ، كما أخبر الله عن الرَّاسخين في العلم أنَّهم يقولونه في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ " .

وقال الإمام الكرماني (٧٨٦هـ) في " الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري" (٢٥/١١٩-١٢٠) :
" قوله : " بوجهك " ، أي : بذاتك أو بالوجه الذي له لا كالوجوه أو بوجودك ، وقيل الوجه زائد ، وفي الجملة البرهان قائم على امتناع العضو المعلوم ، فلا بد من التَّأويل أو من التَّفويض " .

فالإمام الكرماني يصرِّح هنا بأنَّه يستحيل حمل الوجه على العضو المعروف ، وأنَّ الواجب حيال لفظ الوجه إنَّما هو التَّأويل ، أو التَّفويض .

وفي شرح حديث أبي موسى الأشعري ، الذي فيه : " وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلاَّ رداء الكبرياء على وجهه " نقل الحافظ ابن حجر في " فتح الباري شرح صحيح البخاري" (١٣/ ٤٣٢) عن الكرماني -أيضاً- قوله : " هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ ، فَإِمَّا مُفَوَّضٌ وَإِمَّا مُتَأَوَّلٌ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ ، وَالرِّدَاءُ صِفَةٌ مِنْ صِفَةِ الذَّاتِ اللَّازِمَةِ الْمُنَزَّهَةِ عَمَّا يُشْبِهُ الْمَخْلُوقَاتِ " .

قلت : وهذا هو مذهب جمهور علماء السَّلف وبعض الخلف الذين آمنوا بأنَّ الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ، وأنَّه تعالى بأفعاله وصفاته متعال عن الأشباه ... فآمنوا بالنُّصوص على مراد الله تعالى ومراد رسوله ، مع تفويضهم معانيها إلى الله تعالى وإلى رسوله ، مع العلم أنَّ العديد من علماء السَّلف ، وكذا جمهور الخلف قد أوّلوا لفظ الوجه الوارد في الآيات الكريمة بما يتناسب مع سياق الآية التي ورد فيها اللفظ ، حتَّى أنَّ الشَّيخ ابن تيمية نقل العديد من تأويلات علماء السَّلف للفظ الوجه الوارد في قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص : ٨٨] .

وممَّا قاله ابن تيمية في ذلك في "مجموع الفتاوى" (٢/ ٤٣٣) : " فَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨] ، أَيْ دِينَهُ وَإِرَادَتَهُ وَعِبَادَتَهُ وَالْمَصْدَرُ يُضَافُ إلَى الْفَاعِلِ تَارَةً وَإِلَى الْمَفْعُولِ أُخْرَى وَهُوَ قَوْلُهُمْ: مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢] ، فَكُلُّ مَعْبُودٍ دُونَ اللَّهِ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَا لَا يَكُونُ لِوَجْهِهِ فَهُوَ هَالِكٌ فَاسِدٌ بَاطِلٌ " .

وقال في "مجموع الفتاوى" (٨/ ١٦٦) : " وَقَالَ تَعَالَى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] ، كَمَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهَا : كُلُّ عَمَلٍ بَاطِلٌ إلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ ، فَمَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ اللهِ وَرَجَاهُ بَطَلَ سَعْيُهُ ..." .

وقال في "مجموع الفتاوى" (١٣/ ٢٠٢) : " وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] ، قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : كُلُّ عَمَلٍ بَاطِلٌ إلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ " .

وقال الإمام ابن تيمية في "الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح" (٤/ ٤١٤) ، (٥/ ١٥٤) : " وَقَوْلُهُ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، وَهَذَا قَدْ قَالَ فِيهِ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : فَثَمَّ قِبْلَةُ اللهِ " .

ونقل الإمام ابن تيمية في " بيان تلبيس الجهميَّة في تأسيس بدعهم الكلاميَّة" (١/ ٥٨١) عن ثلَّة من علماء السَّلف تأويلهم لقول الله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ .

فقد نقل عن مجاهد قوله : إلَّا هو ، وعن الضَّحَّاك : كلُّ شيء هالك إلَّا الله ، والجنَّة والنَّار ، والعرش ، وعن ابن كيسان : إلَّا مُلكه .

وقال في " تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتَّى لا يوجد في طائفة من كتب التَّفسير فيها القول الصَّواب بل لا يوجد فيها إلَّا ما هو خطأ "(١/ ٤١١) : " قال مجاهد في قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] ، قال : إلَّا ما أُريد به وجهه ـ وقال سفيان الثَّوري (١٦١هـ) : إلَّا ما ابتغي به وجهه ، كما يقال : ما يبقى إلَّا الله والعمل الصَّالح " .

وقال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٣/ ٢٠٢) : " وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] . قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : كُلُّ عَمَلٍ بَاطِلٌ إلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ " .

فابن تيمية في كلامه السَّابق نقل عدَّة تأويلات للوجه الُمضاف إلى الله تعالى من غير تعقيب ولا نكير ، بل إنَّه نقل عن بعض السَّلف أنَّهم أوَّلوا قول الله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨

] بـ : " كُلُّ عَمَلٍ بَاطِلٌ إلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ ، إلَّا ما ابتغي به وجهه ، كما يقال : ما يبقى إلَّا الله والعمل الصَّالح . فما رأي من يدَّعون ويزعمون أنَّهم على منهج السَّلف ؟!!!

وفي القبضة واليمين المُضافتين إلى الله تعالى قال الإمام البيهقي في "الأسماء والصِّفات" (٢/١٥٦) عند حديثه عن قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر:٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ – ٤٦] : " أَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُفَسِّرُوا مَا كَتَبْنَا مِنَ الْآيَتَيْنِ وَالْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْبَابِ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ بِأَجْمَعِهِمْ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّبْعِيضُ " .

ثمَّ ذكر في "الأسماء والصِّفات" (٢/١٥٦) أنَّ قتادة لم يفسِّر قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧] ، واتبع ذلك بقول سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ : كُلُّ مَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مِنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ فَتَفْسِيرُهُ تِلَاوَتُهُ وَالسُّكُوتُ عَلَيْهِ " .

وعليه ، فإنَّه لَمَّا كان ظاهر القبضة واليمين يوهم تشبيه الله تعالى بخلقه ، فإن الخير لمن لم يؤت حظّاً من العلم إنَّما هو باقتفاء أثر السَّلف الصَّالح المتمثِّل بتفويض جميع الألفاظ الموهمة للتَّشبيه إلى الله تعالى ...

[سؤال] : أذكر لنا بعضاً من أقوال العلماء في تفويض القدم المُضافة إلى الله تعالى ؟

الجواب : سبق أن ذكرنا أنَّه سبحانه وتعالى لا يجوز وصفه بالجوارح والأبعاض ، لأنَّ القواطع النَّقليَّة والعقليَّة قضت بذلك ، وإلَّا فلو وصفناه بها لتحقَّق معنا التَّناقض في آيات القرآن الكريم ، إذ لو أثبتنا له من الجوارح : اليد ، والقدم ، والإصبع ، والسَّاق و... و ... وأضفنا ذلك إلى قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨] ، وأجرينا النَّصَّ على ظاهرة للزم القول بفناء ما أثبتناه له من الأعضاء ، وهذا من المحال بحقِّه سبحانه وتعالى...

ولذلك فقد عمد العديد من علماء السَّلف الصَّالح وكذا بعض الخلف إلىٰ إمرار تلك الألفاظ ومنها القدم علىٰ ظاهر لفظها ، ولم يكشفوا عن باطن معناها ، علىٰ نحو مذهبهم في التَّوقُّف عن تفسير كل ما لا يحيط العلم بكنهه من هذا الباب .

قال الإمام البيهقي في " الأسماء والصِّفات" (٢/ ١٩٠) في كلامه علىٰ حديث القَدَم : " قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللهُّ : " فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ ذَكَرِ الْقَدَمَ وَالرِّجْلَ ، وَتَرَكِ الْإِضَافَةِ إِنَّمَا تَرَكَهَا تَهَيُّباً لَهَا ، وَطَلَبًا لِلسَّلَامَةِ مِنْ خَطَأِ التَّأْوِيلِ فِيهَا ، وَكَانَ أَبُو عُبَيْدٍ ، وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، يَقُولُ : نَحْنُ نَرْوِي هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَلَا نُرِيغُ لَهَا الْمَعَانِيَ " . قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : " وَنَحْنُ أَحْرَىٰ بِأَنْ لَا نَتَقَدَّمَ فِيمَا تَأَخَّرَ عَنْهُ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ عِلْماً وَأَقْدَمُ زَمَاناً وَسِنّاً ، وَلَكِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ قَدْ صَارَ أَهْلُهُ حِزْبَيْنِ : مُنْكِرٌ لِمَا يُرْوَىٰ مِنْ نَوْعِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ رَأْساً ، وَمُكَذِّبٌ بِهِ أَصْلاً ، وَفِي ذَلِكَ تَكْذِيبُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ رَوَوْا هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ وَنَقَلَةُ السُّنَنِ ، وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَىٰ مُسَلِّمَةٌ لِلرِّوَايَةِ فِيهَا ذَاهِبَةٌ فِي تَحْقِيقِ الظَّاهِرِ مِنْهَا مَذْهَباً يَكَادُ يُفْضِي بِهِمْ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ ، وَنَحْنُ نَرْغَبُ عَنِ الْأَمْرَيْنِ مَعاً ، وَلَا نَرْضَى بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا مَذْهَباً ، فَيَحِقُّ عَلَيْنَا أَنْ نَطْلُبَ لِمَا يَرِدُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ إِذَا صَحَّتْ مِنْ طَرِيقِ النَّقْلِ وَالسَّنَدِ ، تَأْوِيلاً يَخْرُجُ عَلَىٰ مَعَانِي أُصُولِ الدِّينِ ، وَمَذَاهِبِ الْعُلَمَاءِ ، وَلَا نُبْطِلُ الرِّوَايَةَ فِيهَا أَصْلاً ، إِذَا كَانَتْ طُرُقُهَا مُرْضِيَّةً وَنَقَلَتُهَا عُدُولاً " .

وقال الإمام البيهقي في " الأسماء والصِّفات" (٢/ ١٩٦) في كلامه علىٰ أثر : " الكرسي موضع القدمين " : " وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا فَإِنَّهُمْ لَمْ يُفَسِّرُوا أَمْثَالَ هَذِهِ ، وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِتَأْوِيلِهَا ، مَعَ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ وَاحِدٌ غَيْرُ مُتَبَعِّضٍ ، وَلَا ذِي جَارِحَةٍ " .

وقال في الأسماء والصِّفات" (٢/ ١٩٦) : " وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِي الرِّوَايَةِ هِيَ عِنْدَنَا حَقٌّ ، حَمَلَهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، غَيْرَ أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِهَا لَا نُفَسِّرُهَا وَمَا أَدْرَكْنَا أَحَداً يُفَسِّرُهَا " .

وقال الإمام أبو يعلىٰ في " إبطال التَّأويلات لأخبار الصِّفات" (١/ ٤٥ برقم ٩) : "وَقَالَ فِي رِوَايَةِ حَنْبَلٍ فِي الأَحَادِيثِ الَّتِي تُرْوَىٰ: " إِنَّ اللهَّ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يَنْزِلُ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا " وَاللهُّ يُرَىٰ " وَأَنَّهُ يَضَعُ

قَدَمَهُ " وَمَا أَشْبَهُ بِذَلِكَ، نُؤْمِنُ بِهَا وَنُصَدِّقُ بِهَا وَلا كَيْفَ وَلا مَعْنَىٰ وَلا نَرُدُّ شَيْئًا مِنْهَا، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَقٌّ إِذَا كَانَتْ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ" .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي في " دفع شُبه التَّشبيه بأكُفِّ التَّنزيه " (ص١٧٠) في كلامه علىٰ حديث : " لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، حتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ " : " الواجب علينا أن نعتقد أنَّ ذات الله تعالىٰ لا تتبعَّض ، ولا يحويها مكان ، ولا توصف بالتَّغيُّر ولا بالانتقال " .

وقال الإمام ابن قدامة في "ذم التَّأويل" (ص٢٢) : " قَالَ وَأَخْبرنِي عَليّ بن عِيسَىٰ أَنَّ حنبلاً حَدَّثهمْ قَالَ : سَأَلت أَبَا عبد الله عَن الْأَحَادِيث الَّتِي تروىٰ : إِنَّ الله تبَارك وَتَعَالَىٰ ينزل كلَّ لَيْلَة إِلَىٰ السَّمآء الدُّنْيَا ، وَأَنَّ الله يُرىٰ ، وَإِنَّ الله يضع قَدَمه ، وَمَا أشبهه ، فَقَالَ أَبُو عبد الله : نؤمن بهَا ونصدِّق بهَا ، وَلَا كَيفَ وَلَا مَعْنَىٰ ، وَلَا نردُّ مِنْهَا شَيْئاً ، ونعلم أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول حقّ إِذا كَانَت بأسانيد صِحَاح ، وَلَا نردُّ علىٰ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْله ، وَلَا يُوصف الله تَعَالَىٰ بِأَكْثَرَ مِمَّا وصف بِهِ نَفسه أَو وَصفه بِهِ رَسُوله ، بِلَا حدٍّ وَلَا غَايَة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ ١١] ، وَلَا يبلغ الواصفون صفته ، وَصِفَاته مِنْهُ ، وَلَا نتعدَّىٰ الْقُرْآن والْحَدِيث ، فَنَقُول كَمَا قَالَ وَنصفه كَمَا وصف نَفسه ، وَلَا نتعدَّىٰ ذَلِك ، نؤمن بِالْقُرْآنِ كُلِّه ، محكمه ومتشابهه ، وَلَا نزيل عَنهُ صفة من صِفَاته لشناعة شنعت" .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي في "الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ" (٢/٥٧) : " قال التِّرمذي: وقد روي عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روايات كثيرة مثل هذا ممَّا يذكر فيه أمر الرُّؤية ، وذكر القدم ، وما أشبه هذه الأشياء . والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمَّة ، مثل : سفيان الثَّوري ، ومالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، وابن المبارك ، ووكيع ، وغيرهم ، أنَّهم رووا هذه الأشياء ، وقالوا : تُروىٰ هذه الأحاديث ، ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث ، أن يرووا هذه

الأشياء كيف جاءت ويؤمن بها ، ولا تفسَّر ، ولا تتوهَّم ، ولا يقال : كيف ؟ قال : وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه " .

وقال الإمام ابن تيمية في " بيان تلبيس الجهميَّة في تأسيس بدعهم الكلاميَّة" (٢/ ٤٦٥) : " قَالَ الْخَلَّالُ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ أَنَّ حَنْبَلًا حَدَّثَهُمْ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُرْوَىٰ " «أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَنْزِلُ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا» «وَأَنَّ اللَّهَ يُرَىٰ» «وَأَنَّ اللَّهَ يَضَعُ قَدَمَهُ» " وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: نُؤْمِنُ بِهَا وَنُصَدِّقُ بِهَا وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَىٰ، وَلَا نَرُدُّ مِنْهَا شَيْئًا، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ إِذَا كَانَتْ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ وَلَا نَرُدُّ عَلَىٰ اللَّهِ قَوْلَهُ، وَلَا نَصِفُ اللَّهَ بِأَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِلَا حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ" . وانظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" (٤/ ١٦٨) ، درء تعارض العقل والنَّقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول" (٢/ ٣٠-٣١) ، التسعينيَّة" (١/ ٣١٧) .

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة في " مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهميَّة والمعطِّلة" (ص٤٦٩) : " وَقَالَ الْخَلَّالُ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ أَنَّ حَنْبَلًا حَدَّثَهُمْ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُرْوَىٰ " «أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَنْزِلُ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا» «وَأَنَّ اللَّهَ يُرَىٰ» «وَأَنَّ اللَّهَ يَضَعُ قَدَمَهُ» " وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: نُؤْمِنُ بِهَا وَنُصَدِّقُ بِهَا وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَىٰ، وَلَا نَرُدُّ مِنْهَا شَيْئًا، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ إِذَا كَانَتْ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ وَلَا نَرُدُّ عَلَىٰ اللَّهِ قَوْلَهُ، وَلَا نَصِفُ اللَّهَ بِأَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِلَا حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهَذَا الْكَلَامُ وَكَلَامُ الشَّافِعِيِّ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ" .

وقال الإمام الذَّهبي في " سير أعلام النُّبلاء" (١٠/ ٥٠٥-٥٠٦) : " أَخْبَرَنَا أَبُو محمَّد بنُ عُلْوَانَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ إِبْرَاهِيْمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ المُغِيْثِ بنُ زُهَيْرٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بنُ عُبَيْدِ الله، حَدَّثَنَا محمَّد بنُ عَلِيٍّ العُشَارِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الدَّارَقُطْنِيُّ، أَخْبَرَنَا محمَّد بنُ مَخْلَدٍ، أَخْبَرَنَا العَبَّاسُ الدُّوْرِيُّ، سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ القَاسِمَ بنَ سَلاَّمٍ - وَذَكَرَ البَابَ الَّذِي يُرْوَىٰ فِيْهِ الرُّؤْيَةُ، وَالكُرْسِيُّ مَوْضِعَ القَدَمَيْنِ ، وَضَحِكُ رَبِّنَا، وَأَيْنَ كَانَ رَبُّنَا - فَقَالَ: هَذِهِ أَحَادِيْثُ صِحَاحٌ ، حَمَلَهَا أَصْحَابُ الحَدِيْثِ وَالفُقَهَاءُ بَعْضُهُم عَنْ بَعْضٍ، وَهِيَ عِنْدَنَا حَقٌّ لاَ نَشُكُّ فِيْهَا، وَلَكِن إِذَا قِيْلَ: كَيْفَ يَضْحَكُ؟ وَكَيْفَ وَضَعَ قَدَمَهُ؟ قُلْنَا: لاَ نُفَسِّرُ هَذَا، وَلاَ سَمِعْنَا أَحَداً يُفَسِّرُهُ" .

وقال الإمام الذَّهبي في " العرش" (ص٢٥٨) : " أخبر أبو عبد الله أنَّه على العرش بلا حدٍّ يحدُّه أحد أو صفة يبلغها واصف، وأتبع ذلك بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بحدٍّ ولا غاية، وهذا التَّفسير الصَّحيح للإدارك: أي لا تحيط الأبصار بحدِّه ولا غايته؛ ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ، وهو عالم الغيب والشَّهادة، علَّام الغيوب، ليتبيَّن أنَّه عالم بنفسه وبكلِّ شيء.

وقال الخلَّال: "وأخبرني علي بن عيسى أنَّ حنبلاً حدَّثهم، قال: سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تُروى "أنَّ الله تبارك وتعالى ينزل إلى السَّماء الدُّنيا" و"أنَّ الله يضع قَدَمَه" وما أشبه هذه الأحاديث، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها، ونصدِّق بها ولا كيْف، ولا مَعْنَى، ولا نردُّ منها شيئاً، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسول حقٌّ إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا نردُّ على الله قوله، ولا يوصف بأكثر مما وصف به نفسه ولا حّد ولا غاية، ليس كمثله شيء" .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري شرح صحيح البخاري" (٨/ ٥٩٦) : " وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالْقَدَمِ ، فَطَرِيقُ السَّلَفِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ مَشْهُورَةٌ ، وَهُوَ أَنْ تَمُرَّ كَمَا جَاءَتْ ، وَلَا يُتَعَرَّضُ لِتَأْوِيلِهِ ، بَلْ نَعْتَقِدُ اسْتِحَالَةَ مَا يُوهم النَّقْص على الله ، وَخَاضَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ " .

قال الإمام بدر الدِّين العيني "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" (١٨٨/١٩) في كلامه على حديث القدم : " اعْلَم أَن هَذِه الْأَحَادِيث من مشاهير أَحَادِيث الصِّفَات ، وَالْعُلَمَاء فِيهَا على مذهبين:

أَحدهمَا : مَذْهَب المفوِّضة ، وَهُوَ الْإِيمَان بِأَنَّهَا حقٌّ على مَا أَرَادَ الله ، وَلها معنى يَلِيق بِهِ وظاهرها غير مُرَاد وَعَلِيهِ جُمْهُور السّلف وَطَائِفَة من الْمُتَكَلِّمين .

وَالْآخر : مَذْهَب المؤولة ، وَهُوَ مَذْهَب جُمْهُور الْمُتَكَلِّمين " .

وفي الأصابع الُمضافة إلى الله تعالى قال الإمام ابن عبد البر القرطبي في " التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد" (١٤٨/٧-١٥١) في كلامه على أحاديث : الرؤية ، والصُّورة ، والنُّزول ، والقَدَم ، والإصبع ... : " الَّذِي عَلَيْهِ أهل السُّنَّة وَأَئِمَّةُ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا : الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا ، وَالتَّصْدِيقُ بِذَلِكَ ، وَتَرْكُ التَّحْدِيدِ وَالْكَيْفِيَّةِ فِي شَيْءٍ مِنْهُ .

أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ خَلَفُ بْنُ الْقَاسِمِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْوَرْدِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاق ، قَالَ : حَدَّثَنا أَبُو دَاوُدَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ نَصْرٍ أَنَّهُ سَأَلَ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ ، قَالَ : حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْعَلُ السَّمَاءَ عَلَىٰ أُصْبُعٍ ، وَحَدِيثُ إِنَّ قلوب بني آدَمَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَعْجَبُ أَوْ يَضْحَكُ مِمَّنْ يَذْكُرُهُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَنَحْوُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، فَقَالَ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ نَرْوِيهَا وَنُقِرُّ بِهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ .

قَالَ أَبُو دَاوُدَ : وَحَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ محمَّد ، قَالَ : سَمِعْتُ الْهَيْثَمَ بْنَ خَارِجَةَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ (١٥٧هـ) ، وَسُفْيَانَ الثَّوري (١٦١) ، ومالك بْنَ أَنَسٍ (١٧٩هـ) ، وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ (١٧٥هـ) عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الصِّفَاتِ ، فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ .

وَذَكَرَ عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ (٢٧١هـ) ، قَالَ : سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ (٢٣٣هـ) ، يَقُولُ : شَهِدْتُ زَكَرِيَّا بْنَ عَدِيٍّ سَأَلَ وَكِيعَ بْنَ الْجَرَّاحِ (١٩٧هـ) ، فَقَالَ : يَا أَبَا سُفْيَانَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ ، يَعْنِي : مِثْلَ الْكُرْسِيُّ مَوْضِعَ الْقَدَمَيْنِ ، وَنَحْوِ هَذَا ، فَقَالَ : أَدْرَكْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ (١٤٦هـ) ، وَسُفْيَانَ (١٦١هـ) ، وَمِسْعَراً (١٥٥هـ) يُحَدِّثُونَ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، وَلَا يُفَسِّرُونَ شَيْئاً . قَالَ عَبَّاسُ بْنُ محمَّد الدُّورِيُّ (٢٧١هـ) : وَسَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ الْقَاسِمَ بْنَ سَلَّامٍ (٢٢٤هـ) وَذَكَرَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أهل السُّنَّة أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُرْوَىٰ فِي الرُّؤْيَةِ ، وَالْكُرْسِيِّ مَوْضِعَ الْقَدَمَيْنِ ، وَضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عباده ، وأَنَّ جهنَّم لتمتلىء وَأَشْبَاهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، وَقَالُوا : إِنَّ فُلَاناً يَقُولُ : يَقَعُ فِي قُلُوبِنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيث حَقٌّ ، فَقَالَ ضَعَّفْتُمْ عِنْدِي أَمْرَهُ ، هَذِهِ الْأَحَادِيثُ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهَا ، رَوَاهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، إِلَّا أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ لَمْ نُفَسِّرْهَا ، وَلَمْ نَذْكُرْ أَحداً يُفَسِّرُهَا ، وَقَدْ كَانَ مَالِكٌ يُنْكِرُ عَلَىٰ مَنْ حَدَّثَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، ذَكَرَهُ أَصْبَغُ وَعِيسَىٰ عن ابن القاسم ، قال : سألت مالكاً عَمَّنْ يُحَدِّثُ الْحَدِيثَ : " إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ علىٰ وصورته " ، وَالْحَدِيثَ : " إِنَّ اللَّهَ

يَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ، " وَإِنَّهُ يُدْخِلُ فِي النَّارِ يَدَهُ حتَّىٰ يُخْرِجَ مَنْ أَرَادَ " ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً ، وَنَهَىٰ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِ أَحَداً ، وَإِنَّمَا كَرِهَ ذلك مالك خَشْيَةَ الْخَوْضِ فِي التَّشْبِيهِ بِكَيْفٍ هَاهُنَا .

وَأَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ محمَّد بْنِ عَلِيٍّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ وَضَّاحٍ ، سَأَلْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ (٢٣٣هـ) عَنِ التَّنَزُّلِ ، فقَالَ : أَقِرَّ بِهِ وَلَا تُحِدَّ فِيهِ بِقَوْلٍ ، كُلُّ مَنْ لَقِيتُ مِنْ أهل السُّنَّة يُصَدِّقُ بِحَدِيثِ التَّنَزُّلِ ، قَالَ : وَقَالَ لِيَ ابْنُ مَعِينٍ : صَدِّقْ بِهِ ، وَلَا تَصِفْهُ .

وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ بِشْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دُلَيْمٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَضَّاحٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ عَنِ التَّنَزُّلِ ، فَقَالَ : أَقِرَّ بِهِ ، وَلَا تُحِدَّ فِيهِ " .

وقـال الإمام ابن الجوزي في " دفع شُبَه التَّشبيه بأكُفِّ التَّنزيه " (ص٢٠٦) : " قال أبو سليمان الخطَّابي : لا تثبت لله صفة إلَّا بالكتاب أو خبر مقطوع بصحَّته يستند إلىٰ أصل في الكتاب أو في السنَّة المقطوع علىٰ صحَّتها ، وما بخلاف ذلك ، فالواجب التَّوقُّف عن إطلاق ذلك ، ويتأوَّل علىٰ ما يليق بمعاني الأصول المتَّفق عليها من أقوال أهل العلم من نفي التَّشبيه .

قال : وذكر الأصابع لم يوجد في الكتاب ولا في السُّنَّة التي شرطها في الثُّبوت ما وصفنا ، فليس معنىٰ اليد في الصِّفات معنىٰ اليد حتَّىٰ يتوهَّم بثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف شرعيٌّ أطلقنا الاسم فيه علىٰ ما جاء به الكتاب من غير تكييف ولا تشبيه .

قلت : ظاهر ضحك النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإنكار ، واليهود مشبِّهة ، ونزول الآية دليل علىٰ إنكار الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وقال الإمام القرطبي في " الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ " (٢/ ٣٥) : " قال الخطَّابي : وذكر الأصابع لم يوجد في شيء من الكتاب ولا من السنَّة المقطوع بصحَّتها .

وقال غيره : ذلك ثابت صحيح في السُّنَّة ، لكن الواجب في هذا أن تمرَّ كما جاءت من غير أن يقال فيها : إنَّ معناها النعم ، ولا يقال : أصابع لا كأصابعنا ، ولا كأيدينا ، ولا قبضة كقبضتنا " .

وقال الإمام النَّووي في "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج (١٦/ ٢٠٤) في كلامه على حديث : " إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ : " هَذَا مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَفِيهَا الْقَوْلَانِ السَّابِقَانِ قَرِيباً :

أَحَدُهُمَا : الْإِيمَانُ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلٍ ، وَلَا لِمَعْرِفَةِ الْمَعْنَى ، بَلْ يُؤْمَنُ بِأَنَّهَا حَقٌّ ، وَأَنَّ ظَاهِرَهَا غَيْرُ مُرَادٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] .

وَالثَّانِي : يُتَأَوَّلُ بِحَسَبِ مَا يَلِيقُ بِهَا ، فَعَلَى هَذَا الْمُرَادُ الْمَجَازُ ، كَمَا يُقَالُ : فُلَانٌ فِي قَبْضَتِي وَفِي كَفِّي ، لَا يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ حَالٌّ فِي كَفِّهِ ، بَلِ الْمُرَادُ تَحْتَ قُدْرَتِي ، وَيُقَالُ : فُلَانٌ بَيْنَ إِصْبَعِي أُقَلِّبُهُ كَيْفَ شِئْتُ ، أَيْ : أَنَّهُ مِنِّي عَلَى قَهْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُ ، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَصَرِّفٌ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَغَيْرِهَا كَيْفَ شَاءَ ، لا يمتنع عليه منها شيء ، ولا يفوته ما أراده ، كما لا يمتنع عَلَى الْإِنْسَانِ مَا كَانَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ ، فَخَاطَبَ الْعَرَبَ بِمَا يَفْهَمُونَهُ ، وَمَثَّلَهُ بِالْمَعَانِي الْحِسِّيَّةِ تَأْكِيداً لَهُ فِي نُفُوسِهِمْ ، فَإِنْ قِيلَ : فَقُدْرَةُ اللهِ تَعَالَى وَاحِدَةٌ ، وَالْإِصْبَعَانِ لِلتَّثْنِيَةِ ، فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنَّ هَذَا مَجَازٌ وَاسْتِعَارَةٌ ، فَوَقَعَ التَّمْثِيلُ بحسب ما عتادوه غَيْرُ مَقْصُودٍ بِهِ التَّثْنِيَةُ وَالْجَمْعُ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ " .

وقال الإمام النَّووي المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج" (١٧/ ١٢٩-١٣١) : " قَوْلُهُ : " إِنَّ اللهَ يُمْسِكَ السَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ ، إِلَى قَوْلِهِ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ " ، هَذَا مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَقَدْ سَبَقَ فِيهَا الْمَذْهَبَانِ : التَّأْوِيلُ ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْهُ ، مَعَ الْإِيمَانِ بِهَا ، مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ الظَّاهِرَ مِنْهَا غَيْرُ مُرَادٍ ، فَعَلَى قَوْلِ الْمُتَأَوِّلِينَ يَتَأَوَّلُونَ الْأَصَابِعَ هُنَا عَلَى الِاقْتِدَارِ ، أَيْ : خَلَقَهَا مَعَ عِظَمِهَا بِلَا تَعَبٍ وَلَا مَلَلٍ ، وَالنَّاسُ يَذْكُرُونَ الْإِصْبَعَ فِي مِثْلِ هَذَا لِلْمُبَالَغَةِ وَالِاحْتِقَارِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : بِأُصْبُعِي أَقْتُلُ زيداً ، أي : بِلَا كُلْفَةَ عَلَيَّ فِي قَتْلِهِ ، وَقِيلَ : يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَصَابِعَ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَهَذَا غَيْرُ مُمْتَنِعٍ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ يَدَ الْجَارِحَةِ مُسْتَحِيلَةٌ ... قَالَ الْقَاضِي : وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ : لَيْسَ ضَحِكُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعَجُّبُهُ وتلاوته للآية تَصْدِيقاً لِلْحَبْرِ ، بَلْ هُوَ رَدٌّ لِقَوْلِهِ ، وَإِنْكَارٌ وَتَعَجُّبٌ مِنْ سُوءِ اعْتِقَادِهِ ، فَإِنَّ مَذْهَبَ الْيَهُودِ التَّجْسِيمُ ، فَفُهِمَ مِنْهُ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : " تَصْدِيقًا لَهُ " ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الرَّاوِي عَلَى مَا فُهِمَ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ " .

وقال الإمام الذَّهبي في "سير أعلام النُّبلاء " (٨/ ٤٦٦-٤٦٧) : " وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ الدَّوْرَقِيُّ : حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بنُ نَصْرٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عُيَيْنَةَ ، وَجَعلتُ أُلِحُّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : دَعْنِي أَتَنَفَّسُ .

فَقُلْتُ : كَيْفَ حَدِيْثُ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " إِنَّ اللهَ يَحْمِلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ " .

وَحَدِيْثُ : " إِنَّ قُلُوْبَ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ " .

وَحَدِيْثُ : " إِنَّ اللهَ يَعْجَبُ - أَوْ يَضْحَكُ - مِمَّنْ يَذْكُرُهُ فِي الأَسْوَاقِ " .

فَقَالَ سُفْيَانُ : هِيَ كَمَا جَاءتْ ، نُقِرُّ بِهَا ، وَنُحَدِّثُ بِهَا بِلاَ كَيْفٍ " .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري شرح صحيح البخاري" (١٣/ ٣٩٨) : " قَالَ الْخَطَّابِيُّ : لَمْ يَقَعْ ذِكْرُ الْإِصْبَعِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي حَدِيثٍ مَقْطُوعٍ بِهِ ، وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْيَدَ لَيْسَتْ بِجَارِحَةٍ حَتَّى يُتَوَهَّمَ مِنْ ثُبُوتِهَا ثُبُوتُ الْأَصَابِعِ ، بَلْ هُوَ تَوْقِيفٌ أَطْلَقَهُ الشَّارِعُ فَلَا يُكَيَّفُ وَلَا يُشَبَّهُ ، وَلَعَلَّ ذِكْرُ الْأَصَابِعِ مِنْ تَخْلِيطِ الْيَهُودِيِّ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ مُشَبِّهَةٌ ، وَفِيمَا يَدَّعُونَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ أَلْفَاظٌ تَدْخُلُ فِي بَابِ التَّشْبِيهِ وَلَا تَدْخُلُ فِي مَذَاهِبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا ضَحِكُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِ الْحَبْرِ فَيَحْتَمِلُ الرِّضَا وَالْإِنْكَارَ ، وَأَمَّا قَوْلُ الرَّاوِي تَصْدِيقاً لَهُ فَظَنٌّ مِنْهُ وَحُسْبَانٌ ، وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ لَيْسَ فِيهَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ ، وَعَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهَا ، فَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِحُمْرَةِ الْوَجْهِ عَلَى الْخَجَلِ وَبِصُفْرَتِهِ عَلَى الْوَجَلِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَقَدْ تَكُونُ الْحُمْرَةُ لِأَمْرٍ حَدَثَ فِي الْبَدَنِ ، كَثَوَرَانِ الدَّمِ وَالصُّفْرَةِ لِثَوَرَانِ خُلطَ مِنْ مِرَارٍ وَغَيْرِهِ ، وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَحْفُوظاً فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى : ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧] ، أَيْ : قُدْرَتُهُ عَلَى طَيِّهَا وَسُهُولَةُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ فِي جَمْعِهَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَمَعَ شَيْئاً فِي كَفِّهِ وَاسْتَقَلَّ بِحَمْلِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْمَعَ كَفَّهُ عَلَيْهِ ، بَلْ يُقِلُّهُ بِبَعْضِ أَصَابِعِهِ ، وَقَدْ جَرَى فِي أَمْثَالِهِمْ : فُلَانٌ يُقِلُّ كَذَا بِإِصْبَعِهِ ، وَيَعْمَلُهُ بِخِنْصَرِهِ ، انْتَهَى مُلَخَّصاً .

وَقَدْ تَعَقَّبَ بَعْضُهُمْ إِنْكَارَ وُرُودِ الْأَصَابِعِ لِوُرُودِهِ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ ، كالحديث الَّذِي أخرجه مُسلم " إِنَّ قلب بن آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ " ، وَلَا يرد عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ انما نفى الْقطع ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُفْهِمِ : قَوْلُهُ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ هَذَا كُلُّهُ قَوْلُ الْيَهُودِيِّ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ

التَّجْسِيمَ ، وَأَنَّ اللهَّ شَخْصٌ ذُو جَوَارِحَ ، كَمَا يَعْتَقِدُهُ غُلَاةُ الْمُشَبِّهَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَضَحِكُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ جَهْلِ الْيَهُودِيِّ ، وَلِهَذَا قَرَأَ عِنْدَ ذَلِكَ : **﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾**[الزمر: ٦٧] ، أَيْ : مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ ، فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ هِيَ الصَّحِيحَةُ الْمُحَقَّقَةُ ، وَأَمَّا مَنْ زَادَ وَتَصْدِيقاً لَهُ فَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الرَّاوِي وَهِيَ بَاطِلَةٌ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصَدِّقُ الْمُحَالَ ، وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ فِي حَقِّ اللهِ مُحَالٌ ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَا يَدٍ وَأَصَابِعَ وَجَوَارِحَ كَانَ كَوَاحِدٍ مِنَّا ، فَكَانَ يَجِبُ لَهُ مِنَ الِافْتِقَارِ وَالْحُدُوثِ وَالنَّقْصِ وَالْعَجْزِ مَا يَجِبُ لَنَا ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً ، إِذْ لَوْ جَازَتِ الْإِلَهِيَّةُ لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لَصَحَّتْ لِلدَّجَّالِ ، وَهُوَ مُحَالٌ ، فَالْمُفْضِي إِلَيْهِ كَذِبٌ ، فَقَوْلُ الْيَهُودِيِّ كَذِبٌ وَمُحَالٌ ،وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قدره وَإِنَّمَا تَعَجَّبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَهْلِهِ فَظَنَّ الرَّاوِي أَنَّ ذَلِكَ التَّعَجُّبَ تَصْدِيقٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنْ قِيلَ قَدْ صَحَّ حَدِيثُ : " إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ " ، فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ إِذَا جَاءَنَا مِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ الصَّادِقِ تَأَوَّلْنَاهُ أَوْ تَوَقَّفْنَا فِيهِ إِلَى أَنْ يَتبَيَّنَ وَجْهُهُ مَعَ الْقَطْعِ بِاسْتِحَالَةِ ظَاهِرِهِ " .

قلت : وهذا هو مذهب جمهور علماء السَّلف في مثل هذه النُّصوص...

فممَّا سبق بيانه يتبيَّن لنا أنَّ جمهور السَّلف الصَّالح ذهبوا بالأصبع مذهبهم في جميع الظَّواهر الموهمة للتَّشبيه ، فنصُّوا على وجوب الإقرار بها مع الإمرار من غير كيف ...

وفي الإتيان المُضاف إلى الله تعالى قال الإمام أَبُو القَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ في في "التَّفسير الكبير " (١/٣٥٨-٣٥٩) في تفسير قول الله تعالى : **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾** : " افترق النَّاس في تفسير هذه الآية على أربعة أقوال : ... وفرقة يفسِّرون الإتيان تفسيراً مجملاً لا يعدون ظاهر اللفظ ، يقولون : يأتي كيف يشاء بلا كيف . وهذا غير مرضٍ أيضاً .

وأمَّا الفرقتان الأخريان من أهل السُّنَّة ، فإحداهما لا يفسِّرون هذه الآية ، ويقولون : نؤمن بظاهرها ، ونسكت عن الخوض في معناها ، لما فيه من الاشتباه والتَّشبيه . وقال الكلبي (١٤٦هـ) : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وقال ابن عبَّاس: نؤمن بها ولا نفسِّرها ، كما قال تعالى في المتشابهات : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٧] .

وأمَّا الفرقة الرَّابعة ، فيفسِّرونها ، ويردُّون هذه المتشابهات إلى الآيات المحكمات ، ويقولون : معناها : ما ينظر الكفار بعد قيام الحجَّة عليهم ، إلَّا أن يأتيهم أمر الله ، وهو الحساب ، أو أن يأتيهم عذاب الله ، لأنَّ الإتيان لفظ مشتبه يحتمل حقيقة الإتيان ، ويحتمل إتيان الأمر ، وقد قامت الدّلالة على أنَّ الله تعالى لا يجوز عليه الإتيان والمجيء والانتقال والمزاولة ، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام والمحْدَثين ، والله تعالى منزَّه عن ذلك ، قال عليٌّ رضي الله عنه : " من زعم أنَّ الله في شيء أو من شيء أو على شيء ، فقد ألحد ، لأنَّه لو كان من شيء لكان محدثاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان على شيء لكان محمولاً " . وإذا كان لفظ الإتيان مشتبهاً ، وجب ردُّه إلى المحكم ، نحو قوله في سورة النَّحل ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾[النحل: ٣٣] .

وقال بعضهم : معناه : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام وبالملائكة أو مع الملائكة ، فتكون في معنى الباء ، فعلى هذا التَّأويل زال الإشكال وسهل الأمر . وأمَّا ذكر الظلّة في الآية ، فإنَّ الهول إذا جاء من الظلّة المظلمة من السَّحاب ، كان أعظم وأشدّ ، يدلُّ عليه قوله تعالى في قصَّة شعيب : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: ١٨٩] .

فقد ذكر الإمام الطَّبراني في كلامه السَّابق أنَّ النَّاس افترقوا في تفسير الإتيان الوارد في الآية ، فذكر ما عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف الذين قالوا : نؤمن بظاهرها ، ونسكت عن الخوض في معناها ، لما فيه من الاشتباه والتَّشبيه ، وذكر أيضاً ما عليه جمهور الخلف وبعض السَّلف الذين فسَّروا الآية بردِّ المتشابه إلى المحكم ، وقالوا في تفسيرها : ما ينظر الكفَّار بعد قيام الحجَّة عليهم ، إلَّا أن يأتيهم أمر الله ، وهو الحساب ، أو أن يأتيهم عذاب الله ، لأنَّ الإتيان لفظ مشتبه يحتمل حقيقة

الإتيان ، ويحتمل إتيان الأمر ، وقد قامت الدّلالة على أنَّ الله تعالى لا يجوز عليه الإتيان والمجيء والانتقال والمزاولة ، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام والمحْدَثين ، والله تعالى منزَّه عن ذلك .

وذكر ما عليه المشبِّهة والمجسِّمة الذين آمنوا بظاهر اللفظ والمعنى ، فوصفوا الله تعالى بالإتيان الذي هو زوال من مكان إلى مكان . وهذا القول غير مرضٍ ، لأنَّ الأُمَّة أجمعت على نفي الحركة والسُّكون عنه سبحانه ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ، وقد قال الإمام الطَّحاوي (٣٢١هـ) في عقيدته التي تلقَّتها الأمَّة بالقبول – على ما نقله السُّبْكِي – : " ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر " ، ومن المعلوم أنَّ الحركة والسُّكون من أعراض الحدث وأوصاف المخلوقين ، فهما من معاني البشر ...

وقال الإمام محمَّد بن أحمد بن الأزهري في " تهذيب اللغة" (٣/ ١٥٦-١٥٧) : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[البقرة: ٢١٠] ، فالغمام مَعْرُوف فِي كَلَام الْعَرَب ، إلاّ أَنا لَا نَدْرِي كَيفَ الْغَمام الَّذِي يَأْتِي الله جلّ وعزّ يَوْم الْقِيَامَة فِي ظُلَل مِنْهُ فَنحْن نؤمن بِهِ ، وَلَا نكيِّف صفته . وَكَذَلِكَ سَائِر صِفَات الله جلّ وعزّ " .

وهنا يذهب الإمام أبو منصور الهروي مذهب التَّأويل الإجمالي من غير خوض في المعنى ، وهذا مذهب جمهور السَّلف وبعض الخلف ...

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي في " بحر العلوم" (١/ ١٦٥) في تفسير قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[البقرة : ٢١٠] ، أي : ما ينظرون . وقال ابن عبَّاس في رواية أبي صالح (توفي ما بين ٩٠-١٠٠هـ) : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ... وروى عبد الرزَّاق ، عن سفيان الثَّوري ، قال : قال ابن عبَّاس : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير يعلمه العلماء، وتفسير تعرفه العرب، وتفسير لا يقدر أحد عليه لجهالته، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن ادعى علمه فهو كاذب. وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٧] وكذلك هذه الآية سكت بعضهم

عن تأويلها وقالوا: لا يعلم تأويلها إلا الله. وبعضهم تأولها فقال: هذا وعيد للكفار، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ، أي ما ينتظرون ولا يؤمنون ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني أمر الله تعالى، كما قال في موضع آخر: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] ، يعني أمر الله. وقال بعضهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني بما وعد لهم مِنَ العذاب. ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ، يعني في غمام فيه ظلمة. وقيل في ظلل يعني بظلل. وقال: على غمام فيه ظلمة" .

فالإمام السَّمرقندي ذكر أقوال العلماء في الإتيان ، وأنَّ السَّلف قالوا : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، فلا يعلم تأويلها إلَّا الله ، وأنَّ البعض ذهب إلى تأويلها ، فقال : هذا وعيدٌ للكفار ، والمعنى : ما ينتظرون ولا يؤمنون﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ، يعني : أمرُ الله تعالى ، أو بما وعد لهم مِنَ العذاب .

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي في "بحر العلوم" (١/ ٥١٤) : ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾[الأنعام : ١٥٨] ، يعني : يأتي أمرُ ربِّك بما وعد لهم ، كقوله : ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾[الحشر: ٢] ، ويقال : أن تأتي عقوبة ربِّك وعذابه . وقد ذكر المضاف إليه ويراد به المضاف . كقوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] ، يعني : أهل القرية . وكقوله : ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[البقرة: ٩٣] ، يعني : حبَّ العجل . كذلك هاهنا يأتي أمرُ ربك ، يعني : عقوبة ربِّك وعذاب ربِّك . ويقال : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله " .

وقال الإمام الخطَّابي في "معالم السُّنن "(٤/ ٣٣١-٣٣٢) : " قلت : مذهب علماء السَّلف وأئمَّة الفقهاء أن يُجروا مثل هذه الأحاديث على ظاهرها ، وأن لا يريغوا لها المعاني ، ولا يتأوَّلوها ، لعلمهم بقصور علمهم عن دركها .

حدَّثنا الزَّعفراني ، حدَّثنا ابن أبي خيثمة ، حدَّثنا عبد الوهَّاب بن نجدة الحوطي ، حدَّثنا بقيَّة ، عن الأوزاعي ، قال : كان مكحول ، والزُّهري يقولان : أمرُّوا الأحاديث كما جاءت .

قلت : وهذا من العلم الذي أُمرنا أن نؤمن بظاهره ، وأن لا نكشف عن باطنه ، وهو من جملة المتشابه الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في كتابه ، فقال : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران : ٧] الآية ؛ فالمُحكم منه يقع به العلم الحقيقي والعمل ، والمتشابه يقع به الإيمان والعلم بالظَّاهر ، ونوكل باطنه إلىٰ الله سبحانه ؛ وهو معنىٰ قوله : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٧] ، وإنما حظُّ الرَّاسخين في العلم أن يقولوا : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران : ٧] ، وكذلك كلّ ما جاء من هذا الباب في القرآن ، كقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[البقرة : ٢١٠] ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر : ٢٢] ، والقول في جميع ذلك عند علماء السَّلف : هو ما قلنا ، وقد روي مثل ذلك عن جماعة من الصَّحابة . وقد زلَّ بعض شيوخ أهل الحديث ممن يرجع إلىٰ معرفته بالحديث والرِّجال ، فحاد عن هذه الطَّريقة ، حين روىٰ حديث النُّزول ، ثمَّ أقبل يسأل نفسه عليه ، فقال : إن قال قائل : كيف ينزل ربُّنا إلىٰ السَّماء ؟ قيل له : ينزل كيف شاء ، فإن قال : هل يتحرَّك إذا نزل أم لا ؟ فقال : إن شاء تحرَّك ، وإن شاء لم يتحرَّك .

قلت : وهذا خطأ فاحش ، والله سبحانه لا يوصف بالحركة ، لأنَّ الحركة والسُّكون يتعاقبان في محلٍّ واحد ، وإنَّما يجوز أن يوصف بالحركة مَنْ يجوز أن يوصف بالسُّكون ، وكلاهما من أعراض الحدث ، وأوصاف المخلوقين ، والله جلَّ وعزَّ متعال عنهما ، ليس كمثله شيء ، فلو جرىٰ هذا الشَّيخ – عفا الله عنا وعنه – علىٰ طريقة السَّلف الصَّالح ، ولم يُدخل نفسه فيما لا يعنيه ، لم يكن يخرج به القول إلىٰ مثل هذا الخطأ الفاحش ، وإنَّما ذكرت هذا لكي يتوقَّىٰ الكلام فيما كان من هذا النَّوع ، فإنه لا يثمر خيراً ، ولا يفيد رشداً ، ونسأل الله العصمة من الضَّلال ، والقول بما لا يجوز من الفاسد المحال " .

وفي المجيء المُضاف إلىٰ الله تعالىٰ قال حَبْرُ الأمَّة وتُرجمان القرآن : عبد الله بن عبَّاس ، رضي الله عنهما ، في تفسير المجيء الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر : ٢٢] ، قال : أمره

وقضاؤه " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٤٨٤ ، ٤٨٥) ، غرائب التفسير وعجائب التأويل(٢/١٣٣٨) ، الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب (ص٣٣١ برقم ٨٦٨) ...

وقال الإمام الرَّبيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري (توفي ما بين سنة ١٧١ و١٨٠هـ) في "الجامع الصَّحيح مسند الإمام الرَّبيع بن حبيب "(١/ ٣٣١) : " ... وكذلك قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، يعني : بأمره وقضائه ، قال ابن عبَّاس (٦٨هـ) ، والحسن (١١٠هـ) ، وأبو صالح (توفي ما بين ٩٠-١٠٠هـ) ، وعمرو : ومعنىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، أي : وجاء أمرُ ربِّك ، أي : قضاؤه " .

فالإمام الرَّبيع بن حبيب نقل عن حبر الأمَّة وترجمان القرآن تأويله للمجيء المضاف إلىٰ الله تعالىٰ بمجيء أمره وقضائه سبحانه ، وكذا نقل عن غيره من سلف الأمَّة ، فأين من يدَّعون السَّلفيَّة من هذا التَّأويل وغيره ...

يضاف لذلك أنَّ الباحث لو استوعب تأويلات السَّلف المبثوثة في بطون الكتب لصنع سفراً عظيماً ، وقد بدأت به بحمد الله تعالىٰ ...

والجدير بالذِّكر هنا أنَّ ما ذهب إليه جمهور الأشاعرة والماتريديَّة – والذين يشكِّلون السَّواد الأعظم من كيان الأُمَّة – ومن وافقهم ، في النُّصوص المضافة إلىٰ الله تعالىٰ ، هو عينُ ما نُقل عن ابن عبَّاس وغيره من السَّلف والخلف في التَّأويل ، ولذلك فإنَّ اتِّهامهم بالتَّعطيل والابتداع والتَّجهُّم ، هو اتِّهام للسَّلف والخلف الذين نقلنا عنهم تأويلاتهم لنصوص المتشابه ، علىٰ حدٍّ سواء ، ومن ضمنها : تأويلهم للنُّزول والإتيان والمجيء المضاف إلىٰ الله تعالىٰ ...

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدُّنيا (٢٨١هـ) في "الأهوال "(ص١٢٥) : " دثنا يُوسُفُ ، دثنا أَبُو أُسَامَةَ ، دثنا الْأَجْلَحُ ، عَنِ الضَّحَّاكِ (١٠٢هـ) ، قَالَ : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللهُ السَّمَاوَاتِ فَتَشَقَّقَتْ بِأَهْلِهَا ، وَنَزَلَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَأَحَاطُوا بِالْأَرْضِ ، ثمَّ الثَّانِيَةَ ، ثمَّ الثَّالِثَةَ ، حتَّىٰ عَدَّ سَبْعاً صَفًّا دُونَ صَفٍّ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ :﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] " .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (٣٢٤هـ) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب " (ص١٢٨ ، ١٢٩) : " وأجمعوا على أنَّه عزَّ وجلَّ يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً ، لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذِّب منهم من يشاء كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة ... " .

فالإمام الأشعري السَّلفي ينزِّه الله تعالى عن الحركة والنُّقلة التي يصف الله تعالى بها من يدَّعون السَّلفيَّة ، فيقول : وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة ، وهذا هو ما أجمعت عليه الأمَّة ، فقد أجمعوا على نفي الحركة والسُّكون عنه سبحانه ، ولم يشذ عن ذلك إلا رعاع تمسَّحوا بالسَّلف ، وجعلوهم شمَّاعة يعلِّقون عليها أفكارهم التي عارضها علماء الأمَّة عبر الأزمنة المتعاقبة ...

قال الإمام العز بن عبد السَّلام فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبْكِي في طبقاته : " والحشويَّة المشبِّهة الَّذين يشبِّهون الله بخلقه ضَرْبَان : أَحدهمَا لَا يتحاشى من إِظْهَار الحشو﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[المجادلة : ١٨] ، وَالْآخر يتستر بِمذهب السّلف ، لسحتٍ يَأْكُلهُ أَو حطام يَأْخُذهُ .

أظهرُوا للنَّاس نسكاً وعَلىٰ المنقوش داروا

﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾[النساء : ٩١] ، وَمذهب السَّلف إِنَّمَا هُوَ التَّوْحِيد والتَّنزيه دون التَّجسيم والتَّشبيه ، وَلذَلِك جَمِيع المبتدعة يَزْعمُونَ أَنَّهم علىٰ مَذْهَب السَّلف ، فهم كَمَا قَالَ الْقَائِل :

وكلٌّ يدَّعونَ وصال ليلىٰ وليلىٰ لَا تقرُّ لَهُم بذاكا

وَكَيف يدَّعىٰ علىٰ السَّلف أنَّهم يَعْتَقِدُونَ التَّجسيم والتَّشبيه أَو يسكتون عِنْد ظُهُور الْبدع ، ويخالفون قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة : ٤٢] ، وَقَوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران : ١٨٧] ، وَقَوله : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤] . انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٢٢٢-٢٢٣)

ومع هذا ، فإنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة لا يتورَّعون عن وصف الله تعالىٰ بما يتَّصف به البشر... قال الإمام ابن تيمية في "بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" (٣/ ٢٤٣) : " ... وقد بلغنا أنَّهم حين حملوا العرش وفوقه الجبَّار في عزَّته وبهائه ، ضَعُفوا عن حمله ، واستكانوا ، وجَثَوا علىٰ رُكَبِهم ، حتَّىٰ لُقّنوا لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، فاستقلُّوا به بقدرة الله وإرادته ، ولولا ذلك ما استقلَّ به العرش ، ولا الحملة ، ولا السَّموات والأرض ، ولا من فيهن ، ولو قد شاء لاستقرَّ علىٰ ظهر بعوضة !!! فاستقلَّت به بقدرته ولطف ربوبيَّته ، فكيف علىٰ عرش عظيم أكبر من السَّموات والأرض ، وكيف تنكر أيُّها النفَّاج أن عرشه يُقِلُّه ... " .

وهذا وغيره الكثير ، هو الذي دفع شيخ الإسلام تقي الدِّين السُّبْكِي (٧٥٦هـ) إلىٰ أن يقول : " وأمّا الحشويَّة ، فهي طائفة رذيلة جهَّال ينتسبون إلىٰ أحمد ، وأحمد مبرَّأ منهم ، وسبب نسبتهم إليه أنّه قام في دفع المعتزلة ، وثبت في المحنة رضي الله عنه ، ونُقلت عنه كليات ما فهمها هؤلاء الجهَّال ، فاعتقدوا هذا الاعتقاد السيّء ، وصار المتأخِّر منهم يتبع المتقدِّم إلَّا من عصمه الله ، وما زالوا من حين نبغوا مستذلّين ، ليس لهم رأس ولا من يناظر ، وإنَّما كانت لهم في كلِّ وقت ثورات ، ويتعلَّقون ببعض أتباع الدُّول ، ويكفي الله شرَّهم . وما تعلَّقوا بأحد إلا كانت عاقبته إلىٰ سوء ... ثمَّ جاء في أواخر المائة السَّابعة رجل له فضل ذكاء واطّلاع ، ولم يجد شيخاً يهديه ، وهو علىٰ مذهبهم ، وهو جسور ، متجرِّد لتقرير مذهبه ، ويجد أُموراً بعيدة فبجسارته يلتزمها ، فقال بقيام الحوادث بذات الربِّ سبحانه وتعالىٰ ، وأنَّ الله سبحانه ما زال فاعلاً ، وأنَّ التَّسلسل ليس بمحال في ما مضىٰ ، كما هو في ما سيأتي ، وشقَّ العصا ، وشوَّش عقائد المسلمين ، وأغرىٰ بينهم ، ولم

يقتصر ضرره على العقائد في علم الكلام ، حتَّى تعدَّى ، وقال : إنَّ السَّفر لزيارة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصية " . انظر : السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل (ص١٦-١٨ ببعض الاختصار) .

قلت : وفتوى ابن تيمية في اعتبار السَّفر لزيارة قبر الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصية لا تُقصر فيها الصَّلاة موجودة بصريح العبارة في كتبه ... قال الإمام ابن تيمية : " بَلْ نَفْسُ السَّفَرِ لِزِيَارَةِ قَبْرٍ مِنْ الْقُبُورِ – قَبْرُ نَبِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ – مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ حتَّى أنَّهم لَا يُجَوِّزُونَ قَصْدَ الصَّلَاةِ فِيهِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ سَفَرُ مَعْصِيَةٍ " ، وقال أيضاً " ... لأن السَّفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصَّالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصَّحابة ولا التَّابعين ولا أمر بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا ، استحبَّ ذلك أحد من أئمَّة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسنَّة ولإجماع الأئمَّة ".

انظر : مجموع الفتاوى (٤/ ٥٢٠) ، (٢٧/ ١٨٧) بالترتيب

وقال أيضاً في " الإخنائية (أو الرَّد على الإخنائي) (ص١١٣) : " وإذا سافر لاعتقاده أنَّ ذلك طاعة كان ذلك محرَّماً بالإجماع " ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ... وللعبد الفقير كتاب مستقل يقع في مجلَّد ضخم ... في الردِّ عليه في هذه المسألة التي أثارت عليه أهل العلم في القديم والحديث ، ولأجلها وغيرها دخل ابن تيمية السِّجن ومات فيه ...

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي (٣٧٣هـ) في " بحر العلوم" (٣/ ٥٨٠) : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر : ٢٢] ، قال بعضهم : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وقال أهل السُّنَّة وجاء ربُّك بلا كيف ، وقال بعضهم : معناه : وجاء أمرُ ربِّك بالحساب " .

وقال الإمام محمَّد بن الطيِّب بن محمَّد بن جعفر بن القاسم ، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (٤٠٣هـ) في "الانتصار للقرآن" (ص٧٣٦) : " ... إنه يجيء ويأتي بغير زوالٍ ولا انتقالٍ ولا تكييف ، بل يجبُ تسليمُ ذلك على ما رُوي وجاء به القرآن .

والجواب الآخر : أنه يَفْعل معنىً يُسميه مجيئاً وإتياناً ، فيقال : جاء الله بمعنى أنَّه فعلَ فعلاً كأنَّه جائياً ، كما يقال : أحسنَ الله ، وأنعم وتفضلَ على معنى أنَّه فعل فعلاً استوجبَ به هذه الأشياء .

ويمكن أن يكون أراد بذلك إتيان أمْرِه وحُكمِه والأهوالِ الشَّديدةِ التي توعدَّهم بها وحذَّرهم من نزولها ، ويكون ذلك نظيراً لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾[الحشر : ٢] ، ولا خلافَ في أنَّ معنىٰ هذه الآية : أنَّ أمْره وحُكْمَه إياهم وعقوبته ونكالَه ، وكذلك قوله : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[النحل : ٢٦] .

وفي الضَّحك المُضاف إلىٰ الله تعالىٰ قال الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطَّبري الرَّازي اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة" (٣/ ٥٨١) : " أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ محمَّد بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَخْلَدٍ ، قَالَا : ثنَا عَبَّاسُ بْنُ محمَّد الدُّورِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ الْقَاسِمَ بْنَ سَلَّامٍ ، وَذُكِرَ عِنْدَهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ : " ضَحِكَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ ، وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعَ الْقَدَمَيْنِ ، وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَتَمْتَلِئُ فَيَضَعُ رَبُّكَ قَدَمَهُ فِيهَا ، وَأَشْبَاهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ؟ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : " هَذِهِ الْأَحَادِيثُ عِنْدَنَا حَقٌّ يَرْوِيهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ إِلَّا أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِهَا ، قُلْنَا : مَا أَدْرَكْنَا أَحَدًا يُفَسِّرُ مِنْهَا شَيْئاً وَنَحْنُ لَا نُفَسِّرُ مِنْهَا شَيْئاً نُصَدِّقُ بِهَا وَنَسْكُتُ " .

وقال الإمام ابن عبد البر بن عاصم النِّمري القرطبي في " التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد" (٧/ ١٤٨-١٥٠) : " ... الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا : الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا ، وَالتَّصْدِيقُ بِذَلِكَ ، وَتَرْكُ التَّحْدِيدِ وَالْكَيْفِيَّةِ فِي شَيْءٍ مِنْهُ .

أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ خَلَفُ بْنُ الْقَاسِمِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْوَرْدِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ نَصْرٍ أَنَّهُ سَأَلَ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ (١٩٨هـ) ، قَالَ : حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ : " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْعَلُ السَّمَاءَ عَلَىٰ أُصْبُعٍ " ، وَحَدِيثُ : " إِنَّ قلوب بني آدَمَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ " ، وَ " إِنَّ اللهَ يَعْجَبُ أَوْ يَضْحَكُ مِمَّنْ يَذْكُرُهُ فِي الْأَسْوَاقِ " ، " وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ " ، وَنَحْوُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، فَقَالَ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ نَرْوِيهَا ، وَنُقِرُّ بِهَا كَمَا جَاءَتْ ، بِلَا كَيْفٍ .

قَالَ أَبُو دَاوُدَ : وَحَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ محمَّد ، قَالَ : سَمِعْتُ الْهَيْثَمَ بْنَ خَارِجَةَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ ، وَسُفْيَانَ الثوري ، وملك بْنَ أَنَسٍ ، وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الصِّفَاتِ ، فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ .

وَذَكَرَ عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ (٢٧١هـ) قَالَ : سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ (٢٣٣هـ) يَقُولُ شَهِدْتُ زَكَرِيَّا بْنَ عَدِيٍّ (٢١١هـ) سَأَلَ وَكِيعَ بْنَ الْجَرَّاحِ (١٩٧هـ) فَقَالَ : يَا أَبَا سُفْيَانَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ ، يَعْنِي : مِثْلَ : " الْكُرْسِيُّ مَوْضِعَ الْقَدَمَيْنِ " ، وَنَحْوِ هَذَا ، فَقَالَ : أَدْرَكْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ (١٤٦هـ) ، وَسُفْيَانَ ، وَمِسْعَراً (١٥٥هـ) يُحَدِّثُونَ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، وَلَا يُفَسِّرُونَ شَيْئاً .

قَالَ عَبَّاسُ بْنُ محمَّد الدُّورِيُّ : وَسَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ الْقَاسِمَ بْنَ سَلَّامٍ (٢٢٤هـ) وَذَكَرَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُرْوَىٰ فِي : الرُّؤْيَةِ ، وَالْكُرْسِيِّ مَوْضِعَ الْقَدَمَيْنِ ، وَضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عباده ، وأنَّ جهنم لتمتلىء ، وَأَشْبَاهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ . وَقَالُوا إِنَّ فُلَاناً يَقُولُ : يَقَعُ فِي قُلُوبِنَا : أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ حَقٌّ ، فَقَالَ : ضَعَّفْتُمْ عِنْدِي أَمْرَهُ ، هَذِهِ الْأَحَادِيثُ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهَا ، رَوَاهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، إِلَّا أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ لَمْ نُفَسِّرْهَا ، وَلَمْ نَذْكُرْ أَحَداً يُفَسِّرُهَا ، وَقَدْ كَانَ مَالِكٌ يُنْكِرُ عَلَىٰ مَنْ حَدَّثَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ... " .

وقال الإمام ابن عبد البر بن عاصم النِّمري القرطبي في "الاستذكار" (٥/٩٧) : " وَأَمَّا قَوْلُهُ : " يَضْحَكُ اللهُ إِلَيْهِ " ، أَيْ : يَتَلَقَّاهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ والعفو والغفران .

ولفظ الضّحك ها هنا مجازاً ، لِأَنَّ الضَّحِكَ لَا يَكُونُ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَىٰ مَا هُوَ مِنَ الْبَشَرِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَا تُشْبِهُهُ الْأَشْيَاءُ " .

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري شرح صحيح البخاري" (٦/٤٠) : " قَالَ الْخَطَّابِيُّ : الضَّحِكُ الَّذِي يَعْتَرِي الْبَشَرَ عِنْدَمَا يَسْتَخِفُّهُمُ الْفَرَحُ أَوِ الطَّرَبُ غَيْرُ جَائِزٍ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَإِنَّمَا هَذَا مَثَلٌ ضُرِبَ لِهَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي يَحِلُّ مَحَلَّ الْإِعْجَابِ عِنْدَ الْبَشَرِ ، فَإِذَا رَأَوْهُ أَضْحَكَهُمْ ، وَمَعْنَاهُ : الْإِخْبَارُ عَنْ رِضَا اللهِ بِفِعْلِ أَحَدِهِمَا ، وَقَبُولِهِ لِلْآخَرِ ، وَمُجَازَاتِهِمَا عَلَىٰ صَنِيعِهِمَا بِالْجَنَّةِ مَعَ اخْتِلَافِ حَالَيْهِمَا ، قَالَ : وَقَدْ تَأَوَّلَ الْبُخَارِيُّ الضَّحِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّحْمَةِ ، وَهُوَ قَرِيبٌ ، وَتَأْوِيلُهُ

عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرِّضَا أَقْرَبُ ، فَإِنَّ الضَّحِكَ يَدُلُّ علىٰ الرِّضَا وَالْقَبُول ، قَالَ : والكرام يوصفون عِنْد مَا يَسْأَلُهُمُ السَّائِلُ بِالْبِشْرِ وَحُسْنِ اللِّقَاءِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ : " يَضْحَكُ اللهُ " ، أَيْ : يُجْزِلُ الْعَطَاءَ ، قَالَ : وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَىٰ ذَلِكَ : أَنْ يُعَجِّبَ اللهُ مَلاَئِكَتَهُ وَيُضْحِكَهُمْ مِنْ صَنِيعِهِمَا ، وَهَذَا يَتَخَرَّجُ عَلَىٰ الْمَجَازِ ، وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ يَكْثُرُ .

وَقَالَ بن الْجَوْزِيِّ : أَكْثَرُ السَّلَفِ يَمْتَنِعُونَ مِنْ تَأْوِيلِ مِثْلِ هَذَا ، ويمرُّونه كَمَا جَاءَ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ فِي مِثْلِ هَذَا الْإِمْرَارِ : اعْتِقَادُ أَنَّهُ لَا تُشْبِهُ صِفَاتُ اللهِ صِفَاتِ الْخَلْقِ ، وَمَعْنَىٰ الْإِمْرَارِ : عَدَمُ الْعِلْمِ بِالْمُرَادِ مِنْهُ ، مَعَ اعْتِقَادِ التَّنْزِيهِ " .

وقال الإمام الرَّازي في "أساس التَّقديس" (ص١٦٥-١٦٦) : " واعلم أنَّ حقيقة الضَّحك علىٰ الله تعالىٰ محال ، ويدلُّ عليه وجوه :

الأَوَّلُ : قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾[النجم : ٤٣] . يبيّن أنَّ اللائق به أن يُضحك ويُبكي . فأمَّا الضَّحك والبكاء ، فلا يليقان به .

وَالثَّانِي : أنَّ الضَّحك سنح يحصل في جلد الوجه ، مع حصول الفرح في القلب ، وهو علىٰ الله تعالىٰ محال .

وَالثَّالِثُ : لو جاز الضَّحك عليه ، لجاز البكاء عليه . وقد التزمه بعض الحمقىٰ ، وزعم : أنَّه بكىٰ علىٰ أهل طوفان نوح عليه السَّلام . وهذا جهل شديد ، فإنَّه تعالىٰ هو الذي خلق الطُّوفان ، فإن كرهه فَلِمَ خلقه ؟ وإن لم يكرهه ، فلم ينكر عليه ؟

وَالرَّابِعُ : أنَّ الضَّحك إنَّما يتولَّد من التَّعجُّب ، والتَّعجُّب حالة تحصل للإنسان عند الجهل بالسَّبب ، وذلك في حقِّ عالم الغيب والشَّهادة محال " .

ثمَّ إنَّ الإمام الرَّازي أخذ في تأويل ما جاء في الضَّحك علىٰ عادته في كتابه الأساس...

ولمَّا كان التَّفويض هو عقيدة الجمهور من سلف الأمَّة ، فقد نصَّ العديد من العلماء علىٰ قيام السَّلف بتفويض ما جاء من ضحك الله تعالىٰ ، ومن ذلك :

قال الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجردي الخراساني ، أبو بكر البيهقي في " الأسماء والصِّفات " (٢/٤١٣) : " فَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا فَإِنَّهُمْ فَهِمُوا مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَا وَقَعَ التَّرْغِيبُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، وَمَا وَقَعَ الْخَبَرُ عَنْهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِتَفْسِيرِ الضَّحِكِ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِذِي جَوَارِحٍ وَمَخَارِجٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ وَصَفُهُ بِكِشْرِ الْأَسْنَانِ وَفَغْرِ الْفَمِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ عُلُوّاً كَبِيراً " .

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ في "الأسماء والصِّفات" (٢/١٩٦) بِسَنَدِهِ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ ، يَقُولُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا : " ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رَبُّكَ قَدَمَهُ فِيهَا ، وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ " وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِي الرِّوَايَةِ هِيَ عِنْدَنَا حَقٌّ ، حَمَلَهَا الثِّقَاتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، غَيْرَ أَنَّا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ تَفْسِيرِهَا لَا نُفَسِّرُهَا وَمَا أَدْرَكْنَا أَحَدًا يُفَسِّرُهَا " .

ونقل الذَّهبي في "سير أعلام النُّبلاء " (١٠/٥٠٥) بسنده عن العَبَّاسُ الدُّوْرِيُّ ، قال : سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ القَاسِمَ بنَ سَلاَّمٍ – وَذَكَرَ البَابَ الَّذِي يُرْوَى فِيْهِ الرُّؤْيَةُ ، وَالكُرْسِيُّ مَوْضِعَ القَدَمَيْنِ ، وَضَحِكُ رَبِّنَا ، وَأَيْنَ كَانَ رَبُّنَا – فَقَالَ :

هَذِهِ أَحَادِيْثُ صِحَاحٌ ، حَمَلَهَا أَصْحَابُ الحَدِيْثِ وَالفُقَهَاءُ بَعْضُهُم عَنْ بَعْضٍ ، وَهِيَ عِنْدَنَا حَقٌّ لاَ نَشُكُّ فِيْهَا ، وَلَكِن إِذَا قِيْلَ : كَيْفَ يَضْحَكُ ؟ وَكَيْفَ وَضَعَ قَدَمَهُ ؟ قُلْنَا : لاَ نُفَسِّرُ هَذَا ، وَلاَ سَمِعْنَا أَحَداً يُفَسِّرُهُ " .

الفَصْلُ التَّاسِعُ عَشَر

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بأَنَّ التأويل بدعة لم يقل به السَّلف

اعلم أنَّ عقيدة المسلمين قامت على إثبات الصِّفات لله تعالى من غير تكييف ولا تشبيه ، وأنَّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ... ولم يُخالف في ذلك إلَّا شرذمة قليلة لبست لبُوس السَّلف الصَّالح زوراً وبهتاناً وظُلماً وعدواناً كي تُمرِّر العديد من العقائد التَّجسيميَّة ، تلكمُ الشِّرذمة التي ساعدها في نشر مذهبها عشرات المحطَّات الإعلاميَّة سواء كانت مرئيَّة أو مسموعة أو مقروءة ، بالإضافة إلى سيل منهمر من الأموال التي أُنفقت على دعاة ودارسي ذلكم المذهب الذي ما انتشر إلَّا بتلك الوسائل ... وخاصَّة في البلاد التي عمَّ فيها الجهل وطم ... لأنَّهم لا ينبتون إلَّا حيث يكون الجهل والتَّخلُّف ...

وقد اجتهدت تلك الشِّرذمة في نبْشِ العقائد التَّجسيميَة التي دفنها جمهور أهل العلم في القرنين الرَّابع والثَّامن الهجريَّين ... تلكمُ العقائد التي أزاحوا عنها أكفانها وحنوطها وبعثوا فيها الحياة من جديد من خلال تحقيق المخطوط منها ونشرها مع ما سبق له النَّشر منها ، مع التَّلاعب والعبث ببعضها بالحذف والشَّطب والتَّزوير والزِّيادة والنُّقصان ... وتوزيع أغلبها مجاناً على سبيل (يُهدى ولا يُباع)...

وحتى يتسنَّى لهم الولوج إلى عقول الرّعاع من أتباعهم أنكروا وجود المجاز في لغة القرآن ... وأقنعوهم بحجج واهية ... وبسبب ذلك حرَّموا التَّأويل مطلقاً زاعمين بأنَّ السَّلف الصَّالح لم يؤولوا البتَّة ... مع العلم أنَّ الشَّواهد والأدلَّة تشهد بأنَّ السَّلف الصَّالح كانوا : إمَّا مفوِّضة وإمَّا مؤوِّلة ... لأنَّه قد ثبت بالنَّقل والعقل أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يشبه المُحدثات بوجه من الوجوه ... وأنَّ جميع النُّصوص التي قد تُوهمُ ذلك لا بدَّ من تفويضها أو تأويلها ...

ومن المعلوم أنَّ جمهور العلماء ذهبوا إلى أنَّ الآيات المتشابهات لا يجوز أن تُحمل على ظاهر معناها المتبادر إلى الأذهان البتَّة ، لأنَّ الحمل على ظاهر المعنى يتعارض مع العديد من المسلَّمات العقديَّة ، وكذا اللغويَّة ، بالإضافة إلى الاصطدام المباشر مع العديد من آيات التَّنزيه ، مثل : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ

﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم : ٢٧] ، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١] ...

ومن أقوال المتسلِّفة فِي تَشْنِيْعِهِم عَلىٰ المُؤوِّلَة :

جاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " السُّؤال الأوَّل من الفتوىٰ رقم (٥٩٥٧) :

س١ : كما هو معروف لديكم الخلاف الواقع بين السَّلف والخلف في مسألة التَّأويل ونحن إن شاء الله مع السَّلف فيما ذهبوا إليه ، ولكن ورد عليَّ سؤال حول الحديث الذي ذكره الشَّيخ ناصر الدِّين الألباني عند قيامه بتحقيق [الجامع الصَّغير وزيادته] للحافظ السُّيوطي ، ونصّ الحديث كما ورد : " أتاني الليلة ربِّي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة ، فقال : يا محمَّد ، هل تدري فيما يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفي ، حتَّىٰ وجدت بردها بين ثدي فعلمت ما في السَّماوات وما في الأرض " الحديث رواه الترمذي وأحمد عن ابن عبَّاس .

والسُّؤال : كيف يفسّر هذا الإتيان ؟ هل يفسَّر علىٰ حقيقته بأنَّه إتيان يليق بجلاله ؟ أم يؤول ، كما يفعله الأشاعرة عندنا ؟ ج١: يفسَّر الإتيان في الحديث بإتيان حقيقي يليق بجلاله تعالىٰ لا يشبه إتيان المخلوق ، ولا نتأوَّله علىٰ إتيان رحمته أو ملك من ملائكته ، بل نثبته كما أثبته السَّلف في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ، بلا تشبيه ، ولا تمثيل ، ولا تأويل ، ولا تعطيل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وقوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٢ – ٤] . وبالله التَّوفيق . وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٣/ ١٧٦–١٧٧) .

هذا ما قالته اللجنة الدَّائمة ... وهم يزعمون أنَّهم يثبتون الإتيان إثباتاً حقيقيَّاً كما أثبته السَّلف في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي

بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٨] .

وهم في ذلك مُجانبون للصَّواب ... فقد أثبتوا لله الحركة والنُّقلة وبصورٍ عديدة ، مثل : نزل ، هبط ، هرول ، تحرَّك ، طاف ، ارتفع ، جاء ، أتى ... ، ولم يثبت ذلك أحد من السَّلف ...

فهذا إمامهم عثمان بن سعيد الدَّارمي يقول : " ... لِأَنَّ الْحَيَّ الْقَيُّومَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَتَحَرَّكُ إِذَا شَاءَ ، ويهبط ويرتفع إذا شَاءَ ، وينقبض ، وَيَنْبَسِطُ ، وَيَقُومُ ، وَيَجْلِسُ إِذَا شَاءَ ؛ لِأَنَّ أَمَارَةُ مَا بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ التَّحَرُّكَ ، كُلُّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكُلُّ مَيِّتٍ غَيْرُ مُتَحَرِّكٍ لَا مَحَالَةَ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد (١/ ٢١٥) .

وهذا كلام صريحٌ في التَّجسيم الذي اشتهر به عثمان الدَّارمي وغيره من المتسلِّفة ، فالنُّزول والمجيء والإتيان صفات منفيَّة عن الله تعالى من طريق الحركة والانتقال التي هي انتقال من مكان إلى مكان ، لأنَّ الحركة لا تتمُّ إلَّا من خلال جسم ينتقل من مكان إلى آخر ، والله تعالى ليس جسماً ، وغير حالٍّ في مكان ... كما أنَّ كلامه يحمل تصريحاً قبيحاً بحلول الحوادث في الله تعالى ، والعياذ بالله ... ثمَّ إنَّ العديد من السَّلف أوَّلوا إتيان الرَّبِّ الذي جاء في الآية الكريمة ...

قال الإمام الأخفش الأوسط (٢١٥هـ) : " وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾[البقرة: ٢١٠] ، يعني : أمرهُ ، لأَنَّ اللهَ تبارك وتعالى لا يزُولُ كما تقول : " قَدْ خَشِينا أنْ تَأْتِينَا بنُو أُمَيَّة " . وانَّما تعني حكمهم " . انظر : معاني القرآن (١/ ١٨٣) .

وقال الإمام الزجَّاج (٣١١هـ) : ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ ﴾[الأنعام: ١٥٨] : أو يأتي إهْلاَكُ رَبِّك إيَّاهم وانْتِقامُهُ مِنْهُم ، إمَّا بعذَاب عاجل أو بالقيامة . وهذا كقولنا : قَدْ نَزَلَ فُلان ببَلَد كَذا وكَذَا ، وقد أتَاهُمْ فُلانٌ ، أي : قَدْ أوْقَع بِهِمْ " . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٠٧) .

وقال الإمام الثَّعلبي ، أبو إسحاق (٤٢٧هـ) : " وقال الضحَّاك (١٠٢هـ) : يأتي أمره وقضاؤه " . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٤/ ٢٠٧) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] فيه وجهان : أحدهما : أمر ربِّك بالعذاب ، قاله الحسن (١١٠هـ) . والثَّاني : قضاء ربِّك في القيامة ، قاله مجاهد " . انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) ،(٢/ ١٩٠) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] . قال ابن عبَّاس : يتنزَّل أمر ربِّك فيهم بالقتل . وقال الزجَّاج : المعنىٰ : أو يأتي إهلاك ربِّك إيَّاهم بعذاب عاجل أو بالقيامة " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٤٠) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] ، قال الحسن : أو يأتي أَمْرُ ربِّك . وقال الزجَّاج : أو يأتِيَ إهلاكه وانتقامه ، إمَّا بعذاب عاجل ، أو بالقيامة " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٩٥) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١هـ) : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] ، قال ابن عبَّاس والضحَّاك : أمر ربِّك فيهم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المُضاف إليه والمراد به المضاف ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[يوسف : ٨٢] ، يعني : أهل القرية . وقوله : ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: ٩٣] أي : حُبَّ العجل . كذلك هنا : يأتي أمرُ ربِّك ، أي : عقوبة ربِّك وعذاب ربِّك . ويقال : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٤) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " ... أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ بِلَا أَيْنَ وَلَا كَيْفَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : أَوْ يَأْتِيَ إِهْلَاكُ رَبِّكَ إِيَّاهُمْ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : وَعَلَى كُلِّ تَأْوِيلٍ فَإِنَّمَا هُوَ بِحَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ أَمْرُ رَبِّكَ وَبَطْشُ وَحِسَابُ رَبِّكَ ، وَإِلَّا فَالْإِتْيَانُ الْمَفْهُومُ مِنَ اللُّغَةِ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى !!! أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر: ٢] ، فَهَذَا إِتْيَانٌ قَدْ وَقَعَ وَهُوَ عَلَى الْمَجَازِ وَحُذِفَ الْمُضَافُ . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : أَوْ يَأْتِيَ كُلُّ آيَاتِ رَبِّكَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] ، يُرِيدُ آيَاتِ الْقِيَامَةِ وَالْهَلَاكَ الْكُلِّيَّ وبَعْض

آياتِ رَبِّكَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَغَيْرِهَا انْتَهَى ". انظر : البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦٩٨).

فما رأي اللجنة الدَّائمة ؟!!! وما رأي من رسم لنفسه طريقاً بعدم الحَيْد عن سَنَن هؤلاء ...؟!!!

وجاء في فتاوى اللجنة الدَّائمة : " السُّؤال الأوَّل من الفتوى رقم (٥٠٨٢) :

س١ تعلَّمنا في المدارس !!! أنَّ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء الله وصفاته هو الإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، وأن لا نصرف النُّصوص الواردة فيها عن ظواهرها ، بعد ذلك التقينا بأناس زعموا لنا أنَّ هناك مدرستين في مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ، المدرسة الأولى : مدرسة ابن تيمية وتلاميذه رحمهم الله ، والمدرسة الثَّانية مدرسة الأشاعرة ، والذي تعلَّمناه هو ما ذكره ابن تيمية ، أمَّا بقيَّة أهل السُّنَّة والجماعة من الأشاعرة والماتريديَّة وغيرهم فإنَّهم يرون أن لا مانع من تأويل صفات الله وأسمائه إذا لم يتعارض هذا التَّأويل مع نصٍّ شرعيٍّ ، ويحتجُّون لذلك بما قاله ابن الجوزي رحمه الله وغيره في هذا الباب ، بل إنَّ إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل قد أوَّل في بعض الصِّفات مثل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرَّحمن " ، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤] ، وغير ذلك .

والسُّؤال الآن : هل تقسيم أهل السُّنَّة والجماعة إلى طائفتين بهذا الشَّكل صحيح ؟ وما هو رأيكم فيما ذكروه من جواز التَّأويل إذا لم يتعارض مع نصٍّ شرعي ، وما هو موقفنا من العلماء الذين أوَّلوا في الصِّفات مثل ابن حجر والنَّووي وابن الجوزي وغيرهم ، هل نعتبرهم من أئمَّة أهل السُّنَّة والجماعة أم ماذا ؟ وهل نقول : أنَّهم أخطأوا في تأويلاتهم أم كانوا ضالِّين في ذلك ؟ ومن المعروف أنَّ الأشاعرة يؤوِّلون جميع الصِّفات ما عدا صفات المعاني السَّبعة ، فإذا وجد أحد العلماء يؤوِّل صفتين أو ثلاثة هل يعتبر أشعرياً ؟

ج١ : أولاً : دعوى أن الإمام أحمد أوَّل بعض نصوص الصِّفات ؛ كحديث " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرَّحمن " ، وحديث : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " الخ – دعوى غير

صحيحة ، قال الإمام أحمد بن تيمية : " وأمَّا ما حكاه أبو حامد الغزالي عن بعض الحنبليَّة أنَّ أحمد لم يتأوَّل إلَّا ثلاثة أشياء : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " و " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرَّحمن " و" إنِّي أجد نفس الرَّحمن من قبل اليمن " ، فهذه الحكاية كذب على أحمد ، لم ينقلها أحد عنه بإسناد ، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه ، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف ، لا علمه بما قال ، ولا صدقه فيما قال " . اهـ. (من ص ٣٩٨ من ج ٥ من [مجموع الفتاوى] .

وبيان ذلك أنَّ للتَّأويل ثلاثة معان :

الأوَّلُ : مآل الشَّيء وحقيقته التي يؤول إليها ، كما في قوله تعالى عن يوسف عليه السَّلام: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ١٠٠] ، أي : حقيقتها التي آلت إليها وقوعاً ، وليس هذا مقصوداً في النُّصوص المذكورة في السُّؤال . الثَّاني : التَّأويل بمعنى صرف الكلام عن معناه الظَّاهر المتبادر منه إلى معنى خفي بعيد لقرينة ، وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء الكلام وأصول الفقه ، وليس متحقِّقا في النُّصوص المذكورة في السُّؤال ، فإنَّ ظاهرهـــا مراد لم تصرف عنه !!! لأنَّه حقٌّ كما سيأتي شرحه في المعنى الأخير للتَّأويل . الثَّالث : التَّأويل بمعنى التَّفسير وهو شرح معنى الكلام بما يدلُّ عليه ظاهره ويتبادر إلى ذهن سامعه الخبير بلغة العرب وهو المقصود هنا ، فإنَّ جملة : "الحجر الأسود يمين الله في الأرض " ليس ظاهرها أنَّ الحجر صفة لله وأنَّه يمينه حتَّى يصرف عنه ، بل معناه الظَّاهر منه أنَّه كيمينه ، بدليل بقية الأثر ، وهو جملة : " فمن صافحه فكأنَّما صافح الله " ، ومن قبَّله فكأنَّما قبَّل يمين الله " ، فمن ضمَّ أوَّل الأثر إلى آخره تبيَّن له أنَّ ظاهره مراد لم يصرف عنه وأنَّه حقّ ، وهذا ما يقوله أئمَّة السَّلف كالإمام أحمد وغيره منهم ، وهو تأويل بمعنى التَّفسير لا بمعنى صرف الكلام عن ظاهره ، كما زعمه المتأخِّرون ، علماً بأنَّ ما ذكر لم يصح حديثاً عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بل هو أثر عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، وكذا القول في حديث " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرَّحمن " ، فإنَّ ظاهره لا يدلُّ على مماسَّة ولا مداخلة ، وإنَّما يدلُّ ظاهره على إثبات أصابع للرَّحمن حقيقة !!! وقلوب للعباد حقيقة ، ويدلُّ إسناد أحد ركني الجملة

إلى الآخر على كمال قدرة الرَّحمن وكمال تصريفه لعباده ، كما يقال : فلان وقف بين يدي الملك أو في قبضة يد الملك ، فإنَّ ذلك لا يقتضي مماسَّة ولا مداخلة ، وإنَّما يدلُّ ظاهره على وجود شخص وملك له يدان ، ويدلُّ ما في الكلام من إسناد على حضور شخص عند الملك وعلى تمكُّن الملك من تصريفه دون مماسَّة أو مداخلة ، وكذا القول في قوله تعالى : ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[الملك: ١] ، وقوله : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر: ١٤] ، وأمثال ذلك .

ثانياً : تقسيم أهل السُنَّة والجماعة إلى طائفتين بهذا الشَّكل غير صحيح ، وبيانه أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا أمَّة واحدة عقيدة وسياسة حتَّى إذا كانت خلافة عثمان رضي الله عنه بدرت بوادر الاختلاف في السِّياسة دون العقيدة ، فلما قتل وبايع عليا جماعة وبايع معاوية آخرون رضي الله عنهم وكان ما بينهم من حروب سياسيَّة خرجت عليهم طائفة فسمِّيت الخوارج ولم يختلفوا مع المسلمين في أصول الإيمان السِّتَّة ، ولا في الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام ، وإنَّما اختلفوا معهم في عقد الخلافة والتَّكفير بكبائر الذُّنوب والمسح على الرِّجلين في الوضوء وأمثال ذلك ، ثمَّ غلت طائفة من أصحاب علي فيه حتَّى عبده منهم من عبده فسمّوا الشِّيعة ، ثمَّ افترق كلٌّ من الخوارج والشِّيعة فرقاً ، ثمَّ أنكر جماعة القدر ، وكان ذلك آخر عصر الصَّحابة رضي الله عنهم فسمّوا القدريَّة ، ثمَّ كان الجعد بن درهم فكان أوَّل من أنكر صفات الله وتأوَّل ما جاء فيها من نصوص الآيات والأحاديث على غير معانيها فقتله خالد القسري ، وتبعه في إنكار ذلك وتأويله تلميذه الجهم بن صفوان واشتهر بذلك فنسبت إليه هذه المقالة الشَّنيعة ، وعرف من قالوا بها بالجهميَّة ، ثمَّ ظهرت المعتزلة فتبعوا الجهميَّة في تأويل نصوص الصِّفات وسمّوه تنزيهاً ، وتبعوا القدريَّة في إنكار القدر وسمّوه عدلاً ، وتبعوا الخوارج في الخروج على الولاة وسمّوه الأمر بالمعروف إلى غير ذلك من مقالاتهم ، وقد نشأ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري على مذهبهم واعتقد مبادئهم ثمَّ هداه الله إلى الحقّ فتاب من الاعتزال ولزم طريق أهل السُّنَّة والجماعة ، واجتهد في الرَّدِّ على من خالفهم في أصول الإسلام رحمه الله ، لكن بقيت فيه شوائب !!! من مذهب المعتزلة كتأويل نصوص صفات الأفعال وتأثر بقول جهم بن صفوان في أفعال العباد ، فقال بالجبر وسمّاه

كسباً، وأمور أخرىٰ تتبيَّن لمن قرأ كتابه : " الإبانة " الذي أَلَّفه آخر حياته ، كما يتبيَّن ممَّا كتبه عنه أصحابه الذين هم أعرف به من غيرهم وما كتبه عنه ابن تيمية في مؤلَّفاته رحمهم الله .

ممَّا تقدم يتبيَّن أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة حقاً هم الذين اعتصموا بكتاب الله تعالىٰ وسُنَّة نبيِّهم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عقائدهم وسائر أصول دينهم، ولم يعارضوا نصوصهما بالعقل أو الهوىٰ ، وتمسَّكوا بما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم من دعائم الإيمان وأركان الإسلام فكانوا أئمَّة الهدىٰ ومنار الحق ودعاة الخير والفلاح ؛ كالحسن البصري وسعيد بن المسيب ومجاهد وأبي حنيفة ومالك والشَّافعي والأوزاعي وأحمد وإسحاق والبخاري ومن سلك سبيلهم والتزموا نهجهم عقيدة واستدلالاً ، أمَّا هؤلاء الذين خرجوا عنهم في مسائل من أصول الدِّين ففيهم من السُّنَّة بقدر ما بقي لديهم ممَّا وافقوا فيه الصَّحابة رضي الله عنهم وأئمَّة الهدىٰ من مسائل أصول الإسلام ، وفيهم من البدع والخطأ بقدر ما خالفوهم فيه من ذلك قليلاً كان أو كثيراً ، وأقربهم إلىٰ أهل السُّنَّة والجماعة أبو الحسن الأشعري ومن تبعه عقيدة واستدلالاً ، وبهذا يعرف أن ليس لأهل السُّنَّة والجماعة مدرستان ، إنَّما هي مدرسة واحدة يقوم بنصرتها والدَّعوة إليها من سلك طريقهم ، وابن تيمية ممَّن قام بذلك ووقف حياته عليه وليس هو الذي أنشأ هذه الطَّريقة ، بل هو متبع لما كان عليه أئمَّة الهدىٰ من الصَّحابة ومن تبعهم من علماء القرون الثَّلاثة التي شهد لها النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخير وكذلك مناظروه إنَّما قاموا بنصر مذهب من قلَّدوه ممَّن انتسب إلىٰ أهل السُّنَّة والجماعة كأبي الحسن الأشعري وأصحابه بعد أن رجع عن الاعتزال وسلك طريق أهل السُّنَّة إلَّا في قليل من المسائل ولذا كان أقرب إلىٰ طريقة أهل السُّنَّة والجماعة من سائر الطَّوائف .

ثَالِثَاً : من تأوَّل من الأشعريَّة ونحوهم نصوص الأسماء والصِّفات إنَّما تأوَّلها لمنافاتها الأدلَّة العقليَّة وبعض النُّصوص الشَّرعيَّة في زعمه ، وليس الأمر كذلك ، فإنَّها ليس فيها ما ينافي العقل الصَّريح وليس فيها ما ينافي النُّصوص ، فإنَّ نصوص الشَّرع في أسماء الله وصفاته يصدّق بعضها بعضاً مع كثرتها في إثبات أسماء الله وصفاته علىٰ الحقيقة وتنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه .

رَابِعاً : موقفنا من أبي بكر الباقلاني والبيهقي وأبي الفرج بن الجوزي وأبي زكريَّا النَّووي وابن حجر وأمثالهم ممَّن تأوَّل بعض صفات الله تعالىٰ أو فوَّضوا في أصل معناها – أنَّهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمَّة بعلمهم فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم عنَّا خير الجزاء ، وأنَّهم من أهل السُّنَّة فيما وافقوا فيه الصَّحابة رضي الله عنهم وأئمَّة السَّلف في القرون الثَّلاثة التي شهد لها النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخير، وأنَّهم أخطأوا فيما تأوَّلوه من نصوص الصِّفات ، وخالفوا فيه سلف الأمَّة وأئمَّة السُّنَّة ، رحمهم الله سواء تأوَّلوا الصِّفات الذَّاتية وصفات الأفعال أم بعض ذلك.

وبالله التَّوفيق . وصلَّىٰ الله علىٰ نبينا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم .

اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٣/ ٢٣٤-٢٤١) .

وتعليقنا علىٰ ما قالته اللجنة الدَّائمة ينتظم في النّقاط التَّالية :

أَوَّلاً : أمَّا قولهم : " دعوىٰ أنَّ الإمام أحمد أوَّل بعض نصوص الصِّفات ...دعوىٰ غير صحيحة ، فهذا من جملة افترائهم وكذبهم علىٰ الإمام أحمد ... وهو أمر دفع الكثيرين للذَّبِّ عن الإمام أحمد ... قال الإمام ابن الجوزي : " ورأيت من أصحابنا من تكلَّم في الأصول بما لا يصلح ، وانتدب للتَّصنيف ثلاثة : أبو عبد الله بن حامد ، وصاحبه القاضي ، وابن الزَّاغوني ، فصنَّفوا كُتباً شانوا بها المذهب ، ورأيتهم قد نزلوا إلىٰ مرتبة العوام ، فحملوا الصِّفات علىٰ مقتضىٰ الحسّ !!! فسمعوا أنَّ الله تعالىٰ خلق آدم علىٰ صورته ، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً علىٰ الذَّات وعينين وفماً ولهوات وأضراساً وأضواء لوجهه هي السُّبحات ويدين وأصابع وكفَّاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين ، وقالوا : ما سمعنا بذكر الرَّأس ، وقالوا : يجوز أن يَمس ويُمس ، ويُدني العبد من ذاته ، وقال بعضهم ويتنفَّس ، ثمَّ يُرضون العوام بقولهم : لا كما يعقل ، وقد أخذوا بالظَّاهر في الأسماء والصِّفات فسمُّوها بالصِّفات تسمية مبتدعة لا دليل لهم في ذلك من النَّقل ولا من العقل ، ولم يلتفتوا إلىٰ النُّصوص الصَّارفة عن الظَّواهر إلىٰ المعاني الواجبة لله تعالىٰ ، ولا إلىٰ إلغاء ما يوجبه الظَّاهر من سمات الحدوث ، ولم يقنعوا بأن يقولوا صفة فعل حتَّىٰ قالوا : صفة ذات ، ثمَّ لَمَّا أثبتوا أنَّها صفات ذات قالوا : لا نحملها علىٰ توجيه اللغة ، مثل : يد علىٰ نعمة وقدرة ، ومجيء

وإتيان على معنى برّ ولطف ، وساق على شدَّة ، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة والظَّاهر هو المعهود من نعوت الآدميين !!! والشَّيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن ثمَّ يتحرَّجون من التَّشبيه ويأنفون من إضافته إليهم ويقولون نحن أهل السُّنَّة ، وكلامهم صريح في التَّشبيه ، وقد تبعهم خلق من العوام .

فقد نصحت التَّابع والمتبوع فقلت لهم : يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول وهو تحت السِّياط : كيف أقول ما لم يقل ، فإيَّاكم أن تبتدعوا !!! في مذهبه ما ليس منه ، ثمَّ قلتم في الأحاديث : تُحمل على ظاهرها ، وظاهر القدم الجارحة ، فإنَّه لمَّا قيل في عيسى روح الله اعتقدت النَّصارى أنَّ لله صفة هي روح ولجت في مريم ، ومن قال : استوى بذاته فقد أجراه مجرى الحسِّيَّات ، وينبغي أن لا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل ، فإنَّا به عرفنا الله تعالى وحكمنا له بالقدم ، فلو أنَّكم قلتم : نقرأ الأحاديث ونسكت ، ما أنكر عليكم أحد ، إنَّما حملُكم إيَّاها على الظَّاهر قبيح ، فلا تُدخلوا في مذهب هذا الرَّجل الصَّالح السَّلفي ما ليس منه !!! ولقد كسيتم هذا المذهب شيناً قبيحاً حتَّى صار لا يقال حنبلي إلَّا مجسِّم " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٩٧-١٠٢) .

ثمَّ إنَّ أحمد بن حنبل ليس هو الوحيد الذي يُمثِّل أهل السُّنَّة ... فهو واحد من ضمن عشرات بل مئات الآلاف من علماء أهل الحقّ ، وهو غير معصوم ... وليس هو وحده من يرجع النَّاس إلى قوله ... بل هناك من علماء أهل السُّنَّة من يفوقه في الكثير من الأمور ، كالإمام أبي حنيفة ، ومالك ، والشَّافعي ... فلماذا الاقتصار عليه دون غيره من العلماء ...

ثَانِيَاً : وأمَّا قولهم : تقسيم أهل السُّنَّة والجماعة إلى طائفتين بهذا الشَّكل غير صحيح ... أقول : من المعلوم أنَّ الأشاعرة ومن وافقهم هم أهل الحقِّ ، شاء من شاء وأبى من أبى ، وهم أهل السُّنَّة والجماعة ،بل أهل الكتاب والسُّنَّة ، وهم السَّواد الأعظم من أُمَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... قال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) في كتابه : " الزَّواجر عن اقتراف الكبائر " : " وَالْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ مَا

عَلَيْهِ إمَامَا أَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ : الشَّيْخ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ ، وَأَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ " . انظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٦٥) .

وجاء في الفتاوىٰ الحديثيَّة لابن حجر الهيتمي : " مطلب في من طعن علىٰ أبي الحسن وأبي إسحق الأشعريِّين وخلافهم : وسئل نفع الله به ، بما لفظه : طعن بعض النَّاس في أبي الحسن ، وأبي إسحق الأشعريِّين ، والباقلَّاني ، وابن فورك ، وأبي المعالي إمام الحرمين ، والباجي وغيرهم ، ممَّن تكلَّم في الأصول ، وردَّ علىٰ أهل الأهواء ، بل ربَّما بالغ بعض الملاحدة فادَّعىٰ كفرهم ، فهل هؤلاء كما قال ذلك الطَّاعن أو لا ؟

فأجاب بقوله : ليسوا كما قال ذلك الخارق ، المارق ، المجارف ، الضَّال ، الغال ، الجاهل ، المائل ، بل هم أئمَّة الدِّين ، وفحول علماء المسلمين ، فيجب الاقتداء بهم لقيامهم بنصرة الشَّريعة ، وإيضاح المشكلات ، وردِّ شُبه أهل الزيغ ، وما يجب في الاعتقادات والدِّيانات ، لعلمهم بالله وما يجب له ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز في حقِّه ، ولا يعرف الوصول إلَّا بعد معرفة الأصول ، ومن ثمَّ فضَّل أقوامٌ علوم القرآن والحديث وقدَّموها علىٰ حفظ المسائل الفقهيَّة ، حتَّىٰ أدَّىٰ ذلك بعض ملوكهم إلىٰ أن توعَّد الفقهاء وأخافهم ، وبعضهم حبس النَّاس علىٰ اشتغالهم " بالمدوَّنة " وأحرقها ، حتَّىٰ اجتمع القاضي ابن زرقون (٥٨٦هـ) في حضرة بعض أمرائهم ، فقال : هل بقي أحد ممَّا ينتحل هذا المذهب ، فقال بعض الظاهريَّة : لم يبق منهم إلَّا القليل ، فقال : أنَّهم يحكمون في دين الله بغير دليل ، يقولون في المصلِّي بنجاسة : يُعيِّد في الوقت ، لأنَّ النَّجاسة إن كان غسلها واجب أعاد أبداً وإلَّا فلا إعادة عليه ، فالإعادة في الوقت ما قام عليها دليل . فأجابه ابن زرقون فقال له : الأصل في ذلك حديث الأعرابي الْمَشْهُور وَقَوله : " ارْجع فصل فَإنَّك لم تصلّ " . قال الشَّيْخ الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين . يحيىٰ : هو ابن سعيد القطان ، وعبيد الله : هو ابن عمر العمري . وأخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٥٧) و (٧٩٣) و (٦٢٥٢) ، وفي "القراءة خلف الإمام" (١١٣) ، ومسلم (٣٩٧) (٤٥) ، وأبو داود (٨٥٦) ، والترمذي (٣٠٣) ، والنسائي ٢/ ١٢٤، وأبو يعلىٰ (٦٥٧٧) و (٦٦٢٢) ، وابن خزيمة (٤٦١) و (٥٩٠) ، وأبو عوانة ٢/ ١٠٣-١٠٤، والطحاوي ١/ ٢٣٣، وابن حبان (١٨٩٠) ، والبيهقي ٢/ ٨٨ و١١٧ و٣٧١-٣٧٢، وابن حزم في " المحلىٰ " ٣/ ٢٥٦ من طريق يحيىٰ بن سعيد ، بهذا الإسناد . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . واقتصر البخاري في الموضع الثالث من " الصحيح " علىٰ قوله : " ثمَّ ارفع حتىٰ تطمئن جالساً " ، واقتصر في " القراءة " علىٰ قوله : " إذا أقيمت الصَّلاة فكبر ، ثمَّ اقرأ ، ثمَّ اركع " . ولم يسق البيهقي لفظه في الموضع الأول والثاني . وسقط

أبو سعيد المقبري من رواية ابن حبان . وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٢٨٧-٢٨٨، والبخاري في "صحيحه" (٦٢٥١) و (٦٦٦٧) ، وفي " القراءة خلف الإمام " (١١٤) و (١١٥) ، ومسلم (٣٩٧) (٤٦) ، وأبو داود (٨٥٦) ، وابن ماجه (١٠٦٠) و (٣٦٩٥) ، والترمذي (٢٦٩٢) ، وابن خزيمة (٤٥٤) ، وأبو عوانة ٢/ ١٠٣-١٠٤ و١٠٤، والبيهقي ٢/ ١٢٦ و٣٧٢، والبغوي (٥٥٢) من طرق عن عُبَيد الله بن عمر ، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة " . انظر هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل ، (١٥/ ٤٠٠-٤٠١) .

ولم يأت في طرق الحديث أنَّه أمره بإعادة ما مضىٰ ، فاستكان عند ذلك الأمير ، وقال : دعوا النَّاس علىٰ مذاهبهم ، والواجب الاعتراف بفضل أُولئك الأئمَّة المذكورين في السُّؤال وسابقيهم ، وأنَّهم من جملة المرادين بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يحمل هذا العلم من كلِّ خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين " . أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (١/ ٢٥ برقم ٢٩٢) ، البزار في المسند (١٦/ ٢٤٦ برقم ٩٤٢٣ ، وقال : وخالد بن عمرو هذا مُنْكَر الحديث قد حدث بأحاديث عن الثوري وغيره لم يتابع عليها وهذا مما لم يتابع عليه وإنَّما ذكرناه لنبين العلة فيه) ، الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠/ ١٧ برقم ٣٨٨٤) ، الآجري في الشريعة (١/ ٢٦٩) ، الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤ برقم ٥٩٩) ، الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرَّسول (ص١٠٢٧ برقم ١١٦٣) ، ابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (١/ ١٩٨ برقم ٣٣) .

فلا يعتقد ضلالتهم إلَّا أحمق جاهل مبتدع زائغ عن الحقِّ ، ولا يسبُّهم إلَّا فاسق ، فينبغي تبصير الجاهل ، وتأديب الفاسق ، واستتابة المبتدع ... " . انظر : الفتاوىٰ الحديثيَّة (ص٢٧٣-٢٧٤) .

وقال الإمام أبو إسحق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، كما جاء في " طبقات الشافعيَّة " : " وأبو الحسن الأشعري إمام أهل السُّنَّة ، وعامَّة أصحاب الشَّافعي علىٰ مذهبه ، ومذهبه مذهب أهل الحقّ " .
انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٣/ ٣٧٦) .

وهذه شهادة من الإمام الشِّيرازي ، بأنَّ مذهب الأشعري هو مذهب أهل الحقِّ ، والشِّيرازي كان عيناً من أعيان الشَّافعيَّة ، وكذا من أعيان القرن الخامس الهجري ، قال الإمام الذَّهبي في ترجمته له : " الإمام الشَّيخ ، الإِمَامُ ، القُدْوَةُ ، المُجْتَهِدُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، أَبُو إِسْحَاقَ ، قَالَ السَّمْعَانِيّ : هُوَ إِمَامُ الشَّافِعِيَّة ، وَمُدَرِّس النِّظَامِيَّة ، وَشيخ العَصْر . رَحل النَّاس إِلَيْهِ مِنَ البِلاَد ، وَقَصدُوْهُ ، وَتَفَرَّد بِالعِلْمِ الوَافر مَعَ السِّيرَةِ الجمِيْلَة ، وَالطَّرِيقَةِ المَرْضِيَّة . جَاءته الدُّنيا صَاغرَةً ، فَأَبَاهَا ، وَاقتصر عَلَى خُشونَة العَيْش أَيَّامَ حيَاتِه .

صَنَّف فِي الأُصُوْل وَالفروعِ وَالخلاَفِ وَالمَذْهَب ، وَكَانَ زَاهِداً ، وَرِعاً ، مُتَوَاضعاً ، ظَرِيفاً ، كَرِيْماً ، جَوَاداً ، طَلْقَ الوَجْه ، دَائِمَ البِشْر ، مليحَ المُحاورَة ...

حُكِي عَنْهُ قَال : كُنْتُ نَائِماً بِبَغْدَادَ ، فَرَأَيت النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُوْلَ الله ! بَلَغَنِي عَنْكَ أَحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ عَنْ نَاقِلِي الأَخْبَار ، فَأُرِيْد أَنْ أَسْمَع مِنْكَ حَدِيْثاً أَتشرَّف بِهِ فِي الدُّنيا ، وَأَجعله ذُخراً لِلآخِرَة ، فَقَالَ لِي : يَا شَيْخ ! - وَسمَّانِي شَيْخاً ، وَخَاطبنِي بِهِ . وَكَانَ يَفرح بِهَذَا - قال عَنِّي : مَنْ أَرَادَ السَّلاَمَةَ ، فَلْيَطْلُبهَا فِي سلاَمَةِ غَيْره .

قالَ أَبُو بَكْرٍ الشَّاشِيّ : أَبُو إِسْحَاقَ حُجَّةُ الله عَلَى أَئِمَّة العَصْر ، وَقَالَ المُوفَّق الحَنَفِيّ : أَبُو إِسْحَاقَ أَمِيْر المُؤْمِنِيْنَ فِي الفُقَهَاء .

كَانَ الوَزِيْرُ ابْنُ جَهِير كَثِيْراً مَا يَقُوْلُ : الإِمَامُ أَبُو إِسْحَاقَ وَحيدُ عصره ، وَفرِيْدُ دَهْرِهِ ، وَمُسْتجَابُ الدَّعوَة . انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٥٣ فما بعدها) .

وقال الإمام عبد الباقي المواهبي الحنبلي (١٠٧١هـ) : " طوائف أهل السُّنَّة ثلاثة : أشاعرة ، وحنابلة ، وماتريديَّة . بدليل عطف العلماء الحنابلة على الأشاعرة في كثير من الكُتب الكَلاميَّة ، وجميع كُتب الحنابلة !!! " . انظر : العين والأثر في عقائد أهل الأثر (ص٥٣).

وهذه شهادة حنبليَّة من عالم حنبلي ، بأنَّ الأشعريَّة ، والماتريديَّة ، والأثريَّة ، هم من يشكِّل أهل السُّنَّة والجماعة ....

وقال العلَّامة السَّفاريني الحنبلي (١١٨٨هـ) في كتابه " لوامع الأنوار البهيَّة " : " أَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ ثَلَاثُ فِرَقٍ : الْأَثَرِيَّةُ وَإِمَامُهُمْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَالْأَشْعَرِيَّةُ وَإِمَامُهُمْ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ، وَالْمَاتُرِيدِيَّةُ وَإِمَامُهُمْ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ " . انظر : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية (١/ ٧٣) .

وقال أيضاً : " قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هُمْ يَعْنِي الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ ، أَهْلُ الْحَدِيثِ ، يَعْنِي الْأَثَرِيَّةَ ، وَالْأَشْعَرِيَّةَ ، وَالْمَاتُرِيدِيَّةَ " . انظر : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية (١/ ٧٦) .

وهذه شهادة حنبليَّة أخرى من عالم حنبليٍّ محقِّق ، عالم بالحديث والأصول والأدب ، بأنَّ الْأَشْعَرِيَّةَ ، وَالْمَاتُرِيدِيَّةَ ، الْأَثَرِيَّةَ هم مجموع أهل السُّنَّة والجماعة ...

وقال الإمام أحمد الدَّردير (١٢٠١هـ) في شرحه على منظومته في العقائد المسمَّاة بـ " خريدة التَّوحيد " : " أئمَّة الأُمَّة الذين يجب اتباعهم على ثلاث فرق ، فرقة نصَّبت نفسها لبيان الأحكام الشرعيَّة العمليَّة ، وهم الأئمَّة الأربعة وغيرهم من المجتهدين ، ولكن لم يستقر من المذاهب المرضيَّة سوى مذاهب الأئمَّة الأربعة ، وفرقة نصَّبت نفسها للاشتغال ببيان العقائد التي كان عليها السَّلف ، وهم : الأشعري ، والماتريدي ، ومن تبعهما ، وفرقة نصَّبت نفسها للاشتغال بالعمل والمجاهدات على طبق ما ذهب إليه الفرقتان المتقدِّمتان ، وهم : الإمام أبو القاسم الجُنيد (٢٩٧هـ) ومن تبعه ، فهؤلاء الفرق الثَّلاثة هم خواصُّ الأُمَّة المحمَّديَّة ، ومن عداهم من جميع الفرق على ضلال ، وإن كان البعض منهم يحكم له بالإسلام ، فالنَّاجي من كان في عقيدته على طبق ما بيَّنه أهل السُّنَّة " . انظر : حاشية الشَّيْخ محمَّد نجيب المطيعي على شرح الدردير على الخريدة في علم التوحيد (ص١٩٣-١٩٤) .

وهذه شهادة من عالمٍ فاضلٍ نِحرير مالكيٍّ على أنَّ الفرقة الحقّ في الأصول هي الفرقة التي نصَّبت نفسها للاشتغال ببيان العقائد التي كان عليها السَّلف ، وهم : الأشعري ، والماتريدي ، ومن تبعهما . فالأشعري والماتريدي بشهادة الإمام الدَّردير سارا على سَنَن السَّلف الصَّالح فيما ذهبا إليه ...

وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) في " إتحاف السَّادة المتَّقين " : " إذا أُطلق أهل السُّنَّة والجماعة ، فالمراد بهم الأشاعرة والماتريديَّة . قال الخيَّالي في " حاشيته على شرح العقائد " : الأشاعرة هم أهل السُّنَّة والجماعة ، هذا هو المشهور في ديار خراسان ، والعراق ، والشَّام ، وأكثر الأقطار ، وفي ديار ما وراء النَّهر يطلق ذلك على الماتريديَّة أصحاب الإمام أبي منصور ، بين الطَّائفتين اختلاف في بعض المسائل كمسألة التَّكوين وغيرها . اهـ . وقال الكستلي في حاشيته عليه : المشهور من أهل السُّنَّة في ديار خراسان ، والعراق ، والشَّام ، وأكثر الاقطار : هم الأشاعرة ، أصحاب أبي الحسن الأشعري أوَّل من خالف أبا علي الجبائي ورجع عن مذهبه إلى السُّنَّة ، أي : طريق النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والجماعة ، أي : طريقة الصَّحابة رضي الله عنهم . وفي ديار ما وراء النَّهر ، الماتريديَّة أصحاب أبي منصور الماتريدي ، تلميذ أبي نصر العياضي ، تلميذ أبي بكر الجوزجاني ، صاحب محمَّد بن الحسن ، صاحب الإمام أبي حنيفة ، وبين الطَّائفتين اختلاف في بعض الأصول ، كمسألة التَّكوين ، ومسألة

الاستثناء في الإيمان ، ومسألة إيمان المقلِّد ، والمحقِّقون من الفريقين لا ينسب أحدهما الآخر إلىٰ البدعة والضَّلالة . أهـ . قال ابن السُّبكي في " شرح عقيدة ابن الحاجب " : اعلم أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة كلُّهم قد اتَّفقوا علىٰ معتقد واحد فيما يجب ، ويجوز ، ويستحيل ، وإن اختلفوا في الطُّرق والمبادئ الموصلة لذلك أو في لميّة ما هنالك ، وبالجُملة فهم بالاستقرار ثلاث طوائف :

الأُولَىٰ : أهل الحديث ، ومعتمد مباديهم الأدلَّة السَّمعيَّة ، أعني الكتاب ، والسُّنَّة ، والإجماع .

الثَّانِيَةُ : أهل النَّظر العقليِّ والصناعة الفكريَّة ، وهم الأشعريَّة ، والحنفيَّة ، وشيخ الأشعريَّة أبو الحسن الأشعري ، وشيخ الحنفيَّة أبو منصور الماتريدي ، وهم متَّفقون في المبادئ العقليَّة في كلِّ مطلب يتوقَّف السَّمع عليه ، وفي المبادئ السَّمعيَّة ، فيما يدرك العقل جوازه فقط ، والعقليَّة السَّمعيَّة في غيرها ، واتَّفقوا في جميع المطالب الاعتقاديَّة إلَّا في مسألة التَّكوين ، ومسالة التَّقليد .

الثَّالِثَةُ : أهل الوجدان والكشف ، وهم أهل الصُّوفيَّة ، ومباديهم مبادئ أهل النَّظر والحديث في البداية والكشف والإلهام في النِّهاية ..." . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٦-٧) .

وقال الإمام ابن عابدين (١٢٥٢هـ) : " (قَوْلُهُ : عَنْ مُعْتَقَدِنَا) أَيْ : عَمَّا نَعْتَقِدُ مِنْ غَيْرِ الْمَسَائِلِ الْفَرْعِيَّةِ مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ عَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ ، بِلَا تَقْلِيدٍ لِأَحَدٍ ، وَهُوَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ ، وَهُمْ الْأَشَاعِرَةُ وَالْمَاتُرِيدِيَّةِ ، وَهُمْ مُتَوَافِقُونَ إلَّا فِي مَسَائِلَ يَسِيرَةٍ أَرْجَعَهَا بَعْضُهُمْ إلَىٰ الْخِلَافِ اللَّفْظِيِّ كَمَا بُيِّنَ فِي مَحَلِّهِ " . انظر : رد المحتار علىٰ الدر المختار (١/ ٤٩) .

قُلْتُ : وكعادتهم قام المتمسلفون بحذف هذه الفقرة من كتاب " حاشية ردّ المحتار علىٰ الدرِّ المختار شرح تنوير الأبصار فقه أبو حنيفة " لابن عابدين ، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر ، بيروت ، (١٤٢١هـ) ، (٢٠٠٠م) ، الموجود في المكتبة الشَّاملة / الإصدار السَّادس ، فتبًّا لهم ...

وقال الشَّيْخ محمَّد العربي بن التَّبَّاني (١٣٩٠هـ) شيخ المالكيَّة في الحرم المكِّي : " فُحُول المحدِّثين من بعد أبي الحسن إلىٰ عصرنا هذا أشاعرة ، وكتب التَّاريخ والطَّبقات ناطقة بذلك " . انظر : براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (ص١١٢) .

وقال الأُستاذ حسن أيُّوب : " أهل السُّنَّة هم أبو الحسن الأشعري ، وأبو منصور الماتريدي ، ومن سلك طريقهما ، وكانوا يسيرون على طريقة السَّلف الصَّالح في فهم العقائد ، وقد جعلوا القرآن الكريم المنهل العذب الذي يلجأون إليه في تعرف عقائدهم ، فكانوا يفهمون من الآيات القرآنيَّة مسائل العقائد ، وما أشبه عليهم منها حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ولا تنكره العقول ، فإن تعذَّر عليهم توقَّفوا وفوَّضوا ، وقد سُمِّي أتباع أبي الحسن الأشعري : الأشاعرة ، وأبي منصور الماتريدي بالماتريديَّة " . انظر : تبسيط العقائد الإسلامية (ص٢٩٩) .

وقالت دائرة الإفتاء في المملكة الأردنيَّة الهاشميَّة برئاسة سماحة المفتي العام الدُّكتور نوح علي سلمان القضاة في جواب عن سؤال : هل أهل السُّنَّة في الأردن هم الأشاعرة ؟

الجواب : الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول الله ...

الأشاعرة هم جمهور أهل السُّنَّة والجماعة من المالكيَّة والشافعيَّة ، وأمَّا الحنفيَّة فهم ماتريديَّة ، يتبعون أبا منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) ، والخلاف بينهم وبين الأشاعرة محدود ، وأمَّا الحنابلة فبعضهم أشاعرة ، وبعضهم عُرفوا بـ " الحنابلة " ، وأطلق عليهم فيما بعد اسم " السَّلفيَّة " : وجميع هؤلاء هم أهل السُّنَّة ، ويقابلهم المعتزلة والخوارج .

ومُجمل العقيدة التي يقرِّرها أهل السُّنَّة مستمدَّة من أصول الكتاب والسُّنَّة ، وأمَّا بعض التَّفاصيل الكلاميَّة فهي مسائل اجتهاديَّة الخلاف فيها سائغ ، ولا ينكر علماء الكلام فيها بعضهم على بعض .

ونسبة الأشاعرة ترجع إلى الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤هـ) رحمه الله ، وهو الإمام الذي سلَّمت الأُمَّة له بالقبول والرِّضا في علوم التَّوحيد ، وأثنى على تقريراته العلماء ، إذ كان صاحب سُنَّة ومنهج معتدل ، حتَّى روى الإمام البيهقي رحمه الله في " السُّنن الكبرى " (١٠/٢٠٧) أنَّه لَمَّا قَرُبَ حضور أجل أبي الحسن الأشعري قال لبعض أصحابه : اشهَدْ عليَّ أنِّي لا أكفِّر أحداً من أهل القبلة ، لأنَّ الكلَّ يشيرون إلى معبود واحد ، وإنَّما هذا كلُّه اختلاف العبارات . وقد ظهر الإمام أبو الحسن الأشعري في زمن استفحل فيه أمر المعتزلة والفلاسفة الذين يُقَدِّمُون معطياتِ عقولهم على نصوص الكتاب والسُّنَّة ، وكان يقابلهم بعض الحنابلة الذين يُقَدِّمُون ظاهر النُّصوص

علىٰ معطيات العقول ، فاختطَّ أبو الحسن الأشعري منهجاً يجمع بين العقل والنَّقل ، وقال تلاميذه : الشَّرع كالشَّمس ، والعقل كالعين ، ولا يكون الإبصار إلَّا بهما . وقد ارتضىٰ منهجه كبار علماء المسلمين من الحنفيَّة ، والشَّافعيَّة ، والمالكيَّة ، وطائفة كبيرة من الحنابلة ، والله أعلم " . رقم الفتوىٰ : ٤٨٩ ، التاريخ : ٠٢-٠٢-٢٠١٠ .

وبرغم ما تقدَّم من كون الأشاعرة يشكِّلون السَّواد الأعظم من أُمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد عكف المتمسلفون علىٰ تكفيرهم وتبديعهم وتفسيقهم ، حتَّىٰ لم يُبقوا علىٰ الإيمان إلَّا من كان منهم أو علىٰ شاكلتهم ...

فالمتمسلفة اعتادوا علىٰ رمي كلّ من ناوأهم وخالفهم بالبدعة ، سواء كان من المتقدِّمين أو من المتأخِّرين ، حتَّىٰ وصل الأمر بهم إلىٰ الاعتراض علىٰ الصَّحابة ، كما صنع ابن باز في تعقُّبه للحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري حيثُ كفَّر ابنُ باز الصَّحابي الجليل بلال بن الحارث المزني ... وهذه شنشنة نعرفها من أخزم ... وقد تسنَّىٰ لهم ذلك بعد أن اخترعوا لأنفسهم تعريفاً خاصَّاً للبدعة ...

ثَالِثَاً : أمَّا عن إنكارهم التَّأويلات الثَّابتة عن الإمام أحمد ... فهذا هو ديدنهم علىٰ الدَّوام ... وقد سبق أن ذكرنا ما رواه الإمام ابن كثير عن أحمد ... قال الإمام ابن كثير(٧٧٤هـ) : " وَرَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ (٤٥٨هـ) ، عَنِ الْحَاكِمِ (٤٠٥هـ) ، عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ السَّمَّاكِ (٣٤٤هـ) ، عَنْ حَنْبَلٍ (٢٧٣هـ) ، أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ (٢٤١هـ) تَأَوَّلَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، أَنَّهُ جَاءَ ثَوَابُهُ . ثُمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ " .

رَابَعَاً : أمَّا عن اعتبارهم التَّفسير كالتَّأويل ... فهذا علىٰ خلاف ما قاله جمهور العلماء ...

قال الإمام أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد الزّركشي (٧٩٤هـ) : " الفرق بين التَّفسير والتَّأويل :

ثُمَّ قِيلَ : التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ وَاحِدٌ بِحَسَبِ عُرْفِ الِاسْتِعْمَالِ ، وَالصَّحِيحُ تَغَايُرُهُمَا ، وَاخْتَلَفُوا فَقِيلَ : التَّفْسِيرُ كَشْفُ الْمُرَادِ عَنِ اللَّفْظِ الْمُشْكَلِ وَرَدُّ أَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ إِلَىٰ مَا يُطَابِقُ الظَّاهِرَ .

قَالَ الرَّاغِبُ : التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنَ التَّأَوُّلِ وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْأَلْفَاظِ ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعَانِي كَتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا ، وَأَكْثَرُهُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالتَّفْسِيرُ يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِهَا ، وَالتَّفْسِيرُ أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي مَعَانِي مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّفْسِيرَ فِي عُرْفِ الْعُلَمَاءِ : كَشْفُ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَبَيَانُ الْمُرَادِ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِحَسَبِ اللَّفْظِ الْمُشْكِلِ وَغَيْرِهِ وَبِحَسَبِ الْمَعْنَى الظَّاهِرِ وَغَيْرِهِ ، وَالتَّفْسِيرُ أَكْثَرُهُ فِي الْجُمَلِ .

وَالتَّفْسِيرُ إِمَّا أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي غَرِيبِ الْأَلْفَاظِ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ أَوْ فِي وَجِيزٍ مُبَيَّنٍ بِشَرْحٍ كَقَوْلِهِ : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة: ٤٣] ، وَإِمَّا فِي كَلَامٍ مُضَمَّنٍ لِقِصَّةٍ لَا يُمْكِنُ تَصْوِيرُهُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهَا كَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾[التوبة: ٣٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[البقرة: ١٨٩] ، وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ مَرَّةً عَامًّا وَمَرَّةً خَاصًّا نَحْوُ الْكُفْرِ يُسْتَعْمَلُ تَارَةً فِي الْجُحُودِ الْمُطْلَقِ وَتَارَةً فِي جُحُود الْبَارِئِ خَاصَّةً وَالْإِيمَانُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي التَّصْدِيقِ الْمُطْلَقِ تَارَةً وَفِي تَصْدِيقِ الْحَقِّ تَارَةً وَإِمَّا فِي لَفْظٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ .

وَقِيلَ : التَّأْوِيلُ كَشْفُ مَا انْغَلَقَ مِنَ الْمَعْنَى وَلِهَذَا قَالَ الْبَجَلِيُّ : التَّفْسِيرُ يَتَعَلَّقُ بِالرِّوَايَةِ وَالتَّأْوِيلُ يَتَعَلَّقُ بِالدِّرَايَةِ ، وَهُمَا رَاجِعَانِ إِلَى التِّلَاوَةِ وَالنَّظْمِ الْمُعْجِزِ الدَّالِّ عَلَى الْكَلَامِ الْقَدِيمِ الْقَائِمِ بِذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى.

قَالَ أَبُو نَصْرٍ الْقُشَيْرِيُّ : وَيُعْتَبَرُ فِي التَّفْسِيرِ الِاتِّبَاعُ وَالسَّمَاعُ وَإِنَّمَا الِاسْتِنْبَاطُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّأْوِيلِ وَمَا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا حُمِلَ عَلَيْهِ وَمَا احْتَمَلَ مَعْنَيَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فَإِنْ وُضِعَ لِأَشْيَاءَ مُتَمَاثِلَةٍ كَالسَّوَادِ حُمِلَ عَلَى الْجِنْسِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَإِنْ وُضِعَ لِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنْ ظَهَرَ أَحَدُ الْمَعْنَيَيْنِ حُمِلَ عَلَى الظَّاهِرِ إِلَّا أن يقوم الدَّليل وإن استويا سواء كان الِاسْتِعْمَالُ فِيهِمَا حَقِيقَةً أَوْ مَجَازاً أَوْ فِي أَحَدِهِمَا حَقِيقَةٌ وَفِي الْآخَرِ مَجَازٌ كَلَفْظَةِ الْمَسِّ ، فَإِنْ تَنَافَى الْجَمْعُ فَمُجْمَلٌ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْبَيَانِ مِنْ غَيْرِهِ وَإِنْ تَنَافَيَا ، فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ : يُحْمَلُ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ وَالْوَجْهُ عِنْدَنَا التَّوَقُّفُ .

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ حَبِيبٍ النَّيسَابُورِيُّ وَالْبَغَوِيُّ وَالْكَوَاشِيُّ وَغَيْرُهُمْ : التَّأْوِيلُ صَرْفُ الْآيَةِ إِلَىٰ مَعْنًىٰ مُوَافِقٍ لِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا تَحْتَمِلُهُ الْآيَةُ غَيْرِ مُخَالِفٍ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِنْبَاطِ " .

انظر : البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٤٩-١٥٠) ، وانظر : الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٩٢-١٩٣).

خَامِسَاً : وأمَّا عن كلامهم عن الإمامين : النَّووي وابن حجر العسقلاني الأشعريين ...فهو كلام لغاية الاستهلاك المحلِّي ... وإلَّا فقد سبق لهم أن كفَّروهما ، بل كفَّروا عموم الأمَّة ...

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " السُّؤال الأوَّل من الفتوىٰ رقم (٧٠٣٤) : س١ إنَّني متحيِّر في العقيدة الإسلاميَّة من ناحية الأسماء والصِّفات لما أجده في مجلَّة (المجتمع) من الخصومات بين الشَّيخين (الفوزان – الصَّابوني) من الرُّدود والرَّدّ عليها ، فجزاكم الله خير . ج١ أوَّلاً : اقرأ كتب السَّلف في توحيد الأسماء والصِّفات ، لتعرف منها أسماء الله وصفاته ، وكلّ ما يجب اعتقاده من أمور التَّوحيد مثل : " مختصر الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمعطِّلة " ، وكتاب : " اجتماع الجيوش الإسلاميَّة " ، كلاهما لابن القيِّم ، وكتاب : " العقيدة الواسطيَّة " ، وكتاب : " السُّنَّة " لعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل ، فإنَّ السَّلف أعلم بالدِّين ممَّن بعدهم ، وأقوىٰ دليلاً، وأهدىٰ سبيلاً، مع وضوح العبارة والبُعد عن تحريف الكلم عن مواضعه ، وأسأل الله أن يبصرك بالحق ويهديك سواء السَّبيل مع الإخلاص في القول والعمل والزم طاعة الله وطاعة رسوله فذلك مع الدِّراسة والتَّعلُّم أقوىٰ سبب في الوصول إلىٰ الصَّواب والاطمئنان إليه ، وزوال الحيرة ودحض الباطل ، وأكثر من قراءة القرآن ، فإنَّه الأصل ، والسُّنَّة بيان .

ثانياً : الخلاف في مسائل الأسماء والصِّفات بين السَّلف ومن تبعهم في قولهم وبين الخلف ، فالسَّلف ومن تبعهم لا يؤوِّلون نصوص الكتاب والسُّنَّة الدالَّة علىٰ أسماء الله ، ولا يصرفونها عن حقيقتها اللائقة بجلال الله سبحانه وتعالىٰ ، بل يثبتون لله ما دلَّت عليه حقيقة ، من غير تكييف ولا تشبيه له تعالىٰ بخلقه ، ومن غير تأويل ولا تعطيل ، أمَّا الخلف فإنَّهم يؤوِّلون نصوص الكتاب والسُّنَّة المتعلِّقة بأسماء الله وصفاته أو يؤوِّلون بعضها ، فمثلاً قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] يفسِّره السَّلف بأنَّ الله تعالىٰ ارتفع وعلا بنفسه فهو فوق العرش علىٰ ما يليق

بجلاله تعالىٰ، ويفوِّضون في كيفيَّة استوائه عليه . أمَّا الخلف فيؤولون الاستواء بالاستيلاء علىٰ العرش وما يحويه ، والتَّسلُّط علىٰ ذلك ، وينفون علوه علىٰ العرش حقيقة فليس الله تعالىٰ- في رأيهم- فوق العالم ولا تحته ولا في أي جهة من جهات العالم ، بل هو في زعمهم في كل مكان ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة: ٦٤] يثبت بها السَّلف أنَّ لله يدين حقيقة علىٰ ما يليق به ، ويثبتون كمال الكرم والسَّخاء من الخبر عنهما بأنَّهما مبسوطتان ، ويقول الخلف : إنَّ المراد بهما الكرم والسَّخاء والإنعام والإعطاء ، فليس لله يدان – في زعمهم – ولا شكَّ أنَّ الحق مع السَّلف ومن تبعهم في إثبات معاني النُّصوص حقيقة من غير تكييف ولا تمثيل له بخلقه ولا تأويل ولا تعطيل ؛ لأنَّ الأصل الحقيقة ولا دليل علىٰ العدول عنها ، فكان السَّلف بذلك أسعد بالدَّليل .

وبالله التَّوفيق . وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم .

اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٣/ ٢٤١-٢٤٣) .

ولنا علىٰ ما قالته اللجنة الدَّائمة ما يلي :

أَوَّلَاً : قولهم : إنَّ السَّلف أعلم بالدِّين ممَّن بعدهم وأقوىٰ دليلاً ، وأهدىٰ سبيلاً ، مع وضوح العبارة والبعد عن تحريف الكلم عن مواضعه ... لا نشكُّ في ذلك ... لكن هل أقوال السَّلف في مختلف المسائل بين أيدينا ؟!!! فكم من قول نسبه المتسلِّفة للسَّلف والسَّلف منه براء ؟!!!

ثَانِيَاً : ثمَّ إنَّ إرشادهم لكتاب : " مختصر الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمعطِّلة " لابن قيِّم الجوزيَّة ، وكتاب : " اجتماع الجيوش الإسلاميَّة " لابن قيِّم الجوزيَّة ، وكتاب : " العقيدة الواسطيَّة " ، وكتاب : " السُّنَّة " لعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل ...

فهذا من أعجب العجب ...فأصحاب الكُتب بينهم وبين السَّلف بون واسع ... فابن تيمية توفي في العام (٧٢٨هـ) ، وابن قيِّم الجوزيَّة توفي في العام (٧٥١هـ) ، وما اشتملت عليه كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة لا تعبِّر بحقٍّ عن عقائد السَّلف ... وقد أتعبا علماء الأمَّة في الرَّدِّ عليهما ... أمَّا عبد الله بن أحمد ... فكتاب السُّنَّة موضوع مكذوب عليه ، ونحن نبرِّئ ساحته ممَّا اشتمل عليه كتاب

السُّنَّة ... ولو لم يكن في الكتاب إلَّا عشرات الصَّفحات المُسطَّرة في تكفير الإمام أبي حنيفة لكفاه شناعة وخزياً ... عامل الله واضعه عليه بما يستحق ...

ثَالِثَاً : قولهم : إنَّ السَّلف يفسِّرون قول الله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] بأنَّ الله تعالىٰ ارتفع وعلا بنفسه فهو فوق العرش علىٰ ما يليق بجلاله تعالىٰ، ويفوِّضون في كيفيَّة استوائه عليه .

أمَّا الخلف فيؤولون الاستواء بالاستيلاء علىٰ العرش وما يحويه ، والتَّسلُّط علىٰ ذلك ، وينفون علوّه علىٰ العرش حقيقة ، فليس الله تعالىٰ- في رأيهم- فوق العالم ولا تحته ولا في أي جهة من جهات العالم ، بل هو في زعمهم في كلِّ مكان ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ...

فقول مُجانب للصَّواب وللحقيقة ... بل إنَّ الكثير من السَّلف والخلف أوَّلوا الاستواء بالاستيلاء ، منهم : الإمام أبو بكر محمَّد بن عزيز السِّجستاني ، الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري ، الإمام إبراهيم بن السَّري بن سهل ، أبو إسحاق الزَّجَّاج ، الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد بن إبراهيم السَّمرقندي الفقيه الحنفي ، الإمام الشَّريف الرَّضي ، الإمام أبو الحسن علي بن محمَّد بن محمَّد بن حبيب البصري البغدادي ، الشَّهير بالماوردي ، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي ، النَّيسابوري ، الشَّافعي ، الإمام أبو محمَّد عبد الحق بن غالب بن عبد الرَّحمن بن تمام بن عطيَّة الأندلسي المحاربي ، الإمام محمود بن أبىٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري ، الإمام أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التَّيمي الرَّازي الملقَّب بفخر الدِّين الرَّازي خطيب الرَّي ، الإمام أبو محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام بن أبي القاسم بن الحسن السّلمي الدِّمشقي ، الملقَّب بسلطان العلماء ، الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي ، الإمام ناصر الدِّين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمَّد الشِّيرازي البيضاوي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسفي ، الإمام محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي ، الإمام أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني ، الإمام محمَّد بن محمَّد بن محمود ، أبو منصور الماتريدي ، محمَّد بن عُزير السِّجستاني ، أبو بكر العُزيري ، مجد الدِّين أبو طاهر محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادىٰ ، الإمام

عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني ، الإمام الرَّبيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري ، أبو الوفاء ، علي بن عقيل بن محمَّد بن عقيل البغدادي الظّفري ، الإمام أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن محمَّد العبدري الفاسي المالكي الشَّهير بابن الحاج ، الإمام نشوان بن سعيد الحميرىٰ اليمني ...انظر بالترتيب : كتاب غريب القرآن (ص١١٣-١١٥) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٢٤٦-٢٥٢) ، معاني القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج (٣/ ٣٥٠) ، كتاب غريب القرآن (ص١١٤) ، بحر العلوم (١/ ٥٣٦-٥٣٧) ، تلخيص البيان فى مجازات القرآن (٢/ ١٥٢-١٥٣) ، تفسير الماوردي (٢/ ٢٢٩) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٧٥) ، (٣/ ٣-٤) بالترتيب ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٠٨) ، (٣/ ١٠٤) ، (٤/ ٣٥٨) ، إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٣٣٣) ، (١/ ٤٥٠) ، (٢/ ٦٦٣) ، (٢/ ٨٠٣) ، مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٧-٢٧١) ، (٢٥/ ١٣٦-١٣٩) ، تفسير القرآن ، أبو محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام سلطان العلماء (١/ ٤٨٥-٤٨٦) ، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٨-٢٢١) ، أنوار التنزيل وأسرار التَّأويل (٣/ ١٦) ، (٣/ ١٨٠) ، تفسير النسفى (٢/ ١٣٣) ، (٢/ ٢٠١) ، (٣/ ٢٣٠) بالترتيب ، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٩٠) ، اللباب في علوم الكتاب (٩/ ١٤٣-١٥٢) ، التوحيد للماتريدي (ص٦٨-٧٧) ، الهدية العلائية (ص٤٧٠) ، غريب القرآن المسمىٰ بنزهة القلوب (ص١١٤) ، تحقيق : محمَّد أديب عبد الواحد جمران ، دار قتيبة ، سوريا ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٠٦-١٠٧) ، بيان المعاني (١/ ٢٦١-٢٦٢) ، (٢/ ٩٥) ، (٢/ ١٩٢) ، (٣/ ٦) ، (٦/ ٣٥) بالترتيب ، الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب (ص٣٣٨-٣٤١) ، الوَاضِح في أصُولِ الفِقه (٢/ ٣٧٩-٣٨١) ، المدخل (٢/ ١٤٨-١٤٩) ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٥/ ٣٢٨٢) ...

ثمَّ إنَّ تفسيرهم للاستواء بالاستقرار منقول عن بعض الضُّعفاء والمتروكين ...

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " س٢: هناك من ينادي بحقِّ كلِّ إنسان في تأويل آيات القرآن تبعاً لمدىٰ فهمه لها ولظروفها ومواقفها ، علىٰ أساس أنَّ النَّصَّ مقدَّس ، ولكنَّ الفقه أو فهم النَّصِّ ليس مقدَّساً . ومثال علىٰ ذلك النَّصّ : آيات الكرسي ، والعرش ، ويد الله ، وإن كان هذا الزَّعم باطلاً فمن له حقّ التَّأويل ، وما مدىٰ قداسة هذا التَّأويل .

ونرجو تفسير الآية من سورة آل عمران : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران: ٧] .

ونرجو توضيح ما هي المتشابهات وما هي المحكمات ، ومن هم الرَّاسخون في العلم الذين وكَل الله إليهم تأويله أو هداهم إلى ذلك ؟

ج٢: لا يجوز تفسير القرآن إلَّا لأهل العلم العارفين بطرق التَّفسير ، ولا يجوز تفسير القرآن بالجهل والهوى ؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " من قال في القرآن بغير علم فليتبوَّأ مقعده من النَّار " ، رواه التِّرمذي . وفهم النَّصّ خاصٌّ بأهل العلم ، ليس لكلِّ أحد أن يعتمد على فهمه وهو جاهل ؛ لأنَّ هذا من القول على الله بلا علم ، وقد جعل الله القول عليه بلا علم فوق الشِّرك ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣] ، وآيات الكرسي والعرش واليد وغيرها ، هذه من أمور العقيدة لا يدخلها الاجتهاد ، وإنَّما تثبت على معناها كما جاءت من غير تأويل ولا مدخل للأفهام فيها ، والآيات المتشابهات هنا – والله أعلم – هي : الآيات المجملة والآيات المطلقة ، والمحكمات هي الآيات المفصّلة لهذه المجملة والمقيِّدة لها ، والرَّاسخون في العلم هم أهل التَّخصُّص في العلم الشَّرعي وفهم النُّصوص . وبالله التَّوفيق ، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم .

اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوى اللجنة الدائمة (٣/٨-١٠) .

وجاء في فتاوى ابن باز : " س١٦: طالب يسأل ويقول : ما هو الحقُّ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[القلم: ٤٢] ؟ جـ ١٦: الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَّرها بأنَّ المراد يوم يجيء الرَّبُّ يوم القيامة ، ويكشف لعباده المؤمنين عن ساقه ، وهي العلامة التي بينه وبينهم سبحانه وتعالى ، فإذا كشف عن ساقه عرفوه وتبعوه ، وإن كانت الحرب يقال لها : كشفت عن ساق إذا استشرت ، وهذا معروف لغويّاً ، قاله أئمَّة اللغة . ولكن في الآية الكريمة يجب أن يفسّر بما جاء في الحديث الشَّريف ، وهو كشف الرَّبّ عن ساقه سبحانه وتعالى .

وهذه من الصِّفات التي تليق بالله لا يشابهه فيها أحد جل وعلا ، وهكذا سائر الصِّفات كالوجه واليدين والقدم والعين وغير ذلك من الصِّفات الثَّابتة بالنُّصوص ، ومن ذلك الغضب والمحبَّة والكراهة وسائر ما وصف به نفسه سبحانه في الكتاب العزيز ، وفي ما أخبر به عنه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالىٰ :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ١ – ٤] ، وهذا هو قول أهل السُّنَّة والجماعة من أصحاب النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان من أئمَّة العلم والهدىٰ ، والله وليُّ التَّوفيق " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٥/ ٣٧٢-٣٧٣) .

وجاء في فتاوىٰ ابن باز : " س١٧ : أخ يسأل ويقول : ما حكم التَّأويل في الصِّفات ؟

ج ١٧ : التَّأويل منكر ، لا يجوز تأويل الصِّفات بل يجب إمرارها كما جاءت علىٰ ظاهرها اللائق بالله سبحانه وتعالىٰ بغير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فالله جلَّ وعلا أخبرنا عن صفاته وعن أسمائه ، وقال :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، فعلينا أن نمرَّها كما جاءت . وهكذا قال أهل السُّنَّة والجماعة ، أمرُّوها كما جاءت بلا كيف ، أي : أقروها كما جاءت بغير تحريف لها ولا تأويل ولا تكييف ، بل تقر علىٰ ظاهرها علىٰ الوجه الذي يليق بالله من دون تكييف ولا تمثيل . فيقال في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ، وأمثالها من الآيات إنَّه استواء يليق بجلال الله وعظمته لا يشبه استواء المخلوق ، ومعناه عند أهل الحقّ : العلو والارتفاع . وهكذا يقال في العين والسَّمع والبصر واليد والقدم ، وغير ذلك من الصِّفات الواردة في النُّصوص ، وكلّها صفات تليق بالله لا يشابهه فيها الخلق جلَّ وعلا .

وعلىٰ هذا سار أهل العلم من أصحاب النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن بعدهم من أئمَّة السنَّة كالأوزاعي والثَّوري ومالك وأبي حنيفة وأحمد وإسحاق وغيرهم من أئمَّة المسلمين رحمهم الله جميعاً . ومن ذلك قوله تعالىٰ في قصَّة نوح :﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[القمر: ١٣-١٤] ، وقوله سبحانه وتعالىٰ في قصَّة موسىٰ : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[طه: ٣٩] فسَّرهما أهل السُّنَّة بأنَّ المراد بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر: ١٤] أنَّه سبحانه سيَّرها برعايته سبحانه حتَّىٰ استوت علىٰ الجودي ، وهكذا قوله سبحانه في قصَّة موسىٰ : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[طه: ٣٩] ، أي : علىٰ رعايته سبحانه وتوفيقه للقائمين علىٰ تربيته عليه الصَّلاة والسَّلام ، وهكذا قوله

سبحانه للنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨] ، أي : إنَّك تحت كلاءتنا وعنايتنا وحفظنا ، وليس هذا كلّه من التَّأويل بل ذلك من التَّفسير المعروف في لغة العرب وأساليبها ...

ومن ذلك الحديث القدسي وهو قول الله سبحانه : " من تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً ، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " ، يمرّ كما جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ من غير تكييف ولا تحريف ولا تمثيل بل علىٰ الوجه الذي أراده الله سبحانه وتعالىٰ ، وهكذا نزوله سبحانه في آخر الليل ، وهكذا السَّمع والبصر والغضب والرِّضا والضّحك والفرح وغير ذلك من الصِّفات الثَّابتة كلها تمر كما جاءت علىٰ الوجه الذي يليق بالله من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل عملاً بقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وما جاء في معناها من الآيات .

أمَّا التَّأويل للصِّفات وصرفها عن ظاهرها فهو مذهب أهل البدع من الجهميَّة والمعتزلة ومن سار في ركابهم ، وهو مذهب باطل أنكره أهل السُّنَّة وتبرَّءوا منه وحذَّروا من أهله ، والله وليُّ التَّوفيق .

انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٥/ ٣٧٢-٥٧٤) .

وجاء في فتاوىٰ نور علىٰ الدَّرب : " س ٢٤: يقول السَّائل : سمعنا من بعض العلماء أنَّ أهل السنَّة والجماعة يتأوّلون بعض الآيات التي في الصِّفات ، فهل هذا صحيح أنَّ مذهبهم التَّأويل أم أنَّهم يضطرُّون إلىٰ ذلك أفيدونا أفادكم الله ؟

الجواب: الصَّواب الذي أقره أهل العلم من أهل السُّنَّة والجماعة أنَّه لا تأويل في آيات الصِّفات ولا في أحاديثها ، وإنَّما المؤوِّلون هم الجهميَّة والمعتزلة ، والأشاعرة في بعض الصِّفات ، وأمَّا أهل السُّنَّة والجماعة المعروفون بعقيدتهم النَّقيَّة فإنَّهم لا يؤوِّلون ، وإنَّما يمرُّون آيات الصِّفات وأحاديثها كما جاءت بغير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، لا الاستواء ، ولا القدم ، ولا اليد ، ولا الأصابع ، ولا الضَّحك ، ولا الرِّضا ، ولا الغضب ، كلّها يمرُّونها كما جاءت مع الإيمان بأنَّها حقٌّ ، وأنَّها صفات لربِّنا سبحانه وتعالىٰ، يجب إثباتها له سبحـــانه وتعالىٰ علىٰ الوجه اللائق به سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

وبعض النَّاس يؤول الضَّحك بأنَّه الرِّضا ، ويؤول المحبَّة بأنَّها إرادة الثَّواب ، والرَّحمة كذلك ، وهذا كلُّه لا يرضاه أهل السُّنَّة والجماعة ، بل الواجب إمرارها كما جاءت ، وأنَّها حقٌّ ، فهو سبحانه يحب محبَّة حقيقيَّة تليق به لا يشابهها محبة المخلوقين ، ويرضى ، ويغضب ، ويكره ، وهي صفات حقيقيَّة قد اتَّصف بها ربنا على الوجه اللائق به لا يشابه فيها خلقه، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] . وهكذا ، يضحك ربُّنا كما جاء في النُّصوص ضحكاً يليق بجلاله ، لا يشابه خلقه في شيء من صفاته ، وهكذا استواؤه على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته لا يشابه الخلق في شيء من صفاته سبحانه وتعالى .

والمقصود أنَّ التَّأويل لا يجوز عند أهل السُّنَّة ، بل الواجب إمرار آيات الصِّفات وأحاديثها كما جاءت ، لكن مع الإيمان بأنَّها حقٌّ ، وأنَّها صفات لله لائقة به ، أمَّا التَّفويض فلا يجوز .

والمفوِّضة قال أحمد فيهم : أنَّهم شرّ من الجهميَّة !!! والتَّفويض أن يقول القائل : الله أعلم بمعناها فقط وهذا لا يجوز ؛ لأنَّ معانيها معلومة عند العلماء . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وهكذا جاء عن الإمام ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن وعن غيره من أهل العلم ، فمعاني الصِّفات معلومة ، يعلمها أهل السنَّة والجماعة ؛ كالرِّضا والغضب والمحبَّة والاستواء والضّحك وغيرها ، وأنَّها معاني غير المعاني الأخرى ، فالضّحك غير الرِّضا ، والرِّضا غير الغضب ، والغضب غير المحبَّة ، والسَّمع غير البصر ، كلّها معلومة لله سبحانه لكنَّها لا تشابه صفات المخلوقين ، يقول ربُّنا سبحانه وتعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[النحل: ٧٤] . ويقول سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، ويقول عزَّ وجلّ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] ، هذا هو الحقُّ الذي عليه أهل السنَّة من أصحاب النبَّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم بإحسان ، ومن تأوَّل ذلك فقد خالف أهل السنَّة في صفة أو في أكثر " . انظر : فتاوىٰ نور على الدرب (ص٦٤-٦٦) .

قلتُ : وفي كلامهم السَّابق شنُّوا حرباً شعواء على التَّفويض والمُفوِّضة ، مع العلم أنَّ تفويض الكيْف والمعنى هو ما كان عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف ... كما أنَّ التَّأويل هو ما كان عليه بعض السَّلف وجمهور الخلف ، إلَّا أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة قلبوا – كعادتهم – للأمَّة ظهر المِجن ، فخالفوا مجموع الأمَّة ، وخطُّوا لأنفسهم خطَّاً مُغايراً ، فأثبتوا لله تعالى كيْفاً وفوَّضوا العلم به إلى الله تعالى ... وقدَّموا هذا المنهج والمسلك على أنَّه منهج السَّلف الصَّالح ... بل وصل بهم الأمر إلى وصفهم من يفوِّض الكيْف والمعنى بأنَّه قام بمنكر ، وأنَّ ما قام به يعتبر من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ، والعياذ بالله تعالى ... وفيما يلي بعضاً من أقوالهم في هذه المسألة ...

قال الإمام ابن تيمية : " ... فتبيَّن أنَّ قول أهل التَّفويض الذين يزعمون أنَّهم متَّبعون للسُّنَّة والسَّلف من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد " . انظر : درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية الحراني ، (١/ ٢٠٥) ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، نشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، السعودية ، الطبعة : الثانية ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

وقال الشَّيخ صالح بن فوزان الفوزان : " فإنَّ السَّلف لم يكن مذهبهم التَّفويض ، وإنَّما مذهبهم الإيمان بهذه النُّصوص كما جاءت ، وإثبات معانيها التي تدلُّ عليها على حقيقتها ووضعها اللغوي ، مع نفي التَّشبيه عنها ؛ كما قال تعالى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى : ١١] . انظر : المنتقى من فتاوى الفوزان ، صالح بن فوزان الفوزان ، ٢٥/ ١ ، بلا .

وقال الشَّيخ عبد الله بن عبد الرَّحمن بن عبد الله بن جبرين : " ... وكلا الأمرين خطأ ، وإنَّما الصَّواب : ترك التَّأويل وإثبات حقيقة الصِّفات التي أفادتها تلك النُّصوص ، مع تفويض العلم بالكيفيَّات والماهيَّات ، ومع اعتقاد أنَّها لا يُفهم منها تشبيه الرَّبّ أو شيء من صفاته بالمخلوقين ، فلا تشبيه ولا تعطيل " . انظر : فتاوى الشيخ ابن جبرين ، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين ، (٦٤/ ٤١) ، بلا .

وقال الشَّيخ عبد الرَّزَّاق عفيفي : " مذهب السَّلف هو التَّفويض في كيفيَّة الصِّفات لا في المعنى ، وقد غلط ابن قدامة في لمعة الاعتقاد ، وقال : بالتَّفويض ، ولكن الحنابلة يتعصَّبون للحنابلة !!! ولذلك يتعصَّب المشايخ في الدِّفاع عن ابن قدامه ، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ ابن قدامه مفوِّض " . انظر : فتاوى الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، عبد الرزاق عفيفي ، (١/ ١٠٤) ، بلا .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ) : " والمفوِّضة قال أحمد فيهم : أنَّهم شرّ من الجهميَّة ، والتَّفويض أن يقول القائل : الله أعلم بمعناها فقط وهذا لا يجوز ؛ لأنَّ معانيها معلومة عند العلماء . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم والكيْف مجهول ، وهكذا جاء عن الإمام ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن وعن غيره من أهل العلم ، فمعاني الصِّفات معلومة ، يعلمها أهل السُّنَّة والجماعة ؛ كالرِّضا والغضب والمحبَّة والاستواء والضَّحك وغيرها ، وأنَّها معاني غير المعاني الأخرىٰ ، فالضَّحك غير الرِّضا ، والرِّضا غير الغضب ، والغضب غير المحبَّة ، والسَّمع غير البصر ، كلّها معلومة لله سبحانه لكنَّها لا تشابه صفات المخلوقين ، يقول ربُّنا سبحانه وتعالىٰ : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[النحل: ٧٤] ، ويقول سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١] .

ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ٤] ، هذا هو الحقّ الذي عليه أهل السُّنَّة من أصحاب النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم " . انظر : فتاوىٰ نور علىٰ الدرب ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، (١/ ٦٥) ، اعتنىٰ به : أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار – أبو عبد الله محمد بن موسىٰ الموسىٰ .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ) : " وليس التَّفويض مذهب السَّلف ، بل هو مذهب مبتدع !!! مخالفٌ لما عليه السَّلف الصَّالح " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٣/ ٥٥) .

وقال أيضاً : " ليس الأسلم تفويض الأمر في الصِّفات إلىٰ علَّام الغيوب !!! لأنَّه سبحانه بيَّنها لعباده ، وأوضحها في كتابه الكريم وعلىٰ لسان رسوله الأمين صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يبيِّن كيفيَّتها ، فالواجب تفويض علم الكيفيَّة لا علم المعاني ، وليس التَّفويض مذهب السَّلف ، بل هو مذهب مبتدع مخالف لما عليه السَّلف الصَّالح .

وقد أنكر الإمام أحمد – رحمه الله – وغيره من أئمَّة السَّلف علىٰ أهل التَّفويض ، وبدَّعوهم لأنَّ مقتضىٰ مذهبهم أنَّ الله سبحانه خاطب عباده بما لا يفهمون معناه ولا يعقلون مراده منه ، والله سبحانه وتعالىٰ يتقدَّس عن ذلك ، وأهل السُّنَّة والجماعة يعرفون مراده سبحانه بكلامه ويصفونه بمقتضىٰ أسمائه وصفاته وينزِّهونه عن كلِّ ما لا يليق به عزَّ وجلَّ . وقد علموا من كلامه سبحانه

ومن كلام رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه سبحانه موصوف بالكمال المطلق في جميع ما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، (٣/ ٥٥) ، أشرف علىٰ جمعه وطبعه : محمد بن سعد الشويعر .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز : " ... إنَّ هذه الدَّعوىٰ علىٰ مذهب السَّلف دعوىٰ لا أساس لها من الصحَّة ، فإنَّ السَّلف الصَّالح ليس مذهبهم التَّفويض لأسماء الله وصفاته لا تفويضاً عامّاً ولا خاصّاً ، وإنَّما يفوِّضون علم الكيفيَّة كما تقدَّم بيان ذلك ، وكما نصَّ علىٰ ذلك مالك وأحمد وغيرهما وقبلهما أمّ سلمة رضي الله عنها وربيعة بن أبي عبد الرَّحمن شيخ مالك رضي الله عن الجميع ، وليس من مذهب السَّلف أيضا تأويل الصِّفات ، بل يمرُّونها كما جاءت ويؤمنون بمعانيها علىٰ الوجه اللائق بالله سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كما سلف ذكر ذلك غير مرَّة .

وليس من مذهب السَّلف أيضاً نفي التَّجسيم !!! ولا إثباته !!! لأنَّ ذلك لم يرد في الكتاب ولا في السُّنَّة ولا في كلام سلف الأمَّة ، كما نصَّ علىٰ ذلك غير واحد من أئمَّة السُّنَّة ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فقد نصَّ علىٰ ذلك في كتابه : " التَّدمريَّة " حيث قال في القاعدة السَّادسة : " ولهذا لما كان الرَّد علىٰ من وصف الله تعالىٰ بالنَّقائص بهذا الطَّريق طريقاً فاسداً لم يسلكه أحد من السَّلف أو الأئمَّة ، فلم ينطق أحد منهم في حقِّ الله بالجسم لا نفياً ولا إثباتاً ، ولا بالجوهر والتَّحيُّز ، ونحو ذلك ، لأنَّها عبارات مجملة لا تحقُّ حقّاً ولا تُبطل باطلاً . ولهذا لم يذكر الله في كتابه فيما أنكره علىٰ اليهود وغيرهم من الكفَّار ما هو من هذا النَّوع ، بل هذا هو من الكلام المبتدع الذي أنكره السَّلف والأئمَّة " . انظر : مجموع فتاوىٰ العلامة عبد العزيز بن باز ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، (٣/ ٧٠-٧١) ، أشرف علىٰ جمعه وطبعه : محمد بن سعد الشويعر .

وقال الشَّيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ) : " أهل السُّنَّة والجماعة يتبرَّؤون من الطَّريقتين : الطَّريقة الأولىٰ : التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقي المراد إلىٰ معنىٰ غير مراد . والطَّريقة الثَّانية : وهي طريقة أهل التَّفويض ، فهم لا يفوِّضون المعنىٰ كما يقول المفوِّضة بل

يقولون : نحن نقول : بل يداه ؛ أي : يداه الحقيقيَّتان !!! مبسوطتان ، وهما غير القوَّة والنِّعمة . فعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة بريئة من التَّحريف ومن التَّعطيل . وبهذا نعرف ضلال أو كذب من قالوا : إنَّ طريقة السَّلف هي التَّفويض ، هؤلاء ضلُّوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السَّلف ، وكذبوا إن قالوا ذلك عن عمد ، أو نقول : كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز ؛ لأنَّ الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ .

وعلى كلِّ حال ، لا شكَّ أنَّ الذين يقولون : إنَّ مذهب أهل السُّنَّة هو التَّفويض ؛ أنَّهم أخطأوا ؛ لأنَّ مذهب أهل السُّنَّة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفيَّة " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، (٨/ ٧٣) ، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الوطن ، دار الثريا ، الطبعة : الأخيرة ، ١٤١٣هـ .

وقال الشَّيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين : " فتبيَّن أنَّ طريقة التَّفويض طريق خاطئ ؛ لأنَّه يتضمَّن ثلاث مفاسد : تكذيب القرآن ، وتجهيل الرَّسول ، واستطالة الفلاسفة ! وأنَّ الذين قالوا : إنَّ طريقة السَّلف هي التَّفويض كذبوا على السَّلف ! أو الذين قالوا : إنَّ طريقة السَّلف هي التَّفويض كذبوا على السَّلف ، بل هم يثبتون اللفظ والمعنى ويقرِّرونه ، ويشرحونه بأوفى شرح " . انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، (٨/ ٧٧) ، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الوطن ، دار الثريا ، الطبعة : الأخيرة ، ١٤١٣هـ .

والحقّ أنَّ كلام المُتسلِّفة في هذا الباب باطل عاطل ، لا يقول به إلَّا جاهل أو مُتجاهل ، والصَّواب هو عكس ما قالوا ... فأهل السُّنَّة التزموا الطَّريقين : التَّأويل أو التَّفويض ...

وممَّا يكسر ظهر المتسلِّفة في هذا الباب أنّه نُقل عن العديد من أَئِمَّةِ الحَنَابِلَةِ تأويلات عديدة ...

ومن أقوال أئمَّة الحنابلة في التَّأويل :

قال الإمام الشَّيْخُ ، العَلاَّمَةُ ، الحَافِظُ ، المُفَسِّرُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، مَفْخَرُ العِرَاقِ ، جَمَالُ الدِّيْنِ ، أَبُو الفَرَجِ عَبْدُ الرَّحْمَانِ بنُ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّد بنِ عَلِيِّ بنِ عُبَيْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ حَمَّادِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّد بنِ جَعْفَرِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ القَاسِمِ بنِ النَّضْرِ بنِ القَاسِمِ بنِ مُحَمَّد بنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ الفَقِيْهِ عَبْدِ الرَّحْمَانِ ابْنِ الفَقِيْهِ القَاسِمِ بنِ مُحَمَّد ابْنِ خَلِيْفَةَ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ، القُرَشِيُّ ،

التَّيْمِيُّ ، البَكْرِيُّ ، الجوزي ، البَغْدَادِيُّ ، الحَنْبَلِيُّ ، الوَاعِظُ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٥٩٧هـ) : " وَفِي الحَدِيث التِّسعين : " ينزلُ رَبُنَا كلَّ لَيْلَة إِلَىٰ السَّمَاء الدُّنْيَا حِين يبْقىٰ ثلث اللَّيْل الآخر " ، وَفِي رِوَايَة : " إِذا ذهب ثلثُ اللَّيْل الأوَّل " .

أصحُّ الرِّوَايَات عَن أبي هُرَيْرَة : " إِذا بَقِي ثلث اللَّيْل الآخر " ، كَذَلِك قَالَ التِّرْمِذِيّ . وَحَدِيث النُّزُول قد رَوَاهُ جمَاعَة عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنْهُم : أَبُو بكر : وَعلي ، وَابْن مَسْعُود ، وَأَبُو الدَّرْدَاء ، وَابْن عَبَّاس ، وَأَبُو هُرَيْرَة ، وَجبير بن مطعم ، وَرِفَاعَة الْجُهَنِيّ ، والنَّوَّاس بن سمْعَان ، وَأَبُو ثَعْلَبَة الْخُشَنِي ، وَعُثْمَان بن أبي الْعَاصِ ، وَعَائِشَة فِي آخَرين . وَقد ذكرت فِيمَا تقدَّم من مُسْند ابْن عمر وَأنس وَغَيرهمَا فِي مثل هَذِه الْأَشْيَاء أَنَّه يجب علينا أَن نَعْرِف مَا يجوز علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَمَا يَسْتَحِيل . وَمن المستحيل عَلَيْهِ : الْحَرَكَة والنُّقلة والتَّغيُّر ، فَيبقىٰ مَا ورد فِي هَذَا ، فَالنَّاس فِيهِ قائلان : أَحَدُهُمَا : السَّاكِت عَن الْكَلَام فِيهِ ، وَقد حكىٰ أَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيّ عَن مَالك بن أنس (١٧٩هـ) ، وسُفْيَان بن عُيَيْنَة (١٩٨هـ) ، وَعبد الله بن الْمُبَارك (١٨١هـ) ، أَنَّهم قَالُوا فِي هَذِه الْأَحَادِيث : أمرُّوها بِلَا كَيفَ ، فَهَذِهِ كَانَت طَرِيقَة عَامَّة السَّلف .

وَالثَّانِي : المتأوِّل ، فَهُوَ يحملهَا علىٰ مَا توجبه سَعَة اللُّغَة ، لعلمه بِأَنَّ مَا يتضمَّنه النُّزُول من الْحَرَكَة مُسْتَحِيل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وَقد قَالَ الإِمَام أَحْمد : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: ٢٢] ، أَي : جَاءَ أمرُه "

. انظر : كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٧٩) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " وقد روىٰ حديث النُّزول عشرون صحابيّاً ، وقد سبق القول أنَّه يستحيل علىٰ الله عزَّ وجلَّ الحركة والنُّقلة والتَّغيُّر ، فيبقىٰ النَّاس رجلين :

أَحَدُهُمَا : المتأوِّل له بمعنىٰ أنَّه يقرب رحمته ، وقد ذكر أشياء بالنُّزول ، فقال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[الحديد : ٢٥] ، وإن كـان معدنه بالأرض . وقـال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[الزمر : ٦] ، ومن لم يعرف كيف نزول الجَمل كيف يتكلَّم في تفصيل هذه الجُمل ؟

وَالثَّاني : السَّاكت عن الكلام في ذلك مع اعتقاد التَّنزيه . روىٰ أبو عيسىٰ التِّرمذي عن مالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، وابن المبارك ، أنَّهم قالوا : أمرُّوا هذه الأحاديث بلا كيْف .

قلت : والواجب علىٰ الخلق اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلىٰ مكان يفتقر إلىٰ ثلاثة أجسَام : جسمٌ عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسمٌ سافل ، وجسمٌ ينتقل من علوٍّ إلىٰ أسفل ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ قطعاً .

فإن قال العاميُّ : فما الذي أراد بالنُّزول ؟ قيل : أراد به معنىٰ يليق بجلاله ، لا يلزمك التَّفتيش عنه . فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ قلنا : قد علمت أنَّ النَّازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقُرب ولا تظنُّه كقُرب الأجسَام " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكفِّ التنزيه (ص١٩٤-١٩٦) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " ... روت خولة بنت حكيم عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " آخر وطأة وطئها الرَّحمن بوج " ، ووج : واد بالطَّائف ، وهي آخر وقعة أوقعها الله بالمشركين علىٰ يد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .... والوطأة : مأخوذة من القدم ، وإلىٰ هذا ذهب ابن قتيبة (٢٧٦هـ) ، وغيره . وقال سفيان بن عيينة في تفسير هذا الحديث : آخر غزاة غزاها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطَّائف . وقال القاضي أبو يعلىٰ (٤٥٨هـ) : غير ممتنع علىٰ أصولنا !!! حمل هذا الخبر علىٰ ظاهره ، وإنَّ ذلك المعنىٰ بالذَّات دون الفعل ، لأنَّا حَمَلْنا !!! قوله : " ينزل " ، " ويضع قدمه في النَّار " علىٰ الذَّات .

قلت : وهذا الرَّجل يُشير بأصولهم إلىٰ ما يوجب التَّجسيم والانتقال والحركة ، وهذا مع التَّشبيه بعيدٌ عن اللغة ، ومعرفة التَّواريخ ، وأدلَّة العقول ، وإنَّما اغترَّ بحديث روي عن كعب أنَّه قال : " ووج مقدَّس ، منه عرج الرَّبُّ إلىٰ السَّماء ، ثمَّ قضىٰ خلق الأرض " . وهذا لو صحَّ عن كعب احتمل أن يكون حاكياً عن أهل الكتاب ، وكان يحكي عنهم كثيراً ، ولو قدرناه من قوله كان معناه : أنَّ ذلك المكان آخر ما استوىٰ من الأرض لما خلقت ، ثمَّ عرج الرَّبُّ ، أي : عمد إلىٰ خلق السَّماء ، وهو قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[فصلت : ١١] . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٢٢-٢٢٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " ما أكثر تفاوت النَّاس في الفُهوم ! حتَّىٰ العلماء يتفاوتون التَّفاوت الكثير في الأصول والفروع : فترىٰ أقواماً يسمعون أخبار الصِّفات ، فيحملونها علىٰ ما يقتضيه الحسّ ، كقول قائلهم : ينزل بذاته إلىٰ السَّماء، وينتقل !! وهذا فهم رديء ؛ لأنَّ المنتقل يكون من مكان إلىٰ مكان ، ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه ، ويلزم منه الحركة ، وكلّ ذلك محال علىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ " . انظر : صيد الخاطر (ص٤٨٧) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " وقد وقف أقوام مَعَ الظَّواهر ، فحملوها عَلَىٰ مقتضىٰ الحسِّ ، فَقَالَ بعضهم : إنَّ اللهَّ جسم ، تعالىٰ اللهَّ عَنْ ذلك ، وهذا مذهب هشام بْن الحكم (١٩٩هـ) ، وعلي بن منصور ومحمد بن الخليل ويونس بن عَبْدِ الرَّحْمَن ، ثمَّ اختلفـــوا فَقَالَ بعضهم : جسم كالأجسام ، ومنهم من قَالَ : لا كالأجسام ثمَّ اختلفوا ...

ومن الواقفين مَعَ الحسّ أقوام ، قالوا : هو عَلَىٰ العرش بذاته عَلَىٰ وجه المماسَّة ، فَإِذَا نزل انتقل وتحرَّك ، وجعلوا لذاته نهاية ، وهؤلاء قد أوجبوا عَلَيْهِ المساحة والمقدار ، واستدلُّوا عَلَىٰ أنَّه عَلَىٰ العرش بذاته بقول النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل اللهَّ إِلَىٰ سماء الدُّنيا " ، قالوا : ولا ينزل إلَّا من هو فوق ، وهؤلاء حملوا نزوله عَلَىٰ الأمر الحسِّي الذي يوصف به الأجسام ، وهؤلاء المشبِّهة الذين حملوا الصِّفات عَلَىٰ مقتضىٰ الحسّ . وَقَدْ ذكرنا جمهور كلامهم فِي كتابنا المسمَّىٰ : بـ" منهاج الوصول إِلَىٰ علم الأصول " ، ... وإنَّما الصَّواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها ، ... والذي أراه : السُّكوت عَلَىٰ هَذَا التَّفسير أيضاً ، إلَّا أنَّه يجوز أن يكون مراداً ، ولا يجوز أن يكون ثمَّ ذات تقبل التَّجزِّي ... " . انظر : تلبيس إبليس (ص٧٨-٨٠ باختصار) .

وتعليقنا علىٰ ما قاله الإمام أَبُو الفَرَجِ ابن الجوزي في النُّصوص السَّابقة ينتظم في النُّقاط التَّالية :

١ -أمَّا حديث الوطأة ، فهو حديث ضعيف تالف ...قال الشيخ الأرنؤوط في تخريجه : " إسناده ضعيف كسابقه . وهو في " فضائل الصحابة " للمصنف. دون قوله : " وإن آخر وطأة ... " . وأخرجه دونها أيضاً الحاكم ٣/ ١٦٤ من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه ، بهذا الإسناد . وزاد : محزنة . وتحرف فيه اسم الصحابي إلىٰ يعلىٰ بن أمية الثقفي . وأخرجه دونها أيضاً ابن أبي شيبة ١٢/ ٩٧، وابن ماجه (٣٦٦٦) ، والطبراني في " الكبير " ٢٢/ (٧٠٣) ، والرامهرمزي في " الأمثال " (١٤٠) ، والقضاعي في " مسند الشهاب " (٢٥) ، والبيهقي في " السنن " ١٠/ ٢٠٢ من طريق عفان ، به . زاد ابن أبي شيبة والطبراني : اللهم إني أحبها فأحبها .

وزاد البيهقي : مخزنة . وأخرجه الطبراني في " الكبير " (٢٥٨٧) و٢٢/ (٧٠٣) و (٧٠٤) ، والقضاعي (٢٦) ، والبيهقي في " الأسماء والصفات " ص٤٦١ من طريق يحيى بن أبي سليم ، عن ابن خثيم ، به . وفي الباب عن خولة بنت حكيم ، سيأتي ٦/ ٤٠٩ . وعن أبي سعيد الخدري ، عند البزار (١٨٩٢- كشف الأستار) ، وأبي يعلى (١٠٣٢) . وعن الأسود بن خلف ، عند البزار (١٨٩١) ، والحاكم ٣/ ٢٩٦ ، ولا يصح إسناد واحد منها . قوله : " وإن آخر وطأة وطئها الرحمن بوج " . قال البيهقي في " الأسماء والصفات " : الوطأة المذكورة في هذا الحديث عبارة عن نزول بأسه به . قال أبو الحسن علي بن محمَّد بن مهدي : معناه عند أهل النظر : أنَّ آخر ما أوقع الله سبحانه وتعالى بالمشركين بالطائف ، وكان آخر غزاة غزاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتل فيها العدو ، ووج واد بالطائف . قال : وكان سفيان بن عيينة يذهب في تأويل هذا الحديث إلى ما ذكرناه ، قال : وهو مثل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف " . انظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، (٢٩/ ١٠٤-١٠٥) .

قلتُ : أمَا وقد ثبت ضعف الحديث ، فلا داعي لكلِّ ما قيل فيه من التَّأويلات ...

٢-أَكَّد الإمام ابن الجوزي على أنَّه يجب علينا أَن نَعْرِف مَا يجوز على الله سُبْحَانَهُ ، وما يجب له ، وَمَا يَسْتَحِيل عليه ، وَمن المستحيل عَلَيْــهِ : الْحَرَكَة والنُّقلة والتَّغيُّر ...

٣-وضَّح وبرهن على أنَّ الواجب على الخلق : اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام : جسم عالي ، وهو مكان الساكن ، وجسم سافل ، وجسم ينتقل من علو إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعاً ...

٤-ردَّ على المشبِّهة الذين قالوا : ينزل بذاته إلى السَّماء ، وينتقل ...

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) : " ... وليس هذا القُرب كقرب الخلق المعهود منهم ، كما ظنَّه من ظنَّه من أهل الضَّلال ، وإنَّما هو قُربٌ ليس يُشبه قُرب المخلوقين ، كما أنَّ الموصوف به ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى : ١١] ، وهكذا القول في أحاديث النُّزول إلى سماء الدُّنيا ، فإنَّه من نوع قُرب الرَّبِّ من داعيه ، وسائليه ، ومستغفريه .

وقال حنبل : سألت أبا عبد الله : ينزل الله إلى سماء الدُّنيا ؟ قالَ : نعم . قلت : نزوله بعلمه أو بماذا ؟ قال : اسكت عن هذا ، مالك ولهذا ؟ أمض الحديث على ما روي بلا كيف ولا حدٍّ ، إلَّا بما جاءت به الآثار ، وجاء به الكتاب ، قال الله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[النحل : ٧٤] ، ينزل كيف يشاء ، بعلمه وقدرته وعظمته ، أحاط بكل شيء علماً ، لا يبلغ قدره واصف ، ولا ينأى عنه هربُ هاربٍ ، عزَّ وجلَّ .

فلهذا اتَّفق السَّلف الصَّالح علىٰ إمرار هذه النُّصوص كما جاءت من غير زيادة ولا نقص ، وما أشكل فهمه منها ، وقصر العقل عن إدراكه وُكِلَ إلىٰ عالِمِه " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن رجب الحنبلي (٣/ ١١٦-١١٨) .

فالإمام ابن رجب نزَّه الله تعالىٰ أن يكون نزوله كنزول المخلوقين ، ذلكم النُّزول الذي لا يكون إلَّا بحركة وانتقال من مكان إلىٰ مكان ، فنزول الله تعالىٰ نزولٌ يليقُ بقدرته وعظمته وعلمه المحيط بكلِّ شيء ، والمخلوقون لا يحيطون به علماً ...

ومراده : أنَّ نزوله تعالىٰ ليس كنزول المخلوقين ، بل هو نزولٌ يليقُ بقدرته وعظمته وعلمه المحيط بكلِّ شيء ، والمخلوقون لا يحيطون به علماً ، وإنَّما ينتهون إلىٰ ما أخبرهم به عن نفسه ، أو أخبر به عنه رسوله . وفي قول أحمد بن حنبل : " أمض الحديث علىٰ ما روي بلا كيف ولا حدٍّ " ، تنزيه لله تعالىٰ عن الحدِّ ، وهذا أمر لا يعجب من جعلوا السَّلف لهم شمَّاعة يضعون عليها ترَّهاتهم ومصائبهم وطامَّاتهم ومصائبهم التي شتَّتوا بها كيان الأمَّة ، حتَّىٰ غدت شِيَعاً وأحزاباً ، يطعنُ بعضُهم بعضاً ، ويكفِّر بعضهم بعضاً ...

وممَّا يُلجم المتسلِّفة بلجام السُّكوت : أنَّ السَّلف الصَّالح وردت عنهم العديد من التَّأويلات ...

فمن تأويلات حبر الأمَّة وترجمان القرآن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما :

(١) تأويله للكرسي الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[البقرة : ٢٥٥] ، بالعلم ...

فقد جاء في تفسير الطَّبري (٣١٠هـ) عند تفسيره لآية الكرسي ما نصُّه : " اختلف أهل التَّأويل في معنىٰ الكرسي الذي أخبر الله تعالىٰ ذكره في هذه الآية أنَّه وسع السَّموات والأرض ، فقال بعضهم : هو علم الله تعالىٰ ذكره ... وأمَّا الذي يدُلُّ علىٰ ظاهر القرآن فقول ابن عبَّاس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير أنَّه قال : هو علمه ... ". انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/ ٣٩٨) ، تفسير مقاتل بن سليمان (٥/ ١٠٦) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٠) ، بحر العلوم (١/ ١٩٤) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ٣٢٦) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٦٨) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/ ٤٤١) ، التحرير والتنوير (٣/ ٢٣) .

قلت : وقد تعمَّدت أن أنقل أغلب تأويلات ابن عبَّاس من تفسير الطَّبري ، لأنَّ من المعلوم أنَّ الإمام ابن تيمية زكَّىٰ وامتدح تفسير الإمـام الطَّبري ، وذكر أنَّ النَّقل فيه محرَّر ، وأنَّه ينْقل فِيهِ كَلَام السَّلف بِالْإِسْنَادِ . راجع : دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٢/ ٤٧٩) .

(٢) تأويله للنُّور الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[النور : ٣٥] . قال الطَّبري : " حَدَّثَنِي عَلِيٌّ ، قَالَ : ثنا عَبْدُ اللهِ ، قَالَ : ثني مُعَاوِيَةُ ، عَنْ عَلِيٍّ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَوْلُه : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[النور : ٣٥] ، يَقُولُ : اللهُ سُبْحَانَهُ هَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١٧/ ٢٩٥) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٩٣) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٤/ ١٠٢) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٣٢٠) ، تفسير القرآن ، السمعاني (٣/ ٥٢٩) ، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٦/ ٤٥) ، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٧٠) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٥/ ٧٦) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٦/ ٥٧) ...

(٣) تأويله للأعين الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[هود : ٣٧] . قال الإمام البغوي (٥١٦هـ) : ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[هود : ٣٧] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بِمَرْأًىٰ مِنَّا " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٢/ ٤٤٧) ، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٧١) ، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٠) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ٢٢٩) ...

(٤) تأويله للأَيد الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات : ٤٧] . قال الطَّبري : حدَّثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عبَّاس ، قوله : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾[الذاريات : ٤٧] ، يقول : بقوَّة " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/ ٤٣٨) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣١٣) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٨١) ، زاد المسير في علم التفسير (٨/ ٣٨) ، الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٥٢) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٦/ ٢٤٦) ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير القرشي(٧/ ٥٧) ، الدر المنثور (٧/ ٦٢٣) ، دار الفكر ، بيروت ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٢٠٨) ...

(٥) تأويله للسَّاق الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[القلم : ٤٢] : قال الطَّبري : " حدَّثني محمَّد بن عبيد المحاربيّ ، قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، عن

أُسامة بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عبَّاس ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾[القلم : ٤٢] ، قال : هو يوم حرب وشدَّة .

حدَّثنا ابن حميد ، قال : ثنا مهران ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن عبَّاس ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ ، قال : عن أمر عظيم ، كقول الشَّاعر : وقامَتِ الحَرْبُ بنا علىٰ ساقٍ " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣/ ٥٥٤) ، تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٤٠٩) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٦٦) ، بحر العلوم (٣/ ٤٦٣) ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٠/ ١٨) ، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن (١٢/ ٧٦٤٤) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٦/ ٧٠) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٣٩) ، تفسير القرآن ، السمعاني (٦/ ٢٨) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٧٨) ، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٢٥) ، الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٤٨) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٨/ ١٩٩) ، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص٤٨٢) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٤٧٠) ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ٢٥٤) .

(٦) تأويله لمجيء الربِّ الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[الفجر : ٢٢] . قال الإمام النَّسفي (٧٠١هـ) : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبيين آثار قهره وسلطانه ، فإنَّ واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصه ، وعن ابن عبَّاس : أمره وقضاؤه " . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٦٤١) .

فهذه باقة من تأويلات حبر الأمَّة وترجمان القرآن : ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، الصَّحابي الجليل الذي دعـا له رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بقوله : " اللهُمَّ فَقِّهۡهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمۡهُ التَّأۡوِيلَ " ... قال الشيخ شعيب الأرنؤوط : " إسناده قوي علىٰ شرط مسلم ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم ، فمن رجال مسلم ، وهو صدوق ... وأخرجه يعقوب بن سفيان في " المعرفة والتاريخ " ١/ ٤٩٤ من طريقين عن زهير أبي خيثمة، بهذا الإسناد ، وأخرجه الطبراني (١٠٦١٤) من طريق داود بن أبي هند ، عن سعيد بن جبير ، به . قوله : " وعلمه التأويل " ، قال السندي : المراد بالتأويل : تأويل القرآن ، فكان يُسمىٰ بحراً ، وترجمان القرآن ، والله تعالىٰ أعلم . انظر هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/ ٢٢٥) .

ومن تأويلات السَّلف الصَّالح الأُخرىٰ للنُّصوص التي يسمِّيها البعض بالصِّفات :

قال الإمام البخاري (٢٥٦هـ) في كلامه علىٰ قول الله تعالىٰ : ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] : " إِلَّا مُلۡكَهُ ، وَيُقَالُ : إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجۡهُ اللهِ " . انظر : صحيح البخاري (٦/ ١١٢) .

وقال الإمام البخاري: " حَدَّثَنَا محمَّد ، أَنَا عَبْدُ اللهَّ ، أَنَا محمَّد بْنُ يَسَارٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ (٧٣هـ) رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا ، قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَهُ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا ابْنَ عُمَرَ ، كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ فِي النَّجْوَى ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : " يَدْنُو مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ " ، قَالَ : " فَذَكَرَ صَحِيفَتَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ : هَلْ تَعْرِفُ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَعْرِفُ ، حَتَّى يَبْلُغَ بِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَبْلُغَ فَيَقُولُ : إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُنَادِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ " ، قَالَ اللهُّ : ﴿**وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [هود: ١٨] ، قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ (١٨١هـ) : كَنَفُهُ : يَعْنِي سِتْرَهُ " . انظر : خلق أفعال العباد (ص٧٨) .

وقال الإمام التِّرمذي (٢٧٩هـ) : " حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَالمَعْنَى وَاحِدٌ ، قَالُوا : حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ محمَّد ، قَالَ : حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : حَدَّثَ الحَسَنُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : بَيْنَمَا نَبِيُّ الله صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ وَأَصْحَابُهُ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ سَحَابٌ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ ... وَالَّذِي نَفْسُ محمَّد بِيَدِهِ لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللهَّ . ثُمَّ قَرَأَ : ﴿**هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ**﴾[الحديد: ٣] . هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ .

وَيُرْوَى عَنْ أَيُّوبَ ، وَيُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَعَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ ، قَالُوا : لَمْ يَسْمَعِ الحَسَنُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذَا الحَدِيثَ ، فَقَالُوا : إِنَّمَا هَبَطَ عَلَى عِلْمِ الله وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ... " . انظر : سنن الترمذي (٥/ ٢٥٦) .

وقال الإمام التِّرمذي : " حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ ، وَأَبُو مُعَاوِيَةَ ، عَنِ الأَعْمَشِ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْراً اقْتَرَبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " . هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَيُرْوَى عَنِ الأَعْمَشِ (١٤٧هـ) فِي

تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ : مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً ، يَعْنِي بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَهَكَذَا فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذَا الحَدِيثَ . قَالُوا : إِنَّمَا مَعْنَاهُ يَقُولُ : إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ العَبْدُ بِطَاعَتِي وَبِمَا أَمَرْتُ تُسَارِعُ إِلَيْهِ مَغْفِرَتِي وَرَحْمَتِي " . انظر : سنن الترمذي (٥/ ٤٧٣) .

وقال الإمام الطَّبري في كلامه على قول الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[البقرة: ٢٩] ، عَلَا عَلَيْهِنَّ وَارْتَفَعَ فَدَبَّرَهُنَّ بِقُدْرَتِهِ وَخَلَقَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ .

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ أَنْكَرَ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة: ٢٩] الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ هَرَباً عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يُلْزِمَهُ بِزَعْمِهِ إِذَا تَأَوَّلَهُ بِمَعْنَاهُ الْمَفْهِمِ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا عَلَا وَارْتَفَعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ تَحْتَهَا ، إِلَى أَنْ تَأَوَّلَهُ بِالْمَجْهُولِ مِنْ تَأْوِيلِهِ الْمُسْتَنْكَرِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْجُ مِمَّا هَرَبَ مِنْهُ . فَيُقَالُ لَهُ : زَعَمْتَ أَنَّ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ : ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أَقْبَلَ ، أَفَكَانَ مُدْبِراً عَنِ السَّمَاءِ فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا ؟ فَإِنْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِإِقْبَالِ فِعْلٍ وَلَكِنَّهُ إِقْبَالُ تَدْبِيرٍ ، قِيلَ لَهُ : فَكَذَلِكَ فَقُلْ : عَلَا عَلَيْهَا عُلُوَّ مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ لَا عُلُوَّ انْتِقَالٍ وَزَوَالٍ . ثُمَّ لَنْ يَقُولَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَوْلًا إِلَّا أُلْزِمَ فِي الْآخَرِ مِثْلَهُ ، وَلَوْلَا أَنَّا كَرِهْنَا إِطَالَةَ الْكِتَابِ بِمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ لَأَنْبَأْنَا عَنْ فَسَادِ قَوْلِ كُلِّ قَائِلٍ قَالَ فِي ذَلِكَ قَوْلًا لِقَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ فِيهِ مُخَالِفاً ، وَفِيمَا بَيَّنَّا مِنْهُ مَا يُشْرِفُ بِذِي الْفَهْمِ عَلَى مَا فِيهِ لَهُ الْكِفَايَةُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١/ ٢٥٧-٢٥٨) .

وقال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " وَاخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : تَأْوِيلُ ذَلِكَ : فَثَمَّ قِبْلَةُ اللهِ ، يَعْنِي بِذَلِكَ : وَجْهَهُ الَّذِي وَجَّهَهُمْ إِلَيْهِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ : حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ ، قَالَ : ثَنَا وَكِيعٌ ، عَنِ النَّضْرِ بْنِ عَرَبِيٍّ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، قَالَ : قِبْلَةُ اللهِ " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢/ ٤٥٩) .

وقال الإمام الطَّبري: " اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[طه: ٣٩] ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ : وَلِتُغَذَّى وَتُرَبَّى عَلَى مَحَبَّتِي وَإِرَادَتِي . ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى ،

قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ ، عَنْ قَتَادَةَ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩] ، قَالَ : هُوَ غِذَاؤُهُ ، وَلْتُغَذَّىٰ عَلَىٰ عَيْنِي .

حَدَّثَنِي يُونُسُ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ ، قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ، قَالَ : جَعَلَهُ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ يَنْعَمُ وَيَتْرَفُ غِذَاؤُهُ عِنْدَهُمْ غِذَاءُ الْمَلِكِ ، فَتِلْكَ الصَّنْعَةُ وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ مَعْنَىٰ ذَلِكَ : وَأَنْتَ بِعَيْنِي فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا . ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ : حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ ، قَالَ : ثنا الْحُسَيْنُ ، قَالَ : ثني حَجَّاجٌ ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ ، ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩] ، قَالَ : أَنْتَ بِعَيْنَيَّ إِذْ جَعَلَتْكَ أُمُّكَ فِي التَّابُوتِ ، ثُمَّ فِي الْبَحْرِ ، وَ ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٤٠]، وَقَرَأَ ابْنُ نَهِيكٍ : " وَلِتَصْنَعَ " بِفَتْحِ التَّاءِ وَتَأَوَّلَهُ .

كَمَا : حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، قَالَ : ثنا يَحْيَىٰ بْنُ وَاضِحٍ ، قَالَ : ثنا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا نَهِيكٍ ، يَقْرَأُ ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩] فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : وَلْتُعْمَلَ عَلَىٰ عَيْنِي ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَالْقِرَاءَةُ الَّتِي لَا أَسْتَجِيزُ الْقِرَاءَةَ بِغَيْرِهَا ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩] بِضَمِّ التَّاءِ ، لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنَ الْقُرَّاءِ عَلَيْهَا . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَأَوْلَىٰ التَّأْوِيلَيْنِ بِهِ التَّأْوِيلُ الَّذِي تَأَوَّلَهُ قَتَادَةُ ، وَهُوَ : ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩] ، وَلِتُغَذَّىٰ عَلَىٰ عَيْنِي ، أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ الْمَحَبَّةَ مِنِّي . وَعَنَىٰ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩] بِمَرْأًىٰ مِنِّي وَمَحَبَّـــةً وَإِرَادَةً " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١٦/ ٥٩-٦٠) .

وقال الإمام الطَّبري : " وَقَوْلُهُ : ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٥٦] ، يَقُـــولُ : عَلَىٰ مَا ضَيَّعْتُ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَنِي اللهُ بِهِ ، وَقَصَّرْتُ فِي الدُّنْيَا فِي طَاعَةِ اللهِ .

وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ :

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ : حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، قَالَ : ثنا حَكَّامٌ ، عَنْ عَنْبَسَةَ ، عَنْ محمد بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَزَّةَ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ، يَقُولُ : فِي أَمْرِ اللهِ .

حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ عَمْرٍو ، قَالَ : ثنا أَبُو عَاصِمٍ ، قَالَ : ثنا عِيسَىٰ ؛ وَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ ، قَالَ : ثنا الْحَسَنُ ، قَالَ : ثنا وَرْقَاءُ ، جَمِيعاً عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِ اللَّهِ : ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ**﴾[الزمر: ٥٦] ، قَالَ : فِي أَمْرِ اللَّهِ .

حَدَّثَنَا محمَّد ، قَالَ : ثنا أَحْمَدُ ، قَالَ ثنا أَسْبَاطٌ ، عَنِ السُّدِّيِّ (١٢٧هـ) ، فِي قَوْلِهِ : ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ**﴾[الزمر: ٥٦] ، قَالَ : تَرَكْتُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٠/ ٢٣٤-٢٣٥) .

وقال الإمام الطَّبري في كلامه علىٰ قول الله تعالىٰ : ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ**﴾ : " قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ !!! وَالتَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ : يَبْدُو عَنْ أَمْرٍ شَدِيدٍ . ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ :

حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ عُبَيْدٍ الْمُحَارِبِيُّ ، قَالَ : ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (٦٨هـ) ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ**﴾ ، قَالَ : هُوَ يَوْمُ حَرْبٍ وَشِدَّةٍ .

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، قَالَ : ثنا مِهْرَانُ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عَنِ الْمُغِيرَةِ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ**﴾ ، قَالَ : عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَىٰ سَاقٍ ...

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : يُكْشَفُ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ ، أَلَا تَسْمَعُ الْعَرَبَ تَقُولُ : وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَىٰ سَاقٍ .

حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ سَعْدٍ ، قَالَ : ثني أَبِي ، قَالَ : ثني عَمِّي ، قَالَ : ثنا أَبِي ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَوْلُهُ : ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ**﴾ ، يَقُولُ : حِينَ يُكْشَفُ الْأَمْرُ ، وَتَبْدُو الْأَعْمَالُ ، وَكَشْفُهُ : دُخُولُ الْآخِرَةِ وَكَشْفُ الْأَمْرِ عَنْهُ .

حَدَّثَنِي عَلِيٌّ ، قَالَ : ثنا أَبُو صَالِحٍ ، قَالَ : ثنا مُعَاوِيَةُ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَوْلُهُ : ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ**﴾ ، هُوَ الْأَمْرُ الشَّدِيدُ الْمُفْظِعُ مِنَ الْهَوْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ عُبَيْدٍ الْمُحَارِبِيُّ وَابْنُ حُمَيْدٍ ، قَالَا : ثنا ابْنُ الْمُبَارَكِ ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَوْلُهُ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[القلم: ٤٢] ، قَالَ : شِدَّةُ الْأَمْرِ وَجِدِّهِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ أَشَدُّ سَاعَةٍ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ عَمْرٍو ، قَالَ : ثنا أَبُو عَاصِمٍ ، قَالَ : ثنا عِيسَىٰ ؛ وَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ ، قَالَ : ثنا الْحَسَنُ ، قَالَ : ثنا وَرْقَاءُ ، جَمِيعاً عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَوْلُهُ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] ، قَالَ : شِدَّةُ الْأَمْرِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ أَوَّلُ سَاعَةٍ تَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ . غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ قَالَ : وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ أَشَدُّ سَاعَةٍ تَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، قَالَ : ثنا مِهْرَانُ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ (٩٥هـ) ، قَالَ : عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ .

حَدَّثَنَا بِشْرٌ ، قَالَ : ثنا يَزِيدُ ، قَالَ : ثنا سَعِيدٌ ، عَنْ قَتَادَةَ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] ، قَالَ : عَنْ أَمْرٍ فَظِيعٍ جَلِيلٍ .

حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ ، قَالَ : ثنا ابْنُ ثَوْرٍ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[القلم: ٤٢] ، قَالَ : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ " . انظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٣/١٨٦-١٨٩) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) : " ... وَفِيمَا كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو نَصْرِ بْنُ قَتَادَةَ مِنْ كِتَابِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ الطَّبَرِيِّ حِكَايَةً عَنِ النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ (٢٠٣هـ) أَنَّ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : " حَتَّىٰ يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ " ، أَيْ : مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ١٩٠) .

وقال الإمام البيهقي أيضاً في كلامه علىٰ حديث : " لَقَدْ ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ - أَوْ عَجِبَ - مِنْ فَعَالِكُمَا " : " قَالَ الْبُخَارِيُّ (٢٥٦هـ) : مَعْنَىٰ الضَّحِكِ : الرَّحْمَةُ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ (٣٨٨هـ) : قَوْلُ أَبِي عَبْدِ اللهِ قَرِيبٌ ، وَتَأْوِيلُهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرِّضَى لِفِعْلِهِمَا أَقْرَبُ وَأَشْبَهُ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الضَّحِكَ مِنْ ذَوِي التَّمْيِيزِ يَدُلُّ عَلَىٰ الرِّضَى وَالْبِشْرِ ، وَالِاسْتِهْلَالُ مِنْهُمْ دَلِيلُ قَبُولِ

الْوَسِيلَةِ ، وَمُقَدِّمَةُ إِنْجَاحِ الطَّلَبَةِ ، وَالْكِرَامُ يُوصَفُونَ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ بِالْبِشْرِ وَحُسْنِ اللِّقَاءِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ : " يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ" ؛ أَيْ : يُجْزِلُ الْعَطَاءَ لَهُمَا ؛ لِأَنَّهُ مُوجَبُ الضَّحِكِ وَمُقْتَضَاهُ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٤٠٢) .

وقال الإمام البيهقي أيضاً : " وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ١١٥] ، فَقَدْ حَكَىٰ الْمُزَنِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ (٢٠٤هـ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : يَعْنِي وَاللهُ أَعْلَمُ : فَثَمَّ الْوَجْهُ الَّذِي وَجَّهَكُمُ اللهُ إِلَيْهِ " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ١١٠٧) .

وقال أيضاً : " وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ ، وَأَبُو بَكْرٍ الْقَاضِي قَالَا : ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَفَّانَ ، ثنا أَبُو أُسَامَةَ ، عَنِ النَّضْرِ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، قَالَ : قِبْلَةُ اللهِ فَأَيْنَمَا كُنْتَ فِي شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ فَلَا تَوَجَّهَنَّ إِلَّا إِلَيْهَا " . انظر : الأسماء والصفات (٢/ ١١٠٧) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) في كلامه علىٰ قول الله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: ٢٢] : " قَالَ الْحَسَنُ (١١٠هـ) : جَاءَ أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ (١٤٦) : يَنْزِلُ حكمه " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٥/ ٢٥٢) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) في كلامه علىٰ حديث : " لاَ يَزَالُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، حتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العَالَمِينَ قَدَمَهُ ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ " .

قلت : الواجب علينا أن نعتقد أنَّ ذات الله تعالىٰ لا تتبعَّض ، ولا يحويها مكان ، ولا توصف بالتَّغيُّر ولا بالانتقال . وقد حكىٰ أبو عبيد الهروي عن الحسن البصري أنَّه قال : القَدَم هم الذين قدَّمهم الله تعالىٰ من شرار خلقه وأثبتهم لها " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٧٠) .

وقال أيضاً : " قال القاضي أبو يعلىٰ (٤٥٨هـ) عن أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) أنَّه قال في قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، قال : المراد به قدرته وأمره ، قال : وقد بيَّنه في قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[النحل: ٣٣] ، ومثل

هذا في القرآن : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: ٢٢] ، قال : إنَّما هو قدرته " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٤١)
.

وقال أيضاً : " وقال الضَّحَّاك (توفي بعد المائة) وأبو عبيدة (٢٠٩هـ) في قوله تعالىٰ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص : ٨٨] ، أي : إلَّا هو " . انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١١٣) .

قلت : وقد ذكر الإمام علي بن محمَّد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي ، أبو الحسن ابن القطَّان (٦٢٨هـ) إجماع الأمَّة علىٰ أنَّ مجيئ الله تعالىٰ ليس بحركة ولا انتقال ، فقال : " وأجمعوا أنَّه تعالىٰ يجيء يوم القيامة والملك صفَّاً صفَّاً ، لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المؤمنين ، ويعذِّب منهم من يشاء كما قال ، وليس مجيئه بحركة ولا انتقال " . انظر : الإقناع في مسائل الإجماع (١/ ٤٤) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١هـ) في كلامه علىٰ قول الله تعالىٰ : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ : " أَيْ : أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ . وَهُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ . وَقِيلَ : أَيْ : جَاءَهُمُ الرَّبُّ بِالْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، أَيْ بِظُلَلٍ . وَقِيلَ : جَعَلَ مَجِيءَ الْآيَاتِ مَجِيئاً لَهُ ، تَفْخِيماً لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْحَدِيثِ : " يَا بْنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، وَاسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ، وَاسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي " . وَقِيلَ : وَجاءَ رَبُّكَ أَيْ زَالَتِ الشُّبَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَصَارَتِ الْمَعَارِفُ ضَرُورِيَّةً ، كَمَا تَزُولُ الشُّبَهُ وَالشَّكُّ عِنْدَ مَجِيءِ الشَّيْءِ الَّذِي كَانَ يُشَكُّ فِيهِ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٢٠/ ٥٥) .

وقال الإمام ابن عبد الهادي الحنبلي (٧٤٤هـ) نقلاً عن ابن تيمية : " فأحضر بعض أكابرهم كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات للبيهقي ، فَقَالَ : هَذَا فِيهِ تَأْوِيل الْوَجْه عَن السَّلف . فَقلت : لَعَلَّك تَعْنِي قَوْله تَعَالَى : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، فَقَالَ : نعم ، قد قَالَ مُجَاهِد وَالشَّافِعِيّ يَعْنِي : قبْلَة الله .

فَقلت : نعم ، هَذَا صَحِيح عَن مُجَاهِد وَالشَّافِعِيّ وَغَيرهمَا ، وَهَذَا حقٌّ ، وَلَيْسَت هَذِه الْآيَة من آيَات الصِّفَات ، وَمن عدَّهَا فِي الصِّفَات فقد غلط ، كَمَا فعل طَائِفَة ، فان سِيَاق الْكَلَام يدلُّ على الْمُرَاد

حَيْثُ قَالَ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، والمشرق وَالْمَغْرب الْجِهَات ، وَالْوَجْه هُوَ الْجِهَة ، يُقَال : أَي وَجه تُرِيدُ ، أَي : أَي جِهَة ، وَأَنا أُرِيد هَذَا الْوَجْه ، أَي : هَذِه الْجِهَة ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة: ١٤٨] ، وَلِهَـذا قَالَ : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١١٥] ، أَي : تستقبلوا وتتوجَّهوا ، وَالله أعلم " . انظر : العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص٢٦٣-٢٦٤) .

وقال الإمام الذَّهبي (٧٤٨هـ) : " وَقَالَ مَعْدَانُ - الَّذِي يَقُوْلُ فِيْهِ ابْنُ المُبَارَكِ : هُوَ مِنَ الأَبْدَالِ -: سَأَلْتُ الثَّوْرِيَّ (١٦١هـ) عَنْ قَوْلِهِ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحَدِيْدُ: ٤] ، قَالَ : عِلْمُهُ " . انظر : سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٤) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ السَّمَّاكِ عَنْ حَنْبَلٍ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ (٢٤١هـ) تَأَوَّلَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: ٢٢] أَنَّهُ جَاءَ ثَوَابُهُ . ثُمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ !!! " . انظر : البداية والنهاية (١٠/ ٣٦١) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " وَقَدْ تَأَوَّلَ الْبُخَارِيُّ (٢٥٦هـ) الضَّحِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَلَى مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَهُوَ قَرِيبٌ ، وَتَأْوِيلُهُ عَلَى مَعْنَى الرِّضَا أَقْرَبُ ، فَإِنَّ الضَّحِكَ يَدُلُّ على الرِّضَا وَالْقَبُول ، قَالَ : والكرام يوصفون عِنْد مَا يَسْأَلُهُمُ السَّائِلُ بِالْبِشْرِ وَحُسْنِ اللِّقَاءِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ : " يَضْحَكُ اللَّهُ " ، أَيْ : يُجْزِلُ الْعَطَاءَ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني (٦/ ٤٠) .

وقال الإمام علي القارّي (١٠١٤هـ) : " ... وَكَذَلِكَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ (١٦١هـ) أَوَّلَ الِاسْتِوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ بِقَصْدِ أَمْرِهِ ، وَنَظِيرُهُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة: ٢٩] ، أَيْ : قَصَدَ إِلَيْهَا " . انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٢٤) .

ونختم هذه المسألة بما قاله الشَّيخ علي بن مصطفى الطَّنطاوي (١٤٢٠هـ) ، قال : " لقد نظرت فوجدت أنَّ هذه الآيات على ثلاثة أشكال :

١ . آيات وردت على سبيل الإخبار من الله كقوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥] ، فنحن لا نقول : إنَّه ما استوى ، فنكون قد نفينا ما أثبته الله ، ولا نقول : إنَّه استوى على العرش كما يستوي القاعد على الكرسي ، فنكون قد شبَّهنا الخالق بالمخلوق ، ولكن نؤمن بأنَّ هذا هو كلام الله ، وأنَّ لله مراداً منه لم نفهم حقيقته وتفصيله ، لأنَّه لم يبيِّن لنا مفصَّلاً ، ولأنَّ العقل البشري – كما قدَّمنا – يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه .

٢. آيات وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشـــاكلة ، والمشاكلة هي كقول القائل :

قالوا اقترح لنا شيئاً نجد لك طبخة   قلت اطبخوا لي جبَّة وقميصاً

وقول أبي تمام في وقعة عموريَّة ، يردُّ على المنجِّمين الذين زعموا أنَّ النَّصر لا يجيء إلَّا عند نضج التِّين والعنب :

تسعون ألفاً كآساد الشَّرى نضجت   جلودهم قبل نضج التِّين والعنب

والآيات الواردة على هذا الأسلوب كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾[التوبة: ٦٧] فكلمة ﴿ نَسُواْ ﴾ جاءت على المعنى (القاموسي) للنِّسيان . وهو غياب المعلومات عن الذَّاكرة . ولكن كلمة ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾ جاءت مشاكلة لها ، ولا يراد منها ذلك المعنى ، لأنَّ الله لا ينسى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾[مريم: ٦٤] ، ونقول بعبارة أخرى : أنَّ كلمة﴿نَسُواْ﴾ استعملت بالمعنى الذي وضعت له . وكلمة ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة:٦٧] استعملت بغير هذا المعنى . ومثلها قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾[الحديد: ٤] اتفق الجميع على أنَّها معيَّة علم لا معيَّة ذات ، لأنَّ صدر الآية ينصُّ على أنَّ الله استوى على العرش .

مثلها قوله : ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[الرحمن: ٣١] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٥٤] ، وقوله : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[النساء: ١٤٢] .

كلّ هذه الآيات لا يجوز فهمها بالمعنى القاموسي ، الماديّ ، بل بمعنى يليق به جلَّ وعلا .

٣. آيات دلَّت على المراد منها آيات أخرى . كقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤] . تدلُّ على المراد منها آية : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[الإسراء: ٢٩] . ويفهم منها أنَّ بسط اليد يراد به الكرم والجود ، ولا يستلزم ذلك ، بل يستحيل أن يكون لله تعالى يدان كأيدي النَّاس والحيوان ، تعالى الله عن ذلك . وقد جاء في القرآن قوله : ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] ، و ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] . والقرآن ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾[فصلت: ٤٢] ، وليس للرَّحمة ولا للعذاب ولا للقرآن ، يدان حقيقيَّتان " ... انظر : تعريف عام بدين الإسلام (ص٨١-٨٢) .

وفي كتابنا " إعلام الخلف بتأويلات السَّلف " ذكرنا من تأويلات السَّلف الصَّالح ما فيه الغُنية والبرهان على أنَّ السَّلف أوَّلوا العديد من النُّصوص القرآنية والنَّبويَّة ... والتي من شأنها أن تصفع وتُلجم المتسلِّفة بلجام الحقِّ ... وليس بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال .

المَبْحَثُ الخَامِسُ

بَعْضٌ مِنْ تَأْوِيْلَاتِ مُدَّعِي السَّلفيَّة

إنَّ الغريب في أمر هؤلاء الزَّاعمين والمدَّعين للسَّلفيَّة : أنَّهم ملأوا الدُّنيا صياحاً وضجيجاً بأنَّ " التَّأويل تعطيل " ، مع أنَّهم أوَّلوا العديد من الآيات التي لم يسعهم إلَّا تأويلها ... فقد أوَّلوا الوجه في قوله قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة : ١١٥] ، وأوَّلوا قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الصافات : ٩٩] ، وأوَّلوا قـــول الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[النور: ٣٩] ... ولم يأخذوا بالظَّاهر كعادتهم ، وهم فيه متقلِّبون متناقضون ، وعليهم ينطبق قول القائل :

يوماً يمانيَّاً إذا ما لاقى ذا يمن　　　وإن يلاقي معدِّيَّاً فعدناني

ولو استعرضنا كُتُب ابن تيمية ... لرأينا عشرات بل مئات التَّأويلات ... ومن ذلك :

قال الإمام ابن تيمية : " وَفِي الْقُرْآنِ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف: ٨٠] ، فَإِنَّهُ يُرَادُ بِرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ إثْبَاتُ عِلْمِهِ بِذَلِكَ وَأَنَّهُ يَعْلَمُ هَلْ ذَلِكَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ ؟ فَيُثِيبُ عَلَى الْحَسَنَاتِ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى السَّيِّئَاتِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٢٧) .

فابن تيمية هنا يؤول السَّمع بالعلم ...

وقال الإمام ابن تيمية : " ... وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦] ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ . وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ تُفَسِّرُ " الْقُرْبَ " فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ بِالْعِلْمِ ؛ لِكَوْنِهِ هُوَ الْمَقْصُودُ ، فَإِنَّهُ إذَا كَانَ يَعْلَمُ وَيَسْمَعُ دُعَاءَ الدَّاعِي حَصَلَ مَقْصُودُهُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي اقْتَضَى أَنْ يَقُولَ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ؛ فَإِنَّ هَذَا قَدْ قَالَهُ بَعْضُ السَّلَفِ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَكَثِيرٌ مِنْ الْخَلَفِ ؛ لَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّ نَفْسَ ذَاتِهِ قَرِيبَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ... وَهُوَ بِذَلِكَ أَقْرَبُ إلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنْفُسُنَا مِنَّا فَكَيْفَ بِحَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَمْرٍو الطلمنكي ، قَالَ : وَمَنْ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦] ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالدَّلِيلُ مِنْ ذَلِكَ صَدْرُ الْآيَةِ ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦] ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِوَسْوَسَتِهِ ؛ كَانَ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَحَبْلُ الْوَرِيدِ لَا يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ النَّفْسُ . وَيَلْزَمُ الْمُلْحِدَ عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودُهُ مُخَالِطاً لِدَمِ الْإِنْسَانِ وَلَحْمِهِ وَأَنْ لَا يُجَرِّدَ الْإِنْسَانُ تَسْمِيَةَ الْمَخْلُوقِ حَتَّى يَقُولَ : خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ لِأَنَّ مَعْبُودَهُ بِزَعْمِهِ دَاخِلُ حَبْلِ الْوَرِيدِ مِنْ الْإِنْسَانِ وَخَارِجَهُ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ مُمْتَزِجٌ بِهِ غَيْرُ مُبَايِنٍ لَهُ ... وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ فِيمَنْ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة: ٨٥] ، أَيْ : بِالْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ إذْ لَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى حِيلَةٍ ، وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْمَوْتَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: ٦١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة: ١١] . قُلْت : وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ الثَّعْلَبِيِّ وَأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ

وَغَيْرِهِمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦] ، وَأَمَّا فِي قَوْلِهِ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة: ٨٥] ، فَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ الْقَوْلَيْنِ : أَنَّهم الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّهُ الْقُرْبُ بِالْعِلْمِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٠٠-٥٠١) .

وفيما سبق رأينا ابن تيمية يؤول قُرب الله من العباد بالعلم ...

ونقل ابن تيمية تأويل الإمام أحمد بن حنبل لمجئ البقرة وآل عمران كأنَّهما غمامتان ...بمجئ ثوابهما ... مقرّاً له من غير تعقيب ... فقد نقل ابن تيمية عن حَنْبَل أنَّه نقل عن أحمد بن حنبل فِي " الْمِحْنَةِ " أَنَّهم لَمَّا احْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ " ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ إتْيَانُ الْقُرْآنِ وَمَجِيئُهُ . وَقَالُوا لَهُ : لَا يُوصَفُ بِالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ إلَّا مَخْلُوقٌ ؛ فَعَارَضَهُمْ أَحْمَد بِقَوْلِهِ : - وَأَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ - فَسَّرُوا هَذَا الْحَدِيثَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَجِيءُ ثَوَابِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ كَمَا ذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ مَجِيءِ الْأَعْمَالِ فِي الْقَبْرِ وَفِي الْقِيَامَةِ وَالْمُرَادُ مِنْهُ ثَوَابُ الْأَعْمَالِ. وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " اقْرَءُوا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا يَجِيئَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ غَمَامَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا " ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ : فَلَمَّا أَمَرَ بِقِرَاءَتِهِمَا وَذَكَرَ مَجِيئَهُمَا يُحَاجَّانِ عَنْ الْقَارِئِ : عُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ قِرَاءَةَ الْقَارِئِ لَهُمَا وَهُوَ عَمَلُهُ وَأَخْبَرَ بِمَجِيءِ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ التِّلَاوَةُ لَهُمَا فِي الصُّورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا كَمَا أَخْبَرَ بِمَجِيءِ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْمَالِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٩٨-٣٩٩) .

وقال الإمام ابن تيمية : " فَقَوْلُ مَنْ قَالَ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] : هَادِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَلَامٌ صَحِيحٌ ، فَإِنَّ مِنْ مَعَانِي كَوْنِهِ نُورَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ هَادِياً لَهُمْ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٩١) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) : " وذهب بعض النَّاس إلىٰ أنَّ قوله تعالىٰ في هذا الحديث القدسي : " أتيته هرولة " يُراد به : سرعة قبول الله تعالىٰ وإقباله علىٰ عبده المتقرِّب إليه ، المتوجِّه بقلبه وجوارحه ، وأنَّ مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل . وعلَّل ما ذهب إليه بأنَّ الله تعالىٰ ، قال : " ومن أتاني يمشي " ، ومن المعلوم أنَّ المتقرِّب إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، الطَّالب

للوصول إليه ، لا يتقرَّب ويطلب الوصول إلىٰ الله تعالىٰ بالمشي فقط ، بل تارة يكون بالمشي كالسَّير إلىٰ المساجد ، ومشاعر الحج ، والجهاد في سبيل الله ، ونحوها . وتارة بالرُّكوع والسُّجود ونحوهما . وقد ثبت عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنَّ أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد " ، بل قد يكون التَّقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ وطلب الوصول إليه والعبد مضطجع علىٰ جنبه ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران : ١٩١] ، وقال النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمران بن حصين : " صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب " . قال : فإذا كان كذلك ، صار المراد بالحديث : بيان مجازاة الله تعالىٰ العبد علىٰ عمله ، وأنَّ من صدق في الإقبال علىٰ ربِّه وإن كان بطيئاً ، جازاه الله تعالىٰ بأكمل من عمله وأفضل ، وصار هذا هو ظاهر اللفظ بالقرينة الشَّرعيَّة المفهومة من سياقه " . انظر : القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ (ص٧١) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) : " أتيته هرولة " ، أي : صببتُ عليه الرَّحمة ، وسبقته بها ، ولم أحوجه إلىٰ المشي الكثير في الوصول إلىٰ المقصود " . انظر : شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٠٥) .

فالشَّيخ ابن عثيمين هنا ترك منهجه ومذهبه ومال إلىٰ التَّأويل الذي سمَّاه فيما سبق تعطيلاً وتحريفاً ...

وقال الشَّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشَّيخ : " ... ولهذا من أهل العلم من قال يمكن أن يقال في قوله : " ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " : أنَّه يمكن أن يقال : إنَّه من أتاني يمشي في عبادة تفتقر إلىٰ المشي أتيته بثواب ورحمة سريعين " . انظر : شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٤٣) .

وكفعل الشَّيخ ابن عثيمين فعل الشَّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشَّيخ ، فقد مال إلىٰ التَّأويل في هذه المسألة ، وهو خروج عن المذهب والمنهج حيث لا مناص من التَّأويل ...

وقال الشَّيخ عبد الله بن محمَّد الغنيمان (معاصر) : " وقوله : " وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " : الهرولة : السُّرعة في المشي ، بين المشي والعدو ، وهو تمثيلٌ لكرم الله وجوده علىٰ عبده !!! وأنَّه إذا أقبل إليه ، فهو – سبحانه – أسرع إقبالاً وتفضُّلاً علىٰ عبده ، من غير مقابل يناله من العبد ، بل هو

الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه ، وكلُّ ما سواه فقير إليه ، ويؤخذ من الحديث : عظم فضل الله وكرمه ، وعظم فضل الذِّكر ". انظر : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٢٠) .

فكصنيع صاحبيه السَّابقين صنع الشيخ عبد الله بن محمَّد الغنيمان ، فذهب إلى التَّأويل في هذا الحديث الذي لا يسعه معه إلَّا التَّأويل ...

وقال الشَّيخ عبد الله بن عبدالرَّحمن الجبرين : " معنى الهرولة والتَّردُّد الواردين في حديث : "وما تردَّدت في شيء مثل تردُّدي في قبض روح عبدي ... " : السُّؤال : ما معنى الهرولة والتَّردُّد الواردان في حديث : " وما تردَّدت في شيء مثل تردُّدي في قبض روح عبدي ..." ؟ الجواب : الصَّحيح أنَّ الهرولة هنا بمعنى قُرب الرَّبِّ تعالى إلى عبده بثوابه ، فالقُرب معنوي ، العبد لا يتجاوز مكانه ، وإنَّما تقرّباته بالأعمال ، فقرب الرَّب إليه ، وهرولته – يعني : إسراعه – إنَّما هو بالأعمال ، بكثرة الثَّواب ، فلا يقال : إنَّ الهرولة صفة من صفات الله في هذا الحديث ، إنَّما ذكرها على وجه المبالغة في كثرة الثَّواب ، قال : " من تقرَّب إليَّ شبراً ، تقرَّبت إليه ذراعاً " ، العبد ما يتقرَّب شبراً ، يعني : هو مكانه ، ولكن تقرَّب بالأعمال ، " من تقرَّب إليَّ ذراعاً " ، العبد لا يتزحزح عن مكانه ، ولكن تقرَّب بالأعمال " من أتاني يمشي " ، العبد لا يتجاوز مكانه بهذا المشي ، المراد بالمشي هنا مواصلة الأعمال الصَّالحة ، يعني : كثرة الأعمال الصَّالحة ، وعبَّر عن ذلك بالمشي . إذاً : هذا الحديث إنَّما فيه المماثلة ، فقُرب العبد بالأعمال ، وقُرب الرَّبِّ بالثَّواب ، وكذلك المشي والهرولة " . انظر : شرح العقيدة الطحاوية (٣/ ١٨٢) .

فالشَّيخ ابن جبرين هنا يؤوّل التَّقرُّب والهرولة المضافين إلى الله تعالى ، وهو بهذا يفارق منهجه القاضي بإمرار المتشابه على ظاهر معناه ...

الفَصْلُ العِشْرُوْن

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بأَنَّ خَبَرِ الوَاحِدِ مفيد لِلْعِلْم

من المعلوم أنَّ أخبار الآحاد متىٰ صحَّ إسنادها وكانت مُتونها غير مستحيلة في العقل ، كانت موجبة للعمل بها دون العلم ، وكانت بمنزلة شهادة العدول عند الحاكم في أنَّه يلزمه الحكم بها في الظَّاهر ، وإن لم يعلم صدقهم في الشَّهادة ... فالسَّهو والخطأ والكذب علىٰ الواحد فيما نقله جائز ، ولذلك فلا يجوز أن يقع العلم بخبرهم ، فخبر الواحد محتمل لا محالة ، ولا يقين مع الاحتمال ، ومن أنكر هذا فقد سفَّه نفسه ، وأضلَّ عقله ... والأصل في خبر الواحد أن يكون موافقاً لكتاب الله وللسُّنَّة المتواترة والإجماع ، فأمَّا إذا خالفها أو واحداً منها ، فيجب ردُّهُ أو تأويله بما ينسجم معها ...

فخبر الواحد يُوجب العمل وغلبة الظَّنِّ دون القطع في قول جمهور أهل العلم ، ولهذا لم يكفِّروا جاحده ، بخلاف المتواتر ... ولمَّا كانت الأمور الاعتقاديَّة تُبنىٰ علىٰ الجزم واليقين والقطع ، فقد نصَّ جمهور أهل العلم علىٰ أنَّه لا يُؤخذ بحديث الآحاد في الاعتقاد إذا انفرد بعقيدة ليست في القرآن ولا في السُّنَّة المتواترة ، لأنَّ الظَّنَّ في الاعتقاد لا يُغني عن الحقِّ شيئاً ، مع التَّأكيد علىٰ أنَّ القول بعدم إفادة حديث الآحاد في الاعتقاد لا يعني البتَّة ردّ كلام النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... كما أنَّ قول أهل العلم بأنَّ خبر الآحاد لا يفيد العلم هو نفس كلامهم بأنَّه لا يفيد اليقين أو لا يفيد الاعتقاد ، لأنَّ العقائد لا تُبنىٰ إلَّا علىٰ القطع واليقين ...لكنَّ نابتة المتسلِّفة خالفوا في ذلك – كعادتهم– وبنوا جملة من العقائد علىٰ أخبار الآحاد ... بل علىٰ بعض الآثار المنكرة – كأثر إقعاد الله لرسوله علىٰ العرش معه – ...

ومن المعلوم لدىٰ الجميع أنَّ العقائد هي أساس الإسلام ، وركنه الرَّكين ، المبني علىٰ القطع واليقين ، لا علىٰ الظُّنون والتَّخمين ... بمعنىٰ أنَّ العقائد يجب أن تثبت بوحي لا تحتمل دلالة لفظه إلَّا معنىٰ واحداً ، كقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١] ... ولذلك نعىٰ الله تعالىٰ علىٰ أولئك الذين يتَّبعون الظَّنَّ ، وأخبر سبحانه وتعالىٰ بأنَّ الظنَّ ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[يونس: ٣٦] ...

فالاستدلال على العقائد بالظنّي ممنوعٌ في دين الله تعالى ... ومع ذلك رأينا من يدّعون السّلفيَّة يُناضلون من أجل تمرير الاستدلال بالظُّنون في العقائد ، بل رأيناهم يُكفِّرون من لا يؤمن بالعقائد التي لم تثبت إلَّا بالنُّصوص الظَّنيَّة ... مع العلم أنَّهم تناقضوا في ذلك كثيراً ...

قال الشَّيخ الألباني : " باب نقض القول بردِّ حديث الآحاد في العقيدة من وجوه عِدَّة :

ذهب بعضهم إلى أنَّه لا تثبت العقيدة إلَّا بالدَّليل القطعي ، بالآية أو الحديث المتواتر تواتراً حقيقيَّاً ، إن كان هذا الدَّليل لا يحتمل التَّأويل ، وادَّعى أنَّ هذا ممَّا اتُّفِق عليه عند علماء الأصول ، وأنَّ أحاديث الآحاد لا تفيد العلم ، وأنَّها لا تثبت بها عقيدة .

وأقول : إنَّ هذا القول وإن كنَّا نعلم أنَّه قد قال به بعض المتقدِّمين من علماء الكلام ، فإنَّه منقوض من وجوه عديدة :

الوجه الأوَّل : أنَّه قول مبتدعٌ !!! مُحدث ، لا أصل له في الشَّريعة الإسلاميَّة الغرَّاء ، وهو غريب عن هدي الكتاب وتوجيهات السُّنَّة ، ولم يعرفه السَّلف الصَّالح رضوان الله تعالى عليهم ، ولم ينقل عن أحد منهم ، بل ولا خطر لهم على بال . ومن المعلوم المقرَّر في الدِّين الحنيف : أنَّ كلَّ أمرٍ مبتدع من أمور الدِّين باطل مردود ، لا يجوز قبوله بحال " . انظر : موسوعة الإمام محمَّد ناصر الدين الألباني (١/ ٣٢٤) .

هذا ما قاله الألباني ... وهو في كلامه يعتبر القَوْلَ بِعَدَمِ إِفَادَة خَبَرِ الآحَادِ لِلعِلْمِ مِنَ البِدَعِ ... مع أنَّ الحقَّ في هذه المسألة أنَّ كلامه وكلام من يشايعه في هذه المسألة هو البدعة ...

وللردِّ عليه نقول :

اختلف العلماء فيما يفيده خبر الواحد العدل الضَّابط في العقيدة ، والمتأمِّل يجد أن كلامهم يدور حول إفادته الحجيَّة وعدمها ، سواء كان بذاته ، أو بانضمام القرائن إليه ، وعليه فإنَّ ملخَّص ما ذهبوا إليه ينتظم في مذهبين :-

المَذْهَبُ الأَوَّلُ: أنَّه ليس حجَّة في العقائد ، وإليه ذهب جمهور الأصوليِّين ، منهم : الباقلَّاني ، والخطيب البغدادي ، وابن فورك ، والغزالي ، والقاضي عبد الجبَّار ، والرَّازي ، والبيهقي ، والكرماني ، والقاسمي ، والنَّووي ، والكاساني ، وابن عبد البرّ ، وعبد القاهر البغدادي ، وغيرهم

كثير وكثير من السَّلف والخلف علىٰ حدٍّ سواء... انظر : بالترتيب : تمهيد الأوائل وترتيب الدلائل (ص ٤٤١)، الفرق بين الفرق (ص٣٢٥) ، مشكل الحديث وبيانه ، ابن فورك (ص٢٤) ، المستصفىٰ من علم الأصول (٢/ ١٧٩) ، شرح الأصول الخمسة(ص٦٧٢) ، أساس التقديس (ص١٩٢) ، الأسماء والصفات ، البيهقي (ص٤٥٠) ، صحيح البخاري بشرح الكرماني(٢٥/ ١٤) ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (ص١٤٧-١٤٨) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٠ ، ١/ ١٣١) ، بدائع الصانع (١/ ٢٠) ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١/ ٧) ، أصول الدين ، عبد القاهر البغدادي (ص١٢) .

ونسبه جماعة إلىٰ الأكثر من أهل الأصول . انظر : المعتمد في أصول الفقه (٢/ ٥٦٦) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) ، مطبوع بهامش المستصفىٰ ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/ ١٢٣) ، الإحكام في أصول الأحكام ، الآمدي (٢/ ٤٨) ، شرح الكوكب المنير المسمىٰ بمختصر التحرير في أصول الفقه (٢/ ٣٥٢) ، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (٢/ ٣٥٧) ، أصول السرخسي (١/ ٢٩٢) ، شرح التلويح علىٰ التوضيح ، التفتازاني ، (٢/ ٤٣١) ، نهاية السول للأسنوي في شرح منهاج الوصول للبيضاوي (١/ ٢٣) .

كما نسبه البعض إلىٰ الحنفيَّة ، والشَّافعيَّة ، وجمهور المالكيَّة ، وإلىٰ جميع المعتزلة . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم (١/ ١٠٧) ، إرشاد الفحول (ص ٤٨) ، المسودة في أصول الفقه (ص٢٤٧/ ٢٤٨) ، شرح الكوكب المنير المسمىٰ بمختصر التحرير في أصول الفقه (٢/ ٣٤٩-٣٥٠) .

المَذْهَبُ الثَّانِي: أنَّه حجَّة إذا احتفَّت به القرائن ، وإليه ذهب ابن تيمية ، وابن القيِّم ، وابن حزم ، والقاضي أبو يعلىٰ ، وابن الزَّاغوني ، وابن قاضي الجبل ، وحكاه ابن خويز منداد عن مالك ، وهو إحدىٰ الرِّوايتين عن أحمد . انظر : المسودة في أصول الفقه (٢٤٧- ٢٤٨) ، شرح الكوكب المنير المسمىٰ بمختصر التحرير في أصول الفقه (٢/ ٣٤٨-٣٥٠) ، أصول السرخسي (١/ ٣٢٩) ، مختصر الصواعق المرسلة (ص ٥٢٨ فما بعدها) ، الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ، الألباني (ص ٤٥ فما بعدها) .

ومن أشهر القرائن التي ذكرها مَنْ ذهبَ إلىٰ حجيَّة الآحاد في العقيدة :

(١) ما أخرجه الشَّيخان في صحيحيهما ممَّا لم يبلغ حدّ المتواتر ، فإنَّه احتفَّت به قرائن منها : جلالتهما في هذا الشَّأن ، وتقدُّمهما في تَمْييز الصَّحيح علىٰ غيرهما ، وتلقِّي الأمَّة لكتابيهما بالقبول . انظر : شرح نخبة الفكر في مصطلح الأثر ابن حجر العسقلاني (ص٢٠-٢١) ، مجموع فتاوىٰ ابن تيميه (١٨/ ١٦) .

يقول ابن الصَّلاح : " أنَّ ما انفرد به البخاري أو مسلم مندرج من قبيل ما يقطع بصحَّته لتلقِّي الأمَّة كلّ واحد من كتابيهما بالقبول ، سوىٰ أحرف يسيرة تكلَّم عليها بعض أهل النَّقد من الحفَّاظ ، كالدَّارقطني وغيره ، وهي معروفة عند أهل هذا الشَّأن " . انظر : مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الإصلاح (ص ١٤-١٥) ، وانظر : مجموع فتاوىٰ ابن تيميه (١٨/ ١٧) ، تدريب الراوي (١/ ١٣٤) .

(٢) المشهور إذا كانت له طرق متباينة ، سالمة من ضعف الرُّواة والعلل . انظر : شرح نخبة الفكر في مصطلح الأثر ، ابن حجر العسقلاني (ص ٢٤) ، مجموع فتاوىٰ ابن تيميه (١٨/ ٤٧-٤٨) .

(٣) المسلسل بالأئمَّة الحفَّاظ المتقنين . انظر : شرح نخبة الفكر في مصطلح الأثر ، ابن حجر العسقلاني (ص ٢٥) ، مجموع فتاوىٰ ابن تيميه ، (١٨/ ٤٨) .

هذه هي أهم القرائن التي ذكروها لإفادة الخبر الحجَّة في العقيدة ... ولو أمعنَّا فيها لوجدنا أنَّ القرينة الأولىٰ كافية لمناقشتهم بها ... فأحاديث الصَّحيحين لم تسلم من تضعيف كلٍّ من ابن تيمية وابن القيِّم والألباني ... وفيما يلي طائفة أحاديث الصَّحيحين أو أحدهما التي حكموا عليها بالضَّعف ...

الحَدِيْثُ الأَوَّلُ: روىٰ البخاري (٢/ ١٢٢ برقم ١٤٦٨) واللفظ له ، مسلم (٢/ ٦٧٦ برقم ٩٨٣) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّدَقَةِ، فَقِيلَ مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا، فَأَغْنَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ: فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَعَمُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِيَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ وَمِثْلُهَا مَعَهَا " .

والحديث تكلَّم عليه الشَّيخ الألباني في " إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السَّبيل " (٣/ ٣٥٠-٣٥٢) ، وأطال في تضعيفه ... فقال في تخريجه للحديث : " شاذٌّ بهذا اللفظ ، وهو قطعة من حديث رواه أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَقِيلَ: مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَالْعَبَّاسُ عَمُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ، وَمِثْلُهَا مَعَهَا» ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟» . أخرجه مسلم (٣/ ٦٨) وأبو داود أيضا (١٦٢٣) والدَّارقطني (٢١٢) والبيهقي (٤/ ١١١) وأحمد (٢/ ٣٢٢) من طريق ورقاء عن أبي الزِّناد عن الأعرج عنه به ...

وبذلك يتبيَّن أنَّ رواية مسلم هذه رواية شاذَّة ، فلا تصلح للاعتضاد بها ، خلافاً لصنيع المؤلِّف تبعاً للبيهقي ، رحمهما الله تعالىٰ" .

الحَدِيْثُ الثَّانِي: رویٰ البخاري (٤/ ٢٩ برقم ٢٨٥٨) ، واللفظ له ، مسلم (٤/ ١٧٤٧ برقم ٢٢٢٥) بسندهما عَبْدَ اللهَّ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلاَثَةٍ: فِي الفَرَسِ، وَالمَرْأَةِ، وَالدَّارِ " .

وكالحديث السَّابق حكم الألبانيَّ بضعف الحديث ، فقال في " سلسلة الأحاديث الصَّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها : " (٤/ ٥٢١-٥٢٢) : " أخرجه البخاري (٦ / ٤٦ و ٩ / ١١٢) وفي " الأدب المفرد " (١٣٢) ومسلم (٧/ ٣٣ - ٣٤) ومالك (٣ / ١٤٠) وأبو داود (٢ / ١٥٩) والنَّسائي (٢ / ١٢٠) والتِّرمذي (٢ / ١٣٥) وصحَّحه، وابن ماجة (١ / ٦١٥) والطَّحاوي (٢ / ٣٨١) والطَّيالسي (رقم ١٨٢١) وأحمد (٢ / ٨ و ١١٥ و ١٢٦ و ١٣٦) عن الزُّهري أنَّ سالم ابن عبد الله وحمزة بن عبد الله بن عمر حدَّثاه (وليس عند ابن ماجة والطَّيالسي : وحمزة) عن أبيهما به مرفوعاً، وقال بعضهم: " إنَّما الشُّؤم ". وقد جاء بزيادة في أوَّله بلفظ: " لا عدوىٰ "، فانظره ، كما أنَّه جاء بلفظ مُغاير معناه لهذا ، وهو: " إن كان الشُّؤم " وقد مضىٰ برقم (٧٩٩) . وفي لفظ آخر: " إن يك الشُّؤم في شيء ... ".

وهذا هو الصَّواب كما كنت ذكرت هناك وزدته بياناً عند الحديث (٩٩٣) وفيه الكلام علىٰ حديث " قاتل الله اليهود يقولون: إنَّ الشُّؤم " ، فراجعه فإنَّه هام. وقد جاء حديث صريح في نفي الشُّؤم وإثبات اليُمن في الثَّلاث المذكورة ، وهو المناسب لعموم الأحاديث التي تنفي الطِّيرة، فراجع الحديث المشار إليه فيما يأتي برقم (١٩٣٠) .

الحَدِيْثُ الثَّالِثُ: رویٰ البخاري (١/ ١١ برقم ٩) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» .

قال الشَّيخ الألباني في " مختصر صحيح الإمام البخاري" (١/ ٢١ هامش) : " ورواه مسلم وغيره بلفظ : " وسبعون" ، وهو الرَّاجحُ عندي ، تبعاً للقاضي عياض وغيره ، كما بيَّنته في الصَّحيحة " .

والأحاديث التي ضعَّفها كلُّ من : ابن تيمية ، وابن القيِّم ، والألباني ... وهي في الصَّحيحين أو في أحدهما كثيرة ، ذكرت منها في كتابي " نورُ النيِّرين في بيان بعض الأحاديث التي انتقدها المتسلِّفة علىٰ الصَّحيحين" ثلاثة وثلاثين حديثاً ... وبذلك أسقط هؤلاء بأنفسهم هذه القرينة ...

وقد استدلَّ القائلون بحجيَّة خبر الآحاد في العقيدة بالعديد من الأدلَّة ، من أهمِّها :

الدَّلِيْلُ الأَوَّلُ: قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢] ، قالوا : فهذه الآية الكريمة فيها حثٌّ للقبائل والعشائر وأهل النَّواحي والأقطار المختلفة من المؤمنين ، علىٰ أن ينفر من كلِّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقَّهوا في دينهم ، ثُمَّ يرجعوا إلىٰ قومهم فينذرونهم ، والطَّائفة في لغة العرب تُطلق علىٰ الواحد فما فوق ، والتَّفقُّه في الدِّين يشمل العقائد والأحكام ، بل التَّفقُّه في العقائد أهم من التَّفقُّه في الأحكام ، ففي الآية دليل صريح علىٰ وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة ، وإلَّا ما جاز للطَّائفة أن تنذر . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ، الآمدي (٢/ ٦٩) ، العقيدة في الله ، د. عمر الأشقر (ص٥١) ، الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ، الألباني ، (ص٤٩-٥٠) .

الدَّلِيْلُ الثَّانِي: قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦] ، وفي القراءة الأخرىٰ : (فتثبَّتوا) . انظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، مكي بن طالب (١/ ١٩٤) .

وهذا يدلُّ علىٰ الجزم بقبول خبر الواحد الثِّقة ، وأنَّه لا يحتاج إلىٰ التَّثبُّت ، ولو كان خبر الواحد الثِّقة لا يفيد العلم لأمَرَ بالتَّثبُّت في الكلِّ ، ولكنَّ الآية خصَّت الفاسق ، فدلَّ علىٰ أنَّ خبر الثِّقة لا يحتاج إلىٰ تثبُّت في قبوله ، بل إنَّه يُوجب العلم . انظر : الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ، الألباني (ص ٥٠-٥١) .

الدَّلِيْلُ الثَّالِثُ: قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٧] .

وروىٰ أحمد في المسند (٧/ ٢٢١ برقم ٤١٥٧) بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ - قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ -: " نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ " . قال الأرنؤوط : " حديث صحيح، وهذا إسناد حسن إن صح سماع عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لهذا الحديث من أبيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير سماك بن حرب، فحديثه لا يرقىٰ إلىٰ الصحة، وأخرج له البخاري تعليقاً. إسرائيل: هو ابن يونس بن أبي إسحاق

السبيعي. وأخرجه ابن ماجه (٢٣٢) ، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم " ص ٤٥، من طريق محمَّد بن جعفر، بهذا الإسناد. وأخرجه الترمذي (٢٦٥٧) ، وأبو يعلى (٥١٢٦) و (٥٢٩٦) ، والشاشي (٢٧٦) من طرق، عن شعبة، به. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه الشاشي (٢٧٥) ، وابن حبان (٦٩) ، من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، به. وأخرجه الشاشي (٢٧٨) ، وابن حبان (٦٦) و (٦٨) ، والرامهرمزي في "المحدث الفاصل " (٦) و (٧) و (٨) ، وأبو نعيم في "الحلية" ٧/ ٣٣١، والبيهقي في "الدلائل " ٦/ ٥٤٠: من طرق، عن سماك، به. قال أبو نعيم: صحيح ثابت. وبنحوه أخرجه الشافعي في "الرسالة" (١١٠٢) ، وفي "المسند" ١/ ١٦ (بترتيب السندي) ، والحميدي (٨٨) ، والترمذي (٢٦٥٨) ، والشاشي (٢٧٧) ، والبيهقي في "معرفة السنن والآثار" (٤٤) و (٤٦) ، والحاكم في "معرفة علوم الحديث " ص ٢٦٠، والخطيب في "الكفاية" ص ٦٩، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم " ص ٤٥، والبغوي في "شرح السنة" (١١٢) من طريق سفيان بن عيينة، والخطيب في "الكفاية" ص ٦٩ من طريق سفيان الثوري، والبيهقي في "الدلائل " ١/ ٢٣ من طريق هريم بن سفيان، ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن عبد الله، به. وأخرجه بنحوه الخطيب في "شرف أصحاب الحديث " ص ٢٦، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم " ص ٤٥ و٤٦ من طريق الحاريث العكلي، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، به. وأخرجه بنحوه مطولاً أبو نعيم في "تاريخ أصبهان " ٢/ ٩٠ من طريق محمَّد بن طلحة، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، به. وفي الباب عن أنس عند ابن ماجه (٢٣٦) ، وابن عبد البر ١/ ٤٢، سيرد ٣/ ٢٢٥ وعن جبير بن مطعم عند ابن ماجه (٢٣١) ، والدارمي ١/ ٧٤، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" ٢/ ٢٣٢، وأبي يعلى (٧٤١٣) ، والخطيب في "شرف أصحاب الحديث " (٢٥) ، والطبراني في "الكبير (١٥٤١) ، والحاكم ١/ ٨٧، سيرد ٤/ ٨٠ و٨٢ = = وعن زيد بن ثابت عند أبي داود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وصححه ابن حبان (٦٧) ، سيرد ٥/ ١٨٣ وعن أبي الدرداء عند الدارمي ١/ ٧٥-٧٦، أورده الهيثمي في "المجمع " ١/ ١٣٧، وقال: رواه الطبراني في "الكبير"، ومداره على عبد الرحمن بن زبيد، وهو منكر الحديث، قاله البخاري. وعن أبي سعيد الخدري عند البزار (١٤١) ، والرامهرمزي (٥) ، وأبي نعيم في "الحلية" ٥/ ١٠٥، قال الهيثمي في "المجمع " ١/ ١٣٧: ورجاله موثقون إلا أن يكون شيخ سليمان بن سيف سعيد بن بزيع، فإني لم أر أحداً ذكره، وإن كان سعيد بن الربيع، فهو من رجال الصحيح. وعن النعمان بن بشير، عند الحاكم ١/ ٨٨، من طريق عبد الله بن بكر السهمي، عن حاتم بن أبي صغيرة، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، وقال: وفي الباب عن جماعة من الصحابة، منهم عمر وعثمان وعلي ومعاذ بن جبل وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة، وغيرهم عدة، وحديث النعمان بن بشير من شرط الصحيح. قلنا: وهو كما قال، فإن رجاله رجال الشيخين غير سماك بن حرب، فمن رجال مسلم. وعن عمير بن قتادة عند الطبراني في "الكبير" ١٧/ (١٠٦) ، أورده الهيثمي في "المجمع " ١/ ١٣٨: وقال: ورجاله موثقون إلا أني لم أر من ذكر محمَّد بن نصر شيخ الطبراني. وعن جابر بن عبد الله عند الطبراني في "الأوسط " فيما ذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/ ١٣٨، وقال: وفيه محمَّد بن موسى البربري، قال الدارقطني: ليس بقوي. وعن سعد بن أبي وقاص عند الطبراني في "الأوسط " فيما ذكره الهيثمي في = "المجمع " ١/ ١٣٨-١٣٩، وقال: وفيه سعيد بن عبد اللهُ، لم أر من ذكره. قال السندي: قوله: نضر الله: قال الخطابي: دعا له بالنضارة، وهي النعمة، يقال: نضر، بالتشديد والتخفيف، وهو أجود. وفي "النهاية": يروى بالتشديد والتخفيف، من النضارة، وهي في الأصل: حسن الوجه، والبريق، وإنما أراد: حَسن خُلُقَه وقدره. وقيل: روي مخففاً، وأكثر المحدثين يقولونه بالتثقيل، والأول الصواب، والمراد: ألبسه الله النضرة، وهي الحسن وخلوص اللون، أي: جمله وزينه، أو أوصله اللهُ إلى نضرة الجنة، أي: نعيمها ونضارتها، قال ابن عيينة: ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة لهذا الحديث. مبلغ: بفتح لام مشددة، مَنّ بلغه الآخر العلم. من سامع: ممن سمع أولاً، تنبيه على فائدة التبليغ، وفيه أنه لا عبرة للتقدم الزماني في العلم، بل قد يكون المتأخر أولى من المتقدم. والله تعالى أعلم" .

وروىٰ البخاري (٤/ ١٧٠ برقم ٣٤٦١) بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ... " .

وروىٰ مسلم (٢/ ٨٨٦ برقم ١٢١٨) بسنده عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَىٰ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ... وفيه أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الجمع الأعظم يوم عرفة : " ... وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ... " .

ومعلوم أنَّ البلاغ هو الذي تقوم به الحُجَّة علىٰ المبلّغ ، ويحصل به العلم ، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التَّبليغ الذي تقوم به حجَّة الله علىٰ العبد ، فإنَّ الحجَّة إنَّما تقوم بما يحصل به العلم ، لا بما لا يعلم صدقه من كذبه ، وقد كان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرسل الواحد من أصحابه يبلِّغ عنه ، فتقوم به الحجَّة علىٰ من بلَّغه ، وكذلك قامت علىٰ الأمَّة الحجَّة بما بلَّغهم العدول الثِّقات من أقواله وأفعاله وسننه ، ولو لم يفد العلم لم تقم علينا بذلك حجَّة ، ولا علىٰ من بلَّغه واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو دون عدد التَّواتر ، وهذا من أبطل الباطل ، فيلزم من قال أنَّ أخبار رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تفيد العلم أحد أمرين :

إمَّا أن يقول : أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبلِّغ غير القرآن ، وما رواه عنه عدد التَّواتر ، وما سوىٰ ذلك لم تقم به حجَّة ولا تبليغ .

وإمَّا أن يقول : أنَّ الحجَّة والبلاغ حاصلان بما لا يُوجب علماً ولا يقتضي عملاً .

وإذا بطل هذان الأمران بطل القول بأنَّ أخباره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي رواها الثِّقات العدول الحفَّاظ وتلقَّتها الأمَّة بالقبول لا تفيد علماً ، وهذا ظاهر لا خفاء به . انظر : مختصر الصواعق ، ابن قيم الجوزية (ص٥٥١-٥٥٢) ، الإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم (١/ ١٢٨-١٣٠) .

الدَّلِيْلُ الرَّابِعُ: روىٰ البخاري (٢/ ١١٩ برقم ١٤٥٨) واللفظ له ، مسلم (١/ ٥١ برقم ١٩) بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ اليَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ،

فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ» .

والحديث نصٌّ في أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر معاذاً أن يبلِّغهم قبل كلِّ شيء عقيدة التَّوحيد وأن يعرِّفهم بالله عزَّ وجلَّ ، وما يجب له وما ينزَّه عنه ، فإذا عرفوه تعالىٰ بلَّغهم ما فرض الله عليهم ، وذلك ما نقله معاذ يقيناً ، فهو دليل قاطع علىٰ أنَّ العقيدة تثبت بخبر الواحد ، وتقوم به الحجَّة علىٰ النَّاس ، ولولا ذلك لما اكتفىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإرسال معاذ وحده ، ومن لم يسلِّم بما ذكرناه لزمه أحد أمرين لا ثالث لهما :

(١) القول بأنَّ رسله عليهم السَّلام ما كانوا يعلِّمون النَّاس العقائد ، لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمرهم بذلك ، وإنَّما أمرهم بتبليغ الأحكام فقط ، وهذا باطل البداهة ، مع مخالفته لحديث معاذ المتقدِّم .

(٢) أنَّهم كانوا مأمورين بتبليغها ، وأنَّهم فعلوا ذلك ، فبلَّغوا الناس كلَّ العقائد الإسلاميَّة ، ومنها هذا القول المزعوم (لا تثبت العقيدة بخبر الآحاد) فإنَّه في نفسه عقيدة كما سبق ، وعليه فقد كان هؤلاء الرُّسل ، رضوان الله عليهم يقولون للنَّاس : آمنوا بما نبلِّغكم إيَّاه من العقائد ، ولكن لا يجب عليكم أن تؤمنوا بها لأنَّها خبر آحاد ، وهذا باطل أيضاً كالذي قبله ، وما لزم منه باطل ، فهو باطل ، فثبت بطلان هذا القول ، وثبت وجوب الأخذ بخبر الآحاد في العقائد . انظر : وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ، الألباني (ص١١-١٢) .

الدَّلِيْلُ الخَامِسُ: عدم الاحتجاج بحديث الآحاد في العقيدة بدعة !!! محدثة . انظر : الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ، الألباني (ص٥٥) .

هذه هي أهم الأدلَّة التي استشهد بها من ذهبوا إلىٰ أنَّ خبر الأحاد حجَّة في أمور العقيدة ...

وفي نقاشنا لأدلَّة القائلين بالحُجيَّة نقول :

أمَّا استدلالهم بقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢] ، فالاستدلال بالآية بعيدٌ هنا ، إذ لا علاقة للآية بما نحن بصدده ، وذلك لأنَّ هذه الطَّائفة مؤمنة بنصِّ الآية ، وقد حصل لديها وللفِرقة التي نفرت منها الإيمان بأصول الدِّين والعقائد قبل ذلك ، والمطلوب منها هو التَّفقُّه في دقائق الشَّرع ، ليعرِّفوا فرقتهم بالأحكام التَّفصيليَّة ، التي لا يشترط فيها التَّواتر ، بل يكفي فيها خبر الواحد ، فإذا علم ذلك ، فلا ضير في اعتبار الطَّائفة واحداً أو أكثر ، علىٰ أنَّنا لا نسلِّم البتَّة بأنَّ الطَّائفة هي واحد ... وقوله تعالىٰ في الآية : ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ ، دليلٌ واضحٌ علىٰ أنَّهم جماعة . انظر : هامش دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه ، لابن الجوزي (ص٤٥) .

ومن الأدلَّة التي تدحض كون المقصود بالطَّائفة واحد ما رواه مسلم (١/ ١٣٧ برقم ١٥٦) بسنده عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

فقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرِّواية : " ظاهرين " ، وفي أخرىٰ : " لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ " . أخرجه أحمد (٢٨/ ١٢٨ برقم ١٦٩٣٢) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح. يحيى بن حمزة: هو الحضرمي الدمشقي. وأخرجه مسلم (١٠٣٧) (١٧٤) ٣/ ١٥٢٤، ويعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ" ٢/ ٢٩٧ من طريقين عن يحيى بن حمزة، بهذا الإسناد، ولم يذكر مسلم زيادة مالك. وأخرجه البخاري (٣٦٤١) و (٧٤٦٠) ، وأبو يعلى (٧٣٨٣) ، والطبري في "تهذيب الآثار" (١١٥١) (مسند عمر بن الخطاب) ، وأبو نعيم في "الحلية" ٥/ ١٥٨-١٥٩ من طريق الوليد بن مسلم، والطبراني في "الكبير" ١٩/ (٨٩٩) من طريق القاسم بن موسى، كلاهما عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. ولم يذكر الطبري ولا الطبراني زيادة مالك" .

وفي ثالثة : " ظَاهِرُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ " . أخرجه الطَّبراني في الكبير (١٩/ ٣٢٩ برقم ٧٥٥) .

يدلُّ علىٰ أنَّهم جماعة كثيرة ، ولو كانت الطَّائفة واحداً لما كان له كثير فائدة ...

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٨/ ٢٩٤) في تعليقه علىٰ الآية السَّابقة : " وَلَا شَكَ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا جَمَاعَةٌ لِوَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَقْلًا، وَالْآخَرُ لُغَةً. أَمَّا الْعَقْلُ فَلِأَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَحَصَّلُ بِوَاحِدٍ فِي الْغَالِبِ، وَأَمَّا اللُّغَةُ فَقَوْلُهُ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ فَجَاءَ بِضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ" . وانظر :

تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٠-٤٠١) ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٦٩م ، تفسير الطبري (١١/ ٨٩-٩٥) ، المحرر الوجيز (٣/ ٩٦-٩٧) ، البحر المحيط (٥/ ١١٦-١١٧) .

وهذا الفهم هو الذي فهمه الأئمَّة الأعلام ، ففي صحيحه الجامع (٩/ ٨٦) أفرد البخاري باباً سمّاه : " بَابُ مَا جَاءَ فِي إِجَازَةِ خَبَرِ الوَاحِدِ الصَّدُوقِ فِي الأَذَانِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَالفَرَائِضِ وَالأَحْكَامِ " وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] . قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٢٣٤) : " وَقَوْلُهُ : وَالْفَرَائِضِ بَعْدَ قَوْلِهِ فِي الْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، وَأَفْرَدَ الثَّلَاثَةَ بِالذِّكْرِ لِلاهْتِمَامِ بِهَا ، قَالَ الْكِرْمَانِيُّ : لِيُعْلَمَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْعَمَلِيَّاتِ لَا فِي الاِعْتِقَادِيَّاتِ" . وانظر : صحيح البخاري بشرح الكرماني (٢٥/ ١٤)

وأمَّا استدلالهم بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦] ، فاستدلالهم به ضعيف ، قال الإمام ابن عطيَّة في " المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " (٥/ ١٣٠) : " وتأنَّس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية ، لأنَّه يقتضي أنَّ غير الفاسق إذا جاء بنبإ أن يعمل بحسبه ، وهذا ليس باستدلال قوي" .

وما ذلك إلَّا لأنَّ " المراد هو منع الشَّاهد عن جزم الشَّهادة بما لم يبصر ولم يستمع ، والفتوى بما لم يرو ، ولم ينقله العدول " . انظر : المستصفى ، الغزالي (٢/ ٢٢١) .

وقد ضعَّف الاستدلال بالآية الإمام الآمدي ، فقال : " وهذه الحجَّة أيضاً ضعيفة ، أمَّا الوجه الأوَّل : فلأنَّ الاستدلال بهذه الآية غير خارج عن مفهوم المخالفة ، وسنبيِّن أنَّه ليس بحجَّة ، وإن كان حجَّة ، لكنَّه حجَّة ظنِّيَّة ، فلا يصحُّ الاستدلال به في باب الأصول .

وأمَّا الوجه الثَّاني : فمن وجهين : الأوَّل : لا نسلم أنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجمع على قتلهم وقتالهم -المقصود هنا هم بنو المصطلق : انظر مناسبة نزول الآية في أسباب النزول للواحدي (ص٢٦٢) ، تفسير الطبري (٢٦/ ١٦٠-١٦١) -

بخبر الوليد بن عقبة ، فإنَّه قد روي أنَّه بعث خالد بن الوليد وأمره بالتَّثبت في أمرهم ، فانطلق حتَّىٰ أتاهم ليلاً فبعث عيونه ، فعادوا إليه وأخبروه بأنَّهم علىٰ الإسلام ، وأنَّهم سمعوا آذانهم وصلاتهم فلمَّا أصبحوا ، أتاهم خالد بن الوليد ، ورأىٰ ما يعجبه منهم ، فرجع إلىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره بذلك ، أمَّا الثَّاني : فإنَّ ما ذكره من سبب النُّزول من أخبار الآحاد ، فلا يكون حجَّة في الأصول " . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ، الآمدي (٢/ ٧١-٧٢) ، وللاستزاده انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم ، (ص٨٨ فما بعدها) ، الفرق بين الفرق ، عبد القاهر البغدادي (١/ ٩٦ فما بعدها) ، الكفاية في علم الرواية ، الخطيب البغدادي (ص٢٥-٢٦) .

وأمَّا استدلالهم بقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " نضَّر الله امرءاً ... الحديث " ، فهو حجَّة عليهم ، لأنَّه قد علَّل فيه ونبَّه علىٰ ما يقول بقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» . أخرجه بهذا اللفظ : ابن ماجه (١/ ٨٤ برقم ٢٣٠) ، (ص٤٠برقم ٢٣٠) ، الترمذي (٤/ ٣٣٠ برقم ٢٦٥٦، وقال حديث حسن) .

وكأنَّه قال : " إذا كان المبلَّغ أوعىٰ من السَّامع ، وأفقه منه ، وكان السَّامع غير فقيه ، ولا ممَّن يعرف المعنىٰ ، وجب عليه تأدية اللفظ ليستنبط من نصّ اللَّفظ العالِم الفقيه ، وإلاَّ فلا وجه لهذا التَّعليل إن كان حال المبلِّغ والمبلَّغ سواء ، علىٰ أنَّ رواة هذا الخبر نفسه قد رووه علىٰ المعنىٰ ، فقال بعضهم : " رحم الله " ، مكان : " نضَّر الله " ، " ومن سمع " ، بدل : " امرءاً سمع " ، " وروىٰ مقالتي " ، بدل : " منَّا حديثاً " ، " بلّغه " ، بدل " أدَّاه " ، " وربَّ حامل فقه لا فقه منه ، مكان ليس بفقيه " . انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم (ص٨٢) . وانظر الروايات في : مسند أحمد (ص٣٥١برقم ٤١٥٧) ، (ص١٢٠١برقم ١٦٨٧٥) ، بيت الأفكار الدولية ، جامع الترمذي (ص٤٣٠برقم ٢٦٥٦-٢٦٥٧) ، سنن أبي داود (ص٤٠٤برقم ٣٦٦٠) ، بيت الأفكار الدولية ، سنن ابن ماجه (ص٤٠برقم ٢٣٢،٢٣١،٢٣٠) ، (ص٣٣٠ برقم ٣٠٥٢) ، بيت الأفكار الدولية .

ثمَّ إنَّ هذا الاستدلال انطوىٰ علىٰ مغالطة واضحة ، لأنَّنا نؤمن إيماناً جازماً قاطعاً بأنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَّغ جميع ما أُنزل إليه من ربِّه ، لأنَّه لا يكون قد أقام الحجَّة لله علىٰ النَّاس إلَّا إذا أبلغهم حقيقة الدَّعوة كاملة ، ووصف لهم ما هم عليه كما هو علىٰ حقيقته ، بلا مجاملة ولا مداهنة . انظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب (٢/ ٩٤١) .

قال الإمام الالوسي في " روح المعاني " (٣/ ٣٥٥) : ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ، أي : فما أدّيت شيئاً من رسالته ، لما أنَّ بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤد بعضها فكأنَّك أغفلت أداءها جميعًا ، كما أنَّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلِّها ، لإدلاء كل منها بما يُدليه غيرها ، وكونها لذلك في حكم شيء واحد، والشَّيء الواحد لا يكون مبلَّغاً غير مبلَّغ ، مؤمناً به غير مؤمن به، ولأنَّ كتمان بعضها يضيع ما أدَّى منها ، كترك بعض أركان الصَّلاة ، فإنَّ غرض الدَّعوة ينتقض به" . وانظر للاستزادة : المحرر الوجيز (٢/ ٢١٧-٢١٨) ، البحر المحيط ، أبو حيان (٣/ ٥٣٨-٥٤٠) ، تفسير الرازي (١٢/ ٤١-٤٢) .

فالرُّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم بلَّغوا النَّاس العقائد كما بلَّغوهم الأحكام ، ولم يكتموا من رسالاتهم شيئاً ... فالظَّاهر أنَّ هذا الخبر نقل على المعنى ، فلذلك اختلفت ألفاظه ... انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم (ص٨٢) .

ومن المعلوم يقيناً أنَّ أغلب الأحاديث رُويت بالمعنى ، ولذلك " اختلفت ألفاظ الصَّحابة في رواية الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فمنهم من يرويه تامَّاً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصراً ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعاً إذا لم يخالف المعنى ... " . انظر : قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، محمَّد جمال الدين القاسمي (ص٢٢١) ، وانظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، السيوطي (٢/ ٩٢ فما بعدها) .

ولذلك تجد الحديث الواحد مرويّاً بعبارات وألفاظ مختلفة ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ...

ومع وضوح جواز نقل الحديث على المعنى – وقد حصل بالفعل – فإنَّ جلَّ النُّصوص الحديثيَّة أيضاً ظنيَّة في ثبوتها ، ومع صحَّتها فإنَّها لا ترتقي إلى درجة الثُّبوت القطعي ، إلَّا القليل ممَّا تواتر منها ، ولذلك فإنَّها أتت لتبيِّن مجمل القرآن ، وتخصيص عامِّه ، وتقييد مطلقه ، وإلحاق بعض الفروع بأصولها القرآنيَّة في الأغلب الأعمّ ، فعلى هذا الأساس تكون أسس العقيدة قد تقرَّرت وتثبَّتت بالقرآن ، والعقيدة الإسلاميَّة تتميَّز عن باقي العقائد ، فهي مبنيَّة على العقل ، فالإيمان بوجود الله ووحدانيَّته قائم على العقل ، والإيمان بأنَّ القرآن كلام الله مبنيٌّ على العقل ، والقرآن الكريم هو الدِّلالة القاطعة على رسالة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوَّته وهو معجزته الخالدة .

وهذه الثَّلاثة هي أسس العقيدة عند المسلم ، كما أنَّ باقي أصول العقيدة من المغيَّبات ، كالإيمان بالملائكة ، والجنِّ والشَّياطين ، والجنَّة والنَّار ، والبعث والحساب ، وكثير من أخبار الأنبياء السَّابقين والأمم السَّابقة قد ورد به القرآن الكريم وثبت الاعتقاد به بالطَّريق القطعيِّ اليقيني ، فالعقيدة كلّها تثبت بالقطع والجزم واليقين ، والسُّنَّة إنَّما جاءت – كما قلنا – لتبيين المجمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وإلحاق فروع بأصولها ، فكلُّها أحكام شرعيَّة عمليَّة ، وما ورد فيها من بعض أمور اعتقاديَّة ، فإنَّ أصولها موجودة في القرآن الكريم ، وأمَّا ما ورد فيها من بعض الغيبيَّات الفرعيَّة ، كمجيء المهدي ، والدَّجَّال ، ونزول عيسىٰ عليه السَّلام ، وعذاب القبر ، فلا بدَّ من أن تكون فروعاً لأصل قرآني ، أو أن يكون دليلها قطعي الثُّبوت ، أو أن نتَّبع فيها الأمر الربَّاني القطعي الثُّبوت القطعيِّ الدِّلالة ، وهو عدم جواز أخذ العقيدة بالدَّليل الظنِّي . انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم (ص٨٦) .

قال الإمام البيهقي في " الأسماء والصِّفات" (٢/ ٢٠٠) : " ... قَالَ الشَّيْخُ: وَلِهَذَا الْوَجْهِ مِنَ الِاحْتِمَالِ تَرَكَ أَهْلُ النَّظَرِ مِنْ أَصْحَابِنَا الِاحْتِجَاجَ بِأَخْبَارِ الْآحَادِ فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، إِذَا لَمْ يَكُنْ لِمَا انْفَرَدَ مِنْهَا أَصْلٌ فِي الْكِتَابِ أَوِ الْإِجْمَاعِ، وَاشْتَغَلُوا بِتَأْوِيلِهِ ... " .

فالقول بأنَّ العقيدة لا تؤخذ إلا بالدَّليل القطعي ، ولا يجوز بالدَّليل الظنِّي ، هو قول يثبت العقيدة وينقِّيها من كلِّ شائبة ويجعلها في مأمن من أن يتسرَّب إليها الفساد والتَّناقض والعبث ، وليس قولاً يشكِّكُ في العقيدة ، أو يحطُّ من قيمتها بل هو يرفعها " . انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم (ص١٦٢) .

وأمَّا قولهم بأنَّ قول من يقول : لا تثبت العقيدة بخبر الآحاد فإنَّه في نفسه عقيدة ، فهذه أيضاً مغالطة واضحة ، لأنّنا ما منعنا الاحتجاج بالآحاد في العقائد إلَّا لاحتمال الخطأ والنِّسيان والسَّهو والغفلة على الرُّواة ، ولذلك فإنَّنا لا نقطع بثبوت الخبر ، وإنَّه لا يفيد سوىٰ الظَّنّ ، وعلىٰ ذلك جماهير المسلمين من الصَّحابة والتَّابعين فمن بعدهم .

قال الإمام النَّووي المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج" (١/ ١٣١-١٣٢) : " وَأَمَّا خَبَرُ الْوَاحِدِ فَهُوَ مَا لَمْ يُوجَدْ فِيهِ شُرُوطُ الْمُتَوَاتِرِ ، سَوَاءٌ كَانَ الرَّاوِي لَهُ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ ، وَاخْتُلِفَ فِي حُكْمِهِ ، فَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَأَصْحَابِ الْأُصُولِ أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ الثِّقَةِ حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ الشَّرْعِ يَلْزَمُ الْعَمَلُ بِهَا وَيُفِيدُ الظَّنَّ وَلَا يُفِيدُ الْعِلْمَ ، وَأَنَّ وُجُوبَ الْعَمَلِ بِهِ عَرَفْنَاهُ بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ ، وَذَهَبَتِ الْقَدَرِيَّةُ وَالرَّافِضَةُ وَبَعْضُ أَهْلِ الظَّاهِرِ إِلَىٰ أَنَّه لا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَنَعَ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ دَلِيلُ الْعَقْلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَنَعَ دَلِيلُ الشَّرْعِ ، وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنْ جِهَةِ دليل العقل ، وقال الجبائي مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ : لَا يَجِبُ الْعَمَلُ إِلَّا بِمَا رَوَاهُ اثْنَانِ عَنِ اثْنَيْنِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : لَا يَجِبُ الْعَمَلُ إِلَّا بِمَا رَوَاهُ أَرْبَعَةٌ عَنْ أَرْبَعَةٍ ، وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَىٰ أَنَّهُ يُوجب الْعِلْمَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُوجب الْعِلْمَ الظَّاهِرَ دُونَ الْبَاطِنِ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ إِلَىٰ أَنَّ الْآحَادَ الَّتِي فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَوْ صحيح مسلم تُفِيدُ الْعِلْمَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْآحَادِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذَا الْقَوْلَ وَإِبْطَالَهُ فِي الْفُصُولِ ، وَهَذِهِ الْأَقَاوِيلُ كُلُّهَا سِوَىٰ قَوْلِ الْجُمْهُورِ بَاطِلَةٌ ، وَإِبْطَالُ مَنْ قَالَ لَا حُجَّةَ فِيهِ ظَاهِرٌ ، فَلَمْ تَزَلْ كُتُبُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآحَادُ رُسُلِهِ يُعْمَلُ بِهَا وَيُلْزِمُهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَمَلَ بِذَلِكَ ، وَاسْتَمَرَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَلَمْ تَزَلِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَىٰ امْتِثَالِ خَبَرِ الْوَاحِدِ إِذَا أَخْبَرَهُمْ بِسُنَّةٍ وَقَضَائِهِمْ بِهِ وَرُجُوعِهِمْ إِلَيْهِ فِي الْقَضَاءِ وَالْفُتْيَا وَنَقْضِهِمْ بِهِ مَا حَكَمُوا بِهِ علىٰ خِلَافِهُ وَطَلَبِهِمْ خَبَرَ الْوَاحِدِ عِنْدَ عَدَمِ الْحُجَّةِ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُ وَاحْتِجَاجِهِمْ بِذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَهُمْ وَانْقِيَادِ الْمُخَالِفِ لِذَلِكَ ، وَهَذَا كُلُّهُ مَعْرُوفٌ لاشك فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، وَالْعَقْلُ لَا يُحِيلُ الْعَمَلَ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَقَدْ جَاءَ الشَّرْعُ بِوُجُوبِ الْعَمَلِ بِهِ، فَوَجَبَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ يُوجب العلم ، فهو مكابر للحسّ ، وَكَيْفَ يَحْصُلُ الْعِلْمُ وَاحْتِمَالُ الْغَلَطِ وَالْوَهْمِ وَالْكَذِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مُتَطَرِّقٌ إِلَيْهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

ومن جهة أخرىٰ فإنَّ عمليَّة تصحيح الأحاديث وتضعيفها أمرٌ ظنِّي ، قائم علىٰ اجتهاد يبذله العالم ، ولذا لا يمكن القطع بشيءٍ منه ، لاحتمال أن يكون الحقُّ بخلاف ما ذهب إليه ، وهذا عائد إلىٰ أنَّ

علماء الجرح والتَّعديل متفاوتون في تعديلاتهم وتجريحاتهم للرُّواة ، فقد يكون الرَّاوي معدَّلاً عند قوم مجروحاً عند آخرين ، وهكذا ...

وأمَّا ما رواه ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بعث معاذاً رضي الله عنه إلىٰ اليمن ... الحديث .

فإنَّ احتجاجهم به بُنِيَ علىٰ مغالطةٍ كبيرة ، ذلك أنَّ معاذاً حين بعثه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ اليمن معلِّماً ، كان الإسلام قد انتشر في رُبوع اليمن ، وكان أهلها يأتون أفواجاً إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كلِّ حدبٍ وصوب . انظر تفاصيل الوفود اليمانيَّة إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في : البداية والنهاية ، ابن كثير (٥/ ٥٥ ، ٥٨، ٥٩ ، ٧٣ فما بعدها) .

وكان صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلتقي بهم يدعوهم إلىٰ ما أمر به ، وكانوا يرجعون إلىٰ بلادهم بعد أن تعلَّموا مسائل الإيمان والعقيدة ... وما أرسل معاذاً رضي الله عنه إلَّا لتعليم النَّاس الفروع الفقهيَّة ، التي يحتاجون إليها في حياتهم اليوميَّة .

وقد حملت كتب الصِّحاح والسُّنن العديد من أحاديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أشار فيها إلىٰ بعض الوفود اليمانيَّة ، منها : ما أخرجه البخاري (٥/١٧٣ برقم ٤٣٨٨) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ ... " .

ومن ناحية أخرىٰ فإنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُرسل معاذاً وحده إلىٰ اليمن ، كما تخيَّل البعض ، وإنَّما أرسله علىٰ رأس وفد ضمَّ غير واحدٍ من الصَّحابة ، فقد روىٰ الطَّبري في تاريخه بسنده عن عبد بن صخر بن لوذان الأنصاري السّلمي وكان فيمن بعث النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع عمَّال اليمن في سنة عشر ، بعدما حجَّ حجَّة التَّمام ، وقد مات باذام ، فلذلك فرَّق عملها بين شهر بن باذام ، وعامر بن شهر الهمذاني ، وعبد الله بن قيس أبي موسىٰ الأشعري ، وخالد بن سعيد بن العاص ، والطَّاهر بن أبي هالة ، ويعلىٰ بن أميَّة ، وعمرو بن حزم ، وعلىٰ بلاد حضرموت : زياد

بن لبيد البياضي ، وعُكاشة بن ثور بن أصغر الغوثي ، ومعاوية بن كندة ، وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل البلدين : اليمن وحضرموت " . انظر : تاريخ الأمم والملوك ، الطبري (٢/ ٢٤٧) .

فهؤلاء بعض من كانوا مع سيِّدنا معاذ رضي الله عنه ، هذا عدا عن الوفود ، ثُمَّ كيف يبعث الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذاً وحده ، وهو القائل فيما رواه البخاري (٤/ ٥٨ برقم ٢٩٩٨) بسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ» .

يضاف لذلك أنَّ حديث إرسال سيِّدنا معاذ إلى اليمن حديث آحاد ، فكيف يستدلُّ بالآحاد على أنَّ الآحاد تفيد القطع ، وهي ظنيَّة الثُّبوت ؟!!!

وحتَّى لو سلَّمنا – جدلاً – لما يقولون ، وأنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذاً وحده إلى أهل اليمن ليبلِّغهم العقيدة ، فليس لهم حجَّة في ذلك " لأنَّه ليست هناك حجَّة على المبلَّغ بمجرَّد التَّبليغ ، وإنَّما الحجَّة فيما يحمل المبلِّغ من دليل قطعي ، سواء كان عقليَّاً أم نقليَّاً ، فالبحث في نفس الأمر المبلَّغ لا في مجرَّد التَّبليغ .

فالله سبحانه وتعالى قد بعث الرُّسل إلى أقوامهم فرادى ، فليست الحجَّة على المبلَّغين في شخص الرَّسول ، وإنَّما فيما يحمل معه من حجَّة ودليل يثبت نبوَّته ورسالته ، أي الحجَّة في نفس الأمر المبلّغ والذي من أجله بُعث الرَّسول ، فالله تعالى أرسل موسى بمفرده – وإن كان آزره بهارون – ولكنَّه جعل دليله والحجَّة على فرعون هي العصا واليد ومن بعدها فلق البحر .

وأمَّا رسالة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنَّ الحجَّة أيضاً على قريش وغيرهم من العرب ليست في شخص محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإنَّما فيما جاءهم به من آيات ومعجزات ، وكلمات بيِّنات ، أذهلتهم بلاغتها ، وقرعت أدمغتهم وأسماعهم بإعجازها ، فهي دليل قائم حتَّى الآن ، ومعجزة دائمة إلى الأبد ، وهي الحجَّة على المبلَّغين ، وليست في شخص الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما أنَّه ليست الحجَّة في شخص الأفراد والرُّسل الذين أرسلهم إلى الملوك والأمراء " . انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم (ص ١٦٧-١٦٨) .

وأمَّا قولهم بأنَّ عدم الاحتجاج بحديث الآحاد في العقيدة بدعة محدثة ، فهذا من أعجب العجب ، وهو قول مردود ، واعتراض ليس في محلِّه ، إذ المسألة هي مسألة أصوليَّة وقاعدة من القواعد الفقهيَّة ، فعلم أصول الفقه ، علم مصطلح الحديث ، .... هي أمور استجدَّت فيما بعد لأمور اقتضتها سعة العلوم ونموّها وازدهارها ، ولا يعني أنَّ كلَّ علم لم يضعه السَّلف الصَّالح أنَّه مبتدع مردود ، فماذا تقول عن : علم النَّحو والصَّرف ، وعلم البلاغة ، وعلم العروض والقافية ، ... وقد وضعت متأخِّرة ، هل هي بدعة يجب أن تُرد ، لأنَّ السَّلف لم يضعها ؟ فمن أين أتيتم بعلم مصطلح الحديث ، وكيف قعَّدتم قواعده وقسَّمتموه إلى مراتب ، ووضعتم ميزان الجرح والتَّعديل ؟ هل كان هذا في زمن السَّلف الصَّالح ؟ ولذلك لا بدَّ من التَّوقُّف عن هذا القول ، لأنَّه اعتراض ليس في محلِّه . انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة ، فتحي سليم (ص ١٦٣) .

وفي المبحث الرَّابع ذكرنا العديد من الأدلَّة على عدم حجيَّة خبر الواحد في العقيدة ، وذلك ضمن كلام أهل العلم النَّافي لكون خبر الآحاد يفيد العلم ...

وفي نهاية ردِّنا على ما أورده من جعلوا خبر الآحاد حجَّة في العقيدة نُنَوِّه إلى نقطتين :

الأُوْلَى : أنَّ نسبتهم ذلك إلى الإمام مالك لا يثبت عنه ، لأنَّ ناقله عنه هو ابن خويز منداد ، وهو مشهور عنه نقل الأقوال الشَّاذَّة عن مالك ، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته له : "عنده شواذ عن مالك ، واختيارات وتأويلات ، لم يعرِّج عليها حذَّاق المذهب ، وكقوله : أنَّ العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار ، وأنَّ خبر الواحد مفيد العلم" . انظر : لسان الميزان (٧/ ٣٥٩) .

الثَّانِيَةُ : أنَّ نسبتهم القول بحجيَّة خبر الآحاد إلى الإمام أحمد لا تصحُّ أيضاً ، فقد ثبت عن الإمام أحمد أنَّه قال : " إذا جاء الحديث عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسناد صحيح ، فيه حكم أو فرض ، عملت بالحكم والفرض ، وأَدَنْتُ الله تعالى به ، ولا أشهد أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك " . انظر : العدة في أصول الفقه (٣/ ٨٩٨) .

وفي المقابل استدلَّ القائلون بأنَّ خبر الآحاد ظنِّي الدّلالة ، وأنَّه لا يفيد العلم بالعديد من الأَدلَّة ، منها :

الدَّلِيْلُ الأَوَّلُ: أنَّ أخبار الآحاد مظنونة ، فلا يجوز التَّمسُّك بها في معرفة الله تعالىٰ ، وإنَّما قلنا : إنَّها مظنونة ، وذلك لأنَّا أجمعنا علىٰ أنَّ الرُّواة ليسوا معصومين ، وإذا لم يكونوا معصومين كان الخطأ عليهم جائزاً ، والكذب عليهم جائزاً ، وحينئذٍ لا يكون صدقهم معلوماً ، بل مظنوناً ، فثبت أنَّ خبر الواحد مظنون ، فوجب أن لا يجوز التَّمسُّك به . انظر : أساس التقديس (ص١٨٩) .

ولمَّا كان الاعتقاد يعني التَّصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ، فإنَّ الواجب يقضي بأن تكون أدلَّة العقيدة قطعيَّة الثُّبوت ، قطعيَّة الدِّلالة ، حتَّىٰ تُوجب العلم وتفيد التَّصديق الجازم ، وهذا الشَّرط لا ينطبق إلَّا علىٰ القرآن الكريم ، والحديث المتواتر ، أمَّا الظنِّي فلا مجال له في الاستدلال علىٰ مسائل العقيدة ، لأنَّ الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئاً ، لذلك رأينا آيات الكتاب العزيز تذمُّ من يتَّبع الظَّنَّ ، وكذا من يتَّبع بغير سلطان مبين ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧ – ٢٨] ، وقال تعالىٰ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم: ٢٣] .

ووجه الدِّلالة من هذه الآيات أنَّها صرَّحت بذمِّ متَّبعي الظُّنون ، وذمُّهم والتَّنديد عليهم دليلٌ علىٰ النَّهي الجازم عن اتِّباع الظنِّ ، وعلىٰ النَّهي الجازم عن اتِّباع مالم يقم عليه الدَّليل القاطع في العقيدة ، ذلك أنَّ الآيات السَّابقة حُصرت في العقيدة ، فآية : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧] ، في العقيدة ، وآية : ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم: ٢٣] ، وردت في العقيدة ، فقد كانوا يقولون : إنَّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنَّهم شفعاؤهم عند الله تعالىٰ ، مع وأدهم البنات ، فقيل لهم : ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾[النجم: ٢١] ، والأية هي : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ * إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

﴿ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[النجم : ١٩-٢٣] ، فأوردها الله في موضوع العقائد ، فنعىٰ نعياً واضحاً علىٰ من يتَّبعون الظنَّ في العقائد .. وهذا هو شأن بقيَّة الآيات .

ويضاف لذلك أنَّ آيات القرآن الكريم التي جاءت تنعىٰ علىٰ من لا سلطان له ، فإنَّها أيضاً في موضوع العقائد ، وقد وردت كلمتا : " البُرهان ، والسُّلطان " في موضوع العقائد والإيمان ، وهما كلمتان تفيدان القطع والجزم ، ولا يتأتَّىٰ أن يكون البرهان قد قام علىٰ إثبات شيء إلَّا إذا كان مقطوعاً به ، علىٰ أنَّ الدَّليل والبرهان لا يُطلقان إلَّا علىٰ المقطوع به ، والظنِّي لا يكون دليلاً ولا برهاناً ، وقد استعمل القرآن كلمتي : " برهان " و " سلطان " ، ومن تتبَّع كلَّ واحدة منهما في جميع آيات القرآن يتبيَّن أنَّ معناهما الدَّليل المقطوع به ...

وقال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون: ١١٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] ، إلىٰ غير ذلك من الآيات ... وكلُّها جاءت بمعنىٰ الدَّليل القاطع ، فالدَّليل من حيث هو لا يكون إلَّا قطعيَّاً ، ولم يستعمله القرآن إلَّا بمعنىٰ القطعي ، وعلىٰ هذا ، فإنَّه لَمَّا كان دليل العقيدة هو دليلاً علىٰ المسألة المعيَّنة ، فإنَّ كونه دليلاً أو برهاناً أو سلطاناً يقضي بأن يكون قطعيَّاً .

لقد بينَّت الآيات السَّابقة أنَّه لا بدَّ من العلم ، وهو القطع واليقين ، وندَّدت عليهم بالظنِّ فقط ، والظنُّ مدلوله في اللغة هو إفادة الاحتمالين مع ترجيح أحدهما ، فكيف يجوز الاستدلال بالاحتمال في الأصول ، والأصول لا يجوز أن يتطرَّق إليها الاحتمال ، وقد قالوا : (ما دخله الاحتمال سقط به الاستدلال) ، وهذه واحدة من القواعد الأصوليَّة المعروفة . انظر : الاستدلال بالظني في العقيدة (ص٩٩ فما بعدها ببعض التصرف) ، كبرىٰ اليقينيات الكونية ، (ص ٣٥-٣٦) .

الدَّلِيْلُ الثَّانِي: أنَّ أجلَّ طبقات الرُّواة قَدْراً ، وأعلاهم منصباً : الصَّحَابَة رضوان الله عليهم ، ثُمَّ إنَّا نعلم أنَّ رواياتهم لا تفيد القطع واليقين ، والدَّليل عليه : أنَّ هؤلاء المحدِّثين رووا عنهم : أنَّ بعضهم ردَّ خبر الآخر ، ونسبه إلىٰ الخطأ والنِّسيان . انظر : أساس التقديس (ص ١٨٩-١٩٠) .

فقد ردَّت السيِّدة عائشة رضي الله عنها خبر عمر رضي الله عنه في حديث : تعذيب الميِّت ببكاء أهله عليه ، وَقَالَتْ: رَحِمَ اللهُ عُمَرَ، وَاللهِ مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَيَزِيدُ الكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» ، وَقَالَتْ: حَسْبُكُمُ القُرْآنُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤] . أخرجه البخاري (٢/ ٧٩ برقم ١٢٨٨) .

وكذا ردَّت خبر ابنه عبد الله رضي الله عنهما في تعذيب الميِّت ببكاء أهله عليه ، وقالت : يَغْفِرُ اللهُ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ، وَلَكِنَّهُ نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ، إِنَّمَا مَرَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ يُبْكَى عَلَيْهَا، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ عَلَيْهَا، وَإِنَّهَا لَتُعَذَّبُ فِي قَبْرِهَا» . أخرجه البخاري (٢/٦٤٣ برقم ٩٣٢) .

فهذه الأمثلة وغيرها الكثير تُثبت وبلا مِرية : أنَّ الآحاد سبيله ظنِّي ، لاحتمال الخطأ والوهم والنِّسيان من الرَّاوي ... ولذلك رأينا الكثير من الصَّحابة يتوقَّفون في خبر الواحد إذا ارتابوا منه ، وذلك احتياطاً منهم في قبول الأخبار .

قال الحافظ الذَّهبي في " تذكرة الحفَّاظ" (١/ ٧٢) : " وكان أبو بكر رضي الله عنه أوَّل من احتاط في قبول الأخبار " .

وفي ترجمته لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، قال الإمام الذَّهبي أيضاً في " تذكرة الحفَّاظ" (١/ ٧٣) : " وهو الذي سنَّ للمحدِّثين التَّثبُّت في النَّقل ، وربَّما كان يتوقَّف في خبر الواحد إذا ارتاب ... إذ الواحد يجوز عليه النِّسيان والوهم " .

والرِّوايات والأخبار في ذلك كثيرة ، وقد كان عصرهم رضي الله عنهم قريباً من عصر النُّبوَّة ، فكيف بنا وقد بعُدت الشُّقَّة بيننا وبين ذلك العصر الذَّهبي الزَّاهر الطَّاهر ... ألسنا اليوم أحوج ما نكون إلى التَّثبُّت والاستيثاق والسَّبر والغور والحيطة ، والتَّمسُّك بالقطعيِّ في أمور العقيدة ، التي لا تقبل الخطأ ولا الوهم ؟ ثُمَّ كيف يجوز للمسلم أن يعتقد في ذات الله تعالى أشياء يحتمل أن يبين له

بعد زمن أنَّها خطأ ؟ ولماذا سُمِّيت عقيدة إذا لم تكن مبنيَّة على الثَّوابت الرَّواسخ التي لا يمكن أن يطرأ عليها خطأ أو تغيير ؟!!!

الدَّلِيْلُ الثَّالِثُ: أنَّه اشتهر فيما بين الأمَّة : أنَّ جماعة من الملاحدة وضعوا أخباراً منكرة ، واحتالوا في ترويجها على المحدِّثين ، والمحدِّثون لسلامة قلوبهم ما عرفوها ، بل قبلوها ، وأيُّ مُنكرٍ فوق وصف الله تعالى بما يقدح في الإلهيَّة ويبطل الرُّبوبيَّة ؟ فوجب القطع في أمثال هذه الأخبار بأنَّها موضوعة .

وأمَّا من دوَّنوا ذلك في كتبهم ، فإنَّهم ما كانوا عالمين بالغُيوب ، بل اجتهدوا واحتاطوا بقدْر طاقتهم ، وأمَّا اعتقاد أنَّهم علموا جميع الأحوال الواقعة في زمان الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى زماننا ، فذلك لا يقوله عاقل ...

وغاية ما في الباب : " أنّا نحسن الظَّنَّ بهم ، وبالَّذين رَوَوا عنهم ، إلاَّ أنَّا إذا شاهدنا خبراً مشتملاً على منكر ، لا يمكن إسناده إلى الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطعنا بأنَّه من أوضاع الملاحدة ، ومن ترويجاتهم على أولئك المحدِّثين " . انظر : أساس التقديس (ص ١٩١-١٩٢) .

وفي هذا المعنى يقول الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا سَمِعْتُمْ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ " . أخرجه أحمد في المسند (٢٥/ ٤٥٦ برقم ١٦٠٥٨) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم كسابقه. وأخرجه البزار (١٨٧) (زوائد) ، وابن حبان (٦٣) من طريق أبي عامر العقدي، بهذا الإسناد. وقال البزار: لا نعلمه يروى من وجه أحسن من هذا. وأخرجه ابن سعد ١/ ٣٨٧ عن عبد الله بن مسلمة القعنبي، عن سليمان بن بلال، به. إلا أن في المطبوع منه: عن أبي حُميد أو أبي أُسيد على الشك. وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/ ١٤٩- ١٥٠، وقال: رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح. وقد سلف نحوه من حديث أبي هريرة (٨٨٠١) ، وسيكرر ٥/ ٤٢٥ سنداً ومتناً. قال السندي: قوله: "إذا سمعتم الحديث عني"، أي: مروياً عني، وهذا إنما يكون إذا سمع من غيره لا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك عُدِّي بعن لا بمن، إذِ السماع منه لا يتصور فيه ذلك. قوله: "تعرفه قلوبكم"، أي: يقبله القلب، ولا يلحق به الوحشة للنفس، وهذا إما بالعرض على أصول الدين المعلومة، فإذا لم يكن مخالفاً يقبله القلب، أو بمعرفة رجال الإسناد، فإنهم إذا كانوا ثقاتٍ أثباتاً يتسارع القلب إلى القبول، ويحتمل أن يكون هذا الحديث من قبيل "استفتِ قلبك، البِرُّ ما اطمأنت إليه النفس، وأطمأنَّ إليه القلبُ، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك" حديث حسن، رواه أحمد [٤/ ٢٢٨] والدارمي [٢/ ٢٤٦] وغيرهما كما في الأربعين للنووي، رحمه الله تعالى. وهذا محمول على الأمر المشتبه، وإلا فما ثبت الأمرُ به في الشرع بلا معارض فهو برّ، وما

ثبت النهي عنه كذلك فهو إثم، والمراد أن قلب المؤمن ينظر بنور الله إذا كان قوي الإيمان ... وهذا يقتضي أنه ينبغي الرجوعُ إلى الأصول المعلومة الثابتة من الدين فيما اشتبه من الحديث، والله تعالى أعلم".

الدَّلِيْلُ الرَّابعُ: أنَّ الرُّواة الذين سمعوا هذه الأخبار من الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ما كتبوها عن لفظ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بل سمعوا شيئاً في مجلس ، ثُمَّ أنَّهم رووا تلك الأشياء بعد عشرين سنة أو أكثر ، ومن سمع شيئاً في مجلس مرَّة واحدة ، ثُمَّ رواه بعد العشرين أو الثَّلاثين لا يُمكنه رواية تلك الألفاظ بأعيانها ، وهذا كالمعلوم بالضَّرورة ، وإذا كان الأمر كذلك كان القطع حاصلاً بأنَّ شيئاً من هذه الألفاظ : ليس من ألفاظ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بل ليس ذلك إلَّا من ألفاظ الرَّاوي ، وكيف يقطع بأنَّ هذا الرَّاوي سمع ما جرىٰ في ذلك المجلس ؟ فإنَّ من سمع كلاماً في مجلس واحد ، ثُمَّ إنَّه ما كتبه ، وما كرَّر عليه كلّ يوم ، بل ذكره بعد عشرين سنة أو ثلاثين ، فالظَّاهر : أنَّه ينسىٰ منه شيئاً كثيراً ، أو يتشوَّش عليه نظم الكلام وترتيبه وتركيبه ، ومع هذا الاحتمال فكيف يُمكن التَّمسُّك به في معرفة ذات الله تعالىٰ وصفاته ؟ . انظر : أساس التقديس ص ١٩٢) .

والنَّاظر في كتب العلماء يجد أنَّهم نصُّوا علىٰ أنَّ غالب الأحاديث إنَّما رويت بالمعنىٰ ، فعن ابن عون ، قال : كان الحسن وإبراهيم الشَّعبي يأتون بالحديث علىٰ المعاني . أخرجه الرامهرمزي المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (ص٥٣٤ برقم ٦٨٩) ، ابن عبد البر في جامع العلم وفضله (١/ ٨٠) وانظر : قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (ص٢٢٣) .

وعن زيد بن الحباب ، قال : سمعت سفيان الثَّوري يقول : إن قلت لكم أنِّي أحدِّثكم كما سمعت فلا تصدِّقوني ، قال زيد : يعني أنَّه يحدث علىٰ المعاني . انظر : أخرجه الخطيب في الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٩) .

وعن الفريابي ، قال : سمعت سفيان يقول : لو أردنا أن نحدِّثكم بالحديث كما سمعناه ، ما حدَّثناكم بحديث واحد . أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع (٢/ ٣٢ برقم١٠٩٧) ، الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٩) .

الدَّلِيْلُ الخَامِسُ: لو أفاد خبر الواحد العلم لما حصل تعارض بين الأخبار ، ونحن نرىٰ الكثير من الأخبار تتعارض ، فإن قلنا بإفادة الجميع العلم حصل التَّناقض ، وإن قيل بإفادة أحدهما دون

الآخر ، كان ترجيحاً بلا مرجِّح ، فوجب التَّوقُّف ، وعدم القطع بخبر الواحد . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ، الآمدي (٢/ ٥٠ بتصرف) .

قلت : ومن تلك الأخبار : ما رواه مسلم (٤/ ٢١٤٩ برقم ٢٧٨٩) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِي ، فَقَالَ : " خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ " .

ففي هذا الحديث الإخبار بأنَّ الله خلق السَّموات والأرض في سبعة أيام ، وهذا مخالف للقرآن ... لأنَّ الله تعالىٰ أخبر في القرآن أنَّه خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيام ، قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[الأعراف: ٥٤] .

قال البخاري في " التَّاريخ الكبير " (١/ ٤١٣) : " وقَالَ بعضُهم: عَنْ أَبِي هُرَيرةَ، عَنْ كَعب، وهو أصحّ " .

وقال الإمام ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٤٢٦) في نقده لهذا الحديث : " ... وَفِيهِ اسْتِيعَابُ الْأَيَّامِ السَّبْعَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ؛ وَلِهَذَا تَكَلَّمَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْحُفَّاظِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَجَعَلُوهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ ، لَيْسَ مَرْفُوعاً ، وَاللهُ أَعْلَمُ " .

وكذلك طعن فيه : ابن تيمية . انظر : مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢٥٦-٢٥٧ ، ١٧/ ٢٣٥-٢٣٦ ، ١٨/ ١٨-١٩) .

والمناوي . انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي (٣/ ٤٤٧) .

وعبد الله الغُماري . انظر : الفوائد المقصودة في بيان الأحاديث الشاذة المردودة ، (ضمن ثلاثة كتب) (ص١٠٢) .

الدَّلِيْلُ السَّادِسُ: لو أوجب خبر الواحد العلم لأوجبه خبر كلّ واحد ، ولما احتاج إلىٰ اشتراط العدالة والإسلام ، كما لم يحتج علىٰ ذلك في المتواتر ، ولوجب أن يقع العلم بخبر من يدَّعي النُّبوَّة

... ولمَّا لم يقل هذا أحد ، دلَّ على أنَّه ليس فيه ما يُوجب العلم . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ، الآمدي (٢/٤٩) .

وفي كتابنا " الإِمْدَادُ وَالإِسْعَادُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَ بِالآحَادِ فِي الاعْتِقَاد " ذكرنا أنَّ جمهور أهل العلم نصُّوا في كُتُبهم علىٰ أنَّ خبر الآحاد يفيد الظَّنَّ ولا يفيد العلم ، وممَّن نقلنا أقوالهم في الكتاب المذكور :

الإمام محمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطَّبري (٣١٠هـ) ، الإمام أحمد بن علي أبو بكر الرَّازي الجصَّاص الحنفي (٣٧٠هـ) ، الإمام أبو بكر محمَّد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (٣٨٠هـ) ، الإمام أبو سليمان حمد بن محمَّد الخطَّابي (٣٨٨ هـ) ، الإمام محمَّد بن الطيِّب بن محمَّد بن جعفر بن القاسم ، القاضي أبو بكر الباقلَّاني المالكي (٤٠٣هـ) ، الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) ، الإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمَّد البغدادي الاسفرائني التَّميمي (٤٢٩هـ) ، الإمام محمَّد بن علي الطيِّب أبو الحسين البَصْري المعتزلي (٤٣٦هـ) ، الإمام أبو الحسن علي بن محمَّد بن محمَّد بن حبيب البصري البغدادي ، الشَّهير بالماوردي (٤٥٠هـ) ، الإمام أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظَّاهري (٤٥٦هـ) ، الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني ، أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ) ، الإمام القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) ، الإمام أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) ، الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البر بن عاصم النِّمري القرطبي (٤٦٣هـ) ، الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ) ، الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي (٤٧٤هـ) ، الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، الإمام عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمَّد الجويني ، أبو المعالي ، ركن الدِّين ، الملقَّب بإمام الحرمين (٤٧٨هـ) ، الإمام أبو الحسن علي بن محمَّد بن الحسين بن عبد الكريم ، فخر الإسلام البزدوي (٤٨٢هـ) ، الإمام محمَّد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمَّة السَّرخسي (٤٨٣هـ) ، الإمام أبو المظفَّر ، منصور بن محمَّد

بن عبد الجبَّار ابن أحمد المروزي السَّمعاني التَّميمي الحنفي ثُمَّ الشَّافعي (٤٨٩هـ) ، الإمام علي بن محمَّد بن علي، أبو الحسن الطَّبري، الملقَّب بعماد الدِّين، المعروف بالكيا الهراسي الشَّافعي (٥٠٤هـ) ، الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي (٥٠٥هـ) ، الإمام محفوظ بن أحمد بن الحسن أَبُو الخطاب الكَلْوَذَاني الحنبلي (٥١٠هـ) ، الإمام أبو الفتح أحمد بن علي بن محمَّد بن برهان (٥١٨هـ) ، الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري المالكي (٥٣٦هـ) ، الإمام علاء الدِّين شمس النَّظر أبو بكر محمَّد بن أحمد السَّمرقندي (٥٣٩هـ) ، الإمام علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي (٥٤٣هـ) ، الإمام القاضي محمَّد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (٥٤٣هـ) ، الإمام عياض بن موسىٰ بن عياض بن عمرون اليحصبي السّبتي (٥٤٤هـ) ، الإمام العلاء محمَّد بن عبد الحميد الأسمندي (٥٥٢هـ) ، الإمام علاء الدِّين ، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (٥٨٧هـ) ، الإمام أبو الوليد محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن أحمد بن رشد القرطبي الشَّهير بابن رشد الحفيد (٥٩٥هـ) ، الإمام جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد الجوزي (٥٩٧هـ) ، الإمام أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التَّيمي الرَّازي الملقَّب بفخر الدِّين الرَّازي خطيب الريّ (٦٠٦هـ) ، الإمام مجد الدِّين أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد بن محمَّد بن محمَّد ابن عبد الكريم الشَّيباني الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ) ، الإمام أبو محمَّد موفق الدِّين عبد الله بن أحمد بن محمَّد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثُمَّ الدِّمشقي الحنبلي ، الشَّهير بابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) ، الإمام أحمد بن محمَّد بن أحمد المظفَّر ابن المختار، أبو العبَّاس بدر الدِّين الرَّازيّ الحنفي (٦٣٠هـ) ، الإمام أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدّويني الأسنائي الشَّهير بـ ابن الحاجب (٦٤٦هـ) ، الإمام مجد الدِّين عبد السَّلام بن تيمية (٦٥٢هـ) ، الإمام أبو العبَّاس أَحمَدُ بنُ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ ، الأنصاريُّ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) ، الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي (٦٧١هـ) ، الإمام أبو زكريَّا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرف النَّووي (٦٧٦هـ) ، الإمام كمال الدِّين محمَّد بن عبد الواحد السّيواسي (٦٨١هـ) ، الإمام أبو العبَّاس شهاب الدِّين أحمد بن إدريس بن عبد الرَّحمن المالكي الشَّهير بالقُرافي

(٦٨٤هـ) ، الإمام سراج الدِّين محمود بن أبي بكر الأُرْمَوي (٦٨٢هـ) ، الإمام أبو الحسن علاء الدِّين علي بن أبي الحزم الخالدي المخزومي القرشي الدِّمشقي الملقَّب بابن النَّفيس (٦٨٧هـ) ، الإمام تقي الدِّين أبو الفتح محمَّد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري ، المعروف بابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) ، الإمام صفي الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحيم الأرموي الهندي (٧١٥هـ) ، الإمام سليمان بن عبد القوي الطُّوفي الحنبلي (٧١٦هـ) ، الإمام تقي الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمَّد ابن تيمية الحرَّاني الحنبلي الدِّمشقي (٧٢٨هـ) ، الإمام عبد العزيز بن أحمد بن محمَّد ، علاء الدِّين البخاري الحنفي (٧٣٠هـ) ، الإمام أبو عبد الله، محمَّد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشَّافعي ، الإمام عبد المؤمن بن عبد الحقّ، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدِّين (٧٣٩هـ) ، الإمام أبو القاسم ، محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله ، ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤٠هـ) ، الإمام شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذَّهبي (٧٤٨هـ) ، الإمام صلاح الدِّين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدِّمشقي العلائي (٧٦١هـ) ، الإمام محمَّد بن عبد الله الشِّبلي الدِّمشقيّ الحنفي، أبو عبد الله، بدر الدِّين ابن تقي الدِّين (٧٦٩هـ) ، الإمام عبد الرَّحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشَّافعيّ (٧٧٢هـ) ، الإمام تقيُّ الدِّين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيي السُّبكي (٧٥٦هـ) وولده تاج الدِّين أبو نصر عبد الوهَّاب (٧٧١هـ) ، الإمام محمَّد بن يوسف بن علي بن سعيد ، شمس الدِّين الكرماني (٧٨٦هـ) ، الإمام إبراهيم بن موسىٰ بن محمَّد اللخمي الغرناطي الشَّهير بالشَّاطبي (٧٩٠هـ) ، الإمام سعد الدِّين مسعود بن عمر التَّفتازاني (٧٩٣هـ) ، الإمام أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله بن بهادر الزَّركشي (٧٩٤هـ) ، الإمام أبو الفضل زين الدِّين عبد الرَّحيم بن الحسين بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (٨٠٦هـ) ، الإمام علي بن محمَّد بن علي الزِّين الشَّريف الجرجاني (٨١٦هـ) ، الإمام محمَّد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن الخطيب اليمني الشَّافعي المشهور بـ «ابن نور الدِّين» (٨٢٥هـ) ، الإمام ولي الدِّين أبي زرعة أحمد بن عبد الرَّحيم العراقي (٨٢٦هـ) ، الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) ، الإمام أبو الفضل أحمد بن علي بن محمَّد بن

أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، الإمام أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد بن حسين الغيتابىٰ الحنفىٰ بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) ، الإمام كمال الدِّين محمَّد بن عبد الواحد السّيواسي المعروف بابن الهمام (٨٦١هـ) ، الإمام جلال الدِّين محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن إبراهيم المحلي الشَّافعي (٨٦٤هـ) ، الإمام شمس الدِّين محمَّد بن عثمان بن علي الماردينى الشَّافعي (٨٧١هـ) ، الإمام أبو بكر محمَّد بن محمَّد بن عاصم الغرناطي (٨٢٩هـ) ، الإمام أبو عبد الله، شمس الدِّين محمَّد بن محمَّد بن محمَّد المعروف بابن أمير حاج ويقال له ابن الموقت الحنفي (٨٧٩هـ) ، الإمام محمَّد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرُّومي الحنفي محيي الدِّين، أبو عبد الله الكافِيَجي (٨٧٩هـ) ، الإمام شمس الدِّين أبو الخير محمَّد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن أبي بكر بن عثمان بن محمَّد السَّخاوي (٩٠٢هـ) ، الإمام يوسف بن حسين الكراماستي (٩٠٦هـ) ، الإمام عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، جلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) ، الإمام زين الدِّين أبي يحيىٰ زكريَّا بن محمَّد بن زكريَّا الأنصاري السّنيكي (٩٢٦هـ) ، الإمام شهاب الدِّين أحمد بن حمزة الأنصاري الرَّملي الشَّافعي (٩٥٧هـ) ، الإمام محمَّد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي القادري التَّاذفي ، الحنفي رضي الدِّين المعروف بـ ابن الحنبلي (٩٧١هـ) ، الإمام محمَّد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي (٩٧٢هـ) ، الإمام أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السَّعدي الأنصاري ، شهاب الدِّين شيخ الإسلام (٩٧٤هـ) ، الإمام علي بن (سلطان) محمَّد، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ) ، الإمام زين الدِّين محمَّد المدعو بعبد الرَّؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدَّادي ثُمَّ المناوي القاهري (١٠٣١هـ) ، الإمام أيُّوب بن موسىٰ الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (١٠٩٤هـ) ، الإمام محبّ الله بن عبدالشَّكور الهندي البهاري (١١١٩هـ) ، الإمام محمَّد بن عبد الباقي بن يوسف الزّرقاني المصري الأزهري (١١٢٢هـ) ، الإمام أحمد بن غانم (أو غنيم) بن سالم ابن مهنَّا، شهاب الدِّين النّفراوي الأزهري المالكي (١١٢٦هـ) ، الإمام إسماعيل حقّي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولىٰ أبو الفداء (١١٢٧هـ) ، قال الإمام محمَّد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدِّين السِّندي (١١٣٨هـ) ، الإمام محمَّد بن إسماعيل بن صلاح بن محمَّد الحسني الصَّنعاني (١١٨٢هـ) ، قال الإمام محمَّد بن أحمد بن

سالم السَّفاريني الحنبلي (١١٨٨هـ) ، الإمام محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزَّبيدي الشَّهير بمرتضىٰ (١٢٠٥هـ) ، الإمام محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) ، الإمام حسن بن محمَّد بن محمود العطَّار الشَّافعي (١٢٥٠هـ) ، الإمام محمَّد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدِّمشقي الحنفي (١٢٥٢هـ) ، الإمام أبو الطيِّب محمَّد صدِّيق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) ، الامام محمَّد عبده حسن خير الله (١٩٠٥م) ، الإمام محمَّد جمال الدِّين بن محمَّد سعيد بن قاسم الحلَّاق القاسمي (١٣٣٢هـ) ، الإمام محمَّد رشيد بن علي رضا بن محمَّد شمس الدِّين بن محمَّد بهاء الدِّين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) ، الإمام حسن بن عمر بن عبد الله السّيناوني المالكي (المتوفىٰ: بعد ١٣٤٧هـ) ، الإمام عبد الرَّحمن بن محمَّد عوض الجزيري (١٣٦٠هـ) ، الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) ، الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) ، الإمام عبد الوهَّاب بن عبد الواحد خلَّاف (١٣٧٥هـ) ، الإمام عبد الوهَّاب النَّجَّار (١٩٤١م) ، الإمام محمود شلتوت (١٣٨٣هـ) ، الإمام مصطفىٰ بن حسني السِّباعي (١٣٨٤هـ) ، الإمام الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٩٦٦هـ) ، الإمام محمَّد الطَّاهر بن محمَّد بن محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) ، الإمام ظفر أحمد بن لطيف أحمد عثماني التَّهانوي (١٩٧٤م) ، الإمام محمَّد أحمد مصطفىٰ أحمد المعروف بأبي زهرة (١٩٧٤م) ، الإمام محمَّد الغزالي المصري (١٩٩٦م) ، الإمام أبو الحسن عبيد الله بن محمَّد عبد السَّلام بن خان محمَّد بن أمان الله بن حسام الدِّين الرّحماني المباركفوري (١٤١٤هـ) ، الأستاذ حسن محمَّد أيُّوب (٢٠٠٨م) ، الإمام عبد الكريم بن علي بن محمَّد النّملة (١٤٣٥هـ) ، الأستاذ الدُّكتور وهبه الزّحيلي (١٤٣٦هـ) ، الأستاذ الدُّكتور محمَّد مصطفىٰ الزّحيلي ، الإمام محمَّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشَّافعي ، الأستاذ محمَّد صدقي بن أحمد بن محمَّد آل بورنو أبو الحارث الغزّي ، الأستاذ أحمد بن عبد الله بن حميد ...

الفَصْلُ الحَادِيْ وَالعِشْرُوْن

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بأَنَّ وَالِديْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النَّار

من المعلوم أنَّ الوهَّابيَّة ما زالوا يحكمون بكفر والدي النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويستدلُّون بعدَّة أدلَّة من القرآن والسُّنَّة ، وكذا بخطأ النَّاسخ لـ " الفقه الأكبر " لأبي حنيفة ، فإنَّه لَمَّا رأىٰ تكرُّر (ما) في قوله عن والديّ المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما ماتا) ظنَّ أنَّ إحداهما زائدة فحذفها ... مع أنَّ الأدلَّة من القرآن والسُّنَّة علىٰ نجاتهما متوافرة ...

فمن أشهر الأدلَّة التي استدلَّ بها الجمهور علىٰ نجاة والديه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] .

ووجه الدّلالة من الآية : أنَّ الله تعالىٰ نفىٰ حصول العذاب إلَّا بعد إرسال الرُّسل الذين هم حُجَّة الله علىٰ عباده. ومن المعلوم يقيناً أن والديه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرسل الله تعالىٰ إليهما رسولاً يدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ ويطالبهم بتكليف منه سبحانه ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] ، وقال سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣] ، وهذه الآية خصَّصت ما جاء من عموم في قوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر: ٤٤] .

ومن المعلوم يقيناً – كذلك– أنَّ والديه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاشوا في فترة انقطاع الرُّسل ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٩] ، والفترة ، مصدر للدّلالة علىٰ المرّة من " فتر يفتر فتوراً "، "والفتور هو سكونٌ بعد حدَّة ، ولين بعد شدَّة ، وضعف بعد قوَّة ، أي سكون حال عن مجيء رســــول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . انظر : المفردات في غريب القرآن (ص٦٢٢) .

وروى البخاري بسنده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، قال : فترة بين عيسى ومحمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ستمائة سنة " . أخرجه البخاري (٥/ ٧١ برقم ٣٩٤٨) .

وعليه ، فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] ، دليلٌ صريحٌ واضحٌ علىٰ نجاة والديه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ذلك أنَّ الزَّمان الذي عاش فيه والده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خالياً من الرُّسل الذين فترَ إرسالهم في ذلك الزَّمان ، كما نصَّت علىٰ ذلك آيات الكتاب العزيز ، وبما أنَّ الأمر كذلك فإنَّ تعذيب من عاش في ذلك الزَّمان منفيٌّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] .

وقد أطبق العلماء علىٰ الاستدلال بهذه الآية علىٰ نجاة والديه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال الإمام السُّيوطي : " وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي أَطْبَقَتْ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ عَلَىٰ الِاسْتِدْلَالِ بِهَا فِي أَنَّهُ لَا تَعْذِيبَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ ، وَرَدُّوا بِهَا عَلَىٰ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي تَحَكُّمِ الْعَقْلِ ، أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] ، قَالَ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِمُعَذِّبٍ أَحَداً حَتَّىٰ يَسْبِقَ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ خَبَرٌ، أَوْ تَأْتِيهِ مِنَ اللهِ بَيِّنَةٌ " . انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٤٥) .

وإلىٰ ما ذهب إليه الإمام السُّيوطي في تفسير الآية ذهب أهل العلم بالتَّفسير ...

قال الإمام الطَّبري: " يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ : وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي قَوْمٍ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالْآيَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ عُذْرَهُمْ . حَدَّثَنَا بِشْرٌ ، قَالَ : ثنا يَزِيدُ ، قَالَ : ثنا سَعِيدٌ ، عَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ يُعَذِّبُ أَحَداً حَتَّىٰ يَسْبِقَ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ خَبَراً، أَوْ يَأْتِيَهُ مِنَ اللهِ بَيِّنَةٌ، وَلَيْسَ مُعَذِّباً أَحَداً إِلَّا بِذَنْبِهِ " . انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١٤/ ٥٢٦) .

وذكر الإمام ابن كثير أنَّ الآية " إِخْبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَىٰ ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَداً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾[المُلك: ٨، ٩] .

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الزُّمَر: ٧١] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٧] ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ لَا يُدْخِلُ أَحَداً النَّارَ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ " .

انظر : تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٢-٥٣) .

وقال الإمام الصَّاوي في حاشيته علىٰ تفسير الجلالين : " وعموم هذه الآية ، يدلُّ علىٰ أنَّ أهل الفترة جميعاً ناجون بفضل الله ، ولو غيّروا وبدّلوا ، وما ورد من تخصيص بعض أفراد ، كحاتم الطَّائي وامرئ القيس بدخولهم النار ، فهي أحاديث أحاد لا تعارض القطعي ". انظر : حاشية الصاوي علىٰ تفسير الجلالين (٣/ ٣١٣) .

وقال الإمام الطَّاهر بن عاشور: " ... دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَّ لَا يُؤَاخِذُ النَّاس إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُرْشِدَهُمْ رَحْمَةً مِنْهُ لَهُمْ . وَهِيَ دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَىٰ انْتِفَاءِ مُؤَاخَذَةِ أَحَدٍ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةُ رَسُولٍ مِنَ الله إِلَىٰ قوم ، فَهِيَ حُجَّةٌ لِلْأَشْعَرِيِّ نَاهِضَةٌ عَلَىٰ الْمَاتُرِيدِيِّ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ اتَّفَقُوا عَلَىٰ إِيصَالِ الْعَقْلِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ وُجُودِ اللهَّ ، وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ صَدْرُ الشَّرِيعَةِ فِي التَّوْضِيحِ فِي الْمُقَدِّمَاتِ الْأَرْبَعِ . فَوُجُودُ اللهَّ وَتَوْحِيدُهُ عِنْدَهُمْ وَاجِبَانِ بِالْعَقْلِ فَلَا عُذْرَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهَّ وَعَطَّلَ وَلَا عُذْرَ لَهُ بَعْدَ بَعْثَةِ رَسُولٍ " . انظر : التحرير والتنوير (١٥/ ٥٢) .

وعليه ، فالعذاب لا يكون إلَّا بعد الإعذار والإنذار من خلال بعثة الرَّسول صَلَّىٰ اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد سبق وأوضحنا أنَّ الزَّمن الذي عاش فيه والده صَلَّىٰ اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلا من إرسال الرُّسل ، وذلك بنصِّ القرآن الكريم ، وهذا القول هو ما ذهب إليه جمهور المفسِّرين عند تفسيرهم لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء: ١٥] .

والعذاب الذي نصَّت الآية على نفيه عام في الدُّنيا والآخرة ، قال الإمام الشَّوكاني: " وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُمْ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَبِهِ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ " . انظر : فتح القدير (٣/ ٢٥٤) .

قلت : ومن العلماء الذين أشاروا إلى أنَّ التَّعذيب المنفي بالآية يشمل الدُّنيا والآخرة : الإمام ابن عطيَّة ، الإمام القرطبي ، الإمام أبو حيَّان ، الإمام الكلبي ، وغيرهم . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٤٤) ، الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٣١) ، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٤٣) ، البحر المحيط في التفسير (٧/ ٢٣) .

وفي تفسير قول الله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩] قال الإمام الألوسي : " واستدلَّ بالآية على إيمان أبويه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما ذهب إليه كثير من أجلَّة أهل السنَّة ، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما رضي الله تعالى عنهما على رغم أنف على القارئ وأضرابه بضدّ ذلك" . انظر : روح المعاني (١٠/ ١٣٥) .

قلت : وخصَّ الألوسي (علي القاري) بالذِّكر هنا ، لأنَّه اعتمد في شرح الفقه الأكبر على النُّسخة المحرَّفة ، التي فيها أنَّ والديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتا على الكفر .

وقد تكفَّل الإمام الكوثري بردِّ ذلك ، فقال : " وفي بعض النُّسخ : وأبوا النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتا على الفطرة ، والفطرة سهلة التَّحريف إلى الكفر في الخط الكوفي ، وفي أكثرها : (ما ماتا على الكفر) . كأنَّ الإمام الأعظم يريد به الرَّدّ على من يروي حديث : " أبي وأبوك في النَّار " ، ويرى كونهما من أهل النَّار ، لأنَّ إنزال المرء في النَّار لا يكون إلَّا بدليل يقيني ، وهذا الموضوع ليس بموضوع عملي حتَّى يكتفي فيه بالدَّليل الظنِّي .

ويقول الحافظ محمَّد مرتضى الزَّبيدي شارح " الإحياء " و " القاموس " في رسالته : " الانتصار لوالدي النَّبي المختار " : " وكنت رأيتها بخطِّه عند شيخنا أحمد مصطفى العمري الحلبي ، مفتي العسكر ، العالم المعتمر ، ما معناه : إنَّ النَّاسخ لَمَّا رأى تكرُّر (ما) في (ما ماتا) ظنَّ أنَّ إحداهما زائدة فحذفها ، فذاعت نسخته الخاطئة ، ومن الدَّليل على ذلك سياق الخبر ، لأنَّ أبا طالب والأبوين لو

كانوا على حالة واحدة لجمع الثلاثة في الحكم بجملة واحدة لا بجملتين مع عدم التَّخالف بينهم في الحكم .

وهذا رأيٌ وجيهٌ من الحافظ الزَّبيدي ، إلا أنَّه لم يكن رأى النُّسخة التي فيها (ما ماتا) ، وإنَّما حكى ذلك من رآها . وإنِّي بحمد الله رأيت لفظ (ما ماتا) في نسختين بدار الكتب المصريَّة قديمتين ، كما رأى بعض أصدقائي لفظي (ما ماتا) و(على الفطرة) في نسختين بمكتبة شيخ الإسلام المذكورة ، وعلي القاري بنى شرحه على النُّسخة الخاطئة ، وأساء الأدب ، سامحه الله ". انظر : مقدمات الإمام الكوثري (ص١٦٩-١٧٠) .

قال الإمام السُّيوطي : " ... ثمَّ رَأَيْتُ الْإِمَامَ أَبَا الْحَسَنِ الْمَاوَرْدِيَّ أَشَارَ إِلَى نَحْوِ مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ فخر الدِّين إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُصَرِّحْ كَتَصْرِيحِه ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ " أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ " : لَمَّا كَانَ أَنْبِيَاءُ اللهَّ صَفْوَةَ عِبَادِهِ وَخِيرَةَ خَلْقِهِ لِمَا كَلَّفَهُمْ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ وَالْإِرْشَادِ لِخَلْقِهِ اسْتَخْلَصَهُمْ مِنْ أَكْرَمِ الْعَنَاصِرِ ، وَاجْتَبَاهُمْ بِمُحْكَمِ الْأَوَاصِرِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِنَسَبِهِمْ مِنْ قَدْحٍ وَلِمَنْصِبِهِمْ مَنْ جَرْحٍ ؛ لِتَكُونَ الْقُلُوبُ لَهُمْ أَصْفَى ، وَالنُّفُوسُ لَهُمْ أَوْطَا ، فَيَكُونُ النَّاس إِلَى إِجَابَتِهِمْ أَسْرَعَ وَلِأَوَامِرِهِمْ أَطْوَعَ ، وَأَنَّ اللهَّ اسْتَخْلَصَ رَسُولَهُ - صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَطْيَبِ الْمَنَاكِحِ ، وَحَمَاهُ مِنْ دَنَسِ الْفَوَاحِشِ ، وَنَقَلَهُ مِنْ أَصْلَابٍ طَاهِرَةٍ إِلَى أَرْحَامٍ مُنَزَّهَةٍ ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهَّ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩] ، أَيْ : تَقَلُّبُكَ مِنْ أَصْلَابِ طَاهِرَةٍ مِنْ أَبٍ بَعْدَ أَبٍ إِلَى أَنْ جَعَلَكَ نَبِيّاً ، فَكَانَ نُورُ النُّبُوَّةِ ظَاهِراً فِي آبَائِهِ ، ثُمَّ لَمْ يُشْرِكْهُ فِي وِلَادَتِهِ مِنْ أَبَوَيْهِ أَخٌ وَلَا أُخْتٌ لِانْتِهَاءِ صَفْوَتِهِمَا إِلَيْهِ ، وَقُصُورِ نَسَبِهِمَا عَلَيْهِ ، لِيَكُونَ مُخْتَصّاً بِنَسَبٍ جَعَلَهُ اللهُّ لِلنُّبُوَّةِ غَايَةً وَلِتَفَرُّدِهِ نِهَايَةً ، فَيَزُولُ عَنْهُ أَنْ يُشَارَكَ فِيهِ وَيُمَاثَلَ فِيهِ ، فَلِذَلِكَ مَاتَ عَنْهُ أَبَوَاهُ فِي صِغَرِهِ ، فأَمَّا أَبُوهُ فَمَاتَ وَهُوَ حَمْلٌ ، وأَمَّا أُمُّهُ فَمَاتَتْ وَهُوَ ابْنُ سِتِّ سِنِينَ ، وَإِذَا خَبَرْتَ حَالَ نَسَبِهِ وَعَرَفْتَ طَهَارَةَ مَوْلِدِهِ عَلِمْتَ أَنَّهُ سُلَالَةُ آبَاءٍ كِرَامٍ ، لَيْسَ فِي آبَائِهِ مُسْتَرْذَلٌ وَلَا مَغْمُوزٌ مُسْتَبْذَلٌ ، بَلْ كُلُّهُمْ سَادَةٌ قَادَةٌ ، وَشَرَفُ النَّسَبِ وَطَهَارَةُ الْمَوْلِدِ مِنْ شُرُوطِ النُّبُوَّةِ " . انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٦٧) .

وقال تعالى : ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾[طه: ١٣٤] .

قال الإمام الطَّاهر بن عاشور في تفسيرها : " وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِوَحْدَانِيَّةِ خَالِقِ الْخَلْقِ يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ لَوْلَا حَجْبُ الضَّلَالَاتِ وَالْهَوَى ، وَأَنَّ مَجِيءَ الرُّسُلِ لِإِيقَاظِ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ ، وَأَنَّ اللهَّ لَا يُؤَاخِذُ أَهْلَ الْفَتْرَةِ عَلَى الْإِشْرَاكِ حتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً ، وَأَنَّ قُرَيْشاً كَانُوا أَهْلَ فَتْرَةٍ قَبْلَ بَعْثَةِ محمَّد صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . انظر : التحرير والتنوير (١٦/ ٣٤٦-٣٤٧).

ووالداه صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قريش ، وهما من أهل الفترة ، وقد ماتا قبل بعثته صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

ثمَّ إنَّ والديه صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ماتا قبل البعثة ، فقد مات والده وأمُّه حامل به لشهرين ، وماتت أمُّه وهو ابن ستِّ سنوات ، والله تعالى يقول : ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١] . وقد أفضنا في الدَّليل الأوَّل على نجاتهما بما قاله أساطين العلم في تفسيرهم لهذه الآية ، ونقلنا إجماعهم على أنَّه لا عذاب إلَّا بعد الإعذار بإرسال الرُّسل .

كما أنَّ والديه صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا على الحنيفيَّة ، ولم يثبت عنهما شرك ، وعلى هذا كان طائفة من العرب كزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وغيرهما ، وهذا المسلك ذهبت إليه طائفة من العلماء ، منهم : الإمام الفخر الرَّازي ، حيث قال في كتابه : " أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، الرَّازي (ص٢٧٠-٢٧١) " ما نصّه : " قيل إنَّ آزر لم يكن والد إبراهيم بل كان عمُّه ، واحتجُّوا عليه بوجوه ، منها :

أنَّ آباء الأنبياء ما كانوا كفَّاراً ، ويدلُّ عليه وجوه ، منها قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٨ – ٢١٩] ، قيل معناه : أنَّه كان ينقل نوره من ساجد إلى ساجد ، وبهذا التَّقدير ، فالآية دالَّة على أنَّ جميع آباء محمَّد صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا مسلمين ، وحينئذ يجب القطع

بأنَّ والد إبراهيم ما كان من الكافرين ، إنَّما ذاك عمُّه ، أقصىٰ ما في الباب أن يحمل قوله تعالىٰ : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩] ، علىٰ وجوه أخرىٰ . وإذا وردت الرِّوايات بالكلِّ ولا منافاة بينهما ، وجب حمل الآية علىٰ الكلِّ ، ومتىٰ صحَّ ذلك ثبت أنَّ والد إبراهيم ما كان من عبدة الأوثان ، ثمَّ قال : وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ أباء محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ما كانوا مشركين قوله عليه السَّلام : " لم أزل أُنقل من أصْلاب الطَّاهرين إلىٰ أرحَام الطَّاهرات " . أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ٥٧ برقم ١٥) .

وقال الإمام الزّرقاني المالكي (١١٢٢هـ) : " ... وقد بينَّا لك أيُّها المالكي حكم الأبوين ، فإذا سئلت عنهما ، فقل : هما ناجيان في الجنَّة ، إمَّا لأنَّهما أحييا حتَّىٰ آمنا ؛ كما جزم به الحافظ السّهيلي ، والقرطبي ، وناصر الدِّين بن المنير ، وإن كان الحديث ضعيفاً ؛ كما جزم به أوَّلهم ووافقه جماعة من الحفَّاظ ؛ لأنَّه في منقبة وهي يعمل فيها بالحديث الضعيف . وإمَّا لأنهما ماتا في الفترة قبل البعثة ولا تعذيب قبلها ؛ كما جزم به الأبِّي . وأمَّا لأنهما كانا علىٰ الحنيفيَّة والتَّوحيد لم يتقدَّم لهما شرك ؛ كما قطع به الإمام السَّنوسي ، والتِّلمساني المتأخِّر محشي الشِّفاء ، فهذا ما وقفنا عليه من نصوص علمائنا ولم نرَ لغيرهم ما يخالفه إلَّا ما يشم من نفس ابن دحية ، وقد تكفَّل بردِّه القرطبي " . انظر : شرح الزرقاني علىٰ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١/ ٣٤٩) .

وقال الإمام إبراهيم بن محمَّد الباجوري : " إذا علمت أنَّ أهل الفترة ناجون علىٰ الرَّاجح ، علمت أنَّ أبويه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناجيان لكونهما من أهل الفترة ، بل جميع آبائه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمَّهاته ناجون ومحكوم بإيمانهم ، لم يدخلهم كفر ، ولا رجس ، ولا عيب ، ولا شيء مما كان عليه الجاهليَّة بأدلَّة نقليَّة ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء:٢١٩] ، وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لم أزل أنتقل من الأصلاب الطَّاهرات إلىٰ الأرحام الزَّاكيات " ، وغير ذلك من الأحاديث البالغة مبلغ التَّواتر " . انظر : تحفة المريد علىٰ جوهرة التوحيد (ص٢٠) ، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ، ١٩٥٩م .

وقد دلَّت آيات عديدة علىٰ أنَّ آباءه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا علىٰ الحنيفيَّة ، من ذلك . انظر الحاوي للفتاوىٰ (٢/ ٢١٦ فما بعدها) .

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف: ٢٨] . أخرج عبد بن حميد ، عن ابن عبَّاس في قوله : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ، قال : لا إله إلَّا الله في عقبة ، قال : عقب إبراهيم ولده " . انظر : الدر المنثور (٧/ ٣٧٣) ، ابن كثير في التفسير(ص١٥٣٧) .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ، قال : الإخلاص والتَّوحيد لا يزال في عقبة من يقولها من بعده . انظر : الدر المنثور (٧/ ٣٧٣) .

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ، قال : في الإسلام أوصى بها ولده . انظر : تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٢) .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الزُّهري ، قال : عقب الرَّجل ولده الذُّكور والإناث وأولاد الذُّكور . انظر : الدر المنثور (٧/ ٣٧٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] .

أخرج ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية ، قال : فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السَّلام دعوته في ولده ، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته ، وجعل هذا البلد آمناً ، ورزق أهله من الثَّمرات ، وجعله إماماً ، وجعل من ذرِّيَّته من يقيم الصَّلاة ، وتقبل دعاءه ، وأراه مناسكه وتاب عليه . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧/ ١٧) ، الدر المنثور (٥/ ٤٥) .

وأخرج البيهقي في " شعب الإيمان " عن وهب بن منبِّه أنَّ أدم لَمَّا أهبط إلى الأرض استوحش ، فذكر الحديث بطوله في قصَّة البيت الحرام – وفيه من قول الله لآدم في حقِّ إبراهيم عليهما السَّلام : واجعله أمَّة واحداً ، قانتاً قائماً بأمري ، داعياً إلى سبيلي ، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم ، أبتليه فيصبر ، وأعافيه فيشكر ، وآمره فيعقل ، وينذر لي فيفي ، ويعدني فينجز ، أستجيب دعوته في ولده ، وذرِّيَّته من بعده ، وأُشفّعه فيهم ، وأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحماته وسقاته وخدمه وخزَّانه وحجَّابه ... " . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٤٥٢ برقم ٣٩٨٥) .

قال الإمام السُّيوطي : " هَذَا الْأَثَرُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ مُجَاهِدٍ الْمَذْكُورِ آنِفاً ، وَلَا شَكَّ أَنَّ وِلَايَةَ الْبَيْتِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً بِأَجْدَادِ النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَنِ انْتَزَعَهَا مِنْهُمْ عمرو الخزاعي ، ثمَّ عَادَتْ إِلَيْهِمْ، فَعُرِفَ أَنَّ كُلَّ مَا ذُكِرَ عَنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، فَإِنَّ أَوْلَى النَّاس بِهِ سِلْسِلَةُ الْأَجْدَادِ الشَّرِيفَةِ الَّذِينَ خُصُّوا بِالِاصْطِفَاءِ ، وَانْتَقَلَ إِلَيْهِمْ نُورُ النُّبُوَّةِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، فَهُمْ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونُوا هُمُ الْبَعْضُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[إبراهيم: ٤٠] . انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٦٢) .

وعن سفيان بن عيينة، قال: لم يعبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام لقوله : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم: ٣٥] ، قيل: فكيف لم يدخل ولد إسحق وسائر ولد إبراهيم؟ قال: لأنَّه دعا لأهل هذا البلد أن لا يعبدوا الأصنام ودعا لهم بالآمن، فقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[إبراهيم: ٣٥] ، ولم يدع لجميع البلدان بذلك. وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ، فيه وقد خص أهله وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧] . أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٢) .

وقد ساق السُّيوطي آثاراً عديدة يعلم من مجموعها أنَّ أجداد الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا على دين إبراهيم الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام ، فإذا أضفنا إليها دعوات إبراهيم عليه السَّلام لذرِّيته من إسماعيل عليه السَّلام : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم: ٣٥] ، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] ، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨] ، علمنا أنَّ من ذرِّيته من بقي على الإيمان إلى أن وصل الأمر إلى جدِّه عبد المطَّلب وأبيه عبد الله ، تلك السِّلسلة الطَّيِّبة التي خصّت بالاصطفاء ، وانتقل إليهم نور النُّبوة واحداً بعد واحد ، فهم أولى بأن يكونوا هم البعض المُشار إليهم في دعاء إبراهيم عليه السَّلام في الآيات السَّابقة . وكان عمرو بن لحي أوَّل من أدخل

عبادة الأصنام إلى جزيرة العرب ، وهو أوّل من زاد في التّلبية : لبّيك لا شريك لك ، إلّا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ". انظر : البداية والنهاية (٢/ ١٨٨) .

وذكر المسعودي أنَّ العرب كانت في جاهليتها فِرقاً : منهم الموحَّد المقرّ بخالقه ، المصدِّق بالبعث والنُّشور ، الموقن بأنَّ الله يثيب المطيع ، ويعاقب العاصي ...انظر : مروج الذهب (١/ ٢١٩) .

ومن هؤلاء الموحِّدين : جدُّه عبد المطَّلب ، يقول الإمام أبو الفتح محمَّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشَّهرستاني (٥٤٨هـ) : " ظهر بعض الظُّهور في أسارير عبد المطلب : سيِّد الوادي ، شيبة الحمد ، وسجد له الفيل الأعظم ، وعليه قصَّة أصحاب الفيل .

وببركة ذلك النُّور دفع الله تعالى شرَّ أبرهة وأرسل عليهم طيراً أبابيل .

وببركة ذلك النُّور رأى تلك الرُّؤيا في تعريف موضع زمزم ، ووجدان الغزالة والسُّيوف التي دفنتها جُرْهُم .

وببركة ذلك النُور ألهم عبد المطَّلب النَّذر الذي نذر في ذبح العاشر من أولاده ، وبه افتخر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام حين قال : " أنا ابن الذَّبيحين ". أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٩ برقم ٤٠٤٨) .

وببركة ذلك النُّور كان عبد المطَّلب يأمر أولاده بترك الظُّلم والبغي ، ويحثُّهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيَّات الأمور .

وببركة ذلك النُّور قال لأبرهة : إنَّ لهـذا البيت ربَّاً يحفظه ويذبُّ عنه ، وفيه قال وقد صعد إلى جبل أبي قبيس :

لا هُمَّ إنَّ المرء يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالهم عذراً محالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمرٌ مَا بدا لك

وببركة ذلك النُّور كان يقول في وصاياته : إنَّه لن يخرج من الدُّنيا ظلوم حتَّى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطَّلب في ذلك ، ففكَّر ،

وقال : والله إنَّ وراء هذه الدَّار داراً يجزىٰ فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسيء بإساءته ...
انظر : الملل والنحل (٣/ ٨٤) .

وممَّا يدعم القول بإيمان عبد المطَّلب ، انتساب وافتخار الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به يوم حُنين بقوله : "... أنا النَّبيُّ لا كذب ، أنا ابن عبد المطَّلب " . أخرجه البخاري (٤/ ٣٠ برقم ٢٨٦٤) ، مسلم (٣/ ١٤٠٠ برقم ١٧٧٦) ، أبو داود الطيالسي (٢/ ٨٢ برقم ٧٤٢) ، سعيد بن منصور في السنن (٢/ ٣٥٠ برقم ٢٨٣٨) ، ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤١٦ برقم ٣٦٩٨٣) ، الأدب (ص٣٨٤ برقم ٤١٧) ، أحمد في المسند (٤/ ٢٨٠ برقم ١٨٦٦٠) ، فضائل الصحابة (٢/ ٩٤٣ برقم ١٨٢٠) ، الترمذي (٣/ ٢٥١ برقم ١٦٨٨) ، ابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٦٠٣ برقم ٢٥٤) ، النسائي في السنن الكبرىٰ (٨/ ٢٨ برقم ٨٥٧٥) ، عمل اليوم والليلة (ص٣٩٤ برقم ٦٠٥) ، الروياني في المسند (١/ ٢٠٨ برقم ٢٧٩) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٢٨٠ برقم ٦٧٥٨) ، الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨/ ٣٧٨ برقم ٣٣٢٢) ، ابن حبان (١١/ ٩٠ برقم ٤٧٧٠) ، الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١٩٠ برقم ٥٠٥٤) ، ابن السُّنِّي في عمل اليوم والليلة سلوك النَّبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد (ص٣٦٧ برقم ٤١٤) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٣٢) ، البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧٩ برقم ١٣٢) .

ومن المعلوم أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ عن الانتساب للمشركين ، وذلك فيما رواه البيهقي بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً : " إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ ، النَّاس بَنُو آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْخَرُونَ بِرِجَالٍ ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تُدْفَعُ " . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٢٥ برقم ٤٧٦٤) .

والأدلَّة علىٰ نجاتهما رضي الله عنهما كثيرة ، وقد ضمَّنتها رسالة بعنوان : " كشفُ الخفا في مصير والديّ المُصطفىٰ " ... ومع ما قدَّمناه وغيره الكثير في نجاتهما رأينا البعض يحكم بكفرهما وبالتَّالي هلاكهما ...

وذهب إلىٰ القول بكفرهما الإمام ابن تيمية ومن شايعه من المُغترِّين به ، اعتماداً منه علىٰ الأحاديث الدالَّة علىٰ هلاكهم ... والأدلَّة التي استدلُّوا بها علىٰ هلاك والديه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هي:

الحَدِيْثُ الأَوَّلُ : روىٰ مسلم بسنده عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيْنَ أَبِي ؟ قَالَ : " فِي النَّارِ " ، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ ، فَقَالَ : " إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " . أخرجه مسلم (١/ ١٩١ برقم ٣٤٧) .

والجواب عن الحديث بالآتي :

أَوَّلاً : أنَ الحديث معارض لمنطوق قول الله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] .

ثَانِياً : أنَّ الحديث معارض لقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصَّحيح الذي رواه الزُّهري عن سالم عن أبيه قال : جاء أعرابي إلىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: يا رسول الله إنَّ أبي كان يصِلُ الرَّحم ، وكان وكان ، فأين هو ؟ قال في النَّار ، قال : فكأنَّه وجد من ذلك ، فقال : يا رسول الله : فأين أبوك ؟ قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حيثما مررت بقبر مشرك فبشِّره بالنار . قال : فأسلم الأعرابي بعد ، وقال : لقد كلَّفني رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعباً، ما مررت بقبر كافر إلَّا بشَّرته بالنَّار" . أخرجه ابن ماجة (١/ ٥٠١ برقم ١٥٧٣) ، كما رواه كل من الطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٤٥ برقم ٣٢٦) ، ابن السني في عمل اليوم والليلة سلوك النَّبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد (ص٥٤٦ برقم ٥٩٥) ، الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٣/ ٢٠٤ برقم ١٠٠٥) عَن الزُّهْرِيِّ ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ .

وذكر الأستاذ العلَّامة حسَّان عبد المنَّان في تعليقه علىٰ سنن ابن ماجة (ص١٧٢) أن البوصيري قال : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، محمد بن إسماعيل : وثَّقه ابن حبَّان والدَّارقطني والذَّهبي ، وباقي رجال السَّند علىٰ شرط الشَّيخين .

أمَّا ما ذكره السُّيوطي في الحاوي (٢/ ٢٢٦) عند روايته لهذا الحديث من طريق معمر عن ثابت وقوله بأنَّ معمراً أثبت من حمَّاد وأنَّ حمَّاداً تكلم في حفظه ووقع في أحاديثه مناكير ذكروا أنَّ ربيبه (ابن أبي العوجاء) دسَّها في كتبه ... فالحق أنَّ حمَّاد بن سلمة أوثق أصحاب ثابت علىٰ الإطلاق بإجماع أهل الجرح والتَّعديل ، قال ابن رجب الحنبلي في شرح علل التِّرمذي (٢/ ٦٩٠-٦٩١) : حكىٰ مسلم في كتاب " التَّمييز " إجماع أهل المعرفة علىٰ أنَّ حمَّاد بن سلمة أثبت النَّاس في ثابت ، وأمَّا معمر فهو علىٰ إمامته إلَّا أنَّ له عن ثابت غرائب ومناكير ، قال علي بن المديني : وفي أحاديث معمر عن ثابت أحاديث غرائب ومنكرة ، وقال العقيلي : أنكرهم رواية عن ثابت عن معمر ، وقال ابن معين : حديث معمر عن ثابت مضطرب كثير الأوهام . وأمَّا دعوىٰ أنَّ حمَّاداً كان له ربيب يدسُّ في كتبه فهي دعوىٰ لا تصحّ ، انفرد بروايتها أبو عبد الله بن الثَّلجي الكذَّاب ، كما قال ابن عدي في الكامل (٢/ ٦٧٦) .

ثَالِثَاً : ومن الأجوبة على هذا الحديث ما ذكره الإمام الشَّعراوي ، قال : " إذا صحّ هذا الحديث فهو ممَّا قبل أن ينزل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] لأنَّه لا عقوبة إلَّا بتحريم ، ولا تحريم إلَّا بنصّ .

ولهذا كان العفو عمَّن لم تبلغه الدَّعوة ، فيكون الحديث إن صحَّ علميَّاً منسوخاً بالآية فضلاً وعدلاً من الله تعالى . وقد نقل الثقات مؤرِّخو السِّيرة الشَّريفة كلّهم تقريباً بإسنادهم عن عبد الله والد النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصَّة المرأة التي دعته إلى نفسها فاستعصم ، وقال شعراً يؤكِّد إيمانه بالله واستمساكه بالشَّرائع السَّماوية السَّابقة ، ولم يثبت أنَّه مات كافراً أو أنَّه عبد وثناً .

وقد يكون قوله : " إنَّ أَبي في النَّار " لما قاله الله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم: ٧١] ، أي : إنَّ أبي وأباك سَيردان النَّار في طريقهما إلى الجنَّة ، وورود إشراف كبقيَّة المؤمنين ، وهذا الرَّأي عند بعض العلماء أوسط وأرجح وأرضى ...". انظر : عصمة النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص٩٩-١٠٠) .

فبهذين الجوابين أجاب الإمام الشَّعراوي عن الحديث ، وهما بلا شكّ محتملان ، والله أعلم .

رَابِعَاً : أنَّ الحديث من أخبار الآحاد ، وأخبار الآحاد ليست حجَّة في العقيدة ، على ما ذهب إليه جمهور الأصوليين ، منهم:

الباقلَّاني ، الخطيب البغدادي ، ابن فورك ، الغزالي ، القاضي عبد الجبَّار ، الرَّازي ، البيهقي ، الكرماني ، القاسمي ، النَّووي ، الكاساني ، ابن عبد البرّ ، عبد القاهر البغدادي ، وغيرهم كثير... انظر : الفرق بين الفرق (ص٣٢٥) ، المستصفى (١/ ١٤٢) ، شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٥١) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) ، الإحكام ، الآمدي (٢/ ٣٢ فما بعدها) ، شرح العضد على ابن الحاجب (٢/ ٥٦) ، نهاية السول في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٣) ، (٢/ ٣٧٥) ، أساس التقديس (ص١٩٢) ، الأسماء والصفات (ص٤٥٠) .

ونسبهُ جماعة إلى الأكثر من أهل الأصول ... انظر : المعتمد في أصول الفقه (٢/ ٥٥٦) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) .

كما نسبه ابن حزم إلى الحنفيَّة والشَّافعيَّة وجمهور المالكيَّة ، وإلى جميع المعتزلة . انظر : الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٠٧) ، إرشاد الفحول (ص٤٨) ، المسودة في أصول الفقه (ص٢٤٧-٢٤٨) .

خَامِسَاً : أنَّ المقصود بالأب هنا العمّ ، وقد ورد تسمية العمّ أباً في كتاب الله ، قال تعالىٰ في قصَّة يعقوب : ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣] ، فإسماعيل لم يكن من آبائهم ، وإنَّما كان عمّهم ، كما هو معلوم ...

قال الألوسي: " وقدَّم إِسْماعِيلَ في الذكر علىٰ إِسْحاقَ لكونه أسنّ منه وعدّه من آباء يعقوب مع أنَّه عمّه تغليباً للأكثر علىٰ الأقل أو لأنَّه شبَّه العمّ بالأب لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوَّة ، فأطلق عليه لفظه ، ويؤيِّده ما أخرجه الشَّيخان " عمُّ الرَّجل صنو أبيه " . أخرجه مسلم (٢/ ٦٧٦) .

وحينئذ يكون المراد- بآبائك- ما يطلق عليه اللفظ كيلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ، والآية علىٰ حدِّ ما أخرجه ابن أبي شيبة وغيره من قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : "احفظوني في العبَّاس فإنَّه بقيَّة آبائي " . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١/ ٣٨٨) ، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٢٨٢ برقم ٤٢٠٩) ، الروض الداني (المعجم الصغير) (١/ ٣٤٤ برقم ٥٧٢) ، ابن أبي شيبة في الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار (٦/ ٣٨٢ برقم ٣٢٢١٢).

وعليه ، فالمقصود بالأب الوارد في الحديث إنَّما هو عمّه ...

الحَدِيْثُ الثَّانِي : روىٰ مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : زَارَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ ، فَبَكَىٰ وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ ، فَقَالَ: " اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي ، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي ، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ " . أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١ برقم ٩٧٦) .

قالوا: ومنعه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستغفار لأمّه دليل علىٰ أنَّها ماتت كافرة ... والجواب عن هذا الحديث بالآتي :

أ- في سند الحديث : يزيد بن كيسان اليشكري ، أبو إسماعيل ، ويقال : أبو منين الكوفي . ويزيد هذا ثقة ، وثَّقه ابن معين ، والنَّسائي ، وأحمد ، والدَّارقطني ، لكن تكلَّم فيه غير واحد .

قال علي بن المديني عن القطَّان عن صالح : وسط ليس هو ممَّن يعتمد عليه .

وقال ابن أبي حاتم عن أبيه : يُكتب حديثه ، محلّه الصِّدق ، صالح الحديث . قلت : يحتجّ بحديثه ؟ قال : بعض ما يأتي به صحيح وبعض لا . وقال ابن حبَّان في الثِّقات : كان يخطئ ويخالف لم يفحش خطؤه حتَّىٰ يعدل به عن سبيل العدول ولا أتىٰ بمناكير فهو مقبول إلَّا ما يعلم أنَّه أخطأ فيه فيترك خطؤه كغيره من الثِّقات ، وقال أبو أحمد الحاكم : ليس بالحافظ عندهم . انظر : تهذيب التهذيب (١١/ ٣٥٦) ، التاريخ الكبير (٨/ ٣٥٤) .

وقال أبو حاتم : لا يحتجُّ به . انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٤/ ٤٣٩) .

وعليه، فيزيد بن كيسان مع كونه ثقة إلَّا أنَّه يخطئ من غير تعمّد ، وفي حالة خطئه لا بدَّ أن يترك حديثه ، حاله في هذا كحال بقيَّة الثِّقات الذين تُطرح روايتهم في حال الخطأ ، تماماً كما في هذه الرِّواية ، خاصَّة وأنَّها تعارض منطوق قول الله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] .

وللحديث طريق ثانية من رواية عبد الله بن مسعود. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (١/ ١٩٠) ، ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣٤١) .

وفيها : أيُّوب بن هانئ : قال ابن معين : ضعيف ، وقال ابن عدي : لا أعرفه ، وقال أبو حاتم ، شيخ صالح . وقال ابن حجر : صدوق فيه لين . انظر : تهذيب التهذيب (١/ ٤١٤) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣/ ٥٠١) .

وللحديث ، طريق ثالثة من رواية سليمان بن بريدة عن أبيه ، فذكره . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (١/ ١٨٩) ، ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣٤١) .

وفي سنده محمَّد بن الحسين القطَّان : قال الإسماعيلي: سمعت عبد الله بن ناجية يكذبه يقول : روىٰ عن سلمان بن توبة ، وقد مات قبل أن يسمع منه .

وروىٰ عنه ابن عَدِي عدَّة أحاديث يخالف في أسانيدها .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَاكِمُ : أَحضَرُونِي مَجْلِسَه غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَلَمْ يَصِحَّ لِي عَنْهُ شَيْء . انظر : لسان الميزان (٧/ ٨٧) ، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣١٩) .

ب- " أنَّ الاستغفار فرع على المؤاخذة على الذَّنب ، ومن لم تبلغه الدَّعوة لم يذنب حتَّى يؤاخذ على ذنبه ، فلا حاجة إلى الاستغفار له من ذنب لم يفعله ولن يؤآخذه الله عليه ، فيقع الاستغفار آنئذ لغواً ، وليس من شأن الأنبياء اللغو .

ج- أنَّ أهل بيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنهم أمُّه لا يدخلون النَّار ، لما أخرجه ابن جرير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى: ٥] ، قال : من رضا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألَّا يدخل أحد من أهل بيته النَّار " . انظر : عصمة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص٩٧-٩٨) ، والأثر أخرجه الطَّبري في التفسير (٢٤/ ٤٨٧) ، ابن كثير في التفسير (٨٨/ ٤٢٦) .

د- وممَّا يؤكد نجاة أمِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رواه أبو نعيم الأصبهاني في كتاب " دلائل النُّبوَّة " عن أمّ سماعة بنت أبي رُهْم ، عن أُمها قالت : شهدت آمنة بنت وهب في علَّتها التي ماتت فيها ومحمَّد غلام يفع له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه ثمَّ قالت :

بـــــــارك الله فيك من غلام ... يا ابن الذي من حومـــة الحِمام

نجا بعـــــــون الملك المِنعام ... فُودِي غداة الضرب بالسهام

بمـــــــائة من إبل سوام ... إن صحَّ ما أبصرتُ في منامي

فأنت مبعـــــوث إلى الأنام ... من عند ذي الجلال والإكرام

تُبعث في الحلِّ وفي الحـــــرام ... تبعث بالتحقيـــــق والإسلام

دين أبيك البِّر إبراهـــــــام ... تبعثُ بالتخفيـــــف والإسلام

أن لا تواليهـــــــا مع الأقوام ... فاللهُ أنهاك عن الأصنـــــــام

ثمَّ قالت : كلّ حيّ ميِّت ، وكلّ جديد بال ، وكلّ كبير يفنى ، وأنا ميِّتة وذكري باقي ، وقد تركت خيراً ، وولدت طهراً ، ثمَّ ماتت... انظر : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢/ ١٦٤-١٦٥) .

فهذا الكلام من أُمِّه رضي الله عنها يدلُ على إيمانها وتوحيدها ، وقد نقل هذا الكلام أغلب أصحاب السِّيرة النَّبويَّة .

قال الإمام السُّيوطي بعد نقله الأبيات السَّابقة : " فَأَنْتَ تَرَىٰ هَذَا الْكَلَامَ مِنْهَا صَرِيحاً فِي النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْأَصْنَامِ مَعَ الْأَقْوَامِ ، وَالِاعْتِرَافِ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ ، وَيُبْعَثُ وَلَدُهَا إِلَىٰ الْأَنَامِ مِنْ عِنْدِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِالْإِسْلَامِ .

وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ مُنَافِيَةٌ لِلشِّرْكِ ، وَقَوْلُهَا : تُبْعَثُ بِالتَّحْقِيقِ ، كَذَا هُوَ فِي النُّسْخَةِ ، وَعِنْدِي أَنَّهُ تَصْحِيفٌ وَإِنَّمَا هُوَ بِالتَّخْفِيفِ ، ثمَّ إِنِّي اسْتَقْرَأْتُ أُمَّهَاتِ الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – فَوَجَدْتُهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ؛ فأم إسحاق ، وَمُوسَىٰ ، وَهَرُونَ ، وَعِيسَىٰ ، وحواء أم شيث مَذْكُورَاتٌ فِي الْقُرْآنِ ، بَلْ قِيلَ بِنُبُوَّتِهِنَّ ، وَوَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِإِيمَانِ هاجر أم إسماعيل ، وأم يعقوب ، وَأُمَّهَاتِ أَوْلَادِهِ ، وأم داود ، وَسُلَيْمَانَ، وَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَىٰ ، وَشَمْوِيلَ ، وَشَمْعُونَ ، وَذِي الْكِفْلِ ، وَنَصَّ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ إِيمَانِ أم نوح ، وأم إبراهيم ، وَرَجَّحَهُ أبو حيان فِي تَفْسِيرِهِ ... فَأُمَّهَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلُّهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ ... فَكَذَلِكَ أُمُّ النَّبِي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ". انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٦٩-٢٧٠) .

أمَّا ما ورد في بعض الرِّوايات من أنَّ السَّبب في نزول قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣] حتَّىٰ ختم الآية :﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤] ، أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يستغفر لأمِّه فمُنع من ذلك ...

فإضافة إلىٰ كون الحديث ضعيف ، فقد تباينت أقوال العلماء في سبب نزول الآية وتأويلها ، علىٰ أقوال :

القَوْلُ الأَوَّلُ : أنَّها نزلت في شأن أبي طالب عمّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يستغفر له بعد موته ، فنهاه الله عن ذلك .

القَوْلُ الثَّانِي : أنَّها نزلت في أُم الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وذلك أنَّه أراد أن يستغفر لها فمنع من ذلك .

القَوْلُ الثَّالِثُ : أنَّها نزلت من أجل أنَّ قوماً من أهل الإيمان كانوا يستغفرون لموتاهم من المشركين ، فنهوا عن ذلك .

القَوْلُ الرَّابِعُ : أنَّ الاستغفار في هذا الموضع بمعنىٰ الصَّلاة ...

القَوْلُ الخَامِسُ : أنَّ الاستغفار في هذا الموضع بمعنىٰ الدُّعاء ...انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤/ ٥٠٩ فما بعدها) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/ ٢٢١ فما بعدها) ، الدر المنثور (٤/ ٣٠٠ فما بعدها) ، أسباب النزول (ص١٧٧-١٧٨) .

فأقوال العلماء في سبب الآية متضاربة ، وكلّ ما تطرَّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ، هذا علاوة على أنَّ الحديث المرفوع الوارد في ذلك فيه مقال .

يُضاف لما سبق أنَّ الحديث من أخبار الآحاد التي لا يحتجُّ بها في العقائد ، كما تقدَّم عن جمهور الأصوليين ...

الحَدِيْثُ الثَّالثُ : روىٰ البزَّار بسنده عَن ابْنِ بُرَيدة ، عَن أَبيهِ ، رَضِي اللهُ عَنْهُ ، قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِوَدَّانَ ، أَوْ بِالْقُبُورِ ، سَأَلَ الشَّفَاعَةَ لأُمِّه ، أَحْسَبُهُ قَالَ : فَضَرَبَ جبريلُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ ، وَقال : لا تَسْتَغْفِرْ لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكاً ، فَرَجَعَ ، وهُو حزينٌ . أخرجه البزار في المسند (١٠/ ٣٢٦ برقم ٤٤٥٣ ، وقال : وَلا نَعْلَمُ رَوَىٰ هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذَا الإِسْنَادِ إلاَّ مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرٍ) .

والحديث ضعيف ، في سنده محمَّد بن جابر اليمامي السّحمي : ضعَّفه ابن معين ، والنَّسائي . وقال البخاري : ليس بالقوي . وقال أبو حاتم : ساء حفظه في الآخر ، وذهبت كتبه . قلت : وأضرّ . وقال أحمد : لا يحدِّث عنه إلَّا شرٌّ منه . وقال ابن حبَّان : كان أعمىٰ يلحق في كتبه ما ليس من حديثه ويسرق ، وما ذكر به فيحدث به . انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٤٩٦) .

ذكر ابن جرير في سبب نزول قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[البقرة: ١١٩] ، قَال : قَرَأَ ذَلِكَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ : (وَلَا تَسْأَلْ) جَزْماً بِمَعْنَىٰ النَّهْيِ مَفْتُوحَ التَّاءِ مِنْ تَسْأَلْ ، وَجَزْمِ اللَّامِ مِنْهَا . وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ قِرَاءَةِ هَؤُلَاءِ : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً لِتُبَلِّغَ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ ، لَا لِتَسْأَلَ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حَالِهِمْ . وَتَأَوَّلَ الَّذِينَ قَرَءُوا هَذِهِ الْقِرَاءَةَ مَا حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ ، قَالَ : ثَنَا وَكِيعٌ ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ عُبَيْدَةَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ ، قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ " . «فَنَزَلَتْ (وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) " . انظر : تفسير الطَّبري (٢/ ٤٨٠-٤٨١) ، الدر المنثور (١/ ٢٧١) .

والأثر كما قال السُّيوطي مرسل ضعيف الإسناد ، في سنده : الحسن بن يحيىٰ ، قال النَّسائي : لا شيء ، خفيف الدِّماغ . انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (١/ ٥٢٥) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٦/ ٣٣٧) ، تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٥) .

وفي السَّند أيضاً : موسىٰ بن عبيدة الرّبذي : قال أحمد : لا يكتب حديثه ، وقال النَّسائي وغيره : ضعيف ، وقال ابن عدي : الضَّعف علىٰ رواياته بيِّن ، وقال ابن معين : ليس شيء ، وقال مرَّة : لا يحتجُّ بحديثه ، وقال يحيىٰ بن سعيد : كنا نتَّقي حديثه ، وقال ابن سعد : ثقة ، وليس بحجَّة ، وقال : يعقوب بن شيبة : صدوق ضعيف الحديث جدّاً . انظر : تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٥٧-٣٥٨) ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٤/ ٢١٣) .

الحَدِيْثُ الرَّابِعُ : روىٰ أحمد وغيره بسندهم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : جَاءَ ابْنَا مُلَيْكَةَ إِلَىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَا : إِنَّ أُمَّنَا كَانَتْ تُكْرِمُ الزَّوْجَ ، وَتَعْطِفُ عَلَىٰ الْوَلَدِ ، - قَالَ : وَذَكَرَ الضَّيْفَ - غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ وَأَدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ : " أُمُّكُمَا فِي النَّارِ " ، فَأَدْبَرَا ، وَالشَّرُّ يُرَىٰ فِي وُجُوهِهِمَا ، فَأَمَرَ بِهِمَا ، فَرُدَّا ، فَرَجَعَا وَالسُّرُورُ يُرَىٰ فِي وُجُوهِهِمَا ، رَجِيَا أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ شَيْءٌ ، فَقَالَ : " أُمِّي مَعَ أُمِّكُمَا " . أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٢٨ برقم ٣٧٨٧) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : " إسناده ضعيف لضعف عثمان - وهو ابن عمير البجلي أبو اليقظان - ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح غير سعيد بن زيد - وهو ابن درهم الأزدي أخو حماد بن زيد - فمختلف فيه . عارِم بن الفضل : هو محمَّد بن الفضل السدوسي ، وعارم لقبه ، وإبراهيم : هو ابن يزيد النخعي ، وعلقمة : هو ابن قيس النخعي ، والأسود : هو ابن يزيد النخعي وأخرجه البزار (٣٤٧٨) " زوائد "، والطبراني في " الكبير " (١٠٠١٧) من طريق عارم - شيخ أحمد - ، بهذا الإسناد . قال البزار : لا نعلمه يروىٰ بهذا اللفظ من حديث علقمة عن عبد الله إلَّا من هذا الوجه . وقد روىٰ الصعّق بن حزْن عن علي بن الحكم ، عن عثمان بن عمير ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، وأحسب أن الصعق غلط في هذا الإسناد. قلنا: من طريق الصعّق بالإسناد المذكور أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٠٠١٨) ، والحاكم (٢/ ٣٦٤-٣٦٥) ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وعثمان بن عمير هو أبو اليقظان ، فتعقبه الذهبي بقوله : لا والله ، فعثمان ضعفه الدارقطني ، والباقون ثقات . وأورده الهيثمي في "المجمع" ١٠/ ٣٦١-٣٦٢ ، وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني ، وفي أسانيدهم كلهم عثمان بن عمير، وهو ضعيف . قال السندي : وأدت، بهمزة ، والوأد : دفن البنات حية ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾[التكوير: ٨] . والشر : أي : الحزن والغم . أمي مع أمكما : أجاب عنه السيوطي بأنه حديث ضعيف ، أي لأن عثمان بن عمر ضعفه الدارقطني . وبأنه ليس فيه أن أمه في النار ، فيحتمل المعية في البرزخ ، معناه :

أن أمي في القبر كأمكما ، والحامل على التعبير به والتورية دفع الفتنة عن السائل . وبأنه قاله قبل أن يخبر فيها أنها في الجنة ، وذلك لما في آخر الحديث أنه : ما سألتهما ربي ، فهذا يدل على أنه لم يكن وقعت بعد بينه وبين ربه مراجعة في أمرها ، ثمَّ وقعت بعد ذلك. انتهى . ونحن نطأ عقبيه: أي : نتبعه في الدِّين ، أو في المشي خلفه ، والثاني خلاف ا لمعلوم في عاداته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

فالحديث ضعيف ، في سنده : عثمان بن عمير ، قال الذَّهبي: ضعَّفوه ، وقال ابن معين : ليس بشيء ، وقال النَّسائي: ليس بالقوي ، وقال الدَّارقطني وغيره : ضعيف . وقال أحمد بن حنبل : ضعيف الحديث ، وقال ابن عدي : رديء المذهب ، وقال ابن أبي حاتم : ضعيف ، سألت أبي عنه ، فقال : ضعيف الحديث مُنكر الحديث ، كان شعبة لا يرضاه . انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٥٠) ، تهذيب التهذيب (٧/ ١٤٥).

قلت : ونظراً لجلاء المسألة ووضوحها وإطباق المنصفين المُخبتين على التَّصريح بنجاة أبوي النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد أُلِّفت في نجاتهما العديد من المؤلَّفات ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١) الانتصار لوالدي النَّبي المختار (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم) ، للسيِّد مرتضى الزَّبيدي .

(٢) إرشاد الغبي في إسلام آباء النَّبي ، تأليف أحد علماء الهند ، كما في كشف الظُّنون .

(٣) تحقيق آمال الرَّاجين في أنَّ والديّ المصطفى من النَّاجين ، لابن الجزاز .

(٤) التَّعظيم والمنَّة في أنَّ أبويّ المصطفى في الجنَّة ، للإمام السُّيوطي .

(٥) حديقة الصَّفا في والدي المصطفى ، للإمام السيِّد مرتضى الزَّبيدي .

(٦) الدَّرجة المنيفة في الآباء الشَّريفة ، للإمام السُّيوطي .

(٧) ذخائر العابدين في نجاة والد المكرَّم سيِّد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للأسبيري .

(٨) مرشد الهدى في نجاة أبوي المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للرُّومي .

(٩) مسالك الحنفا في والدي المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للإمام السُّيوطي .

(١٠) مطلع النيِّرين في إثبات نجاة أبوي سيِّد الكونين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للمنيني .

(١١) نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشَّريفين ، للإمام السُّيوطي .

(١٢) هدايا الكرام في تنزيه آباء النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للبديعي .

(١٣) أمَّهات النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للمدائني .

(١٤) الأنوار النَّبويَّة في آباء خير البريَّة صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للرّفيعي الأندلسي .

(١٥) بلوغ المآرب في نجاة أبوي المصطفىٰ وعمّه أبي طالب ، للأزهري اللاذقي

(١٦) بلوغ المرام في آباء النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ، لإدريس بن محفوظ .

(١٧) تأديب المتمرِّدين في حقِّ الأبوين ، لعبد الأحد بن مصطفىٰ الكتاهي السّيواسي.

(١٨) الرَّدّ علىٰ من اقتحم القدح في الأبوين الكريمين ، للبخشي .

(١٩) سَدَاد الدِّين و سِدَاد الدَّين في إثبات النَّجاة والدَّرجات للوالدين ، السيِّد محمَّد بن رسول البرزنجي .

(٢٠) قرَّة العين في إيمان الوالدين ، للدويخي

(٢١) القول المختار فيما يتعلق بأبوي النَّبي المختار صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للدّيربي .

(٢٢) المقامة السُّندسيَّة في الآباء الشَّريفة المصطفويَّة ، للإمام السيُّوطي .

(٢٣) الجواهر المضيّة في حقِّ أبوي خير البريَّة صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للتمرتاشي .

(٢٤) سبيل السَّلام في حكم آباء سيد الأنام صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لمحمد بن عمر بالي .

(٢٥) أخبار آباء النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للكوفي ذريعه .

(٢٦) أنباء الأصفيا في حق آباء المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للرُّومي الأماسي .

(٢٧) تحفة الصَّفا فيما يتعلَّق بأبوي المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للغنيمي .

(٢٨) رسالة في أبوي النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للفناري .

(٢٩) سبيل النَّجاة ، للسُّيوطي .

(٣٠) آباء النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لابن عمّار .

(٣١) السَّيف المسلول في القطع بنجاة أبوي الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لأحمد الشّهرزوري .

(٣٢) خلاصة الوفا في طهارة أصول المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم من الشِّرك والجفا ، لمحمد بن يحي الطَّالب .

(٣٣) مباهج السُّنَّة في كون أبوي النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم في الجنَّة ، لابن طولون.

(٣٤) سعادة الدَّارين بنجاة الأبوين ، محمَّد علي بن حسين المالكي .

(٣٥) القول المسدَّد في نجاة والدي سيّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، محمَّد بن عبد الرَّحمن الأهدل .

(٣٦) نخبة الأفكار في تنجية والديّ المختار صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لمحمد بن السيِّد إسماعيل الحسني.

(٣٧) إيجاز الكلام في والدي النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لمحمد بن محمَّد التَّبريزي .

(٣٨) السُّبل الجليَّة في الآباء العليَّة ، للإمام السُّيوطي .

(٣٩) كنىٰ آباء النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لابن الكلبي .

(٤٠) أسماء أجداد النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للبرماوي .

(٤١) العقد المنظَّم في أمَّهات النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، للسيِّد مرتضىٰ الزَّبيدي .

(٤٢) أمَّهات النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، لابن المديني ... انظر : موقع أحباب الكلتاوية ، مقال بعنوان : كتب ألفت في نجاة والدي المصطفىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

الفَصْلُ الثَّانِي وَالعِشْرُوْن

بِدْعَةُ هَدَمِ الآثَارِ المُتعَلِّقَة بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجَّةِ مَنْع التَّبَرُّكِ بِهَا

من المعلوم أنَّ الآثار النَّبويَّة أساس مهمٌّ في دراسة السِّيرة النَّبويَّة على وجه الخصوص والتَّاريخ الإسلامي على وجه العموم ، ورحم الله الشَّريف الرضيَّ؛ القائل في قصيدة " قَرِّبُوهنّ ليُبْعِدْنَ المَغَارَا " :

تَصِفُ الدَّارُ لنـــــا قُطّانَها	المعالي والمســاعي والنِّجَارَا
وإذا لمْ تَدرِ ما قَـــــومٌ مَضوا	فَسَلِ الآثــارَ واستَنْبِ الدِّيارا

وتنبعُ اهميَّة وجود الآثار للدَّارسين في كونها سبيلاً لتوطيد وربط العلاقة بين الحاضر والمستقبل، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش حاضره منفصلاً عن ماضيه، لأنَّ الماضي المُشرق لا بدَّ وأن يكون للحاضر نوراً يضيء العتمات ويبدِّد غياهب الظَّلام ... فكيف إذا كان الماضي سيرة أعظم مخلوق جعله الله تعالى أسوة حسنة للخلائق جميعا ؟!! قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١] . قال ابن كثير: " هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ " .انظر : تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٩١) .

فآثاره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي بمثابة سيرة حيَّة نابضة ماثلة للعيان تراها الخلائق مهما تعاقب الليل والنَّهار ، وهي مشتملة على وقائع حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من ميلاده وطفولته وشبابه، وبداية بعثته وأخلاقه ... حتَّى التحق بالرَّفيق الأعلى ...

كما كان السَّلف الصَّالح حريصون على الحفاظ على كلِّ شيء يمتُّ بصلة للحبيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتَّبرُّك به ، فقدر روى الذَّهبي في " تاريخ الإسلام " ، قال : " قال أبو بَكْر الخلَّال: أخبرني عصمة بْن عصام قال: حدَّثنا حنبل قال: أعطى بعض ولد الفضل بن الرَّبيع أَبَا عبد الله وهو فِي الحبس ثلاث شعرات فقال: هذه مِنْ شَعْرِ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأوصى عند موته أن يجعل على كلِّ عين شعـــرة، وشعرة على لسانه. ففعل به ذلك عند موته " . انظر : تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (٥/ ١٠٦٣) ، وانظر : سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٣٧) ، مناقب الإمام أحمد (ص٥٤٥) .

وعلى هذا السَّنن في الحفاظ على آثار النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سواء ما كان منها متعلِّقاً بذاته كشعره وريقه وأدواته وثيابه ...وكذا المواضع التي صلَّىٰ فيها أو عاش فيها ، ولم يخالف في ذلك أحد من أهل العلم ... حتَّىٰ جاء من يدَّعون الحرص على التَّوحيد من المتسلِّفة الذين عاثوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ، فطمسوا معالم أكثر الآثار النَبويَّة ، حتَّىٰ أصبحت لا تمتُّ بأدنىٰ صلة للتَّاريخ الإسلامي ، حيث استُبدلت بناطحات السَّحاب والفنادق الفاخرة ، ومواقف السيَّارات ، والحمَّامات ، ولم يسلم من تلك الآثار إلَّا ما تمَّ نقله إلى الآستانة من قِبَل الدَّولة العثمانيَّة ، مع العلم أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهي عن هدم آطام المدينة ، فقد روىٰ البزَّار بسنده عَن ابْنِ عُمَر؛ أَن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَىٰ عَن آطَامِ الْمَدِينَةِ أَنْ تُهْدَمَ . أخرجه البزار في المسند (١٢/ ٢٣٠ برقم٥٩٥١) ، الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٩٣ برقم ٦٣٢٢) .

وجاء في رواية الطّحاوي : " لَا تَهْدِمُوا الْآطَامَ ، فَإِنَّهَا زِينَةُ الْمَدِينَةِ " . انظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٨٦٢) .

والآطام هي الحصون ، قال الجوهري : " الأَطْمُ مثل الأَجْمِ، يُخَفَّفُ ويُثَقَّلُ، والجمع آطامٌ، وهي حصونٌ لأهل المدينة " . انظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٨٦٢) ...

ولكن لم يمتثل أحد لهذا التَّوجيه النَّبوي ، فأزيلت العديد العديد من المعالم التَّاريخيَّة بما في ذلك الأطُم التي تمثِّل تاريخ الأمَّة ...كـ : أُطُم الضَّحْيَان في منطقة العُصْبة ، وأُطُم بني واقف الذي كان موجوداً في منطقة جنوب شرق مسجد قباء ... واستُبدلت تلك المعالم التَّاريخيَّة والدِّينيَّة بـ : (الشِّيراتون) ، و(الماريوت) ، و(الهيلتون) ، و(الانتركونتنتال) ، و(دُبي) ، و(الأوبروي) ، و(ميايتيوم) ، و(موفنبيك) ، و(جولدن توليب) ، و(الرُّويال) ... ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله تعالىٰ ...

ومن أهمِّ المعالم الأثريَّة والدِّينيَّة التي تمَّ هدمها :

أَوَّلاً : مسجد الفَضِيخ ويسمَّىٰ أيضاً بمسجد الشَّمس : وهو الذي صلَّىٰ فيه النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء غزوة بني النَّضير : ويقع شمال مسجد قبا ، على شفير وادي بطحان ...

ثَانِياً : مسجد ثنيَّة الوداع : وهو أحد المساجد التي صلَّىٰ فيها النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة المنوَّرة، ويقع شمال المدينة المنوَّرة ، عند جبل سلع الذي أزيل مع المسجد ...

ثّالِثَاً : مسجد القرصة : يقع في الحرة الشَّرقيَّة ، وهو داخل مزرعة كانت لسعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان عليه السَّلام يأتي دور الأنصار فيصلِّي في مساجدهم، وكان هذا واحداً منها.

قال السَّمهودي : "مسجد القرصة " لرزين عن يحيي بن أبي قتادة عن مشيخة قومه أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأتي دور الأنصار فيصلِّي في مساجدهم ، فصلَّىٰ في مسجد القرصة ، والقرصة ضيعة لسعد بن معاذ . قال المراغي : لعلها القرصة المعروفة اليوم بطرف الحرَّة الشَّرقيَّة من جهة الشِّمال لقربها من بني عبد الأشهل رهط سعد غير أنَّ المسجد لا يعرف فيها اليوم . قلت رأيت بها علىٰ رابية قريب البئر أثر مسجد ، والله أعلم" . انظر : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (٢/ ٣٣٦-٣٣٧) .

وقد تمَّ هدمه ...

رَابِعَــاً : مَسْجِدُ بَنِي ظفر: من الأوس يقع شرقي البقيع علىٰ يمين شارع الملك عبدالعزيز .

خَامِسَاً : مَسْجِدُ بَنِي قُرَيْظَة : يقع علىٰ باب حديقة تعرف بحاجزة .

سَادِسَاً : مَسْجِدُ بَنِي جُهَيْنَةَ وَبلي : خطَّه الرَّسول بيده وصلَّىٰ فيه أيضاً. ي يقع خلف مكتبة الملك عبدالعزيز غرب المسجد النَّبوي وخلف المدرسة النَّاصريَّة.

سَابِعَـاً : مَسْجِدُ عتبان بن مَالِك : بقباء شمال مسجد الجمعة علىٰ ضفَّة وادي الرَّانوناء .

ثَامِنـــاً : مصلَّىٰ شعْب الجَرَار : وهو الذي صلَّىٰ به الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معركة أُحُد قاعداً من الجراح ، وصلُّوا خلفه الصَّحابة قعوداً ، ويقع ملاصقاً لجبل أحد .

وهناك مساجد أخرىٰ تمَّ هدمها ... مثل : مسجد أبي قبيس، ومسجد الكبش ، ومسجد الكوثر، ومسجد الجنّ ، ومسجد جبل النَّور ... ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم ...

تَاسِعَاً : هَدْمُ البَيْت الذِي وُلِدَ فِيْهِ الحَبِيْبُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِب : ويقع في شرق السَّاحة الشَّرقيَّة للمسجد الحرام من جهة الصَّفا بسوق الليل ، قال الإمام الأزرقي : " حَدَّثَنَا أَبُو

الْوَلِيدِ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي وَيُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ، يُثْبِتَانِ أَمْرَ الْمَوْلِدِ، وَأَنَّهُ ذَلِكَ الْبَيْتُ، لَا اخْتِلَافَ فِيهِ عِنْدَ أَهْــــلِ مَكَّةَ " . انظر : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (٢/ ١٩٩).

قال الإمام الطَّبري : " ولد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ عَامَ الْفِيلِ لاثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، وَقِيلَ إِنَّهُ وُلِدَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّارِ الَّتِي تُعْرَفُ بِدَارِ ابْنِ يُوسُفَ، وقيل: ان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ وَهَبَهَا لِعَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمْ تَزَلْ فِي يَدِ عَقِيلٍ حتَّىٰ تُوُفِّيَ، فَبَاعَهَا وَلَدُهُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، أَخِي الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، فَبَنَىٰ دَارَهُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا دَارُ ابْنِ يُوسُفَ، وَأَدْخَلَ ذَلِكَ الْبَيْتَ فِي الدَّارِ، حتَّىٰ أَخْرَجَتْهُ الْخَيْزُرَانُ فَجَعَلَتْهُ مَسْجِدًا يُصَلَّىٰ فِيهِ " . انظر : تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري) (٢/ ١٥٦) .

وتمَّ هدم هذا المسجد الذي بني مكان البيت من قِبَل الوهَّابيّة سنة (١٩٥١هـ) ، وبُنيت مكانه مكتبة عامَّة ...

عَاشِراً : دَارُ سَعْدِ بن خَيْثَمَة : وهو أوَّل بيت نزله رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند مجيئه المدينة المنوَّرة، وهو جنوب مسجد قباء قرابة عشرين متراً، وقد بنىٰ النَّاس علىٰ أنقاضه مسجداً يعبدون الله فيه ، قال السَّمهودي :" مسجد دار سعد بن خيثمة بقباء " نقل المطري عن أبن زبالة إنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّىٰ في المسجد الذي في دار سعد بن خيثمة بقباء وجلس فيه ثمَّ ذكر المطري أشياء فيها مناقشة بينَّاها في الأصل ، وتقدَّم في مسجد قباء أنَّ دار سعد هذه تلي مسجد قباء في قبلته " .
انظر : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ (٢/ ٣٣٦) .

وقد تمَّ هدمه في عام (١٩٨٧م) ، وأُقيم مكانه موقف للسيَّارات ...

حَادِيْ عَشَر : بَيْتُ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق : ويقع بمحلَّة المسفلة بمكَّة المكرَّمة ، والمسفلة هي " كلّ ما نزل عن المسجد الحرام " . انظر : معجم البلدان (٥/ ١٨٧) .

ثَانِي عَشَر : بَيْتُ الأَرْقَم بن أَبِي الأَرْقَم : وهو البيت الذي اتَّخذه الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكاناً للاجتماع بأصحابه في بداية الدَّعوة الإسلاميَّة ، وكان علىٰ جبل الصَّفا بالقرب من الكعبة المشرَّفة ،

ومكانه الآن فوق أنفاق الصَّفا المؤدِّية إلىٰ حي العزيزيَّة ، وقد أصبحت أثراً بعد عين ... وقد أسلم فيه عدد كبير من كبار الصَّحابة وعلىٰ رأسهم عمر بن الخطَّاب ، رضي الله عنهم جميعاً ...

ثَالِثُ عَشَر : بِئْرُ أَرِيْس : قال ابن خلّكان : " بئر بالمدينة ثمَّ بقبا مقابل مسجدها، قال أحمد بن يحيىٰ بن جابر:

نُسبت إلىٰ أَرِيس رجل من المدينة من اليهود، عليها مال لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، وفيها سقط خاتم النبي، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من يد عثمان في السَّنة السَّادسة من خلافته، واجتهد في استخراجه بكلِّ ما وجد اليه سبيلاً فلم يوجد إلىٰ هذه الغاية، فاستدلُّوا بعدمه علىٰ حادث في الإسلام عظيم، وقالوا: إنَّ عثمان لما مال عن سيرة من كان قبله كان أوَّل ما عوقب به ذهاب خاتم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من يده، وقد كان قبله في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثمَّ في يد عثمان، رضي الله عنهم " . انظر : معجم البلدان (١/ ٢٩٨) .

رَابِعُ عَشَر : بئرُ غَرْس: قال ابن خلِّكان : " جاء ذكرها في غير حديث وهي بقباء، وكان النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يستطيب ماءها ويبارك فيه وقال لعليّ، رضي الله عنه، حين حضرته الوفاة: إذا أنا متّ فاغسلني من ماء بئر غرس بسبع قرب، وقد ورد عنه، عليه الصَّلاة والسَّلام، أنَّه بصق فيها وقال:

إنَّ فيها عيناً من عيون الجنَّة، وفي حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو قاعد علىٰ شفير غرس: رأيت الليلة كأني جالس علىٰ عين من عيون الجنَّة، يعني بئر غرس، وقال الواقدي: كانت منازل بني النَّضير ناحية الغرس وما والاها مقبرة بني حنظلة. ووادي الغرس: بين معدن النّقرة وفدك " . انظر : معجم البلدان (٤/ ١٩٣) .

وقال ابن سعد : " أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ ، أَخْبَرَنَا عَاصِمُ بْنُ عَبْدِ الله الْحَكَمِيُّ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نِعْمَ الْبِئْرُ بِئْرُ غَرْسٍ هِيَ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ وَمَاؤُهَا أَطْيَبُ الْمِيَاهِ ، وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْتَعْذَبُ لَهُ مِنْهَا وَغُسِّلَ مِنْ بِئْرِ غَرْسٍ.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ رُقَيْشٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ : جِئْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبَاءً فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ بِئْرِ غَرْسٍ وَإِنَّهُ لَيَسْتَقِي مِنْهَا عَلَىٰ حِمَارٍ ثُمَّ نَقُومُ عَامَّةَ النَّهَارِ مَا نَجِدُ فِيهَا مَاءً فَمَضْمَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّلْوِ وَرَدَّهُ فِيهَا فَجَاشَتْ بِالرَّوَاءِ. " . انظر : الطبقات الكبير (١/ ٤٣٣-٤٣٤) .

خَامِسُ عَشَر : هَدْمُ بَقِيْعِ الغَرْقَد : وقد تمَّ هدمه علىٰ دفعتين : الدّفعة الأولىٰ كانت في عام (١٢٢٠هـ) ثمَّ أعيد ترميمه ثانية علىٰ يد العثمانيين بعد دحر الوهَّابيَّة ... وبعد أن استولىٰ الوهَّابيَّة مرَّة ثانية علىٰ المدينة أجبروا المشايخ والمفتين علىٰ الفتيا بهدمه فهُدم ، وحصل ذلك في عام (١٣٤٤هـ) ، حيث اختلط الحابل بالنَّابل فما عاد النَّاس يعرفون أصحاب القبور ، بل طُمست أماكن القبور بالكليَّة ...

ومن أهمِّ القباب التي تمَّ هدمها في البقيع : قبَّة السيِّدة فاطمة الزَّهراء بنت محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقبَّة أزواج النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقبَّة عمَّات النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقبَّة مرقد الصَّحابي الجليل أبي سعيد الخدري ، وقبَّة مرقد السيِّدة حليمة السَّعديَّة مرضعة النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقبَّة الحسن السِّبط، وقبَّة زين العابدين، وقبَّة محمَّد الباقر، وقبَّة جعفر الصَّادق ، وقبَّة العبَّاس ابن عبد المطَّلب عمّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

سَادِسُ عَشَر : **العَزْمُ والنِّيَّة المُبيَّتَة عَلَى هَدْمِ قَبرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** :

لم يكتف الوهَّابيُّون بما صنعوه من قتل ونهب وسلب وهدم للتُّراث الإسلامي وللآثار النَّبويَّة ... بل عمدوا إلىٰ محاولة هدم قبر الرَّسول الأعظم محمَّد بن عبد الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبَّته ، بعد أن صرَّح وأفتىٰ علماؤهم بوجوب هدم القبَّة المبنيَّة علىٰ قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... وقد تكلَّمنا سابقاً عن ذلك ... مع العلم أنَّه لا يوجد مانعٌ شرعيٌّ يمنع من وجود قبَّة علىٰ قبر الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟!!! ... فأيُّ ابتداع في الدِّين يعنيه وجود القبَّة فوق قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟!!! وما هي المضارّ المترتِّبة علىٰ وجود القُبَّة ؟!!

مع العلم أنَّ الأمر عندهم لم يقف عند وجود قبَّة فوق قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بل تعدَّىٰ إلىٰ المطالبة بإخراج القبر الشَّريف خارج المسجد ... فقد صرَّح الألبانيُّ بأنَّ من البدع المذمومة في زماننا

: إبقاء قبر النَّبي في مسجده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر : مناسك الحج والعمرة في الكتاب والسُّنَّة وآثار السلف وسرد ما ألحق النَّاس بها من البدع (ص٦٠) .

ومن المفارقات العجيبة في هذا الباب أنَّ الوهَّابيَّة في الوقت الذي فيه هدموا ودمَّروا الآثار النَّبويَّة والإسلاميَّة ، حافظوا علىٰ آثار مؤسِّس نِحلتهم : محمَّد بن عبد الوهَّاب ، وقاموا بترميم ما تأثَّر منها بسبب عوامل الزَّمن ... كبيت الشَّيخ الأوَّل ، بيت الشَّيخ الثَّاني ، ومسجد الشَّيخ الأوَّل ، مسجد الشَّيخ الثَّاني ، وتكيَّة الشَّيخ بعد الضُّحىٰ ، تكيَّة الشَّيخ بعد العصر ، تكيَّة الشَّيخ قبل أن ينام ...

كما تجد ألواناً من الزِّينة والعناية والاهتمام منقطع النَّظير لجلب انتباه الزَّائر ...

وفي مدينة عنيزة أقاموا متحفاً للشَّيخ ابن عثيمين ، حوىٰ العديد من مقتنياته ومتعلَّقاته ... مثل : نظَّارات قراءة استخدمها الشَّيخ ، آخر قلم استخدمه الشَّيخ ... كما عمدوا إلىٰ المحافظة علىٰ جميع الآثار اليهوديَّة في الجزيرة العربيَّة وأحاطوها بالحماية اللازمة ... فيا للعار والشَّنار ...

الفَصْلُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُوْن

بِدْعَةُ اسْتِهَانَتِهِم بالوُلُوْج بِبَابِ تَكْفِيْرِ المُخَالِفِيْنَ لَهُم

من المعلوم أنَّ التَّكفير مسألة من المسائل العويصة ، وهي من الخطورة بمكان ، طالما تعثَّرت بها أقدام ، وزلَّت فيها أقلام ، وضلَّت فيها أفهام ، تشتَّت فيها الآراء ، وتناوشتها الأهواء ... فلا يجوز للمسلم أن يكفِّر أحداً إلَّا ببيِّنة وبرهان قطعيٍّ لا تحوم حوله الشُّبهات ، فقد يكون المُكفَّر مُكرهاً ، والله تعالى يقول : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[النحل: ١٠٦].

وقد يكون المُكَفَّر غير قاصد الكفر ، بل صدر منه ما به كُفْر سبق لسان ، فمن لم يقصد الكفر لا يكفر ولو صدر عنه ما يوجب الكفر ، فإن غلط لسانه ونطق بالكُفر من غير قصد ، فإنَّه لا يكفر بذلك ، لما ثبت عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا ، قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ " . أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٤ برقم ٢٧٤٧) .

وقد يكون الإنسانُ جاهلاً ، فيُعذر ، لما رواه أبو وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ، قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُنَيْنٍ وَنَحْنُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، فَمَرَرْنَا عَلَى شَجَرَةٍ يَضَعُ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا : ذَاتُ أَنْوَاطٍ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ ، فَقَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ، قُلْتُمْ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨] ، ثمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّكُمْ سَتَرْكَبُونَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ " . أخرجه الطيالسي في المسند (٢/ ٦٨٢ برقم ١٤٤٣) ، أحمد في المسند (٥/ ٢١٨ برقم ٢٢٢٤٢) ، الحميدي في المسند (٢/ ٣٧٥ برقم ٨٤٨) ، ابن أبي شيبة في المُصنف (١٥/ ١٠١ برقم ٣٨٥٣٠) ، الترمذي (٤/ ٤٥ برقم ٢١٨٠ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) ، ابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ٣٧ برقم

٧٦) ، محمَّد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي في السُّنَّة (١/ ١٧ برقم ٣٩) ، ابن حبَّان في الصحيح (١٥/ ٩٤ برقم ٦٧٠٢) ، الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٤٤ برقم ٣٢٩١) ، أبو يعلى في المسند (٣/ ٣٠ برقم ١٤٤١) .

وقد يكون المُكَفَّر في حالة وجلٍ وخوفٍ وغيبوبةٍ ، فتفوَّه بما لم يريده ، بدليل ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اطْحَنُونِي ، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَاباً مَا عَذَّبَهُ أَحَداً ، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ ، فَفَعَلَتْ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ " وَقَالَ غَيْرُهُ : "مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ " . أخرجه البخاري (٤/ ١٧٦ برقم ٣٤٨١) ، مسلم (٤/ ٢١١٠ برقم ٢٧٥٦) .

وقد يكون المُكَفَّر ممَّن لم تقم عليهم الحجَّة ، فمن لم تقُم عليه الحجَّة ويثبت موجب الكفر عليه ، فلا يجوز تكفيره ، لقول الله تعالى : ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] ...

وقد دلَّت آيات الكتاب العزيز ، وكذا أحاديث الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خطورة التَّكفير ، من ذلك : قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ٩٤] .

قال الإمام الرَّازي في تفسير الآية : " ثمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أَرَادَ الانْقِيَادَ وَالاسْتِسْلَامَ إِلَى المُسْلِمِينَ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧] ، أَيِ اسْتَسْلَمُوا لِلأَمْرِ ، وَمَنْ قَرَأَ السَّلامَ بِالأَلِفِ فَلَهُ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونَ المُرَادُ السَّلَامَ الَّذِي يَكُونُ هُوَ تَحِيَّةَ المُسْلِمِينَ ، أَيْ : لَا تَقُولُوا لِمَنْ حَيَّاكُمْ بِهَذِهِ التَّحِيَّةِ إِنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذاً فَتُقْدِمُوا عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ لِتَأْخُذُوا مَالَهُ ، وَلَكِنْ كُفُّوا وَاقْبَلُوا مِنْهُ مَا أَظْهَرَهُ . وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ المَعْنَى :

لَا تَقُولُوا لِمَنِ اعْتَزَلَكُمْ وَلَمْ يُقَاتِلْكُمْ لَسْتَ مُؤْمِناً ، وَأَصْلُ هَذَا مِنَ السَّلَامَةِ ، لِأَنَّ الْمُعْتَزِلَ طَالِبٌ لِلسَّلَامَةِ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (١٠/ ١٨٩) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني : " وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ شَيْئاً مِنْ عَلَامَاتِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَحِلَّ دَمُهُ حَتَّى يُخْتَبَرَ أَمْرُهُ ، لِأَنَّ السَّلَامَ تَحِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ تَحِيَّتُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَكَانَتْ هَذِهِ عَلَامَةً " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٢٥٩) .

وقد جاءت السُّنَّة المطهَّرة بالوعيد الشَّديد لمن تجرَّأ على التَّكفير ، ومن ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ : يَا كَافِرُ ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا ، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ " . أخرجه مسلم ، (١/ ٧٩ برقم ٦٠) ، أحمد في المسند (٢/ ٦٠ برقم ٥٢٥٩) .

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضاً : " إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا " . أخرجه البخاري (٨/ ٢٦ برقم ٦١٠٣) ، الطيالسي في المسند (٣/ ٣٧٥ برقم ١٩٥٢) ، ابن المقرئ في المعجم (ص٩٩ برقم ٢٣٢) ، ابن منده في الإيمان (٢/ ٦٤٠ برقم ٥٩٤) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٦/ ١١٠١ برقم ١٨٩٦) .

ومع كلِّ ما ورد في الكتاب والسُّنَّة من التَّحذير من المجازفة في التَّكفير الذي لا يلج بابه ويُسارع فيه إلَّا من لا عنده مسْكَة من ورعٍ ومخافة ... وذلك لما يترتَّب عليه من أحكام عديدة ... فقد رأينا أقواماً ابتُليت الأمَّة بهم قديماً وحديثاً لا همَّ لهم إلَّا تكفير وتبديع المخالفين من العُلماء ، ولو كان المُخالف لهم جمهور علماء الأُمَّة ، على ما ذكرناه في كتابنا : " تكفيرُ الوهَّابيَّة لعُموم الأمَّة المُحمَّديَّة " ، وهي بدعة خطيرة ، لم يعرفها السَّلف الصَّالح ... والغريب في الأمر : أنَّك إن حاورت بعضهم في هذه المسألة أنكر واستكبر ، وعبس وبسر ، وقال : نحن لا نكفِّر ... والمخالفون هم من يكفِّرونا ، ويتَّهمونا بالتَّكفير ... ولكنَّ الحقيقة أنَّهم هُم من كفَّروا مجموع الأمَّة من علماء وعوام ، وبيانُ ذلك في النّقَاطِ التَّالية :

أَوَّلاً : تَكْفِيْرُ الوَهَّابِيَّة لِعُمُوْمِ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ فِيْ مَسَائِلَ مُتَفَرِّقَة :

وفيما يلي عرضٌ لبعض المسائل التي كفَّر الوهَّابيُّون فيها علماء الأُمَّة في مسائل متفرِّقة ...

[١] : كفَّروا الفقهاء وكلّ من اشتغل بكتب الفقه ... فقد اعتبر محمَّد بن عبد الوهَّاب (الفقه) عيْن الشِّرك !!! ذلك أنَّه بعد أن ذكر قول الله تعالى : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة : ٣١] ، قال : " فسَّرها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والأئمَّة بعده بهذا الذي تسمُّونه الفقه !!! وهو الَّذي سمَّاه الله شركاً ، واتِّخاذهم أرباباً ، لا أعلم بين المفسِّرين في ذلك اختلافاً ". انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٥٩) .

[٢] : كفَّروا كلَّ من بلغته دعوة محمَّد بن عبد الوهَّاب من العلماء وغيرهم ، ومع ذلك أصرَّ مُناكفاً مُعانداً مُستكبراً ، فقد صرَّح محمَّد بن عبد الوهَّاب بأنَّهم – أي الوهَّابيَّة – لا يُكفِّرون " إلَّا من بلغته دعوتنا للحقِّ ، ووضحت له المحجَّة ، وقامت عليه الحجَّة ، وأصرَّ مستكبراً معانداً ، كغالب من نقاتلهم اليوم !!! يصرُّون على ذلك الإشراك !!! ويمتنعون من فعل الواجبات ، ويتظاهرون بأفعال الكبائر والمحرَّمات ... " . انظر : الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النجدية (١/ ٢٣٤) .

كما أنَّهم كفَّروا كلَّ من بلغته دعوة محمَّد بن عبد الوهَّاب !!! ولم يُسلم !! . انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٩/ ٢٤٥) .

[٣] : كفَّروا كلَّ عالم سمَّاهم بالخوارج ، فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " ... من سمَّاهم الخوارج ، فهو الكافر حقَّاً ، الذي يجب قتاله ، حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله ، بإجماع المسلمين كلِّهم... " . ومن المعلوم أنَّ محمَّد بن عبد الوهَّاب كفَّر كلَّ من يُسمِّي أتباعه : خوارج ، وكلَّ من يقف مع خصومهم ، ولو كانوا لله تعالى موحِّدين . كما كفَّر عالِمُهُم عبدالله ابن الشَّيخ ، الخوارج ، وأنَّهم خارجون عن الدِّين ، مع العلم أنَّ فيهم قسم كبير من العلماء الذين حادوا عن السَّبيل ... انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ١٨٢) ، (١/ ٦٣) ، (١٠/ ١٧٧) ، بالترتيب .

[٤] : كفَّروا من سمُّوه ونعتوه بشيخ الإسلام ... فقد أفتى أعضاء اللجنة الدَّائمة بأنَّ اعتقاد ما جاء في الحديث القدسي : " عبدي أطعني ، أجعلك تقُل للشَّيء كن فيكون " شركٌ وكفر ، فقد جاء في فتاوى اللجنة الدَّائمة : س: سمعت من بعض النَّاس يقول حديثاً قدسيَّاً عبارته : " عبدي أطعني تكن عبداً ربَّانيَّاً يقول للشَّيء كن فيكون " ، هل هذا حديث قدسي صحيح أم غير صحيح ؟ الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام على رسوله وآله وصحبه ، وبعد : ج : هذا الحديث لم نعثر

عليه في شيء من كتب السُّنَّة ، ومعناه يدلُّ على أنَّه موضوع ، إذ أنَّه يُنزل العبد المخلوق الضَّعيف منزلة الخالق القوي سبحانه ، أو يجعله شريكاً له تعالى أن يكون له شريكٌ في مُلكه ، واعتقاده شركٌ وكفرٌ ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يقول للشَّيء كن فيكون ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس : ٨٢] ، وبالله التَّوفيق ، وصلَّى الله على نبيِّه محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوى اللجنة الدائمة (٤/ ٤٧١-٤٧٢ ، فتوى رقم (٢٨٠٨) .

[٥] : كفَّروا كلَّ عالم كان يُسمِّي النَّاس الذين لم يسمعوا الإسلام من محمَّد بن عبد الوهَّاب وعصبته بالمسلمين ، فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " وما أحسن ما قاله واحد من البوادي ، لَمَّا قدم علينا وسمع شيئاً من الإسلام !!! قال : أشهد أنَّنا كفَّار – يعني هو وجميع البوادي – ، وأشهد أنَّ المطوِّع الذي يسمِّينا إسلاماً أنَّه كافر " . انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ١١٩) .

[٦] : كفَّروا كلَّ عالم لم يتبرَّأ من دينه الذي كان عليه قبل التَّعرُّف على ما عليه محمَّد بن عبد الوهَّاب !!! وكذا كلَّ من ادَّعى بأنَّ آباءه الذين توسَّلوا إلى الله تعالى بالأنبياء والصَّالحين ماتوا على الإسلام ...

فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " المسألة الخامسة عشرة : " فيمن عاهد على الإسلام ، والسَّمع ، والطَّاعة ، والمعاداة ، والموالاة ، ولم يفِ بما عاهد عليه من الموالاة ، والمعاداة ، ولا تبرَّأ من دِينه الأوَّل !!! ويدَّعي أنَّ آباءه ماتوا على الإسلام ، فهل يكون مرتدَّاً ؟ وهل يحلُّ أخذ ماله وسبيه إن لم يرجع ؟ الجواب : إنَّ هذا الرَّجل ، إن اعتقد أنَّ آباءه ماتوا على الإسلام ، ولم يفعلوا الشِّرك الذي نهينا النَّاس عنه ، فإنَّه لا يحكم بكفره ، وإن كان مراده أنَّ هذا الشِّرك الذي نهينا النَّاس عنه ، هو دين الإسلام ، فهذا كافر ، فإن كان قد أسلم فهو مرتدٌّ ، يجب أن يُستتـــــاب ، فإن تاب وإلَّا قُتل ، وصار ماله فيئاً للمسلمين ، وإن تاب قبل موته أحرز ماله ، والله أعلم " .

ومقصدهم بالشِّرك الذي نهوا عنه : التَّوسُّل إلى الله تعالى بالأنبياء والصَّالحين ، وسنتكلَّم عن ذلك باسهاب لاحقاً ...

[٧] أفتوا بأنَّ كلّ من أدَّىٰ فريضة الحجِّ من أتباعهم قبل انضمامه لدعوة محمَّد بن عبد الوهَّاب فعليه الإعادة ، لأنَّه كان مشركاً ، وحجُّ المشرك باطلٌ !!! . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ١٤٣-١٤٤) ، (١٠/ ١٣٨) .

[٨] : كفَّروا كلَّ عالم وصف أهلَ الحديث بالسُّوء ...

فقد جاء في طبقات الحنابلة – وهو من كتبهم المعتمدة – : " وأَنْبَأَنَا عمر بن الليث البخاري ، حَدَّثَنَا أبو بكر الحيري الحافظ وأبو محمَّد بن عبد الحميد بْن عَبْدِ الرَّحمن بن أبي عمر والحيرىٰ ، قالا : حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ محمَّد بْن عَبْدِ اللهَّ البيع الحافظ ، قَالَ : سمعت أبا الحسين محمَّد بن أحمد الحنظلي ، يقول : سمعت أبا إسماعيل التِّرمذي ، يقول : كنت أنا وأحمد بن الحسن التِّرمذي عند أبي عبد اللهَّ بن محمَّد بن حنبل ، فقال له أحمد بن الحسن التِّرمذي : يا أبا عبد اللهَّ ، ذكروا لابن أبي قتيلة بمكَّة أصحاب الحديث ، فقال : أصحاب الحديث قوم سوء ، فقام أَبُو عَبْدِ اللهَّ وهو ينفض ثوبه ، ويقول : زنديق ، زنديق ، زنديق ، ودخل البيت " . انظر : طبقات الحنابلة (١/ ٣٨) ، (١/ ٢٨٠) .

[٩] : كفَّر محمَّد بن عبد الوهَّاب : " من زعم من علماء العارض (اسم جبل باليمامة و " طرف العارض في بلاد بني تميم في موضع يسمَّىٰ القرنين فثمّ انقطع طرف العارض الذي من قبل مهبّ الشِّمال ثمَّ يعود العارض حتَّىٰ ينقطع في رمل الجزء " . انظر : معجم البلدان (٤/ ٦٥) : أنَّه عرف معنىٰ " لا إله إلَّا الله " ، أو عرف معنىٰ الإسلام قبل هذا الوقت !!! أو زعم من مشايخه أنَّ أحداً عرف ذلك ، فقد كذب وافترىٰ ، ولبَّس علىٰ النَّاس ، ومدح نفسه بما ليس فيه " . انظر : الدرر السنية في الفتاوىٰ النجدية (١٠/ ٥١) .

[١٠] : زعم أتباعُ محمَّد بن عبد الوهَّاب بأنَّ شجرة التَّوحيد زالت من جميع الدُّول العربيَّة !!! وهذا منه تكفير للسَّواد الأعظم من علماء الأمَّة ... انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٨) .

[١١] : كفَّر محمَّد بن عبد الوهَّاب كلَّ عالم يتحرَّج من تكفير أهل لا إله إلَّا الله !!! انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ١٣٩) ....

[١٢] : كفَّر بعضُ أتباع محمَّد بن عبد الوهَّاب أهل دُبي ، وأبو ظبي بالجملة ... علماء وغير علماء ، وسمُّوهم بكلاب جهنَّم ... انظر : إجماع أهل السنه النبويَّة علىٰ تكفير المعطلة الجهميَّة (ص ٥١ ، ص١٠١ ، ص١٠٢ ، ص١٢٤) .

[١٣] : نصَّ محمَّد بن عبد الوهَّاب علىٰ أنَّ إنكار الرَّبِّ هو مذهب ابن عربي (٦٣٨هـ) ، وابن الفارض (٦٣٢هـ) ، وفئات من النَّاس لا يحصيهم إلَّا الله .

وصرَّح محمَّد بن عبد الوهَّاب بأنَّ ابن عربي أكفر من فرعون ، وحكم بكفر من لم يكفِّره أو شكَّ في كفره . وصرَّح عالِمُهُم عبد اللطيف بن عبد الرَّحمن بأنَّ ابن عربي ، وابن الفارض من أكفر أهل الأرض .

وكفَّر محمَّد بن عبد الوهَّاب أهل الشَّام لأنَّهم – كما يزعم – يعبدون الإمام ابن عربي . وكفَّر محمَّد بن عبد الوهَّاب من شكَّ في كفر أتباع الإمام ابن عربي . وجاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " ... وابن سبعين ، وابن الفارض ، لهم عبادات ، وصدقات ، ونوع تقشُّف وتزهُّد ، وهم أكفر أهل الأرض أو من أكفر أهل الأرض .

وفي حديثه عن أحد العارفين بالله ، واسمه " عبد الغني " ، قال محمَّد بن عبد الوهَّاب : " ... وهذا اشتهر عنه أنَّه علىٰ دين ابن عربي ، الذي ذكر العلماء أنَّه أكفر من فرعون !!! حتَّىٰ قال ابن المقري الشَّافعي (٨٣٧هـ) : من شكَّ في كفر طائفه ابن عربي فهو كافر " .

وجاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " ... وتوحيدكم هو التَّعطيل ، ولهذا آل هذا القول ببعضهم إلىٰ إنكار الرَّبِّ تبارك وتعالىٰ ، كما هو مذهب ابن عربي ، وابن الفارض ، وفئام من النَّاس لا يحصيهم إلَّا الله " . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ١١٣) ، (١٠/ ٢٥) ، (٨/ ٣٦٦) ، (٢/ ٤٥) ، (٢/ ٤٥ ، ١٠/ ٢٥) ، (٨/ ٣٦٦) ، (١٠/ ٢٥) ، (١/ ١١٣) ، بالترتيب .

وفي " دُرَرِهم السَّنيَّة " حكموا بتكفير الإمام ابن عربي في مواطن عديدة. انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ١١٣) ، (٢/ ٤٥)، (٢/ ٣٠٧) ، (٣/ ٣٤٨) ، (٣/ ٣٩٤) ، (٣/ ٣٥٥) ، (٩/ ٤٢٣) ، (١٠/ ٢٥) ، (١٠/ ٥٤) ، (١٠/ ١٤٨) ، (١/ ١١٣) ، (٢/ ٤٥) ، (٢/ ٣٠٧) ، (٣/ ٣٤٨) ، (٣/ ٣٩٤) ، (٣/ ٣٥٥) ، (٩/ ٤٢٣) ، (١٠/ ٢٥) ، (١٠/ ٥٤) ، (١٠/ ١٤٨) ، (١١/ ٢٤٢) .

[١٤] : كفَّر محمَّد بن عبد الوهَّاب أهل مكَّة ، والمدينة ، وادَّعىٰ أنَّ دينهم هو الدِّين الذي جاء الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإنذار منه . وصرَّح أتباعُ محمَّد بن عبد الوهَّاب بأنَّ مكَّة والمدينة ، ديار كفر آبين عن الإسلام .

وكفَّر أتباعُ محمَّد بن عبد الوهَّاب كلَّ من لم يكفِّر أهل مكَّة . وصرَّحوا بأنَّه ليس عندهم من الإسلام شعرة ، وإن نطقوا بالشَّهادتين !! . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية(١/ ٦٤) ، (٩/ ٢٩١) ، (١٠/ ٨٦) ، (٩/ ٢٨٥) ، (٩/ ٢٩١) ، (٩/ ٢ ، ٢٣٨) .

[١٥] : كفَّر محمَّد بن عبد الوهَّاب جميع بلاد المسلمين التي لم تدخل تحت طاعته ، وسمَّاها بلاد المشركين .

[١٦] : زعم محمَّد بن عبد الوهَّاب أنَّ أكثر النَّاس في زمانه أعظم كُفراً وشِركاً من المشركين الذين قاتلهم الرَّسول ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

[١٧] : كفَّر أتباع محمَّد بن عبد الوهَّاب ، النَّاس بالحرمين ، ومصر ، والشَّام ، واليمن ، والعراق ، وحضرموت ، والموصل .

[١٨] : قال ابن باز : " أهل مصر كفَّار ، لأنَّهم يعبدون أحمد البدوي ، وأهل العراق ومن حولهم كأهل عُمان كفَّار ، لأنَّهم يعبدون الجيلاني ، وأهل الشَّام كفَّار !!! لأنَّهم يعبدون ابن عربي ، وكذلك أهل نجد والحجاز ، قبل ظهور دعوة الوهَّابيَّة ، وأهل اليمن " . انظر : فتح المجيد من كلام وتعليق ابن باز (ص٩١) ، (ص٢١٦) .

[١٩] : كفَّر ابن باز الصَّحابي الجليل !!! بلال بن الحارث المزني كما في تعليقه على فتح الباري . انظر : هامش فتح الباري شرح البخاري (٢/ ٩٥) .

[٢٠] : حَكَمَ أتباعُ محمَّد بن عبد الوهَّاب على المعلِّمين الذين تستقدمهم وزارة المعارف من الدُّول العربيَّة بأنَّهم ملحدون وزنادقة... انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١٦/ ٥ ، ١٢) .

[٢١] : زعم أتباع محمَّد بن عبد الوهَّاب بأنَّ المعلِّمين القادمين من الدُّول العربيَّة هم أفراخ الإفرنج ، وعبَّاد الأولياء ، ومن تاركي الصَّلاة ، وغيرها من شعائر الإسلام . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١٠٠) ...

[٢٢] : وصفوا بلاد المعلِّمين الذين يدرِّسون أبنائهم بأنَّها بلاد منحلَّة ، أعرضت عن دين الله وشرعه !!! واشتهرت فيها شعائر الكفر !!! وأنَّ هؤلاء المعلِّمين جاءوا إلى بلادهم لاجتثاث الإسلام من أصله !!! انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١٢) ، (١٦/ ٨) ...

[٢٣] : قال محمَّد بن عبد الوهَّاب واصفاً أكثر أهل أرضه وأرض الحجاز بأنَّهم ينكرون البعث : " ومعلوم : أنَّ أهل أرضنا ، وأرض الحجـــاز ، الذي ينكر البعث منهم أكثر ممَّن يقرُّ به ، والذي يعرف الدِّين أقلّ ممَّـــن لا يعرفه " . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٤٣) .

[٤٣] : صرَّح ابن تيمية بكفر الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) ، وفي ذلك يقول : " وكذلك ارتدَّ هذا الرَّازي حين أمر بالشِّرك وعبادة الكواكب والأصنام ، وصنَّف في ذلك كتابه المشهور ..." . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٤٧٣) .

ثَانِياً : تَكْفِيْرُهُم للأَشَاعِرَةَ بِالجُمْلَةِ :

ومن أقوالهم ونصوصهم في تكفير الأشاعرة وعلمائهم :

[١] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة " : " ... قول الأشاعرة المخالف للكتاب والسُّنَّة !!! وما عليه السَّلف والأئمَّة " . انظر : الدرر السنية في الكتب النجدية (١٥/ ٣٦٥) .

[٢] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " في أثناء الكلام عن عقيدة ابن تيمية : " ... وله الكتب المشهورة في أصول الدِّين ؛ وهو الذي ردَّ على الفلاسفة والمعتزلة والجهميَّة ، وأتباعهم من الأشعريَّة والكراميَّة ، والماتريديَّة ، فإنَّ هذه الطوائف الثَّلاث ، وافقوا الجهميَّة في الكثير من بدعتهم ، وخالفوهم في شيء، وغلطوا على السَّلف ، وادعوا أنَّ مذهبهم الإيمان باللفظ ، وتفويض المعنى ؛ وبيَّن شيخ الإسلام وجه غلطهم على السَّلف ، وأوضح ذلك في أكثر مصنَّفاته " . انظر : الدرر السنية في الكتب النجدية (١١/ ٣٦١) .

[٣] : قام مدَّعو السَّلفيَّة بإخراج الحافظ ابن حجر العسقلاني ، والإمام النَّووي ، وغيرهما من أساطين وجهابيذ العلم من أهل السُّنَّة والجماعة ...

[٤] : قال إمامهم محمَّد بن صالح العثيمين ، وهو من أبرز دعاة الوهَّابيَّة عندما قيل له : " سؤال : النَّووي وابن حجر ، نجعلهما من غير أهل السُّنَّة والجماعة ؟! : " فيما يذهبان إليه في الأسماء والصِّفات ، ليسا من أهل السُّنَّة والجماعة ... سؤال : بالإطلاق ليسوا من أهل السُّنَّة والجماعة ؟ قـــال العثيمين : لا نطلق " ، انتهى بحروفه . انظر كتاب " لقاء الباب المفتوح " (ص٤٢) دار الوطن ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٤هـ .

[٥] : اعتبر عالمهم سفر الحوالي أنَّ الحافظ ابن حجر العسقلاني كان متذبذباً في عقيدته ، فقال : " ولو قيل : أنَّ الحافظ – رحمه الله – كان متذبذباً في عقيدته لكان ذلك أقرب إلى الصَّواب ، كما يدلُّ عليه شرحه لكتاب التَّوحيد . انظر: منهج الاشاعرة في العقيدة (ص٢٨) .

[٦] : قال عالمهم : عبد المحسن البدر : " ومن العلماء الذين مَضوا وعندهم خلل في مسائل من العقيدة ، ولا يستغني العلماء وطلبة العلم عن علمهم ، بل إنَّ مؤلَّفاتهم من المراجع المهمَّة للمشتغلين في العلم ، الأئمَّة : البيهقي ، والنَّووي ، وابن حجر العسقلاني . انظر : رفقاً أهل السُّنَّة بأهل السُّنَّة (ص٣٢-٣٣) .

[٧] : اتَّهمت اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء !!! الإمام النَّووي بأنَّ عنده أغلاط في العقيدة ، فلا يقتدىٰ به ... فقد جاء في فتاويها :

س١٢ : بالنسبة للإمام النَّووي بعض الإخوة يقول : إنَّه أشعريٌّ في الأسماء والصِّفات فهل يصحُّ هذا ؟ وما الدَّليل ؟ وهل يصحُّ التَّكلُّم في حقِّ العلماء بهذه الصُّورة ؟ ومنهم من قال : إنَّ له كتاباً يسمَّىٰ : " بستان العارفين " ، وهو صوفيٌّ فيه ، فهل يصحُّ هذا الكلام ؟

ج١٢ : له أغلاط !!! في الصِّفات ، سلك فيها مسلك المؤولين ، وأخطأ في ذلك ، فلا يُقتدىٰ به في ذلك ، بل الواجب التَّمسُّك بقول أهل السُّنَّة : وهو إثبات الأسماء والصِّفات الواردة في الكتاب العزيز والسُّنَّة الصَّحيحة المطهَّرة ، والإيمان بذلك علىٰ الوجه اللائق بالله جلَّ وعلا ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ؛ عملاً بقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وما جاء في معناها من الآيات ، وبالله التَّوفيق ، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٣/ ٢٢١-٢٢٢) .

[٨] : اتَّهم الشَّيخ ابن باز الإمامين : النَّووي ، وابن حجر العسقلاني – رحمهما الله – بأنَّ لهما أغلاط في العقيدة ، ولذا فهما ليسا من أهل السُّنَّة والجماعة ...

فقد جاء في فتاوىٰ ابن باز : " سائل يقول : هناك من يحذر من كتب الإمام النَّووي وابن حجر رحمهما الله تعالىٰ ، ويقول : إنَّهما ليسا من أهل السُّنَّة والجماعة ، فما الصَّحيح في ذلك ؟ ج : لهم أشياء غلطوا فيها في الصِّفات ، ابن حجر والنَّووي وجماعة آخرون ، لهم أشياء غلطوا فيها ، ليسوا فيها من أهل السُّنَّة ، وهم من أهل السُّنَّة فيما سلموا فيه ولم يحرِّفوه هم وأمثالهم ممَّن غلط " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٢٨/ ٤٧) .

[٩] : صنَّف المدعو : عبد الله سعدي الغامدي العبدلي كتاباً سمَّاه : " الأخطاء الأساسيَّة في العقيدة وتوحيد الألوهيَّة من فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ، تأليف : أحمد بن حجر العسقلاني .... فيا للعجب ....

[١٠] : اعتبر عالمهم سفر حوالي الأشاعرة ليسوا من أهل السُّنَّة . انظر : منهج الأشاعرة في العقيدة (ص٢٢) .

[١١] : أخرج الشَّيخ ابن عثيمين الأشاعرة والماتريديَّة من عموم الأمَّة ، مع العلم أنَّهم يمثِّلون السَّواد الأعظم من علماء الأمَّة ، فقد قال في شرحه للواسطيَّة : " علم من كلام المؤلِّف – رحمه الله – أنَّه لا يُدخل فيهم من خالفهم في طريقتهم ، فالأشاعرة – مثلاً – والماتريديَّة ، لا يعدّون من أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب ، لأنَّهم مخالفون لما كان عليه النَّبي ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ حقيقتها !!! ولهذا يخطئ من يقول : أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة ثلاثة : سلفيُّون ، وأشعريُّون ، وماتريدون ، فهذا خطأ ، نقول : كيف يمكن الجميع أهل السُّنَّة وهم مختلفون ؟! فماذا بعد الحقِّ إلا الضَّلال؟! وكيف يكونون أهل السُّنَّة وكلُّ واحد يردُّ علىٰ الأخر ؟! هذا لا يمكن ، إلا إذا أمكن الجمع بين الضدَّين ، فنعم ، وإلا فلا شكَّ أنَّ أحدهم وحده هو صاحب السُّنَّة ، فمن هو ؟!! الأشعريَّة أم الماتريديَّة أم السَّلفيَّة ؟ نقول : من وافق السُّنَّة ، فهو صاحب السُّنَّة ومن خالفها فهو ليس بصاحبها ، فنحن نقول : السَّلف هم أهل السُّنَّة والجماعة ، ولا يصدق الوصف علىٰ غيرهم أبداً ، والكلمات تعتبر معانيها لننظر كيف نسمِّي من خالف السُّنَّة أهل السُّنَّة ؟ لا يمكن ، وكيف يمكن أن نقول عن ثلاث طوائف مختلفة : أنَّهم مجتمعون ؟ فأين

الاجتماع ؟ فأهل السُّنَّة والجماعة هم السَّلف معتقداً حتَّىٰ المتأخِّر إلىٰ يوم القيامة إذا كان علىٰ طريقة النَّبي ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأصحابه فإنَّه سلفي " . انظر : هامش شرح الواسطية (ص٦٥ - ٦٦) .

[١٢] : كفَّر أتباعُ محمَّد بن عبد الوهَّاب ، الأشاعرة ، وأنَّهم لا يعرفون معنىٰ الشَّهادتين . انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٣٢، ٣٢٠، ٣٦٤) .

[١٣] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " وهذه الطَّائفة التي تنتسب إلىٰ أبي الحسن الأشعري وصفوا ربَّ العالمين بصفات المعدوم والجماد ؛ فلقد أعظموا الفِرية علىٰ الله ، وخالفوا أهل الحقِّ من السَّلف والأئمَّة وأتباعهم ؛ وخالفوا من ينتسبون إليه ، فإنَّ أبا الحسن الأشعري ، صرَّح في كتابه " الإبانة " ، و " المقالات " ، بإثبات الصِّفات ؛ فهذه الطَّائفة المنحرفة عن الحقِّ قد تجرَّدت شياطينهم لصدِّ النَّاس عن سبيل الله ، فجحدوا توحيد الله في الإلهيَّة ، وأجازوا الشِّرك الذي لا يغفره الله !!! فجوَّزوا أن يعبد غيره من دونه ، وجحدوا توحيد صفاته بالتَّعطيل . فالأئمَّة من أهل السُّنَّة وأتباعهم لهم المصنَّفات المعروفة في الرَّدِّ علىٰ هذه الطائفة الكافرة !!! المعاندة !!! كشفوا فيها كلَّ شبهة لهم ، وبيَّنوا فيها الحقَّ الذي دلَّ عليه كتاب الله وسُنَّة رسوله ، وما عليه سلف الأُمَّة وأئمَّتها من كلِّ إمام رواية ودراية " . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/ ٢٠٦-٢٠٧) .

[١٤] : قال ابن باز : " فالأشاعرة وأشباههم لا يدخلون في أهل السُّنَّة في إثبات الصِّفات ، لكونهم قد خالفوهم في ذلك ، وسلكوا غير منهجهم ، وذلك يقتضي الإنكار عليهم ، وبيان خطئهم في التَّأويل ، وأنَّ ذلك خلاف منهج أهل السُّنَّة والجماعة ، كما تقدَّم بيانه في أوَّل هذه التَّنبيهات ، كما أنَّه لا مانع أن يقال : إنَّ الأشاعرة ليسوا من أهل السُّنَّة في باب الأسماء والصِّفات ، وإن كانوا منهم في الأبواب الأخرىٰ ، حتَّىٰ يعلم النَّاظر في مذهبهم أنَّهم قد أخطأوا في تأويل بعض الصِّفات وخالفوا أصحاب النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم بإحسان في هذه المسألة ، تحقيقاً للحقِّ ، وإنكاراً للباطل ، وإنزالاً لكلٍّ من أهل السُّنَّة والأشاعرة في منزلته التي هو عليها " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٣/ ٧٤) .

[١٥] : وقال ابن باز أيضاً : " ومن العقائد المضادَّة للعقيدة الصَّحيحة في باب الأسماء والصِّفات !!! عقائد أهل البدع : من الجهميَّة ، والمعتزلة ، ومن سلك سبيلهم في نفي صفات الله عزَّ وجلَّ ، وتعطيله سبحانه من صفات الكمال ، ووصفه عزَّ وجلَّ بصفة المعدومات ، والجمادات ، والمستحيلات ، تعالىٰ الله عن قولهم علوّاً كبيراً ، ويدخل في ذلك من نفىٰ بعض الصِّفات وأثبت بعضها ، كالأشاعرة ، فإنَّه يلزمهم فيما أثبتوه من الصِّفات نظير ما فرُّوا منه من الصِّفات التي نفوها ، وتأوَّلوا أدلَّتها ، فخالفوا بذلك الأدلَّة السَّمعيَّة والعقليَّة ، وتناقضوا في ذلك تناقضاً بيِّناً " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (١/ ٢٧) .

[١٦] : قال المدعو : محمَّد حامد الفقي ، في تحقيقه لكتاب : " فتح المجيد " : " ... فإنَّ جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنَّها لا تدلُّ علىٰ صفة قائمة بالله تعالىٰ ، وتبعهم علىٰ ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم . فلهذا كفَّرهم كثيرون من أهل السُّنَّة !!! قال العلَّامة ابن القيِّم – رحمه الله تعالىٰ – :

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـ هم بلاه قبلـــه الطَّبراني

فإنَّ هؤلاء الجهميَّة ومن وافقهم علىٰ التَّعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله " .

انظر : هامش كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٤٠١) .

[١٧] : قال ابن باز في جوابه علىٰ سؤال : هل الأشاعرة من أهل السُّنَّة ، أرجو التَّوضيح ؟ تحت عنوان : " بيان طائفة الأشاعرة " : ج : الأشاعرة عندهم أشياء خالفوا فيها أهل السُّنَّة من تأويل بعض الصِّفات ، فهم في بعض التَّأويل ليسوا من أهل السُّنَّة !!! لأنَّ أهل السُّنَّة لا يؤولون ، وهذا غلط من الأشاعرة ومنكر ، وعندهم مخالفات غير ذلك !!! والواجب علىٰ المؤمن هو طريق أهل السُّنَّة والجماعة ، وهو الإيمان بأسماء الله كلّها ، وصفاته الواردة في القرآن الكريم ، وهكذا الثَّابتة في السُّنَّة ، يجب الإيمان بها ، وإمرارها كما جاءت ، بلا تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تأويل ، بل يجب أن تمرَّ كما جاءت ، مع الإيمان بها علىٰ الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالىٰ " . انظر : فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (٣/ ١٥٦) .

[١٨] : وقال أيضاً : " الأشاعرة هم مؤولة العصر ، الذِّين يحرِّفون الكلم عن مواضعه ، وقد انتشر بين النَّاس الآن أنَّهم متكلِّمو أهل السُّنَّة والجماعة ، وهذا باطل ، فإنَّهم أبعد النَّاس عن أهل السُّنَّة والجماعة ، بل هم من يحرِّف الكلِم عن مواضعه " . انظر : شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة (١٨/ ٣) .

[١٩] : وقال أيضاً معلِّقاً على تأويل قول الله تعالى : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بـ " استولى " : " أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فقالوا : هذا القول من أضلِّ الضَّلال ، والذين قالوا بذلك من الفرق الضالَّة !!! المبتدعة الذين حرَّفوا الكلم عن مواضعه !!! " . انظر: شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة (١٨/ ٤) .

[٢٠] : وفي كتابهم المسمَّى بـ : " التَّوحيد " المرحلة الثَّانوية / الصَّف الأوَّل ، تأليف : الفوزان ، وصفوا في هذا الكتاب المقرَّر رسميَّاً في مدارسهم الأشاعرة والماتريديَّة بالشِّرك ، وقالوا عن المشركين الأوائل : " فهؤلاء المشركون هم سلف الجهميَّة ، والمعتزلة ، والأشاعرة " . انظر : التوحيد ، الصف الأول من المرحلة الثانوية (ص ٦٦ و٦٧) .

[٢١] : وقال الشَّيخ الألباني : " ... أعداء السُّنَّة !!! من المتمذهبة ، والأشاعرة ، والمتصوِّفة ، وغيرهم " . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ٦٧٦) .

[٢٢] : اعتبروا عقيدة الأشاعرة التي عليها الأُمَّة نوعاً من أنواع التَّلفيق ، وأنَّها جامعة للمتناقضات ... فقال المدعو : عمر بن محمود أبو عمر : " ومذهب الأشعريَّة هو مذهب المعتزلة ، ولكنَّه متطوِّر بغرابة غير معقولة ولا مفهومة ، وهذا ديدن الأشاعرة في تلفيق مذهبهم !!! وتوفيقهم بين المتناقضات بما لا يتَّفق " . انظر : ملاحظات على البيجوري في شرح جوهرة التوحيد (ص٤) .

[٢٣] : وفي " طبقات الحنابلة " - وهو من كتبهم المعتبرة عندهم - جاء الحكم بضلال الأشاعرة ومن وافقهم في تأويل الألفاظ المضافة إلى الله تعالى ، فقال القاضي أبو يعلى : " ... فماذا عسى أن نقول فِي جسارة المعتزلة والأشاعرة وبقيَّة المتكلِّمين الضَّالين فِي تأويل صفات الرَّحمن عزَّ وجلَّ الَّتِي نطق بها القرآن ونقلها الأئمَّة الأثبات والعلماء الثِّقات " . انظر : طبقات الحنابلة (٢/ ١٤٨) .

[٢٤] : وقال إمامهم أبو عبد الله الحسن بن العبَّاس الرُّستمي :

الأشعريَّة ضُلَّال زنادقـــــــــةٌ   إخوان من عبد العزَّىٰ مع اللاَّت

بربِّهم كفروا جهراً وقولـــــــــهُمُ   إذا تدبَّرته من أسوئ المقــالات

ينفون ما أثبتوا عوداً لبدئهـــــــم   عقائدُ القوم من أوهى المحــالات

انظر : ذيول الحفاظ ، تعليق الكوثري (ص٢٦٣) .

[٢٥] : قال الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين في شرح العقيدة الواسطيَّة : " فالأشاعرة مثلاً والماتريديَّة لا يُعتبرون من أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب ، لأنَّهم مخالفون لما كان عليه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ حقيقتها !!! ولهذا يخطئ من يقول : إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة ثلاثة : سلفيُّون ، وأشعريُّون ، وماتريديُّون ، فهذا خطأ ، نقول : كيف يكون الجميع أهل سُنَّة وهم مختلفون ؟!، وماذا بعد الحق إلَّا الضَّلال ، وكيف يكونون أهل سُنَّة وكلُّ واحد منهم يردُّ علىٰ الآخر ؟! هذا لا يمكن إلَّا إذا أمكن الجمع بين الضدَّين " . انظر : شرح العقيدة الواسطية (١/ ٥٣) .

ثَالِثاً : تَكْفِيْرهُمُ لِلمُتَكَلِّمِيْن :

وبيان ذلك في النِّقاط التَّالية :

[١] : قال إمامهم البربهاري في كتابه " السُّنَّة " : " واعلم أنَّها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدِّين إلَّا من الكلام وأهل الكلام والجدل والمراء والخصومة والعجب . وكيف يجترئ الرَّجل علىٰ المِراء والخصومة والجدال ، والله يقول : ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[غافر: ٤] ، فعليك بالتَّسليم والرِّضى بالآثار ، والكفِّ والسُّكوت " . انظر : شرح السُّنَّة (ص٣٨) .

[٢] : وهذا ابن تيمية يُنكر علىٰ المتكلِّمين عدم أخذهم بالآحاد في مسائل الاعتقاد ، ويصفهم بالزَّندقة ، والإلحاد ، فيقول : " ... وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا عُمْدَةُ كُلِّ زِنْدِيقٍ وَمُنَافِقٍ يَبْطُلُ الْعِلْمُ بِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ، تَارَةً يَقُولُ : لَا نَعْلَمُ أَنَّهم قَالُوا ذَلِكَ ، وَتَارَةً يَقُولُ : لَا نَعْلَمُ مَا أَرَادُوا بِهَذَا الْقَوْلِ . وَمَتَىٰ انْتَفَىٰ الْعِلْمُ بِقَوْلِهِمْ أَوْ بِمَعْنَاهُ : لَمْ يُسْتَفَدْ مِنْ جِهَتِهِمْ عِلْمٌ فَيَتَمَكَّنُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُ

مِنَ الْمَقَالَاتِ وَقَدْ أَمِنَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يُعَارَضَ بِآثَارِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَكَّلَ ثَغْرَهَا بِذَيْنِكَ الداحين الدَّافِعَيْنِ لِجُنُودِ الرَّسُولِ عَنْهُ الطَّاعِنَيْنِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهَا. وَهَذَا الْقَدْرُ بِعَيْنِهِ هُوَ عَيْنُ الطَّعْنِ فِي نَفْسِ النُّبُوَّةِ ". انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٨٩) .

والغريب في هذا الباب أنَّ ابن تيمية في كتابه " منهاج السُّنَّة " أنكر الاحتجاج بخبر الآحاد في أُصول الدِّين ، فقال : " ... فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ عَلَىٰ أُصُولِكُمْ ثُبُوتُهُ حتَّىٰ تَحْتَجُّوا بِهِ ؟ وَبِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ فَهُوَ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تَحْتَجُّوا فِي أَصْلٍ مِنْ أُصُول الدِّين ، وَإِضْلَال جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً - بِأَخْبَارِ الْآحَادِ الَّتِي لَا يَحْتَجُّونَ هُمْ بِهَا فِي الْفُرُوعِ الْعِلْمِيَّةِ ؟ ! ". انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٣/ ٤٥٦) .

وقال أيضاً : " ...الثَّانِي : إِنَّ هَذَا مِنْ أَخْبَـــارِ الْآحَادِ ، فَكَيْفَ يَثْبُتُ بِهِ أَصْلُ الدِّين الَّذِي لَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ ؟ " . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٤/ ٩٥) .

[٣] : ويقول ابن تيمية عن المتكلِّمين : " ... وَدَخَلُوا فِي بَعْضِ الْبَاطِلِ الْمُبْتَدَعِ ، وَأَخْرَجُوا مِنَ التَّوْحِيدِ مَا هُوَ مِنْهُ كَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَإِثْبَاتِ حَقَائِقِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوا مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَّا تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ .

وَهَذَا التَّوْحِيدُ كَانَ يُقِرُّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَنْهُمْ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[لقمان: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[المؤمنون: ٨٦ – ٨٧] ، وَقَالَ عَنْهُمْ : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يُوسُفَ: ١٠٦] قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : يَقُولُ لَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ فَيَقُولُونَ : اللهُ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ. وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ الْعِبَادَ هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ ، الْمُتَضَمِّنُ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِأَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً ، فَيَكُونُ الدِّين كُلُّهُ للهِ ... " . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٣/ ٢٨٩-٢٩٠) .

[٤] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " أنَّ أهل الكلام أهل بدع وضلالات ، لا يعدُّون عند الجميع من طبقات العلماء " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ٥١) .

[٥] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " في كلامهم عن المتكلِّمين : " أنَّ مذهبهم مع كونه فاسداً في نفسه ، مخالفاً للعقول ، وهو أيضاً مخالف لدين الإسلام !!! والكتاب !!! والرَّسول !!! وللسَّلف كلّهم !!! ويذكرون في كتبهم أنَّهم مخالفون للسَّلف ، ثمَّ مع هذا راجت بدعتهم على العالم والجاهل ، حتَّى طبقت مشارق الأرض ومغاربها .

وأنا أدعوك إلى التَّفكُّر في هذه المسألة ، وذلك أنَّ السَّلف قد كثر كلامهم ، وتصانيفهم في أصول الدِّين ، وإبطال كلام المتكلِّمين ، وتفكيرهم ، وممَّن ذكر هذا من متأخِّري الشَّافعيَّة : البيهقي ، والبغوي ، وإسماعيل التَّيمي ، ومن بعدهم ، كالحافظ الذَّهبي ؛ وأمَّا متقدِّموهم : كابن سريج ، والدَّارقطني ، وغيرهما ، فكلُّهم على هذا الأمر ؛ ففتِّش في كتب هؤلاء ، فإن أتيتني بكلمة واحدة أنَّ منهم رجلاً واحداً لم ينكر على المتكلِّمين ، ولم يكفِّرهم !!! فلا تقبل منِّي شيئاً أبداً ؛ ومع هذا كلِّه ، وظهوره غاية الظُّهور ، راج عليكم حتَّى ادَّعيتم أنَّ أهل السُّنَّة هم المتكلِّمون ؛ والله المستعان " .

انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ٥٢-٥٣) .

[٦] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " في كلامهم عن الجوارح التي سمُّوها صفات : " فمن أنكر الصِّفات ، فهو معطِّل ، والمعطِّل شرٌّ من المشرك ؛ ولهذا كان السَّلف ، يُسمُّون التَّصانيف ، في إثبات الصِّفات : كتب التَّوحيد ، وختم البخاري صحيحه بذلك ، قال: كتاب التَّوحيد ؛ ثمَّ ذكر الصِّفات ، باباً ، باباً .

فنكتة المسألة : أنَّ المتكلِّمين يقولون : التَّوحيد لا يتمُّ إلَّا بإنكار الصِّفات ، فقال أهل السُّنَّة : لا يتمُّ التَّوحيد إلَّا بإثبات الصِّفات ، وتوحيدكم ، هو التَّعطيل ؛ ولهذا آل هذا القول ببعضهم إلى إنكار الرَّبِّ تبارك وتعالى ، كما هو مذهب ابن عربي ، وابن الفارض ، وفئام من النَّاس ، لا يحصيهم إلَّا الله !!!

فهذا بيان لقولك : هل مراده الصِّفات ؟ أو الأفعال ؟ فبيَّن السَّلف : أنَّ العبادة إذا كانت كلّها لله عن جميع المخلوقات ، فلا تكون إلَّا بإثبات الصِّفات ، والأفعال ؛ فتبيَّن أنَّ منكر الصِّفات ، منكرٌ لحقيقة الألوهيَّة !!! لكن لا يدري ؛ وتبيَّن لك أنَّ من شهد أن لا إله إلَّا الله ، صدقاً من قلبه ، لا بدَّ

أن يثبت الصِّفات ، والأفعال ، ولكن العجب العجاب : ظنَّ إمامُهم الكبير ، أنَّ الألوهيَّة ، هي القدرة ، وأنَّ معنىٰ قولك : لا إله إلَّا الله ، أي : لا يقدر علىٰ الخلق إلَّا الله ! " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ١١٣-١١٤) .

[٧] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : "... ولذلك ضلَّ من ضلَّ من المتكلِّمين في إثبات وجود الرَّبّ !!! ووجود ذاته !!! وقال بنفي الصِّفات ؛ بناء علىٰ أنَّ الكلِّي لا يتقيَّد ، ولا يتخصَّص بصفة من الصِّفات ؛ وهذا من أكبر قواعدهم ، وإفكهم الذي جرَّ إليهم الكفر الجلي !!! وجحد ما في الكتاب والسُّنَّة من الصِّفات !!! وكلام السَّلف في تكفيرهم وتضليلهم موجود مشهور !!! لا نطيل بذكره ، فمن أقلِّ ما قيل فيهم ، قول محمَّد بن إدريس الشَّافعي : حكمي في أهل الكلام : أن يُضربوا بالجريد والنِّعال ، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة ، وأقبل علىٰ علم الكلام ... انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (٢/ ٣٣٤) ، وكلام الشافعي أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص٧٨) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ١١٦) ، الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٩) ، ابن حجر العسقلاني في توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس (ص١٢٩) ، ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢١) ، ابن عبد البر في الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم ،(ص٨٠) .

[٨] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " وقال أبو العبَّاس ابن تيمية ، في الرَّدِّ علىٰ المتكلِّمين ، لما ذكر بعض أحوال أئمَّتهم ، قال : وكلُّ شرك في العالم ، إنَّما حدث برأي جنسهم ؛ فهم الآمرون بالشِّرك !!! والفاعلون له !!! ومن لم يأمر منهم بالشِّرك ، فلم ينه عنه ، بل يقرُّ هؤلاء وهؤلاء !!! وإن رجَّح الموحِّدين ترجيحاً ما ، فقد يرجِّح غيره المشركين ، وقد يعرض عن الأمرين جميعاً ، فتدبَّر هذا ، فإنَّه نافع جداً .

ولهذا كان رؤساؤهم المتقدِّمون والمتأخِّرون ، يأمرون بالشِّرك !!! وكذلك الذين كانوا في ملَّة الإسلام لا ينهون عن الشِّرك ، ويوجبون التَّوحيد ، بل يسوِّغون الشِّرك ، أو يأمرون به ، أو لا يوجبون التَّوحيد ، وقد رأيت من مصنَّفاتهم ، في عبادة الملائكة ، وعبادة الأنفس المفارقة ، وأنفس الأنبياء ، وغيرهم ، ما هو أصل الشِّرك ، وهم إذا ادَّعوا التَّوحيد ، إنَّما توحيدهم بالقول ، لا بالعبادة والعمل " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (٢/ ٣٣٤) .

[٩] : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " نقلاً عن ابن تيمية : " وقال أيضاً في أثناء كلامه علىٰ المتكلِّمين ومن شاكلهم ، لما ذكر عن أئمَّتهم شيئاً من أنواع الرِّدَّة ، والكفر ، قال رحمه الله : وهذا إذا كان في المقالات الخفيَّة ، فقد يقال : إنَّه فيها مخطئٌ ضالٌّ ، لم تقم عليه الحجَّة ، التي يكفر صاحبها ؛ لكن ذلك يقع في طوائف منهم ، في الأمور الظَّاهرة ، التي يعلم المشركون واليهود والنَّصارىٰ ، أنَّ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بها ، وكفر من خالفها ، مثل : أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهيه عن عبادة أحد سواه ، من النَّبيين والملائكة وغيرهم ؛ فإنَّ هذا أظهر شرائع الإسلام . ثمَّ تجد كثيراً من رؤوسهم وقعوا في هذه الأنواع ، فكانوا مرتدِّين ؛ وكثير منهم ، تارة يرتدُّ عن الإسلام ردَّة صريحة !!! وتارة يعود إليه مع مرض في قلبه ونفاق !!! والحكاية عنهم في ذلك مشهورة . وقد ذكر ابن قتيبة من ذلك طرفاً في أوَّل مختلف الحديث ؛ وأبلغ من ذلك : أنَّ منهم من صنَّف في الردَّة ، كما صنَّف الرَّازي في عبادة الكواكب ، وهذه ردَّة عن الإسلام باتفاق المسلمين . هذا لفظه بحروفه . فانظر كلامه في التَّفرقة بين المقالات الخفيَّة ، وبين ما نحن فيه ، في كفر المعيَّن ، وتأمَّل تكفيره رؤوسهم ، فلاناً وفلاناً بأعيانهم ، وردَّتهم ردَّة صريحة ، وتأمَّل تصريحه بحكاية الإجماع !!! علىٰ ردَّة الفخر الرَّازي عن الإسلام ، مع كونه عند علمائكم من الأئمَّة الأربعة ... " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١٠/ ٧١-٧٢) .

رَابِعَاً : تَكْفِيْرُ مُدَّعِي السَّلفيَّة لِلْمتَوَسِّلِيْن إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْن :

وبيان ذلك في النِّقاط التَّالية :

[١] : اعتبروا التَّوسُّل ضربٌ من ضروب الشِّرك ، فقد جاء في كتاب " فتح المجيد " : " وكلّ من دعا نبيَّاً أو وليَّاً من دون الله ، فقد اتَّخذه إلهاً وضاهأ النَّصارىٰ في شركهم ، وضاهأ اليهود في تفريطهم . فإنَّ النَّصارىٰ غلوا في عيسىٰ - عليه السَّلام - واليهود عادوه ، وسبُّوه ، وتنقَّصوه . فالنَّصارىٰ أفرطوا ، واليهود فرَّطوا " . انظر : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٢١٩) .

[٢] : حَكَمَ عالمُهم أبو بكر جابر الجزائري علىٰ المتوسِّلين بالأنبياء والصَّالحين في دعائهم الله تعالىٰ بالكفر والخلود في النَّار ، فقال : " إنَّ دعاء الصَّالحين والاستغاثة بهم ، والتوسُّل بجاههم ، لم يكن

في دين الله تعالىٰ قُربة ، ولا عملاً صالحاً فيتوسَّل به أبداً ، وإنَّما كان شركاً في عبادة الله ، محرَّماً ، يخرجُ فاعله من الدِّين !!! ويوجب له الخلود في جهنَّم " . انظر : عقيدة المؤمن (ص١٤٤) .

وقال عالمهم محمَّد أحمد باشميل : " أبو جهل وأبو لهب أكثر توحيداً وأخلص إيماناً بالله من المسلمين الذين يقولون الشَّهادتين ، لأنَّهم يتوسَّلون بالأولياء ... انظر : كيف أفهم التوحيد (ص١٦) .

[٣] : قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي (١٢٨٥هـ) : " ... وتأمَّل ما في هذه الأحاديث الصَّحيحة من تعظيم النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربّه بذكر صفات كماله علىٰ ما يليق بعظمته وجلاله ، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصِّفات التي تدلُّ علىٰ عظمته ، وتأمَّل ما فيها من إثبات علوّ الله تعالىٰ علىٰ عرشه " . انظر : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٥١١) .

[٤] : اعتبر الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب أهل زمانه مشركين لأنَّهم يتوسَّلون إلىٰ الله تعالىٰ بالأنبياء والمرسلين ، قال : " ... أنَّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يدعون الله ويدعون غيره في الرَّخاء ، وأمَّا في الضَّرَّاء والشدَّة فلا يدعون إلَّا الله وحده لا شريك له !!! وينسون ساداتهم ، تبيَّن له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأوَّلين " . انظر : كشف الشبهات (ص٣٤) .

[٥] : زعم محمَّد بن عبد الوهَّاب أنَّ الاعتقاد في الصَّالحين : توسُّلاً ، وتبرُّكاً ، عبادة للأصنام ، من فعله كفر ، وتبرَّأ منه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٧٨) .

[٦] : قال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ) : " ... ثمَّ تغيَّرت الأحوال ، وغلب الجهل علىٰ أكثر الخلق ، حتَّىٰ عاد الأكثرون إلىٰ دين الجاهليَّة !!! بالغلوِّ في الأنبياء والأولياء ، ودعائهم ، والاستغاثة بهم ، وغير ذلك من أنواع الشِّرك ، ولم يعرفوا معنىٰ لا إله إلا الله كما عرف معناها كفَّار العرب !!! فالله المُستعان . ولم يزل هذا الشِّرك يفشو في النَّاس إلىٰ عصرنا هذا بسبب غلبة الجهل وبُعد العهد بعصر النُّبوَّة " .

[٧] : قال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز أيضاً : " أمَّا المشركون المتأخِّرون فزادوا على الأوَّلين من جهتين ، إحداهما : شركُ بعضهم في الرُّبوبيَّة ، والثَّانية : شركُهم في الرَّخاء والشدَّة ، كما يعلم ذلك من خالطهم وسبر أحوالهم " .

[٨] : قال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز أيضاً : " ونسأله سبحانه أن يردَّهم إلى رشدهم ، وأن يكثر بينهم دعاة الهدى ، وأن يوفِّق قادة المسلمين وعلماءهم لمحاربة هذا الشِّرك والقضاء عليه ووسائله ، إنَّه سميعٌ قريبٌ " . انظر : مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز (١/ ٢٤) ، (١/ ٢٦) ، (١/ ٢٧) ، بالترتيب .

[٩] : قال المدعو محمَّد بن جميل زينو : الشِّرك في العبادة والدُّعاء : وهو أن يعبد ويدعو مع الله غيره من الأنبياء والصَّالحين ، كالاستغاثة بهم ودعائهم عند الشَّدائد أو الرَّخاء ، وهذا مع الأسف كثير في هذه الأُمَّة ، ويحمل وزره الأكبر بعض المشايخ الذين يؤيِّدون هذا النَّوع من الشِّرك باسم التَّوسُّل ، يُسمُّونه بغير اسمه ، لأنَّ التَّوسُّل طلب من الله بغير واسطة ، وهذا الذي يفعلونه طلبٌ من غير الله ، كقولهم : " المدد يا رسول الله " .

[١٠] : قال دعيُّ العلم زينو أيضاً : " يفيدُ هذا الحديث : أنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا للأعمى وهو حيٌّ ، فاستجاب الله دعاءه ، وأمره أن يدعو لنفسه ، ويتوجَّه إلى الله بدعاء نبيِّه ، فقبل الله منه ، وهذا دعاء خاصٌّ في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا يمكن الدُّعاء بعد الوفاة ، لأنَّ الصَّحابة لم يفعلوه ، ولم يستفد منه العميان بعد هذه الحادثة " .

[١١] : قال دعيُّ العلم زينو أيضاً : " التَّوسُّل الممنوع : هو الذي لا أصل له في الدِّين ، وهو أنواع : التَّوسُّل بالأموات ، وطلب الحاجات منهم والاستعانة بهم ، كما هو واقع اليوم ويسمُّونه توسُّلاً ، وليس كذلك ، لأنَّ التوسُّل هو الطَّلب من الله بواسطة مشروعة كالإيمان ، والعمل الصَّالح ، وأسماء الله الحسنى ، ودعاء الأموات إعراض عن الله ، وهو من الشِّرك الأكبر !!! لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس: ١٠٦] ، الظَّالمين : المشركين .

أمَّا التَّوسُّل بجاه الرَّسول كقولك : " يا رب بجاه محمَّد اشفني " ، فهو بدعة ، لأنَّ الصَّحابة لم يفعلوه ، ولأنَّ عمر الخليفة توسَّل بالعبَّاس حيّاً بدعائه ، ولم يتوسَّل بالرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته عندما طلب نزول المطر ، وحديث : " توسَّلوا بجاهي " لا أصل له ، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية ، وهذا التَّوسُّل البدعي قد يؤدِّي للشِّرك " . انظر : منهاج الفرقة الناجية (ص٣٦) ، (ص٤٦) ، (ص٤٦-٤٧) ، بالترتيب .

[١٢] : قال المدعو أحمد بن حجر آل بن علي : " فالعلماء إزاء هذه البدع والشِّركيَّات !!! أصناف ثلاثة : صنفٌ يؤيِّد تلك البدع والخزعبلات ويدعو إليها ، وقد يكتب وينشر في تأييد مذهبه ، جهلاً أو طلباً لمصلحة دنيويَّة . وصنفٌ يعرف الحقَّ ، وأنَّ ما عليه جمهور النَّاس !!! باطلٌ وضلالٌ ، لكنه يساير العامَّة وأشباههم ، خوفاً أو طمعاً . وصنفٌ ينكرُ ذلك ، ويدعو النَّاس إلىٰ ترك تلك المحدثات ، ويرشدهم إلىٰ التَّوحيد والتَّمسُّك بالسُّنَّة المطهَّرة ، وقليل ما هم " .

[١٣] : قال المدعو أحمد بن حجر آل بن علي أيضاً : " عدم ثبوت التَّوسُّل عن النَّبي وأصحابه ، ولذا لم يثبت التَّوسُّل عن الأنبياء بعضهم ببعض ، كما لم يثبت التَّوسُّل عن الصَّحابة بالرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يثبت عن التَّابعين ، ولا عن الأئمَّة الأربعة ، ولا غيرهم ممَّن يعتدّ بهم " .

[١٤] : قال المدعو أحمد بن حجر آل بن علي أيضاً : " لو تدبَّر هؤلاء المبتدعون تلك الآيات والأحاديث ، وراجعوا تفاسير الأئمَّة المحقِّقين لتلك الآيات ، وشروح تلك الأحاديث ؟ لعلموا أنَّ توسُّلاتهم بالرَّسول ، أو بالأنبياء والصَّالحين ليس لها أصل في الدِّين ، بل هي بدعة ضلالة ، وأنَّ الاستغاثة والاستعانة بهم من الشِّرك والكفرُ المُبين " . انظر : تطهير الجنان (القواعد الأربع ، منهج السالكين) (ص١٠-١١) ، (ص٤٠) ، (ص٥٢) ، بالترتيب .

[١٥] : اعتبر أتباع محمَّد بن عبد الوهَّاب التَّبرُّك والتَّوسُّل بقبور الأنبياء والصَّالحين حرامٌ ونوعٌ من الشِّرك ، وذلك لأنَّه إثبات تأثير شيء لم ينزل الله به سلطاناً ، ولم يكن من عادة السَّلف الصَّالح أن يفعلوا مثل هذا التبرُّك ، فيكون من هذه النَّاحية بدعة أيضاً ، وإذا اعتقد المتبرِّك أنَّ لصاحب

القبر تأثيراً أو قدرة على دفع الضَّرر أو جلب النَّفع كان ذلك شركاً أكبر إذا دعاه لجلب المنفعة أو دفع المضرَّة ". انظر : مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٢/ ٢٤٩) .

[١٦] : وصف الشَّيخ ابن باز المستغيثين ، والمتوسِّلين إلى الله تعالى بالأنبياء والأولياء ، بأنَّهم مشركون كفرة لا تجوز مناكحتهم ، ولا دخولهم المسجد الحرام ، ولا معاملتهم معاملة المسلمين ، ولو ادَّعوا الجهل !!! ولا يلتفت إلى كونهم جُهَّالاً ، بل يجب أن يُعاملوا معاملة الكفَّار " . انظر : فتاوى في العقيدة ، ابن باز ، رسائل إرشادية لرئاسة الحرس الوطني ، ١٩١ ، (ص١٣) .

[١٧] : قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي النَّجدي (١٢٠٦هـ) : " فإنَّ أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرُّسل ، يصدُّون بها النَّاس عنه ، منها قولهم : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنَّه لا يخلق ولا يرزق ، ولا ينفع ولا يضرُّ إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأَنَّ محمَّداً – عليه السَّلام – لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ، فضلاً عن عبد القادر أو غيره ولكن أنا مذنب ، والصَّالحون لهم جاه عند الله وأطلب من الله ، فجاوبه بما تقدَّم وهو : إنَّ الذين قاتلهم رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مقرُّون بما ذكرت ، ومقرُّون أنَّ أوثانهم لا تدبِّر شيئاً ، وإنَّما أرادوا الجاه والشَّفاعة ... " . انظر : كشف الشبهات (ص١٧–١٨) .

[١٨] : قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي النَّجدي أيضاً : " ... فإذا تحقَّقت أنَّهم مقرُّون بهذا ولم يدخلهم في التَّوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... وتحقَّقت أنَّ رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قاتلهم ليكون الدُّعاء كلّه لله ، والنَّذر كلّه لله ، والاستغاثة كلّها بالله ، وجميع أنواع العبادات كلّها لله . وعرفت أنَّ إقرارهم بتوحيد الرُّبوبيَّة لم يدخلهم في الإسلام ، وأنَّ قصدهم الملائكة ، والأنبياء ، والأولياء ، يريدون شفاعتهم ، والتقرُّب إلى الله بذلك ، هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم . عرفت حينئذ التَّوحيد الذي دعت إليه الرُّسل وأبى عن الإقرار به المشركون " . انظر : كشف الشبهات (ص٦–٧) .

خَامِسَاً : تَكْفِيْرُ الوَهَّابِيَّة لِلصُّوْفِيَّة :

من المعلوم أنَّ بعضاً ممَّن لا خلاق له اتَّهم ساداتنا الصُّوفيَّة بما هم منه براء ... فقد اتَّهموا الإمام الأكبر ببعض العقائد الباطلة الكفريَّة ، مثل : الاتِّحاد والحلول ، والمساواة بين الخالق والمخلوق ، وأنَّ الرَّبَّ ربٌّ والعبدّ ربٌّ ، ... وقاموا بربط هذه العقائد الباطلة الكفريَّة بالتَّصوُّف والصُّوفيَّة ...

قال المدعو الدكتور محمَّد بن ربيع هادي المدخلي ، المدرس بالجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة : " الصُّوفيَّة قد لعبت دوراً كبيراً في حياة المسلمين منذ القرن الثَّالث الهجري إلىٰ يومنا هذا ، وقد بلغت أوج مجدها في القرون المتأخِّرة . وقد أثَّرت تأثيراً بالغاً في عقائد المسلمين وغيَّرتها عن مسارها الصحيح الذي جاء به القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة ، وكان ذلك هو أخطر جانب من جوانب الصُّوفيَّة ، حيث اقترن بالفكر الصُّوفيِّ التعلُّق بالأولياء والمشايخ ، والمبالغة في تقديس الأموات ، كما اقترن بها القول بالحلول ووحدة الوجود ، إضافة إلىٰ ما أفسدت الصُّوفيَّة من الجوانب الأخرىٰ . حيث يتَّسم أتباعها بالتَّواكل والرَّهبنة ، كما أنها عطَّلت الرُّوح الجهاديَّة في الأُمَّة الإسلاميَّة " . انظر : حقيقة الصوفية في ضوء الكتاب والسُّنَّة (ص١٠) .

وقال المدخلي أيضاً : " المذهب الثَّالث : القول بوحدة الوجود : وهو يقرِّر أنَّ الموجود واحد في الحقيقة ، وكلُّ ما نراه ليس إلا تعيّنات للذَّات الإلهيَّة . وزعيم هذه الطَّائفة ابن عربي الحاتمي الطَّائي المدفون بدمشق والمتوفَّىٰ سنة (٦٣٨هـ) ، ويقول في ذلك في كتابه " الفتوحات المكيَّة " :

العبد ربٌّ والرَّبُّ عبدٌ ... يا ليت شعري من المكلَّف

إن قلت عبدٌ فذاك حقٌّ ... أو قلت ربٌّ أنَّىٰ يُكلَّف

ويقول أيضاً في الفتوحات : " إنَّ الذين عبدوا العجل ما عبدوا غير الله " . وابن عربي هذا يلقِّبه الصُّوفيَّة بالعارف بالله ، والقطب الأكبر ، والمسك الأذفر ، والكبريت الأحمر ، مع قوله بوحدة الوجود وغيرها من الطَّامات ، فإنه يمدح فرعون ويحكم بأنَّه مات علىٰ الإيمان . ويذمُّ هارون علىٰ إنكاره علىٰ قومه عبادة العجل مخالفاً بذلك نصَّ القرآن ، ويرىٰ أنَّ النَّصارىٰ إنما كفروا لأنهم خصَّصوا عيسىٰ بألوهيَّة ، ولو عمَّموا لما كفروا " . انظر : حقيقة الصوفية في ضوء الكتاب والسُّنَّة (ص١٨) .

ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ الإمام ابن تيمية اعترف بالدَّسِّ في كتب السَّادة الصُّوفيَّة ، وفي ذلك قال : " نَعَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الْعَارِفِينَ بِاَللَّهِ الْمُحِبِّينَ لَهُ مِنْ مَقَامَاتِ الْقُرْبِ ؛ وَمَنَازِلِ الْيَقِينِ مَا لَا تَكَادُ تُحِيطُ بِهِ الْعِبَارَةُ وَلَا يَعْرِفُهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ إلَّا مَنْ أَدْرَكَهُ وَنَالَهُ ؛ وَالرَّبُّ رَبٌّ ، وَالْعَبْدُ عَبْدٌ ، لَيْسَ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ؛ وَلَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ : وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِاَللَّهِ يَعْتَقِدُ حُلُولَ الرَّبِّ تَعَالَى بِهِ ؛ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا اتِّحَادَهُ بِهِ . وَإِنْ سَمِعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ . فَكَثِيرٌ مِنْهُ مَكْذُوبٌ اخْتَلَقَهُ الْأَفَّاكُونَ مِنْ الِاتِّحَادِيَّةِ المباحية ؛ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ وَأَلْحَقَهُمْ بِالطَّائِفَةِ النَّصْرَانِيَّةِ . وَاَلَّذِي يَصِحُّ مِنْهُ عَنْ الشُّيُوخِ لَهُ مَعَانٍ صَحِيحَةٌ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٧٤) .

ومع ذلك فما زال المتسلفة يرمون الإمام الأكبر ابن عربي باعتقاده بالحلول والاتِّحاد ، وغير ذلك من العقائد الكفريَّة ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

وقال الشَّيخ ابن باز أيضاً : " ... فإنَّ الصُّوفيَّة في الغالب طريقتهم هي البدع والخرافات ، وكثير منهم يعبدُ شيخه من دون الله !!! ويستغيث به ، وينذر له ، ويطلب منه المدد حيَّاً وميتاً ، وأحوالهم خطيرة ، والنَّاجي منهم قليل ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٦/ ٣٣٣) .

فالشَّيخ ابن باز يصف طريقة الصُّوفيَّة بأنَّها قائمة علىٰ البدع والخرافات ، وهذه شنشنة نعرفها من أخزم ، لأنَّ من المعلوم أنَّ المتسلِّفة لا يرعوون عن تبديع عموم الأُمَّة المحمَّديَّة ، حتَّىٰ صار التَّبديع سَنَناً وطريقاً لهم في كلامهم مع غيرهم ، مع أنَّهم لم يدركوا معنىٰ البدعة أو أنَّهم يَغضُّونَ الطَّرفَ عن المعنىٰ الصَّحيح للبدعة احتراماً لرأي شيخ إسلامهم الذي علَّمهم ...

وقال الشَّيخ ابن باز : " أمَّا قول الصُّوفيَّة : (الله الله) ، أو (هو هو) ، فهذا من البدع ، ولا يجوز التقيُّد بذلك ؛ لأنَّه لم ينقل عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا عن أصحابه رضي الله عنهم فصار بدعة ؛ لقول النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ " ، وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٨/ ٣٩٩) . والحديث أخرجه أحمد في المسند ، (٦/ ٢٧٠ برقم ٢٦٨٦٠) ، مسلم (٣/ ١٣٤٣) ، ابن ماجه (١/ ٧ برقم ١٤) ، ابن حبَّان في الصحيح (١/ ٢٠٨ برقم ٢٦) ، الدارقطني في السنن (٥/ ٤٠٢ برقم ٤٥٣٤) ، الشهاب القضاعي في المسند (١/ ٢٣١ برقم ٣٥٩) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ٢٥٢ برقم ٢٠٥٣٦) ، السنن الصغير (٤/ ١٣١ برقم ٣٢٥٣) .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة :" السُّؤال التَّاسع من الفتوىٰ رقم (٦٢٥٠) : س٩ : في الحيِّ الذي أسكن فيه يوجد مسجد ، وتوجد زاوية تابعة لطريقة صوفيَّة ، هل تجوز الصَّلاة في هذه الزَّاوية ؟ ج٩ : لا تصلِّ مع هؤلاء الصُّوفيَّة في زاويتهم ، واحذر صحبتهم والاختلاط بهم !!! لئلَّا يصيبك ما أصابهم ، وتحرَّ الصَّلاة في مسجد جماعة يتحرَّون السُّنَّة ويحرصون عليها . وبالله التَّوفيق ، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : السُّؤال الأوَّل والثَّاني والثَّالث من الفتوىٰ رقم (١٧٨١١) : " ... وما عرف التَّخذيل عن طلب العلم بهذه الحجَّة الداحضة إلَّا من قبل الصُّوفيَّة الضُّلَّال !!! فالواجب عدم الالتفات لهذا التَّخذيل ، والإقبال علىٰ طلب العلم النَّافع . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء .

هذا هو ما قالته اللجنة الدَّائمة ... وقد نسيت أو تناست أنَّ أشهر علماء الأمَّة كانوا من الصُّوفيَّة ... وقد ترجم الإمام الذَّهبي لعشرات منهم ، كما صنَّف الإمام محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن موسىٰ بن خالد بن سالم النَّيسابوري ، أبو عبد الرَّحمن السُّلمي المتوفَّىٰ سنة (٤١٢هـ) مصنَّفاً سمَّاه : " طبقات الصُّوفيَّة " ، وصنَّف الإمام المناوي كتاباً بعنوان : " الكواكب الدُّرِّيَّة في تراجم السَّادة الصُّوفيَّة " ، وصنَّف الإمام أبو سعيد النقّاش الحنبلي كتاباً بعنوان : " طبقات الصُّوفيَّة " ، وصنَّف الإمام الحكيم التِّرمذي كتاباً بعنوان : " طبقات الصُّوفيَّة ، وصنَّف الإمام ابن الملقِّن الشَّافعي كتاباً بعنوان : " طبقات الصُّوفيَّة " ...

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة :" السُّؤال الخامس من الفتوىٰ رقم (٢١٧٦٨) : س٥ : ترديد الذِّكر جماعة وبصوت واحد هل هذا من مذهب الصُّوفيَّة أم مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ؟ ج ٥ : الذِّكر الجماعيُّ بدعة ؛ لأنَّه مُحدث وقد قال النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ " ، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : " كلُّ محدثة بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة " ، والمشروع ذكر الله تعالىٰ بدون صوت جماعي . وبالله التَّوفيق ، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم .

اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة :" ... وأمَّا الأذكار التي وضعها أئمَّة الصُّوفيَّة ، فالغالب عليها أنَّها تشتمل علىٰ أذكار غير مشروعة ، أو أذكار شركيَّة ، مثل: التَّوسُّل بالمخلوقين ، أو الاستعانة بهم من دون الله عزَّ وجلَّ ... " . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة :" ... أنَّ التَّصوُّف نِحلة مبتدعة في الإسلام ، وكلُّ بدعة ضلالة ، وقد يؤول بأصحابه إلىٰ الشِّرك والكفر بالله !!! إذا وصل إلىٰ الغلوِّ في المشائخ ، وأنَّهم ينفعون أو يضرُّون من دون الله ، أو الاستعانة بالأموات والذَّبح لهم ، أو اعتقاد أنَّ أصحاب الطُّرق الصُّوفيَّة يتلقون دينهم من الله مباشرة ، فلا حاجة بهم إلىٰ اتباع الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويشرعون لأتباعهم عبادات وأذكاراً ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد قال النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ " ، فلا تجوز مصاحبة الصُّوفيَّة ، ولا حضور مجالسهم ، ولا يجوز إكرامهم وتشجيعهم ، بل يجب الإنكار عليهم ، ومنعهم من مزاولة أعمالهم الصُّوفيَّة ونشرها بين النَّاس !!! ويجب هجرهم والتَّحذير منهم . وبالله التَّوفيق ، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم .

اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة :" ... ومن اعتنق مذهب الصُّوفيَّة فقد فارق مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ... " . فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " ... الطُّرق الصُّوفيَّة طرقٌ مخالفةٌ لهدي النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والواجب الاقتداء بالنَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع سنَّته ، والابتعاد عمَّا خالف هديه وسُنَّته ؛ لأنَّه بدعة وكلُّ بدعة ضلالة "

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " ... الغالب علىٰ الصُّوفيَّة في هذا الزَّمان أنها طائفة ضالَّة ، لها منهج في العبادة يخالف ما جاء به الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدائمة :" ... والطُّرق الصُّوفيَّة جميعها أو ما يُسمَّىٰ بالتَّصوُّف الآن يغلب عليها العمل بالبدع الشِّركيَّة والذَّرائع الموصلة إليها والمعتقدات الفاسدة ، ومخالفة الكتاب والسُّنَّة ، كالاستغاثة بالأموات ... " .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " ... اعتقاد أنَّ الدَّعاء يُستجاب عند القبور بدعة لا أصل لها في الشَّرع المطهَّر ، وقد تؤول بصاحبها إلىٰ الشِّرك الأكبر إذا دعا المقبور من دون الله أو معه ، أو اعتقد النَّفع والضُّرَّ في المقبور ، فإنَّ النَّافع الضَّارَّ هو الله سبحانه . وكذلك اعتقاد أنَّ الزَّاهد العابد لا يموت بل ينتقل من مكان إلىٰ مكان أخر ، وأنه يقضي حاجات النَّاس في قبره ، كما كان يقضي حاجاتهم في حياته ، اعتقاد فاسد من معتقدات الصُّوفيَّة المنحرفة !!! ولا دليل علىٰ ذلك ، بل دلَّت الآيات والأحاديث الصَّحيحة علىٰ أنَّ كلَّ إنسان في هذه الدُّنيا يموت ، قال الله تعالىٰ :﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥] الآية . كما دلَّت الأحاديث الصَّحيحة أنَّ الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية ، وأنَّ الميِّت في قبره لا يملك لنفسه ضرَّاً ولا نفعاً ، ومن كانت هذه حاله فإنَّه لا يملك ذلك لغيره من باب أولىٰ ، ولا يجوز طلب قضاء الحاجات إلا من الله وحده فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وطلبها من الأموات شركٌ أكبر ، ومن اعتقد غير ذلك فقد كَفر كُفراً أكبر يُخرجه من الملَّة ، والعياذ بالله " .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " ... هذه الضَّلالات المذكورة ليست صادرة عن المدَّعين للتَّصوُّف ، بل هي صادرة عن أئمَّة الصُّوفيَّة المنحرفين ، كابن عربي ، والحلَّاج ، والرِّفاعي ، وابن الفارض ، والشَّعراني في (طبقاته) ، والسَّهروردي في (عوارفه) ، وعبد الكريم الجيلي في (الإنسان الكامل) ، وغيرهم من أقطاب الصُّوفيَّة ، كما هو موجود في كتبهم . ودعوىٰ أنها مدسوسة عليهم دعوىٰ بلا دليل ، وكيف تكون مدسوسة عليهم ، وأتباعهم الآن يطبعون هذه الكتب ويتداولونها

ويطبِّقونها في أعمالهم التَّعبديَّة ليلاً ونهاراً " . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٢/ ١١٠ الفتوىٰ رقم (٢/ ٣٠١)، (١٢/ ٩٧ من الفتوىٰ رقم (١٧٨١١)، (٢٤/ ٢٦٨)، (٢٤/ ٢٩٠)، (١/ ٤٦٢ من الفتوىٰ رقم (٢٠٢٣٥)، (٢/ ٧٨ الفتوىٰ رقم (١٦٠١١)، (٢/ ٨٥ الفتوىٰ رقم (١٦٨٦٢)، (٢/ ٨٦ الفتوىٰ رقم (١٧٥٥٨)، (٢/ ٨٩ الفتوىٰ رقم (١٩٥٢١)، (٢/ ١٠٠ الفتوىٰ رقم (٢٠٢٣٤)، (٢/ ١٠٨ الفتوىٰ رقم ٢١١١٩)، بالترتيب .

وقال المدعو عمر محمود : " فالصُّوفيَّة مذهبٌ دخيلٌ ليس من الإسلام في شيء ، وهو ديانة مستقلَّة !!! ليس لها وجه قُربة مع الإسلام ، لا في أُصولها ، ولا في فروعها ، فهي لها عقائد خاصَّة بها !!! وأركان عبادات كذلك ، وشرح هـذا الامر يطول جداً " . انظر : ملاحظات علىٰ البيجوري في شرحه جوهرة التوحيد (ص ٧٧) .

وفي كتابهم المُسمَّىٰ : " إعصارُ التَّوحيد " ، كفَّروا الصُّوفيَّة ، وأهل الطُّرق ، وأهل البلاد الإسلاميَّة ، كأهل مصر ، وليبيا ، والمغرب العربي ، والهند ، وفارس ، وآسيا الغربيَّة ، وبلاد الشَّام ، ونيجيريا ، وتركيا ، والبلاد الروميَّة ، والأفغانيَّة ، وبلاد تركستان الصينيَّة ، والسودان ، وتونس ، ومراكش ، والجزائر ... انظر : إعصار التوحيد يحطّم وثن الصُّوفيّة ، عبد العزيز بن باز واللّجنة الدّائمة للإفتاء ، جمع وترتيب : نبيل محمود ، دار القاسم ، ١٤١٨هـ .

سَادِسَاً : تَكْفِيْرُ الوهَّابِيَّة لِلعُثْمَانِيِّيْن :

ما من أحد ينكر ما للعثمانيين من أيادٍ بيضاء علىٰ الإسلام والمسلمين ، فقد قدَّموا العديد العديد من الخدمات الجليلة للإسلام والمسلمين ، وامتدَّت الفتوحات في زمانهم حتَّىٰ شملت أصقاعاً عديدة انتشرت في ثلاث قارات ، هي آسيا ، وأوروبا ، وإفريقية ، بحيث وصلت مساحتها حوالي ٢٠ مليون كيلو متر مربَّع ، وهم أوَّل من وصل من المسلمين بقوَّاته إلىٰ الأراضي الأوروبيَّة حتَّىٰ وقفوا علىٰ أبواب فيينا وحاصروها أكثر من مرَّة ... هذا بالإضافة إلىٰ حمايتهم للمشرق العربي من الحملات الاستعماريَّة المتكرِّرة ، وكذا حفاظهم علىٰ المقدَّسات الإسلاميَّة من المخطَّطات الصَّليبيَّة في أوائل القرن السَّادسَ عَشَرَ الميلادي ... كما منع العثمانيُّون نشر المذهب الشِّيعي في الولايات العربيَّة ، وحصروا المذهب الشِّيعي في بلاد فارس ... هذا بالإضافة إلىٰ حدِّهم من هجرة اليهود إلىٰ فلسطين ، وقيامهم بنشر الإسلام في ربوع أوروبا ... ومع جليل وجميل الجهود العثمانيَّة في خدمة

الإسلام والمسلمين أبىٰ البعض إلا أن يتنكَّب الطَّريق ، فسعىٰ في تشويه المسيرة العثمانيَّة في عالم الإسلام من خلال تشويه التَّاريخ العثماني ، وإخفاء الجوانب المشرقة في تاريخهم المكلل بالانتصارات والتَّضحيات التي استمرَّت نحو ستَّة قرون خطَّها سلاطينهم ابتداء بعثمان الأوَّل وانتهاءاً ببايزيد ، وقد تمكَّنوا بقيادة البطل محمَّد الفاتح من اختراق عاصمة الدَّولة الرومانيَّة (القسطنطينيَّة) ، لتصبح فيما بعد عاصمة الخلافة الإسلاميَّة ... فذهب البعض إلىٰ تكفير العثمانيين الموحِّدين بلا ذنب ولا سبب ... فقد جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " فمن لم يكفر المشركين من الدَّولة التُّركيَّة ، وعبَّاد القبور ، كأهل مكَّة وغيرهم ، ممَّن عبد الصَّالحين ، وعدل عن توحيد الله إلىٰ الشِّرك ، وبدَّل سنَّة رسوله ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بالبدع ، فهو كافر مثلهم ، وإن كان يكره دينهم ، ويبغضهم ، ويحبُّ الإسلام والمسلمين ، فإنَّ الذي لا يكفِّر المشركين ، غير مصدِّق بالقرآن ، فإنَّ القرآن قد كفَّر المشركين ، وأمر بتكفيرهم ، وعداوتهم ، وقتالهم ... وبهذا يتبيَّن لك : أنَّ جهاد أهل حائل ، من أفضل الجهاد ، ولكن لا يرىٰ ذلك إلَّا أهل البصائر " . انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٩/ ٢٩١-٢٩٢) .

وجاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " وسئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، عمَّن لم يكفِّر الدولة، ومن جرَّهم علىٰ المسلمين، واختار ولايتهم وأنَّه يلزمهم الجهاد معه؛ والآخر لا يرىٰ ذلك كلّه، بل الدَّولة ومن جرَّهم بغاة، ولا يحلُّ منهم إلَّا ما يحل من البغاة، وأنَّ ما يغنم من الأعراب حرام ؟

فأجاب: من لم يعرف كفر الدَّولة، ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين، لم يعرف معنىٰ لا إله إلَّا الله،؛ فإن اعتقد مع ذلك: أنَّ الدَّولة مسلمون، فهو أشدّ وأعظم، وهذا هو الشَّكّ في كفر من كفر بالله، وأشرك به؛ ومن جرَّهم وأعانهم علىٰ المسلمين، بأي إعانة، فهي ردَّة صريحة " . انظر : الدرر السنية (١٠/ ٤٢٩) .

وفي رسالة من عبد الطيف بن عبد الرَّحمن إلىٰ الشَّيخ حمد بن عتيق رحمه الله بشأن استعانة عبد الله بن فيصل الإمام في ذلك الوقت بالعثمانيين ضدَّ أخيه سعود بن فيصل لَمَّا تغلب عليه الأخير في

معركة (جودة) في حوادث عام (١٢٨٩هـ) تقريباً قال فيها: ": " و " عبد الله " له بيعة، وولاية شرعيَّة في الجملة.

ثمَّ بعد ذلك بدا لي منه : أنَّه كاتب الدَّولة الكافرة الفاجرة !!! واستنصرها، واستجلبها علىٰ ديار المسلمين، فصار كما قيل:

والمستجير بعمرو عند كربته　　كالمستجير من الرَّمضاء بالنَّار

فخاطبته شفاها بالإنكار والبراءة، وأغلظت له بالقول: إنَّ هذا هدم لأصول الإسلام، وقلع لقواعده، وفيه وفيه وفيه، ممَّا لا يحضرني تفصيله الآن، فأظهر التَّوبة والنَّدم، وأكثر الاستغفار؛ وكتبت علىٰ لسانه لوالي بغداد؛ أنَّ الله قد أغنىٰ ويسَّر، وانقاد لنا من أهل نجد والبوادي، ما يحصل به المقصود، إن شاء الله تعالىٰ، ولا حاجة لنا بعساكر الدَّولة، وكلام من هذا الجنس، وأرسل الخطَّ فيما أرىٰ، وتبرَّأ ممَّا جرىٰ ... " . انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٣٩١-٣٩٢) .

وقال في دخول العثمانيين للجزيرة عام (١٢٩٨هـ) : " فمن عرف هذا الأصل الأصيل، عرف ضرر الفتن الواقعة في هذه الأزمان، بالعساكر التُّركيَّة، وعرف أنَّها تعود علىٰ هذا الأصل الأصيل بالهدِّ والهدم، والمحو بالكليَّة، وتقتضي ظهور الشِّرك والتَّعطيل، ورفع أعلامه الكفريَّة، وأنَّ مرتبتها من الكفر، وفساد البلاد والعباد، فوق ما يتوهَّمه المتوهِّمون، ويظنُّه الظَّانُّون ". انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٣٢٢-٣٢٣) .

وقال الشَّيخ عبد الله بن عبد الرَّحمن أبا بطين : " لأنَّ عمارة هذه المشاهد الشِّركيَّة، أكثرها من تحت أيدي ولاة الأمور، وأهل الدُّنيا، ووافقهم علىٰ ذلك، وزيَّنه لهم بعض علماء السُّوء؛ وبسبب ذلك: استحكم الشَّر، وتزايد، والشّر في زيادة، والخير في نقصان.

وفي حديث عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " هلكت بنو إسرائيل علىٰ يدي قرَّائهم وفقهائهم، وستهلك هذه الأمَّة علىٰ يدي قرائها وفقهائها "؛ فما أصدق قول عبد الله بن المبارك، رحمه الله تعالىٰ:

وهل أفسد الدِّين إلَّا الملوك　　وأحبارُ سوء ورهبانها

وممَّا يبيِّن لك عدم الاغترار بالكثرة، أنَّ أكثر هذه الأمصار التي ذكرت، مخالفون للصَّحابة والتَّابعين، وأئمَّة الإسلام - خصوصاً الإمام أحمد ومن وافقه - في صفات الرَّبِّ تبارك وتعالىٰ، يتأوَّلون أكثر الصِّفات، بتحريف الكلم عن مواضعه ... " . انظر : الدرر السنيَّة (١٠/ ٣٩٧) .

وجاء في رسالة موجَّهة إلىٰ سليمان باشا والي بغداد من قِبَلِ الدَّولة العثمانيَّة : " فشعائر الكفر بالله، والشِّرك به، هي الظَّاهرة عندكم، مثل بناء القباب علىٰ القبور، وإيقاد السُّرج عليها، وتعليق السُّتور عليها، وزيارتها بما لم يشرعه الله ورسوله، واتِّخاذها عيداً ، وسؤال أصحابها قضاء الحاجات، وتفريج الكُربات، وإغاثة اللهفات، هذا مع تضييع فرائض الله التي أمر الله بإقامتها، من الصَّلوات الخمس، وغيرها، فمن أراد الصَّلاة صلَّىٰ وحده، ومن تركها لم ينكر عليه، وكذلك الزَّكاة ؛ وهذا أمر قد شاع وذاع، وملأ الأسماع، في كثير من بلاد الشَّام، والعراق، ومصر، وغير ذلك من البلدان... فانظر إلىٰ تصريح هؤلاء الأئمَّة، بأن هذه الأعمال الشِّركيَّة، قد عمَّت بها البلوىٰ، وشاعت في كثير من بلاد الشَّام وغيرها، وأنَّ الإسلام قد اشتدَّت غربته، حتَّىٰ صار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؛ وأنَّ هذه المشاهد، والأبنية التي علىٰ القبور، قد كثرت، وكثر الشِّرك عندها وبها، حتَّىٰ صار كثير منها، بمنْزلة اللات والعزَّىٰ، ومناة الثَّالثة الأخرىٰ، بل أعظم شركاً عندها وبها، وهذا ممَّا يُبطل قولكم: إنَّكم علىٰ الفطرة الإسلاميَّة، والاعتقادات الصَّحيحة، ويبيِّن أنَّ أكثركم قد فارق ذلك، ونبذه وراء ظهره، وصار دينه الشِّرك بالله، ودعاء الأموات، والاستغاثة بهم، وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الكُربات، والتَّمسُّك بالبدع المحدثات...

وأمَّا قولكم: فنحن مسلمون حقَّاً، وأجمع علىٰ ذلك أئمَّتنا أئمَّة المذاهب الأربعة، ومجتهدو الدِّين والملَّة المحمَّديَّة. فنقول: قد بينَّا من كلام الله، وكلام رسوله، وكلام أتباع الأئمَّة الأربعة، ما يدحض حجَّتكم الواهية، ويبطل دعواكم الباطلة، وليس كلُّ من ادَّعىٰ دعوىٰ، صدقها بفعله ...

وحالكم، وحال أئمَّتكم، وسلاطينكم تشهد بكذبكم وافترائكم في ذلك. وقد رأينا لَمَّا فتحنا الحجرة الشَّريفة، علىٰ ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، عام اثنين وعشرين، رسالة لسلطانكم: سليم، أرسلها ابن عمِّه، إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغيث به، ويدعوه، ويسأله النَّصر

علىٰ الأعداء، من النَّصارىٰ وغيرهم؛ وفيها من الذُّلِّ، والخضوع، والعبادة، والخشوع، ما يشهد بكذبكم ...

فإذا كان هذا حال خاصَّتكم، فما الظَّن بفعل عامَّتكم، وقد رأينا من جنس كلام سلطانكم، كتباً كثيرة، في الحجرة، للعامَّة والخاصَّة، فيها من سؤال الحاجات، وتفريج الكُربات، ما لا نقدر علىٰ ضبطه ... فإن كنتم صادقين في دعواكم أنَّكم علىٰ ملَّة الإسلام، ومتابعة الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاهدموا تلك الأوثان كلّها، وسوُّوها بالأرض، وتوبــوا إلىٰ الله، من جميع الشِّرك والبدع، وحقِّقوا قول: لا إله إلَّا الله، محمَّد رسول الله.

ومن صرف من أنواع العبادة شيئا لغير الله، من الأحياء والأموات، فانهوه عن ذلك، وعرِّفوه أنَّ هذا مناقض لدين الإسلام، ومشابهة لدين عبَّاد الأصنام؛ فإن لم ينته عن ذلك، إلَّا بالمقاتلة، وجب قتاله، حتَّىٰ يجعل الدِّين كلّه لله؛ وقوموا علىٰ رعاياكم بالتزام شعائر الإسلام وأركانه، من إقام الصَّلاة جماعة في المساجد؛ فإن تخلَّف أحد، فأدّبوه، وكذلك: الزَّكاة التي فرض الله، تؤخذ من الأغنياء، وتردُّ علىٰ أهلها الذين أمر الله بصرفها إليهم. فإذا فعلتم ذلك فأنتم إخواننا، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، يحرم علينا دماؤكم وأموالكم. وأمَّا إن دمتم علىٰ حالكم هذه، ولم تتوبوا من الشِّرك، الذي أنتم عليه، وتلتزموا دين الله الذي بعث الله به رسوله، وتتركوا الشِّرك والبدع والمحدثات، لم نزل نقاتلكم، حتَّىٰ تراجعوا دين الله القويم، وتسلكوا صراطه المستقيم، كما أمرنا الله بذلك ... " . انظر : الدرر السنيَّة (١/ ٢٩٣-٣١٢ باختصار) .

وكتب حفيد محمَّد بن عبد الوهَّاب الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمَّد بن عبد الوهَّاب رسالة في بيان كفر التُّرك وحرمة موالاتهم عنوانها: "الدَّلائل في حكم موالاة أهل الإشراك"... قال الشَّيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري : " نبين لكم سبب تصنيف "الدَّلائل"، فإنَّ الشَّيخ سليمان، صنَّفها لَمَّا هجمت العساكر التُّركيَّة علىٰ نجد في وقته، وأرادوا اجتثاث الدِّين من أصله !!! وساعدهم جماعة من أهل نجد، من البادية والحاضرة، وأحبُّوا ظهورهم.

وكذلك: سبب تصنيف الشَّيخ حمد بن عتيق "سبيل النَّجاة " هو لَمَّا هجمت العساكر التُّركيَّة على بلاد المسلمين، وساعدهم من ساعدهم، حتَّى استولوا على كثير من بلاد نجد. فمعرفة سبب التَّصنيف ممَّا يُعين على فهم كلام العلماء، فإنَّه بحمد الله ظاهر المعنى؛ فإنَّ المراد به موافقة الكفَّار على كفرهم، وإظهار مودَّتهم، ومعاونتهم على المسلمين، وتحسين أفعالهم، وإظهار الطَّاعة والانقياد لهم على كفرهم ... " . انظر : الدرر السنيَّة (٩/ ١٥٦-١٥٧باختصار) .

ولذلك فإنَّ المقصود بألفاظ : عبَّاد القباب والقبور ، وجنود الشِّرك ، وأهل الشِّرك ... الواردة في كتاب " الدَّلائل " لا يعنون بها إلَّا الأتراك ...

وممَّا جاء في كتاب " الدَّلائل في حكم موالاة أهل الإشراك " : " اعلم رحمك الله: أنَّ الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم: خوفاً منهم، ومداراة لهم ومداهنة؛ لدفع شرِّهم. فإنَّه كافر مثلهم ، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم، ويحبُّ الإسلام والمسلمين. هذا إذا لم يقع منه إلَّا ذلك. فكيف إذا كان في دار منعة، واستدعى بهم، ودخل في طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنُّصرة والمال ، ووالاهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين، وصار من جنود الشِّرك والقباب وأهلها، بعدما كان من جنود الإخلاص والتَّوحيد وأهله. فإنَّ هذا لا يشكّ مسلم أنَّه كافر، من أشدِّ النَّاس عداوة لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ولا يستثنى من ذلك إلَّا المكره " .
انظر : الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (ص٢٩) ، مكتبة دار الهداية، الرياض .

وجاء فيه أيضاً : " فكيف بأهل البلدان: الذين كانوا على الإسلام، فخلعوا ربقته من أعناقهم، وأظهروا لأهل الشِّرك الموافقة على دينهم، ودخلوا في طاعتهم، وآووهم ونصروهم، وخذلوا أهل التَّوحيد، واتَّبعوا غير سبيلهم، وخطئوهم، وظهر فيهم: سبّهم ، وشتمهم ، وعيبهم، والاستهزاء بهم، وتسفيه رأيهم ـ في ثباتهم على التَّوحيد والصَّبر عليه، وعلى الجهاد فيه ـ وعاونوهم على أهل التَّوحيد طوعاً لا كرهاً، واختياراً لا اضطراراً . فهؤلاء أولى بالكفر والنَّار من الذين تركوا الهجرة شحّاً بالوطن، وخوفاً من الكفَّار، وخرجوا في جيشهم مكرهين خائفين " . انظر : الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (ص٣٦) .

وجاء فيه أيضاً : " ... فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم في هذه الفتنة سواء بسواء؛ فإنَّهم قبل هذه الفتنة يعبدون الله علىٰ حرف. أي: علىٰ طرف. ليسوا ممَّن يعبد الله علىٰ يقين وثبات. فلمَّا أصابتهم هذه الفتنة، انقلبوا عن دينهم وأظهروا موافقة المشركين، وأعطوهم الطَّاعة، وخرجوا عن جماعة المسلمين إلىٰ جماعة المشركين. فهم معهم في الآخرة، كما هم معهم في الدُّنيا. فخسروا الدُّنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين " . انظر : الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (ص٤٨) .

وجاء فيه أيضاً : " ثم قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة:٥٥] ، فأخبر تعالىٰ – خبراً بمعنىٰ الأمر – : بولاية الله ورسوله والمؤمنين، وفي ضمنه النَّهي عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

ولا يخفي: أي الحزبين أقرب – إلىٰ الله ورسوله وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة – . أهل الأوثان والقِباب والقحاب واللواط والخمور والمنكرات، أم أهل الإخلاص وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ... !!!؟ فالمتولِّي لضدِّهم: واضع للولاية في غير محلّها، مستبدل بولاية الله ورسوله والمؤمنين المقيمين للصَّلاة المؤتين الزَّكاة ولاية أهل الشِّرك والأوثان والقِباب " . انظر : الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (ص٥٥) .

وجاء في " عيون الرَّسائل والأجوبة علىٰ المسائل " : " من عبد اللطيف بن عبد الرَّحمن إلىٰ الإخوان المكرَّمين من أهل الحوطة – سلَّمهم الله تعالىٰ وهداهم – سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: ... وقد أناخ بساحتكم من الفتن والمحن ما لا نشكوه إلَّا إلىٰ الله، فمن ذلك: الفتنة الكبرىٰ والمصيبة العظمىٰ؛ الفتنة بعساكر المشركين !!! أعداء الملَّة والدِّين !!! وقد اتَّسعت وأضرَّت، ولا ينجو المؤمن منها إلَّا بالاعتصام بحبل الله، وتجريد التَّوحيد، والتَّحيُّز إلىٰ أولياء الله وعباده المؤمنين، والبراءة كلّ البراءة ممَّن أشرك، وعدل به غيره، ولم ينزِّهه ممَّا انتحله المشركون، وافتراه المكذِّبون " . انظر : عيون الرسائل والأجوبة علىٰ المسائل (٢/ ٩٤٠-٩٤١) ، مكتبة الرشد ، الرياض .

وذكرت جريدة السَّفير أنَّ الأستاذ محمَّد حسنين هيكل كشف عن وثيقة فيها أنَّ أحد كبار زعماء الوهَّابيَّة ، يقول : لا ينبغي أن يكون هناك قتال بين أخيار المسلمين ، أي : الوهابيِّين إلَّا مع المشركين

والكفَّار ، وأوَّل الكفَّار المشركين هم : الأتراك العثمانيُّون ، وأيضاً الأشراف الهاشميُّون ، وباختصار كلُّ المحمَّديين فيما عدا الوهابيِّين . انظر : جريدة السفير الصادرة يوم السبت بتاريخ ٣٠ حزيران سنة ٢٠٠١ ، (ص١١) .

وأخيراً ... فقد تمَّت مناقشتهم في جميع المسائل التي تقدَّم ذكرها ... في كتابنا : " تَكْفِيْرُ الوَهَّابِيَّةِ لِعُمُوْمِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّة" ، وكتابنا : " إِتْحَافُ العَالَمِيْن بِمَشْرُوْعِيَّةِ التَّوَسُّل إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْن" ، ولله الحمد والفضل والمنَّة ...

الفَصْلُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُوْن

بِدْعَةُ اعْتِقَادِهُم بِتَحْرِيْمِ شَّدَّ الرَّحْل لِزِيَارَةِ قَبْرِ الرَّسُوْلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْتِبَارِهِ مَعْصِيَة لَا تُقْصَرُ فِيْهَا الصَّلَاة

من يتتبَّعُ فتاوىٰ الوهَّابيَّة ومفردات منهجهم المتعلِّق بسيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يعلم أنَّ في قلوبهم شيء منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال الإمام التَّقي الحصني في كلامه عن ابن تيمية : " ... وهذا وغيره يدلُّ علىٰ أنَّ عنده ضغينة للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولصاحبيه ، وكذا لأُمَّته ، ليفوِّت عليهم هذا الخير الذي رتَّبه علىٰ زيارة قبره عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ، فاحذروه ، واحذروا تزويق مقالته المطوي تحتها أخبث الخبائث ، فإنَّها لا تجوز إلَّا علىٰ عاميٍّ أو بليد الذّهن كالحمار يحمل أسفاراً " . انظر : دفع شبه من شبَّه وتمرَّد ونسب ذلك إلىٰ السيِّد الجليل الإمام أحمد (ص١١٢) .

وتالياً ذكرٌ لبعض مواقفهم المشينة بحقِّ سيِّد وأفضل الخلق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَوَّلاً : حَرَّمُوا شَّدَّ الرَّحْل لِزِيَارَةِ قَبْرِ الرَّسُوْلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْتَبَرُوْهُ مَعْصِيَة لَا تُقْصَرُ فِيْهَا الصَّلَاة "

من المعلوم أنَّ زيارة قبر النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَّة من السُّنن ، مُجمَعٌ عليها ، ومرغَّب فيها ، حتَّىٰ أنَّ الحجَّاج كانوا ولا زالوا إذا قضوا حجَّهم توجَّهوا لزيارته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وحتىٰ المعتمرين ... يدفعهم الشَّوق والمحبَّة لزيارته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فيقطعون آلاف الكيلومترات ، ويُنفقون نفيس المال ، لزيارة قبره الشَّريف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والدُّعاء بحضرته ، والتَّوسُّل إلىٰ الله تعالىٰ به ... ولم يُخالف في ذلك إلَّا نفرٌ يسير ، جعلوا من شدِّ الرِّحال لزيارته بدعة ومعصية لا تُقصر فيها الصَّلاة ...

فقد جاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " السُّؤال الثَّالث من الفتوىٰ (٤٢٣٠) :

س٣: هل تجوز نيَّة السَّفر إلىٰ زيارة قبور الأنبياء والصَّالحين مثل نبيِّنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره ، وهل هذه الزِّيارة شرعيَّة أم لا ؟

ج٣: لا يجوز شدُّ الرِّحال لزيارة قبور الأنبياء والصَّالحين وغيرهم ، بل هو بدعة ، والأصل في ذلك قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَىٰ ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ " . أخرجه البخاري (٢/ ٦٠ برقم ١١٨٩) ، مسلم (٢/ ١٠١٤ برقم ١٣٩٧) .

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " . أخرجه مسلم (٣/ ١٣٤٣ برقم ١٧١٨) .

وأمَّا زيارتهم دون شدِّ رحال فسُنَّة ؛ لقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " زُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُم الآخِرَة " . خرَّجه مسلم في صحيحه . (قلت: لم يخرجه مسلم بهذا اللفظ ، وإنما خرَّجه بلفظ : " فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ " . انظر صحيح مسلم (٢/ ٦٧١ برقم ٩٧٦) ، وأخرجه باللفظ الذي ذكرته اللجنة الدَّائمة : ابن ماجة (١/ ٥٠٠ برقم ١٥٦٩) .

وبالله التَّوفيق . وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم . اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة ، المجموعة الأولىٰ (١/ ٤٣٠-٤٣١) .

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدَّائمة : " السُّؤال السَّابع من الفتوىٰ رقم (١٠٧٦٨) : س٧: هل يلزم الحجَّاج من رجال ونساء زيارة قبر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والبقيع ، وأُحُد ، وقباء ، أم الرِّجال فقط ؟

ج٧: لا يلزم الحجَّاج رجالاً ونساء زيارة قبر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا البقيع ، بل يحرم شدُّ الرِّحال إلىٰ زيارة القبور مطلقاً ، ويحرم ذلك علىٰ النِّساء ولو بلا شدِّ رحال ؛ لقول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَىٰ ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ" . متَّفق عليه ، ولأنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لعن زائرات القبور " .

أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٧١ برقم ٢٠٣٠) ، قال الأرنؤوط : " حسن لغيره دون ذِكر السُرج، وهذا إسناد ضعيف، أبو صالح: واسمه باذام، وهو مولىٰ أم هانئ، ضعيف ضعفه أبو حاتم والنسائي والعقيلي وابن عدي وابن الجارود وأبو أحمد الحاكم وابن حبان وغيرهم، وأخطأ ابن حبان، فجزم في "صحيحه" (٣١٧٩) أنه: ميزان البصري الثقة المأمون، ولم يتابَع. وسيأتي ذكر شواهده والكلام عليه عند الحديث (٢٦٠٣) . وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٦ و٣/ ٣٤٤ عن وكيع، بهذا الإسناد. وأخرجه الحاكم ١/ ٣٧٤ من طريق يحيىٰ القطان، به. وأخرجه الطيالسي (٢٧٣٣) ، وأبو داود (٣٢٣٦) ، والحاكم ١/ ٣٧٤، والبيهقي ٤/ ٧٨ من طرق عن شعبة، به. وأخرجه ابن ماجه (١٥٧٥) ، والترمذيَ (٣٢٠) ، والنسائي ٤/ ٩٤-٩٥، وابن حبان (٣١٧٩) و (٣١٨٠) ، والبغوي (٥١٠) من طريق عبد الوارث بن سعيد، عن محمَّد بن جحادة، به".

ويكفي النِّساء أن يصلين في المسجد النَّبويِّ ، ويكثرن من الصَّلاة والسَّلام على الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد وغيره .

وبالله التَّوفيق . وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّد ، وآله وصحبه وسلَّم .اللجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء . انظر : فتاوىٰ اللجنة الدائمة ، المجموعة الأولىٰ (١/ ٤٣١) .

وقال الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ) : " ... وقد وردت أحاديث صحيحة في الحثِّ علىٰ زيارة القبور عامَّة للعبرة والاتِّعاظ والدُّعاء للميت . أمَّا الأحاديث الواردة في زيارة قبر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصَّة فكلُّها ضعيفة كما تقدَّم ، بل قيل إنَّها موضوعة ، (ابدأ الكلام ليس صحيحاً ... فبمجموع الأحاديث الواردة في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام يحصل القوة ... قال أبو الحسنات محمَّد عبد الحي اللكنوي في التعليق الممجد علىٰ موطأ محمد: " قوله: وما يستحب من ذلك، أي من زيارة قبره اختلف فيه بعد ما اتفقوا علىٰ أن زيارة قبره (صلىٰ الله عليه وسلم) من أعظم القربات وأفضل المشروعات ومن نازع في مشروعيته فقد ضل وأضل، فقيل: إنه سنة ذكره بعض المالكية وقيل: إنه واجب وقيل قريب من الواجب، وهو في حكم الواجب مستدلا بحديث "من حج ولم يزرني فقد جفاني" أخرجه ابن عدي والدارقطني وغيرهما وليس بموضوع كما ظنه ابن الجوزي وابن تيمية بل سنده حسن عند جمع وضعيف عند جمع وقيل: إنه مستحب بل أعلىٰ المستحبات وقد ورد في فضله أحاديث فمن ذلك "من زار قبري وجبت له شفاعتي". أخرجه الدارقطني وابن خزيمة وسنده حسن، وفي رواية الطبراني "من جاءني زائرا لا تعلمه حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا". وعند ابن أبي الدنيا عن أنس: من زارني محتسبا كنت له شفعيا وشهيدا. وأكثر طرق هذه الأحاديث وأن كانت ضعيفة لكن بعضها سالم عن الضعف القادح وبالمجموع يحصل القوة كما حققه الحافظ ابن حجر في "التلخيص الحبير" والتقي السبكي في كتابه "شفاء السقام في زيارة خير الأنام" وقد أخطأ بعض معاصريه وهو ابن تيمية حيث ظن أن الأحاديث الواردة في هذا الباب كلها ضعيفة بل موضوعة وقد ألفت في هذا البحث رسائل علىٰ رغم أنف المعاند الجاهل حينما ذهب بعض أفاضل عصرنا إلىٰ مكة ورجع من غير زيارة مع

استطاعته وألف ما لا يليق ذكره فالله يصلحنا ويصلحه ويوفقنا ويوفقه" . انظر : موطأ الإمام مالك مع التعليق الممجد على موطأ محمَّد ، عبد الحي اللكنوي (٣/ ٤٨١-٤٨٢) ، دار السنة والسيرة ، بومباي ، دار القلم ، دمشق .)

فمن رغب في زيارة القبور أو في زيارة قبر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام زيارة شرعيَّة للعبرة والاتِّعاظ ، والدُّعاء للميِّت ، والصَّلاة على النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والتَّرضِّي عن صاحبيه من دون أن يشدّ الرِّحال لها ، وينشئ سفراً لذلك ، فزيارته مشروعة ، ويرجى له فيها الأجر .

وأمَّا من شدَّ لها الرِّحال أو زارها يرجو بركتها والانتفاع بها ، أو جعل لزيارتها مواعيد خاصَّة فزيارته مبتدعة !!! لم يصح فيها نصٌّ ، ولم تعرف عن سلف هذه الأمَّة ، بل وردت النُّصوص بالنَّهي عنها كحديث : " لا تشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى " رواه البخاري ومسلم ، وحديث : " لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ " رواه محمَّد بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله في كتابه " الأحاديث المختارة " ، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم ". انظر : مجموع فتاوى عبد العزيز بن باز (١٧/ ٤١٨-٤١٩) ، والحديث أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٢/ ٤٩ برقم ٤٢٨، وقال : فِي إِسْنَاده لين) .

قلت : وما قاله ابن باز وابن عثيمين وغيرهم من المتسلِّفة هو بعض ممَّا علَّمهم إيَّاه ابن تيمية ، لأنَّهم لايحيدون عمَّا قاله قيْد أُنملة ... ومن المعلوم أن محمَّد بن عبد الوهاب لا يحيد عمَّا قاله ابن تيمية قيد أنمله وكذا أتباعه من المتسلِّفة ... قال مفتي الحنابلة بمكة المتوفَّى سنة (١٢٩٥هـ) الشَّيخ محمَّد بن عبد الله النجدي الحنبلي في كتابه "السُّحب الوابلة على ضرائح الحنابلة" في ترجمة والد محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان ما نصّه : "وهو والد محمَّد صاحب الدَّعوة التي انتشر شررها في الآفاق، لكن بينهما تباين مع أنَّ محمدًا لم يتظاهر بالدَّعوة إلَّا بعد موت والده، وأخبرني بعض من لقيته عن بعض أهل العلم عمَّن عاصر الشَّيخ عبد الوهَّاب هذا أنَّه كان غضبان على ولده محمَّد لكونه لم يرض أن يشتغل بالفقه كأسلافه وأهل جهته ، ويتفرَّس فيه أن يحدث منه أمر، فكان يقول للنَّاس: يا ما ترون من محمَّد من الشَّر، فقدَّر الله أن صار ما صار، وكذلك ابنه سليمان أخو الشَّيخ محمَّد كان منافيًا له في دعوته ، وردَّ عليه ردًا جيِّداً بالآيات والآثار ، لكون المردود عليه لا يقبل

سواهما ، ولا يلتفت إلى كلام عالم متقدِّمًا أو متأخِّراً كائناً من كان غير الشَّيخ تقي الدِّين بن تيمية وتلميذه ابن القيِّم ، فإنَّه يرى كلامهما نصَّاً لا يقبل التَّأويل ، ويصول به على النَّاس وإن كان كلامهما على غير ما يفهم، وسمَّى الشَّيخ سليمان ردَّه على أخيه "فصل الخطاب في الرَّد على محمَّد بن عبد الوهاب" وسلّمه الله من شرِّه ومكره ، مع تلك الصَّولة الهائلة التي أرعبت الأباعد، فإنَّه كان إذا باينه أحد وردَّ عليه ولم يقدر على قتله مجاهرة يُرسل إليه من يغتاله في فراشه أو في السَّوق ليلا لقوله بتكفير من خالفه !!! واستحلاله قتله !!! وقيل إنَّ مجنونًا كان في بلدة ومن عادته أن يضرب من واجهه ولو بالسَّلاح، فأمر محمَّد أن يعطى سيفًا ويدخل على أخيه الشَّيخ سليمان وهو في المسجد وحده، فأدخل عليه فلمّا رءاه الشَّيخ سليمان خاف منه فرمى المجنون السَّيف من يده وصار يقول: يا سليمان لا تخف إنَّك من الآمنين ويكرِّرها مراراً، ولا شكَّ أنَّ هذه من الكرامات ". انظر : السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ،محمد بن عبد الله بن حميد النجدي الحنبلي (ص٢٧٥-٢٧٦) ، مكتبة الإمام أحمد ،ط١ ، ١٩٨٩م .

فَقَد صَرَّح ابن تيمية بأنَّ السَّفر لزيارة قبر نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكذا غيره من الأنبياء والصَّالحين ، غلط ... فيقول : " ... وَهَذَا ظَنَّ أَنَّ السَّفَرَ إِلَى زِيَارَةِ نَبِيِّنَا كَالسَّفَرِ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَهُوَ غَلَطٌ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا: أَنَّ مَسْجِدَهُ عِنْدَ قَبْرِهِ ، وَالسَّفَرَ إلَيْهِ مَشْرُوعٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ ؛ بِخِلَافِ غَيْرِهِ .

وَالثَّانِي : أَنَّ زِيَارَتَهُ كَمَا يُزَارُ غَيْرُهُ مُمْتَنِعَةٌ ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الْإِنْسَانُ إلَى مَسْجِدِهِ وَفِيهِ يَفْعَلُ مَا شُرِعَ لَهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ لَوْ كَانَ قَبْرُ نَبِيِّنَا يُزَارُ كَمَا تُزَارُ الْقُبُورُ لَكَانَ أَهْلُ مَدِينَتِهِ أَحَقَّ النَّاسِ بِذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ كُلِّ مَدِينَةٍ أَحَقُّ بِزِيَارَةِ مَنْ عِنْدَهُمْ مِنْ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ السَّلَفُ وَأَئِمَّةُ الدِّين عَلَى أَنَّ أَهْلَ مَدِينَتِهِ لَا يَزُورُونَ قَبْرَهُ ، بَلْ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَهُ لِلسَّلَامِ إذَا دَخَلُوا الْمَسْجِدَ وَخَرَجُوا . وَإِنْ لَمْ يُسَمَّى هَذَا زِيَارَةً بَلْ يُكْرَهُ لَهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِ السَّفَرِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مَالِكٌ وَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَفْعَلُونَهُ : عُلِمَ أَنَّ مَنْ جَعَلَ زِيَارَةَ قَبْرِهِ مَشْرُوعَةً كَزِيَارَةِ قَبْرِ غَيْرِهِ ، فَقَدْ خَالَفَ إجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ " . انظر : مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٤٣) .

واعتبر ابن تيمية زيارة قبر الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيارة بدعيَّة ، فقال : " وَأَمَّا الزِّيَارَةُ الْبِدْعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا أَنْ يُطْلَبَ مِنَ الْمَيِّتِ الْحَوَائِجُ أَوْ يُطْلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءُ وَالشَّفَاعَةُ أَوْ يُقْصَدُ الدُّعَاءُ عِنْدَ قَبْرِهِ لِظَنِّ الْقَاصِدِ أَنَّ ذَلِكَ أجوب لِلدُّعَاءِ .

فَالزِّيَارَةُ عَلَىٰ هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا مُبْتَدَعَةٌ لَمْ يَشْرَعْهَا النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا فَعَلَهَا الصَّحَابَةُ لَا عِنْدَ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عِنْدَ غَيْرِهِ ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِ الشِّرْكِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٦٦) ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص٣٤-٣٥) .

وقال أيضاً : " وأمَّا الزِّيارة المبتدعة التي هي من جنس زيارة المشركين ، فمقصودهم بها طلب الحوائج من الميِّت أو الغائب ". انظر : الردُّ علىٰ المنطقيين (ص٥٣٦) .

هذا ما قاله ابن تيمية ، وهو فيما قال يُنكر أن يكون أحدٌ من العلماء قال بالتَّوسُّل في حالٍ من الأحوال .... وزاد ضغثاً علىٰ إبالة فزعم أنَّ التَّوسُّل بالأنبياء والصَّالحين بعد موتهم عند قبورهم من أعظم أنواع الشِّرك !!! فقال : " فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنْ خِطَابِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَفِي مَغِيبِهِمْ وَخِطَابِ تَمَاثِيلِهِمْ ، هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الْمَوْجُودِ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَفِي مُبْتَدِعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَحْدَثُوا مِنْ الشِّرْكِ وَالْعِبَادَاتِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ تَعَالَىٰ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٥٩) ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص٢٥) .

فابن تيمية الذي سُجن بإجماع من حضر من علماء الأُمَّة بسبب شذوذه وطامَّاته وأوابده التي ما سبقه إليها أحدٌ من العالمين ، ومات في السِّجن ... يَعتبر ويُصرِّح بأنَّ التَّوسُّل إلىٰ الله تعالىٰ بالأنبياء والصَّالحين من أعظم أنواع الشِّرك ، وأنَّه – أي التَّوسُّل – من العبادات المُستحدثة المُبتدعة التي لم يأذن بها الله ...

وهو بهذا يجعل المتوسِّلين بل يجعل عموم الأُمَّة من أُولئك المشركين الذين استحدثوا وابتدعوا عبادات لم يأذن بها الله تعالىٰ ... وكلامه هذا يصبُّ في مصبِّ : " رمتني بدائها وانسلَّت " ، لأنَّ ابن تيمية هو من قال وابتدع في العقيدة !!! أقوالاً لا ولم ولن يأذن بها الله تعالىٰ ، بل هي من الطامَّات

العقديَّة التي هي من بنات أفكاره ، أخذ بعضها من سموم الفلاسفة وتبنَّاها ، وتابعه عليها المتسلِّفة في أيَّامنا هذه ، وقد ذكر طامَّاته العقديَّة وغير العقديَّة غير واحد من العلماء ، ومن ذلك :

قال الإمام أبو الحسن تقيُّ الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي (٧٥٦هـ) : " ... وَهَذَا الرَّجُلُ كُنْت رَدَدْت عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ فِي إِنْكَارِهِ السَّفَرَ لِزِيَارَةِ الْمُصْطَفَىٰ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي إِنْكَارِهِ وُقُوعَ الطَّلَاقِ إذَا حُلِفَ بِهِ ، ثُمَّ ظَهَرَ لِي مِنْ حَالِهِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي نَقْلٍ يَنْفَرِدُ بِهِ لِمُسَارَعَتِهِ إِلَىٰ النَّقْلِ لِفَهْمِهِ ، كَمَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا فِي بَحْثٍ يُنْشِئُهُ لِخَلْطِهِ الْمَقْصُودَ بِغَيْرِهِ وَخُرُوجِهِ عَنْ الْحَدِّ جِدّاً ، وَهُوَ كَانَ مُكْثِراً مِنْ الْحِفْظِ ، وَلَمْ يَتَهَذَّبْ بِشَيْخٍ ، وَلَمْ يَرْتَضْ فِي الْعُلُومِ ، بَلْ يَأْخُذُهَا بِذِهْنِهِ مَعَ جَسَارَتِهِ وَاتِّسَاعِ خَيَالٍ وَشَغَبٍ كَثِيرٍ ، ثُمَّ بَلَغَنِي مِنْ حَالِهِ مَا يَقْتَضِي الْإِعْرَاضَ عَنْ النَّظَرِ فِي كَلَامِهِ جُمْلَةً .

وَكَانَ النَّـــــاسُ فِي حَيَاتِهِ ابْتُلُوا بِالْكَلَامِ مَعَهُ لِلرَّدِّ عَلَيْهِ ، وَحُبِسَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَوُلَاةِ الْأُمُورِ عَلَىٰ ذَلِكَ ثُمَّ مَاتَ " . انظر : فتاوىٰ السبكي (٢/ ٢١٠) .

وبسبب متابعة الجهَّال والعوام له ، سارع علماء عصره إلىٰ الرَّدِّ عليه وإبطال دعاويه ، ومحاجته ومناظرته ، فألجموه الحُجَّة ، وأقاموا عليه المحجَّة ، ومن هؤلاء الصِّيد الأفذاذ الأساطين : الإمام تقيُّ الدِّين علي ابن عبد الكافي السُّبكي (٧٥٦هـ) ، فقد قال ما نصّه : " أمَّا بعد ، فإنَّه لَمَّا أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد ، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد ، بعد أن كان مستتراً بتبعيَّة الكتاب والسُّنة ، مظهراً أنَّه داعٍ إلىٰ الحقِّ هادٍ إلىٰ الجنَّة ، فخرج عن الاتباع إلىٰ الابتداع ، وشذَّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع ، وقال بما يقتضي الجسميَّة والتَّركيب في الذَّات المقدَّس ، وأنَّ الافتقار إلىٰ الجزء ليس بمُحال ، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالىٰ ، وأنَّ القرآن مُحدَث تكلَّم الله به بعد أن لم يكن ، وأنَّه يتكلَّم ويسكت ، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلوقات ، وتعدَّىٰ في ذلك إلىٰ استلزام قِدَم العالم ، والتزامه بالقول بأنَّه لا أوَّل للمخلوقات ، فقال بحوادث لا أوَّل لها ، فأثبت الصِّفة القديمة حادثة ، والمخلوق الحادث قديماً ، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملَّة من الملل ، ولا نِحلة من النِّحل ، فلم يدخل في فرقة من الفِرَق الثَّلاث والسَّبعين التي افترقت

عليها الأُمَّة ، ولا وقفت به مع أُمَّة من الأُمم هِمَّة ، وكلّ ذلك وإن كان كُفراً شنيعاً ممَّا تَقِلُّ جملته بالنِّسبة لما أحدث في الفروع ، فإنَّ متلقِّي الأصول عنه وفاهم ذلك منه هم الأقلُّون ، والدَّاعي إليه من أصحابه هم الأرذلون ، وإذا حُوقِقوا في ذلك أنكروه ، وفرُّوا منه كما يفرُّون من المكروه ... " .

انظر : الدرّة المضية في الردِّ على ابن تيمية (ص٩٩-١٠٠) ، مطبوع ضمن " التوفيق الربَّاني في الردِّ على ابن تيمية الحراني " لجماعة من العلماء .

وقال عنه الإمام صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي (٧٦٤هـ) : " انفرد بمسائل غريبة ، ورجَّح فيها أقوالاً ضعيفة عند الجمهورُ معيبة . كاد منها يقع في هُوَّة ، ويسلم منها لما عنده من النيَّة المرجوَّة ، والله يعلم قصده ، وما يترجَّح من الأدلَّة عنده ، وما دمَّر عليه شيء كمسألة الزِّيارة ، ولا شنَّ عليه مثلها إغارة ، دخل منها إلى القلعة مُعتقَلاً ، وجفاه صاحبه وقلا ، وما خرج منها إلَّا على الآلة الحدبا ، ولا درج منها إلَّا إلى البقعة الحدبا " . انظر : أعيان العصر وأعوان النصر (١/ ٢٣٥) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " ... وَاتَّفقَ الشَّيخ نصر المنبجي كَانَ قد تقدَّم فِي الدَّولة لاعتقاد بيبرس الجاشنكير فِيهِ ، فَبلغهُ أَنَّ ابْن تَيْمِية يَقع فِي ابْن الْعَرَبِيّ ، لِأَنَّهُ كَانَ يعْتَقد أَنَّه مُسْتَقِيم ، وَأَنَّ الَّذِي ينْسب إِلَيْهِ من الِاتِّحَاد أَو الْإِلْحَاد من قُصُور فهم من يُنكر عَلَيْهِ ، فَأرْسل يُنكر عَلَيْهِ ، وَكتب إِلَيْهِ كتاباً طَويلاً ، وَنسبه وَأَصْحَابه إِلَى الِاتِّحَاد الَّذِي هُوَ حَقِيقَة الْإِلْحَاد ، فَعظم ذَلِك عَلَيْهِم ، وأعانه عَلَيْهِ قوم آخَرُونَ ضبطوا عَلَيْهِ كَلِمَات فِي العقائد مُغيرَة ، وَقعت مِنْهُ فِي مواعيده وفتاويه ، فَذكرُوا أَنَّه ذكر حَدِيث النُّزُول فَنزل عَن الْمِنْبَر دَرَجَتَيْنِ ، فَقَالَ : كنزولي هَذَا ، فنُسب إِلَى التَّجسيم . وردِّه على من توسَّل بِالنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَو اسْتَغَاثَ ، فأشخص من دمشق فِي رَمَضَان سنة خمس وَسَبْعمائة ، فَجرى عَلَيْهِ مَا جرى ، وَحبس مرَاراً ، فَأَقَامَ على ذَلِك نَحْو أَربع سِنِين أَو أَكثر ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك يشغل ويُفتي إِلَى أَن اتّفق أَنَّ الشَّيخ نصراً قَامَ على الشَّيخ كريم الدِّين الآملي شيخ خانقاه سعيد السُّعَدَاء ، فَأَخْرجهُ من الخانقاه ، وعَلى شمس الدِّين الْجَزرِي ، فَأَخْرجهُ من تدريس الشَّريفيَّة ، فَيُقَال : أَنَّ الآملي دخل الْخلْوَة بِمصْر أَرْبَعِينَ يَوْماً فَلم يخرج حتَّى زَالَت دولة بيبرس ، وخمل ذكر نصر ، وَأطلق ابْن تَيْمِية إِلَى الشَّام ، وافترق النَّاس فِيهِ شيعاً .

فَمنهمّ من نسبه إِلَىٰ التَّجسيم لما ذكر فِي العقيدة الحمويَّة والواسطيَّة وَغَيرهمَا من ذَلِك ، كَقَوْلِه : أَنَّ الْيَد ، والقدم ، والسَّاق ، وَالْوَجْه صِفَات حَقِيقِيَّة لله ، وَأَنَّه مستوٍ علىٰ الْعَرْش بِذَاتِهِ ، فَقيل لَهُ : يلْزم من ذَلِك التَّحيُّز والانقسام ، فَقَالَ : أَنا لَا أسلِّم أَنَّ التحيُّز والانقسام من خَواص الْأَجْسَام ، فألزم بِأَنَّهُ يَقُول بتحيُّز فِي ذَات الله .

وَمِنْهُم من ينْسبهُ إِلَىٰ الزَّندقة لقَوْله : أَنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُستغاث بِهِ ، وَأَنَّ فِي ذَلِك تنقيصاً ومنعاً من تَعْظِيم النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَانَ أَشدّ النَّاس عَلَيْهِ فِي ذَلِك النُّور الْبكْرِيّ ، فَإِنَّهُ لما عقد لَهُ الْمجْلس بِسَبَب ذَلِك ، قَالَ بعض الْحَاضِرين يُعَزَّر ، فَقَالَ الْبكْرِيّ : لَا معنىٰ لهَذَا القَوْل ، فَإِنَّهُ إِن كَانَ تنقيصاً يُقتل ، وَإِن لم يكن تنقيصاً لَا يُعَزَّر .

وَمِنْهُم من ينْسبهُ إِلَىٰ النِّفَـــاق لقَوْله فِي عَليٍّ مَا تقدَّم ، وَلقَوْلـــه : إِنَّه كَانَ مخذولاً حَيْثُ مَا توجَّه ، وَأَنَّه حاول الْخلَافَة مرَاراً فَلم ينلها ، وَإِنَّمَا قَاتل للرِّئاسة لَا للدِّيانة . وَلقَوْله : إِنَّه كَانَ يحبُّ الرِّئَاسَة ، وَأَنَّ عُثْمَان كَانَ يحبُّ المَال . وَلقَوْله : أَبُو بكر أسلم شَيخاً يدْرِي مَا يَقُول ، وَعليٌّ أسلم صَبيّاً ، وَالصَّبِيُّ لَا يَصحُّ إِسْلَامه علىٰ قَول ... ". انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ١٨٠-١٨٢) .

وقال الإمام محمَّد بخيت المطيـعي الحنفي (١٣٥٤هـ) مفتي الدِّيار المصريَّة : " ... ولَمَّا أن تظاهر قومٌ في هذا العصر بتقليد ابن تيمية في عقائده الكاسدة ، وتعضيد أقواله الفاسدة ، وبثِّها بين العامَّة والخاصَّة ، واستعانوا علىٰ ذلك بطبع كتابه المسمَّىٰ بالواسطيَّة ونشره ، وقد اشتمل هذا الكتاب علىٰ كثيرٍ ممَّا ابتدعه ابن تيمية مخالفاً في ذلك الكتاب والسُّنَّة وجماعة المسلمين ، فأيقظوا فتنةً كانت نائمة ". انظر : تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد (ص١٣) .

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن خليفة بن فتح الباب الحنَّاوي (١٣٦٤هـ) : " هذه المسائل التي يُثيرها اليوم جماعة أنصار السُّنَّة أُثيرت قديماً ، وفرغ العلماء من الرَّدِّ عليها ، وهم مُقلِّدون فيها لابن القيِّم وشيخه تقي الدِّين ابن تيمية وطوائف من الحنابلة ، والعجب لهؤلاء يقلِّدون نفراً من العلماء

انفردوا بمقالات وآراء وافقوا فيها الحشويَّة والكرَّاميَّة ، وخالفوا فيها جميع المسلمين سلفاً وخلفاً ... " . انظر : المشبِّهة والمجسِّمة (ص١٢-١٣) .

وبسبب مقالات ابن تيمية التي خالف فيها الأُمَّة ، شنَّع عليه العلماء حتَّىٰ حكم البعض بتكفيره ، ورفض الكثيرون نعته بشيخ الإسلام ، حتَّىٰ قال الإمام محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الْعَلَاء أَبُو عبد الله البُخَارِيّ العجمي الْحَنَفِيّ (٨٤١هـ) : " أنَّ من أطلق علىٰ ابن تيمية شيخ الإسلام ، فهو بهذا الإطلاق كافر " . انظر : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩/ ٢٩٢) .

والمعنىٰ : أنَّ من اطَّلع علىٰ أقواله واعتقاداته وطامَّاته ومخالفاته ... ومع ذلك وصفه بهذا اللقب فهو كافر ...

ومن طامَّاته التي ما سبقه إليها أحد من العالمين : تحريمه السَّفر لزيارة قبر سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال الإمام ابن حجر العسقلاني : " وَالْحَاصِل : أَنَّهم الزموا بن تيميه بِتَحْرِيم شدِّ الرَّحل إِلَىٰ زِيَارَةِ قَبْرِ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْكَرْنَا صُورَةَ ذَلِكَ ، وَفِي شَرْحِ ذَلِكَ مِنَ الطَّرَفَيْنِ طُولٌ ، وَهِيَ مِنْ أبشع الْمَسَائِل المنقوله عَن بن تَيْمِيَةَ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣/ ٦٦) .

فما قاله ابن تيمية كلام خطير لا يقوله إلَّا من كان في قلبه شيء من سيِّد ولد آدم عليه الصَّلاة والسَّلام ، مع أنَّ علماء الأمَّة أجمعوا علىٰ استحباب زيارة قبره الشَّريف ، وَأَنَّها فَضِيلَةٌ مُرَغَّبٌ فيها ، بأَبي هو وأُمِّي ، قال القاضي عياض : " وَزِيَارَةُ قَبْرِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُسْلِمِينَ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا ، وَفَضِيلَةٌ مُرَغَّبٌ فيها " . انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (٢/ ١٩٤) .

وقد نقل غير واحد من أهل العلم إجماع العلماء علىٰ استحباب زيارة قبره الشَّريف ، قال الدكتور البُوطي : " واعلم أنَّ زيارة مسجده وقبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من أعظم القُرُبات إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، أجمع علىٰ ذلك جماهير المسلمين في كلِّ عصر إلىٰ يومنا هذا .

لم يخالف في ذلك إلَّا ابن تيمية غفر الله له ، فقد ذهب إلىٰ أنّ زيارة قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مشروعة . ودليل ما أجمع عليه المسلمين من دونه عدَّة وجوه :

الوَجْهُ الأوَّلُ : مشروعيَّة زيارة القبور عموماً واستحبابها ، وقد ذكرنا فيما سبق أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يذهب كلّ ليلة إلىٰ البقيع يسلِّم علىٰ أهله ، ويدعو ويستغفر لهم ، ثبت ذلك في الصَّحيح . والأحاديث الثَّابتة في تفصيل ذلك كثيرة . ومعلوم أنَّ قبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل في عموم القبور ، فيسري عليه حكمها .

الوَجْهُ الثَّاني : ما ثبت من إجماع الصَّحابة والتَّابعين ومن بعدهم علىٰ زيارة قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والسَّلام عليه كلَّما مرُّوا علىٰ الرَّوضة الشَّريفة ، روىٰ ذلك الأئمَّة الأعلام وجماهير العلماء بمن فيهم ابن تيمية رحمه الله .

الوَجْهُ الثَّالثُ : ما ثبت من زيارة كثير من الصَّحابة قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، منهم بلال رضي الله عنه ، رواه ابن عساكر بإسناد جيِّد ، وابن عمر فيما رواه مالك في الموطَّأ ، وأبو أيُّوب فيما رواه أحمد ، دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم أيّ استنكار أو نقد لذلك .

الوَجْهُ الرَّابعُ : ما رواه أحمد رضي الله عنه بسند صحيح أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا خرج يودِّع معاذ بن جبل إلىٰ اليمن قال له : " يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَىٰ أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا، وَقَبْرِي " . أخرجه أحمد في المسند (٣٦/ ٣٧٦ برقم ٢٢٠٥٣) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح. أبو المغيرة: هو عبد القدوس بن الحجاج الخولاني، وصفوان: هو ابن عمرو بن هرم السَّكْسَكي. وأخرجه البزار في "مسنده" (٢٦٤٧) من طريق أبي المغيرة، بهذا الإسناد. ولم يذكر فيه قوله: "إن أولىٰ الناس بي ... إلخ" وزاد قوله: "لا تبك يا معاذ فإن البكاء من الشيطان" وستأتي هذه الزيادة بعد حديث. وأخرجه ابن حبان (٦٤٧) ، والطبراني في "الكبير" ٢٠/ (٢٤١) من طريق أبي المغيرة، به. وفيه: "إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنَّهم أولىٰ الناس بي، وإن أولىٰ الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا ... "

فكلمة (لعلَّ) تأتي في أعمّ الأحوال للرَّجاء ، وإذا دخلت (أن) علىٰ خبرها تمخَّضت للعرض والرَّجاء . فالجملة تنطوي بصريح البيان علىٰ توصية معاذ بأن يعرِّج عند رجوعه إلىٰ المدينة علىٰ مسجده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبره ليسلم عليه

إذا تبيَّن هذا ، فاعلم أنَّه لا وجه لما انفرد به ابن تيمية رحمه الله من دفع هذه الأوجه كلّها في غير ما دافع ، والقول بأنَّ زيارة قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمل غير مشروع ! ..

وجملة ما اعتمده ابن تيمية في ذلك ، قول رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " لا تشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصىٰ " ، وقوله : " لعنَ اللهُ اليهودَ ، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد " . أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٧٤ برقم ١٨٨٤) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. عبد الأعلىٰ: هو ابن عبد الأعلىٰ البصري السامي. وأخرجه عبد الرزاق (١٥٨٨) و (٩٧٥٤) و (١٥٩١٧) عن معمر، بهذا الإسناد. ومن طريق عبد الرزاق أخرجه أبو عوانة ١/ ٣٩٩، وابن حبان (٦٦١٩) . وأخرجه ابن سعد ٢/ ٢٥٨ عن الواقدي، والبخاري (٣٤٥٣) ، والنسائي ٢/ ٤٠-٤١ من طريق عبد إدله بن المبارك، كلاهما عن معمر، به. وأخرجه الدارمي ١/ ٣٢٦، والبخاري (٤٣٥) و (٤٤٤٣) و (٥٨١٥) ، ومسلم (٥٣١) ، والبيهقي في "السنن" ٤/ ٨٠، وفي "الدلائل" ٧/ ٢٠٣، والبغوي (٣٨٢٥) من طرق عن الزهري، به " . وقوله : " لا تجعلوا قبري عيداً " . أخرجه البزار (٢/ ١٤٧ برقم ٥٠٩) .

وليس في شيء من هذه الأحاديث الثَّلاثة ما يصلح أن يكون مستنداً لما انفرد به .

١- فقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " لا تُشدُّ الرِّحال ... " إلخ استثناء مُفرغ كما هو معلوم ، والمستثنىٰ منه محذوف ، وإنَّما يقدَّر المستثنىٰ من جنس المستثنىٰ منه ، وإلَّا كان استثناء منقطعاً ، وهو استثناء مجازي ، ولا يجوز إضمار المجاز إلَّا عند الضَّرورة التي لا تصلح معها الحقيقة .

فتقدير الحديث : لا تشدُّ الرِّحال إلىٰ المساجد إلَّا إلىٰ ثلاثة منها... إلخ ، فالمستثنىٰ منه هو المساجد ، والمعنىٰ أنَّ جميع المساجد في الفضل سواء ، إلَّا هذه المساجد الثَّلاثة ، فلا وجه لتفضيل بعضها علىٰ البعض في زيارة أو اعتكاف أو نحو ذلك . وعملاً بهذا الحديث قال الفقهاء : إنَّه لو نذر الاعتكاف وسمَّىٰ مسجداً معيَّناً غير هذه المساجد الثَّلاثة ، لم يجب عليه قصد ذلك المسجد بخصوصه ولم يسنّ ، بل يغنيه أن يعتكف في أي مسجد من مساجد الدُّنيا .

أمَّا حديثنا فهو عن زيارة قبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ، وهو ليس داخلاً لا في المستثنىٰ ولا في المستثنىٰ منه ، فالحديث بمعزل عن أيِّ إشارة إليه ، وهو كما لو قلت : لا يجوز أن تشدَّ الرِّحال إلىٰ زيارة الأرحام أو إلىٰ العلماء لنتعلَّم منهم ، لحديث : " لا تشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد... إلخ !! ..

ثمَّ إنَّنا نسأل بعد هذا : أفيفهم ابن تيمية من كلمة (شدّ الرِّحال) معناها الحقيقي ، أم المعنىٰ المجازي الذي هو القصد والعزم علىٰ الشَّيء ؟ فإن كان يفهم منها المعنىٰ الحقيقي ، فينبغي ألَّا تحرم

زيارة غير هذه المساجد الثَّلاثة من المساجد الأخرىٰ إلَّا إذا شدّ لذلك رحلاً ثمَّ مضىٰ إليه بواسطة الرَّحل ، قربت المسافة أو بعدت ، فإن سعىٰ إليه بوسيلة أخرىٰ غير شدِّ الرِّحال لم يعد ذلك حراماً ، وهل يقول عاقل بذلك ؟

وإن كان يفهم من الكلمة معناها المجازي - وإنَّما المعنىٰ المجازي لها هو الاتِّجاه إلىٰ الشَّيء لا يقصد غيره - فإنَّ عمَلَ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعارضه ويردُّه . فقد كان صلوات الله عليه يزور مسجد قباء في كلِّ أسبوع ، وفي رواية : " كلّ يوم سبت " ، وقد كان مسجد قباء خارج المدينة .

والخلاصة ، أنَّ المستثنىٰ منه في الحديث هو المساجد ، وزيارة الأرحام والقبور والأشخاص والمعالم غير داخلة في المستثنىٰ منه ، فلا شأن للحديث بها . ومعنىٰ الحديث : إنَّ أولىٰ المساجد بالاهتمام للتَّوجُّه إليها من مسافات بعيدة هذه المساجد الثَّلاثة .

٢- وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لعنَ اللهُ اليهودَ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد " ، لا شأن له بموضوع الزِّيارة إطلاقاً . إذ هو نهي عن اتِّخاذ قبور الأنبياء وما حولها مصلَّىٰ علىٰ نحو ما مرَّ بيانه قريباً ، تعلم هذا من قوله (مساجد) إذ المساجد أماكن الصَّلاة . ولو استقام أن يكون مجرَّد زيارة القبر اتخاذاً له مسجداً ، لكان من مقتضىٰ ذلك أن يكون النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جعل من البقيع كلِّه مسجداً له ، إذ كان يزوره دائماً .

٣- أمَّا قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تجعلوا قبري عيداً " ، فإنَّما معناه : لا تتَّخذوا لزيارة قبري وقتاً معيَّناً لا يُزار إلَّا فيه ، كما هو شأن العيد ، كما فسَّره بذلك الحافظ المنذري وغيره من علماء الحديث ، ولا مانع أن يُضاف إليه أيضاً النَّهي عن إظهار الصَّخب ، واللهو ، ومظاهر الزِّينة عنده ، علىٰ نحو ما يكون في الأعياد . أمَّا أن تدلَّ الكلمة علىٰ النَّهي عن زيارة قبره ، فإنَّها عن ذلك بمعزل ، وما كان النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينهىٰ النَّاس عن اتِّخاذ قبره عيداً بهذا المعنىٰ المزعوم ، ثمَّ يعمد هو فيتَّخذ من البقيع في كلِّ يوم عيداً ! ... " . انظر : فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة (ص٣٤٧-٣٤٩) .

وورد في الأثر : " أنَّ بلالاً رضي الله عنه رأىٰ في منامه النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال ؟ قال : فانتبه حزيناً ، وجاء خائفاً ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتىٰ قبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجعل يبكي عنده ويمرِّغ وجهه عليه . وأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما فجعل يضمُّهما ويقبِّلهما ، فقالا : يا بلال نشتهي أن نسمع أذانك الذي كنت تؤذِّن به لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السَّحر ، ففعل ، وعلا سطح المسجد فوقف موقفه الذي كان يقف فيه ، فلمَّا أن قال : الله أكبر الله أكبر ارتجَّت المدينة ، فلمَّا أن قال : أشهد أن لا إله إلَّا الله ازدادت رجَّتها ، فلمَّا أن قال : أشهد أنَّ محمداً رسول الله ، خرجن العواتق من خدورهنَّ ، وقالوا : بُعث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال : فما رؤي يوماً أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك اليوم "

. انظر : شرف المصطفىٰ (٣/ ١٩٦) ، تاريخ دمشق ، ابن عساكر ، (٧/ ١٣٧) .

والأثر صحَّحه غير واحد من العلماء ، منهم : الذَّهبي ، والسَّمهودي ، والشَّوكاني ، والصَّالحي ، والزّرقاني ...وغيرهم كثير . انظر : تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (٥/ ٧٧٣) ، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ (١/ ٣٥٥) ، نيل الأوطار (٥/ ١١٤) ، سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد (١٢/ ٣٥٩) ، شرح الزرقاني علىٰ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٥/ ٧١) ، بالترتيب .

وقد ذكر أهل العلم في كتبهم باباً خاصَّاً بعنوان : " فصلٌ في زيارة قبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ، ... وقد قام المتسلِّفة بتحريف هذا الفصل الموجود في بعض الكتب ككتاب " الأذكار " للإمام يحيىٰ بن شرف الدِّين النَّووي ، وذلك في طبعة دار الهدىٰ بالرِّياض سنة (١٤٠٩هـ) ، بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط الشَّامي ، حيث استبدلوا عنوان : " فصل في زيارة قبر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ليصبح بعنوان : " فصل في زيارة مسجد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مع حذف عدَّة أسطرٍ من أوَّل الفصل وأخره ، وكذا حذف قصَّة العُتبي التي ذكرها الإمـــام النَّووي بكـــاملها . وهذا عبثٌ واعتداء جائر علىٰ المؤلِّف وكتابه ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

مع العلم أنَّ عقلاء الحنابلة لم يشذُّوا في هذا الباب عن جمهور الأمَّة ... قال الإمام نصير الدِّين محمَّد بن عبد الله السَّامري الحنبلي (٦١٦هـ) في كتابه : " المستوعب " : " باب زيارة قبر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وإذا قدم مدينة الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استحبَّ له أن يغتسل لدخولها ، ذكره ابن البنَّا . ثمَّ يأتي مسجد الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول عند دخوله : بسم الله ، اللهمَّ صلِّ علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد ، وافتح لي أبواب رحمتك ، وكفَّ عني أبواب عذابك ، الحمد لله الذي بلَّغنا هذا المشهد ، وجعلنا لذلك أهلاً ، والحمد لله ربِّ العالمين . ويقدِّم رِجْله اليمنىٰ في الدُّخول ، ثمَّ يأتي حائط القبر ... وسئل أحمد رحمه الله عمَّن يتمسَّح بقبر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال : ما أعرف هذا ، أهل العلم كانوا لا يمسُّونه ، ويقومون ناحية فيسلِّمون ، وكذا كان ابن عمر يفعل... فيقف ناحية ، ويجعل القبر تلقاء وجهه ، والقبلة خلف ظهره ، والمنبر عن يساره ، ويقف ممَّا يلي طرف جدار القبر ممَّا يلي المنبر فيقول : السَّلام عليك يا رسول الله ، السَّلام عليك أيُّها النَّبي ورحمة الله وبركاته ، اللهمَّ صلِّ علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد – إلىٰ آخر ما يقوله في المشهد الأخير – اللهمَّ أعط محمَّدًا الوسيلة والفضيلة والدَّرجة الرَّفيعة ، والمقام المحمود الذي وعدته إيَّاه ، إنَّك لا تخلف الميعاد . اللهمَّ صلِّ علىٰ روحه في الأرواح ، وجسده في الأجساد ، كما بلَّغ رسالتك ، وتلا آياتك ، وصدع بأمرك حتَّىٰ أتاه اليقين . اللهمَّ إنَّك قلت في كتابك لنبيِّك عليه السَّلام : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء : ٦٤] ، وإنِّي قد أتيتك تائباً مستغفراً ، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته . اللهمَّ إنِّي أتوجَّه إليك بنبيِّك صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيّ الرَّحمـــة ، يا رسول الله ، إنِّي أتوجَّه بك إلىٰ ربِّي ليغفر لي ذنوبي . اللهمَّ إنِّي أسألك بحقِّه أن تغفر لي ذنوبي " . انظر : المستوعب (١/ ٥٢٤-٥٢٥) .

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) : " فَصْلٌ زِيَارَةُ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ، فَصْلٌ : وَيُسْتَحَبُّ زِيَارَةُ قَبْرِ النَّبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لِمَا رَوَىٰ الدَّارَقُطْنِيّ ، بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " مَنْ حَجَّ ، فَزَارَ قَبْرِي بَعْدَ وَفَاتِي ، فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي " . وَفِي رِوَايَةٍ : " مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي " . قال الأستاذ المحقِّق محمود سعيد ممدوح : أخرجه

الدارقطني في سننه (٢ / ٢٧٨) ، والدولابي في الكنى والأسماء (٢ / ٦٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣ / ٤٩٠) ، والخطيب في تلخيص المتشابه في الرسم (١ / ٥٨١) ، وابن الدبيثي في الذيل على التاريخ (٢ / ١٧٠) ، وابن النجار في تاريخ المدينة (ص ١٤٢) ، والعقيلي في الضعفاء (٤ / ١٧٠) ، وابن عدي في الكامل (٦ / ٢٣٥٠) ، والسبكي في شفاء السقام (ص ٢ – ١٤) جميعهم من طرق عن موسى بن هلال العبدي ، عن عبيد الله بن عمر وعبد الله بن عمر كلاهما عن نافع عن ابن عمر به مرفوعاً . وهذا الإسناد حسن سواء قال موسى بن هلال عن عبيد الله بن عمر أو عن أخيه عبد الله بن عمر أو عنهما . وقد صحَّحه عبد الحق الإشبيلي ، وصححه أو حسنه السبكي في شفاء السقام ، والسيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ، وآخرون ممَّن تأخروا عنه . وقد أعلَّ هذا الحديث بعللٍ لا يصح منها شيء لكن لا بد من ذكرها ثمَّ الجواب عليها بدون تكلف إن شاء الله تعالى ... انظر : رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة ، محمود سعيد ممدوح ، (ص٢٨٠) .

رَوَاهُ بِاللَّفْظِ الْأَوَّلِ سَعِيدٌ . حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ . وَقَالَ أَحْمَدُ ، فِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ قُسَيْطٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي ، إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِيِّ ، حتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ " . أخرجه أحمد في المسند (١٦/ ٤٧٧ برقم ١٠٨١٥) ، قال الأرنؤوط : " إسناده حسن، أبو صخر– وهو حميد بن زياد الخراط– حسن الحديث، روى له مسلم، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. حيوة: هو ابن شريح. وأخرجه أبو داود (٢٠٤١) ، والبيهقي ٥/ ٢٤٥ من طريق عبد الله بن يزيد المقرئ، بهذا الإسناد. وأخرجه الطبراني في "الأوسط" (٣١١٦) عن بكر بن سهل الدمياطي، عن مهدي بن جعفر الرملي، عن عبد الله بن يزيد الإسكندراني، عن حيوة بن شريح، به. وعبد الله بن يزيد الإسكندراني لم نجد له ترجمة، ولعله المقرئُ والمكي نفسه، وإنما وهم في نسبته شيخ الطبراني بكر بن سهل الدمياطي، أو شيخه مهدي الرملي، فكلاهما تكلم في حفظه، والله أعلم. وانظر ما سلف برقم (٨٨٠٤) . قال السندي: معنا: إلا أردُ عليه سلامه، لأن الله رد على روحي، حتَّى أقدر على رد سلامه عليه لذلك، ففيه حذف المعلَّل، وهو قوله: "أرد عليه سلامه" بإقامة علته مقامه. والحذف بإقامة العلة مقام المحذوف كثير، ومنه قوله تعالى:﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[فاطر: ٤] ، أي: فلا تحزن، فقد كذبت رسل من قبلك " .

وقال الإمام ابن تيمية : " وهذا الحديث على شرط مسلم " . انظر : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص٣٢٤) ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٩هـ .

وقال الإمام المناوي : " قال في الأذكار والرياض : إسناده صحيح وقال ابن حجر: رواته ثقات " . انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (٥/ ٤٦٧) ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثمَّ المناوي القاهري ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ .

وقال المحقق محمود سعيد ممدوح : " أخرجه أحمد (٢/٥٢٧) ، وأبو داود (٢/٢٩٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٤٥)، وفي حياة الأنبياء (ص١١) ، وفي الشعب (٢/٢١٧)، وأبو نعيم في أخبار

أصبهان (٢/ ٣٥٣) . جميعهم من طريق أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، إِلَّا رَدَّ اللهُ عليَّ رُوحِي حتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ " . أبو صخر حميد بن زياد قال عنه أحمد وابن معين: لا بأس به ، ووثقه الدارقطني ، وابن حبان ، وقال البغوي : مدني صالح الحديث . وقال ابن عدي : وهو عندي صالح الحديث ، ووثقه ابن شاهين . وضعفه يحيىٰ بن معين في رواية وكذا النسائي . وذكره الذهبي في جزء "من تكلم فيه ، وهو موثق" (ص٧٣) . ثم وثقه من اتفق الأئمة علىٰ قبول توثيقه والعمل بمقتضاه، فقد أخرج له مسلم في صحيحه . فالرجل حسن الحديث علىٰ الأقل ، فلا تلتفت لتشغيب ابن عبد الهادي، فإنه جعل الاختلاف في إسم وكنية الراوي سبباً لرد حديثه، ولو كان الاختلاف في الاسم والكنية سبباً لتضعيف الراوي لفتح باب جديد لتضعيف الرواة ، وعند ذلك فللعقلاء أن يقولوا : رحمة الله علىٰ الحديث وعلومه، فكم من راوٍ حتلف في اسمه وكنيته، وهو ثقة، وكم من راوٍ اتفق علىٰ إسمه وكنيته وهو ضعيف . والحاصل أن حميد بن زياد حسن الحديث . أما يزيد بن عبد الله بن قسيط فقد احتج به الجماعة ، ووثقه النسائي وبن حبان ، وابن عبد البر ، وغيرهم، وقال ابن معين : لا بأس به . فالحديث حسن بهذا الإسناد . والله أعلم " انظر : رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة (ص٣٥٥-٣٥٦) ، محمود سعيد ممدوح ، المكتبة الازهرية للتراث ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .

وَإِذَا حَجَّ الَّذِي لَمْ يَحُجَّ قَطُّ – يَعْنِي مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الشَّامِ – لَا يَأْخُذُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ، لِأَنِّي أَخَافُ أَنْ يَحْدُثَ بِهِ حَدَثٌ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْصِدَ مَكَّةَ مِنْ أَقْصَرِ الطُّرُقِ ، وَلَا يَتَشَاغَلَ بِغَيْرِهِ . وَيُرْوَىٰ عَنْ الْعُتْبِيِّ (٢٢٨هـ) ، قَالَ : كُنْت جَالِساً عِنْدَ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْك يَا رَسُولَ اللَّهِ ، سَمِعْت اللَّهَ يَقُولُ : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء : ٦٤] .

وَقَدْ جِئْتُك مُسْتَغْفِراً لِذَنْبِي ، مُسْتَشْفِعاً بِك إلَىٰ رَبِّي ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظُمُهُ ... فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ... فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ثُمَّ انْصَرَفَ الْأَعْرَابِيُّ ، فَحَمَلَتْنِي عَيْنِي ، فَنِمْت ، فَرَأَيْت النَّبِي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي النَّوْمِ ، فَقَالَ : يَا عُتْبِيُّ ، الْحَقْ الْأَعْرَابِيَّ ، فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ .

وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يُقَدِّمَ رِجْلَهُ الْيُمْنَىٰ ، ثمَّ يَقُولَ : بِسْمِ اللهَّ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهَّ ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ محمَّد وَعَلَىٰ آلِ محمَّد ، وَاغْفِرْ لِي ، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك . وَإِذَا خَرَجَ ، قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ . وَقَالَ : وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ . لِمَا رُوِيَ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَضِي اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهَّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَّمَهَا أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ ، إذَا دَخَلَتْ الْمَسْجِدَ . ثمَّ تَأْتِي الْقَبْرَ فَتُوَلِّي ظَهْرَكَ الْقِبْلَةَ ، وَتَسْتَقْبِلُ وَسَطَهُ ، وَتَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا النَّبي وَرَحْمَةُ اللهَّ وَبَرَكَاتُهُ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللهَّ ، وَخِيرَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَشْهَدُ أَنَّك قَدْ بَلَّغْت رِسَالَاتِ رَبِّك ، وَنَصَحْت لِأُمَّتِك ، وَدَعَوْت إلَىٰ سَبِيلِ رَبِّك بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَعَبَدْت اللهَّ حتَّىٰ أَتَاك الْيَقِينُ ، فَصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْك كَثِيراً ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى ، اللَّهُمَّ اجْزِ عَنَّا نَبِيَّنَا أَفْضَلَ مَا جَزَيْت أَحَداً مِنْ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَابْعَثْهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْته ، يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ محمَّد وَعَلَىٰ آلِ محمَّد ، كَمَا صَلَّيْت عَلَىٰ إبْرَاهِيمَ وَآلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَىٰ محمَّد وَعَلَىٰ آلِ محمَّد ، كَمَا بَارَكْت عَلَىٰ إبْرَاهِيمَ وَآلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ إنَّك قُلْت وَقَوْلُك الْحَقُّ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] . وَقَدْ أَتَيْتُك مُسْتَغْفِراً مِنْ ذُنُوبِي ، مُسْتَشْفِعاً بِك إلَىٰ رَبِّي ، فَأَسْأَلُك يَا رَبِّ أَنْ تُوجِبَ لِي الْمَغْفِرَةَ ، كَمَا أَوْجَبْتهَا لِمَنْ أَتَاهُ فِي حَيَاتِهِ ... " . انظر : المغني (٣/ ٤٧٨-٤٨٠) .

ومع كلِّ ما سبق بيانه ، أبىٰ ابن تيمية إلَّا أن يُشجِّع أتباعه ومريديه لهجران القبر الشَّريف ، فقد أرشدهم وأفتاهم بأنَّ السَّلام علىٰ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصَّلاة يُغنِيُّ عن الإتيان إلىٰ القبر للسَّلام عليه ، لأنَّ إتيانه بعد الصَّلاة مرَّة بعد مرَّة يُعتبر ذريعة لاتِّخاذه عيداً ووثناً يُعبد من دون الله تعالىٰ !!! وفي ذلك يقول ابن تيمية : " وَأَمَّا إتْيَانُ الْقَبْرِ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ اسْتَغْنَوْا عَنْهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ

فِي الصَّلَاةِ وَعِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ ، وَفِي إِتْيَانِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَرِيعَةً إِلَى أَنْ يُتَّخَذَ عِيداً وَوَثَناً " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤١٧).

ويحضرني في هذا المقام ما قاله أحد طلَّابي من المتسلِّفة ، حيث قال : " من فَضْلِ الله عليه أنَّه اعتمر ولم يزُرِّ قبر محمَّد " . نعم قبر محمَّد ، ولم يقل : صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، في الوقت الذي لا ينطقون فيه اسم ابن تيمية إلَّا وينعتونه بشيخ الإسلام ... فإلىٰ الله المشتكىٰ من قوم حُدثاء الأسنان ، سُفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البريَّة ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، غزيرو اللحية ، مقصِّرين الثِّياب ، محلِّقين الرُّؤوس ، يُحسنون القيل ويسيئون الفعل ، يدعون إلىٰ كتاب الله ، وليسوا منه في شيء ...

وفي كلامه السَّابق يزعم ابن تيمية ويفتري أنَّ المؤمنين قد استغنوا !!! عن إتيان القبر للسَّلام عليه بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ ، مع أنَّ وفود الحُجَّاج والمعتمرين تصل في كلِّ عام إلىٰ عشرات الملايين الذين يصرُّون علىٰ تكحيل عيونهم بإثمد رؤية قبر الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم ولن يستغنوا عن زيارته ، كما زعم وادَّعىٰ ابن تيمية ، ومعه سائر من يدَّعون السَّلفيَّة ...

ولم يكتف ابن تيمية بذلك ، بل تعدَّاه إلىٰ الزَّعم بأنَّه لا فائدة شرعيَّة في معرفة قبور الأنبياء ، لأنَّ معرفتها – كما زعم – سبيل للصَّلاة والدُّعاء عندها ... وفي ذلك يقول ابن تيمية : " وَلَكِنْ لَيْسَ فِي مَعْرِفَةِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَعْيَانِهَا فَائِدَةٌ شَرْعِيَّةٌ ، وَلَيْسَ حِفْظُ ذَلِكَ مِنْ الدِّين ، وَلَوْ كَانَ مِنْ الدِّين لَحَفِظَهُ اللهُ كَمَا حَفِظَ سَائِرَ الدِّين ، وَذَلِكَ أَنَّ عَامَّةَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ إِنَّمَا قَصْدُهُ الصَّلَاةُ عِنْدَهَا ، وَالدُّعَاءُ بِهَا ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٤٤).

فمن خلال النَّصِّ السَّابق نجد أنَّ ابن تيمية يدعو لشحن النَّاس كي لا يزوروا قبر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّه لا توجد ثمَّة فائدة من الزِّيارة ، لأنَّ الزَّائر لا يقصد بزيارته إلَّا البدع المنهيِّ عنها ، كما أنَّه لا فائدة شرعيَّة أيضاً في معرفة قبور الأنبياء بأعيانها ، وقد سبق له أن اعتبر زيارة قبر الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصية لا تُقصر فيها الصَّلاة ، بل إنَّ ابن تيمية لم يستحب أن يسكن أحد بجوار قبره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد قال : " وَلَا اسْتَحَبَّ هُوَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا أَحَدٌ

مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَلَا عُلَمَاءِ أُمَّتِهِ أَنْ يُجَاوِرَ أَحَدٌ عِنْدَ قَبْرٍ ، وَلَا يَعْكُفَ عَلَيْهِ ، لَا قَبْرِهِ الْمُكَرَّمِ وَلَا قَبْرِ غَيْرِهِ ، وَلَا أَنْ يَقْصِدَ السُّكْنَىٰ قَرِيباً مِنْ قَبْرٍ أَيَّ قَبْرٍ كَانَ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٣٤) ، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٢/ ٤٧) .

ويكفي في الرَّدِّ عليه أن نسوق ما رواه ابن حبَّان وغيره بسندهم عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ، قَالَ : أَتَىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيّاً فَأَكْرَمَهُ ، فقَالَ لَهُ : " ائْتِنَا " ، فَأَتَاهُ ، فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " سَلْ حَاجَتَكَ " ، قَالَ : نَاقَةٌ نَرْكَبُهَا ، وَأَعْنُزٌ يَحْلِبُهَا أَهْلِي ، فقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ " ؟

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهَّ ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ : " إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ، ضَلُّوا الطَّرِيقَ ، فقَالَ : مَا هَذَا ؟ فقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ : إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقاً مِنَ اللهَّ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّىٰ نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا ، قَالَ : فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ ؟ قَالَ : عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ ، فقَالَ : دُلِّينِي عَلَىٰ قَبْرِ يُوسُفَ ، قَالَتْ : حَتَّىٰ تُعْطِيَنِي حُكْمِي ، قَالَ : وَمَا حُكْمُكِ ؟ قَالَتْ : أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ : أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا ... " . أخرجه ابن حبَّان في الصحيح (٢/ ٥٠٠ برقم ٧٢٣) ، الهيثمي في موارد الظمآن إلىٰ زوائد ابن حبان (ص٦٠٣ برقم ٢٤٣٥) ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١٧٠ برقم ١٧٣٤٨ ، وقال : وَرِجَالُ أَبِي يَعْلَىٰ رِجَالُ الصَّحِيحِ) .

فالنَّصُّ السَّابق يردُّ علىٰ ما زعمه ابن تيمية من أنَّه لا فائدة في معرفة قبور الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، وقد وضَّح النَّصُّ وبرهن علىٰ أنَّ معرفة عجوز بني إسرائيل لقبر سيِّدنا يوسف عليه السَّلام تكفَّلت بدخولها الجنَّة ، كرامة لها من الله تعالىٰ ...

أمَّا عن عدم استحباب ابن تيمية مجاورة قبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذه مصيبة وطامَّة ، لأنَّ مجاورة الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي ممَّا تشرئب له قلوب محبِّيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال الخطيب البغدادي : " حَدَّثَنِي أَبُو يعلىٰ محمَّد بْن الحسين بْن محمَّد بْن الفراء الحنبلي ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو طاهر بْن أَبِي بكر ، قَالَ : حكىٰ لي والدي عَنْ رجل كان يختلف إِلَىٰ أَبِي بكر بْن مالك أنه قيل له : أين تحب أن تدفن إذا مت ؟ فقال : بالقطيعة ، وإن عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل مدفون بالقطيعة ،

وقيل له ، يَعْنِي لعبد الله ، في ذلك ، قَالَ : وأظنُّه كان أوصىٰ بأن يدفن هناك ، فقَالَ : قد صحَّ عندي أنَّ بالقطيعة نبيًّاً مدفوناً ، ولأن أكون في جوار نبي أحبّ إليَّ من أن أكون في جوار أَبِي " . انظر : تاريخ بغداد (١/ ٤٤٣) .

ويحضرني في هذا المقام قصيدة لمواطن يعيش بقُرب الحرم المدني ، صدر أمرٌ بإزالة بيته من جوار مسجد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتّوسعة ، فأنشد قصيدة مؤثِّرة يصف حاله ، وحُقّ له أن يبكي فراق جوار سيِّد الخلق محمّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... يقول شاعر المدينة المنّورة :

ولمّا رأيت الرّقــم فوق جدارها ... وأيقنت أنّ الهدم أصبح ساريا

بعثت إليكـــم بالبريد رسالتي ... وأرفقتها شرحاً عن الدّار وافيا

وأخليتها والعين تذرف دمعها ... والإبن يصرخ والبنـات بواكيا

فإن جـــاءت الآلات تهدم منزلي ... وأصبح بنياني علىٰ الأرض هاويا

فلا ترفعـــوا ذاك الرُكام بقسوة ... ستلقون قلبـي تحته كان باقيا

فمَن لي بجـار يشرح الصّدر ذكره ... ومَن لي بدار كان للخير دانيا

فإن كنت تبكي إن سمعت مصيبتي ... فإنّي سأبقىٰ طيلة العمر باكيا

سلامٌ علىٰ دار الرّسـول وأهلها ... فقدصرت بعد القُرب بالدّار نـائيا

وردّ عليه الشّاعر عبدالله عقلان ، فقال :

أيا صاحب الدّار التي جاء ذكرها ... بطيبة والأشـواق تهفو دوانيا

قرأت لـك الأبيـات حين رسلتها ... ففاضت دموع العين عبر القوافيا

فدارك يا هذا بوصفــك جنّة ... وقلبك فيها رغــم بعدك باقيا

ألا ليت من قاموا بهذا ترفّقوا ... وراعوا حنيناً في فؤادك خافيا

أما علموا أنّ القلـوب منازل ... وأعظمهـا ما كان لله صافيا

وما علموا أنّ الجوار معادن ... وجيرة خير الخلق أسمىٰ الأمانيا

ففي ذكره للنّفس أُنس وراحة ... وفي قربه تغلوا دياراً خواليــــا

فصلِّ وسلِّم يا إلٰهي علىٰ النَّبي محمَّد خير الخلق للنَّـــاس هاديا

ولـك أن تستغرب وتتعجَّب معي يا قارئي من تلامذة ابن تيمية ومحبِّيه ، حين صرَّحوا باستحباب مجاورة وزيارة قبر شيخهم ابن تيمية ، وفي ذلـك يقول أحدهم :

قد أودع الْقَبْرَ الشَّريف علومه عجباً لوسع الْقَبْر بحراً سَائِلاً

قد كَانَ لَا يحْتَـاج طَالب علمه كثر السُّؤَال وَلَيْسَ يلقىٰ سَائِلاً

قد كَانَ ركناً فِي المواعظ جملَـة بحراً عميقـاً إِن أردْت مسائلاً

وإذا رآك يكـــــون حقاً بادياً لَـك بِالسَّلَامِ مواردًا ومسائلاً

يَا ربّ فارحمه وبلَّ ثراه بالغيـ ـث الْكَرِيم معــاوداً ومواصلاً

يارب وَافْعل ذَا بِكُــل موادد ومجاور قبر الإِمَام مؤمّــــلاً

يارب وارحمنـــــا وكلّ مشيِّع صلىٰ عَلَيْهِ أَو أَتَاهُ مُقبـــــــلا

انظر : العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص٤٧١) .

وما معنىٰ أن يمنع ابنُ تيمية من الدُّعاء عند القبر الشَّريف ويعتبره بدعة ...

قال ابن تيمية : " وَلَا يَقِفُ عِنْدَ الْقَبْرِ لِلدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ ، فَإِنَّ هَذَا بِدْعَةٌ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ يَقِفُ عِنْدَهُ يَدْعُو لِنَفْسِهِ " .

وقال ابن تيمية في موضعٍ آخر : " بَلْ نَصَّ أَئِمَّةُ السَّلَفِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوقَفُ عِنْدَهُ لِلدُّعَاءِ مُطْلَقاً ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي " كِتَابِ الْمَبْسُوطِ " ، وَذَكَرَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ .

قَالَ مَالِكٌ : لَا أَرَىٰ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدْعُوَ ؛ وَلَكِنْ يُسَلِّمُ وَيَمْضِي " .

انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ١٤٧) ، (٢٧/ ١١٧) ،بالترتيب .

وقال أيضاً : " قصد القبور للدُّعاء عندها أو لها ، فإنَّ الدُّعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلىٰ نوعين :

أحدهما : أن يحصل الدُّعاء في البقعة بحكم الاتِّفاق ، لا لقصد الدُّعاء فيها ، كمن يدعو الله في طريقه ويتَّفق أن يمرَّ بالقبور أو من يزورها ، فيسلِّم عليها ، ويسأل الله العافية له وللموتىٰ ، كما جاءت به السُّنَّة ، فهذا ونحوه لا بأس به .

الثَّاني : أن يتحرَّىٰ الدُّعاء عندها بحيث يستشعر أنَّ الدُّعاء هناك أجوب منه في غيره ، فهذا النَّوع منهيٌّ عنه إمَّا نهي تحريم أو تنزيه ، وهو إلىٰ التَّحريم أقرب " .

وقال أيضاً : " وما أحفظ – لا عن صاحب ولا تابع ، ولا عن إمام معروف – أنَّه استحبَّ قصد شيء من القبور للدُّعاء عنده ، ولا روىٰ أحد في ذلك شيئاً ، لا عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ، ولا عن الصَّحابة ، ولا عن أحد من الأئمَّة المعروفين .

وقد صنَّف النَّاس في الدُّعاء وأوقاته وأمكنته ، وذكروا فيه الآثار ، فما ذكر أحد منهم في فضل الدُّعاء عند شيء من القبور حرفاً واحداً – فيما أعلم –، فكيف يجوز – والحال هذه – أن يكون الدُّعاء عندها أجوب وأفضل ، والسَّلف تنكره ولا تعرفه ، وتنهىٰ عنه ولا تأمر به " . انظر : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص٣٣٦-٣٣٧) ، (ص٣٦٨-٣٦٩)، بالترتيب .

ويقول أيضاً : " وَكَذَلِكَ لَمۡ يَكُنۡ أَحَدٌ مِنۡ أَصۡحَابِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَقۡصِدُ الدُّعَاءَ عِنۡدَ قَبۡرِ أَحَدٍ مِنۡ الۡأَنۡبِيَاءِ ؛ لَا قَبۡرِ نَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وَلَا قَبۡرِ الۡخَلِيلِ وَلَا غَيۡرِهِمَا. وَلِهَذَا ذَكَرَ الۡأَئِمَّةُ كَمَالِكٍ وَغَيۡرِهِ أَنَّ هَذَا بِدۡعَةٌ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١١٠) .

فابنُ تيمية يزعم فيما نقلنا عنه في النُّصوص السَّابقة أنَّ الوقوف للدُّعاء عند القبر الشَّريف بِدۡعَةٌ ، وَلَمۡ يَكُنۡ أَحَدٌ مِنۡ الصَّحَابَةِ يفعل ذلك ، ولَمۡ يَكُنۡ أَحَدٌ مِنۡ أَصۡحَابِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَقۡصِدُ الدُّعَاءَ عِنۡدَ قَبۡرِ أَحَدٍ مِنۡ الۡأَنۡبِيَاءِ ، وكذا لم يتحرَّىٰ أحدٌ منهم الدُّعاء عند أيٍّ من قبور الأنبياء ...

وتابع ابن تيمية في القول ببدعيَّة الدُّعاء عند القبر الشَّريف تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة الذي قال : " ومن المحال أن يكون دعاء الموتىٰ ، أو الدُّعاء بهم ، أو الدُّعاء عندهم ، مشروعاً وعملاً صالحاً ، ويصرف عنه القرون الثَّلاثة المفضَّلة بنصِّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيۡهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، ثمَّ يرزقه الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون .

فهذه سُنَّة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم في أهل القبور بضعاً وعشرين سنة ، حتَّىٰ توفَّاه الله تعالىٰ ، وهذه سُنَّة خلفائه الرَّاشدين ، وهذه طريقة جميع الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان ، هل يمكن بشر علىٰ وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح ، أو حسن ، أو ضعيف ، أو منقطع : أنَّهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها ، وتمسَّحوا بها ، فضلاً أن يُصلُّوا عندها ، أو يسألوا الله بأصحابها ، أو يسألوهم حوائجهم .

فليوقفوا علىٰ أثر واحد : أو حرف واحد من ذلك ، بلىٰ ، يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك ، وكلَّما تأخَّر الزَّمان وطال العهد ، كان ذلك أكثر ، حتَّىٰ لقد وجد في ذلك عدَّة مصنَّفات ليس فيها عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، ولا عن خلفائه الرَّاشدين ، ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك ، بلىٰ فيها من خلاف ذلك كثير " . انظر : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٢٠٢-٢٠٣) .

والغريب في الأمر أنَّ ابن تيمية تناقض مع نفسه في هذه المسألة ، فذكر أنَّ المؤمن قد يقصد بعض الأماكن للصَّلاة فيها أو للدُّعاء لما يحسُّه في داخله من الخشوع واجتماع القلب فيها دون غيرها من الأماكن ، فقال : " والمؤمن قد يتحرَّىٰ الصَّلاة أو الدُّعاء في مكان دون مكان لاجتماع قلبه فيه وحصول خشوعه فيه ، لا لأنَّه يرىٰ أنَّ الشارع فضَّل ذلك المكان كصلاة الذي يكون في بيته ونحو ذلك .

فمثل هذا إذا لم يكن منهيَّاً عنه لا بأس به ، ويكون ذلك مستحبَّاً في حقِّ ذلك الشَّخص لكون عبـــــادته فيه أفضل ، كما إذا صلَّىٰ القوم خلف إمام يحبُّونه كانت صلاتهم أفضل من أن يصلُّوا خلف من هم له كارهون " . انظر : الإخنائية (أو الرد علىٰ الإخنائي) (ص٣٠٧) .

وعلىٰ كلِّ حال فابن تيمية يعتبر الدُّعاء عند القبر الشَّريف بدعة ، وكلامه في هذا الباب باطل عاطل ، تردُّه الرِّوايات الصَّحيحة الصَّريحة عن الصَّحابة الكرام ، وأنَّهم فعلوا وتحرَّوا ما اعتبره ابن تيمية بدعة .

بل إنَّ ابن تيمية ذكر في كتابه الاقتضاء ، فقال : " وذكر أبو علي الخرقي في قصص من هجره أحمد : أنَّ بعض هؤلاء المهجورين كان يجيء إلىٰ عند قبر أحمد ويتوخَّىٰ الدُّعاء عنده ، وأظنُّه ذكر ذلك المروزي . ونقل عن جماعات بأنَّهم دعوا عند قبور جماعات من الأنبياء والصَّالحين من أهل البيت وغيرهم فاستجيب لهم الدُّعاء ، وعلىٰ هذا عمل كثير من النَّاس .

وقد ذكر المتأخِّرون المصنِّفون في مناسك الحج إذا زار قبر النَّبي صلَّىٰ الله عليه و سلَّم ، فإنَّه يدعو عنده .

وذكر بعضهم : أنَّ من صلَّىٰ عليه سبعين مرَّة عند قبره ودعا استجيب له ، وذكر بعض الفقهاء في حجَّة من يجوِّز القراءة علىٰ القبر : أنَّها بقعة يجوز السَّلام والذِّكر والدُّعاء عندها ، فجازت القراءة عندها كغيرها .

وقد رأىٰ بعضهم منامات في الدُّعاء عند قبر بعض الأشياخ وجرّب أقوام استجابة الدُّعاء عند قبور معروفة كقبر الشَّيخ أبي الفرج الشِّيرازي المقدسي وغيره .

وقد أدركنا في أزماننا وما قاربها من ذي الفضل عند النَّاس علماً وعملاً من كان يتحرَّىٰ الدُّعاء عندها ، والعكوف عليها ، وفيهم من كان بارعاً في العلم ، وفيهم من له عند النَّاس كرامات " . انظر : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص٣٤٢) .

ويؤكِّد ما ذكره ابن تيمية هنا ما جاء في صحيح البخاري : " حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي اللَّيْثُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيُّ ، أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي ، وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الأَمْطَارُ سَالَ الوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ ، وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي ، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّىٰ .

قَالَ : فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ " ، قَالَ عِتْبَانُ : فَغَدَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّىٰ دَخَلَ البَيْتَ ، ثمَّ قَالَ : " أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ " .

قَالَ : فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ ، فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثمَّ سَلَّمَ ... " . أخرجه البخاري (١/ ٩٢ برقم ٤٢٥) ، مسلم (١/ ٤٥٥ برقم ٣٣) .

فهذا الصَّحابي الجليل رضي الله عنه دعا النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ بيته ليصلِّي فيه كي يتبرَّك بالموضع الذي صلَّىٰ فيه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ، وقد أجابه الرَّسول إلىٰ دعوته ولم ينكر عليه.....

قال الإمام ابن بطَّال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (٤٤٩هـ) في كلامه علىٰ الحديث السَّابق : " قال المهلَّب : وفيه التبرُّك بمصلَّىٰ الصَّالحين ومساجد الفاضلين . وفيه : أنَّه من دُعي من الصَّالحين إلىٰ شيء يتبرَّك به منه ، فله أن يجيب إذا أمن الفتنة من العجب " . انظر : شرح صحيح البخاري (٢/ ٧٧) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " وَفِي حَدِيثِ عِتْبَانَ هَذَا فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ ... وَمِنْهَا : التَّبَرُّكُ بِالصَّالِحِينَ ، وَآثَارِهِمْ ، وَالصَّلَاةُ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي صَلَّوْا بِهَا ، وَطَلَبُ التَّبْرِيكِ مِنْهُمْ " . انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ١٦١) .

وقال الإمام ابن حجر أبو العسقلاني (٨٥٢هـ) في شرحه للحديث : " ... وَفِيهِ التَّبَرُّكُ بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي صَلَّىٰ فِيهَا النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ وَطِئَهَا ، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ : أَنَّ مَنْ دُعِيَ مِنَ الصَّالِحِين ليتبرَّك بِهِ أَنه يُجيب إِذَا أَمِنَ الْفِتْنَةَ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٥٢٢) .

وروىٰ الشَّيخان بسندهما عن يزيد بن أبي عبيد ، قال : كنت آتي مع مسلمة بن الأكوع ، فيصلِّي عند الاسطوانة التي عند المصحف ، فقلت : يا أبا مسلم ، أراك تتحرَّىٰ الصَّلاة عند هذه الأسطوانة ؟ قال : فإنِّي رأيت النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحرَّىٰ الصَّلاة عندها . أخرجه البخاري (١/ ١٠٦ برقم ٥٠٢) ، مسلم (١/ ٣٦٤ برقم ٥٠٩) ، أحمد في المسند (٤/ ٤٨ برقم ١٦٦٣١) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٣٨٥ برقم ٣٤٧١) .

قال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " وفي هذا أنَّه لا بأس بإدامة الصَّلاة في موضع واحد إذا كان فيه فضلٌ " . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٢٦) .

قلت : وهل هناك فضلٌ أعظم من أن يُلامس الإنسان بحرِّ وجهه مكاناً مَّسه وجهُ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يتبرَّك بذلك ...؟

قال الحافظ ابن حجر (٨٥٢هـ) : " والأسطوانة المذكورة حقَّق لنا بعض مشايخنا أنَّها المتوسّطة في الرَّوضة المكرَّمة ، وأنَّها تُعرف باسطوانة المهاجرين ، قال : وروي عن عائشة : أنَّها كانت تقول : لو عرفها النَّاس لاضطربوا عليها بالسِّهام . وأنَّها أسرَّتها إلىٰ ابن الزُّبير ، فكان كثير الصَّلاة عندها . ثمَّ وجدتُ ذلك في تاريخ المدينة لابن النَّجار ، وزاد : أنَّ المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها " . انظر : فتح الباري (١/ ٥٧٧) .

قلت : ولا يكون الاضطراب عليها والاجتماع عندها من قِبل النَّاس إلَّا لطلب بركة ذلك الموضع الذي كان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثرُ من الصَّلاة فيه .

قال الحافظ ابن حجر (٨٥٢هـ) : " ومحصَّل ذلك أنَّ ابن عمر كان يتبرَّك بتلك الأماكن ، وتشدُّده في الاتِّباع مشهور ، ولا يُعارض ذلك ما ثبت عن أبيه أنَّه رأىٰ النَّاس في سفر يتبادرون إلىٰ مكان فسأل عن ذلك ، فقالوا : قد صلَّىٰ فيه النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال : من عرضت له الصَّلاة فليصلِّ وإلَّا فليمض ، فإنَّما هلك أهل الكتاب لأنَّهم تتبَّعوا آثار أنبيائهم فاتَّخذوها كنائس وبيعاً ، لأنَّ ذلك من عمر محمولٌ علىٰ أنَّه كره زيارتهم لمثل ذلك بغير صلاة أو خشي أن يشكل ذلك علىٰ من لا يعرف حقيقة الأمر فيظنّه واجباً ، وكلا الأمرين ، مأمون من ابن عمر .

وقد تقدَّم حديث عتبان وسؤاله النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أن يصلِّي في بيته ليتَّخذه مصلَّىٰ وإجابة النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ ذلك ، فهو حجَّة في التَّبرُّك بآثار الصَّالحين " . انظر : فتح الباري (١/ ٥٦٩) .

وروىٰ أحمد ، والنَّسائي ، وغيرهما بسندهم عن عاصم الأحول عن أبي مجلز أنَّ أبا موسىٰ كان بين مكَّة والمدينة ، فصلَّىٰ العشاء ركعتين ثمَّ قام فصلَّىٰ ركعة أوتر بها فقرأ بمائة أية من النِّساء ثمَّ قال : ما

ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدميه ، وأنا أقرأ بها قرأ به رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣١٩ برقم ١٩٩٩٨) ، النسائي في السنن الكبرىٰ (١/ ٤٤٦ برقم ١٤٢٤) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ٣٧ برقم ٤٧٨٨) ، الطيالسي في المسند (١/ ٤١٣ برقم ٥١٤) .

فقد روىٰ مالك وغيره بسندهم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ ؛ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقِفُ عَلَىٰ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيُصَلِّي عَلَىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ . أخرجه مالك (٢/ ٢٣١ برقم ٥٧٤) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٥/ ٤٠٣ برقم ١٠٢٧٢) .

وروىٰ الطَّبراني وغيره بسندهم عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ ، قَالَ : رَأَيْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ عِنْدَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ يَدْعُو ، فَجَاءَ مَرْوَانُ فَأَسْمَعَهُ كَلاماً ، فَقَالَ أُسَامَةُ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٦٦ برقم ٤٠٥) ، الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٤/ ١٠٥ برقم ١٣١٦) .

وروىٰ البيهقيُّ بسنده عن عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِيبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : " رَأَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَتَىٰ قَبْرَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَقَفَ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ افْتَتَحَ الصَّلاَةَ ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ انْصَرَفَ " . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٣ برقم ٣٨٦٧) .

وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْن

فِهْرِسُ المَوْضُوْعَات